

470 يوم

غزة

رواية

سنتياغو بوستيغيو

روما هي أنا

ترجمة:

اية حسين علي

مكتبة



انضم ل مكتبة .. اصحح الكور

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

روما هي أنا

سنتياغو بوستيغويو

Author: Santiago Posteguillo

Roma soy yo

© Copyright

Translated from English by:
Aya Hussien Ali

Book Design:
Sarwar Murad

Cover illustration:
Meshari Al-Ubayed

ترجمها عن الإنجليزية:
أية حسين علي

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

لوحة الغلاف:
مشاري العبيد

الطبعة الأولى | أغسطس 2024

ISBN: 978-9921-712-85-8

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

1525-2024

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتياس باللغة العربية محفوظة للناشر

© Alkhan Publishing & Distribution



دار الخان للنشر والتوزيع

+965 99462291 / +965 51088000

@DarAlkhan_kw

info@daralkhan.com

2025 1 21 مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

روما هي أنا

القصة الحقيقية ليووليوس قيصر

سنتياغو بوستيغيو

رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمة

آية حسين علي



2024

Author: Santiago Posteguillo

Roma soy yo



2024

إهداء المؤلف

إلى ابنتي إلسا
هي نهاري وليلي
وإلى ألبا
التي بها أشرق من جديد

«إن الجبناء ليموتون مرارًا قبل آجالهم، أما الشجعان فلا يذوقون الموت إلا مرة واحدة».

ويليام شكسبير، مسرحية يوليوس قيصر، الفصل الأول،
المشهد الثاني.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشخصيات الدرامية:

يوليوس قيصر:

غايسوس يوليوس قيصر: محامي وأطربون عسكري.

عائلته:

أوريليا: الأم.

كورنيليا: الزوجة.

كوتا (أوريليو كوتا): الخال.

جوليا الكبرى: شقيقته الكبرى.

جوليا الصغرى: شقيقته الصغرى.

يوليوس قيصر الأب.

ماركو أنطونيو غنبيهو: معلم قيصر.

قادة حزب الأوبتيميتس:

كراسوس (ماركوس لينيكوس كراسوس): أحد الأعضاء الشباب في المجلس.

دولابيل (سنو كورنيلوس دولابيل): قنصل.

ميتيلوس نوميديكو (كوينتوس كايسيلوس ميتيلوس نوميديكو): أحد زعماء الأوبتيميتس.

ميتيلوس بيوس (كوينتوس كايسيلوس ميتيلوس بيوس): أحد زعماء الأوبتيميتس.

بومبيوس (غالينوس بومبيوس): قاضي وعضو في المجلس.
سولا (لوسوس كورنيليوس سولا): زعيم وديكتاتور روماني.
لوكلوس (لوسوس ليسينيوس لوكولوس): قسطنطين في الشرق.
ثيرموس (كويتوس مينوسيوس ثيرموس): قائد حصار ليسبوس.
كويتوس (كويتوس بيوس): أحد زعماء الأوبتميتس.
أوكتافيوس (نياس أوكتافيوس): قنصل.
كويتوس لوتاسيو كاتولوس (كاتولوس): قنصل.

قادة حزب البيولاريس (الفصيل الشعبي):

كينا (لوكيوس كورنيليوس كينا): زعيم حزب الشعب، ووالد كورنيليا.
لاينوس (تيتوس لاينوس): صديق شخصي ليوليوس قيصر وأطربون
عسكري.
ماريوس (غايوس ماريوس): زعيم حزب البيولاريس، زوج عمه
يوليوس قيصر.
غلاوسيا (غايوس سرفيليوس غلاوسيا): بريطور.
سرتوريوس (كويتوس سرتوريوس): الرجل الثاني في جيش ماريوس،
وقائد الحرب السرتورية.
غراكوس (غايوس غراكوس): منبر الشعب.
ساتورنينوس (لوسوس أبوليوس ساتورنينوس): منبر الشعب.
روفوس (بوبليوس سوليسيوس روفوس): منبر الشعب.
كربون (سنيو بايريوس كربون): قاض.
ماركوس أميليوس لييدوس (لييدوس): قنصل.

رجال كينا:

فلاكوس (لوسوس فاليريوس فلاكوس): قنصل.
فيمبريا (غايوس فلافيوس فيمبريا): قائد عسكري.

المواطنون المقدونيون (جميعهم من النبلاء):

أوروبوس: زعيم الطبقة الأرستقراطية، ووالد ميرتل.
هيرودس أرخيلاوس: مناضل مقدوني.
أورستس: حكيم مقدوني.
بيرديكاس: مناضل مقدوني، وخطيب ميرتل.

شخصيات أخرى:

شيشرون (ماركوس توليوس سيسرو): محام وعضو في المجلس.
مانيوس أسيليوس غلابريوس: صهر سولا.
أهنوباربوس: قائد المدربين العسكريين في جيش ماريوس.
آنيا: والدة كورنيليا.
إيميليا: ابنة زوجة سولا.
ماركوس: مهندس روماني.
هورتنسيوس: محام.
كلاوديوس مارسيلوس: أطربون.

مرحلة الطفولة المبكرة

جلست الأم تهدهد ابنها وهي تحدّثه: تذكر دائماً أصولك منذ نشأة سلسلة عشيرة جوليا، عائلة والدك، كما أنني، أمك، أنحدر من عائلة عريقة، عشيرة أوريليا، التي يرتبط اسمها باسم الشمس، لكن دمي اختلط بدم والدك، وعائلتك يا بني هي الأكثر نبلاً وتميزاً في روما كلها.

سأحكى لك الحكاية من أولها؛ أحبت الإلهة أفروديت الراعي الفقير أنتشيسيس وأنجبا بطل طروادة، إينياس، وبعدهما جُرح بسبب النيران التي أشعلها الإغريق، قرر الهرب من المدينة بصحبة والده وزوجته كوريوسا وابنتهما إسكانيوس، الذي نسميه نحن في روما إيولوس. وفي أثناء الرحلة الشاقة من آسيا البعيدة إلى إيطاليا التي أرادوا المكوث فيها، فقد والده وزوجته، وهناك تمكن إيولوس، ابن إينياس، من تأسيس مدينة "ألبا لونغا" وسط إيطاليا. وبعد سنوات طويلة أنجبت الأميرة ريا سيلفيا وإله الحرب، مارس، التوائم رومولوس وريموس، والأول هو من أسس روما ومن هنا بدأت الحكاية. عائلتك يا صغيري تنتسب بشكل مباشر إلى إيولوس، ومن اسمه اشتق لقبها "عشيرة جوليا".

في هذا العالم، الذي تخطو فيه أنت أولى خطواتك، يحتل النبلاء أغلبية مقاعد مجلس الشيوخ، بعضهم أغنياء للغاية، استطاعوا تعزيز ثرواتهم خلال آخر سنوات النهضة في روما، ولهذا السبب يتم اختيارهم واعتبارهم الصفوة، كما لو كانوا منزّلين من قبل الآلهة. إنهم يشعرون بأنهم يستحقون الحصول على كل ما يريدونه، وأن الأولوية لهم دائماً، وقبل باقي أفراد الشعب، وقبل حتى سكان المناطق الإيطالية المتحالفة مع روما، وهؤلاء ينتمون إلى حزب الأوبتيميتس، أي النخبة. لكن يا بني، عائلتك فقط هي التي تنحدر بشكل مباشر من نسب إيولوس، ابن إينياس، وأنت، أنت فقط خلقت من مضغة مزجت دم فينوس ودم مارس.

أنت مميز، أنت فقط يا صغيري، أنت الوحيد، أدعو فينوس ومارس أن يحمياك، وأن يرشداك في أوقات السلم وأوقات الحرب، لأنك سوف تعيش

الكثير من الحروب يا بني. هذا هو قدرك، ليتك تصبح حينها شديد القوة مثل الإله مارس، وأكثر قدرة على إحراز النصر بنفس قدرة فينوس. تذكر دائمًا، يا بني: قوة روما تكمن بداخلك أنت؛ روما هي أنت.

هكذا ظلت أوريليا تكرر على مسامع الطفل، الذي لا يزال رضيعًا، تلك القصة مرة تلو الأخرى، وكأنها ترنيمة صلاة. لذا؛ وربما حدث ذلك دون أن تدري هي، تغلغلت كلماتها إلى أعماق عقل الصغير، حتى لازمته طوال حياته، حفظت في ذاكرته، سُجّلت وكأنها نقش على حجر، أصبحت جزءًا من تكوينه، وبها تحدد مصير يوليوس قيصر، إلى الأبد.

خلفية تاريخية

غرب البحر المتوسط، القرن الأول والثاني قبل الميلاد

روما تواصل نموها بلا حدود...

بعد سقوط الإمبراطورية القرجانية، شكلت الإمبراطورية الرومانية قوة فرضت سيطرتها على الدول المطلة على البحر المتوسط من الناحية الغربية، وأصبحت هي المتحكمة في مصائر هسبانيا وصقلية وسردينيا والعديد من مناطق شمال إفريقيا، فضلاً عن السيطرة على إيطاليا بأكملها، وانصبّت أعينها بشغف نحو الشمال، أي بلاد الغال من ناحية، ومن ناحية أخرى نحو الشرق؛ أي اليونان ومقدونيا.

نتج عن هذا النمو الهائل إثراء خزائن الدولة الرومانية، لكن توزيع الثروات والأراضي لم يكن عادلاً؛ إذ سيطرت مجموعة مكونة من عدد ضئيل من العائلات الأرستقراطية يحتل أفرادها مناصب بارزة في مجلس الشيوخ على معظم الثروات. تفاقم الأمر عامًا بعد عام، بينما لم تحظ الأغلبية العظمى من سكان روما والمزارعين في القرى المجاورة بدعوة للمشاركة في تلك الوليمة الزاخرة بالثروات والمناصب البارزة، لذا؛ بقيت الأراضي تحت سيطرة كبار الملاك، والذهب والفضة والعبيد من نصيب العائلات الأرستقراطية الثرية التي تحتكر الثروة والسلطة.

هذا القدر الهائل من عدم المساواة أشعل صراعًا داخليًا، وقد طالبت جمعية العوام (مجلس الشعب الروماني)، بقيادة أبرز أعضائها من المدافعين عن حقوق الشعب، مجلس الشيوخ بتوزيع أكثر إنصافًا للسلطة والثروة، بينما طالب من هم أكثر جرأة بإعادة توزيع الأراضي، وكان أبرزهم تيبيريوس سمبرونيوس غراكوس حفيد شيبون الإفريقي، الذي اختير ليصبح محاميًا

عن حقوق الشعب (منبرًا للعوام). وفي عام ١٣٣ قبل الميلاد دعا لإصدار قانون لإعادة توزيع الأراضي، لكن مجلس الشيوخ أرسل عشرات القتلة، أجهزوا عليه وسط ساحة الكابيتول، وواصلوا ضربه بالمطرقة في وضح النهار حتى فارقت روحه الجسد، ثم أُلقيت جثته في نهر التيبر، ولم يحتضنها الشرى.

بعد ١٢ عامًا، خلفه أخوه، غايوس، الذي انتخب أيضًا منبرًا للعوام، وعاد للترويج لنفس الإصلاحات التي دعا لها شقيقه. ومن أجل التصدي له، أصدر مجلس الشيوخ لأول مرة "مرسوم الدفاع عن روما"، الذي بموجبه منح أعضاؤه قادته، قناصل روما، سلطة اعتقال أو إعدام غايوس غراكوس وكل من يروج لإصلاحات مماثلة من العوام، وعندما وجد غايوس نفسه محاطًا بالقتلة من أعضاء مجلس الشيوخ والقناصل، طلب من أحد العبيد أن يقتله، كي لا يسقط قتيلاً على يد أحد من الأعداء.

وهكذا انجذب كثيرون من المؤيدين للإصلاحات إلى حزب العوام (السيبولاريس)، وناضلوا من أجل منح مطالبات الأخوين غراكوس الشرعية، بينما شكّل أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر تشددًا، ما عرف بـ"حزب الأوبتيميتس" أي حزب الصفوة، واعتبروا أنفسهم متفوقين على بقية أفراد الشعب. وهكذا انقسمت روما رسميًا إلى قسمين في شقاق ليس له نهاية.

ثم، وبالتزامن مع التوسعات العسكرية، ظهر طرف ثالث؛ وهم الحلفاء، وهؤلاء يقصد بهم سكان المدن الإيطالية المتحالفة مع روما، الذين بدؤوا يولون سياسات روما الداخلية اهتمامًا، لأنهم رأوا كيف يتأثر مستقبلهم بالقرارات التي تتخذها سلطات روما، دون أن توضع مصالحهم في الحسبان، لذلك بدؤوا يطالبون بالحصول على الجنسية الرومانية، وما يترتب عليها مثل الحق في التصويت والمشاركة في اتخاذ القرارات التي تلقي بظلالها عليهم.

وفي كل مرة، ينتهي الأمر بجمعية الشعب إلى انتخاب منابر جدد للعوام، ليواصلوا بدورهم الترويج للإصلاحات التي دعا لها الأخوان غراكوس قبل

سنوات. بينما، وعلى الجانب الآخر، يواصل أعضاء مجلس الشيوخ الاتفاق مع قتلة مسلحين لإبادتهم جميعًا، لتبقى روما منقسمة إلى: العامة والصفوة والحلفاء.

ثم يظهر شاب روماني، لم يمنعه كونه من عائلة نبيلة من التعاطف مع مطالبات عامة الشعب والحلفاء، يدرك أن هناك طرفًا رابعًا على الساحة، لم ينتبه له أحد من قبل، إنهم سكان المقاطعات التي انضمت حديثًا للإمبراطورية الرومانية من خارج إيطاليا، بداية من هسبانيا ووصولًا إلى اليونان ومقدونيا، ومن جبال الألب إلى إفريقيا، ويرى أن الأمور يجب أن تتغير، لكن عمره كان لا يزال يبلغ ٢٣ عامًا فقط، وليس له من يدعمه، حتى تقرر محاكمة أحد الفاسدين، عام ٧٧ قبل الميلاد. ورغم حداثة سنه وافق على الدفاع ببسالة عن حق الطرف الأضعف، ليصبح موجه الاتهام في قضية فساد السناتور النافذ سنيو كورنيليوس دولابيللا، الذي لا يتقي مأثمًا ولا يهاب منكرًا، الذراع اليمنى لزعيم الأوبتيميتس داخل مجلس الشيوخ، لوسيوس كورنيليوس سولا، وقد وجهت له اتهامات بالفساد وارتكاب جرائم أخرى أثناء فترة حكمه لمقدونيا.

تشكلت هيئة المحكمة، من قضاة جميعهم أعضاء في مجلس الشيوخ عن حزب الأوبتيميتس. وفقًا لقوانين سنها سولا التي تنص على عدم الفصل بين القضاء ومجلس الشيوخ، وكانوا جميعًا عازمين على تبرئة دولابيللا. كما تعاهد المتهم مع اثنين من أفضل المحامين في ذلك الوقت، هما؛ هورتينسيوس وأوريليو كوتا، ولعله لهذا السبب، لم يوافق شخص آخر على الدفاع عن المقدونيين والتورط في قضية خاسرة قبل أن تبدأ، ولا يمكن أن يقبل بذلك إلا مجنون أو متوهم.

أما دولابيللا، فعندما علم بهوية محامي المقدونيين، شعر بالارتياح وأقام الاحتفالات والمآدب، وجلس ينتظر المحاكمة وهو على يقين من أنه سيخرج منها مبرأً، ودون أدنى قدر من المشقة.

كان ذلك المحامي، الشاب عديم الخبرة، هو غايوس يوليوس قيصر.

المحاكمة (١)

الاتفاق مع محامٍ روماني

لم يكن القانون الروماني يسمح لشخص غير روماني بمقاضاة مواطن يحمل الجنسية الرومانية بشكل مباشر، لذا، فإذا ما اقتضت الحاجة اللجوء إلى العدالة، عليه اتباع نظام (Petitio) وهو مصطلح روماني يعني؛ الاتفاق مع مواطن روماني يتبنى عرض قضيته أمام هيئة المحكمة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قرار قيصر

منزل عائلة جوليا، حي سوبورا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

"كل من حاولوا فعل ذلك من قبل كان مصيرهم الموت، إن تلك المحاولة تمهد الطريق إلى الهلاك، يجب ألا تفعل، لن تستطيع، ذلك العرض أشبه بدعوة إلى الانتحار". هكذا تحدث تيتوس لابينوس بحدة، بشغف شخص يحاول إقناع صديقه بألا يرتكب أعظم خطأ في حياته، وأضاف:

"لا يمكنك تغيير العالم يا غايوس، هل عليّ تذكيرك بأسماء من قضوا وهم يحاولون مواجهة مجلس الشيوخ، سوف يظنون هم الحكام دائماً وإلى الأبد، ليس ثمة فرصة لتغيير أي شيء، إما أن تنضم إلى صفوفهم أو تبتعد عنهم ولا تقربهم أبداً، ليس ثمة خيار آخر. إياك يا غايوس، هل تسمعني، إياك أن تواجه الأوبتيميتس، ليتك تأخذ بنصحي، إنك بهذا تجلب الموت إلى نفسك، وأنت تدرك جيّداً ما أقوله لك".

ظل قيصر صامتا، يصغي إلى صديق الصُّبا، يعرف أن ولاءه له وخشيته عليه هما ما يدفعانه إلى محاولة إقناعه، بينما وقفت كورنيليا في ردهة المنزل، زوجته الشابة البالغة من العمر ١٩ عاماً ترهف السمع.

اقترب قيصر منها، أخذ يدور حولها متتداً في مشيه ومطرقاً برأسه إلى الأرض، يزن ما يقوله، يجتر من عقله ردّاً على المقدونيين الذين ضعفهم الدهر وجاءوا يتلمسون دعمه، دون أن ينطق بكلمة. حتى انزعج صديقه من صمته، وخشي ألا تكون كلماته كافية لإقناعه بالعدول عما يتتويه، تأمله

وهو يدور ويدور حول زوجته، بدا ذلك رمزًا حقيقيًا لمدى مركزيتها في حياته، فهو يجد في حضرتها ملجأً ومستقرًا، يعلم صديقه كم يحبها، ويعرف الجميع أيضًا، فالتفت إليها وقال:

"كورنيليا، من أجل قيصر، أعرف كم تحبينه، اطلبي منه من أجلك، من أجل والدته، من أجل عائلته، أن يدعه من هذا الجنون، لا يمكن المساس بدولايلا. كان قيصر على وشك الموت عندما وقف في وجه سولا، وإن عاد لمعارضة الأوبتيميتس، وتورط في محاكمة ذراعه اليمني، سيقتل حتمًا. بحق الآلهة جمعاء عليك، قولي له شيئًا!".

ارتعشت جفون كورنيليا بينما تستمع إلى رجاء لابينوس، لكن صرخة دوت في أرجاء الردهة، كان مصدرها جوليا الصغيرة، ابنتهما، التي أتمت بالكاد عامها الخامس. شتت انتباههم حين ركضت الطفلة نحو أمها، تتبعها إحدى الخادما، التي سارعت بالاعتذار من سيدتها:

"اعتذر سيدتي، أنا آسفة، ركضت بسرعة، ولم أستطع اللحاق بها".
اقتربت الطفلة من أمها، تشبثت بركبتها، وهي تصيح:
"أمي، أمي!".

ولعل اقتحام الفتاة للردهة أنقذ كورنيليا من الاضطرار إلى إبداء رأيها فيما يقوله لابينوس، فقالت آسفة:

"سأعود بعد قليل"، وخرجت تحمل ابنتها بين ذراعيها، بينما ظلت تعابير وجه قيصر جدية. مرا عبر الردهة، ظل يتابعهما بعينه، وعندما اقتربتا منه، صاحت الفتاة:

"أبي!".

أرادت المكوث معه، لكن كورنيليا جذبتها ودخلت إلى أحد الغرف. وجد لابينوس نفسه وحيدًا، لكن عليه مواصلة مهمة إقناع قيصر بأنه لا ينبغي عليه أن يوافق على ذاك المنصب المسموم، لكن ذلك لم يثنه عن

الاستمرار في المحاولة. لذا؛ واصل كلامه، رغم أن الممثلين عن مقاطعة مقدونيا الذين كانوا لا يزالون ينتظرون ردًا منه، هناك، في ردهة المنزل، وهم، بيرديكاس، وأرخيلاوس، وآيروبوس، تملكهم شعور بعدم الارتياح أمام ما يقوله لابينوس، ومحاولاته التي تشبه ريحًا تهب عكس ما تشتهي سفنهم، ولم يكن في مقدر وهم مقاطعة نقاش بين رومانين.

"استمع إليّ جيّدًا يا غايوس"، تابع لابينوس رغم أن النظرات المليئة بالعداء ظلت تلاحقه، "إن وافقت سوف يحطمون دفاعك في المحاكمة أولًا، ثم يقتلونك في أحد الأزقة المظلمة، في وضح النهار، ولن تكون تلك المرة الأولى منذ وفاة عمك ماريوس، والانتصار المطلق الذي حققه سولا. إن جرأة الأوبتيميتس تزداد يومًا بعد يوم، وقد وصلت قوتهم الآن إلى ذروتها، هم اليوم أكثر بطشًا من أي وقت مضى. استمع جيّدًا لما أقوله لك، حتى وإن انتهت المحاكمة لصالحك، وهو أمر غير محتمل على الإطلاق، فإنك ستواجه كوتا، خالك، الذي اتفق معه دولابيل بالفعل ليصبح محاميًا عنه. هل هذا ما تريده، هل ستجبر والدتك على الاختيار بين ابنها وشقيقها؟".

أمام تلك الكلمات رفع يوليوس قيصر قبضته قليلًا كما لو أنه يتوسل إلى صديقه بأن يكف عن الكلام، ولكنه نكس رأسه، وأخذ يحدق إلى الفسيفساء المتصدعة على أرضية منزل العائلة. إنه ينحدر من عائلة أرستقراطية، لكن، على مدار السنوات الأخيرة لم يكن المال وفيرًا لديهم كما ينبغي، ليس فقط منذ وفاة زوج عمته غايوس ماريوس العظيم، الذي يعده عمًا له ومثلاً أعلى، وإنما يرجع أيضًا إلى أوامر الديكتاتور سولا بمصادرة العديد من ممتلكات العائلة عقابًا لهم لدعمهم للفصيل الشعبي. حتى وصل الأمر إلى حدّ أنهم لم يمتلكوا المال الكافي لإصلاح تلك الفسيفساء اللعينة المتصدعة.

أمعن النظر إلى الأرضية، في واقع الأمر، لم يكن أمر الفسيفساء يعنيه، ثم قال في نهاية الأمر:

"إنها أهم شخص عندي".

في تلك اللحظة عادت كورنيليا، في صمت، لتقف إلى جوار زوجها، بعدما تركت الطفلة في ظل رعاية الخادمة. ظلت جوليا تبكي، كانت في حالة سيئة لكن يبدو أنها بدأت تهدأ بالفعل، لاحظت الأم الشابة أن الفتاة الصغيرة تتأثر بالأجواء المتوترة من حولها، يقولون إن الأطفال يشعرون بالكارثة بمجرد أن تلوح في الأفق، وقبل أن تتحول إلى واقع، ترى هل هذا صحيح؟ ظلت تفكر وتفكر، حتى سألتها قيصر بهدوء وحزم، ليقطع حبل أفكارها:

"هل جوليا بخير؟".

"إنها بخير، لا داعي للقلق عليها، اطمئن" أجابته بسرعة وبدقة. كانت مستعدة دائماً لتقديم الدعم له، كما أن الظروف لم تكن مناسبة لإثارة القلق في نفسه، إذ امتلأ عقله بأمور مُلحة وقضايا أعلى شأنًا، وأكثر أهمية من نوبات غضب الصغيرة.

"ماذا تقصد" سأله لابينوس، كي يستأنفا المحادثة، تمامًا من حيث توقف صديقه. لقد ذكره بالكثير من الأمور التي من شأنها ثنيه عن التورط في محاكمة دولابيللا، لكنه لم يستطع تفسير مقصده على وجه الدقة.

"أقصد أمي" أجابه، نطق حروف اسم والدته بتأني، وبصوت مسموع، كما لو كان يتأمل السلطة العظيمة التي تمثلها بالنسبة له مع كل حرف يخرج من حنجرتة:

"إنها أوريليا. ترى ما الأفضل بالنسبة لها، أن أوافق على المرافعة في محاكمة يدافع فيها خالي كوتا عن المتهم، وسوف يترتب على ذلك -حسنًا كما قلت- صراعات داخل العائلة، أم أن أرفض، وأقرر ألا أتدخل في الأمر رغم أن دمي يغلي داخل عروقي؟ إن دولابيللا أحد حلفاء سولا البائسين"، ثم أشار إلى المقدونيين وأضاف:

"إن كان نصف ما يقوله هؤلاء عنه فقط صحيحًا، فهذا يعني أنه ارتكب جرائم فظيعة وأتى بمظالم أكثر بشاعة مما يجب أن يفعله عضو في مجلس

الشيوخ. فعل كلُّ هذا بينما كان يجدر به أن يقدم مثلاً وقدوة في سلوكه وطريقة حكمه. لذا يجب أن يدفع ثمن ما اجتراه من آثام باهظاً، وهو في نهاية المطاف أحد أعدائنا، هل أتركه يهرب رغم أن بإمكانني إخضاعه لمحاكمة علنية، بعد سنوات وسنوات من الأضرار التي ألحقت بنا بسبب قرارات سولا، معلمه وقدوته؟".

"أنت لا تمتلك القوة الكافية لمواجهة خالك كوتا وهورتنسيوس، إنهما يمتلكان خبرة طويلة في الدفاع، كما أنه سيتعين عليك مواجهة قضية مُلأت جيوبهم بالرشاوى، وحُشر قرار البراءة في أفواههم" جادله لاينوس، وكان شراء القضية أمراً شائعاً في روما خاصة عندما يكون المدعى عليه قوياً وثرياً. كما نصت التغييرات التي أحدثها سولا أن تتشكل هيئات المحاكم التي تنظر القضايا المتعلقة بأعضاء مجلس الشيوخ من أعضاء المجلس دون غيرهم، وكان دولابيلاً قنصلاً*، وأقيم من أجله حفل نصر** تكريماً لانتصاره الساحق على التراقيين***، واستطاع، في ظل حكم سولا، أن يكتز ثروات طائلة، وعلى ما يبدو، وحسبما قاله ممثلو مقدونيا، فإنه استطاع تعزيز ثروته باختلاس الأموال العامة ونهب أموال الضرائب الإضافية التي فرضها على سكان تلك المقاطعة التابعة لروما. المال دائماً هو الورقة الرابحة في محاكمات روما، ودولابيلاً سناتور فاحش الثراء ويمتلك سلطة مطلقة، لدرجة أنه لن يجزؤ أحد على إدانته، مهما بلغ حجم الجرائم التي ارتكبها، ورغم بشاعة جرائمه، وحتى إن تعدت مجرد نهب الأموال.

"كورنيليا، من أجل كل الآلهة، استحلفك بأغلى ما لديك، ساعدني كي

* منصب القنصل في روما هو أعلى المناصب في هرم التسلسل الوظيفي، ويمثل رئيس الحكومة أو رئيس السلطة التنفيذية للدولة، ويمتلك صلاحيات واسعة. في زمن الجمهورية كان يُعين وفقاً لانتخابات شعبية وتصديق مجلس الشيوخ، لكن بعد قيام الإمبراطورية جُرد المنصب من الصلاحيات، وامتلك الامبراطور سلطة تعيين القنصل.

** احتفال النصر الروماني، يقام بقرار من مجلس الشيوخ لتكريم القائد الذي يحقق النصر ضد قوة أجنبية، ويعني ترسيخ سلطته وشرعيته. وأثناء الحفل يرتدي المكرم إكليلاً من الغار وزي النصر أرجواني اللون المطرز بالذهب، ليظهر وكأنه شبه مقدس أو شبه ملكي ويركب عجلة حربية تجرها أربعة أحصنة تجول شوارع روما في مسيرة عسكرية.

*** شعوب هندو-أوروبية، كانت تسكن في تراقيا جنوب شرق البلقان.

أمنع زوجك من ارتكاب هذا الجنون" توسل لابينوس إلى زوجة صديقه مرة أخرى.

ساد الهدوء أرجاء الردهة.

لم تتدخل الطفلة هذه المرة، ليس ثمة ما يمكنه أن يسهل عليها التهرب، كان لابينوس يدرك جيدًا أن رأيها، على صغر سنّها، مهمًا للغاية بالنسبة لزوجها، خفضت بصرها، التفتت إلى الندبة البارزة على العضلة التوأمية بساقه، أثر جرح قديم جمع مصيره إلى الأبد بزوجها، وضمن لهما الولاء التام بعضهما لبعض. لم ترغب في معارضة لابينوس في أي شيء، لكن معايير زوجها، وقراره، في النهاية، وقبل أي شيء آخر، هو أكثر ما يهمها.

"ما يقرره زوجي وما يراه هو الصواب، وسوف أظل داعمة له" نظرت إلى عينيه وأضافت "كما أدعّمه دائمًا، وكما كان هو على الدوام معي".

أدرك الرجلان أن كورنيليا تلمح إلى الماضي القريب؛ إذ تعرض حب يوليوس قيصر لها إلى اختبار قاس للغاية وبلا رحمة، برزت من خلاله قوة تمسكه بها.

"الأمر متروك لك أنت" كرّرت، ثم ركزت بصرها على الأرض، لم تنتو التدخل مرة أخرى في شؤون زوجها.

شعر قيصر بالامتنان لها، لأنها لم تسهم في تعقيد الأمر أكثر، إنه يحبها كثيرًا، ولها تأثير قوي عليه، وحيادها منحه حرية التصرف. لقد كان واضحًا لها، بعدما حدث مع سولا، مقدار عشقه لها، ولم تكن في حاجة إلى مزيد من البراهين على ذلك. ومن ناحية أخرى، كان موقف صديقه منطقيًا للغاية؛ فالقبول بعرض ممثلي مقدونيا كان يعني الانتحار، وقد ينتج عنه خلافات عائلية أيضًا.

لاحظ لابينوس أن تفكير صديقه بدأ يتزعزع، زفر زفرة أخيرة واقترح "فلنستدع والدتك إذن و...".

"لا" قاطعه قيصر بعصبية بالغة.

"إن كان ثمة شيء واحد واضح بالنسبة لي، فهو أن والدتي ترغب في أن أتخذ قرارى بمفردى، تمامًا مثلما فعلت كورنيليا قبل قليل، لقد علمتني والدتي أن أكوّن رأيًا مستقلًا، وهذا لا يتعارض مع مدى تقديري لها ولنصائحها. اعتدت منذ زمن اتخاذ قراراتى منفردًا، وهذا ما سأفعله الآن" أوضح.

هز لابينوس رأسه نافيًا، رغم أنه، كان على علم جيّد بعادات وشخصيات عائلة صديقه، وشعر أن هذا هو بالضبط ما كانت ستقوله أوريليا المبجلة إن علمت بالأمر، تمامًا كما فعلت كورنيليا قبل لحظات، يجب أن يتخذ يوليوس قيصر قراره بنفسه بالفعل.

بدا الأمر كما لو أن تلك السيدة أرادت أن تصنع من ابنها قائدًا فطريًا، لا يوقفه أحد أو شيء، وأن الزوجة الشابة قبلت بهذه الصفة المتجذرة في أعماقه باعتبارها جزءًا أصيلًا في شخصيته لا ينفصل عنه أبدًا، لكن الموقف الآن، وحسبما يرى لابينوس، لن يقود إلا إلى كارثة حتمية.

نظر يوليوس قيصر إلى المقدونيين وطرح سؤالًا:

"لماذا وقع اختياركم عليّ أنا بالذات؟".

تبادل ممثلو المقاطعة الشرقية النظرات فيما بينهم، حتى قرر آيروبوس، وكان أكبرهم سنًا، أن يجيب:

"نعلم أن يوليوس قيصر الشاب قد واجه الديكتاتور الرهيب سولا في الوقت الذي استسلم فيه كثيرون غيره أمام بطشه. لقد ارتكب دولابيلًا، جرائم سرقة ونهب لأموال الشعب إلى جانب العديد من الاعتداءات الوحشية..."، هنا كان عليه التوقف ليلتلع ريقه حتى لا يتورط في ذكر أمور حرجة تخص ابنته ميرتل، ثم تابع "أقصد الاعتداءات... التي أشرنا إليها بالفعل قبل قليل، ودولابيلًا كان صديقًا مقربًا لسولا، قيل لنا إنه كان بمثابة ذراعه اليميني التي يستعين بها سواء في أوقات الحرب أو عندما يريد البطش

بأحد خصومه في روما، ونحن رأينا أن الشخص الذي لم يخش معارضة سولا هو الوحيد القادر على مواجهة دولابيللا رغم نفوذه وثرواته، وحيله وبطشه، ولهذا السبب جئنا نتوسل إلى الشاب يوليوس قيصر، وليس إلى أحد غيره، أن يقبل بالدفاع عن حقوقنا، لأنه كما تعلمون لا يمكن لمواطن غير روماني مقاضاة آخر روماني، ولا نعتقد أن ثمة كثيرين من أبناء الرومان يجرؤون على المخاطرة ومواجهة شخص بقوة وبطش دولابيللا، و...".

"اتفق معه يا غايوس، هذا الرجل محق في بعض ما قاله، حقًا دولابيللا شخص قاس، إنه خطير للغاية، ولديه الكثير من المال ولن يتردد في استخدامه سواء لشراء البراءة أو للانتقام منك إذا ما ساءت الأمور. أوافقك أيضًا فيما قاله حول بسالتك في معارضة سولا حتى كاد الأمر يكلفك حياتك، لقد نجوت بمعية الإلهة فورتونا. رغم كل هذا لا أرى أنه من الحكمة أن تقرب شفا الحفرة، وعليك التأكد مما إذا ما كانت الآلهة سوف تنقذك أم ستتخلى عنك هذه المرة. أعرف أنك تعتقد أن فينوس ومارس يحميانك لكن أتوسل إليك لا تختبرهما ثانية".

أخذ غايوس يوليوس قيصر نفسًا عميقًا، وأوما برأسه عدة مرات. ظل يحدق إلى صديقه، وإلى المقدونيين، ثم حبس أنفاسه وأطرق، وضع يديه على خصره، هز رأسه مرة أخرى وهو يحملق في الأرض، ثم رفع عينيه وثبت نظره على المقدونيين وقال "أوافق على الدفاع عنكم، أقبل بأن أصبح موجه الاتهام في تلك المحاكمة".

أخذ لاينوس يحرك رأسه يمينًا ويسارًا رافضًا لما سمعه، وأغمضت كورنيليا عينها، تتوسل في صمت إلى الآلهة أن تحمي زوجها، بينما انحنى المقدونيون أمامه تقديرًا وإجلالًا، وضعوا على طاولة كانت في الردهة كيسًا ثقيلًا يحوي عملات معدنية، هي أول دفعة من أتعابه، وانصرفوا بعد وداع مقتضب، تاركين الصديقين والزوجة وراءهما.

لم يكن السبب في انصرافهم السريع يرجع إلى كونهم في عجلة من أمرهم، بل خشوا أن يعيد قيصر التفكير بشكل أفضل فيما قاله، أو يتراجع في

قراره، لذا خرجوا من منزله بأقصى سرعة. كانوا يعلمون مثلهم مثل جميع المواطنين في روما، تلك المدينة العظيمة المطلة على نهر التيبر، أن قضية دولابيللا خاسرة لا محالة، حتى قبل أن تبدأ، لكنهم وضعوا ثقتهم في قيصر رغبة في الانتقام من المتهم، أي إن الأمر برمته بالنسبة لهم مجرد محاولة، وإن لم تفلح، فسوف يلجؤون إلى خطة بديلة للثأر من دولابيللا على طريقته الخاصة. لكن ما لم يحسبوا له هو عدد من سوف يقتلهم السناتور الفاسد مقابل ذلك، ربما تصل حدود قدراته إلى القضاء عليهم جميعاً بما فيهم المحامي الشاب الذي قَبِلَ للتو الدفاع عنهم. ولشدة سذاجتهم لم يدرسوا بدقة القوات الهائلة التي يمتلكها عدوهم، إذ بدا وكأن الأمر سيان بالنسبة لهم، لقد كانوا في طريقهم نحو الموت.

في ردهة منزل عائلة جوليا، وسط حي سوبورا، وقف لابينوس محبطاً، ينفث زفيراً بغضب. رفع يوليوس قيصر رأسه المحني قليلاً، ليواجه رفيقه، لقد اتخذ قراره، لكن، ورغم ذلك، لم يتوقف عن التفكير في رد الفعل المتوقع من والدته عندما تعلم بالخبر، وكان هذا هو أكثر ما يقلقه في هذه اللحظة. أمعن التفكير في كل شيء أخبرته هي به منذ كان طفلاً في مهده تهدده كي يغفو، كان يسأل نفسه، هل سيعيد التاريخ نفسه مرة أخرى كعادته، ويصبح هو ضحية جديدة في الصراع الأبدي بين الأوبتيميتس وحزب البيولاريس؟ هل سيلاقى نفس المصير؟ وفي غمرة التفكير، شعر بذراعي زوجته الناعمة تلتف حول جذعه من الخلف، أغلق عينيه، عانقها بقوة، كان في حاجة ماسة إليها.

شخصيات من عبق الذاكرة

١. أوريليا

والدة يوليوس قيصر

مرسوم الدفاع عن روما

منزل عائلة جوليا، روما عام ٩٩ قبل الميلاد

(قبل محاكمة دولابيللا بنحو ٢٢ عامًا)

تستعد روما لإجراء الانتخابات التي ستحدد مَنْ مِنَ المرشحين سوف يحصد أعلى المناصب في الجمهورية؛ منصب القنصل، والمنبر والبريتور*، وبالتزامن مع اقترابها يحتدم العنف وتتفشى الوحشية، الموت والجنون.

كانت أوريليا تحمل بين ذراعيها الطفل غايوس، الوليد الذي أتم بالكاد بضعة أشهر، ظل هادئًا طوال فترة ما بعد الظهيرة، لكنه استيقظ وبدأ بيبكاء مستمر لا يتوقف، أثار ذلك غضبها، بدا أن الطفل يعاني صعوبة في النوم، ظلّ يتململ باستمرار، وكانت تعلم أنه لا بد من توفير جو هادئ له كي يغفو. أخذت تهدده وتهمس له حتى أصبح على وشك أن يعانقه الكرى، لكنه فجأة استيقظ مفزوعًا، غضبت الأم الشابة بشدة، كانت على علم بأمور الانتخابات والاضطرابات التي تتدثر بها روما، لكن الأولوية الوحيدة بالنسبة لها، على الأقل في تلك الفترة، هي راحة ابنها الرضيع.

"احملي الطفل" أمرت إحدى الخادמות، وسلّمتها لها برفق "حاولي تهدئته، بينما سأذهب إليهم كي أقطع حبل هذا النقاش المحتدم، أو على الأقل أقتنعهم بالتوقف عن الصراخ بجنون". ثم سارت بخطوات حاسمة عبر غرف منزل عائلة جوليا، كانت غاضبة بشدة وفكرت في اقتحام الردهة

* لقب لبعض قادة الجيش والولاة المنتخبين، ولديه صلاحيات ومسئوليات، ويعني القاضي أو الحاكم.

والصراخ في وجه زوجها وأصدقائه، لكن صوت صهر زوجها، زوج شقيقته، غايوس ماريوس، تنامى إلى سمعها، فتراجعت قليلاً، وهدأت بعض الشيء.

كان ماريوس، زوج عمّة يوليوس قيصر الابن، قد تم انتخابه قنصلًا لست مرات، خمس مرات منها متتالية، رغم أنف القانون المعمول به، وللمرة الأولى منذ عرفته، صُدمت أوريليا إذ لاحظت أن نبرته شابها بصيص من الخوف. ما الذي يجعل رجلًا تولى منصب القنصل ستّ مرات، وانتصر في عشرات المواجهات والمعارك ضد البرابرة الذين هددوا أمن روما، يشعر بالخوف؟ يبدو أن ثمة أمرًا خطيرًا يحاك. وقفت في نهاية الممر، إلى جوار الباب المفضي إلى الردهة، ترهف السمع. كان القنصل المخضرم يقول: "لقد فقد ساتورنينوس وغلاوسيا عقليهما".

زمت شفيتها، إن ساتورنينوس وغلاوسيا من المدافعين عن حقوق الشعب، هزت رأسها تفكر... عادة ينتهي خروج منابر العوام عن السيطرة بمواجهات دموية مع مجلس الشيوخ. قررت الدخول للقائه، لكنها لم تسلّم على أحد، رغم أنه من المفترض ألا تتصرف هكذا، كانت تلك طريقتها في التعبير عن الغضب، لكنها لم ترفع نبرة صوتها ولم تصرخ. ودون مقدمات سألته: "لماذا تقول إن ساتورنينوس وغلاوسيا فقدوا رشدهما؟"، ثم جلست إلى جوار زوجها، وربتت على ذراعه، مضيفة: "لقد أفرغ صراخكما صغيري! ليت صياحك هذا يكون لأمر جليل وليس مجرد حلقة أخرى من تلك المناقشات السياسية العديدة التي تجرونها".

"لا، ليست مجرد مناقشة روتينية أخرى يا أوريليا" أجاب زوجها باستنكار؛ إذ رأى أنها لم تلقِ التحية كما ينبغي عليها أن تفعل، ففطنت إلى ما جال بخاطره، وأجابت بسرعة مستدركة الخطأ: "غايوس ماريوس مرحّب به دائمًا في منزلنا"، ثم التفتت إلى صهرها وأضافت بابتسامة طفيفة على وجهها: "وأنا على يقين من أنه، ولكونه قائدًا مخضرمًا، يقدرّ رغبتني في عدم مقاطعة حديثكما، أليس كذلك يا أشهر قناصلة روما؟".

في الواقع، اعتقد ماريوس دائماً أنه من الجيد تجنب المواردية في الكلام، لكن الرجل الذي حقق انتصارات ضد يوغرطة، ملك نوميديا، في إفريقيا، وهزم الكيمبريين والتوتونيين، في الشمال، كان معجباً بحكمة أوريليا، فهي سيدة لبقة وأسرة للقلوب وتتمتع بالذكاء، ولولا كونها امرأة لتوقع لها حياة سياسية حافلة بالإنجازات.

"لا داعي لأن تنزعج من زوجتك يا غايوس" أجاب القنصل بود واضح، ثم التفت إلى أوريليا وأوضح: "ليست مثل أي مناقشة تقليدية، لقد أجز ساتورنينوس وغلاوسيا قتلة من أجل اغتيال المرشح لمنصب القنصل عن حزب الأوبتيميتس، غايوس ميموس".

"لجؤوا إلى العنف لمواجهة العنف" قالت، ثم جلست على إحدى الأرائك، ودعت زوجها وماريوس للجلوس، ثم أشارت لعبد أتري كي يقدم لهم الطعام والنبذ بينما يستكملون حديثهم، إذ عرفت طيلة حياتها بأنها كريمة الغلالة، واليوم، أملت أن يسهم الجلوس وتناول القليل من الطعام في تهدئة الرجلين، وهكذا يهدأ الصغير ويعانقه الكرى.

"العنف في مواجهة العنف، هذا صحيح، لكن مجلس الشيوخ عادة ما يكون الطرف الأكثر وحشية في مواجهة العنف" أوضح ماريوس.

"إذن يجب أن يكون ساتورنينوس وغلاوسيا هما من يعانيان القلق بسبب تحريضهما على قتل ميموس، أليس كذلك؟" سألت أوريليا قبل أن تدعو ماريوس للشرب.

عُرفت أوريليا بالسخاء مع الخدم الذين ينفذون أوامرها على نحو جيد، لكنها تطلق العنان لغضبها وقد يصل العقاب إلى حد جلد العبد إن لم ينجز مهمته بسرعة.

شرب ماريوس كأسه، وتنهد بعمق. كان لديه الكثير مما يمكن إخبارهما به، لكن الوقت ضيق، فالوضع بات على المحك، مسألة حياة أو موت، وقد اعتاد مناقشة الأمور التي تشغل باله مع غايوس يوليوس قيصر الأب، الذي،

ورغم كونه رجلاً متحفظاً وغير طموح، وهو أمر نادر الوجود في روما، كان دائماً يستمع إليه وينصحه بإخلاص. كما أن ترحيب زوجته أوريليا به، يمنحه شعوراً بالراحة في وقت كثرت فيه الخيانات السياسية، حتى بات أمر العثور على مكان يمكنك التحدث فيه بهدوء مع أشخاص يستمعون إليك باهتمام، وتجد الدعم في صحبتهم، بمثابة البلسم للجروح، وهو ما قدره ماريوس كثيراً.

وضع القنصل الكأس الفارغة على الطاولة. استشف من تعبيرات وجه أوريليا أن لديها الكثير من الأسئلة، فقرر أن يخبرها بإيجاز بما كانا يتحدثان عنه قبل قدومها، فقال: "بعدما عدت من الشمال متصراً، وجدت نفسي مضطهداً داخل مجلس الشيوخ، لقد جعلتهم إنجازاتي الأخيرة في الشمال وكذلك ما أحرزته في إفريقيا يخشونني، وسعى الأعضاء من حزب الأوبتيميتس، الذين يسيطرون على المجلس، إلى وضعي في عزلة سياسية. لكنني تحالفت حينها، كما تعلمان مع ساتورنينوس وغلاوسيا، اللذين كانا يعانيان مثلي من المضايقات، وعبر الائتلاف الذي شكلناه ساعدنا بعضنا بعضاً في إحراز مناصب مهمة، فانتخب غلاوسيا بريتورا، وساتورنينوس منبراً للعوام، وانتخبُ أنا قنصلاً للمرة السادسة. كما دعماني في النضال من أجل استصدار قانون يسمح للمحاربين الذين حاربوا ضمن صفوفي في نهر بو وفي إفريقيا، بالحصول على رقع زراعية شمال النهر وفي إفريقيا، الأمر الذي أدى إلى استياء مجلس الشيوخ والحلفاء الإيطاليين، إذ رأوا أنهم أحق بتلك الأراضي منهم، لأنهم كانوا يقيمون بها قبل الغزو التوتوني والكيمبريوني. لكننا أرضينا الإيطاليين بالسماح لهم بدخول المستعمرات الجديدة في صقلية ومقدونيا، بينما أقلقت تلك الخطوة المواطنين الرومان، إذ رأوا أن دخول تلك المناطق يعد جزءاً من حقوق المواطنة. وفي محاولة لتلطيف غضب العامة، توصلنا نحن الثلاثة إلى استصدار قرار توزيع القمح المدعم على جميع المواطنين الرومان، فغضب أعضاء المجلس بشدة تماماً مثلما يقلقهم توزيع الأراضي والمستعمرات. لكننا كنا قد تمكنا من

استرضاء المحاربين القدامى الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الدفاع عن روما ضد هجمات البرابرة، وتهدئة العوام وتطيب خاطر الإيطاليين وسكان المدن المتحالفة مع روما. في النهاية، باتت كل الأطراف تشعر بالرضا، لقد حققنا توازنًا معقدًا، يشعر من خلاله الجميع بأنهم فائزون".

"الجميع، عدا سناتورات الأوبتيميتس" علقت أوريليا بحكمة.

اتفق ماريوس معها في الرأي، وأخذ يومئ مبتسمًا؛ إذ أدهشته سرعة قراءتها لطلاسم السياسة الرومانية، وأكد: "حسنًا، الجميع، عدا الأوبتيميتس. إنهم يفسرون الأمر وكأنه توزيعًا للثروات على نطاق أوسع، سواء تعلق الأمر بالرقع الزراعية أو محصول القمح أو حتى الحقوق. لكن دعم الإيطاليين والعوام لنا يجعلهم يترددون في مهاجمتنا مرة أخرى، وكما فعلوا في الماضي، عندما أمروا بمقتل الأخوين غراكوس، بعد وفاة سكيبيو الإفريقي. لكن الأمور اختلطت على ساتورنينوس وغلاوسيا، ففسرا محاولات المجلس لاحتوائنا بأنه ضعف أمام اتحادنا الثلاثي، والآن مع اقتراب موعد الانتخابات جسرًا وحرصًا على قتل ميموس...".

"تقصد مرشح الأوبتيميتس" علقت أوريليا.

"نعم، إنه هو" علق القنصل، وأطرق، ثم أردف: "وردًا على هذا العنف، قرر المجلس* أن يتعامل بطريقته، فأصدر، على الصعيد الرسمي، مرسوم (الدفاع عن روما) مرة أخرى، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل دفع بعصابات من القتلة انتشروا في جميع أنحاء المدينة فقط لملاحقتهم".

سكت القنصل... شعر بأنه قد قال كل ما في جعبته.

بدا وجه يوليوس قيصر الأب جامدًا، لم يأكل قضمة واحدة، صمت الجميع، لكن القنصل بدأ يأكل بعض الجبن الموضوع أمامه، إذ لم يكن متأكدًا متى سيمتلك الوقت كي يجلس لتناول الطعام خلال الساعات القليلة القادمة، وقد علّمته التجربة أنه من الأفضل خوض المعارك ببطن ممتلئة.

* مجلس الشيوخ في تلك الفترة عُدَّ أداة في يد الأوبتيميتس، إذ سيطر على أغلبية المقاعد، لذا عندما يذكر المجلس يقصد، في أغلب الأحيان، الإشارة إلى الحزب. (المترجم)

"ألم يصدر أيضًا مثل هذا المرسوم من قبل، عندما أمر المجلس بإعدام غايوس غراكوس، الذي يعد من أوائل من عارضوه من منابر الشعب؟" سألت أوريليا.

"بالضبط" أجاب يوليوس قيصر الأب، إذ كان لديه معلومات أكثر مما قالتها زوجته.

بينما لم يشاركهما ماريوس الحديث، انشغل بتناول الطعام في صمت. "بينما هذه المرة تضمن القرار أمر ساتورنينوس وغلاوسيا؟" استفسرت. "بالضبط".

"ما أعرفه هو أنه عندما يصدر مجلس الشيوخ مرسومًا فإنه عادة ما يوصي بأن يتولى شخص بعينه مهمة تنفيذ ما ينص عليه، أليس كذلك؟" "صحيح".

"إذن، إلى مَنْ أولى المجلس تنفيذ هذه المهمة؟" سألت.

لكن تلك المرة لم يجب الزوج، أخذ يتبادل النظرات مع صهره. توقف ماريوس فجأة عن المضغ، ازدرد الجبين والخبز المتبقين في فمه، ثم أجاب أخيرًا: "حسنًا، إليّ، بصفتي قنصل روما".

"إنهم يسعون إلى تقسيم وحدتكم، فهم يعلمون أنهما حليفان لك" علّقت أوريليا بصوت منخفض لكنه مسموع في الردهة التي يغلفها صمت مطبق.

"كانا حليفين، لكنهما اتفقا وحدهما وقررا عدم استشارتي في أمر اغتيال ميموس".

"أنفهم ذلك، صحيح أنه كان قرارًا مهمًا للغاية وكان من المفترض أن تناقشوه معًا، لكن ربما فضلًا عدم استشارتك لعلمهما بأنك على الأرجح ستعارض".

"بكل تأكيد، وبعيدًا عن الشق الأخلاقي في الأمر، يعتبر هذا القرار خطأ من شأنه تأجيج الصراع الوحشي الدائر، إن ساتورنينوس وغلاوسيا يعتقدان

أن المجلس قد هُزم تمامًا، بينما أرى أن شره ظل كامناً، وأن سيناتورات الأوبتيميتس فضلوا التآني والتفكير بدقة بالغة والتعامل وفقاً لما تتطلبه الظروف، كي يتسنى لهم تقدير متى وكيف يمكن تنفيذ هجوم مضاد لاستعادة السيطرة، والسلطة الكاملة. لذا عكفوا على حشر أشخاص ثقات في جمعية العوام، وحشد رجالهم لمناصب البريتور، وهم رجال لا يؤيدون توزيع الثروات أو الأراضي أو منح الحقوق لمستحقيها، وشيئاً فشيئاً، بدقة وهوادة، يتمكنون من وضعي في عزلة سياسية تمهيداً لتوجيه الضربة القاضية لي، لتدميري معنوياً أو قتلي. الآن يسيطر القتلة على روما بأكملها، لكن لا يزال أمامي فرصة للتصرف لأن المحاربين القدامى يحمونني، كما أن المجلس قد أعطى تعليماته بعدم المساس بي في انتظار معرفة إلى أي جانب سأنحاز، إلى ساتورنينوس وغلاوسيا أم سألتزم بالمرسوم، لهذا أنا موجود هنا الآن، لأن القرار الذي سوف اتخذه سوف يلقي بظلاله على أسرتي بأكملها، وعليكم أنتم أيضاً، فمند زواجي من جوليا أصبحتم جزءاً من عائلتي. إن لم أطع المجلس، فسوف يتعقبني القتلة، كما سيتعقبون أفراد عائلتي وأصدقائي. والحق أقول، ليس لدي ما يكفي من الرجال لحماية الجميع."

سكت ماريوس بعدما قال كل ما لديه، ثم أطبق الصمت مرة أخرى، فأصبحت الأجواء متوترة للغاية.

"إنه سولا" قال ماريوس بعد صمت، ثبت نظره على الأرض، كما لو كان يتحدث إلى نفسه: "هو المحرك وراء الأحداث، يقودهم بمهارة. لم أتوقع أن يتجرأ إلى هذا الحد، لكنني الآن أرى ذلك بوضوح؛ إنه يريد أن ينصب نفسه قائداً للأوبتيميتس، لذا يسعى إلى كسب ثقة زعيمهم، كويتوس ميتيلوس، ورجاله. إنهما يسعيان دائماً للعثور على وجوه جديدة قادرة على مواجهتي".

"لكن سولا قاتل معك في إفريقيا، بصفته قسّطور*، وحسبما أذكر قاتل تحت إمرتك في إفريقيا، وضد البرابرة في الشمال، أليس كذلك؟".

* أعلى مرتبة في هرم الصلاحيات الحكومي الروماني، ومهمته الأساسية هي؛ الإشراف على الشؤون المالية والجيش والموظفين.

"صحيح، ذاكرتك جيدة، وكان جنديًا شجاعًا، وماهرًا أمام الأعداء، لكنه بعد ذلك أصر على نسب الفضل كله لنفسه، حتى أثار انزعاج كثير من رجالي الذين أثق بهم، وانزعاجي أنا أيضًا، لذلك امتنعت عن دعمه عندما ترشح لمنصب البريتور. وفي المقابل شجعت غلاوسيا على الترشح للمنصب ذاته، وكذلك دعمت ساتورنينوس عندما ترشح لمنصب منبر العوام، ومنذ ذلك الحين يبذل سولا قصارى جهده للتحريض ضدي. لكنني لم أتوقع أن يجرؤ على إصدار مرسوم (الدفاع عن روما) من جديد، إنه شديد المكر".

"عنف ساتورنينوس وغلاوسيا أيقظ الجانب الوحشي في شخصيته، إنه بهذا المرسوم يرد على اغتيال ميموس" علفت أوريليا.

"بكل تأكيد" أجاب القنصل، ثم نكس رأسه، وأضاف، وكأنه يفكر بصوت عالٍ: "لكن ثمة أمرٌ آخر..."، توقف ولم يكمل، سرح في أفكاره، ولم يقاطعه أحد، حتى صاح في النهاية: "بحق جوييترا*! إنه ذاك الفتى المدعو دولابيللا!".

"هل قلت دولابيللا!" سأله الزوجان في نفس الوقت؛ إذ كان هذا الاسم جديدًا بالنسبة لهما.

"بالتأكيد لا تعرفانه، لأنه في الواقع لم يفعل أي شيء يستحق الذكر. فعل والده، لكنه لم يقدم شيئًا يذكر حتى الآن، ولم يبرز في أي عمل أو منصب مهم، مع ذلك أرى أنه يشارك على نحو جيد في جلسات المجلس، ويحرص على الجلوس إلى جوار سولا، يهمس إليه في أذنه، ويدعم خطاباته داخل الكوريا**. يمكن القول إنه هو من يسقي غرور سولا، ويدفعه لاتخاذ خطوات لم يكن ليجرؤ عليها، ويحثه كي يشق طريقه ليصبح قائدًا للأوبتيميتس. لقد أصبحت قيادة ميتيلوس مترهلة ويرى كثيرون أنه بات أضعف من أن يقف في وجهي، ولعله لهذا يرجع إصدار هذا المرسوم واختياري أنا بالذات، ليضعني في مثل هذا الموقف الصعب. إنه يسعى

* الإله الرئيسي عند الرومان قبل أن تعم الديانة المسيحية.

** مقر مجلس الشيوخ.

للانتقام مني، وكنت أعلم أنه سيتعين علي مواجهته عاجلاً أم آجلاً، لكنني لم أتوقع أن يحدث ذلك قريباً للغاية هكذا".

سكت ماريوس مرة أخرى، كان من المفترض أن يوجه له يوليوس قيصر الأب وأوريليا النصيحة، لكنهما التزما الصمت؛ إذ لم يدريا بما يجب نصحه، فسألته أوريليا: "إذن، هل اتخذت قرارًا حيال هذا الموقف؟"، لكنها استدركت، يبدو أنها أعادت التفكير فيما قالت: "من المؤكد أنك اتخذت قرارك، ولهذا السبب أنت هنا الآن، جئت كي تعلمنا به".

قبل ماريوس تفسيرها وقال: "هذا صحيح، فقد قررت أن أعقل ساتورنينوس وغلاوسيا عقابًا لهما على تحريضهما على قتل أحد المرشحين لمنصب القنصل، ليس أمامي خيار آخر، لكنني لن أمر بقتلهما، سوف أحجزهما فقط، ومن ثم أتفاوض كي يخضعا للمحاكمة. لا أعرف إلى أي مدى ستصل الأمور، ثمّة أوقات عصيبة وشيكة، انتبهوا على أنفسكم حتى أتمكن من تعيين حراس لكم".

أنهى القنصل كلامه، ثم نهض، ونهض يوليوس قيصر الأب ممتمًا له: "أشكرك يا ماريوس على اهتمامك بأمرنا".

"عليكم بالحدز".

ثم توجه ناحية الباب وهما يتبعانه، وأردف: "مواجهة سولا مهمتي، وهذا الأمر في مقدوري، فقد اكتسب شعبيته أثناء فترة حكمي، وحان الوقت للتدخل لكبح جماح طموحه. لكن دولابيل الذي يحرضه لا يزال شابًا، وهو أصغر سنًا منّا، وليس من أبناء جيلي، أتساءل ترى من سيقف في وجهه بعدما نرحل أنا وسولا ونترك عالم الأحياء...".

قاطعته صوت بكاء طفل، فقالت أوريليا: "إنه الصغير، غايوس يوليوس قيصر، سوف أعطني به"، فابتسم ماريوس، ولم يعلق أحد بكلمة.

منبر العوام

هضبة كابيتولين، روما عام ٩٩ قبل الميلاد

(في نفس تلك الليلة)

"يا لك من خائن" صاح لوسيوس ساتورنينوس، بينما يحيط به المحاربون القدامى الذين أحضرهم القنصل لاعتقاله وفقاً للمرسوم.

كان من الممكن أن يلجأ ماريوس إلى قوات الشرطة الليلية في المدينة التي تدين بالولاء له، لتنفيذ مرسوم مجلس الشيوخ، لكنه في ظل تلك الظروف التي تشهد تحول الولاءات، لم يثق سوى في قدامى المحاربين، الذين خاضوا عشرات المعارك ضد النوميديين والكيمبريين والتوتونيين وغيرهم من الشعوب المعتدية والمسلحة تحت قيادته. علاوة على ذلك، كان رجاله أكثر قدرة على التعامل مع وحشية ليالي روما، وسرعان ما تغلبوا على مقاومة المؤيدين لساتورنينوس، المتمركزين على طول الشوارع المؤدية إلى معبد جوبيتر، حيث اختبأ منبر العوام.

كان رجال ساتورنينوس القتلة بارعين في ضرب رجل أعزل حتى الموت في شارع مظلم، كما فعلوا مع السناتور ميموس، لكن قدراتهم تتلاشى تمامًا أمام جنود اعتادوا ضراوة الحرب.

"لا لستُ خائناً، وبفضل عناية كاستور وبولوكس* لم أفقد رشدي مثلك أنت وغلاوسيا" أجاب ماريوس وهو يمسك بذراعه ليقوده إلى خارج المعبد، تمهيداً لاعتقاله.

* آلهة توأم عند للإغريق.

"لقد ساعدتك في الحصول على تلك الأراضي التي تريدها لقدامى المحاربين، لأولئك الذين يرافقونك مثل الكلاب الهائجة، هل هكذا ترد لي الدين؟" قال ساتورنينوس.

"أنا أيضًا دعمتك ودعمت غلاوسيا كي تنتخب لمنصبكما: منبر العوام والبريتور. لقد استفاد ثلاثنا من التحالف، لكن قيامكما بقتل السناتور مرشح الأوبتيميتس لمنصب القنصل أمر غير مقبول، إن مصادرة بعض الأراضي التي يسيطر عليها السناتورات، ومنح بعض الحقوق للإيطاليين، أو إجبار وزارة الخزانة على دعم القمح لجميع مواطني روما، أمور تختلف تمامًا عن الدخول في معركة وحشية مع أعضاء مجلس الشيوخ، إنه تصرف لا يمت للحكمة بصلة كما أنه لم يكن ضمن اتفاقنا" رد ماريوس، وهو يواصل السير.

"هكذا تصبح واحدًا منهم" أجابه ساتورنينوس بازدراء.

بدا غايوس ماريوس معتادًا على تقبل الإهانات من هذا الجانب أو ذاك، عند السير وسط تيارين مختلفين، أحدهما يدافع عن مصالح الشعب، والآخر لا ينظر إلا لمصالحه، فإن الأمر ينتهي به دائمًا بأن يكيل له أحد الأطراف أو كلاهما اتهامات بأنه أصل كل العلل في روما. لذلك فهو يفضل ألف مرة الدخول في معارك ضارية وسط صحاري إفريقيا أو في غابات الشمال، أكثر من التورط في معارك المدينة المضرّجة بالدم التي لا تفضي إلا إلى مواجهات عنيفة لا يحسن التعامل معها، فهو يعلم أنه يصلح للحروب والقيادة أكثر من الأمور الدبلوماسية.

غادروا الهضبة وبدؤوا في الهبوط باتجاه منتدى روما*، تاركين ورائهم جث رجال منبر العوام الذين قتلهم قدامى المحاربين. بمجرد وصولهم أحس ساتورنينوس وماريوس، بوجود العشرات من القتلة المأجورين من قبل سناتورات الأوبتيميتس يختبئون في أحلك الزوايا المظلمة وأعينهم جميعًا منصبة عليهما، بدت المدينة في ظل عدم وجود مشاعل أكثر خطورة من الغابة الجرمانية.

* مقر معظم المؤسسات الإدارية في روما القديمة.

همس ماريوس للمعتقل دون التوقف عن السير: "أنت لا تفهم ما أنتويه، إما أن اعتقلك أو سيكلفون شخصًا آخر لن يتعاطف معك على الإطلاق. على الأقل تكلفني أنا يضمن لك محاكمة عادلة، لو تولى شخص آخر المهمة سوف تقتل على أيدي هؤلاء التُّعس الذين يراقبوننا من كل الزوايا".

"هل تقول محاكمة عادلة؟ هل يحدث ذلك في روما؟" تساءل ساتورنينوس ساخرًا، بدت الحيرة في نبرته وعلى وجهه.

"حسنًا، بحق هرقل، أنفق معك في هذه النقطة، مدينتنا لا تعرف القضاء العادل، سوف نطالب فقط بإجراء محاكمة، لا تهمني المحاكمة في شيء، بل أسعى إلى كسب الوقت من أجل التفاوض على مخرج لكما".

أطرق ساتورنينوس برأسه يمعن التفكير فيما يقوله القنصل، وبعد برهة قال: "حتى لو افترضنا أنك ترغب في مساعدتي، أحيطك علما بأن مجلس الشيوخ لا يتفاوض أبدًا، لكنك، لأنك ليس لك باع في السياسة، لا تدرك ذلك، إما أن يقبل مجلس الشيوخ الهزائم التي ألحقناها بهم عندما أصدرنا القوانين الزراعية، وقانون المستعمرات للإيطاليين، وذاك الخاص بتوزيع القمح المدعوم؛ أو سيبدأ فوراً في مهاجمتنا، ليس ثمة خيار وسط، والآن ها هو يبدأ في الهجوم. اعترف بأنني كنتُ مخطئًا عندما اعتقدت أنهم يرون أنفسهم أضعف مما قد يكونون عليه في الحقيقة، لكن، وكما هو الحال يا صاحب السمو، فإن أعضاء الأوبتيميتس لا يتفاوضون ولن يتفاوضوا أبدًا، إما أن تتم إبادتهم أو يببدون هم خصومهم، تمامًا كما يفعلون منذ زمن غايوس غراكوس. هل تعتقد أن التزامك بقرار اعتقالي يمنحك الأمان؟ سوف يتخلصون مني أولاً، ثم يلاحقونك أنت، ولا شك في ذلك، إنهم يريدون احتكار التحكم في قرارات مجلس الشيوخ، حتى لا يبقى سناتور واحد يميل إلى حقوق العوام أو الإيطاليين، إنهم لا يرغبون في وجود عضو واحد من الفصيل الشعبي في الكوريا، يريدون كل شيء لأنفسهم: العبيد، الأرض، والسلطة المطلقة أيضًا".

كان كلام ساتورنينوس أقوى مما توقع ماريوس أن يسمعه من شخص مقيد ومحاصر مثله، لدرجة أنه أسكته. سارا وسط توتر على هذا النحو لبضع دقائق، بدت وكأنها أبدية لكليهما، خشيا أن يعترض طريقهما كمين قبل أن يصلوا إلى المنتدى. كان ماريوس يثق في القدرة القتالية التي يتمتع بها رجاله، لكنه يعلم أن القتلة، الذين دفع بهم الأوبتيميتس، يتعاملون بوحشية أكبر من رجال ساتورنينوس الذين سقطوا دون مقاومة تذكر.

"إلى أين تقودني؟ هل تلقي بي مباشرة من فوق صخرة تاريبان*، أم ستتركني للجوع والتعفن في سجن توليانوم اللعين؟ هل ستفعل بي كما فعلت بيوغرطة من قبل؟" سأل ساتورنينوس، مشيرًا إلى الملك الإفريقي الذي هزمه ماريوس، ثم قيده بالسلاسل وجره عبر شوارع روما، أثناء حفل النصر الذي أقيم على شرف ماريوس، وبعد ذلك حبسه في السجن المجاور للمنتدى. أظهر تلميحه بوضوح مدى ضآلة ثقة ساتورنينوس في القنصل، وفي ولائه له، وتصديقه لجديته في سعيه للحفاظ على حياته.

"بل أصطحبك إلى كوريا هوستيليا وليس إلى السجن".

"مقر مجلس الشيوخ... جيّد للغاية، أوافقك الرأي" اعترف ساتورنينوس أخيرًا، بابتسامة غلفها الحزن. أحس بصدق نوايا ماريوس، وأضاف: "لكنني أشك في أن ذلك سيوقف خططهم، إنهم قادرون على حرق المبنى وحرقي بداخله إذا ما أرادوا التخلص مني، فهم يعتبرونني منبر الشعب الأكثر عداً لسلطتهم منذ غايوس غراكوس".

"لا، لا أعتقد أنهم قد يجرؤون على حرق مبنى مجلس الشيوخ" أجاب ماريوس بثقة، وأوضح "ثمة رموز تبقى مقدسة إلى الأبد، وحرق مقرهم سيكون فألاً سيئًا، وفي نظر الجميع، عمل يائس للغاية من شأنه إظهار كم هم ضعفاء وخائفون ومستعدون لفعل أي شيء للدفاع عن أنفسهم. ومع ذلك، أصدق أنهم قد يرغبون في حرقك، أينما كنت، دون احترام لغضب

* تقع على القمة الجنوبية لهضبة كابيتولين، المطلة على منتدى روما، استخدمت قديمًا في أحد طرق التعذيب الأشد قسوة، حيث يقذف المحكوم عليه من فوق الصخرة ليتعذب حتى الموت. (المترجم)

الآلهة، لكنهم لن يفعلوا ذلك في معبد فيستا أو في أي من مقرات المجلس. وبما أن دخولك الآن معبد فيستا قد يُعتبر تدنيسًا للمقدسات؛ أرى أن كوريا هوستيليا هو المكان الوحيد الآمن لك الليلة".

توقفوا أمام أبواب كوريا هوستيليا البرونزية الضخمة. ورغم الظلام الدامس أضاءت مشاعل المحاربين بما يكفي لرؤية اللوحة الجدارية الكبيرة التي تزين أحد جدران الساحة، تأملها ماريوس لبضع لحظات؛ نقشت عليها مشاهد متفرقة لانتصار الأسطورة فاليريوس ماكسيموس ميسالا على القرطاجيين، وهيرون الثاني في صقلية خلال الحرب البونيقية الأولى، مثالان بيرزان قوة روما الهائلة، كما يراها العالم، لكنها مجرد قوة ظاهرية، بينما المدينة متصدعة من الداخل مثل ثمرة فاكهة ضخمة تبدو لامعة لكن الفساد ينخر قلبها. تنهد القنصل وهز رأسه أسفًا.

"افتحوا البوابات" أمر رجاله، فأطاعوا على الفور. التفت إلى ساتورنينوس وقال له مودعًا: "ابق هنا، بحق هرقل!، وسيحميك رجالي، وحتى يحين اللقاء، سأرتب لمحاكمتك أنت وغلاوسيا، قد يصل الأمر إلى العفو عنكما أو تعديل المرسوم".

"ليس ثمة ما يمكن المساومة به، إما أن تناضل أو تموت وإذا قمت..."

رد منبر الشعب.

"سوف يدعمنا ميتيلوس" قاطعه ماريوس.

"هذا مستحيل، اللعنة! لا يمكن أن يحدث ذلك بحق جوبيتر!" صاح ساتورنينوس بغضب.

"أغلقوا الأبواب" صاح القنصل في جنوده، دون أن يُجبه، وعلى الفور دفع المحاربون القدامى الأبواب البرونزية الثقيلة.

ظل ساتورنينوس يتوسل إلى الآلهة ويلعن ماريوس، لكن توسلاته لم تحل دون سجنه داخل المبنى. تحول كوريا هوستيليا إلى سجن استثنائي في وسط روما، ليقبع وحيدًا داخله في ظلمته، أغلقت الأبواب وتركوا له مشعلين فقط بأمر القنصل إذ خشي أن يتركه في الظلام.

انتبه منبر الشعب، المعارض الشرس للأوبتيميتس، إلى تلك المفارقة؛
فالمكان الذي أُجري فيه التصويت على إعدامه بات الآن الملاذ الآمن
الوحيد بالنسبة له.

اتفاق مستحيل

منزل عائلة جوليا، عام ٩٩ قبل الميلاد

(في نفس تلك الليلة)

عاد غايوس ماريوس إلى منزل عائلة جوليا، بوجه جاد للغاية. في ردهة المنزل، استقبله مرة أخرى يوليوس قيصر الأب وزوجته أوريليا، وكان بصحبتهما أوريليو كوتا، شقيق أوريليا، إذ تشهد روما ليلة شاقة، لذا حرص أفراد العائلة على التجمع.

"ماذا حدث؟" سأله مضيفه، بينما يدعو للجلوس على أحد الأرائك المخصصة للطعام.

"لم يعد ثمة وقت للشرب أو للراحة؛ على الأقل حتى يمر هذا الليل الطويل، لقد جئت لإطلاعكم على آخر المستجدات، والتأكيد عليكم بضرورة تأمين الأبواب والنوافذ. يجب ألا يخرج أحدكم قط، فالليلة سوف يراق الكثير من الدماء، أسعى كي لا ينتهي الأمر بمجزرة، ولست أدري هل سأتمكن من ذلك أم لا" أجاب.

"لن تستطيع" علق كوتا بنبرة تشي بشعوره بالتفوق عليه، بتلك النبرة التي يستخدمها أولئك الذين يعتقدون أنهم يدركون العواقب الوخيمة التي عميت عينك عنها. وعندما تحين لحظة الكارثة، يرددون تلك العبارة اللعينة "لقد أخبرتك بذلك من قبل"، لكن ماريوس تجاهله.

"لقد احتجزت ساتورنينوس في الكوريا هوستيليا، تحت حراسة قدامى

المحاربين، بقيادة سرتوريوس، وهو قائد مخلص وشجاع، بينما لم أتمكن من العثور على غلاوسيا بعد، لكن رجالي مستمرون في البحث عنه؛ الأحق يعتقد أن الهرب يمنحه أماناً أكثر، أعتزم المطالبة بمحاكمتها، وليس هذا فقط، بل سوف أتفاوض حتى يتم تخفيف حكم الإعدام الصادر بحقهما إلى النفي، لذا فالمحاكمة مجرد فرصة لكسب الوقت".

رأت أوريليا أن شقيقها يحاول، مرة أخرى، التحدث بنبرة لا تليق بشخص بحجم ماريوس، القنصل ست مرات، والقائد الذي دافع عن حدود روما ضد يوغرطة، وضد الكيمبريين والتوتونيين، وساهم في توزيع القمح على جميع الشعب. رجل مثل هذا يستحق، على الأقل، الاحترام، حتى وإن كان قد حقق الكثير من تلك الأشياء بمساعدة أشخاص مثل ساتورنينوس وغلاوسيا، ولم يكن الأوبتيميتس أفضل بكثير أيضاً في الواقع، بل بدوا وكأنهم خلقوا بلا ضمير.

لهذا السبب قررت التدخل وطرح السؤال الذي تكهنت بأن شقيقها سيطرحه. أملت في أنه لو صدر عنها وبنبرة أكثر اعتدالاً، لن يكون الأمر مسيئاً إلى غايوس ماريوس، الذي فضّل مشاركة التفاصيل الحرجة التي تشهدها الساحة السياسية في روما، معهم، وتحديدًا ما يخص هذه الليلة الغامضة.

"وماذا ستقدم لهم كي يقبلوا بالتفاوض؟ أعني إلى الأوبتيميتس" سألته بهدوء وهي تقدم له كأساً من النبيذ كانت قد سكبته بنفسها أثناء حديثه. ورغم قوله إنه لا يوجد وقت للشرب، قبل الكأس وأخذ رشفة، ثم شكرها وأعادها إليها مرة أخرى، فوضعتها على صينية كانت على المنضدة، وتقدم أحد العبيد وحملها ثم اختفى في أحد الزوايا.

"سأعرض على الأوبتيميتس عودة زعيمهم، ميتيلوس نوميديكو، وسوف أذهب الآن مباشرة إلى منزل ابنه كي أتفاوض معه. من المؤكد أنه سوف يقدر فكرة عودة والده من المنفى بعدما أجبر على ترك وطنه".

وافقه يوليوس قيصر الأب الرأى، بينما لم يعلق كوتا. بعد ذلك ودّعهم
غايوس ماريوس وانصرف. سار عبر شوارع روما الحالكة، التي أوشكت
على الانفجار، يرافقه وحدة من قدامى المحاربين.
"لن يحقق أي شيء" أصدر كوتا حكمه.

"يحتمل، لكنني سأكون ممتنة لك لو تصرفت وأنت في منزل زوجي،
في منزل عائلة جوليا، بصفتك ضيفاً، ومن ثم تمتنع عن إزعاج الضيوف
الآخرين. أنا أفدرك وأحبك يا أخي، وأعلم أنك تتحدث بحكمة وأنفق معك
في أنه ربما ماريوس يُبلي أفضل في ساحة المعركة، ولا يمكن اعتباره رجل
سياسة، لكنه على الأقل يحاول، وللتجربة قيمة في حد ذاتها" أجابت أوريليا.
صمت أوريليو كوتا لبرهة، ثم نظر إلى صهره وقال: "أتمنى ألا أكون
قد أزعجتك أنت أيضاً يا غايوس. كما تقول أختي، أحياناً أتصرف بطريقة
هو جاء".

"ليس ثمة داع للاعتذار، لكن، بحق هرقل عليك، أتفق مع أوريليا في أننا
يجب أن ندعم ماريوس، إنه دائماً يسعى للتقارب معنا".

"وهذا ما أخشاه، قد تكون لصداقته تلك عواقب سيئة علينا؛ إذ أتوقع أن
يسعى مجلس الشيوخ لاستعادة كل ما فقدته على مدار السنوات الأخيرة التي
شهدت هيمنة ماريوس وساتورنينوس وغلاوسيا وغيرهم من المدافعين عن
حقوق الشعب. إن الأوبتيميتس الأكثر تشدداً يقاومون وسيبدلون قصارى
جهدهم لإفشال مساعيه، هم فقط كانوا ينتظرون ذريعة للبدء في مخططهم
وقد محنهم إياها مقتل ميموس. والآن لن يوقفهم أي شيء ولا أي شخص،
حتى وإن كان ذلك الشخص هو ماريوس، لن يهتمهم كم مرة انتخب لمنصب
القنصل" قال كوتا، ثم لم يزد كلمة واحدة.

سقط الصمت، وشُحن الجو بالشعور بعدم الارتياح، وتوترت الأجواء.
"يجب أن أنصرف الآن" قال كوتا أخيراً. لم يشعر باستعدادهما
لاستكمال المناقشة معه، ولا ترحيبهما بكلامه، كان ما قاله قاسياً بقدر ما
كان واقعياً.

"ليس من داع لقول هذا يا أخي، بيتي هو بيتك، لقد طلبت منك فقط أن تتعامل بلطف مع الضيوف الآخرين. وحتى إن كنت تختلف مع ماريوس في كل شيء تقريبًا، فسوف تتفق معه، على الأقل، في أن وضع المدينة خطير للغاية الليلة" أجابته أوريليا. وعندما رأت أخاها يومئ برأسه مؤيدًا لها، أضافت وهي تنظر إلى زوجها: "الآن أطلب منك البقاء هنا حتى طلوع الفجر".

فصدّق يوليوس قيصر الأب على دعوتها: "هكذا تصبح في مأمن".

"سوف أمرُّ بإحضار العشاء لنا؛ لتتشاطر الأكل معًا. إن كنا نحتاج إلى شيء واحد كي نجتاز تلك المرحلة، في وقت تشهد روما صراعات داخلية، فهو أن نحافظ على وحدتنا. أنا لا أعتز بالخلافات داخل الأسرة الواحدة".

ردده منزل آخر في حي سوبورا، روما

"لا لا لا" صاح غلاوسيا، بريتور روما، حليف ساتورنينوس وماريوس في نضالهما من أجل إعادة توزيع الأراضي ومعارضة سياسات الأوبتيميتس، مستغيثًا، بينما يجره القتل المأجورون من قبل مجلس الشيوخ؛ لقد لجأ إلى الاختباء داخل منزل أحد الأصدقاء بمجرد معرفته بموافقة أعضاء المجلس على المرسوم. كان يستهدف الخروج من المدينة، لكن عرقله انتشار مئات من القتلة الذين دفع لهم الأوبتيميتس الأكثر تشددًا، يمشطون الشوارع، وبمجرد إعلان المرسوم أصبحت محاولة الهروب بالفعل مستحيلة تمامًا.

لذا احتفى بمنزل صديق له اعتقد أنهم لن يراقبوه أبدًا، لكنه كان مخطئًا. لقد فتح له ذلك الصديق المزعوم أبواب منزله، وانصرف هو وباقي أفراد أسرته. ثم ما لبث أن بلغ عنه، وكشف للقتلة عن مكان اختبائه، كي ينأى بنفسه وبعائلته عن انتقام الأوبتيميتس، إذا ما علموا بأنه ساعد البريتور الهارب.

أحكم إغلاق باب المنزل، المصنوع من خشب سميك، بقطعة عرضية قوية من خشب الصنوبر، لكنها لم تصمد أمام رجال الأوبتيميتس، إذ سرعان

ما تهشمت بفعل ضغط الجذوع التي استخدمها المقتحمون وانكسر الباب وأفسح المجال لدخول مجموعة من أعنف القتلة المأجورين، وعلى الفور أحاطوا به، فأخذ يصيح: "لا، اللعنة...!" وحوله رجال كالوحوش الضارية، مسلحون بخناجر أخذوا يلوحون بها أمام عينيه، ثم شُق الصف، وتقدم قائدهم، فتعلقت أنظارهم به، إنه لوسيوس كورنيليوس سولا، دخل إلى الردهة، وأمسك بفريسته بسرعة. وكان ميتيلوس قد قسّم المهمات، فأولى مهمة العثور على البريتور، غلاوسيا، واعتقاله إلى سولا، أما اللحاق بمنبر العوام، ساتورنينوس، فوقع على عاتق دولابيل.

كان سولا يحرص دائماً على تنفيذ أوامر الأوبتيميتس بأكبر سرعة ممكنة، كي يزداد احترامهم له أكثر فأكثر وينال إعجابهم بكفاءته في القتل، ليس فقط في ساحة المعركة ضد البرابرة، حيث أظهر مهاراته بالفعل، ولكن أيضاً داخل روما.

"اقتلوه" أمر سولا رجاله بهدوء، بصوت أشبه بالهمس، فالأوامر الأكثر دموية تبدو أشد فتكاً، أكثر عنفاً، عندما تصدر بنبرات هادئة، كما لو كانت ليست نابعة من الغضب الجرم والكرهية، بل عن قرارات حكيمة وموزونة.

"لا أرجوك! أستحلفك بكل الآلهة...!" ظل غلاوسيا يصيح، بينما يسددون له الطعنات الواحدة تلو الأخرى، ضربات دقيقة موجعة، تشهد للقتلة بالكفاءة والخبرة التي اكتسبوها مع تكرار تنفيذهم لجرائم قتل مدفوعة الأجر.

منزل ابن ميتيلوس

استقبل ميتيلوس الابن، فنصل روما في منزله في منتصف تلك الليلة السوداء المليئة بالدماء.

"ما ما ماذا تريد؟ ما الذي جا جا جاء بك إلى هنا، أأنت عدوًا لنسل ميتيلوس؟" سأله. كان يضغط بقوة على كل حرف ينطق به.

لم يتلعثم ميتيلوس الابن بسبب توتر أعصابه، لكنه كان يعاني عيبًا في النطق يلزمه منذ صغره، ولم يستطع التخلص منه. نقطة الضعف تلك منعت من إلقاء الخطب أمام العامة، وحدثت من اختلاطه بالآخرين بشكل ملحوظ. إلا أن كونه ابنًا للقائد العظيم للأوبتيميتس، الذي يقبع في المنفى قسرًا، أكسبه مكانة فريدة بين المحافظين، لا علاقة لها بقدراته.

وقفا في وسط الردهة المزدهمة بالرجال المسلحين، بدا هذا هو المظهر العام في بيوت روما تلك الليلة، دخل غايوس ماريوس يرافقه ستة من رجاله، سُمح له باصطحابهم إلى الداخل لأن ميتيلوس الابن لديه عدد كافٍ من الحراس في منزله. ولم يكن لنصف دزينة من قدامى المحاربين أن يشكلوا تهديدًا له، ومع الأخذ في الحسبان أن القنصل، على أي حال، لم يأت للقتال، بل للتفاوض، في الواقع أراد التوصل إلى اتفاق مستحيل، كما أخبره أوريليو كوتا مرارًا وتكرارًا، جالت برأسه فكرة وسأل نفسه: "هل أنا على صواب بحق؟" لكنه فضل ألا ينتبه للشكوك، وقال:

"دعنا نضع كل خلافاتنا القديمة جانبًا" في محاولة لإخماد الخصومة التي نشأت بينه وبين والد محدثه بسبب رغبة كليهما في قيادة الحرب في إفريقيا. لكن ماريوس انتصر فيها بجدارة، الأمر الذي لم يتسامح فيه نسل ميتيلوس أبدًا؛ إذ تعاملوا مع تلك الحرب بصفتها أمر خاص بهم، وإرث للعائلة لا يمكن التنازل عنه.

كان ميتيلوس نوميديكو قد فشل في تحقيق النصر وطال أمد الانتظار، فخلفه ماريوس في قيادة القوات الرومانية في إفريقيا، وحقق النصر المطلق وجلب معه إلى روما الملك الإفريقي يوغرطة بنفسه، وجره مقيدًا بالسلاسل عبر شوارع روما أثناء حفل النصر الذي أقيم تكريمًا لانتصاراته، في عرض عسكري أدهش المؤيدين لميتيلوس، خنقهم إلى الأبد، رأوا أن هذه الاحتفالات، والملك المقيد بالسلاسل، والنصر الساحق، وكل شيء يتعلق بحرب إفريقيا كان ينبغي أن يُنسب إلى ميتيلوس.

"إن كُ كُ كُنْتُ أضع الـ الـ الماضي في حسابني أيها القنصل، ما كنت لأسمح لك بالدخول حتى وإن كنتَ بمفردك" أجابه ببرود غير ملائم للموقف، أم تراه كان مقصودًا؟

نظر ماريوس حوله، رأى عشرات المسلحين تضيء وجوههم المشاعل، وآخرين يقفون وسط الظلمة.

"أعلم أن ساتورنينوس وغلاوسيا قد ذهبا بعيدًا للغاية، لكن دعونا نتوقف قبل أن تتحول روما بأكملها إلى بحر من الدماء..."

"أحيانًا يُـ يُـ ينقّي الدم" قاطعه، ثم أضاف عبارة باللغة اليونانية لم يستطع ماريوس فهمها*، فسخر منه العديد من الحاضرين، الذين كانوا يفهمون اليونانية، مجاملة لصاحب المنزل الضخم، وولي نعمتهم.

اعتاد ماريوس سخرية عائلة ميتيلوس من معرفته الضئيلة باللغة اليونانية، لقد اعتبروه أخرق وغير متعلم وبطيء الفهم، رغم أنه محظوظ في القتال. وكان القنصل المخضرم يعلم أن تصريحهم علنًا بأنه جندي حظ وليس عبقرًا أمر سخيف بحق، لقد حقق انتصارات كثيرة ضد الأفارقة والكيمبريين والجرمان إلى حد أنه لا يمكن أن يعتقد العامة أو حتى أعضاء مجلس الشيوخ الأعداء له، أن كل شيء يمكن أن يُنسب للإلهة فورتونا، إلهة النصيب والحظ. أزعجه أنهم واصلوا السخرية منه لعدم معرفته باليونانية، دون أن يدري كيف يرد لهم سخريتهم برده عليهم؛ إذ انصبَّ تفكيره دائمًا على تنظيم الصفوف والقوات في ساحات المعارك، فعل ذلك الآن أيضًا، تجاهل الإهانة وركز مباشرة على النقطة الرئيسية في التفاوض مع ميتيلوس بيوس.

"عودة والدك من المنفى مقابل ميثاق يضمن للمنبر ساتورنينوس والبريتور وغلاوسيا البقاء على قيد الحياة" اقترح.

توقفت الضحكات.

* خاصة إذا كانت دماء أعدائنا.

هدأ كل الموجودين، وتعلقت الأعين بابن الزعيم.

كان ميتيلوس نوميديكو، المعروف تاريخياً باسم "قاهر النوميديين"، قد نُفي قبل التصويت لصالح القوانين التي اقترحها ساتورنينوس في مجلس الشيوخ، واستغل البريتور غلاوسيا، وقادة شعبيون آخرون رحيله لمصادرة العديد من ممتلكاته، وطرده رسمياً من مجلس الشيوخ، وتجريده من الجنسية الرومانية.

"عودة أ أ أبي، واسد اسد استعادة ممتلكاته، ومن من منصبه في الكوريا، وجنسيته" كرر ميتيلوس جونيور متأملاً.

أوما ماريوس برأسه موافقاً على الفور دون التفكير لحظة واحدة، وأضاف مؤكداً: "وكل حقوقه".

حينها حل صمت جديد كثيف للغاية عززه ازدحام الردهة وضوء المشاعل. عندما يسود الصمت في مكان هادئ يمنحه السكينة، لكن صمتاً مثل هذا، وسط مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين والمتوترين، يصبح مزعجاً وثقيلاً.

وفجأة، بعد بضع ثوان، تغيرت ملامح ميتيلوس الشاب، وانفجر في الضحك وقال:

"أنت لست في وضع يسد يسد يسمح لك بالتفاوض، هناك مر مر مرسوم يجب الالتزام به، فضلاً عن...".

"فضلاً عن ماذا؟" قاطعه ماريوس، كان واثقاً من أنه سيقنع بالعرض، مع ذلك...

"لقد تأخرت كثيراً؛ ساتورنينوس وغلاوسيا سوف يعدمان بـ بيدك إن كنت حريصاً على الاحتفاظ بمنصبك، أو على أيدي رجالنا، إن لم يكن الأمر كذلك. بعدها نعرض سيطرتنا على روما، ونحن، الأوبتميتيس، ومجلس الشيوخ نصدر قراراً يعيد لوالدي الجنسية وممتلكاته ومنصبه في الكوريا. في الواقع لست بحاجة إلى دعمك من أجل أي شيء...".

رفع ميتيلوس الابن رأسه قليلاً، ينظر نحو كتف ماريوس، ووجه سؤالاً لشخص يقف خلفه:

"إن لم أكن مخطئاً، لا بد أن غلاوسيا قد قُتِل بالفعل، أليس صحيحاً يا لوسيسوس؟".

استدار غايوس ماريوس نحو الوافد الجديد، وكان لوسيسوس كورنيليوس سولا، بسترته المملطخة بالدماء. كان سولا قد شارك مع ماريوس في الحرب في إفريقية والقبض على الملك يوغرطة، لكن جهوده الآن موجهة لإرضاء شغف عائلة ميتيلوس على وجه الخصوص، والأوبتيميتس بشكل عام. في تلك الليلة، تأكد ماريوس أن سولا ينحاز للجناح الأكثر تشدداً في مجلس الشيوخ.

"هذا صحيح" أكد سولا، وتظاهر بمحاولة إزاحة بقع الدم العالقة بردائه، ثم وجه نظرة تحدٍ إلى ماريوس وأضاف:

"أصبح غلاوسيا جزءاً من الماضي".

"كنت أعلم أنك ستتورط في الأمر، لكنني لم أعتقد أنك ستنفذ المهمة بنفسك" علق ماريوس بازدراء.

"أوه لا بحق جوبيتر، أنا لا أصبغ خنجري بدم شخص دنيء مثل غلاوسيا، لكنه استمر في الانتفاض بينما كان رجالي يطعنونه، وتناثرت الدماء في كل الاتجاهات، يالأسف على البقع، لكن لا بأس، فالمشهد يستحق" قال سولا متظاهراً بالاستمتاع.

همّ ماريوس بالرد عليه، لكن ميتيلوس سبقه وسأله: "وماذا عن ساتورنينوس، بحق هرقل، إنه أردلهما".

"دولابيللا يتولى أمره".

لم يعرف ماريوس عن دولابيللا أكثر من طموحه المفرط، ولم ير أن لديه قدرات مميزة في أوقات الحرب أو الرخاء، ولا من أجل الخير أو للشر،

أي لم يأتِ بفعل له قيمة أكثر من مواصلة تشجيع سولا على الانشقاق عن صفوف ماريوس. لهذا السبب سمح القنصل المخضرم لنفسه بالسخرية منهم قليلاً، كان بحاجة إليها، لقد سخروا من أدائه في السياسة، ومعرفته الضئيلة باليونانية، وعجزه عن التفاوض، ولهذا قرر أن يواجه السخرية بالسخرية، فضحك ضحكة صاخبة وقال: "ها ها، بحق جويتر، الآن أسخر منكم" وأوضح؛ لأن التسلية بالنسبة له كانت تكمن في رؤية وجوههم بعدما يفسر لهم الأمر: "حسناً، تبحثون عن ساتورنينوس وتريدون إعدامه، لكن ستجرى محاكمته، كي يفضح كل ما حدث ويحدث، بداية من التجاوزات وربما الجرائم التي ارتكبتها ساتورنينوس مروراً بالتجاوزات والجرائم التي ارتكبتها بعض السيناتورات. لنرى بعد ذلك ما يقرره الشعب، ونرى كذلك ما إذا كان لديكم عدد كافٍ من الرجال كي تتمكنوا من السيطرة على روما، والوقوف ضد قدامى المحاربين والعوام. لقد احتجرت ساتورنينوس في مبنى الكوريا، وبالطبع لن تقوموا بإضرام النيران في مقر المجلس ولقد عينت أكفاً ضباطي، سرتوريوس، لقيادة أفضل المحاربين لحراسة البوابات. الآن قل لي هل أنت متأكد من أنك لا تريد التفاوض؟".

نظر ميتيلوس إلى سولا، بغضب مستتر، لأن المحاكمة العلنية، مهما بلغت قدرتهم على التلاعب بها، لن تصب في مصلحتهم. في الواقع، وكما توقع ماريوس، قد تفضح الكثير من انتهاكات شيوخ المجلس، وهذا من شأنه إثارة غضب الشعب ضدهم، وقد يخرج الوضع عن السيطرة، لذا كانت الخطة هي اغتيال ساتورنينوس وغلاوسيا في تلك الليلة وتوريط ماريوس في العملية برمتها، بشكل أو بآخر، وبهذا تنفك عقدة التحالف الثلاثي المكون من منبر العوام والبريتور والقنصل، الذي يترأس الفصيل الشعبي، المتمثل في حزب البيولاريس، وهكذا يضمن الأوبتيميتس ألا تقوم ثورات كبرى، وشيئاً فشيئاً يستعيدون السيطرة على السلطة الكاملة، لكن وضع ساتورنينوس قيد حراسة رجال ماريوس داخل مجلس الشيوخ قد يغيّر سير الأحداث...

نظر سولا بريبة إلى ميتيلوس، ثم تطلّع إلى ماريوس، البالغ من العمر ٥٨ عامًا، الذي تولى منصب القنصل ٦ مرات، وأقيم على شرفه حفل نصر عظيم. بينما هو سولا، شاب عمره ٣٩ عامًا فقط بالكاد يتمتع بمزية معترف بها، كما أنه مُني بالهزيمة في آخر انتخابات أجريت لاختيار البريتور بسبب قوة تحالف الشعبي الثلاث، رأى كيف تمر الأيام وهو لا يزال ثابتًا في منصبه، لا، بل عرقل تقدمه ماريوس الذي يكرهه. هل ينجو من العقاب مرة أخرى؟ مُطلقًا، ليس هذه المرة.

أدرك سولا أنه يشهد الآن إحدى نقاط التحول في دورة حياة البشر، حين يأفل نجم أحدهم شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى تمامًا بالتزامن مع بروز آخر على الساحة: في تلك الليلة كان ماريوس هو الشخص الذي ينحدر بينما هو يسمو يرتقي.

ومع ذلك، ارتكب القنصل المخضرم خطأ فادحًا عندما قلل من قدرة دولابيل على القيام بأعمال عنف دموية. صحيح أنه حتى تلك اللحظة لم تكن قدراته قد برزت إلا في مواقف ضئيلة، من النوع الذي لم يجذب انتباه القناصلة أو المنابر أو البريتور، لكن ما برز دلّ بلا شك على توجهه وطبيعته. تحاشى سولا النظر إلى ماريوس والتقت عيناه بعين ميتيلوس، وقال بثقة تامة: "سوف يتولى دولابيل أمر ساتورنينوس، إنه... "توقف، فكر في وصف مناسب بعناية وأضاف: "له دوافعه الخاصة".

استوعب ميتيلوس على الفور مقصد سولا؛ وسأله: "لكنه لن يحرق مبنى مجلس الشيوخ، أليس كذلك؟".

"بالطبع لا، سوف يجد حلًا" أجاب سولا بثقة.

أطرق ماريوس، ولم يعلق. برغم موقفه، ودعمه لساتورنينوس، تفهّم دوافع دولابيل الشخصية، إذ قُتل والده قبل بضعة أشهر فقط في شجار ليلي مع أنصار ساتورنينوس، وبلا شك، هو متحمس للغاية للثأر ممن حرض على قتل والده. فكر أنه لو كان ابنه في مكانه لفعل نفس التصرف. حينها

أدرك أن الأمر ليس هينًا كما ظن، وأراد العودة إلى المتددي بأقصى سرعة للانضمام إلى سرتوريوس وحماية الكوريا.

ثبت ميتيلوس نظره على القنصل المخضرم، فكر في إصدار الأمر بقتله، هنا والآن، لكن أعضاء مجلس الشيوخ لن يوافقوه إذا ما فعل ذلك؛ ثمة كثير منهم يحترمون ماريوس؛ لأن انتصاره الأسطوري في معركة "أكواي سكستيا" ضد الجرمان، الذي أنقذ روما من غزو مريع وُصف بأنه أشبه بغزو حنبل، لم يغب بعد عن الذاكرة.

كان من الأفضل اتباع الخطة والقضاء على الأعداء الواحد تلو الآخر، وسوف يحين موعد ماريوس وليلته الأخيرة لا شك. يومًا بعد يوم سيقوضون هيئته، سيحدث ذلك قريبًا، حتى يسقط من شجرة الطموح مثلما فعلوا بالعديد من قبله، مثل ثمرة فاكهة نضجت بإفراط ولا بد من قطعها. ها هو غلاوسيا قد قُتل، ولم يتبق الكثير على الإطاحة بساتورنينوس إلى الأبد، فالمسألة... مسألة وقت.

"أرى أن الوقت قد حان كي ينصرف القنصل من بيبيتي" قال ميتيلوس، مضيفًا عبارة أخرى باليونانية: "Arx Tarpeia Capitolii próxima".

لم يقل ماريوس شيئًا، لكنه فهم بوضوح التهديد وكان المقصود أنه مهما اعتلى المرء من مناصب قيادية بارزة قد ينتهي به الأمر إلى صخرة تاربيان القريبة للغاية من ساحة الكابيتول والمتددي، والتي شهدت تنفيذ عقوبة الإعدام على كثير من المجرمين في روما. ومع ذلك لم يردّ القنصل، لكنه أحاط علمًا بهذا التحذير. ودون كلمة وداع، استدار محاطًا برجاله وتركوا منزل السناتور المنفي، الذي لم يغفر له أبدًا أنه هو من حقق النصر في إفريقيا.

حث الخطي. كان جُل ما يشغله، في تلك الأثناء، هو الوصول إلى مقر مجلس الشيوخ في أسرع وقت ممكن. ورغم ثقته الراسخة في قدرة

* "إن صخرة تاربيان قريبة من ساحة الكابيتول".

سرتوريوس وكفاءته، إلا أن نظرات سولا الغاضبة والماكرة كانتا تشيان بأن دولابيل اللعين قادر على الوصول إليه، لذا قرر العودة إلى المنتدى للمرة الثانية في نفس الليلة. بعقل مليء بالشكوك، دلّه حدسه إلى أن حدثًا خطيرًا يوشك على الوقوع.

انتقام الألواح

متندى روما، قرب مبنى كوريا هوستيليا، عام ٩٩ قبل الميلاد

(في نفس الليلة)

سار دولابيللا محاطاً بأكثر من ١٠٠ من القتلة المأجورين بإصرار نحو مبنى كوريا هوستيليا، كان جاداً للغاية، وفي الوقت نفسه هادئاً وصامتاً، علقت عليه أنظار رجاله، كان الجميع يعلم أن ساتورنينوس يختبئ خلف الأبواب البرونزية، وأن مجلس الشيوخ أمر باعتقاله وإعدامه بشكل فوري بقرار نهائي، لكن الأمر بالنسبة لدولابيللا لم يكن مجرد قرار قانوني واجب التنفيذ فحسب، بل كانت مسألة شخصية والقتلة يلتفون حول الراغب في الثأر.

"لقد حشد ماريوس قدامى المحاربين عند المدخل" قال أحدهم.

نظر المأجورون بارتياح إلى قائدهم، توقف دولابيللا على بُعد خطوات قليلة من قائد تلك الوحدة العسكرية الداعمة للقنصل، إنه سرتوريوس، حدثه عنه سولا من قبل، يعرف أنه قائد شجاع ويتمتع بالكفاءة.

حتى الآن لم يجب.

أخذ يتأمل ما حوله بعناية.

كي تثار بحق، لا يجب أن تأخذك العجلة، بل عليك بالتخطيط الدقيق وانتظار اللحظة المناسبة لتوجيه الضربة القاضية، كي تنهي عدوك بضربة واحدة في توقيت محسوب بدقة متناهية.

تابع كويتوس سرتوريوس وصول قتلة دولايلا بالعشرات، تسللوا مثل تيار من المياه العكرة على طول طريق فيا ساكرا* العريق حتى توقفوا أمام الكوريا مباشرة. توقف قائدهم على مقربة منه، ثم أخذ يقترب خطوة بخطوة بهدوء وحكمة، حتى أصبح على بُعد خمس خطوات، بل أربع، ثلاث، اثنتان.

"كفى!" صاح سرتوريوس وهو يتحسس غمد سيفه بيده اليمنى يهّم بإخراجه.

توقف السناتور الشاب عن التقدم، وابتسم.

مرت بضع ثوان، لم يقل أي منهما كلمة واحدة.

حدق عضو مجلس الشيوخ إلى الضابط بنظرة جامدة، ثم قال له: "انصرف أنت ورجالك، وإلا أربق الكثير من الدماء".

"لدينا تعليمات بالبقاء هنا حتى عودة القنصل ماريوس، وأنا أفضل دائماً اتباع الأوامر" أجابه سرتوريوس.

"أنفهم ذلك" قال دولايلا بعد صمت لبرهة، ثم ابتسم مرة أخرى قبل أن يضيف: "حسناً" فاستدار عائداً إلى حيث يقف رجاله.

كان سرتوريوس قد خدم في حملات عسكرية مختلفة تحت قيادة ماريوس، وهو رجل لا يتأثر بالتهديدات سواء المباشرة أو المواربة. فكر بسرعة، بلغ عدد القتلة حوالي ١٠٠ رجل، بينما كان معه ٣٠ جندياً مخضرمًا، تلقوا تدريباً جيّداً وحاربوا في معارك عديدة. ورغم تفوق الأعداء عددياً إلا أن عددهم أُعتبر كافياً بدرجة تسمح لهم بالمواجهة بالنظر إلى قدراتهم الفائقة، وبغض النظر عن قوة بض أولئك القتلة المأجورين، أو بالأحرى، المبالغ التي حصلوا عليها، يمكن لرجال ماريوس التفوق عليهم في القتال.

* الشارح الرئيسي في روما القديمة.

أخرج صافرته التي كان يستخدمها لتوجيه الأوامر للجنود من بين ثنانيا زيه العسكري. لقد تدرج في المناصب حتى أصبح ليغاتوس* يقود فيلقًا كاملاً، وحاد الوقت لتذكر أيامه القديمة عندما كان قائد مائة**. أحب ذلك، ذكره الموقف بالماضي، رفع الصافرة إلى فمه، الآن هو من يتسم، ثم نفخ بكل ما أوتي من قوة...

منزل عائلة جوليا

"لا أصدق أنك تعتقد حقًا أن كل ما يحاول غايوس ماريوس فعله خاطئ، إنه يسعى إلى تخفيف المظالم في روما" قالت أوريليا وهي جالسة تحتضن قيصر الابن بين ذراعيها.

تنهد كوتا، وأجاب: "لا يا أختي، بالطبع لا أعتقد ذلك، بل أرى أنه من المستحيل القضاء على هذا القدر من الظلم. رغم أنني أؤيد ضرورة تغيير القوانين، بحيث تضمن توزيعًا عادلًا للأراضي على أبناء الشعب الرومان، وكذلك تلبية مطالب سكان المناطق المتحالفة معنا إلى جانب أمور أخرى كثيرة... لكن هذا ليس الوقت المناسب. لا يزال الأوبتيميتس أقوياء، أقوياء للغاية، وفي الواقع، هم... لا يقهرون، لم يواجههم أحد قط واستطاع أن ينجو، ولن يتمكن حتى شخص بقدر ماريوس، الذي انتخب لمنصب القنصل ست مرات، من هزيمتهم".

كان يوليوس قيصر الأب يتابع المحادثة، لكنه لم يتدخل ولم يعقب، على الرغم من أنه اتفق مع صهره في رؤيته السوداوية حيال ما تشهده روما. "لا أعتقد أن من يمتلك القدرة على مواجهتهم والتغلب عليهم قد وُلد بعد" تابع كوتا وهو يحرك رأسه نافيًا.

لم تجب أوريليا.

ضمت يوليوس قيصر الرضيع بلطف.

* هو أعلى رتبة من الأطربون، كان يتلقى أصحاب هذا المنصب نسبة ضخمة من غنائم الحرب.

** قائد مائة هو منصب في الجيش الروماني، يسمح للضابط بقيادة نحو ١٠٠ من الجنود.

غادر غايوس ماريوس منزل ميتيلوس مقتنعًا بأن كل شيء أضحى أكثر تعقيدًا مما تصوره، تمامًا كما حذره كوتا. لم يقبل ميتيلوس مجرد التفاوض بشأن عودة والده من المنفى، أبرز ذلك بوضوح أن الأوبتيميتس باتوا يشعرون بأن قوتهم أصبحت أكبر بكثير من قوة التحالف الشعبي، إنهم يقاومون وسوف يواصلون خططهم حتى النهاية.

قُتل غلاوسيا للتو، دماؤه علقَت برداء سولا الذي لم يخلعه بعد، لكن، على الأقل، ساتورنينوس لا يزال تحت حمايته داخل مبنى الكوريا. ورغم ثقته في رجاله وقائدهم، إلا أنه يعلم أن المجلس قادر على جلب عدد كبير من القتلة، لدرجة قد تستحيل معها مواجهتهم. حث الخطى كي يصل في أسرع وقت ممكن، بدا له وكأن الوطن كله انسكب كما ينسكب كأس من النبيذ.

منزل عائلة جوليا

جاءت الجارية لتأخذ الطفل وتضعه في مهده، وأحضر العبيد العشاء، وكان عبارة عن لحم طهي بتوابل تُجلب من الشرق وتباع في مجمّع الحوانيت في المنتدى، مخلوط بجبن الماعز بدرجات نضج متفاوتة، والكثير من النبيذ والزبيب والمكسرات للتحلية. وجبة لذيذة وغنية، دون إفراط في بدخ ليس في مقدورهم تحمله.

"إن كنت تعتقد يا أخي، أن أعضاء مجلس الشيوخ أقوياء للغاية الآن، فمتى تعتقد أنهم قد يضعفون؟ هل هذا مستحيل؟" قالت أوريليا بينما يتناولون الطعام.

هز يوليوس قيصر الأب رأسه وهو يتنهد، لقد أتعبه إصرار زوجته على الحديث عن السياسة، لكن لدهشته، رد صهره بجدية واهتمام حقيقي على السؤال المطروح.

"ربما يحدث ذلك مع مرور الوقت، في غضون سنوات قليلة، من يدري، قد تتمكن من إحداث تغييرات". لم تكن نبيرة كوتا حاسمة، بدا أنه يعبر عن آمالٍ أكثر من كونها حقائق مبنية على أساس منطقي، لكن جملته تلك جعلت زوج أخته يتوقف عن المضغ، وتوقفت أوريليا أيضًا.

منتدى روما

لا تزال صافرة سرتوريوس تدوي في أرجاء المنتدى، واستجابة لدعوته، قَدِمَ من كل جانب ٢٠ من قدامى المحاربين انضموا إلى رجال ماريوس. بلغ عددهم الآن ٧٠ جنديًا مخضرمًا، وجميعهم مستعدون للقتال ضد قتلة الأوبتيميتس.

تلاشت الابتسامة من على وجه دولابيل، تغيرت موازين القوى، كان يعلم أن قوات سرتوريوس تكونت من جنود شاركوا في حملات غايوس ماريوس ضد النوميديين في إفريقيا والجرمان في الشمال، أي أنهم مناضلون لا يعرفون الاستسلام. وكان قد شارك في بعض الحملات العسكرية، كان رجلًا فظًا، لكنه عرف تمام المعرفة أن معظم الذين تبعوه في تلك الليلة كانوا مجرمين اعتادوا القتل والسرقة اعتمادًا على عنصر المفاجأة والتفوق العددي، وأن أغلب جرائمهم ينفذونها في جنح الظلام، أما إذا ما انخرطوا في قتال مباشر ضد قدامى المحاربين، سيتهي بهم الأمر إلى الفرار، تراجع بضع خطوات إلى الوراء.

شعر سرتوريوس بمزيد من الأمان، كان قد عهد إليه بمهمة حماية كوريا في تلك الليلة، والحفاظ على حياة ساتورنينوس، منبر الشعب، بينما يتفاوض ماريوس حتى يصل إلى اتفاق يخمد جذوة الصراع بين مجلس الشيوخ ومنبر العوام، ومن ثم تجنب إراقة دماء جديدة، وقيل إنه كان يتقدم في خطته على نحو جيد.

في صمت عميق، واصل دولابيل تدبير خطة محكمة للتغلب على الأعداء؛ إذ بدا له أن الهجوم المباشر مضيعة للوقت... أم أنه ليس كذلك؟

"ماذا سنفعل" سأله أحد المأجورين.

"لقد تخلوا عن حراسة الجانبيين" قال آخر.

لم يجب دولابيللا، كان غارقاً في حديثه الداخلي.

في تلك الأثناء حشد قائد ماريوس جميع رجاله أمام البوابة، بدلاً من توزيعهم على حراسة جوانب المبنى، إذ كانت البوابة هي نقطة الوصول الوحيدة إلى كوريا هوستيليا؛ المبنى الذي لا يمكن اختراقه، فنوافذه كلها عالية.

"يمكننا محاولة اختراق المبنى من خلال تلك النوافذ" اقترح أحدهم عندما لم يجد رداً من القائد.

"لا، لا نستطيع، لأن المجلس دعمها بقضبان حديدية سميكة بعد أعمال الشغب الأخيرة حتى بات المبنى منيعاً" أجابه قائده.

"يمكننا إضرار النيران به باستخدام أقذاح نطلقها باتجاه سطحه، إن عوارض السقف من خشب" اقترح آخر؛ في محاولة للتوصل إلى حل بديل للقتال المباشر، الذي فضّلوا جميعاً تجنبه.

نكس دولابيللا رأسه وهو يفكر.

"من الأفضل ألا نفعل ذلك، نظرًا لرمزية المبنى من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن تلك العوارض الخشبية مغطاة بسقف من القرميد الطيني كي يحميه من المطر، لذلك لن تحدث النيران ضررًا يذكر... "توقف، ولم يكمل جملته.

"إذن ماذا سنفعل" أصرّ رجاله، أرادوا خطة محكمة لا تتضمن العراك المباشر.

"القرميد... "تمتم وهو يعرض على نواجزه.

تطلّع إلى سقف كوريا وابتسم مرة أخرى، ثم أشار إلى عدد من رجاله الثقات، فاقربوا منه على الفور لتلقي التعليمات، فهمس لهم بالخطة.

وبمجرد أن انتهى، سار أحدهم بعيدًا عبر طريق فياساكر، بينما بقي الآخرون في مواقعهم أمام قوات ماريوس.

ظن سرتوريوس أن المواجهة باتت حتمية وشيكة، فهز كتفيه لا مبالياً، لن يقلقه الانخراط في معركة أخرى، وصاح في قدامى المحاربين: "ارفعوا الدروع إلى الأعلى! بحق هرقل، أخرجوا السيوف من أغمادها". وبمجرد أن رأى القتلة جنود الفيلق يناورون باتساق، تراجعوا غريزيًا بضع خطوات إلى الوراء.

"اثبتوا في أماكنكم!" صاح دولابلا أمرًا. بات بإمكانه التأكد من أن رجاله ليسوا على استعداد لقتال مباشر ضد قوات تمتلك الخبرة مثل فيالق ماريوس، لكنه - في الوقت ذاته - كان يعلم أنهم لن يتمكنوا من إبعاد رجاله عن بوابة مجلس الشيوخ بما فيه الكفاية، لذا؛ اكتفى بالبقاء على بُعد مسافة آمنة بهدف إلهاء سرتوريوس ومحاربيه.

داخل مبنى الكوريا

كان المبنى مظلمًا إلى درجة أن ساتورنينوس وجد صعوبة في التحرك داخله، تنقل بالكاد من أحد الجوانب إلى الجانب الآخر، إذ ترك له ماريوس مشعلين فقط كي لا يقبع وحيدًا وسط ظلام دامس. عكست الإضاءة الخافتة ظلالًا طويلة أشبه بالأشباح، بدت وكأنها أشباح أولئك الذين حُكم عليهم بالإعدام، فخلف تلك الجدران اجتمع السيناتورات مرات ومرات للاتفاق على إعدام المعارضين لهم، وكل من حاول، مثله تمامًا، تغيير الأمر الواقع، ومواجهة احتكار مجلس الشيوخ للحكم والمطالبة بتعزيز سلطة الشعب. بعد ذلك اعتاد على الوضع وبدأ يتجول وسط الظلام متمتمًا: "اللعة...".

وفجأة، اندفعت الأصوات القادمة من الخارج؛ صافرة الجيش وصراخ سرتوريوس وأصوات القتلة.

"لست خائفًا منكم" غمغم، ونكس رأسه يائسًا.

حاول إيجاد مخرج من تلك الأزمة. هو على يقين من أن ماريوس واهم، حتى لو وافق الأوبتيميتس على التفاوض، فلن يسمحوا له ولغلاوسيا بالبقاء على قيد الحياة، يجب أن يهرب، نعم. إذا ما نجح ماريوس في إقناعهم بقبول التفاوض وإجراء محاكمة بدلًا من تنفيذ الإعدام مباشرة، عليه أن يستغل أي لحظة غفلة. ربما في الصباح، عندما يخرجوه من أجل المحاكمة يتمكن من الهرب، كما أن أنصاره كثيرون في المدينة، وربما يحضر بعضهم المحاكمة، وإذا ما تخللتها أعمال شغب قد يتمكن من الفرار. على أي حال، عليه أن يحاول؛ فانتظار حكم المحكمة النهائي يعد ضربًا من الجنون، فقد حُكم عليه وعلى غلاوسيا بالإعدام بالفعل، وحتى إذا قبل أعضاء الأوبتيميتس إقامة محاكمة علنية، فلن يتعد الأمر كونه مجرد عرض مسرحي هزلي، مثلما حدث من قبل عدة مرات.

وفجأة، سمع ساتورنينوس ضجيجًا آخر قادمًا من الأعلى، نظر إلى سقف الكوريا الغارق في الظلام، تسلل وقع خطوات شخص أعلى السقف إلى أذنه، كما لو أن أحدهم يتمشى فوق سقف المبنى العريق.

متدى روما، أمام مبنى الكوريا

شعر سرتوريوس بالارتياح قليلًا بعدما تحقق من يقظة جنوده، ومن ثم انشغل بمراقبة تحركات القتلة. بات الوضع تحت السيطرة ما منحه الهدوء والسكينة. كان كل ما يخشاه أن يجلب دولابيلًا المزيد من الرجال، لكن في الوقت الحالي، لم يكن ثمة ما يشير إلى ذلك، كما أن الموجودين لم يمتلكوا الجرأة على الاقتراب والمواجهة.

"هيا أيها الأطربون!" صاح شخص ما موجهًا نداءه إلى قائد قوات ماريوس.

التفت سرتوريوس إلى الجندي الذي يناديه، ذكره برتبته القديمة، لاحظ أيضًا أن كثيرًا من القتلة انصبّت أعينهم على سقف المبنى، إلى المكان

الذي صدر منه النداء. وفي ظل عتمة الليل، كانت الرؤية على مسافة كبيرة صعبة إلى حد ما، لكنه، وبفضل ضوء المشاعل التي يحملها جنوده ورجال دولابيل، لمح ظلالاً متحركة فوق سقف الكوريا، وما أن تحقق من الأمر حتى صاح بذهول:

"ماذا فعلتم بحق هرقل!"

أعلى قمة الكوريا

كان دولابيل لا يزال شابًا، عمره ٣٠ عامًا فقط، إلا أنه لم يكن رشيقًا، بل تخطى وزنه المعدل الطبيعي ببضعة كيلوغرامات، رغم ذلك تمكن من الصعود إلى أعلى المبنى بواسطة أحد السلالم التي نصبها رجاله. ارتقى بحذر شديد على طول السطح المنحدر، وقد أصر على اعتلاء المبنى لرؤية المشهد كاملاً من الأعلى بنفسه، لم يكن يثق بأحد، ولم يكن لدى أي شخص آخر قوة إصراره.

كان سرتوريوس منذ البداية قد ترك بقية جوانب المبنى دون حراسة وركز قواته عند الواجهة الأساسية، وهي خطة معقولة؛ فلم يكن معه عدد كبير من الرجال، لكن ذلك ترك لدولابيل فرصة لا يمكن تفويتها، لذا أمر رجاله بإحضار عصي و سلالم ومناشير. في البداية نظروا إليه بدهشة، رغم أن أحداً لم يعترض على كلمة واحدة مما قال. وفي غضون وقت قصير اجتمعت أطراف الخطة، أصبح لديهم بالفعل سلالم لتسلق المبنى، لأنها كانت تعد سلاحًا جيدًا في المواجهات الليلية في روما، وأكثر من ذلك في ليلة كتلك، كما جلبوا العصي متعددة الاستخدامات؛ لتحطيم الجدران والأبواب أو لشق الرؤوس. ولم يفكروا في أهمية المناشير، لكنهم نهوا محالً تجارية تباع جميع أنواع المتاع في المنتدى واستولوا على أكبرها.

ومن فوق سفح الكوريا واصل دولابيل إعطاء تعليماته للمأجورين.

"انزعوا البلاط!" صاح.

فاستجابوا سريعاً وبدؤوا ينزعون ألواح القرميد ويلقونها أرضاً في الشوارع المحيطة بالمبنى، حتى انفجر دولايبلا غاضباً وأمرهم:

"ويحكم ما أشد حمقكم! انزعوها وضعوها في أحد الجوانب، ثم قطعوا عدة عوارض من السقف الخشبي! نحتاج إلى صنع فراغ مناسب!".

لم يكن ثمة شخص واحد من بينهم يفهم ما يدور حوله، لكنهم على الأقل كانوا يعرفون أن الشخص المطارد يختبئ داخل الكوريا، وأنه منبر الشعب، وأن ثقباً في السقف يقربهم من الهدف.

داخل مبنى الكوريا

سمع ساتورنينوس ضربات مطرقة تدك السقف دكاً، ورأى أن بعض القتلة قد تسلقوا الجدران وخلعوا بعض ألواح القرميد، وفجأة، سقطت قطع سميكة من الجبس والألواح وتهشمت إثر ارتطامها بالفسيفساء في وسط الكوريا، فشقتها. كل شيء جرى بسرعة كبيرة، وما بدأ بتصدعات سطحية في السطح سرعان ما تحول إلى ثقب واسع في غضون ثوانٍ.

اعتقد ساتورنينوس أن القتلة سينزلون بحبال مربوطة بأحد العوارض الكبيرة في هيكل السقف، ويقتحمون المبنى من الأعلى، لكن بالطبع، وجودهم في الداخل سوف يعرقل فرارهم إذا ما فتح جنود ماريوس الأبواب ودخلوا لإغاثته... لم يفهم الغرض الدقيق من كل هذا، حتى -وبشكل غير متوقع- سقط لوح من القرميد قريب للغاية من موضع قدمه، ثم سقط آخر لكنه لم يصبه.

لم يكن ثمة مكان للاختباء، فقط تلك المساحة الهائلة من المدرجات الخالية من البشر، فكر في الاحتماء بأقربها إلى الحائط، لكنها كانت الأعلى ومن ثم الأقرب من السقف، مما يجعله هدفاً أقرب لأعدائه.

ظل يتنقل داخل القاعة لا يدري كيف يتصرف، بينما المزيد من ألواح القرميد يتهشم على الأرض وتتشقق الفسيفساء.

أعلى سقف كوريا

"بحق جوييترا! العوارض الخشبية تعيق التصويب!" صاح أحد القتلة.
"عليكم بالمناشير" أجابه دولابيللا وهو ثابت في مكانه، ففهم الجميع،
وعلى الفور، بدؤوا في قطع عارضتين.

جلب مجلس الشيوخ لدولابيللا قتلة مهرة في النهب والفتك، لكنهم
ليسوا فنيين جيدين، وكان أحدهم من الحماقة لدرجة أنه وقف على أحد
العوارض التي كان رفاقه ينشرونها، مستمراً في تصويب ألواح القرميد على
منبر الشعب، ولم يتبه حتى صاح فجأة مستغيثاً؛ إذ أحس بأن العارضة
تتهاوى وأنه على وشك السقوط، ولم تمر ثوان حتى سقطت العارضة
بالفعل وسقط هو ميتاً، فتناثرت دماؤه ولطخت عدة مقاعد.

"لا تتصرفوا بحماقة! من المفترض ألا يقف أحد على العوارض التي
نقطعها! تنحوا جانباً" وجههم القائد، وبعد قليل انهارت العارضة الثانية،
وبهذا أصبح لديهم حفرة واسعة في السقف وبات التصويب أسهل بكثير،
أمسكوا بالعديد من بلاط القرميد في أيديهم استعداداً لتنفيذ الأمر ببدء
القصف، حتى أمرهم:
"ابدؤوا الآن".

داخل مبنى كوريا

لم يكن ساتورنينوس قد استعاد القدرة على التفكير، أصابه الذعر لرؤية
الرجل الذي سقط من الأعلى فتحول جسده إلى أشلاء وتناثرت دماؤه. بعد
فترة وجيزة، انكسرت العارضة الثانية، تبعها تساقط قطع القرميد الواحدة
تلو الأخرى، أصابت أحدها قدمه، ثم كادت الثانية أن تمزق جلده، ثم جرح
كتفه الأيمن.

"اللعنة" أخذ يعوي وهو يتأوه، غمره وابل من البلاط المتساقط في كل
مكان، اقترب من الأبواب البرونزية وبدأ يطرق عليها صارخاً:

"افتحوا، افتحوا حالاً، وإلا فإن هؤلاء المجانين سيقتلونني هنا!" بينما واصلت الألواح تتبعه أينما ذهب، لكنها كانت ترتطم بالبوابات البرونزية فتفتتت، محدثة رنيناً صاخباً في القاعة الشاسعة الفارغة إلا من منبر العوام وأشلاء أحد قتلة الأوبتيميتس.

أعلى سقف كوريا

سمع دولابيل منبر الشعب يستغيث بقوات ماريوس أن تفتح البوابات وتخرجه، وكان ذلك ما أراده وخطط له بالفعل، فأصدر أمره لأحد رجاله: "مُرهم بالهجوم الآن".

فاقترب ذلك بسرعة من حافة المبنى ليصبح في القتلة من أعلى، وكانوا لا يزالون مصطفين أمام البوابات، فسمعه أحدهم وتقدم ناحية البوابة كي ينقل الأمر للآخرين.

أمام الأبواب البرونزية لكوريا

تجعد جبين سرتوريوس عندما سمع صرخات ساتورنينوس من الداخل.

"سوف يرحمونه حتى الموت! يبدو أنهم يصوبون قرميد السقف عليه" صاح أحد الجنود.

نصت أوامر ماريوس على عدم فتح الأبواب طوال الليل، لكن سورتوريوس كان يعلم أن ما أراده غايوس ماريوس -بغض النظر على المعنى الحرفي للتعليمات- هو الحفاظ على حياة منبر الشعب، وأنه يمكنه فتح الأبواب إذا أضطر لذلك، ورأى أنه من الصواب فتحها. فهم بإصدار التعليمات لرجاله إلا أن صراخ القتلة الذين يتوجهون ناحية البوابة ويصيحون: "حانت لحظة الهجوم" أوقفه، فاستدار نحو الساحة. بدأ القتلة في الهجوم، ولم يمتلك الضابط المخضرم الوقت الكافي كي يأمر بفتح

البوابات، وحتى وإن امتلك الوقت لن يُقبل على فتحها أبدًا لأن ذلك سيُبرز حاجته إلى المزيد من الرجال، لذا فالأفضل هو إبقاء الأبواب مغلقة. كان يعلم أن هجوم رجال دولابلا هدفه تشتيت انتباه قواته، لكن لا بد من التعاطي معه، باتت المواجهة حتمية، إما صد الهجوم أو الموت.

داخل مبنى الكوريا

سُمع صوت ارتطام مكتوم، لم يصدر عنه رنين صاحب يشبه المنبعث عند تهشم البلاط على الأبواب المعدنية. لم تكن ضربة قوية، لكنها سددت بدقة تمامًا في الرأس، غامت الدنيا أمام أعين ساتورنينوس، قطعة القرميد شقت جمجمته من مؤخرة العنق. لم يفقد وعيه في لحظتها، سقط رويدًا رويدًا، ويداه مفتوحتان تتشبث أظافره بأبواب مبنى مجلس الشيوخ، الذي أصبح سجنه، صخرة تاريبان الخاصة به، ومقر إعدامه، المجلس الذي طالما عارض سياساته وقراراته، كما فعل الأخوان غراكوس في الماضي وكثيرون غيرهم. وبهذا أصبح ساتورنينوس، الذي بات جثة بالفعل، مجرد منبر آخر يباد على يد شيوخ المجلس، منبر آخر قُتل بين جدران المقر الرسمي، سقط ميتًا في بطن التنين الذي لا يروض.

دوى صوت رنين، تحطمت المزيد من الألواح من حوله، تهشم بعضها إثر ارتطامها بالبوابات.

ثم، وفجأة، عادت الضربات المكتومة، كُتمت لأنها لم ترتطم بجسم صلب، لم تصوب نحو البوابات أو الفسيفساء بل نحو جسده، نحو جثته رغم سقوطه ميتًا. واصل رجال الأوبتيميتس تسديد القرميد نحوه، أصابوا ظهره، ورأسه مرة أخرى، الكتفين، الساقين، اليدين...

وابل من المقذوفات القاتلة.

رجم بلا هوادة.

بقسوة.

وبلا رحمة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أعلى سقف الكوريا

"لقد انتهينا، يكفي هذا القدر، الآن يمكننا الانصراف بحق جويتر" صاح أحد القتلة.

نظر دولابيلإ إليه بازدراء، بينما لم يبرح أحد مكانه؛ إذ كان السناتور هو فقط من يمتلك سلطة إعطاء الأوامر، وذلك لأنه هو من يدفع لهم مقابل خدماتهم، الكلمة كلمته والقرار قراره.

علم الجميع أن منبر الشعب قد مات، لكن أحدًا لم يتحرك. في انتظار قرار زعيمهم، الذي أخذ يحدق إلى القاتل المأجور الذي تجرأ على اعتبار المهمة قد أنجزت، قال: "أنا من يحدد متى يكون ذلك كافيًا أو غير كاف".

نكس الرجل رأسه في استسلام.

"ماذا سنفعل الآن يا صاحب السمو؟" سأل أحدهم.

"ارجموه ببقية البلاط الذي خلعناه" أمر القائد.

سارع رجاله للامتثال للأمر، وهكذا استمر تسديد العشرات من قطع البلاط الكبير على الجسد الملقى على الأرض، حتى بدأ أن العجة قد اختفت تحت كومة ضخمة من البلاط المهشم.

"كفى، الآن رسالتنا إلى روما باتت واضحة" قال دولابيلإ في نهاية المطاف.

متدى روما

"قاتلوا، اضربوهم، اضربوا!" صاح سرتوريوس، فهب رجاله الذين انتقلت لهم عدوى الحماس، فأبرزوا دروعهم بوحشية أمام القتلة، وأبرزوا مهاراتهم القتالية، فقتلوا عددًا منهم وجرحوا آخرين. حتى لم يجدوا بدءًا من الفرار، تاركين الجرحى ليلاقوا مصيرهم، فتبعهم جنود ماريوس حتى أمرهم سرتوريوس:

"اهدؤوا بحق هرقل، لا تبتعدوا كثيرًا عن البوابات!"؛ إذ كانت الأولوية لحراسة مبنى الكوريا، للحفاظ على حياة...

فجأة أدرك أنه أضاع الكثير من الوقت في تلك المناوشات، فأمر: "أسرعوا! افتحوا البوابات!".

عاد رجاله مسرعين استعدادًا لفتح الأبواب البرونزية. ظل سرتوريوس يراقب كل شيء في صمت متوتر، إذ فرت أعداد كبيرة من رجال دولابيللا من الساحة وحل الصمت، كما توقف الصراخ القادم داخل الكوريا. حل هدوء ثقيل ومفاجئ، ولم يكن ذلك مبشرًا.

فتح الرجال الأبواب بقوة ليكشفوا عما بالداخل. لمح من على بُعد ذراع لوسيوس أبوليوس ساتورنينوس، الذي يرقد على الأرض تغمره كومة هائلة من قطع البلاط المحطم على هيئة جبل مصغر، تنسال الدماء من قاعدته. كان أشبه بقبر ارتجالي.

عندئذ وصل غايوس ماريوس عبر طريق فيا ساكرا، تقدم حتى وقف إلى جوار سرتوريوس. لم يكن بحاجة إلى أي تفسير، ولم يطلب ذلك، لقد فات وقت الكلام، كان ميتيلوس الملعون على حق: لقد تأخر عن كل شيء في تلك الليلة.

في تلك اللحظة، لمح ماريوس السناتور دولابيللا، قادمًا من أحد جوانب الكوريا، يتقدم محاطًا برجاله، تضيء مشاعلهم وجهه القاسي، فالتقت أعينهما، ممثلة بالتحدي، إلا أن ماريوس أحس فجأة بأن الشيخوخة قد أصابته بالفعل، أحس بضرورة أن يبزغ من يمتلك القدرة على مواجهة دولابيللا، ترى من يكون هذا الشخص؟ ومتى يتحقق ذلك؟

نسل إينياس

منزل عائلة جوليا، روما عام ٩٩ قبل الميلاد

(ليلة رجم ساتورنينوس)

"لماذا أنت على يقين بأن الأمور سوف تتغير حتمًا في روما؟ فغاير ماريوس يسعى الليلة للتفاوض على اتفاق يمكن من خلاله إنقاذ منبر العوام، ساتورنينوس، والبريتور غلاوسيا، لكنك قلت إن هذا التفاوض محكوم عليه بالفشل، ثم عدت لتقول إنه في غضون السنوات القليلة القادمة سيضعف شيء ما الأوبتيميتس. كيف يمكن أن يحدث هذا؟" سألت أوريليا شقيقها مستفسرة، وهي تنظر بثبات إليه.

"قصدت شيئًا يأتيها من الخارج" أجابها بدقة.

"وما هو، أو مَنْ هو؟" أصرت أوريليا، لم تستسلم أمام إجابته الغامضة. "الحلفاء" أجاب كوتا، وشرب رشفة من النبيذ قبل أن يشرح بالتفصيل: "لقد حاول كثيرون، منذ عصر الأخوين غراكوس، تغيير الأوضاع والحث على إعادة توزيع الثروة، الأمر الذي يعد جوهر الصراع بين العوام ومجلس الشيوخ. ولكن المدن المتحالفة ودفاعهم عن حق المواطنة الرومانية سيكون هو ما يزعزع استقرار كل شيء، وقلب الموازين. إذا وحدنا شعبي روما والمقاطعات المتحالفة معها، نصبح قوة قد تجبر أعضاء مجلس الشيوخ على الاستسلام، لكن الوقت لم يحن بعد. علينا أن ننتظر حتى تتحرك المدن المتحالفة أولًا، علينا أن ننتظر حرب الحلفاء. لقد تكهن ماريوس بذلك، وحسب له بطريقة ما، لذلك استطاع من خلال التحالف الثلاثي الذي أبرمه مع منبر الشعب والبريتور غلاوسيا، ضمان بعض التنازلات من المجلس

تخص المدن الحليفة، لكن الاتفاقيات مع هذه المدن يجب أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، ولعل التوسع في منح الجنسية الرومانية خارج أسوار روما هو المفتاح".

رفع يوليوس قيصر الأب حاجبيه في دهشة وعدم التصديق، بينما عبست أوريليا.

وقف أحد العبيد يملأ كأسها من النبيذ، وحينها سُمع طرق على الباب، صوت غايوس ماريوس ينادي. كانت قد مرت ساعتان على رحيله. أمر رب البيت بفتح الأبواب، ففتحه أحد العبيد ودخل القنصل المخضرم، لكنه لم يدخل إلى الردهة، وبمجرد أن تجاوز العتبة، قال: "لقد خدعني أتباع ميتيلوس، كان كوتا على حق؛ في البداية قتلوا غلاوسيا، ثم رجموا ساتورنينوس بالحجارة داخل الكوريا، رجموه ببلاط السقف، وهاجموني في الشوارع. لقد نجوت أنا وسرتوريوس وعدد قليل من قدامى المحاربين فقط، إن الأوبتيميتس يرغبون في الانتقام بقسوة لمقتل مرشحهم. تخندقوا، لا تخرجوا من المنزل؛ إن دولابيل يقود عمليات القنص، لا تخرجوا أبدًا!" أصر.

وعندما أنهى كلامه استدار وعاد إلى الظلام الدامي في شوارع روما الغارقة في القتل. في خضم هذا القدر من العبث، لم تقل أوريليا شيئًا، فاستدارت هي الأخرى، ودخلت الغرفة الصغيرة حيث يرقد ابنها، تاركة زوجها وشقيقها كوتا يتوليان تأمين الأبواب والنوافذ بشكل كامل.

"أعطني الطفل" قالت للخادمة بمجرد دخولها إلى الغرفة، فسلمته لها بعناية، ثم انسحبت بحذر شديد. وجلست أوريليا على مقعد منفرد مبطن بالوسائد بجوار مهد الطفل، وبدأت تهدده بينما تعيد على مسامعه نفس القصة التي كانت قد كررتها بالفعل في مناسبات أخرى، في تلك الغرفة، وهدهما: "تذكر دائمًا أصولك، ونشأتك، منذ بدء سلسلة عشيرة جوليا، عائلة والدك، التي تعد الأكثر نبلاً وتفردًا في روما كلها، أحبت الإلهة أفروديت الراعي الفقير أنتشيسيس وأنجبا بطل طروادة، إينياس، أنت وريث بطل طروادة...".

المحاكمة (٢)

جلسة اختيار مُوجِّه الاتهام

حسب القانون اليوناني، تعقد جلسة من أجل اختيار موجه الاتهام الأنسب للقضية، ويمكن أن يتقدم أكثر من مرشح، ويدافع كل منهم عن أحقيته للمنصب.

خصم غير متوقع

شارع فيا ساكرا، منتدى روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

سار قيصر ولاينوس بخطوات ثابتة على البلاط الحجري على طول الشارع المركزي في المدينة، كان الأول يسير متأملاً، وعيناه مثبتتان على الأرض تتبعان موضع خطواتهما. أيدت والدته ترشحه ليصبح موجهاً للاتهام (المُتَّهَم) في محاكمة السناتور الفاسد، دولاييلا، بناء على طلب المقدونيين. لقد أحس بأنها وافقت بمزيج من الفخر والقلق؛ أما الفخر فكان لأنه لا يزال شاباً وسوف يواجه أحد أفطع قادة الأوبتيميتس على مر العصور، والقلق لأن فرص فوزه ضئيلة للغاية، هل يمكن قول إنها مستحيلة؟

أراد تيتوس لاينوس مساعدة صديقه بأي طريقة ممكنة؛ إذ شعر بأنه مدين له بالكثير، فدفع لمجموعة من الممتمين إلى الطبقات المهمشة في المجتمع مقابل أن يجمعوا له المعلومات حول ما يتحدث به الناس في الحانات. كان أمره واضحاً:

"أريد معرفة أي شيء يتعلق بمحاكمة دولاييلا".

"هل تقصد أي شيء" سأله أحدهم.

"نعم أي شيء" أكد بشكل قاطع، ومنحه عدة عملات فضية.

وبينما يسيران نحو مبنى باسيليكيا سيمبرونيا* الواقعة في منتدى روما،

* مبنى إداري عريق بناه فنييريوس سامبرونيوس غراكوس، وأصبح فيما بعد مقراً للقضاء، فكانت تجري داخله القضايا والمرافعات، وبعدما تولى يوليوس قيصر الحكم هدمه وبنى مكانه باسيليكيا جوليا، نسبة إلى اسم عائلته. (المترجم)

اقترب منه أحد الصبية والخوف واضح على قسما ت وجهه وهمس في أذنه، وبعدما انتهى نظر إليه لا بينوس في دهشة بالغة. بدأ أنه لم يصدق ما يقوله، مما أثار استياءه، بينما تحدث الصبي بجدية تشي بأن ما يقوله كان على الأرجح صحيحًا: بدأت المشكلات التي تعرقل صديقه حتى قبل انعقاد أولى الجلسات. لاحظ قيصر تغير تعبيرات وجهه فسأله: "ماذا حدث؟".

"يقولون في الحانات المظلة على الميناء إن شيشرون سيرشح نفسه لمنصب المُتَّهَم، منافسًا لك" أجاب لا بينوس بصراحة، كما لو أن قول الحقيقة كلها دفعة واحدة من شأنه التخفيف من حداثها.

"هل قلت شيشرون؟ تقصد ماركوس توليوس شيشرون؟" سأله قيصر غير مصدق.

"نعم هو".

لم يستطع قيصر تمالك نفسه وقهقهه بصخب.

"بحق الآلهة جمعاء، كنا قلقين من محامي دولابيل؛ خالي أوريليو كوتا، وهورتنسيوس، ألا ترى الجانب الهزلي أو بالأحرى المأساوي في الأمر برمته؟ الآن، على الأرجح، لن أرقى لأصبح المُتَّهَم في القضية التي رفعتها بنفسي بناء على طلب المقدونيين، إذ ترفع شيشرون في عدة قضايا ببراءة وربحها. صحيح أنه لا يزال شابًا لكنه أكبر سنًا مني، ترى كم يبلغ عمره، ٣٠ عامًا مثلًا؟ عمري بالكاد ٢٣ عامًا. أضف إلى ذلك خبراته المتراكمة في القضايا العامة، كما أن فصاحته معروفة للجميع. لقد انتهيت حتى قبل أن أبدأ". قال بخيبة أمل، ثم غرق في الضحك مرة أخرى.

ورغم أنه كان يضحك ويمزح إلا أن لا بينوس يعرفه جيّدًا، فهو صديق الصِّبا، ويدرك بلا مجال للشك أنه لن يصبح الطرف الأقوى في المنافسة. لاحظته عندما توقف عن الضحك، نظرتة تشبه نظرة أسد يلاحق فريسته عازمًا على الفتك بها، ذكرته بقيادته للوحدة في معركة ميتيليني. أعاده العرج الطفيف الذي لا يزال يعاني منه إلى ذكريات شاركها معه، عندما كان كل

شيء في طريقه إلى الضياع... ولكن، الآن، ما أزعج لابينوس هو عدم فهمه لسبب ترشح شيشرون لتلك المحاكمة.

قرأ قيصر أفكار رفيقه على ما يبدو، فقال: "لا، لا أعتقد أن تكون مجرد محاولة من محاولات دولابيل للإطاحة بي، على الإطلاق، إن شيشرون يسعى إلى الشهرة والصيت والوجاهة، مثله مثل أي شخص آخر. لقد ترفع في عدد من القضايا، بينما تلك محاكمة السناتور النافذ المتهم بالفساد، سنيو كورنيليوس دولابيل. لم يتحالف شيشرون بعد مع الأوبتيميتس الذين يحمون دولابيل، ولا مع العوام الذين واجهوا رئيسه سولا، مثلما فعل عمي أو كما يفعل سرتوريوس في هسبانيا...".

"أو كما تفعل أنت" قاطعة لابينوس.

"لا، لم أواجه سولا بالمعنى الحرفي للكلمة، لقد كان جنونًا خالصًا" علق قيصر مسرعًا.

ضحك كلاهما.

"شيشرون لا يزال يجدف منفردًا، يجب أن يحدد انتماءه السياسي يومًا ما، هل ينضم إلى هذا الجانب أم إلى ذلك. لا أحد من المحامين المحافظين في روما قد يرغب في منصب المُتَّهَم في قضية المقدونيين؛ لهذا السبب لجؤوا إليّ، وقمت بصياغة عريضة الاتهام، بينما يريد شيشرون اللحاق بالركب حتى يكسب احترام الجميع، إذا ما تمت إدانة دولابيل" أوضح قيصر.

"لكن القضية خاسرة، وهذا ما يؤكد الجميع" اعترض لابينوس؛ إذ لم يكن راضيًا عن تفسير صديقه لترشح شيشرون المفاجئ.

"خاسرة هي كذلك إذا ما تولى شخص عديم الخبرة مثلي المرافعة، لكن إذا ما تصدر خطيب فصيح بخبرة شيشرون... من يدري؟ إنه يبحث عن الهيبة والصيت واحترام الجميع..." أصر قيصر، وتابع:

"وقد ينسحب في نهاية المحاكمة أو يواصل، ثم عندما تحين لحظة الحكم على المتهم يتعامل بقدر أكبر من المرونة، ومن ثم ينتهي الأمر باتفاق يعقده مع الأوبتيميتس. هم يعرفون جيّدًا أنني لن أقبل أبدًا التفاوض معهم، ثم إنه... وبغض النظر عما يحدث، ستختاره المحكمة ليصبح هو المُتَّهِم، على أمل أن يصلوا في النهاية إلى حكم مخفف".

صمت قيصر لبضع لحظات، ثم أضاف: "نعم، هذا صحيح، إلا إذا..."، ولم يكمل الجملة. كانا قد وصلا إلى مقصدهما بالفعل.

"أنت من رشحت نفسك أولًا، لذا ستكون أنت من يتحدث أولًا" نبيه لابينوس.

"حسنًا، سأتحدث أولًا" أكد قيصر.

مبنى باسيليكا سيمبرونيا

كان غايوس يوليوس قيصر هو أول المتحدثين. مرّ كل شيء سريعًا، وفي نفس الوقت؛ بدا غريبًا بالنسبة إلى لابينوس وللكتيرين، بينما لم يبد كذلك بالنسبة لهيئة المحكمة. بالنسبة لأعضائها لم يكن ما حدث مستبعدًا؛ إذ جاءت كلمة قيصر في حدود المتوقع، وبعدها انتهى دونوا بعض الملاحظات، دون أن يلقوا له بالألا، ولم يعلق أحد. وبعدها انتهى من إلقاء خطابه صمت الجميع، لم يعد يُسمع سوى همهمات غير مفهومة، ولم يحفل به أحد، ولم تسمع له تصفيقة واحدة.

عاد في صمت إلى مقعده بجوار صديقه لابينوس.

"أحسنّت" قال له لابينوس وهو يربت على ذراعه.

"لا بحق هرقل، لم يكن أدائي جيّدًا، أنت تكذب يا تيتوس، أنت صديق رائع، لكنك لست بارعًا في الكذب" أجابه قيصر بنبرة حازمة.

"لقد تضمنت كلمتك النقاط كلها التي ناقشناها قبل الجلسة، لم تغفل نقطة واحدة" أصر لابينوس، محاولاً تهدئته.

في الواقع لم يكن لابينوس كاذبًا تمامًا، فصحيح أن قيصر لم يكن ماهرًا في عرضه، وأنه توقف أكثر من مرة أثناء إلقاء خطابه، لكنه لم يفشل في تقديم جميع المعلومات التي أعدها في الليلة السابقة.

"لا، لا تصر" أضاف قيصر، بينما يبحث بعينه عن والدته وسط الحشد داخل الباسيليكا؛ إذ جذبت المحاكمة ضد دولابيللا، الذراع اليمنى لسولا القدير، انتباه الشعب الروماني، لم يكن ثمة حديث عن أي موضوع آخر في المدينة، حتى أخبار تمرد سرتوريوس الشعبي في هسبانيا انحسرت، ولم تعد تتداول إلا في الحانات، حيث واصل الزبائن الحديث عن الزعيم الشعبي في هسبانيا ومواجهته للسناتور ميتيلوس بيوس، زعيم الأوبتيميتس، البالغ من العمر ٥٣ عامًا، الذي أرسل إلى هناك لوضع حد للتمرد السرتوري، لكنه الآن عاد إلى روما، في إجازة تمتد لبضعة أسابيع من أجل حضور جنازة والدته، لذا استغل قادة الرعية* عودته وتم تعيينه رئيسًا للمحكمة في قضية دولابيللا.

كان المتهم هو من توسل إليه لتأجيل عودته إلى هسبانيا حتى يترأس المحكمة في تلك القضية. لم يرغب في المخاطرة؛ فهو يفضل إبقاء كل شيء تحت سيطرته. ولا يزال ميتيلوس يتذكر حادثة رجم منبر العوام الملعون ذلك، ماذا كان اسمه؟ لم تسعفه الذاكرة، فوفقًا لتفكير ميتيلوس الجامد والقاسي، أسماء منابر العوام الذين تمردوا على مجلس الشيوخ لا تستحق أن تشغل حيزًا في عقله.

على أي حال، فإن تعيين السناتور ميتيلوس، المقرب للغاية من الراحل سولا، الذي كان دولابيللا بمثابة ذراعه اليمنى، رئيسًا لهيئة المحكمة، أظهر بوضوح أن المجلس لم يتتو ترك أي هامش للاتهام.

تلاقت أعين قيصر وأمه. كانت تجلس في أحد زوايا الباسيليكا، على يمين منصة المُتهم. بات بإمكانه قراءة خيبة الأمل على وجهها: الخطاب العام الأول لابنها، الذي وضعت كل ثقتها في قدراته، كان سيئًا بجدارة.

* مصطلح في روما القديمة، يشير إلى أعضاء مجلس الشيوخ الأرستقراطيين.

آلمه ذلك كثيرًا؛ وإذا كان ثمة شيء واحد لم يرغب في حدوثه أبدًا، فهو أن يخذل والدته. ولكن من ناحية أخرى، طمأنه هذا الانطباع لأنه طالما لم تكشف هي حقيقة استراتيجيته، فربما لم تكشفها أيضًا هيئة المحكمة التي تعج بالمؤيدين لدولابيللا، وقائدهم ميتيلوس المستبد. تصفح وجوه من حوله، حتى وقعت عيناه على زوجته كورنيليا، وكانت تجلس إلى جوار والدته، وعيناها مثبتتان على الأرض، التي من الواضح أنها تعاني القلق. أما الأكثر قربًا منه، تحديدًا من جهة اليسار، فكان خصمه المفاجئ في هذه الجلسة؛ ماركوس توليوس شيشرون، وبيجانبه، الحكيم اليوناني أركياس، أستاذه في الخطابة. كانا في طريقهما إلى تدميره، وهو بلا شك، يحتاج إلى دعم مارس، إله الحرب، وفينوس، ومينيرفا، وإلهة الحكمة والمهارات، كي ينجح في وضع أول لبنة في مسيرته السياسية ولا تتحطم آماله كلها في أول جلسة. دار بصره حتى وقعت عيناه على المتهم، فوجده جالسًا مستريحًا في مقعده، خلف شيشرون. احتاج إلى مقعد وثير كي يحط عليه بجناحيه وجسده البدين.

لم تتبق سوى لمحات طفيفة، أو لم يبق شيء أبدًا من ذاك السناتور الشاب، الذي صعد إلى قمة كوريا هوستيليا، في واحدة من أكثر الليالي قسرة ودموية، من أجل رجم منبر العوام ساتورنينوس. لقد أخبره عمه غايوس ماريوس ووالدته، في أكثر من مناسبة، بما شهدته روما في تلك الليلة، لكن دولابيللا الآن بدا شخصًا آخر، بات ممتلئ الجسم، متباهيًا ومتعجرفًا، ساخرًا في بعض الأحيان، يهمس للأصدقاء الذين أحاطوا به معلقًا على الخطبة الخرقاء التي ألقاها للتو الشاب عديم الخبرة، الذي يطمح في أن يصبح المُتَّهَم في محاكمته.

نكس قيصر بصره، وهو يعلم أنه حتى غايوس ماريوس، الذي رحل إلى عالم الأموات، كان سيصاب بخيبة أمل إذا ما استمع إلى خطابه الأخرق أمام هيئة المحكمة التي ستختار من سيكون المُتَّهَم. إنه أول خطاب يلقيه علنًا في حياته، ولا يمتلك الخبرة الكافية. ثم رفع عينيه مرة أخرى، ونظر

إلى دولابيللا، لكن السناتور العجوز استمر في تجاهله. كانت اللامبالاة هي أفضل طريقة للتعبير عن الازدراء، وهذا ما أرادته.

ابتسم الشاب. لقد استعد لقتال طويل الأمد، وليس لمحكمة سريعة وسهلة. لم يحن موعد إظهار قدراته الحقيقية... ليس بعد.

نظر رئيس المحكمة، ميتيلوس بيوس، نحو المرشح الثاني لمنصب المُتَّهِم؛ جاء دور شيشرون. لم يكن من الضروري أن يتكلم، وكان ميتيلوس، الذي استمر في معاناته من التلعثم أثناء الكلام، ممتناً لذلك؛ إذ لم يرد إظهار نقطة ضعفه أمام العامة.

نهض ماركوس توليوس شيشرون بتأنٍ، بهدوء محسوب أيضاً، وسار متثدداً في مشيه، محاولاً الالتزام بالصمت التام حتى وقف في منتصف صحن الباسيليكا المركزي، أمام الرئيس والقضاة وعددهم ٥٢ قاضياً، وهم مَنْ سيقرون أي منهما يستحق أن يكون موجه الاتهام في القضية المرفوعة ضد دولابيللا: شيشرون أم يوليوس قيصر.

أخيراً، بدأ شيشرون، خطبته. تحدث بنبرة مناسبة تماماً، تردد صداها في القاعة الشاسعة، ففتن أذهان الجميع وأسر انتباههم، وكى يكتمل فخر أستاذه أركياس به؛ لم يتلعثم في حرف واحد، ولم يلفظ كلمة واحدة بنطق غير صحيح. لم يلاحظ أي من الحاضرين تردده في جملة من الجمل، بل جاءت جملة كلها رائعة التركيب، أي ما يعني أن خطبته جاءت على عكس ما فعله خصمه يوليوس قيصر لتوه.

"الحضور الكرام، قادة الرعية، والقضاة، أشكركم على إعطائي فرصة إلقاء خطبتي أمام حضراتكم بحكمتمكم وخبرتمكم..." تلك الجملة الأخيرة نطقها شيشرون على مهل، كما لو أنه أراد التأكيد على القيمة الجوهرية لمعناها:

"أشكركم على السماح لي بالتحدث وتوضيح لماذا يجب أن يتولى قضية مثل هذه التي نحن بصددتها الآن من يمتلكون الخبرة"، شدد على كلمة

الخبرة مرة أخرى، وأضاف: "وليس شابًا، قويًا بلا شك، ومندفعًا، ولا غبار على حسن نيته بالتأكيد، لكن منافسي لا يزال صغير السن وعديم الخبرة". وهنا التفت إلى قيصر، فالتقت أعينهما دون أن ترتعش جفون الآخر. لم يحرك قيصر ساكنًا، وأراد لاينوس النهوض وصفح شيشرون، لكن من الواضح أن مثل هذا الإجراء لن يفيد صديقه في شيء. فوجئ الجميع بإقحام شيشرون نفسه في تلك الجلسة، إذ يبدو أنه يسعى للحصول على الشهرة في بلاط القضاء، ورأى في محاكمة دولابيللا فرصة ذهبية لتحقيق ما يريد.

"عديم الخبرة، نعم، حسنًا، وهذه حقيقة لا جدال فيها، وليست مبنية على تقييم شخصي أو تأويل أو تحريف، بل ما رأيناه أمر شائع للغاية؛ إذ يستبدل البعض أنصاف الحقائق بالوقائع، إن لم يلجؤوا إلى أكاذيب كاملة. ترى كم مرة ترافع الشاب غايوس يوليوس قيصر في محاكمة عامة؟".
توقف، وقفة بلاغية.

"أراد بكلمة الشاب الصغير إهانتك" همس لاينوس.

"أعلم ذلك، لكن خطبته جيدة، جيدة للغاية، لا يمكن مقاطعته، ليس الآن، كل ما عليك فعله هو الاستماع... والتعلم" أكد قيصر بنبرة أشبه إلى الهمس، لكن دون أن يرفع عينيه عن شيشرون.

"أجيبكم أنا، ولا واحدة، زميلنا الشاب المتهور يوليوس قيصر لم يشارك في محاكمة واحدة قبل اليوم، وهو يركض الآن، بلا تعقل، ودون أن يأخذ في الحسابان قدر تعقيد هذه القضية. أنا لا أرميه بسوء النية أو محاولة النيل من العدالة، بل باللا وعي الخالص بلا شك، ويرجع ذلك إلى حداثة سنه" تابع شيشرون.

نظر إلى خصمه، الذي جلس صامتًا على مقعده، يستمع دون أن يرمش له جفن.

"لكن ربما، نعم، يدفعه توقه إلى تحقيق الشهرة إلى التوغل في بحر من المياه العميقة للغاية حيث تتحطم حججه وتضيع حقوق من ينتوي الدفاع

عنهم". وهنا وجه نظرة خاطفة إلى بيرديكاس وأيروبوس وأرخيلاوس وغيرهم من المقدونيين الحاضرين، ثم سرعان ما استدار لمواجهة وجوه القضاة، وأردف: "باختصار، ولوضع حد لهذا السؤال؛ لم يتولَّ غايوس يوليوس قيصر من قبل مهمة الترافع في أي محاكمة علنية، بينما أنا، ماركوس توليوس شيشرون، شاركت بالفعل في ثلاث قضايا، وكان الفوز حليفي في كل مرة، سواء حينما ترافعت لصالح بوبليوس كوينتشيوس وروسيوس أميرينوس وكوينتشيوس روسيوس، وجميعها كانت قضايا شديدة التعقيد، ومتنوعة الموضوعات. ويشهد فوزي فيها بقدرتي على التعامل مع تعقيدات العدالة بفضل بُعد النظر والقدرة على قياس الأسباب والنتائج بكفاءة وحيادية، لذا اتفق معي القضاة في كل القضايا التي ترافعت فيها وحكموا وفقاً لحججي وليس تبعاً لحجج الخصم".

سكت شيشرون للحظة، وضع يديه على خصره ونظر إلى الأرض.

تبعه قيصر بعناية. سيطر خصمه على المشهد، ليس بكلماته فقط، بل بطريقته كلها، من لغة الجسد والصمت المحسوب، والوقفات البلاغية. كل هذا لا يقارن بخطبته، حتى وإذا افترض أنه وقع الاختيار عليه هو وليس على شيشرون، فسوف يتعين عليه بعد ذلك مواجهة المحامين الذين اتفق معهما دولابيل؛ خاله أوريليو كوتا وهورتنسيوس الماهر للغاية. نظر إليهما... كانا جالسين خلف دولابيل، يستمعان إلى شيشرون بتركيز شديد، وجوههما جادة الآن وليست مسترخية كما كانا أثناء خطبته الخرقاء، لقد أنقذه وجود خاله من التعرض لقدرة أكبر من السخرية. كان من الواضح أنه لم يرغب في الاحتكاك به أثناء الجلسة، على الأقل إن لم يكن ذلك ضرورياً، لكن هورتنسيوس سخر منه عندما خلط بين كلمة وأخرى أو اضطر إلى تكرار عبارة بصياغة غير مضبوطة عند الاستشهاد بأسماء الشهود الذين جمعهم بالفعل.

ثبت شيشرون نظره على المقدونيين، الذين سُمح لهم بحضور المحاكمة دون السماح لهم بالتحدث إلا من خلال المُتَّهم الذي ستختاره

هيئة المحكمة في الجلسة التمهيديّة هذه. نظر إليهم بجديّة، لقد أتم توضيح مسألة قلة خبرة منافسه، لكن قيصر أدلى بحجة يمكن أن تؤثر في أذهان القضاة. في البداية، فكر في ترك هذه النقطة حتى النهاية، لكنه توصل إلى خاتمة موجهة لخطبته ضد قيصر الشاب. الآن ينتقل إلى أمر المقدونيين، المتضررين، فاستدار، نحو هيئة المحكمة، يضع يديه على خصره: "صحيح أن المقدونيين لجؤوا إلى قيصر الشاب وليس إليّ كي يصبح هو وليس أي مواطن آخر في روما موجه الاتهام في هذه القضية. ويبدو أنه من المعقول أن يؤخذ رأي أولئك الذين طالبوا بالمحاكمة في الحسبان، أولئك الذين يشعرون بالأذى من وراء الجرائم المحتملة المنسوبة إلى دولابلا خلال السنوات التي قضاها حاكمًا للمقاطعة، وقد وقع اختيارهم على الشاب قيصر، وفضلوا أن يكون هو المتهم الرئيس في قضيتهم".

"أتمنى أن يتوقف عن تكرار كلمة الشاب بنبرة الاستهزاء تلك" همس لابينوس.

"نعم، لكن دعنا نستمع إليه بعناية، أريد معرفة ما إذا كان بإمكانه إيجاد طريقة لدحض حقيقة أن المقدونيين يريدونني أنا. لقد اعترف للتو بأن على هيئة المحكمة نفسها أن تأخذ هذا الأمر في الحسبان" أجاب قيصر بصوت منخفض.

"نعم، كانت تلك إحدى نقاط القوة في خطابك، سوف يتجنب الحديث عن هذا الأمر، سينتقل إلى شيء آخر بكل تأكيد إنه..." علق لابينوس.

كان شيشرون لا يزال ينظر إلى هيئة المحكمة. أمال رأسه قليلاً واستأنف خطابه: "المقدونيون، نعم، هذه هي الحقيقة، يريدون قيصر الشاب ليكون المُتَّهَم نيابة عنهم، لكن ماذا يعرف المقدونيون عن نظامنا القضائي وتعميداته وخصوصياته وقواعده؟ الشيء الوحيد الذي يعرفه المقدونيون على وجه اليقين، مثل معظم سكان مدينتنا هو أنه لكونهم لا يمتلكون الجنسية الرومانية، فعليهم اللجوء إلى مواطن روماني كامل الأهلية لصياغة الاتهام نيابة عنهم. يعرفون فقط أنه دون الجنسية الرومانية، لا يمكنهم رفع

قضية ضد السناتور والحاكم دولابيلاً بمفردهم، لهذا السبب لجؤوا إلى الشاب قيصر؛ أي إلى أول شخص وجدوا أنه يميل للاهتمام بأمرهم وقد يرغب في الدفاع عن قضيتهم. لكنهم، وبالإضافة إلى عدم وعيهم بتعقيدات قانوننا، لم يلاحظوا أن ثمة مواطنين رومانين آخرين، وأكثر مما يتوقعون، على استعداد لخدمتهم بشكل أفضل... وهنا يظهر سؤال أخلاقي فعلي: ما الذي يجب أن تفعله المحكمة في هذه الظروف، هل تنصاع لرغبة أولئك الذين يشعرون بالظلم وتدعم اختيارهم؟ أم ربما ينبغي عليها تصحيح سوء التقدير الواضح لهؤلاء القرويين الذين، بدافع القلق، وقع اختيارهم على أول شخص قبل تولي أمر قضيتهم؟ ألن يكون من الأجدر لهيئة المحكمة، نظرًا لخبرتها وحكمتها ألا تصدق على اختيار المقدونيين بل تختار هي من تراه الأفضل؟ نعم، هذا سؤال أخلاقي، أتركه للنظر أمام الهيئة الموقرة لتقرر باستبصار ما يجب فعله".

أخذ شيشرون نفسًا عميقًا، وأرعى ذراعيه. تمشى بضع خطوات في منتصف الصحن واستأنف خطبته: "ثمة مسألة تقلقني كثيرًا، وأشعر بأنني مضطر للفت انتباه هيئة المحكمة الموقرة إليها؛ لقد أشرت بالفعل إلى تعقيدات نظامنا القضائي، لكن ثمة أمرٌ يقلقني أكثر، فهذه القضية التي نتناولها يمكن أن تمتد تداعياتها الاجتماعية والسياسية إلى خارج هذا الصرح، وتصل إلى المنتدى بل إلى جميع شوارع مدينتنا، وقد تصدر عن أحد الأطراف أو كليهما ردود فعل متطرفة. إننا بصدد محاكمة دولابيلاً، صاحب السمو، وعضو مجلس الشيوخ، المقرب من سولا وأتباعه بشكل واضح، وهم في شقاق مع جمعية العوام ومع عامة الشعب، وإذا رأى سناتورات الأوبتيميتس، أن المحاكمة يشوبها تدليس وتحايل ولا تسير وفقًا للحجج والأدلة وأقوال الشهود، فقد يشير ذلك ردود فعل عنيفة من جانب الأوبتيميتس. وعلى الجانب الآخر، إذا اعتقد عامة الشعب أن القضية تدار بأياد خرقاء، دون اهتمام ودقة بالغين، فقد ينتهي بهم الأمر إلى الترويج لأعمال شغب واضطرابات في شوارع المدينة. أرى وجوهًا تبدو عليها

الدهشة مما أقول، من بعض الجمهور، وخصمي، وحتى من بين أعضاء هيئة المحكمة، لكنني لا أعتقد أنني بحاجة إلى تذكير الجميع هنا بما آلت إليه الساحة السياسية في روما على مدار السنوات الأخيرة الماضية، حيث دمر العنف والقتل وحتى الحرب شوارعنا بوتيرة غير مسبوقه ووحشية بالغة. الحرب ضد تمرد مارس والحلفاء الآخرين الذين أرادوا الجنسية الرومانية لا تزال حاضرة في الأذهان، وليست ببعيدة جرائم القتل التي استهدفت أعضاء من الأوبتيميتس تارة، ومنابر العوام تارة أخرى، كل هذه الأمور لا تزال تلقي بظلالها على الوضع الراهن، لذا ليس من الحكمة أن نغفلها. وأنا أقول لكم إن تداعيات تلك المحاكمة المعقدة قد تشعل فتيل الفتنة، وهذا بالتأكيد ما لا يتمناه أحد، وفي الواقع، يقع عبء اختيار محامي الدفاع على عاتق دولابيلان نفسه، فهو يمتلك قراره، وقد اتفق مع المحامين: أوريليو كوتا وهورتنسيوس، وهما من أكفأ المحامين في مدينتنا، وما يطمئني أكثر هو علمي بأنهما يأخذان الأمور التي ذكرتها أمامكم للتوفيق في الحسابان، لكن...".

توقف شيشرون، ثم التفت إلى قيصر مرة أخرى، وأردف: "هل من الحكمة أن يُترك لشخص عديم الخبرة مثل غايوس يوليوس قيصر أمر محاكمة يحتمل أن تثير الجنون وعدم التعقل، وقد يصل الأمر إلى حد استخدام العنف من جانب أو من آخر؟".

ابتسم ساخرًا ودار ١٨٠ درجة ليواجه هيئة المحكمة مرة أخرى: "ولمّ لا، نحن أمام مثال حي، انظروا كيف عرض المرشح لمنصب المُتهم خطابه، لقد تحدث عن كاهن لمعبد أفروديت في يُيسالونيكي ومهندس روماني مشهور، لا أكثر ولا أقل، كل شيء مثالي، باستثناء التفاصيل الصغيرة التي أغفلها قيصر الشاب، طوافه وتجوله على المنصة كما لو كان في سباق العربة في سيرك ماكسيموس، واستباقه للأحداث وحديثه عن شهود الإثبات رغم أن الجلسة الحالية لا تختص بالشهود، وتوجهه نحو الجمهور بذراعين مرفوعين. في المجمل لم يقدم خطابًا منظمًا أو مناسبًا، ربما يجب أن يوجه الشاب طاقاته إلى السيرك وهناك ربما يفوز في سباق العربات."

أنزل شيشرون ذراعيه عن خصره وقهقهه. وعلى الفور، انضم إليه في الضحك جزء كبير من الحاضرين والعامّة وأعضاء مجلس الشيوخ وحتى بعض القضاة.

ابتلع قيصر الإهانة التي وجهها له شيشرون. تذكر نصيحة عمه ماريوس، استرجع ما حكاه له عن معركة أكواي سكستا وكيف انتظر ولم يرد مباشرة على الجرمان، رغم أن الجميع حثوه على اتخاذ إجراء ضدهم لكنه كان لا يزال يعتقد أن الوقت ليس مناسباً بعد، على الأقل ليس مناسباً بالنسبة له. تثبت بهذا المثال وظل صامتاً. لقد استخدم حيلة لتحقيق هدفه في تلك الجلسة التمهيدية حيث كان لا بد من تقرير من سيوجه الاتهامات إلى دولابيللا، وعلى الرغم من كل محاولات شيشرون لتفنيد أحقيته بالمنصب، ظل متمسكاً بحيلته... صامتاً، متخفياً، وثابتاً.

"نعم، الأمر لا يخلو من الجانب الهزلي" تابع شيشرون كما لو كان عليه أن يبذل جهداً كي يتجنب الضحك، وأردف:

"ربما اندفع المحامي الشاب وتسرع في الحديث عن الشهود بدافع توفقه الشديد ورغبته في الدفع بهذه المحاكمة نحو نتيجة محددة مسبقاً، وليس عبر التطور الطبيعي للقضايا؛ أي حسب تداول المعلومات وشهادة الشهود، لكن، ربما يرجع الأمر لأسباب شخصية أيضاً، سأشرحها الآن بالتفصيل، لكنني أصر على، وبعيداً عن السخرية، أن هذه الحماسة تثبت أن القضايا شديدة الحساسية سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي، مثل تلك التي أمامنا، لا يمكن تركها، بأي شكل من الأشكال، تحت سيطرة شخص قليل الخبرة ومندفع، ليس فقط لصالح من يُفترض أنهم مظلومون، ولكن قبل كل شيء، من أجل صالح الدولة الرومانية. لقد استبق يوليوس قيصر الأحداث، واندفع نحو نهاية قضية لم يبدأ النظر فيها بعد، وهذا التوق غير المسيطر عليه ينبع من افتقاره الملحوظ إلى الحياد، والحياد ضروري للغاية في أي قضية قانونية، لدرجة أن القانون يسمح برد القاضي إذا ما توافرت الأسباب التي تشير إلى عدم حياده في حكمه.

دعونا نرى، بالنظر إلى أمر الطعن في صلاحية بعض القضاة، في كثير من الأحيان يتم الطعن ضد أحد القضاة بسبب تورطه مع المتهم، لأسباب تتعلق بالقرابة العائلية، أو تقاسم المصالح الاقتصادية أو التجارية معه، وعليه، فإن من مهام هيئة المحكمة أثناء مرحلة الإجراءات هي التثبت من عدم وجود أي علاقة مشابهة بين موجه الاتهام والمتهم، وبالنسبة لي، لا شيء يربطني بدولابيللا سوى أننا نتشارك الجنسية الرومانية، وليس لدي أي عمل معه أو أي علاقة عائلية، لكن... ترى هل الوضع مختلف بالنسبة إلى الشاب قيصر؟".

توقف ماركوس توليوس شيشرون لبرهة قبل أن يشن هجومه الأخير:
"أخشى ألا يتمكن غايوس يوليوس قيصر من أن يكون طرفاً موضوعياً أو محايداً في هذه المحاكمة. محامينا الشاب هو ابن صهر غايوس ماريوس، زعيم الفصيل الشعبي على مدار سنوات عديدة، بينما كان دولابيللا، المدعى عليه، كما نعلم جميعاً، الذراع اليمنى لسولا، زعيم الأوبتيميتس. وإن لم تكن تلك المواجهة السياسية الواضحة - بقدر ما نتظاهر بأنها كاملة - كافية لاستبعاد يوليوس قيصر من منصب المتهم في هذه القضية...". توقف هنا عن وصفه بالشاب، وكأنه شعر أنه لم يعد بحاجة للإشارة إلى قلة خبرته نظراً لثقل الحجج التي طرحها: "فما بالكم إذا ما أضيف إليها حقيقة أن يوليوس قيصر متزوج من كورنيليا، ابنة كينا، الذراع المسلحة لغايوس ماريوس، والوجه الأكثر وحشية له. لقد لاحق سولا، قائد دولابيللا، قيصر، مراراً وتكراراً، بسبب هذا الزواج، وأمره أن... "ولوح في الهواء: "لن أرهق هيئة المحكمة بالإشارة إلى ما نعرفه جميعاً، ما يهم هو إبراز أن هذا الشاب لم يأت إلى هنا كي يدافع عن جانب المقدونيين في القضية وحسب، بل يسعى إلى انتقام شخصي مفرط وجائر".

هدؤوا جميعاً وأنصتوا له.

تنهد شيشرون بعمق، وأردف: "بينما لا مكان للأمر الشخصية في محاكمة تقام هنا على أرض روما، وأمام هيئة المحكمة الموقرة. في

المجمل، لا ينبغي تعيين يوليوس قيصر مُتَّهماً في هذه القضية، نظرًا لقلّة خبرته، وأخطائه الفعلية، فضلًا عن علاقاته الأسرية وميوله السياسية التي لن تجعل منه مُتَّهماً، بل قاتلاً أرسله من هم أكثر تطرفًا لإراقة المزيد من الدماء في خلافات سياسية. وهذا ليس صريحًا للانتقام أو لإراقة الدماء، أكرر، بل مكان لإنفاذ القانون والالتزام بالشرعية وإقامة العدالة".

صمت شيشرون وخفض ذراعيه في اللحظة الأخيرة. بدا منهكًا من الجهد الذي بذله في خطبته الطويلة، أو ربما لقوة كلماته الأخيرة، بينما ساد تصفيق مدوّ جميع أنحاء الباسيليكا. بات من الواضح مَنْ سيكون المُتَّهم نيابة عن المقدونيين، كما عُرف مَنْ خسر.

قرار مفاجئ

باسيليكاً سيمبرونيا، روما عام ٧٧ قبل الميلاد

(بعد ظهر ذلك اليوم)

كان ذلك واضحاً في نظر الجميع، لكن القرار النهائي متروك لهيئة المحكمة. لقد أُعتبر قرار اليوم، إن شئت قلت، استثنائياً. بعدما أعلنت هيئة المحكمة قرارها بالإجماع، غادر القضاة صحن الباسيليكاً المركزي، كما خرج العامة عبر الأبواب المختلفة. رُفعت الجلسة، وقد شعر قضاة مجلس الشيوخ برضا تام إذ أيقنوا أنهم قد أنجزوا الكثير من العمل باختيار يوليوس قيصر الشاب، وعديم الخبرة، ليصبح هو المُتَّهم الرئيس في القضية المرفوعة ضد دولابيللا. في الواقع، غادروا بعقول مسترخية ووجوه مبتسمة.

ومع ذلك، أصيب العامة بالارتباك، إذ صاغ شيشرون خطبة أكثر صلابة للاتهام الموجه ضد صاحب النفوذ والسمو، دولابيللا، أحد السيناتورات المخضرمين الذين حصدوا ثروات طائلة في ظل حكم سولا، الذي يعرفه الجميع مدى شره. لكن تصورات العوام، مهما بلغت من قوة لم تكن لها أهمية تذكر في المحاكمة، فقط الأدلة والمرافعات وأقوال الشهود، هي ما يعتمد عليه القضاة لتمرير الأحكام بطريقة أو بأخرى.

أم إن الأمر لم يكن كذلك؟

حسناً، كان قرار اختيار يوليوس قيصر ليصبح موجه الاتهام مفاجئاً للجميع. تُرك العامة للتشبث بحقيقة أنه ربما كان قيصر جديراً بحق بأن يصبح خليفة لماريوس، وبطريقة أو بأخرى، يتمكن من الانتقام الذي أتهم

به. كانوا يكرهون دولابيللا، لكن الحقيقة الواضحة المتمثلة في أن موجه الاتهام الذي وقع عليه الاختيار كان بلا شك الأقل خبرة بين المتنافسين، تركت تأثيرًا كبيرًا على أذهانهم.

وبينما أدرك الأكثر حكمة بين أبناء الشعب التلاعب السياسي الذي يمارسه قضاة المجلس لضمان أن تقام المحاكمة في ظل وجود موجه اتهام أخرق. غادر آخرون المبنى ببساطة وسط ذهول من كل ما سمعوه والقرار غير المتوقع، لكن على الأقل ذكر يوليوس قيصر أن لديه شهودًا على استعداد للإدلاء بأقوالهم التي تدين دولابيللا، وذلك ما منحهم بصيصًا من الأمل.

بينما تلقى شيشرون قرار هيئة المحكمة المفاجئ بنزاهة ودون إظهار الغضب على الرغم من خيبة أمله، وهذا شعور منطقي في حالته. فجمع كل أوراقه سريعًا، بينما انهمك قيصر، بمساعدة لابينوس دائمًا، في جمع أوراقه بتأن.

قال موجه الاتهام المعين حديثًا في القضية: "لا يا لابينوس، فلنضع أوراق البردي التي كتبت عليها الملاحظات ضد دولابيللا في هذا الدفتر، أما البرديات التي تحوي الحجج التي نعتقد أن كوتا وهورتنسيوس سوف يعتمدان عليها في الدفتر الآخر". لقد سعى لتعويض خطبته الخرقاء بتجهيز ملف نموذجي على الأقل يتضمن الملاحظات التي كتبها فيما يتعلق بالمحاكمة، وقد شجعه قرار القضاة كثيرًا. لقد كانت استراتيجيته السرية ناجحة.

"لم نبد بهذا القدر من السوء" قال قيصر لصديقه واحتفل بنصف ابتسامة، ففاجأ تيتوس لابينوس بصيغة الجمع، وسأله بدهشة: "هل قلت نحن؟". ليجيبه قيصر بنبرة قاطعة بها كثير من الامتنان: "دون مساعدتك لم أكن لأحقق أي شيء".

"أنا مدين لك بالكثير؛ لقد بدأت بالكاد في سداد دين لك عندي" قال لابينوس مبتسمًا، وأدرك قيصر أن لابينوس يقصد ما فعله معه بالقرب من أسوار ميتيليني.

"لا ديون بين الأصدقاء" أجابه بينما يواصل ترتيب البرديات الكثيرة التي كانت لا تزال مبعثرة على الطاولة.

ابتسم لاينوس مرة أخرى. شعر بأنه مدينٌ لصديقه بالكثير، بكل شيء، وقال: "يوماً ما سأجعلك فخوراً بي حقاً، ليس فقط لأنني أساعدك في ترتيب بعض الأوراق أو لأنني أحاول أن أقدم لك أفكاراً لاتهام دولابيل اللعين". وقبل أن يرد عليه قيصر، مر بهما متثداً في مشيه، وتوقف بالقرب منهما، وقال: "أمل أن يتحسن أداؤك في جلسة رد القضاة المقبلة، والجلسات الأخرى. لكن، بصراحة، لا أعتقد أنك ستصمد ولو لنصف جلسة أمام دفاع هورتنسيوس وكوتا، أفترض أنك تتفهم سبب اختيار هيئة المحكمة لك".

التزم يوليوس قيصر الصمت لبضع ثوان، فهو يدرك، أكثر من أي شخص آخر، أن خطابه لم يكن الأفضل، من الناحية العملية، لكن لا بد من الرد على هجوم شيشرون، فقال:

"ربما تكون قد ألقيت خطابك بحنكة أكبر، لكنني قدمت حججاً أفضل، وأعلنت أسماء الشهود. لقد بذلت جهداً للسخرية من هذه الحقيقة، لكنني أعتقد أن المحكمة رأت أنني متقدم للغاية بالفعل في دراسة القضية. إن استباق الأحداث بعرض أسماء الشهود لم يأت سهواً، بل جاء وفقاً لاستراتيجية محسوبة".

كان شيشرون الآن هو الذي يبتسم ويحرك رأسه، وإن كان ساخراً.

"إذن أنت لا تعرف أي شيء، ليس لديك أدنى فكرة عن سبب اختيار هيئة المحكمة لك. بحق هرقل، وجودك أنت وليس أنا يسهل المهمة على هورتنسيوس وكوتا. وبالطبع، فإن مسيرتك السياسية، إن كنت تطمح إلى أن يكون لك مسيرة، ستكتب نهايتها يوم تبدأ الجلسات. أعتقد أنها ستكون أقصر من المتوقع، والسبب في ذلك، بالطبع، هو حُممك". حينها تدخل لاينوس بينهما ملوّحاً بعنف، فراجع شيشرون وتقدم اثنان من حراسه أمامه لمواجهة لاينوس. أمسك يوليوس قيصر بذراع صديقه وسحبه إلى الورا،

كان حريصًا على عدم استخدام العنف، لكن إهانة شيشرون له علنًا أمرٌ آخر، سوف يتعامل معها بطريقة، لذا قال: "لقد اختاروني لأنهم رأوا أنني جمعت شهودًا وأدلة أفضل منك، هذا كل شيء، أما أنت فقد تحدثت عن السياسة والعلاقات الأسرية".

التفت شيشرون، لحارسه فتنحيا جانبًا، وأجاب: "لا لم يكن الأمر كذلك يا رجل، ما فعلته أنت هو أنك أخبرت هيئة المحكمة بكل ما حصلت عليه من معلومات تخص القضية لدرجة أنك لم تعد تحتفظ لنفسك بأي شيء، وهذا عكس ما فعلته أنا. الآن هم يعلمون أنه لم يتبق لك حجج قوية كافية، وأن كوتا وهورتنسيوس سيقدران على دحض دفاعاتك بسهولة بالغة. لقد أخبرتهم بكل ما لديك ولم تترك شيئًا واحدًا يصلح لعنصر المفاجأة، ليس لديك فكرة عمّن تواجهه، دولابيللا لا يرحم، أتمنى أن تبقى أنت وشهودك أحياء حتى يحين موعد المحاكمة".

"ماذا تقصد بجملتك الأخيرة؟" سأله قيصر متفاجئًا.

"يدهشني قدر سذاجتك، قصدت أن أقول إنني أمل أن تتمكن من إحضار ذلك المهندس وذلك الكاهن أحياء إلى المحكمة، هل يجب أن أفسر الأمر لك أنت، لمن عانى بطش سولا وأتباعه، من أمثال دولابيللا، أنت وعائلتك؟ كيف يتصرف سيناتورات الأوبتيميتس عادة عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن مصالحتهم؟" علق شيشرون.

ظل يوليوس قيصر صامتًا، ربما أخطأ حينما كشف عن أسماء شهوده مقدمًا، لكنه شعر الليلة الماضية أنه ليس لديه ما يجادل به، وبدا له أن ذكر أسمائهم أفضل ما يمكنه فعله لإعطاء الانطباع لعامة الناس بأنه مستعد للقضية بشكل جيد.

"حسنًا حتى أنت نفسك تعترف بذلك، خطبتك كانت خرقاء، وكلماتك لا ترقى إلى مستوى الخبرة، وبعيدة كل البعد عن البلاغة" أضاف شيشرون، ثم اقترب أكثر من يوليوس قيصر وتابع: "لقد تم اختيارك لأنك الأسوأ؛

الأسوأ بين المرشحين، علاوة على ذلك، بدا جلياً أنك شخص لا يحسن تقدير ما يمكن قوله وما لا يجب الكشف عنه، ولأن حججك باتت متوقعة ولأنك عديم الخبرة. لقد فضلت هيئة المحكمة اختيار المنافس الأضعف من أجل الدفاع عن حليفهم السناتور دولابيللا، لقد تم اختيارك يا غايوس يوليوس قيصر لأنك الأسوأ".

سكت الجميع، حتى بدا الصمت وكأنه سحابة كثيفة أحاطت بهم، لكن شيشرون لم يأت بجديد.

انصرف الجميع باستثناء قيصر ولاينوس وشيشرون.

"اصمت، فكر قبل أن تتكلم، لكن حسناً... أقول لك، بحق كل الآلهة، لا يزال ثمة أمل" أضاف شيشرون، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يستأنف: "انظر، أيها الشاب، سأهديك نصيحة واحدة، أعطيتها لك لأنني لا أحب دولابيللا، ولأنني أعتقد أنه يجب علينا وضع حد للفساد الذي يقوض أحشاء الدولة ويهدد بضياح كل شيء، وأنت، إن كنت ذكياً بما يكفي، ستعرف كيف تفسر ما سأقوله لك، وربما تتمكن بمساعدة الآلهة، على الأقل، من إثارة التوتر في نفوس المدافعين عن دولابيللا إلى حد ما."

"لسنا بحاجة إلى نصيحة من الخاسر" علق لاينوس باستخفاف، لم يستطع تحمل استخفافه المستمر بصديقه.

لكن قيصر رفع قبضته وأسكته.

"وما هي هذه النصيحة؟" سأله.

تطلع شيشرون إلى لاينوس أولاً وهو يقول: "هذه ليست نصيحة من الخاسر، بل من الفائز في ثلاث قضايا سابقة"، ثم التفت إلى قيصر وقال ناصحاً: "لا يجب أن تكون موجه الاتهام، لا أحد يحب المُتَّهَمين، يجب أن تصبح محامي الإدعاء".

وبعد هذه الكلمات المتناقضة في ظاهرها، استدار ماركوس توليوس شيشرون وغادر المكان برفقة حارسه.

"كم هذا سخيف! هورتنسيوس وكوتا هما المحاميان في القضية وأنت المُتَّهَم. ما قاله لا معنى له، هل تفهم ما يقصده؟ لقد أراد أن يسخر منا، وهذا كل شيء" علق لابينوس لصديقه.

"لا، لا أستطيع تفسير مقصده، لكن شيشرون يكره الفساد بحق، مثلك ومثلي تمامًا، ربما تحمل كلماته تلك ما لا نحسن تفسيره" قال قيصر، ثم أطرق وأضاف: "لكنه، لا، إنه لا يسخر منا".

"لكن المُتَّهَم لا يمكن أن يصبح محامي الادعاء، هذا مستحيل، أن يكون... "أصر لابينوس. لكن قيصر قاطعه، وهو لا يزال مثبتًا عينيه على الأرضية الرخامية في الباسيليكا، مضيفًا بصوت أشبه بالهمس: "إنه مثل اللغز، يجب أن تكون محامي الادعاء والمُتَّهَم في الوقت نفسه...".

"في وقت واحد؟".

"أجل" أكد.

"وكيف يمكن ذلك؟".

"ليس لدي فكرة عن الكيفية".

منزل عائلة جوليا

عندما حلَّ الليل

في غرفة نوم قيصر وكورنيليا.

جلس قيصر على السرير مستندًا إلى الوسائد، وركدت كورنيليا إلى جواره. أخذت تمسح على رقبتَه وذقنه بدلال، بينما يتحدثان:

"اختارني القضاة لأصبح موجَّهًا للاتهام لأنني الأسوأ بين المرشحين".

"بل قل إنهم اختاروك لأنهم اعتقدوا أنك الأسوأ" أوضحت كورنيليا.

قبلته، ابتسم لبادرة الحب ولدعمها له.

"أنت رقيقة معي دائمًا، كلماتك تشجعني على المضي قدمًا، لم أخطئ

حينما خاطرت بحياتي من أجلك".

أسندت وجتها إلى صدره بدلال.

"معرفتي بذلك تسعدني، لقد عانيت كثيرًا على مدار الأشهر الماضية، ربما أصبح كل شيء أسهل عليك لو فعلت... لو لم تعارض... ما أمر به سولا، لكنك لم تتخل عني أبدًا، وأقل ما يمكنني فعله لك هو أن أكون نعم الزوجة لك طوال حياتي. وما فعلته جعل هيئة المحكمة تعتقد أنك أسوأ من شيشرون، هذا حسب ظنهم، لكن الأمر ليس كذلك، والباقي دورك، وسيضح ما إذا كانوا على حق أم لا، وأعتقد أنهم مخطئون. في الواقع، لديك شيء يقوي موقفك، وهذا الشيء لم يكتشفه أحد" أضافت كورنيليا.

أطال قيصر النظر إليها مفتونًا بجمالها وحكمتها.

"وما هو هذا الشيء؟" سألها.

رفعت وجهها وتصفحته وجهه، وقالت له بثقة: "أنت لست غيبًا، ولست أخرق، بل تظاهرت بذلك"، فصمت لبرهة؛ إذ تفاجأ بأنها كشفت سر استراتيجيته وخدعته، وخشيت هي أن يغضب منها إذا ما صرحت له بذلك، لكنه اعترف لها أخيرًا: "نعم، لقد تظاهرت بأني أسوأ مما أنا عليه، هل تعتقدين أن أي شخص آخر قد كشف حقيقة الأمر؟".

"تشككت والدتك، لكنها لن تخبر أحدًا بالطبع، وأختاك لم تلاحظا، لكنهما شعرا بخيبة الأمر حقًا لافتقارك إلى المهارة، إلا أنهما سعدتا باختيارك في النهاية. ولا أعتقد أن خالك قد لاحظ أيضًا، فكوتا استخف بك، بينما استطعت أنت خداع باقي القضاة".

استمع إليها قيصر بانتباه شديد، قامت كورنيليا بتحليل مفصل لردود الفعل ذات الصلة، وفي الواقع، طالما أدهشته حنكتها وذكاؤها.

"ستطيع أن تفاجئهم، وسوف تفعل، إنهم يتوقعون أسوأ مرافعات، لكن الواقع مختلف. أعلم أنك تعد لكل شيء جيدًا، كما أعلم أنهم سيخشونك، لكن هذا يخيفني لأن... " ثم أطرقت، وضغطت جسدها الصغير النحيف على جذع زوجها.

"مّم تخشين؟ من الجيد أن أفاجئهم".

هزت رأسها نافية، أدرك قيصر مقصدها بوضوح.

"لأن خوفهم سوف يجعلهم يتعقبونك، وقد يصل الأمر إلى الحكم عليك بالإعدام مرة أخرى. لكن هذه المرة سيكون قرارهم دون دلائل مسبقة، ودون الحاجة إلى قرار أو حكم يستند إلى الشرعية، فقط سيكلفون أحد رجالهم بقتلك في أحد الأزقة المظلمة".

صمتت.

صمتا لفترة طويلة بدت قصيرة لكليهما، ظلا متشبثين ببعضهما ببعض كما كانا، يستشعر كل منهما نبضات قلب الآخر.

ارتعشت جفون قيصر عدة مرات. صحيح أن كل الذين حاولوا تغيير الأوضاع، كما حذره لاينوس مرارًا، كان مصيرهم الموت، وأن توجيه الاتهام إلى أحد الأوبتيميتس ينتهي بإسالة دماء كل من يتجرأ، وأن دولابلا ذاك السناتور المخضرم، يمثل نموذجًا لزمان سحيق، حيث سيطر أعضاء مجلس الشيوخ الأثرياء على كل شيء، في مواجهة الشعب البائس. بينما لا يحصل الإيطاليون على الجنسية الرومانية وفقدوا السيطرة على أراضيهم، وسكان المقاطعات الحليفة لروما، رأوا كيف أن المحاكمات في روما لم تحكم أبدًا على الحكام الفاسدين الذين نهبهم. لكن كل ذلك كان لا بد أن يتغير، إذا أرادت روما النجاة فعليها أن تعيد ترتيب الأوراق، وكان لا بد من القضاء على الفساد المستشري واقتلعه من جذوره.

"هل تعتقدين حقًا أنني أستطيع أن أفعل ذلك بشكل صحيح وأفاجئهم؟".

"نعم" تمتت، وكأنها تأسف على تشجيعها له كثيرًا.

ظلا صامتتين لفترة.

حتى قطعتة كورنيليا أخيرًا، إذ سألته: "هل يأمرني زوجي الحبيب بشيء آخر؟".

حاولت السيدة الشابة تغيير مسار أفكارها والتوقف عن التفكير في كيفية مفاجأة خصومه في المحكمة، وما ينطوي عليه من خطورة على حياته، وفي الواقع، رأت أن خسارة زوجها في تلك القضية هو أفضل ما يمكن حدوثه، الخسارة هي مفتاح النجاة.

"ألا تبدو فكرة جيدة أن نكرر الأمر مرة أخرى؟" سألتها، بقصد دعوتها إلى الفراش.

"بكل تأكيد" أجابته، متغلبة على أفكارها حول ما إذا كان قيصر يجب أن يفوز في المحاكمة أو يخسرها، بدأ يداعب جسدها. لم يكن متحدثاً أخرق، في الواقع، كما اكتشفت كورنيليا، بل تظاهر بذلك فقط وقد حقق هدفه، عينته هيئة محكمة فاسدة تبحث عن أسوأ موجه اتهام ممكن.

تذكر قيصر مرة أخرى نصيحة عمه ماريوس له، قبل سنوات، في إحدى الحانات بعدما انتشله من عراك مع الصبية في معسكر مارس إذ قال له: "لا تلتفت لما يقولونه عنك، يمكنك أن تتظاهر بأنك جبان دون أن تكون كذلك، كما يمكنك التظاهر بأنك أخرق وأنت لست غيبياً، الشيء الوحيد المهم هو الانتصار في النهاية. لا يهم إن وصفوك بالجبن، المهم ألا تتورط في قتال انتصارك فيه ليس مضموناً، لأنه بغض النظر عن أي شيء، بمرور الوقت، سوف يتذكر الناس شيئاً واحداً فقط وهو من انتزع النصر في نهاية المطاف، بينما كل التفاصيل ستمحى. تذكر ذلك يا فتى، ولا تقاوم مرة أخرى إن لم تكن قادراً على الفوز".

نعم، لقد اتبع هذه النصيحة وآتت ثمارها، لعب دون هجوم.

استشعر نعومة جسد زوجته، فاندمج معها، حتى وصلا إلى ما لا بد منه. بينما يتردد صدى نصائح زوج عمته في أعماق عقله، لكنه لم يستطع بعد تفسير نصيحة شيشرون له. تساءل كيف يمكن أن يكون موجه الاتهام ومحامي الادعاء في الوقت نفسه. سوف يعيد التفكير في الأمر، لكن ليس الآن، فأمامه أمور أخرى تستحق تركيزه، لن يقاوم شهواته.

وقفت خادمتان عند قدمي سيدهما، خشيا أن ينهض فيكيل لهما الضرب بالسياط مرة أخرى، باتت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يسعد بها دولابيللا منذ فترة. كانت إحداهن تنزف من ظهرها، لكنها كتمت أبنها، بينما استلقى دولابيللا على ظهره وبطنه الضخم إلى أعلى. لم يكن نائماً، كان فقط يلتقط أنفاسه، أصبحت الحركة تشق عليه، وجسده منهك، لكنه يشعر بالسعادة. لقد سارت الجلسة التمهيدية على نحو جيد للغاية، بشرته بأن محاميه سوف يلتهمان ذلك الأحقق يوليوس قيصر. كان السؤال هو ما يجب فعله بذلك المحامي الشاب الوقح بعدما تنتهي المحاكمة، ربما يجب أن تتحقق رغبة سولا في قتله في النهاية، ابتسم، تلذذ بهذه الفكرة.

فجأة، انتابه الشك، تساءل ماذا لو تبينت صحة تحذيرات سولا بشأن خطورة يوليوس قيصر هذا؟ لقد بدا هذا الشاب عديم الخبرة في المحكمة، لكنه عُرف بالجرأة في الماضي، وظهر ذلك جلياً في أكثر من موقف. لا، التفكير في الأمر سلبه الراحة التي كان ينعم بها، بات في حاجة إلى صبب جام غضبه.

مرة أخرى، نهض.

فارتجفتا.

منزل عائلة جوليا

بعد نصف ساعة

اقترب يوليوس قيصر أكثر من كورنيليا، همست له:

"أنا متأكدة من أنك الأفضل هنا، وفي الخارج، في الباسيليك، أنت الأفضل على الإطلاق".

تنفس بهدوء. لقد حل الظلام على روما العظيمة وبدأ العبيد في إشعال المشاعل في الردهة، وبدأت ظلالها ترتعش، بالطبع، لن يجروا أحدهم على دخول غرفة السادة.

تمدد قيصر على السرير، وفجأة فتح عينيه وصاح بصوت خفيض كما لو أنه أراد أن يُبقي اكتشافه سرًا، يشاركه فقط مع زوجته:

"الآن فهمت! بحق جوبيتر، فهمت مقصد شيشرون، إنه يبدو منطقيًا تمامًا" استدار إليها، لكنها لم ترد، وجد أنها استسلمت للنوم. بدت هادئة، منهكة، سعيدة بممارسة الحب معه.

ابتسم قيصر، وقبلها بحنان على وجنتها، ثم وقف وسحب الملاءات وغطى جسديهما، واستلقى إلى جوارها من جديد واحتضنها مستمرًا في الهمس، رغم إدراكه أن النوم قد غلبها، لكنه كان يشعر بالحاجة إلى إخبارها على أي حال: "سأكون مدافعًا يا كورنيليا، وليس موجّه الاتهام. أدركت أن شيشرون محنك، لا بد لي من الجمع بين فكرته ونصيحة غايوس ماريوس".
أغلق عينيه، وغرق في النوم. وفي منامه، زاره طيف عمه غايوس ماريوس.

شخصيات من عبق الذاكرة

٢. غايوس ماريوس

زوج عمة قيصر

الشخص الوحيد الذي تولى منصب القنصل سبع مرات

عودة ماريوس

معسكر مارس، روما عام ٩٠ قبل الميلاد

١٣ عامًا قبل محاكمة دولابيللا

"تعال، انهض أيها الجبان!" صرخ عدد من الصبية، بينما استلقى آخر مرتعدًا على الأرض، وجهه وذراعه كانا ينزفان.

"إنك جبان، يا لك من خائن" سبه آخرون، مشكلين حوله حلقة من الصبية والشباب، في تزايد مستمر على طول منحدرات معسكر مارس، المكان الذي يذهب إليه شباب النبلاء الرومان للتدريب العسكري وتعلم فنون القتال وركوب الخيل واستخدام الأسلحة، دون أن يجذب العراك انتباه دوريات البلدية، وإن انتبهوا فقد يفسرون الأمر على إنه مجرد تنافس بين الصبية بغرض التسلية.

لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فالصبي الملقى على الأرض عمره بالكاد ٩ سنوات، وتلقى ركلة قوية في موضع كبده. واصل الصبية الصياح والضحك واتهامه بالخيانة، ليس لفعل جاء به، بل لكونه... ضربات جديدة على جانبه ووجهه، حطمت حتى أفكاره:

"هيا يا يوليوس قيصر، انهض وقاتل! أأست سليل الآلهة؟".

دون تفكير، تدخل تيتوس في العراك، لم تكن مشاجرة حقيقية بل كانت أشبه بمصارعة عشوائية. لقد أقدم على مساعدته إذ بدا له أن ما يفعله هؤلاء الشباب والصبية كان خاطئًا، بل ووحشيًا، وهو يكره الظلم. كان بالكاد يبلغ

من العمر ١٠ سنوات، وهو من النبلاء، إلا أنه مثل حليفًا بائسًا لقيصر في تلك اللحظة.

"اتركوه أيها الملاعين!" صاح تيتوس لابينوس، ففوجئ المهاجمون بأن ثمة شخصًا ما شديد الغباء يأخذ جانب الخاسر، كانوا أكثر بكثير، فعددهم حوالي ٥٠ صبيًا. رغم أنها بدأت بثلاثة فقط، لاحظ تيتوس لابينوس كل شيء منذ البداية، ودون أن يحسب حسابًا للعواقب أو الاحتمالات وجه ضربة لأحد الصبية الذين بدؤوا العراك، ثم ضرب آخر في بطنه، فأثار تدخله الشك في نفوس البقية، ودفع نحو ثلث الذين هاجموا قيصر على الأقل إلى الشعور بأنه قوي محاط بالعديد من الداعمين لنفس أفكاره وميوله. قيصر سليل من خانوا مجلس الشيوخ، من خانوا روما، والمدينة على وشك الدخول في حرب جديدة، والخطر يتجول في المنطقة. وكان ولاء قيصر وعائلته مشكوكًا فيهما للغاية بالنسبة لهؤلاء الصبية، وجميعهم من أبناء الأوبتيميتس وشيوخ المجلس، لذا حُشرت عقولهم بالكثير مما يدين عائلة جوليا، ولم يمض وقت طويل قبل أن ينقلبوا على رفيقهم في التدريبات العسكرية.

"أنت أيضًا ستنال ما تستحقه، بحق جوييتير" قال القائد الثالث.

"إنه ليس واحدًا منا" علق آخر، في إشارة إلى حقيقة أن تيتوس لابينوس لم يكن ابنًا للأرستقراطيين، بل ينتمي إلى فئة الفروسية التي، حسب التسلسل الهرمي، ومن منظور الأوبتيميتس المحافظين، الذين سيطروا على روما في ذلك الوقت، كانت رتبة أقل من الأرستقراطيين.

ابتلع لابينوس الغصة، أظهر قبضتيه أمام وجهه واستعد للدفاع عن نفسه وتلقي الضربات. نهض يوليوس قيصر، رغم جروحه النازفة وقال له ممتنًا: "شكرًا لك".

لم يكن ثمة وقت لمزيد من الحديث بين الصبيين؛ إذ انقضوا عليهم جميعًا مثل أسود متوحشة. سادت فوضى الأذرع والسيقان، والأفواه التي

توجه الضربات والصفعات واللدغات حتى قطع هذا القتال المحموم نبرة صارمة صادرة عن شخص بالغ، رجل مخضرم: "ماذا يحدث هنا؟" بدا أن المتحدث لم يعتد تكرار سؤاله أبدًا.

توقف الجميع، قام البعض بلعق جراحهم، وأمسك البعض الآخر برؤوسهم للتأكد من أنها لا تزال في مكانها. نهض قيصر ممسكًا بخصره بيد واحدة، كانت تلك المنطقة أكثر ما يؤلمه، رغم أنه كان يشعر بالدماء تسيل على وجهه، وأخذ لا يينوس يدلك كتفه، ظن أن أحدهم عضه، لكن الملابس حالت دون تضرره أكثر.

ظل غايوس ماريوس ينتظر إجابة.

تقاطعت هيئة قنصل روما لست مرات حتى الآن، مع أفق شمس الظهيرة، فبدا وكأنه عملاق.

أحاط به حرسه الشخصي من الجحافل الذي خاضوا حروبًا في إفريقيا والشمال ضد الجرمان والكيمبريين، وبسهولة تعرف جميع الصبية عليه دون أدنى لبس. فرغم الخلافات بينه وبين الأوبتيميتس، كانت روما لا تزال مليئة بالنُصَب التي أقيمت من أجل زعيم حزب البيولاريس، ولم يجرؤ الأعداء على تدميرها رغم رغبتهم الجمة في فعل ذلك، حتى في ظل غيابه الطويل عن المدينة.

أما قيصر فكان يتأمل كل يوم نصبًا رخاميًا لزوج عمته في ردهة منزل العائلة، فهو يعتبره رجلًا لم تلد مثله النساء، والآن يقف أمامه شخصيًا، بلحمه ودمه، على الحقيقة بدا مهيبًا ومبهرًا أكثر. وربما يرجع ذلك إلى هيئته المنتصبة، أو إيماءاته ونبرته الصارمة، وربما بسبب التفاف قدامى المحاربين العسكريين المخضرمين حوله، أو كل تلك الأسباب مجتمعة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها زوج عمته شخصيًا؛ إذ كان ماريوس قد أمضى فترة طفولة قيصر خارج روما، في منفى جزئي أجبره الأوبتيميتس عليه بعد الأحداث العنيفة التي وقعت قبل قرابة عشرة أعوام، في أعقاب اغتيال السناتور ميموس، وإعدام غلاوسيا ورجم ساتورنينوس

بالحجارة. منذ تلك الليلة الدامية، هجر غايوس ماريوس روما ليركها في أيدي أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر تشددًا.

وها هو يعرد من جديد...

في الواقع، ارتبطت دوافع المشاجرة بهذا الحدث تحديدًا، إذ منذ زمن لم تعد ثمة مناقشات وحوارات في شوارع روما وحاناتها سوى بخصوص غايوس ماريوس وتمرد المدن الحليفة.

"إنه عراك يا صاحب السمو" أوضح يوليوس قيصر، قديم ردًا مناسبًا على السؤال المطروح، لكن دون إحاطته بالمزيد من المعلومات حول دوافعه أو أسباب تطوره.

مرر غايوس ماريوس نظره على الصبية بتآن، فأحنى جميعهم رؤوسهم أمام أعين الصقر. شعر الرجل بأن ما يقبع داخلهم تجاهه كان مزيجًا من الازدراء والخوف، الخوف تغلب على الازدراء، ما عدا الصبي الوحيد الذي تجرأ على الرد والثاني الذي يساعده. لقد تغيب عن المدينة على مدار السنوات الأخيرة ولم يستطع تمييز ابن صهره من بينهم. أخذ يحدق إليهم جميعًا. لفت انتباهه أحدهم، شعر بأنه الأكثر شبهاً بأوريليا، لكن الصبي كان مصابًا بجروح نازفة في وجهه، لم يعتبر رأيه مسلمًا به، فسألهم: "أيكم غايوس يوليوس قيصر؟".

ساد صمت لبرهة، كان الصبي يحاول استيعاب أن زوج عمته الواقف أمامه، لم يره منذ زمن، ولم يتمكن من التعرف عليه، ثم أجابه: "إنه أنا يا صاحب السمو".

تفحص ماريوس وجوه الصبية، وفتن إلى أنهم جميعًا انفقوا على ضرب ابن صهره، تنهد بعمق. لم يعد بحاجة إلى توضيح بشأن دوافع العراك، ثم أمر قيصر: "تعال، اتبعني"، فاستدار الصبي نحو تيتوس لاينوس، وكان يعرف اسمه، إذ رآه أثناء التدريبات في معسكر مارس، لكنهما لم يتبادلا الحديث من قبل، وهمس له على سبيل الوداع: "أشكرك".

وقبل أن يجيبه لابينوس، قال له ماريوس بصوته المهيب: "وأنت، مهما كان اسمك، تعال أيضًا، وإلا يهجم عليك هؤلاء المتوحشون"، فاضطر أبناء الأوبتيميتس إلى ابتلاع الإهانة دون التجرؤ على الرد بكلمة واحدة. نظر تيتوس إلى قيصر، وصدق إلى هيئة القنصل السابق، ثم أذعن للأمر، وأطاع دون اعتراض، ثم سار الصبيان معًا خلف القائد المخضرم، في ظل حماية جحافله.

الانتصار المهم الوحيد

روما، عام ٩٠ قبل الميلاد، في نفس اليوم

ساروا بخطى سريعة حتى أصبحوا بالقرب من متدى فيناليوم ومن هناك عرجوا نحو النهر. لم يعلم الصبي قيصر ولا لابينوس إلى أين هم ذاهبون، لكن رجال القنصل السابق كانوا يعلمون بالتأكيد. حثوا الخطى حتى وصلوا إلى الحانات المطلة على الميناء النهري، فاقترح ماريوس أكبرها وأكثرها ازدحامًا، بينما كان رجاله يسعون لإفساح الطريق له تحسبًا أن يعترض طريقه ثمل يجهل شخصه.

توقف ماريوس أمام أفضل طاولة، تلك الموجودة إلى جوار النافذة، ويمكن للجالس من خلالها رؤية السفن المغادرة إلى أوستيا أثناء احتساء أجود أنواع النبيذ. كان يحتلها مجموعة من البحارة في انتظار موعد الإبحار، لكنهم عندما تعرفوا على الوافد الجديد ومرافقيه الذين حاربوا في عشرات المعارك، نهضوا بسرعة، وأحنوا رؤوسهم إجلالًا لهم، وتركوا بضع عملات لصاحب الحانة وانصرفوا على الفور.

"اجلسا" أمر ماريوس ابن صهره وصديقه.

اقرب صاحب الحانة منهم على الفور.

"حمدًا للآلهة! ويا له من شرف لي، يا له من شرف لحانتي!" صاح الرجل بسعادة حقيقية؛ إذ كان مثله مثل العديد من الناس في روما، وصل تقديرهم لغايوس ماريوس إلى حد العبادة، ولم لا فهو من أنقذ المدينة من الوقوع في الخطر، والآن أمام التهديدات التي تتعرض لها المدينة من جديد،

ها هو يعود، ماريوس العظيم، الذي أحرز انتصارات متتالية في الحرب في إفريقيا وهزم الكيمبريين والتوتونيين (الجرمان). الآن ينهي كل شيء.

"نريد كلامًا قليلًا مقابل الكثير من الطعام والشراب، أنت تعرف طلبي"
علق ماريوس بجدية وصرامة.

"حسنًا، بالطبع..." أجاب.

تردد صاحب الحانة عندما رأى الصبيين اللذين كانا معه، فسأله: "النيذ والجبن للجميع؟".

فهم ماريوس مقصده، فنظر إلى الصبيين، وسألها بصوت أجش:
"صاحب الحانة يريد أن يعرف هل أنتما رجلان أم ما زلتما صبية".

نظرا بعضهما إلى بعض، لم يكن أي منهما يرتدي التوجا، أي السترة الخاصة بالبالغين، ثم تصفحا وجه القنصل وقالوا بصوت منخفض تشوبه الريبة: "بل رجال يا صاحب السمو"، ثم ازدردا لعابهما، فلا يزال بإمكان القنصل السابق المخضرم رؤية تميمة الصغار* تتدلى من أعناقهما. فضرب على الطاولة بقبضته، وأرجع رأسه إلى الوراء، وهو يقهقه بصوت عالٍ، وسرعان ما انضم إليه رجال حرسه العسكري، وكثير من الحاضرين وحتى صاحب الحانة نفسه. ثم توقف ماريوس فجأة عن الضحك، ونظر إلى أولئك الذين شغلوا الطاولات المجاورة، فجدهم يضحكون مثله، فسألهم: "هل تسخرون من ابن أخي؟".

فصمتوا جميعًا، وصدق هو إلى قيصر ولايينوس مرة أخرى.

"لقد حاربتما مثل الرجال هذا الصباح، مثل الرجال الأغبياء، لكن مثل الرجال، والدم الذي يسيل من جراحكما يشهد على ذلك"، ثم التفت إلى النادل وقال: "هل سمعت؟ إنهم رجال، أحضر النيذ والجبن لثلاثتنا، وللمحاربين أيضًا"، فأحنى النادل جذعه احترامًا، وأسرع لإحضار أفضل أنواع النيذ والجبن.

* نوع من التمام كان يرتديها صغار السن، لدرء الأرواح الشريرة حسب الاعتقاد الروماني.

أشار ماريوس بذراعه اليسرى دون أن يرفع عينيه عن الصبيان، وحينما اقترب منه بسرعة أحد المحاربين أمره: "استدع الطبيب بسرعة".

فضرب الجندي بقبضته على صدره وقال: "أمرك يا صاحب السمو" ثم غادر بسرعة للامتنال للأمر الذي أوكل إليه.

"يجب معالجة هذه الجروح" أوضح ماريوس، وحدق إلى وجه ابن صهره، على وجه الخصوص، وأضاف: "يجب ألا تراك والدتك بهذا الوضع، وإلا لن أنجو من غضبها لا أنا ولا كل جحافل روما. فعندما تغضب والدتك تكون مواجعتها أقسى من حشد من الجرمان المتوحشين المدججين بالسلاح يا أيها الصبي، والدتك الغاضبة قادرة على تحطيم كل شيء".

بدا الأمر وكأنه مزحة، لكنه لم يضحك هذه المرة، وكذلك لم يضحك قيصر أيضًا. لقد كانت والدته لطيفة للغاية عندما تريد أن تكون كذلك، لكن غضبها من حديد.

"لسنا أغبياء" قال قيصر ردًا على إهانة القنصل لهما قبل لحظات.

"آه، بحق هرقل، لقد ورث تصميم الرأي من والدته، وجرأتها أيضًا. هل تريد قول إنني كذبت أو قلت شيئًا سخيفًا؟" صاح ماريوس.

شعر قيصر بجفاف في حلقه، بدا وكأن الكلمات عصية عليه.

"لا، لكن...".

حينها عاد صاحب الحانة يحمل إبريقًا من النبيذ وطبقًا مليئًا بالجبن وثلاث كؤوس من فخار تيرا سيغلاتا* الروماني التراثي، وهذا النوع من الكؤوس الفخمة يقدمه فقط للزبائن المهمين للغاية. أمسك بالإبريق لصب النبيذ لكن القنصل أشار إليه بأن يتعد، فانسحب على الفور، وأمسك غايوس ماريوس بالإبريق وسكب نبيذًا وفيرًا في الكؤوس الثلاثة.

* نوع من الأواني الفخارية الرومانية المزخرفة تدرج ألوانها من البرتقالي إلى الوردى، تصنع بأسطح لامعة وطلاء زجاجي من الرصاص. (المترجم)

"اشرب، من الواضح أنك بحاجة إليه لنرى ما إذا ما كانت عقدة لسانك ستنفك هكذا" قال لابن صهره.

رفع الشاب قيصر الكأس إلى شفثيه وشرب بضع رشفات، أقل القليل بحيث يشعر بالكاد بلسعة الكحول في حلقه، وكذلك فعل لابينوس.

"لنرّ" تابع غايوس ماريوس، ومال بجذعه على الطاولة وسألهما: "كنتما اثنين ضدكم صبي وشاب، ٢٠؟ لا بل أكثر، لكنني سأفترض أنهم كانوا ٢٠ فقط، وهذا هو الغباء بعينه. كم معركة - حسب رأيكما - يمكن الفوز فيها إذا ما اتبعت إستراتيجيتكما تلك؟"، ثم رفع الكأس إلى فمه، وشرب ما فيها حتى آخره، وضرب بها بقسوة على الطاولة وهو يحدق إليهما ويصيح: "ياك أن تتورط في معركة طالما أن العدو يفوقك عددًا، تلك قاعدة معروفة، حتى الحمقى الذين تعاركتما معهم هذا الصباح يعرفون ذلك".

"لقد سبوك" أجابه قيصر، محاولاً تسوية موقفه.

"تصوّرت ذلك، معظمهم من أبناء الأوبتيميتس وهم أعداء لي".

"ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟" أصرّ ابن صهره، معتبراً أن لديه مُسوِّغاً لانخراطه في شجار حتى لو كان عدد الأعداء أكبر من ذلك بكثير. فانحنى غايوس ماريوس مرة أخرى بجذعه القوي على الطاولة، وبات أكثر قرباً من الصبيين، فقال: "كان يجب أن تنسحب وتتحين فرصة أفضل لشن هجومك"، ثم اعتدل، وسكب نبيذاً مرة أخرى في كأسه، بينما كان لا يزال لدى الصبيين كمية كافية في كأسيهما.

"على الأقل... تريث قيصر، لكنه واصل الدفاع عن نفسه: "على الأقل... سيعرفون أنني شجاع". فرمقه ماريوس بنظرة من زاوية عينه، وهو يمسك بكأسه بكلتا يديه، وعلق: "صحيح يا ابن أخي، هكذا يعرف أعداؤك أنك شجاع... وغبي أيضاً، أنت وصديقك. وأنت، قل لي لماذا تورطت معه في العراك؟ وما اسمك؟".

"اسمي تيتوس، تيتوس لابينوس يا صاحب السمو، ودخلت في القتال لأنه... رابني أمره، وأهمني همه، رأيت أنه من الظلم أن يتكالبوا جميعًا عليه وهو وحده تمامًا".

"آه، جيّد للغاية، هكذا يصبح لدينا شجاع أحرق آخر، ليست صدفة أن تجتمعا".

اندفعت دماء ساخنة إلى وجه قيصر، أغضبه استخفاف زوج عمته بهما، لم يشعر بذلك وحده، كانا يشعران بالغضب. حاول، بل حاولا تفسير الوضع، لكن القنصل السابق أسكنهما إذ رفح راحة يده قليلاً في مواجهتهما.

شرب ماريوس رشفة طويلة أخرى، هذه المرة لم يفرغ الكأس، ثم أخبرهما: "وُصِفْتُ بالجبن أيضًا، ليس لمرة واحدة، بل مئات المرات، أنا والآلاف من المحاربين تحت إمرتي، لكن هذا لم يدفعني قط إلى الدخول في معركة لن نخرج منها إلا مهزومين. أتحدث عني أنا يا قيصر ويا لابينوس"، ثم اتكأ على الطاولة، وبينما يحدق إلى وجهيهما بالتناوب أضاف: "أقول لكما إنني ابتلعت الإهانة وسحقت كبريائي، في انتظار اللحظة المناسبة كي أحقق النصر النهائي كما تعلمون، الأمر الوحيد الذي يهم في الحرب هو الانتصار في النهاية".

نظرا إليه بريية، ليس لأنه حقق انتصارات عديدة في الحرب، كانا يعرفان ذلك جيّدًا والجميع في روما يعرف. لم ينتصر هذا الرجل في حرب واحدة، بل في حربين، والعديد من المعارك الضارية، وليس هذا فقط، بل أعاد هيكله الجيش وحدث الجيوش. شكك الصبيان في إمكانية وجود جندي واحد فكّر، ولو للحظة واحدة، أن الرجل الوحيد الذي أصبح قنصلًا لروما ست مرات، يتصف بالجبن.

كما بدا أن القنصل السابق قرأ أفكارهما، فصاح: "سرتوريوس!"، وعندما اقترب أحد العسكريين الذين رافقوه من الطاولة، قال له: "أخبر هذين متى اعتقدتم جميعًا، متى ظننتم أنني جبان".

تحنح الرجل. فكر فيما حدث في الماضي عندما اعتقد الجميع، أن ماريوس جبان، لكن لم يتجرأ أحد على النطق بهذا أبدًا.

"هيا يا سرتوريوس، هذا ابن صهري، وأحاول تعليمه أمورًا مهمة، وليس لدي الكثير من الوقت، ثمة حرب ثالثة تختمر" أصرّ القنصل.

تنهد سرتوريوس، توسل إلى الآلهة كي يعثر على الرد الصحيح، دون أن يقع في الخطأ قبل أن يجيب: "كان ذلك قبل معركة أكواي سكستيا يا صاحب السمو" قال.

ساد الصمت أرجاء الحانة.

أنصت الجميع بانتباه.

"هذا هو كل شيء. بالفعل... قبل معركة أكواي سكستيا، وعلى مدار أيام، يا فتى، ظن رجالي أنني جبان. وصفوني، أنا عمك غايوس ماريوس بالجبن، هل تعلم ذلك؟" علق.

هز قيصر رأسه، ركز هو ورفيقه لابينوس على القائد العسكري والسياسي المخضرم لروما. لم يسبق لأحد أن شغل منصب القنصل ست مرات، إن من يتحدث إليهما الآن أسطورة حية.

انحنى غايوس ماريوس على الطاولة مرة أخرى وهمس لهما:

"لا تلتفت إلى ما يقولونه عنك، هل تفهمني؟". ثم نظر إلى لابينوس ليشملة في كلامه، وقال: له "هل تفهمني؟ لا ينبع جبن المرء من ظن الآخرين به، الجبن يا بني ينبع من الداخل، وأنا لم أكن جبانًا قط في ساحة المعركة، بل كنت دائمًا... ماهرًا". تنهد واتكأ على مسند ظهر مقعده وأردف: "لكنني لم أكن بارعًا للغاية في السياسة، وهذه قصة أخرى. الآن سأخبركما متى ولماذا وصفني الجنود بالجبن، من خلف ظهري، دون أن يجسر أحدهم على قول ذلك في وجهي، كما سأحكى لكما متى وكيف حققت انتصارًا كبيرًا لروما. وبصفتي زعيمًا وقنصلًا كان علي أن أعرف متى أبتلع كبريائي وأفكر فقط في مصلحة الدولة. إن أهم ما في الأمر هو إحراز النصر في النهاية. سأخبركما عن معركة أكواي سكستيا."

ذاكرة الماضي غضب الآلهة

روما، عام ١٠٥ قبل الميلاد

قبل محاكمة دولابيلابنحو ٢٨ عامًا، وقبل ولادة قيصر بـ
٥ سنوات

كانوا في طريقهم لوأدهم.

دفنهم أحياء.

"لا! لا!" عوى الرجلان.

"الرحمة! الرحمة!" توسلت السيدتان.

كانا زوجين من العبيد؛ اثنان من بلاد الغال والاثنان الآخران من اليونان، سحلوا عبر أرجاء منتدى فيناليوم، مرورًا بأكشاك بيع الماشية. كان عليهم أن يقودوا هؤلاء البائسين الأربعة إلى حفرة في الأرض، وسط السوق. نعم، كانوا سيُدفنون أحياء، كما يُفعل بعذارى فيستال؛ إذا ما نقضت إحداهن عفتها فإنهم يئذونها حية بغية تهدئة غضب الآلهة. لطالما اعتقد الرومان أن هذه الطريقة ناجعة، لكن كاهنات فيستال كن منضبطات للغاية طوال هذه الفترة، لذا؛ لم تُنسب الخسائر الفادحة المتتالية في حروب؛ نوريا وبورديغالا وأراوسيو إلى أي تدنيس للمقدسات ارتكبتها إحداهن، ومع ذلك، كانت روما على شفا الهاوية؛ إذ تجرأ الأمبرونيون والكيمبريون والجرمان على شن حملات عسكرية مفزعة بحرية كاملة في أراضي جنوب بلاد الغال،

ينهبون الأقاليم المتحالفة مع روما، كما مُنيت الجيوش القنصلية بالهزيمة، الواحدة تلو الأخرى، في ثلاث معارك رهيبة، ومنذ زمن حنبعل الذي دمر الجحافل في تيسينو وتريبيا وبحيرة تراسيمينو ثم كاناي، لم تتعرض الجمهورية الرومانية لسلسلة مطولة من النكسات المماثلة. حينها اعتقد الرومان أن كل ما يحدث لهم سببه غضب الآلهة، وأمام الهزائم المتتالية التي فتك فيها الزعيم والقائد القرطاجي بجحافل روما، لجأ الرومان، بعدما وصلوا إلى أقصى درجات اليأس والذعر، إلى تقديم قرابين بشرية للآلة.

ولم يكرروا الفعلة منذ ذلك الحين.

لكن بعدما تصاعد غبار الحرب في نوريا وبوردیغالا، أرعبتهم هزيمة جيش قوامه نحو ١٠ فيالق في أراوسيو إضافة إلى فيالق الحلفاء والتابعين، دون أن يستطيع أحد التصدي لجيوش البرابرة. علاوة على ذلك، أرسل جزء من الجنود المتبقيين إلى إفريقيا لإنهاء الحرب الطويلة ضد يوغرطة.

استمر العيب في المقاومة متشبهين بالحياة.

لكن رعب الرومان كان أشد قسوة.

قذفوا في الحال، دون تعقل أو أي اعتبارات أخرى، ليس كما يفعل بعدارى فيستال إذ كان يُسمح لهن بالنزول إلى قاع الحفرة بالحبال، لكن هؤلاء تم قذفهم من على ارتفاع ليسقطوا مباشرة وترتطم أجسادهم بالأرض، فارتفع الصراخ، وتهشمت العظام. أصيبت المرأة الغالية بجرح في رأسها، فزحفت قليلاً ثم تكومت في إحدى زوايا القبر المفتوح في قلب روما المضطربة، والدم يسيل على وجهها؛ بينما سلمت السيدة الأخرى من الجروح، ولم تصب إلا ببعض الكدمات، ثم أخذت تتمايل من جانب إلى آخر داخل الحفرة تحديق إلى الجدران بحثاً عما يمكنها التثبيت به.

"لا! بحق الآلهة جمعاء!" توسل العبد الغالي وهو يمسك بساقه اليمنى التي تهشمت عظامها.

لقد وقع الاختيار عليهم بشكل تعسفي، من خلال قرعة مصيرية لم تضع في الحسبان سلوكهم أو دينهم أو أصلهم.

سمعوا ضجيجًا سبب انقباض قلوبهم من شدة الذعر، أحدثته صخرة عملاقة تُجر على الأرض من فوقهم. بعد لحظات سُدت فوهة الحفرة تمامًا، وأظلمت السماء من فوقهم، وسرعان ما وجدوا أنفسهم في ظلام دامس. لقد تحدد مصيرهم، سوف يمضون الساعات أو الدقائق الأخيرة من حياتهم داخل فضاء مظلم ضيق تدوي داخله صدى صرخاتهم وتأوهاتهم، لقد وُئدوا للتوبلا رحمة، من أجل تهدئة غضب الآلهة حسب الاعتقاد.

ذاكرة الماضي

هل من سكيبيو جديد؟

الأراضي المتنازع عليها مع الكيمبريين والتوتونيين، جنوب بلاد الغال (١٠٣-١٠٥) قبل الميلاد.

ربما أسفق آلهة روما عليها.

ترى هل أرضتهم تلك التضحية الوحشية؟

من الصعب الحكم على الأمر. على أي حال، لم يتقدم بعد الكيمبريون والتوتونيون وبقية الشعوب البربرية الشمالية مباشرة إلى روما بعد الهزيمة التي تكبدها الجيش الروماني في معركة أوراسيو (عام ١٠٥ قبل الميلاد)، بل استقروا في جنوب بلاد الغال، وأطلق بعضهم غارات سريعة ضد هسبانيا، ما منح الرومان وقتاً ثميناً لإعادة تنظيم صفوفهم، ومثلما تفعل روما في كل مرة تصل فيها الأمور إلى ذروتها، اختار مجلس الشيوخ أفضل قائد عسكري، الوحيد القادر على مواجهة الأعداء، مثلما تصدى سكيبيو الإفريقي لجيوش حنبعل.

الآن المدينة بحاجة إلى سكيبيو جديد.

في تلك الفترة العصيبة، اعتبر غايوس ماريوس أفضل قائد روماني يصلح للمهمة. كان قد أنهى حرباً طويلة ضد يوغرطة، فاستعانت به روما، وعُين قنصلاً، وأوكلت إليه مهمة إعداد جيش جديد والتوجه شمالاً لاستعادة الأمن على أطراف المدينة. لقد تعلم القتال تحت قيادة سكيبيو إميليانو في

نومانسيا، حفيد الإفريقي بالتبني. لم يكن ماريوس سكيبيو آخر، لكنه عدَّ الأقرب للقائد الأسطوري الذي هزم حنبعل.

وبناء على قرار المجلس، قام ماريوس بضم جيش قنصلي من فيلقين قوامه ستة آلاف جندي نظامي أضيف إليهما كتيبتان إضافيتان، وعززه بآلاف المجندين من فقراء المدينة. وأضطر إلى تغيير القواعد العسكرية فألغى قرار حصر الحق في التجنيد على ملاك الأراضي، وكذلك القرار الذي يجبر الجندي على توفير الأدوات اللازمة للقتال من أسلحة ودرع وحتى الأواني المستخدمة في معسكرات الجنود بماله الخاص؛ إذ أدرك ماريوس أنه بعد سبع سنوات عجاف من الحرب الضارية في إفريقيا لم يعد لدى روما عدد كافٍ من الجنود، بينما باتت المدينة في وضع مالي يسمح بتوفير الأدوات للجندي على نفقتها. وإذا أدرك العوام أنهم سيحصلون على الكثير من المال إذا شاركوا في القتال وتوافرت لهم الأدوات اللازمة لذلك، فسوف يتشجعون للتقدم للتجنيد في وقت يعاني فيه كثير من أبناء الشعب من ضيق الحال، وثمة آلاف منهم لم يبق لديهم أي شيء، ومن ثم ليس ثمة ما قد يخسرونه.

كما أن القنصل خصص لكل جندي حصة من الملح عُرفت باسم "السالاريوم" بكمية تكافئ أجره، إذ اعتبر الملح مهما للغاية في الحياة اليومية للرومان. فضلاً عن تخصيص أجور نقدية منتظمة للمحارب لا تتأثر بتوزيع الغنائم المحتملة في حالة النصر. كان ذلك يمثل فرصة لا تعوض للكثيرين، لذا استجابت له أعداد غفيرة، وتمكن من جمع ما يصل إلى ٣٥ ألف مجند، زحفوا جميعاً تحت قيادته نحو الشمال.

نظر مجلس الشيوخ بقلق إلى قرارات ماريوس الثورية فيما يخص التجنيد وخرقه للقوانين بدمج جزء من العوام إلى الجيش، لكن الإمكانيات المتاحة أمامه كانت محدودة، كان عليه أن يعد قوة مسلحة لمواجهة الكيمبريين والتوتونيين الذين كانوا يتجولون بحرية في جنوب بلاد الغال، بينما حدود روما غير مؤمنة. لذا سمح له الأوبتيميتس بأن يفعل

ما يراه مناسبًا، وفي المقابل عينوا سولا، أحد أكثرهم تشددًا، في منصب "ليغاتوس" على أحد الفيالق. كان عليهم أن يراقبوا القائد الأعلى لهذا الجيش الذي تكوّن وفقًا لقرارات غير مسبوقة، وكان هذا أول جيش احترافي عرفته روما.

ترى إلى أين يقود كل هذا؟

منذ البداية، بدا انعدام الثقة بين ماريوس وسولا واضحًا للجميع بالفعل. بينما رافق القنصل ضباط شاركوا معه في حروب إفريقيا، وكان يثق بهم تمام الثقة، ومنهم سرتوريوس.

وهكذا بدأت الحملة العسكرية.

كان كل شيء غير مسبوق.

لم يفكر ماريوس فقط في تغيير طرق دفع رواتب الجنود، بل انشغل كذلك بتطوير أساليب التدريب، فأخضعهم لتدريبات قاسية، واستعان بما تعلمه على يد سكيبيو إيميليان أثناء حصار نومانسيا، وكذلك الخبرات المتراكمة لديه خلال الحروب التي خاضها في إفريقيا، وكان أهمها؛ ضرورة الحفاظ على الانضباط، ومنح الأولوية للتدريبات، لذلك أمر بتكثيف التدريبات، وكذلك تقوية حصون المعسكر، كما قلل من عدد العبيد والخدم المخصصين لكل فيلق.

كان هدفه هو صنع آلات حرب حقيقية من جنوده. خلال الرحلات الطويلة، أجبرهم على حمل ثقل هائل من مواد الحرب وأدوات التجارة والحدادة وأدوات الطبخ وما إلى ذلك، بحيث اضطر كل جندي إلى حمل عشرات الكيلوغرامات على ظهره. وبعد فترة وجيزة، انتشرت الأقاويل داخل المدينة بأن ماريوس لا يحتاج إلى رجال، بل إلى بغال. تحدثوا عنه باستخفاف وازدراء. شرع الأوبتيميتس في استدعاء رجالهم، وظلوا يضحكون، ويسخرون منه، بينما راقب آخرون ومنهم ميتيلوس وابنه المتلعثم المشهد بقلق متزايد، وكثير من الحيرة، لكن القنصل تجاهل كل

ذلك، كان كل همه أن يحصل رجاله على رواتب منتظمة. ثم استقر مع قواته عند مصب نهر الراين.

لم يشن الأعداء هجومًا واحدًا، فأمضى العام بأكمله دون معارك تذكر. وافق مجلس الشيوخ على تمديد قنصلية ماريوس لفترة ثانية، لعام ١٠٤ قبل الميلاد، وظل الجميع ينتظرون أن يأمر القنصل في النهاية بتقديم قواته، لكنه لم يفعل. تحصن جنوب الراين، وأمر جنوده بحفر قناة لجعل دلتا النهر صالحة لإبحار سفن الإمدادات القادمة من روما، سُميت القناة بـ"خندق ماريانا". استغرقت أعمال حفرها عدة أشهر من الجهد الشاق، إلا أنها عُدّت وسيلة جيدة لإبقاء الجنود في حالة نشاط وعزيمة، كما أنها ستصبح فيما بعد مصدرًا مهمًا لإمداد آمن وسريع ومباشر، لا يستطيع الكيمبريون ولا الجرمان، الذين لا يمتلكون أسطولا، قطعه أبدًا.

ومع ذلك، مر عام آخر ولم يهاجم البرابرة معسكر ماريوس، ولم يأمر القنصل بشن غارة واحدة على الأراضي التي يسيطر الكيمبريون والتوتونيون عليها. ظل البرابرة يراقبون، وكذلك أعضاء مجلس الشيوخ في روما، دون أن يفهم أحد الدوافع الحقيقية وراء ما وصفوه بأنه تلكؤ ماريوس في الهجوم. بدأ الجنود يفقدون صبرهم ويتساءلون عما إذا كان قنصلهم يريد حقًا قيادة تلك الحرب، إلا أن الضباط المخضرمين الذين حاربوا في إفريقيا كانوا يعرفون ماريوس جيّدًا ويدركون طريقة تفكيره وعقليته، وثقوا في أن لديه دوافع وجيهة.

حتى أتى عام ١٠٣، والوضع على ما هو عليه، ومدّد مجلس الشيوخ، بغضب بالغ، منصب القنصل لماريوس للمرة الثالثة على التوالي، وسولا لا يزال بين صفوف جيشه، يراقب ويبلغ الأوبتيميتس، الذي أصبح الآن في منصب أطربون، وليس ليغاتوس؛ إذ قلص ماريوس سلطاته. لم يثق به أبدًا وكان سولا يعرف ذلك جيّدًا، لكن ليس ذلك فحسب: اعتقد الأطربون أن الحملة برمتها فاشلة لا محالة، لذا، وبحلول السنة الثالثة قرر التخلي عن

الجيش والعودة إلى روما. لم يرغب في تحمل جزء من مسئولية حملة سوف تُمنى بخسارة فادحة، حسب اعتقاده، وفضل الابتعاد عن البعثة العسكرية وحكم بالفشل مسبقاً على ماريوس الذي لا يختلف معه سياسياً فقط بل بدأ يشك أيضاً في قدراته بوصفه قائداً عسكرياً.

حل عام ١٠٢... والجنود يواصلون الضغط على القائد، وشكوكهم تتزايد، حتى تجرأ سرتوريوس في أحد الأيام على الحديث مع ماريوس بشأن تراجع ثقة الكثيرين به، فرد عليه ماريوس:

"استغرق إيميليان سكيبيو أكثر من عام كامل لحصار مدينة نومانسيا، مدينة واحدة، ولم يجادل أحد في صحة استراتيجيته، بينما نحن نواجه جيوشاً هائلة من مختلف الشعوب البربرية. إنهم يهددون وجود روما ذاتها، لذا يبدو لي من المعقول أن أستغرق الوقت المناسب لنضع حداً لهذا التهديد، حتى ولو طال الأمد لسنوات".

ولم يزد ماريوس على مقاله كلمة واحدة.

قبل سرتوريوس تفسيره.

لكن... ترى كيف يفسر مجلس الشيوخ الوضع؟

مجلس شيوخ روما، عام ١٠٢ قبل الميلاد

وقف سولا داخل مبنى الكوريا، ودولابيللا إلى جانبه ينظر إليه بإعجاب شديد، أمام باقي أعضاء المجلس ومن بينهم ميتيلوس نوميديكو وابنه ميتيلوس بيوس، ينصتان بانتباه. كانوا بصدد مناقشة مسألة تجديد ولاية ماريوس للمرة الرابعة، فقال سولا: "يا حضرات قادة الرعية، أيها الأصدقاء، أعضاء مجلس الشيوخ، لا يخفى على أحد أن وضع مدينتنا لا يزال حرجاً نظراً للتهديدات التي تأتي من الشمال، وأنه لم يسبق أن جُددت ولاية شخص بعينه لمنصب القنصل أربع مرات على التوالي، لكنني أتساءل: هل سنريح شيئاً إذا ما غيرنا القائد في هذه المرحلة؟ ماريوس هو من شكّل الجيش الذي يحمي

حدودنا الشمالية، ونحن جميعًا سئمنا تقاعسه. إن البرابرة سيكتشفون ذلك بأنفسهم، وبلا شك، خلال العام المقبل، سيتقدم الكيمبريون والتوتونيون نحو روما وسيجبر ذلك ماريوس، شاء أم أبى، على التحرك، لن يتركوا له خيارًا سوى صد الهجوم، وحينها تنتهي محاولاته للتسوية. أنا أقترح ألا يُجبر أي شخص آخر على تولي قيادة معقل لا يعرف خباياه، مع قوات لم يدرها بنفسه وسط ساحة مكشوفة، لذا أؤيد مقترح تمديد ولاية غايوس ماريوس لسنة أخرى".

وهكذا صوت المجلس لصالح قرار تمديد ولاية ماريوس.

بعدما انتهى الاجتماع، اقترب منه ميتيلوس الأب ومعه ابنه، وسأله: "هل ترى حقًا أنه من الأفضل أن يواصل ماريوس قيادة الجيش؟".
"نعم، أنا متأكد من أنه الأفضل بالنسبة لنا، بالنسبة إلى الأوبتيميس" أجابه بدقة.

"ماذا تقصد بالضبط يا فتى؟ لا تتحدث معي بالألغاز"، هكذا سمح الزعيم المخضرم ميتيلوس نوميديكو، زعيم المحافظين المهيب، لنفسه بالاشتراط على محدثه.

فنظر إليه سولا، وبجدية شديدة؛ فسر له مقصده: "لم يعد الجنود يثقون في ماريوس، وعندما يتحرك البرابرة، عندما يهاجمون، لن تثق الجحافل في قائدها، وسيتم ذبح ماريوس. هذا أمر سيء بالنسبة لروما، أعرف ذلك، لكنه مثالي بالنسبة لنا؛ البرابرة سينفذون ما نأمله دون أن نضطر إلى تدنيس أيادينا، سوف يقضون على ماريوس وجيشه الرث من العوام، وبعد ذلك سيكون علينا تجنيد قوات جديدة. لكن لا بأس يمكننا حينها تدبير الأمر باستدعاء جزء من جنودنا من إفريقيا أو هسبانيا والدفاع عن أنفسنا. أدرك أن الأمر صعب، لكن يكفي أننا سنكون حينها قد تخلصنا من غايوس ماريوس، ذاك القنصل الداعم للفصيل الشعبي، وبعدما يفصل رأسه عن جسده نسن نحن قوانين روما بمفردنا، دون معارضة تذكر، بينما يلهي الرعب والفرع من تقدم الأعداء نحو المدينة العوام. هكذا نستطيع سن قوانين تدافع عن مصالحنا، نحن فقط".

واقفه الجميع في خطته. وكان هذا هو الخطأ الوحيد والأخير الذي ارتكبه سولا فيما يتعلق بماريوس.

معسكر ماريوس العام، بجوار خندق ماريانا
عند مصب نهر الراين، عام ١٠٢ قبل الميلاد

تلقى ماريوس للتو نبأ تجديد منصبه لعام آخر. كان يعلم أنه سيكون التمديد الأخير إذا لم يحدث تقدمًا ملحوظًا ويبعد الكيمبريين والتوتونيين عن منطقة الراين نهائيًا، لكنه لم يكن في عجلة من أمره. دخل سرتوريوس خيمته يخبره: "البرابرة يتقدمون يا صاحب السمو".

فسأله ماريوس وهو جالس في مكانه أمام طاولة مليئة بالخرايط وكؤوس النبيذ الفارغة: "الكيمبريون أم والتوتونيون؟".

ابتلع سرتوريوس لعابه قبل أن يقول: "يبدو أنهم ليسوا كيمبريين، فوفقًا لطريقة تقدمهم أعتقد أنهم من الأمبرونيين والجرمان، الآلاف من البرابرة، بل عشرات الآلاف".

أطرق غايوس ماريوس، وواصل فحص الخرائط، وبعد برهة نظر إلى سرتوريوس وقال: "أخبرني عندما يقتربون بحيث يمكن رؤية هيااتهم بوضوح من أعلى حواجز الحصن، وحتى ذلك الحين لا تزعجني مرة أخرى"، ثم أمسك بإبريق النبيذ وأخذ يسكب لنفسه كأسًا جديدة.

لمحه سرتوريوس يصب الشراب الحكولي على مهل، كانت تلك هي اللحظة التي اعتقد فيها أن ما يردده الجنود عن القائد ربما كان صحيحًا. كانوا يقولون إن القنصل لم يعد هو نفس القائد الذي خاض حروبًا ضارية في إفريقية، وخرج منها منتصرًا، ليس هو نفس الشخص الذي هزم جنود يوغرطة، وأن القنصل قد شاخ بما فيه الكفاية، إذ بلغ ٥٥ عامًا، وبات ضعيف البنية... وجبانًا. لا، لا يمكن اعتباره سكيبيو جديدًا، ولن يصبح شبيهًا له بأي حال من الأحوال.

ذاكرة الماضي البرابرة العمالقة

«كان من الضروري أن يتوقف الكمبريون من أجل الاستعداد وتنظيم صفوفهم؛ لكن التوتونيين والأمبرونيين انطلقوا على عجل وقطعوا المسافات بسرعة، تقدموا بأعداد كبيرة بهيئات توحى بالشراسة، وسط صراخ وجلبة، وسرعان ما احتلوا جزءًا كبيرًا من السهل، وخيموا هناك من أجل استفزاز ماريوس وحثه على بدء القتال».

بلوتارخ، كتاب حيوات متوازية، الفصل الخامس عشر، غايوس ماريوس.

عند مصب نهر الراين، ربيع عام ١٠٢ قبل الميلاد

خيمة القنصل بجوار خندق ماريانا

اكتظ السهل الواسع الممتد أمام معسكر الجنرال الروماني بالأمبرونيين والجرمان المسلحين. نصبت خيام أعداء روما على مدى البصر إلى أبعد ما تراه العين.

راقب ماريوس كل شيء من أعلى الأسوار، رآهم يتحركون بتحدٍ عبر الأراضي التي اعتبروها ملكًا لهم، دون أي خوف من ذلك الحصن الروماني

العظيم. أولئك هم مَنْ هزموا الجيوش القنصلية الرومانية ثلاث مرات، وفي بعض الأحيان كانوا يحرزون النصر بالتعاون مع شعوب بربرية أخرى.

تسببت سلسلة الإخفاقات العسكرية المتكررة، ويقصد بها الهزائم في نوريا، وبوردیغالا، وأراوسيو، في انتشار شائعة بين صفوف الجنود الرومان، تشير إلى أن هؤلاء البرابرة لم يكونوا بشرًا عاديين، بل كانوا كائنات خارقة، وحوشًا لا يمكن التصدي لها، كائنات من عالم آخر لا تقهر أبدًا، بأحجام وأوزان هائلة، عمالقة قادرين على الفتك بأي جيش مهما بلغت قوته.

تأمل القنصل في صمت. يمكن لشائعة واحدة أن تقهر أقوى الجيوش. كان عليه أن يدمر هذه الكذبة أولاً، قبل أن يأمر جحافله بالتصدي لهؤلاء الذين كانوا يتجولون عند مصب نهر الراين. نزل لإبلاغ سرتوريوس والقادة الآخرين بالتعليمات: "أريد أن ينظر الجميع عبر الأسوار ويروا البرابرة".

نظر القادة بعضهم إلى بعض، دون أن يعلق أحد، حتى دنا منه سرتوريوس يستفسر نيابة عن البقية: "ماذا تقصد يا صاحب السمو بكلمة الجميع؟"، فمرر ماريوس سبابته على خيام الجنود والمساعدين وأوضح: "الجميع أعني الكل، أريد أن يتسلق كل فرد من أفراد الفيلق والجنود المساعدین الأسوار ليروا بأعينهم أنه ليس ثمة عملاق واحد بين هؤلاء البرابرة الملاحين، ليس من بينهم كائنات أسطورية. أريد أن يعلم كل رجل تحت إمرتي أننا نواجه رجالًا مثلنا، يمتلكون أسلحة مثلنا، لكنهم أقل انضباطًا وأضعف قيادة. هذا ما أعنيه بكلمة الجميع"، حينها هز القادة رؤوسهم، فهموا أخيرًا، وحتى أكثر مما قاله القنصل. أدركوا أن ماريوس أراد القضاء على الشائعات حول القوة الأسطورية للأمبرونيين والتوتونيين، واستحسنوا الفكرة.

تابع سرتوريوس القنصل بعينه بينما يمشي مبتعدًا عنهم محاطًا بحراسه. فكر أنه ربما شاخ، وأصبح واهنًا، وربما لا يمكن اعتباره سكيبيو جديدًا، لكنه لا يزال محنكًا، ولا يزال ثمة أمل في النصر تحت قيادته.

الطبيب يأتي لقيصر

إحدى الحانات المطلة على نهر التيبر، روما، عام ٩٠ قبل
الميلاد.

أوضح غايوس ماريوس بابتسامة عريضة على وجهه وهو يسكب المزيد
من النبيذ لنفسه ولابن أخيه وصديقه لابينوس:

"بهذه الطريقة كنت قادرًا على محو الخوف الذي سيطر على رجالي من
البربريين بعدما ظنوا جميعًا أنهم عمالقة. وعندما رأوا بأعينهم أنهم رجال
مثلهم، تغير موقفهم...". هنا توقف، بدا أنه يفكر بعمق، ثم أردف: "ربما
تغير بإفراط...".

حينها أعلن سرتوريوس أن الطبيب قد وصل، مستغلًا صمت القنصل.
فسأله ماريوس بشرود: "مَنْ تقول؟". وقبل أن يجيبه، هز ماريوس رأسه عدة
مرات متتالية كما لو أنه أراد التخلص من ذكريات الماضي الحافل، والتركيز
في الحاضر، تذكر أمر الطبيب: "أوه نعم، الطبيب، هل هو طيب ماهر؟ لا
يمكن لأي غريب يتظاهر بأنه يوناني يجيد التعامل مع الجروح أن يعالج ابن
أخي".

"هو الطبيب الذي عالج الجنود المصابين العائدين من إفريقيا ومن
الشمال، بعد الحملة التي كنت تروي تفاصيلها للصبيين يا صاحب السمو".

"آآه! هل لا يزال الطبيب العجوز على قيد الحياة؟" صاح ماريوس
بسعادة. حينها اقترب منهم رجل عجوز بمظهر يبدو عليه الوقار والعلم، وهو
يقول: "ها أنا ذا يا صاحب السمو"، فأظهر الجنود احترامهم له وأفسحوا له

الطريق، لكن ماريوس لم يقف، من تولى منصب القنصل ست مرات لا يقف لأحد، اكتفى بإيماءة برأسه تقديرًا واحترامًا، وكان لها قدر كبير.

"من الجيد معرفة أنك مازلت بين الأحياء".

"وصل الطربون إليّ واستدعاني يا صاحب السمو".

"فاليريوس فلاكوس طيب يتمتع بالكفاءة والمهارة" قال ماريوس. تلقى الطبيب مدح القنصل بحزم من أراد إثبات أنه أهل له، لأنه لم يعرف عن القنصل ميله للمديح.

"لقد ضرب ابن أخي بقوة... وكذلك صديقه".

"واضح يا صاحب السمو".

اقترب العجوز من الصبي، وضع يده على ذقنه؛ وأمره بتحريك عنقه كي يلقي نظرة فاحصة على الكدمات والجروح على جانبي وجهه، بينما يفسر له القنصل الأمر: "أعتقد أن اللكمات التي تلقاها ليست خطيرة، لكنني على أي حال أفضل أن يعود الصبي إلى والدته بحالة أفضل مما هو عليها الآن. لقد تورط الغيبان في معركة ولم يستطيعا التغلب فيها".

عبس قيصر الشاب وكان على وشك الاحتجاج، لكن الطبيب أدار وجهه مرة أخرى ليفحص تأثير الضربات من كذب، فأردف ماريوس: "حسنًا يا فتى، فكر كما يروق لك، لكنك تصرفت بغباء، بغباء شديد. الحماسة هي أن تسمح لكرامتك بالتحكم في ردود أفعالك، والأمر يختلف في المعارك. إذا ما خضت معركة على رأس ٣٠ ألف رجلًا، دون التأكد مسبقًا من فرص الفوز المحتملة لن تُوصف بالغباء وحسب بل تصبح سفاوحًا...، وأنت تأمل أن تصبح قائدًا للجحافل، أليس كذلك؟".

أبعد الطبيب الكؤوس ليضع أدواته على الطاولة. كان ثمة جروح تستدعي الخياطة، فطلب من صاحب الحانة أن يأتيه بماء ساخن وخِرَق نظيفة.

"حسنًا" أكد قيصر الشاب.

لا شك أنه كان يتوق إلى الاقتداء بزوج عمته. لم يكن في مفاوره تحقيق هذه الأمانة في الوقت الحالي، لكنه على الأقل تمنى السير على خطاه قدر الإمكان، أن يتولى منصب القنصل ولو لعام واحد فقط. ومثله مثل أي صبي وشاب في روما، كان يطمح إلى قيادة جيش وتحقيق الانتصارات، لكن قلة قليلة وصلت إلى منصب القنصل.

"حسنًا، تعلم أن تبطلع كبرياءك عندما يصفونك بالجبن طالما أن وضعك لا يسمح لك برد الإهانة. لا تنس ذلك أيها الفتى، احتفظ بالإهانة التي تلقيتها بداخلك وداعبها لأيام أو أسابيع أو شهور أو سنوات إذا لزم الأمر، حتى لا تتلاشى مع الوقت، كي لا تضعف عزيمتك على الانتقام. انتظر اللحظة المناسبة، وحينها لا ترد بإهانة مماثلة، بل بالدم، بضربة دقيقة وقاتلة، باختصار، أهلك عدوك".

حل الصمت، ها هو عمه يخبره بأن الانتقام طبق يقدم باردًا.

بات الصوت الوحيد المسموع هو صوت احتكاك الخيط بجلد الصبي المصاب، وبعض الآهات المكتومة، لأن الفتى اليافع، ورجل المستقبل، خشي إظهار شعوره بالألم أمام الناس، على الأقل أمام القنصل، وقدامى المحاربين.

ذاكرة الماضي الملك تويتوبود

عند مصب نهر الراين، ربيع عام ١٠٢ قبل الميلاد.

استقر البرابرة عند السهل، يقودهم الملك تويتوبود، ملك الجرمان. في الجزء الأمامي، في الطليعة، نُصبت خيام الرجال المسلحين، وفي المؤخرة الآلاف من النساء والأطفال والعربات المحملة بالطعام وأنواع شتى من المعدات، وكان من الممكن أن ينطلقوا مباشرة نحو إيطاليا. لم يكن ثمة ما يجبرهم على الاقتراب إلى هذا الحد من المعسكر الروماني، وفي الواقع، لم يفهم كثير من الجنود، سبب رغبة زعيمهم في التوقف أمام الحصن الروماني.

"إنهم يخيمون بالقرب من البحر، ولم يتعرضوا لنا، يمكننا مواصلة طريقنا وتركهم وراءنا" قال البعض في المجلس الملكي، في الخيمة المركزية لمعسكرهم الضخم. أو ما آخرون برأسهم علامة التأيد، لكن أعينهم جميعاً تعلقت بالملك، بكثير من الاحترام، في انتظار تعليقه. كان تويتوبود قد نال تقدير واحترام الجميع بعد الهزائم التي ألحقها بالرومان، حتى ولو لم يفهموا مغزى بعض قراراته، وذلك لأنه قادهم بالفعل لعدة سنوات في معارك في بلاد الغال دون أن يتمكن أي شخص ولا شيء من اعتراض تقدمه.

قال الملك دون أن ينهض من مقعده الوثير في وسط الخيمة: "لا يمكننا التقدم في ظل وجود عدو مسلح جيداً خلفنا"، وأمام صمت الجميع، أردف:

"ماذا لو، على سبيل المثال، هاجمنا جيش آخر من جهة أخرى؟ ألن نفع حينها في المنتصف بين جيشين؟ إذن من الأفضل تدمير الخصم الذي أمامنا أولاً، ثم المضي قدماً، فضلاً عن أن إلحاق هزيمة أخرى بروما. لا تنسوا أن تلك ستكون الرابعة في غضون سنوات قليلة، من شأنها إثارة الذعر، وأشك في أنهم سيكونون قادرين على حشد المزيد من الجنود الشجعان بما يكفي لمواجهتنا من بعدها. إذا هزمنا هذا الجيش الروماني هنا والآن، يصبح طريقنا إلى روما مجرد عرض عسكري وسندخلها دون مقاومة تذكر".

اتفق الطربون معه، وباقي أفراد الجيش أيضاً، لكن أحد النبلاء الذين تم استدعائهم إلى مجلس الملك كان لديه رأي آخر، فهم بقول: "لكن...". إلا أنه لم يجسر على إنهاء جملته، فحثه تيوتوبود على التعبير عما يريد قائلاً: "تكلم، الملك يستمع إليك". فانحنى الرجل معلناً طاعته لملك بلاده وأوضح: "ولكن كيف سنجعلهم يواجهوننا؟ وصلنا إلى هنا منذ يومين ولم يتخذ أي منهم خطوة واحدة قد تشير إلى أن لديهم رغبة في الخروج من معسكرهم من أجل القتال".

فاوماً الملك برأسه، وأجابه بحدة: "سوف نستفزه". لقد اتبع الجرمان من قبل فخر استفزاز قناصلة روما لإجبارهم على التورط في القتال في الوقت والمكان اللذين يحددهنهما، فلماذا قد يتصرف القائد الروماني بطريقة مختلفة هذه المرة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

المعسكر الروماني العام جوار خندق ماريانا
أعلى أسوار الحصن

تحقق رجال ماريوس بأعينهم من أن الجرمان وبقية البرابرة الذين رافقوهم ليسوا عمالقة، تماماً كما أراد غايوس ماريوس. حتى الآن تسير خطته على نحو جيد، لكن بعد ذلك تبدلت مشاعر الجنود، من الخوف الشديد إلى الرغبة المفرطة في الاشتباك معهم، واعتبروا رغبتهم تلك منطقية؛ فإذا لم يكن الهدف هو القتال، فلماذا واصلوا التدريبات الشاقة على

مدار سنوات؟ أليس معسكرهم هو الجيش الوحيد الذي يحول بين هؤلاء
الجرمان ومدينة روما؟ أليست مهمتهم الأساسية والوحيدة هي اعتراض
تقدم هؤلاء البرابرة؟ الآن فهموا أنهم ليسوا عمالقة، أدركوا ذلك بوضوح،
فلماذا لا تبدأ المعركة إذن، قبل أن يتقدم الأعداء نحو روما؟

راقب ماريوس هجوم مجموعات مختلفة من الجرمان ضد المعسكر
الروماني، وإلى جواره مجموعة من الطربون يتتبعون تحركات العدو.
"لا يبدو أنهم جادون" علق سرتوريوس.

"لا، إنهم ليسوا جادين، فهم يعرفون أن لدينا الكثير من التحصينات،
المزيد من الخوابير وقذائف مدفونة في الرمال، بالإضافة إلى تلك الخنادق
والفخاخ والسدود الدفاعية المختلفة التي نصبناها. لن يصل إلى الحواجز
ما يكفي من البرابرة لاقتحام المعسكر، وهم يعرفون ذلك، لن يفلحوا في
تجنب الفخاخ أو الممرات المفتوحة بين السدود، لأن الرماة لن يتوانوا في
تسديد السهام باتجاههم. إن ما يريده ملكهم أمرٌ آخر..." أكد ماريوس.

وهذا ما حدث بالفعل، كان على كل من اقترب من أسوار الحصن،
سواء الجنود أو الحيوانات، تجنب الفخاخ المحفورة في الأرض، لكن
حتى من نجا منهم تعرض لعدد من الخوازيق. كما اعترضت طريقهم
القذائف المتناثرة على الأرض، أوقفتهم وحالت دون تقدمهم، كما مني
عدد منهم بإصابات. كانت محاولة الوصول إلى الأسوار وتجنب الثقوب
المخفية أشبه بمصارعة ثور في بحر مليء بالأشواك القاتلة. أما إذا تغلب
أحدهم على كل هذا وتمكن من الاقتراب أكثر من اللازم من الأسوار، فإن
القناصة كانوا يستقبلونهم بوابل من السهام وفقاً لتعليمات القنصل، التي كان
يصدرها بحماس بالغ، وقد تمكن رجال ماريوس من إفشال كل محاولة
توتونية للوصول إلى الحاجز الرئيس للمعسكر.

"إذن..." قال سرتوريوس بريية.

"ماذا؟" سأله غايوس ماريوس، كي يحثه على التعبير عن أفكاره بصوت
عالٍ.

"إذن... هل يضحى الملك التوتوني... من أجل لا شيء؟" سأل.

ظل ماريوس صامتًا لبعض الوقت، يتابع بعينه محاولات الجرمان بينما تفشلها الخنادق والفخاخ والتحصينات الرومانية، ثم أجاب أخيرًا: "لا على الإطلاق، بل يسعى إلى ردّ فعل من طرفنا".

في الواقع، دعمت الهجمات التوتونية الفاشلة جرأة جنود روما، وأنعشت حماسهم بدرجة كبيرة، حتى بدأ الطربون يقترحون الاستفادة من ارتفاع معنويات الجنود والخروج من الحصن وقتال العدو. لكن رد ماريوس كان يأتي دائمًا مقتضبًا في كل مرة، في الواقع يجب بكلمة واحدة فقط: "لا". احتوى غايوس ماريوس مخاوف القادة والجنود.

في اليوم التالي، كان الجرمان قد سثموا بعدما فقدوا الكثير من رجالهم عبثًا؛ إذ أن محاولاتهم لم تفلح في استفزاز الرومان. جربوا طريقة أخرى، فاستعرض مجموعة من الجنود التوتونيين الشجعان مهاراتهم القتالية أمام أعين الرومان، وعرضوا عليهم أن يرسلوا رجالًا مهرة في القتال للدخول معهم في مبارزات فردية. كان للاستفزاز أثره على جنود وضباط الرومان، إلى حد أن عددًا من الطربون وقفوا أمام القنصل، وعرضوا الخروج لمبارزة هؤلاء، لكنه كان قاطعًا في رفضه للاستجابة لاستفزازات العدو، فكان يقول: "لا، لن أضحي بضابط واحد من أجل تحدٍ لن يغير في الوضع شيئًا".

صمت الجميع. في القتال ضد العدو لم يكن الهدف فقط هو إنهاء الحرب، إنما من المهم الحفاظ على سمعة القوات، أم أنهم كانوا مخطئين وغايوس ماريوس يعرف أكثر؟ على أي حال، لم يسمح القنصل لأي شخص بالخروج من الحصن لمواجهة التوتونيين. عندها بدأ البرابرة يسخرون من الرومان، حتى أنهم دفعوا بأحد العبيد وكان يعرف اللاتينية لتعليمهم كلمات مثل "رعديد" أو "جبناء" أو "مختثون"، حتى يتمكنوا من الصراخ بأعلى صوتهم أمام أسوار الحصن، على مسمع من الرومان الذين يمتنعون عن الرد، القابعين خلف الحواجز لا يستطيعون فعل أي شيء سوى

الامتثال لأوامر القنصل وابتلاع كل هذا القدر من السخرية والإهانة، حتى أن بعض الجرمان أظهروا مؤخراتهم في مواجهة الرومان، وتعالى ضحكاتهم، وغايوس ماريوس، ساكن لا يتحرك، يتابع كل تلك المحاولات بجدية شديدة، دون أن يتزحزح عن موقفه. حينها تجرأ سرتوريوس واقترح عليه: "ربما يسهم السماح بخروج مجموعات صغيرة من جنودنا، فقط في إظهار أننا لا نقبل تلك الإهانات، في تهدئة غضب جنودنا".

"لا، إما أن نخرج جميعًا أو لا يخرج أحد. إذا لم نخرج جميعًا، فإن المجموعة التي ستخرج ستجد نفسها أمام عدو يتفوق عدديًا عليها، وسيتم القضاء عليهم جميعًا لا محالة. على أي حال، لن أقاتل والنهر خلف ظهورنا، هذا فخ مميت، وهو ما حدث في معركة أراوسيو، هناك وصل الأمر إلى حد أن البرابرة ذبحوا عددًا من جنود روما" أجابه القنصل.

أنصت كل من في الحصن له بعيون متسعة.

اندفعت المزيد من صيحات الجرمان وتهكمهم في محاولات مستمرة لاستفزازهم، ولما لم يجدوا بُدًا، اقترب عدد من التوتونيين من أسوار الحصن، وأخذوا يصيحون: "أيها الرومان، ألا تريدون أن ترسلوا شيئًا إلى زوجاتكم؟ لأننا قريبًا سوف نظأهن".

تأذت مشاعر الجنود من تلك الكلمات بشكل خاص، ومع ذلك استمر صمود ماريوس وإصراره على عدم القبول بخروج مجموعة واحدة من المعسكر، إذ اعتبر تلك المحاولة عديمة الفائدة وانتحارية، وخسارة سخيفة لرجال سيحتاجهم بالتأكيد لاحقًا.

حل الليل، فتوجه ماريوس نحو خيمته، يتبعه سرتوريوس، وفي طريقهما، سأله: "مع كل الاحترام الواجب يا صاحب السمو".
"أخبرني، ما الأمر".

"إن... طالما أن هذا الموقع غير مناسب للهجوم، فلماذا أقمنا معسكرنا هنا؟".

"لأن هذا كان ولا يزال موقعًا جيّدًا لاستقبال الإمدادات من روما عن طريق النهر. في هذا المكان تحديدًا لن يتمكن الجرمان من قطع إمداداتنا بأي شكل من الأشكال. لكن في الواقع، هذا ليس موقعًا مثاليًا للقتال، في نوريا وبوردیغالا سقطت قواتنا فريسة للكمان، وفي أراوسيو أُجبروا على القتال بينما كان النهر خلفنا، لن أكرر أخطاء السابقين، سوف نقاتل في المكان والميعاد المناسبين. لدي سلطة مطلقة ولن أقبل بمعارضة هذا الأمر. إن الصراع بين اثنين من قناصلة الجيشين الرومانيين في أراوسيو لم يدعم موقف روما في الحرب، ولهذا طلبت من مجلس الشيوخ منحني قيادة هذا الجيش بمفردي. ولهذا السبب سنقاتل فقط في المكان والتوقيت اللذين أعتقد أنه ينبغي لنا القتال فيهما".

"حسنًا يا صاحب السمو".

"كان الجرمان يحتكون كثيرًا بالرومان، يسخرون منهم، ويسألونهم إذا ما أرادوا إرسال أي شيء لنسائهم، لأنهم سيتمكنون من مجالستهم قريبًا" بلوتارخ، حيوات متوازية، ماريوس، الفصل الثامن عشر، ٢.

ذاكرة الماضي الملك يتحدي

المعسكر الروماني العام بجوار خندق ماريانا، عام ١٠٢ قبل
الميلاد

حل اليوم الثالث على التوالي، واستمرت استفزازات الجرمان أمام المعسكر الروماني. عند الفجر، أيقظ الطربون القنصل، لقد رتب الجرمان لاستفزاز أخير، فسألهم: "ترى ماذا يريدون هذه المرة" سأل، ولم تأت إجابة، إذ لم يجرؤ ولا بقية الطربون على تقديم تفسيرات دقيقة أمامه، بينما عدل اثنان من العبيد أحزمة درعه.

فكر سرتوريوس أنه لا يمكن ترك السؤال دون إجابة، فأوضح له: "إنهم يصرون... على المبارزة يا صاحب السمو".

نظر إليه القنصل بفضول. أدرك أن ما يحدث هذا الصباح كان شيئاً مختلفاً. لم يكرر سؤاله، بدت رغبة الطربون الأكثر ثقة واضحة للغاية، أرادوا أن يتحقق القنصل من الموقف بنفسه. وعندما اعتلى ماريوس أسوار الحصن وجد مئات الجنود يراقبون المشهد من أعلى، وأعينهم مثبتة ناحية السهل.

للحظة، انغمس القنصل في نكتة أسرّها لنفسه، ترى هل ترك الجرمان حصاناً خشيباً عظيماً وذهبوا؟ حسناً، حينها يكتفي بحرق الحصان وكل الجرمان الذين يختبئون بداخله. لكنه بمجرد وصوله إلى قمة الأسوار نسي إرهابات الإلياذة. نظر نحو السهل، كان ثمة محارب واحد يتقدم بقية

الجيش البربري، ارتدي درعاً فضياً لامعاً يعكس أشعة شمس الصباح الباكر؛ وأمسك بسيف طويل وأبرز درعاً بيضاً وأخضر بمسامير من الذهب لها بريق ربما بنفس قدر الدرع أو أكثر، لا يمكن إلا لجندي برتبة رفيعة للغاية أن يتباهى بمثل هذه الأسلحة الهجومية والدفاعية عالية الفخامة. ودون أن يرفع عينيه عن ذلك الرجل الذي يبدو شرساً مهيباً سألهم: "مَنْ هذا؟".

"إنه يدّعي أنه... ملكهم" أجاب سرتوريوس، فأوماً غايوس ماريوس برأسه. الآن أدرك ما يدور حوله، ولم يعجبه.

فكر في أن يأمر جميع الرجال، باستثناء الحراس بالنزول من الحاجز. فالقائد الذي أمر، قبل بضعة أيام، جميع رجاله بالصعود إلى قمة الأسوار ليروا كيف أن البرابرة مجرد رجال عاديين، وليسوا عمالقة، تمنى بشدة ألا يروا ما يحدث أمام أسوار الحصن.

بدأ الشخص الذي ادعى أنه الملك التوتوني في الصباح، يدعوه للمبارزة، تمنى القنصل ألا يسمع رجاله ذلك أيضاً، لكن الأوان كان قد فات. من الواضح أن سرتوريوس والضباط الآخرين قد لجؤوا إلى خيمته لأن الملك التوتوني استمر في تكرار عرضه عدة مرات. كان يتحدث بلغة لاتينية، غلبت عليها اللكنة الجرمانية بقوة، لكنها كانت مفهومة بشكل جيد؛ كان يقول: "أنا، تيوتوبود، ملك الجرمان، أتحدى القنصل الروماني غايوس ماريوس في قتال مباشر، إن كان يمتلك الشجاعة وليس جبائلاً!".

سرعان ما علم الجيش الروماني بأكمله بتحدي الملك التوتوني للقنصل، لقاؤهم. هل سيواصل صاحب السمو، رئيس الجحافل الرومانية في الشمال، تبلّده؟

استمر غايوس ماريوس صامتاً بلا حراك حيث يقف أعلى أسوار الحصن مثل تمثال من الرخام، بينما يستعرض الملك التوتوني نفسه ويكرر تحديه مرة ومرة أخرى. لم يرغب في ترك عذر واحد للقنصل الروماني كأن يتحجج مثلاً بأنه لم يسمعه بشكل صحيح أو سمع لكن لم يتبين الكلمات.

وبعد المرة الأخيرة، نظر تيوتوبود إلى العبد الروماني الذي يترجم للرومان ما يقوله، فأوماً العبد برأسه مؤكداً أن الملك الجرمانى قد نطق العبارات اللاتينية التي عكف على حفظها طوال الليل بطريقة صحيحة.

جال تيوتوبود ببصره حول جنود روما الذين يراقبونه من خلف هذا الحاجز المنيع، حتى أدرك أن الطربون يتجمعون حول موقع معين في السور، حيث يقف شخص قوي البنية، بلا خوذة، يمسك بدرع لامع، يكسو رأسه شعر رمادي ويحيط به العديد من الضباط، يقف منتبهاً له، إلى تيوتوبود. أدرك الملك التوتوني أنه قنصل العدو.

بينما ظل غايوس ماريوس يفكر ويفكر، غلى دمه داخل عروقه. لماذا لا يستجيب له؟ كانت الرغبة في الخروج والقتال تلتهمه من الداخل، نفس الرغبة التي سيطرت على جنوده على مدار الأيام الماضية. تذكر كيف مُني الرومان بثلاث هزائم ساحقة في نوريا وبوردیغالا وأراوسيو، وسقط عشرات الآلاف من القتلى، حتى اهتزت قوة روما، وباتت ذليلة، وكادت أن تهلك إلى الأبد.

بعدما تمكن الملك التوتوني من تحديد موقع وقوف غايوس ماريوس، مشى عدة خطوات حتى بات مقابلاً له مباشرة، فاقترب أكثر من الحاجز، لكنه بقي على مسافة آمنة بحيث لا تطاله سهام الرومان. من موقعه أعلن التحدي للمرة الأخيرة، بينما ينظر مباشرة إلى الزعيم الروماني الذي قبع ثابتاً وبلا حراك، قال: "أنا، تيوتوبود، ملك الجرمان، أتحدى القنصل الروماني غايوس ماريوس في قتال مباشر، إذا كانت لديه الشجاعة وليس جبناً، أليس بينكم الآن!".

أحس غايوس ماريوس بأعين ضباطه وجنوده والعييد تنصب عليه، علم أن عليه فعل شيء. كان يعرف ما يتمناه قلبه الذي في صدره، لكن ما أمره به عقل المحارب، الذي لا يقهر، بدا أكثر وعياً وإدراكاً للواجبات. كان يعرف تمام المعرفة أن الانضباط، وفقاً لمعناه الصحيح، يبدأ بالتزام شخص واحد.

لو تعرض للموقف نفسه قبل ١٥ عامًا فقط، لارتدى خودته، وعدل صدريته، وأخرج سيفه من غمده. لكن الزمن لا يمر هباء، إنه يبلغ من العمر ٥٥ عامًا الآن، وعلى مدار تلك السنوات اكتسب خبرات لا حصر لها، لذا لم تعد ردود أفعاله كما كانت من قبل ولا قوته كذلك. دقق النظر في الملك التوتوني، كم عمر هذا الملك، ٣٠ عامًا على الأكثر؟ بدا شابًا وقويًا وشجاعًا، حركاته سريعة ورشيقة، مفتول العضلات وقوي البنية، وصل إلى ذروة قوته البدنية. مكتبة سر من قرأ

ازدرد القنصل المخضرم لعابه. إذا قبل التحدي سيخسر أمامه لا محالة. لم يكن عليه أن يكون عبقرياً ليكتشف ذلك بنفسه، لكنه مضطر إلى إظهار رد فعل، لا بد من رد. فنادى القنصل على الأطربون: "سرتوريوس!".

"أمرك يا صاحب السمو" أجابه على الفور.

لم يكن ثمة أصوات أخرى.

"استدع إهوباربوس".

لم يفهم سرتوريوس مقصد القائد، فاستفسر في حيرة من أمره: "هل تقصد سيادتك المدرب العسكري؟".

لم يعتقد غايوس ماريوس إعطاء التفسيرات، فقط يصدر الأوامر فتطاع. استدار متمهلاً وألقى نظرة تشي بانزعاجه من السؤال، بعدها لم يكن بحاجة إلى قول أي شيء آخر. انحنى سرتوريوس وهرع إلى أعنف وأقوى مدرب في صفوف الجحافل الرومانية؛ كان إهوباربوس قائد مائة ربيعاً في الكتيبة الأولى، يبلغ من العمر ٣٤ عامًا، حصل على العديد من أوسمة البسالة عن أعماله البطولية في القتال، وعُدَّ الأفضل في القتال اليدوي، ولهذا السبب اختاره ماريوس لقيادة المدربين العسكريين.

بعد فترة وجيزة، عبر ممر شكّله الجنود، تقدم إهوباربوس نحو ماريوس، خلف سرتوريوس، فأمره القنصل: "عليك بواقى الصدر، والخوذة، والسيف، والدرع، تسلّح جيّداً يا إهوباربوس، سوف تواجه الملك التوتوني

نيابة عني". حينها ساد صمت خانق بين الجنود، صمت يمكن فيه مضع خيبة الأمل مع معارضة قرارات القائد، لكن لم يجرؤ أحد على كسره.

أذعن المدرب للتعليمات، واستدار بحثًا عن الدروع والخوذة والأسلحة. ثم انفتحت البوابة الرئيسية للحاجز وخرج من خلالها إهنباريوس بسيفه الذي أخرجه من غمده، ودرعه المرفوع مستعدًا لقتال حتى ملك الأعداء نفسه. تابع تيوتوبود البوابات وانتظر أن يخرج منها ماريوس، لكنه تفاجأ بالضابط الروماني المسلح يستعرض نفسه ببسالة، إنه شاب مثله وليس عجوزًا، يظهر استعداده للقتال المباشر مثله أيضًا، لكنه لم يكن القنصل، لم يكن قائد الجيش.

تقدم إهنباريوس بخطوات سريعة، ببسالة، باتجاه خصمه، حتى توقف على بُعد بضع خطوات منه. نظر تيوتوبود أولًا إليه، ثم التفت إلى أعلى الأسوار حيث كان القنصل يراقب كل شيء. فجأة أخذ الملك التوتوني يحرك رأسه يمينًا ويسارًا معبرًا عن رفضه، ثم بصق على الأرض، وألقى بسيفه ودرعه في غضب، فأحدثا دويًا عاليًا عند ارتطامهما بالأرض، مُرّج دويهما ببضع كلمات لاتينية قصد بها إهانة الرومان، ولم يكن في حاجة إلى تعلمها من المترجم، إذ كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، ويكررونها كلما أرادوا النيل من كرامة الرومان أو استفزازهم كي يتورطوا في قتال مباشر:

"يا لكم من رعايد! يا لكم من رعايد!"

ثم استدار وانضم إلى صفوف جيشه، رافعًا ذراعيه في إشارة إلى انتصاره، دون أن يكف عن ترديد العبارات المهينة نفسها مرارًا وتكرارًا. لملم العبد الذي رافقه واثان من المحاربين أسلحته وتبعوه. هكذا أصبح إهنباريوس وحده، وظل يتساءل ماذا يفعل. نظر نحو الأسوار، نحو القنصل، فوجده ساكنًا بلا حراك. أدرك قائد المدربين أنه لم يعد ثمة ما يمنعه من العودة إلى داخل الحصن، فاستدار عائداً.

وهكذا لم يشهد ذلك الصباح مبارزة فعلية بين الملك التوتوني والقنصل الروماني.

عندما حل الليل، أشعل الرومان اللهب لإعداد وجبات العشاء، بينما كان من الممكن سماع حسيس كلمة واحدة "رعاعيدا! رعاعيدا! رعاعيدا!" تتسلل من بعيد، بصوت خفي أشبه بالهمس، ولكنها ظلت تتكرر بوتيرة ثابتة. يبدو أن الحزن وخيبة الأمل قد استحوذا على الجميع. هل كان القنصل القابع في خيمته، يشرب كوبًا من النبيذ يُقَلَّب الرشفة في فمه بعد مزجها بقطعة من العجين المر، أم تراه كان يمزجها بطعم الحكمة الحامض والحلو في الوقت نفسه؟ بات صموده ماثراً للأقاويل. حتى دخل سرتوريوس عليه ليسأله عن كلمة السر التي سوف يستخدمها الحراس أثناء المناوبة الليلية، فأجابه دون تفكير: "النصر (فيكتوريا)".

لم يستطع سرتوريوس تجنب ابتسامة نصف ملتوية حاول إخفاءها، لكن القنصل أدركها بوضوح وسأله: "أنت أيضًا تعتقد أنني جبان، أليس صحيحًا؟"، عندها أحكم سرتوريوس إغلاق فمه. لم يشأ مضايقة القنصل، فبادره ماريوس بقول: "صمتك يكشف ما بداخلك، الصمت أحيانًا يقدم إجابة كافية أيها الأطربون، دعني وشأني، لأن هذا ما بتُّ أشعر به أنا أيضًا" أضاف ماريوس.

غادر سرتوريوس خيمة القنصل على الفور، وبمجرد أن أصبح خارج الخيمة توقف. شعر بأنه خان ثقة قائده به، بطريقة أو بأخرى، ثم أخذ يومئ برأسه آسفًا، وأسرع لإبلاغ كلمة السر إلى الضباط المناوبين.

داخل الخيمة، سكب ماريوس لنفسه كأسًا ثانية من النبيذ، تلك كان مذاقها أسوأ من الأولى، حتى ضابطه الأكثر إخلاصًا له بات يراه جبانًا. فكر كيف أن انتصارات الماضي القريب يمكن أن تتلاشى سريعًا من الذاكرة. تساءل: ترى ما مدى ضآلة ذاكرة الجنود وقادة المائة والطربون؟ حسنًا، لقد اعتقدوا جميعًا أنه جبان؛ رجاله والجرمان، وحتى ملك الأعداء، بداية من اليوم فصاعدًا، سينظر تويتوبود إليه بازدراء، بات متأكدًا تمامًا من ذلك.

هذا صحيح، سوف يستخف تويتوبود بقدراته على الهجوم، لكن لكل شيء أوان.

ابتسم القنصل بينما يسكب لنفسه كأسًا ثالثة.

يعلم أنه، في يوم وشيك، سوف يتمكن من مفاجئة الأعداء وملكهم، لكن اللحظة الحاسمة لم تحن بعد، يجب أن يبدأ الجرمان بالهجوم أولاً.

شرب قنصل روما المخضرم الكأس الثالثة في جرعة واحدة، بداله أن مذاقها أفضل.

ذاكرة الماضي هجوم الجيش التوتوني

عند مصب نهر الراين، جنوب بلاد الغال، عام ١٠٢ قبل
الميلاد

عند السهل، أمام المعسكر الروماني.

وكما توقع القنصل الروماني، لم يتأخر تيوتوبود كثيرًا، بل سرعان ما أطلق العنان لغضبه؛ ففي اليوم التالي هاجم الجرمان بكل قوتهم دفاعات المعسكر الروماني. لم يكن هجومًا مخططًا له، لكنهم اكتسبوا ثقة هائلة على مدار الأسابيع الأخيرة، نظرًا لاستمرارهم في توجيه الإهانات والسباب لعدو ظنوا أنه ضعيف، واعتقدوا أن جيش ماريوس لا يتعدّد كونه جيشًا آخر مثل الجيوش الرومانية التي هُزمت على أيديهم بالفعل في معارك نوريا وبوردیغالا وأراوسيو. فضلًا عن أمر إضافي، أعجبهم كثيرًا؛ إذ أدركوا أن قائد الجيش هذه المرة شخص جبان رعديد.

المعسكر الروماني

اعتلى ماريوس الأسوار لمراقبة الأوضاع.

"إنها ليست مناوشة وحسب، ليست مجرد محاولة أخرى لاستفزازنا، لم يعد تيوتوبود يهتم بخروجنا من عديمه، إنما يرغب في تدميرنا يا صاحب السمو" همس سرتوريوس.

"حسنًا، هذا ما يريده، وفي الواقع، هم مستعدون لفعل أي شيء" أكد ماريوس محافظًا على سمته الهادئ الثابت الذي لا تحركه المشاعر، على الرغم من حقيقة أن عشرات الآلاف من الجرمان وحلفائهم يواصلون التقدم نحو الأسوار.

كان الرومان قد عززوا دفاعات الحصن وفقًا لأوامر القنصل، على مدار شهور مضت، فحفروا المزيد من الحفر والخنادق، حتى أنهكت قواهم، وغطوا العديد منها بالأعشاب الجافة بعد دفن المزيد من الخوابير المدببة في قاعها. كما حسّنوا تأمين الأسوار ودعموها بأبراج مراقبة في المواقع التي عُدت نقاط ضعف واحتشد فيها رماة السهام، كما أعدّ جنود الفيلق رماح البيلوم الرومانية الجاهزة للإطلاق.

كان الجميع لا يزالون غاضبين ومحبطين من قائدهم الأعلى، ولكن الآن البرابرة بدؤوا يهجمون، الأمر الذي استدعى أن يمثل الجميع إلى أوامر القيادة. الآن لم يعد في إمكان القنصل الحفاظ على هدوئه، واضطر إلى إصدار أوامره لجميع الجنود بتوجيه السهام والرماح نحو جنود العدو، وبات كل فرد في الفيلق يحترق من شدة الرغبة في قتال هؤلاء البرابرة الملاعين الذين سخروا منهم كثيرًا، حتى لو اقتصر الأمر على قتال عن بُعد، كما هو الوضع في تلك اللحظة. ولم يفقد الجنود الرومان الأمل في أن يسمح لهم القنصل في نهاية المطاف، في خضم ذلك الهجوم الوحشي، بالخروج من الحصن لمواجهة العدو مباشرة وليس من خلف الأسوار.

الجيش التوتوني

ما إن تقدم الجرمان بشكل غير منظم ولكن بأعداد كبيرة نحو أسوار الحصن الروماني، حتى بدؤوا يجنون الخسائر. سقط الكثير منهم في الخنادق والحفر المخبأة بالعشب، فتعالت الصيحات ووصلت إلى آذان الفيلق المدججين بالسلاح فوق الأسوار في انتظار أوامر القنصل ببدء الإطلاق. ومع ذلك استمر البرابرة في الاقتراب من المعسكر الروماني،

ومعهم ملكهم الذي تحاشى السير ضمن الصف الأول، إلا أنه تحرك ضمن الصفوف الأولى، الذي سرعان ما أدرك الخسائر الفادحة التي سببتها فحاخ الرومان. كان قد توقع بالفعل أنه سيخسر عددًا من جنوده بعدما كشف التعزيزات التي قام بها الرومان خلال الهجمات الاستفزازية التي شنّها على مدار الأيام الماضية، وكان على استعداد لخسارة عدد أكبر منهم. كان لا يزال الغضب يسيطر عليه، إذ مس تعامل القنصل الروماني مع تحديه له مشاعره وتقديره لذاته، فاشتعلت رغبته في القضاء نهائيًا على ذلك المعسكر في أسرع وقت ممكن، حتى يتمكن من مواصلة التقدم نحو روما دون أعداء من خلفه. منعه الغضب من التفكير بحكمة في قراراته، فقد اعتقد أنه يملك جيش مهيب، الآلاف والآلاف من المحاربين، أكثر بكثير من جنود الرومان، وبإمكانه تحمل خسائر قليلة، أو كثيرة، لا يهم، المهم هو أن يتم مهمته.

حسنًا، توقف الآن على بُعد مسافة آمنة من أسوار الحصن. لم يرغب في المخاطرة بنفسه، فستان ما بين الموت أثناء مبارزة زعيم العدو والسقوط متأثرًا بسهم أطلق عليه من أعلى الحصن.

تواصل سقوط الجرمان، أولًا بالعشرات، ثم بالمئات. لكنهم بمرور الوقت استطاعوا تجنب البؤر التي سقط فيها زملاؤهم، وتمكن عدد منهم من الوصول أخيرًا إلى قاعدة الأسوار.

المعسكر الروماني

راقب ماريوس كل شيء في صمت، حتى وجد الجرمان يقتربون أكثر من اللازم، فأمر رماة السهام: "أطلقوا سهامكم! ورماحكم، أمطروهم بوابل من السهام! بحق كل الآلهة عليكم".

جاء أمره بمثابة البلسم على قلوب الجنود، الذين ظنوا، حتى قبل ثانية واحدة، أن قائدهم لن يصدر أمرًا واحدًا.

بدأ جنود روما في إطلاق السهام من أبراج المراقبة، وسددوا المئات من رماح البيلوم على الصفوف الأولى من الجرمان وكل من حاول الاقتراب من الحصن، باتت الوفيات بين البرابرة لا تعد ولا تحصى.

نظر سرتوريوس إلى القنصل دون أن يجسر على النطق بكلمة واحدة. فجأة تلاشى شعوره بخيبة الأمل الذي لازمه في الأيام الأخيرة وحل إعجاب شديد محله، أدرك الآن أن إصرار القنصل على ضبط النفس سمح له بالتحكم في غضب الملك التوتوني إلى حد أنه دفعه إلى البدء في هجوم يعلم جيدًا أنه خاسر.

الجيش التوتوني

رغم سقوط أعداد هائلة من البرابرة ظل تيوتوبود مترددًا في وقف هجومه الوحشي. لقد حطم بالفعل دفاعات المعسكرات الرومانية الأخرى، وأظهر رجاله دائمًا تفوقهم على جنود روما في القتال المباشر، لذا اعتقد أن الأمر يتوقف على أن يصل جنوده إلى أعلى الأسوار ويقاتلوا رجال ماريوس يدًا بيد، وحينها، يصبح النصر حليفًا له.

المعسكر الروماني

بدأ الجرمان الأوائل في تسلق الحبال المتدلية على طول أسوار الحصن، فأسرع الرومان بقطعها، لكن عددًا منهم كانوا قد وصلوا بالفعل إلى قاعدة الأسوار. وكان ثمة العديد من الحبال فلم يتمكنوا من منعهم كلهم، إذ شرع كثير منهم في الصعود على الرغم من سيل السهام الرومانية والرماح التي سعت لمنعهم من التقدم.

"الرماة!" قال ماريوس بنبرة هادئة، إذ كان لا يزال بعض الجرمان يتسلقون الأسوار. وعلى الفور بدأ المئات من رماة السهام في توجيه سهامهم، وشتق الهواء أزيز الذخائر اليدوية التي واصلوا قذفها باتجاه جنود العدو.

وبهذا حلت الذخائر اليدوية والخوازيق ورماح البيلوم، محلّ الجنود، ودافعت عن الحصن دون الاضطرار إلى الدخول في معركة مباشرة. لذا حرص القنصل على ألا يتوقف وابل الحديد والرصاص للحظة واحدة.

الجيش التوتوني

كذلك وقف تيوتوبود يراقب المشهد، على بعد مسافة آمنة من قذائف العدو. هاله رؤية أعداد هائلة من جنوده يسقطون، بينما يواصل آخرون القتال أعلى الأسوار.

المعسكر الروماني

"ربما يجب أن يحتمي القنصل في مكان أكثر أماناً" قال سرتوريوس. فالتفت ماريوس إليه، ورمقه بنظرة ازدراء. حينها انحنى الأطربون أمامه احتراماً وتبجيلاً وأدى التحية العسكرية بأن ضرب صدره بقبضة يده، وأخرج سيفه من غمده، ووقف إلى جوار القنصل. حينئذ وصلت أول دفعة من الجرمان إلى قمة الأسوار، وبدأ قتال مباشر وضارٍ، بلا هوادة.

كان الجرمان، وعلى مدار السنوات الأخيرة، قد أظهروا تفوقهم على الرومان في القتال المباشر، لكن ماريوس أحسن تدريب جنوده وأعدهم كي يصبح كل واحد منهم وحشاً كاسراً، ومقاتلاً لا يقهر. حتى أنه أجبرهم على تنفيذ مناورات وتدريبات مستمرة دون راحة على يد أفضل المدربين العسكريين.

لذا؛ فاق أداء جنود ماريوس المستوى المتوقع من الرومان، وكان هذا أحد الأمور الأخرى التي غيرها ماريوس في الجيش. دُهِش الجرمان من مدى صمود ومقاومة الرومان في القتال اليدوي، وهو أمر لم يكن معروفاً عنهم من قبل؛ إذ تمكنوا من التصدي لمعظم البرابرة بشراسة. كما استمر الرماة في إطلاق السهام بلا هوادة من الأبراج وواصلوا أيضاً إلقاء المزيد

من الذخائر اليدوية، الأمر الذي أدى إلى تزايد أعداد الضحايا بين صفوف
الجرمان. كذلك سقط عدد من الجرحى والقتلى من صفوف ماريوس، لكن
ظلت أعدادهم محدودة للغاية مقارنة بخسائر العدو.

أما الجرمان القلائل الذين تمكنوا من تجاوز الأسوار، فسرعان ما
وجدوا أنفسهم محاطين بوحدات عسكرية رومانية تفتك بهم دون تمييز. لقد
تلقى الرومان أوامر بعدم أخذ أي أسرى؛ إذ لم يكن ماريوس يفكر في تلك
اللحظة في تجميع غنائم الحرب أو الأسرى، بل كل ما شغل عقله هو القضاء
على الخطر التوتوني الذي أرعب روما، بينما ثمة قادة آخرون يخلطون بين
الضروري والأساسي، فيضيِّعون الأساسيين سعيًا وراء الضروري، ويقودون
الجميع إلى الفشل المحقق. أما ماريوس، ففي تلك اللحظة، اعتبر جمع
العبيد أمرًا ثانويًا؛ بينما هزيمة الجرمان دفعة واحدة وإلى الأبد، كان الهدف
الوحيد لحملته برمتها.

الجيش التوتوني

أطرق الملك الجرمانى وبصق على الأرض. التفت إلى الورا، تبقى معه
ثلاث جيشه، وإذا ما أمر بالانسحاب الآن، ربما يسهم في إنقاذ جزء كبير من
الجنود الذين يواصلون القتال أعلى الأسوار. لقد فقد عددًا كبيرًا من جنوده
بالفعل، لكن حتى الآن لا تعتبر خسارة فادحة لدرجة تشييه عن مواصلة تنفيذ
خططه لغزو إيطاليا، ليس بعد.

لكنه أعاد التفكير في مدى منطقية الاستمرار في القتال وسط الخسائر
البشرية الهائلة والإرهاق الشديد الذي بدا جليًا على جنوده، وكل هذا من
أجل الحصول على منفعة ضئيلة أو ربما لا يتمكن من تحقيق أي شيء أبدًا.
بدأ الأمر يبدو له غير معقول، وفي تلك اللحظة فقط تغلب ذكاؤه على غضبه،
فأمر الطربون: "انسحبوا!!"، واستدار عائدًا إلى المعسكر.

المعسكر الروماني

طعن سرتوريوس توتونيًا كاد يصيب القنصل بسيفه الطويل. كان غايوس ماريوس يتنفس بصعوبة، لكنه حافظ على رباطة جأشه. أوشك على إخراج سيفه من غمده عندما أعلنت أبواق الجرمان أن الملك أمر بالانسحاب. وقف توتوني آخر في حيرة من أمره ما إن سمع صوت الأبواق، فطعنه الروماني عدة طعنات ثم دفعه من أعلى الأسوار، وفعل بقية الضباط الشيء نفسه مع الجرمان الذين فقدوا الدعم.

في غضون لحظات انتهى كل شيء...

استطاع ماريوس أن يرى من موقعه بحر الجثث التي أضاعها الجرمان في خضم محاولتهم البائسة لاقتحام الحصن الروماني. نقلوا الجرحى، لكن الموتى تركوهم وراءهم. شعر القنصل بنظرات الطربون منصبة عليه، أدرك ما يشغل تفكيرهم؛ لقد حان الوقت للخروج من الحصن ومهاجمة الجرمان مستغلين حماس الجنود بعدما تمكنوا من صد ذلك الهجوم الوحشي. لكن تعليماته اقتضت على استمرار نوبات المراقبة في جميع الأبراج، وتوزيع كميات كافية من المياه ووجبات إضافية من طعام العشاء على جميع الجنود، وألا يسمح لأحد بشرب النبيذ خلال تلك الليلة. لم يرغب في أن يشمل جنوده خشية أن يشن الجرمان هجومًا آخر.

ثم انسحب إلى خيمته.

لكن الجرمان لم يهاجموهم مرة أخرى...

وقف سرتوريوس في أحد أبراج المراقبة يتصفح الجيش التوتوني الخاسر، ثم حول بصره إلى خيمة القنصل. على الرغم من خيبة أمل الجنود بسبب عدم السماح لهم بالخروج من الحصن، إلا أنه شعر بأنه تعلم الكثير من تلك التجارب. لا يقتصر الأمر على الفوز في معركة من المعارك، بل المهم هو إحراز النصر الساحق، الذي ينهي الحرب برمتها.

ذاكرة الماضي من أجل روما

عند مصب نهر الراين، جنوب بلاد الغال، عام ١٠٢ قبل
الميلاد

المعسكر التوتوني

في خيمة الملك، احتدم النقاش. دعا البعض إلى شن هجوم جديد ضد المعسكر الروماني بحلول الفجر، بينما رأى آخرون ضرورة إضرام النيران فيه. لم يفكر أحد في ما يدور في خلد الملك.

"سوف نرحل" قال تيوتوبود باقتضاب بينما ينظر إلى الأرض عابسًا، ثم رفع مستوى بصره وقرأ الشك في أعينهم، فأوضح: "لا يمكننا تحمل وجود جيش روماني قوي بقيادة قنصل شجاع خلفنا بينما نتقدم نحو روما. لكن طالما أن هذا الجيش ضعيف وقائده رجل جبان لا يجرؤ على الخروج من الاختباء فلا ينبغي أن نقلق بشأنه؛ لذا سوف نرحل بحلول الفجر".

اتفق معه الضباط.

كانت كلمات ملكهم منطقية؛ إذا كان كل ما يجيده هذا القنصل الروماني هو الدفاع عن معسكره المحصن، فلا داعي للقلق. ولما كان قائد الرومان جبان إلى هذا الحد، فالطريق نحو روما ممهدة أمامه.

المعسكر الروماني

مرة أخرى، مع قدوم فجر جديد، هرع الطربون إلى خيمة ماريوس، ودعوه للصعود من أجل مراقبة تحرك الجرمان. قال سرتوريوس: "إنهم يغادرون، سوف يرحلون تمامًا، يحملون معهم أمتعتهم وجميع العربات".

وهكذا كان الأمر، إذ شرع البرابرة في الابتعاد عن محيط خندق ماريانا وابتعدون بشكل نهائي عن مصب نهر الراين متجهين شرقًا، نحو إيطاليا، بمحاذاة ساحل ماري إنترنوم، في طريقهم إلى روما، بصفوف لا نهاية لها تقريبًا من القوات والبغال، يتقدمهم المحاربون، وتتبعهم عربات الطعام والإمدادات. وأخيرًا، في طرف ذاك الشعبان التوتوني اللامتناهي، سارت العربات التي تقل النساء والأطفال، برفقة عدد محدود من الحراس.

لم تكن نواياهم في حدود المتوقع، قد يهاجمون مرة أخرى أو يرحلون نهائيًا، لم يكن الحصار من عادة الجرمان، أو بالأحرى، الحصار الوحيد الذي أرادوا القيام به لم يكن سوى حصار روما نفسها. كانوا على استعداد للبقاء هناك لأسابيع أو لأشهر إن لزم الأمر.

ظل ماريوس في صمته المعتاد، ومرة أخرى ودَّ الطربون لو يصدر أمره بهجوم مضاد واستغلال حقيقة أن العدو قد بدأ في الانسحاب، ليس فقط المحاربين، بل حملوا معهم نساءهم وأطفالهم، وهم الآن أكثر ضعفًا. لكن القنصل لم يقل شيئًا.

أوماً بعض المحاربين التوتونيين، أثناء مرورهم بالقرب من المعسكر الروماني، بإشارات بذيئة، وصاحوا وسبوا بلغتهم التي لم يفهمها الرومان ولكنهم توقعوا المقصود منها. وبأمر من الملك تيوتوبود، اقترب بعض المحاربين من أبراج المراقبة وكرروا كل الإهانات التي تعلموها، هذه المرة باللاتينية، حول كيف سيضاجعون زوجاتهم بمجرد أن يستولوا على روما. كانوا يصرخون ويضحكون ثم يبتعدون. بصق جنود ماريوس على الأرض، وازدردوا للعباب. تملكهم الغضب، وتعلقت أعينهم بقنصلهم الذي، كالعادة، وقف ساكنًا، ولم يفعل شيئًا.

لهذا السبب، ونظرًا لمدى اعتمادهم جميعًا على عدم رد القنصل، كانت التعليمات التي أمر بها ماريوس مفاجئة للغاية: "اجمعوا كل ما هو ضروري، ما يكفي لمسيرة طويلة لعدة أيام"، وواصل بينما ينزل عبر السلالم الخشبية: "الأسلحة، والدرع، والأواني اللازمة للاستخدام اليومي، وأدوات الحفر، سوف نطلق في..."، ثم نظر إلى الشمس، كان الوقت لا يزال مبكرًا، ولم يكن يريد أن يراه الجرمان بينما يغادر الحصن، ليس بعد. لكنه أراد الوصول، قبل العدو. توقف لبرهة يفكر، ثم أضاف: "سنغادر في غضون ساعتين".

لم يستطع الطربون تصديق ما سمعوه للتو. أخيرًا نطق القنصل بعد شهرين طويلة من المكوث عند مصب نهر الراين، هم الآن على وشك التحرك.

"تعال إلى خيمتي" أمر القنصل سرتوريوس فتبعه. وعندما دخلا إلى الخيمة فرد ماريوس أمامه خريطة لجنوب بلاد الغال على الطاولة وأشار إلى موقع مدينة مساليا* الواقعة على بعد نحو ٦٠ ميلًا في اتجاه الشرق وهو يقول: "سوف يمرون من هنا، لكن وفقًا للخطة يجب أن نصل قبلهم، ونعترض طريقهم عند أكواي سكستيا، فربما يهاجمون تلك المستعمرة. على أحد التلال هناك سنخيم، لك أن تعرف أن هذا الموقع غير مناسب للحصار، أو للبقاء لأسابيع كما فعلنا هنا، وأحيطك علمًا بأننا سنواجه صعوبات في إمدادات المياه، لأنه بعيد عن النهر. لكننا لن نتظر طويلًا، بل سنطلق الجحافل ضدهم، سيذهب الجرمان والأمبرونيون وحلفاؤهم إلى هناك عبر الطريق المركزي، وهم كثر ولن يسعهم المكان".

واصل القنصل سرد تفاصيل الخطة التي عكف عليها على مدار أشهر مضت. وقف سرتوريوس أمامه مذهولًا، لم يكن على علم بما خطط له القائد من قبل: "سيتعين علينا الانحراف عن الطريق المركزي، لضمان الوصول أسرع من الأعداء إما عبر المناطق الريفية البعيدة عن الساحل أو بمحاذاته، وأي حل غيرهما سيكون شاقًا للغاية. هل ترى أن الخطة مناسبة لقدرات الجنود؟".

* انظر إلى خريطة روما الشاملة.

"نعم، فقد أظهروا حماسًا هائلًا أثناء حفر الخنادق والدفاعات طوال الأشهر الماضية. إنهم أقوياء ومستعدون للقتال، وإذا أخبرناهم بأننا سننحرف عن الطريق المركزي الممهّد للتغلب على العدو واعتراض طريقه ومقاتلته، فأنا متأكد من أن نعالهم ستطير عاليًا في سماء بلاد الغال" أكد سرتوريوس. "حسنًا، أخبر الجنود بأن هذا هو هدفنا، بحق جوبيتر! كما قلت، معرفتهم بالأمر سوف تحفزهم".

توقف القنصل، تنهد بعمق وجلس، وحينها أدرك سرتوريوس أنه لم يعد راغبًا في بقاءه، فغادر مسرعًا لينقل تعليمات القائد إلى بقية الضباط. ها هو ماريوس الذي عرفه منذ زمن، الرجل الذي هزم جيوشًا بأكملها في إفريقيا، يعود من جديد.

المعسكر التوتوني

(عند الغسق)

أبلغت الدوريات التوتونية الملك بأن الرومان قد تخلوا عن الاختباء وخرجوا من المعسكر وشرعوا في تتبعهم، فقال تيوتوبود لمستشاريه معلقًا: "لا يهمني أمرهم، فنحن كلما التقينا بهم هزمناهم، وحتى إذا ما هاجمونا نستدير ونواجه ونصدهم، كما سنسير دوريات لتتبع تحركاتهم. المرة الوحيدة التي صمد فيها الرومان أمامنا كانت في ذلك المخيم اللعين إذ تحصنوا عند مصب النهر العظيم، لذا فإن خروجهم خبر سار. إنهم يائسون لأننا نتجه نحو روما، يبدو أن تذكيرهم بما نعزم القيام به مع نسايتهم قد أثمر في النهاية".

قهقه الملك الجرمانى ورجع برأسه إلى الوراء، وكذلك انضم إليه مستشاروه وضباطه في الضحك المليء بالسخرية والازدراء والتسلية. هذا ما أصبحت عليه سيرة الجيوش القنصلية الرومانية بالنسبة إلى التوتونيين على مدار السنوات الأخيرة، مجرد تسلية.

الجيش القنصلي الروماني في الطريق نحو مدينة مساليا

تقدمت فيالق ماريوس بسرعة كبيرة، في مسيرة إجبارية، كما لو كانوا بغالاً حقيقية. كان عليهم أن يصلوا إلى المكان الذي حدده القنصل قبل الجرمان. حمل كل جندي أسلحته والأدوات اللازمة للاستخدام اليومي أو لبناء الدفاعات، وأثبت التدريب القاسي، الذي أخضعهم له القنصل خلال السنوات الأخيرة، فائدته، فسرعان ما لحقوا بصفوف الجرمان اللانهائية، وكان من السهل رصدهم من على بعد أميال بفعل سحب الغبار التي ارتفعت في السماء أينما حلّوا.

في اليوم التالي أمر القنصل ضباطه: "انعطفوا جميعاً، علينا أن نسبقهم قبل نهاية هذا اليوم".

تقدم الرومان بشق الأنفس، ليس عبر الطريق الممهّد الذي اتخذه الجرمان، بل عبر طرق وعرة إلى حد أن الأمر بات أشبه بعذاب حقيقي. لكن القنصل عزز الروح المعنوية لجنوده؛ إذ ذكرهم بأنهم سيكونون الحائل الوحيد الذي يحول دون وصول الجرمان إلى روما، وعزز شغفهم عندما أخبرهم مسبقاً بأنهم هذه المرة سيقاتلون وجهًا لوجه ولن يختبئوا مرة أخرى خلف الأسوار. وهكذا واصلوا السير رغم المشقة تدفعهم رغبتهم الشديدة في القتال ببسالة، وأن يثبتوا للعدو أنه يمكن وصفهم بأي صفة كانت ما عدا الجبن. وهكذا تقدم جيش القنصل على الجيش التوتوني.

جلسة مجلس الشيوخ

حانة مطلة على نهر التيبر، روما، عام ٩٠ قبل الميلاد

"ها قد وصلنا إلى الجزء الأكثر إثارة في الموضوع" قال غايوس ماريوس، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة تشي بالرضا على وجهه، هذا هو الجزء المفضل لديه في القصة.

في الواقع، بدا القنصل المخضرم متحمسًا للغاية لاستكمال روي الأحداث، ولهذا لم يجرؤ أحد على مقاطعته، إلا أن عددًا من مبعوثي الكوريا قد وصلوا للتو إلى الحانة، لم يشأ سرتوريوس مقاطعته، لكنه اضطر إلى ذلك. بعد حيرة اقترب من الطاولة حيث كان القنصل يتحدث مع ابن صهره وصديقه الشاب وقال: "يا صاحب السمو"، لكن القنصل لم يلتفت. ودون أن يرفع عينيه عن لاينوس وقيصر، واصل سرد أحداث معركة أكواي سكستيا التي فتنتهما.

"يا صاحب السمو!" أصر الأَطربون، ناداه هذه المرة بنبرة مرتفعة بعض الشيء.

ولمّا لم يجد ماريوس منه بدءًا، توقف واستدار منزعجًا. لقد كان سرتوريوس هو ضابطه الأكثر قُربًا منه.

"أنا آسف يا صاحب السمو!" اعتذر منه الأَطربون بنبرة أكثر تفهمًا، وأوضح الدافع وراء إصراره: "لكنّ عددًا من المبعوثين وصلوا من المنتدى، لأن مجلس الشيوخ على وشك بدء الجلسة وهم ينتظرون وصول غايوس ماريوس. فقد وقع ميتيلوس بنفسه على أحد المكاتب ودولابيللا وسولا على الآخر."

"وهل يكتب ميتيلوس الكلمات بشكل صحيح في رسائله، أم أنه يفصصها إلى أجزاء صغيرة ويكرر المقاطع نفسها كما يفعل عندما يتحدث؟" سخر ماريوس من السناتور المحافظ المخضرم، كما كان الأوبتيميتس يسخرون منه دائماً ومن ضالّة معرفته باليونانية. حسناً، هو الآن من يسخر منهم.

وبشكل غريزي، أعاد سرتوريوس قراءة المكاتيب بحثاً عن رسالة ميتيلوس، كما لو أنه أراد التحقق مما يقوله القنصل، فصاح ماريوس: "لا يهم كيف كتبت!" ودون أن يلتفت إلى سرتوريوس أضاف: "هل قلت إن الجميع ينتظرون! دعهم ينتظرون وخاصة ميتيلوس اللعين وأتباعه سولا ودولابيل! ألا ترى أنني منشغل بالفعل بأمر مهم الآن؟ ألا ترى أنني أحاول تعليم ابن صهري درساً مهمّاً؟ ألا تدرك أنني أسعى لغرس بعض الحكمة في عقله، وأعلمه جانباً من الاستراتيجيات العسكرية. إنه يفتقر إلى التعقل وتسيطر على عقله أفكار مجنونة، بينما قلبه ممتلئ بالرغبة في أن تسود العدالة، ويعتقد أنه في إمكانه تحقيق العدل دون التفكير العميق قبل المحاولة؟".

ساد صمت مميت في جميع أنحاء الحانة، حتى سرتوريوس صمت ووقف بثبات ونكّس رأسه.

تنهد ماريوس بعمق واستند على مسند ظهر المقعد، ثم وضع راحتي يديه على الطاولة وأخذ يتنفس بهدوء من كلتا رئتيه كي يهدأ قليلاً. ثم تابع، ولا يزال يوليه ظهره: "يا سرتوريوس، أنت الأفضل بين رجالي، لم يكن يفترض بي أن أحدثك بنبرة مرتفعة كما فعلت. الرسالة مهمة وواجبك أن تنقلها إلي، اكتملت مهمتك، لكن يجب مواصلة سرد الأحداث، وعندما أنتهي نعيد ابن صهري إلى منزله ومن ثم نتوجه إلى المنتدى. يمكن لمجلس الشيوخ أن ينتظر قليلاً حتى يصل الشخص الوحيد من بينهم الذي شغل منصب القنصل ست مرات حتى الآن"، ثم استدار إليه وأردف: "هم الآن بحاجة إليّ، وهذا يؤلمهم بحق، ويلجؤون إليّ الآن كما فعلوا من قبل عندما هدد الجرمان روما من جهة الشمال، فأهلكناهم في معركة أكواي سكستيا".

"حسنًا يا صاحب السمو، عليهم الانتظار بالتأكيد".

قَطَّب ماريوس جبينه، وأمعن النظر إلى كأس النبيذ الفارغة، وسأل الصبيَّان: "حسنًا، لنرَ... إلى أين وصلنا؟". فأجابه قيصر مسرعًا: "كان الجيش القنصلي قد تجاوز لتوه الجرمان". فامتدح انتباهه وقال له: "هذا صحيح، هذا صحيح يا فتى، جيّد للغاية، أنت متنبه. في الواقع، لقد تجاوزنا صفوف الجرمان والأمبرونيين الهائلة. الآلهة وحدها تعرف كم بلغ عددهم...".

ذاكرة الماضي معركة أكواي سكستيا

قرب مستعمرة أكواي سكستيا التابعة لروما، صيف عام
١٠٢ قبل الميلاد

المعسكر الروماني

كان قوام الجيش الروماني عشرات الآلاف ما بين الجنود النظاميين والمساعدين، تحديداً ٣٠ ألفاً. ومع ذلك، ظل الجيش التوتوني متفوقاً عليهم عددياً، رغم الخسائر التي تكبدها في الهجوم الذي شنه تيوتوبود على خندق ماريانا؛ وبلغ عدد الجرمان ثلاثة أضعاف عدد الرومان.

أمر القنصل بإقامة المعسكر أعلى التل. وعلى الفور شرع العشرات بل المئات من جنود الفيلق بحمل جذوع الأشجار لبناء الحاجز الدفاعي الجديد، بينما وقف غايوس ماريوس يتطلع إلى أفق الغروب ويمعن النظر في حشد ضخّم من الأعداء كانوا أيضاً ينصبون خيامهم ليلاً. لم يبد الجرمان مهئين لإقامة الدفاعات لحماية أنفسهم، إذ اعتمدوا على تفوقهم العددي، كما اعتقدوا أن ماريوس لا يميل إلى البدء بالهجوم.

تنهد القنصل. لم يكن ثمة ما قد يقلق الجرمان؛ وذلك لأن أي محاولة لهجوم ليلي، حتى ولو نُفذت على حين غرة، لن تكون أكثر من مجرد معركة لاستنزاف قوى الجيشين. وكان ماريوس يعلم أن جيشه لن يتحمل

الاستنزاف أو خسارة أي عدد من الجنود، ما لم يكن في المعركة الحاسمة النهائية.

بينما كان وضع الجرمان مختلفًا؛ إذ تمتع الملك التوتوني برفاهية خسارة ألف أو ألفين في الهجمات التي شنّها ضد المعسكر الروماني عند مصب نهر الراين، ويمكنه تحمل خسارة ألف أو ألفين أو ثلاثة آلاف آخرين في قتال ليلي، فهذا لن يغير من الوضع شيئًا.

"أريد بعض الماء" صاح القنصل. فأتاه أحد العبيد المساعدين للجنود بكوب من الماء، سكب من قربة نصف فارغة، فشرب حتى ارتوى ثم أعاد الكوب للعبد، وحينها التقت عينه بعين سرتوريوس. وجد أنه عابس الوجه، ففطن إلى ما يريد الأطربون قوله، ولم يكن ماريوس غافلًا عن حقيقة أن قرب المياه قد أوشكت على النفاد، فقال له: "أعلم ذلك، نحن بعيدون عن النهر، بعيدون عن مصدر المياه، ولم يتبق لنا سوى القليل. من الضروري إرسال السقاة إلى الوادي كي يملؤوا جميع قِرب الجحافل بالمياه، نفَّذ على الفور".

توجه سرتوريوس إلى عدد من الطربون، ونقل إليهم أوامر القنصل. ثم اقترب منه وسأله بصوت خفيض، وبنبرة يشوبها قلق أدركه المخضرم غايوس ماريوس: "الضباط والجنود... يتساءلون... لماذا خيّمنا بعيدًا عن أي مصدر للمياه يا صاحب السمو؟". فأجابه، دون أن يلتفت إليه أو يرفع عينه عن المعسكر التوتوني: "كي أراقب، ومن أعلى هذا التل أرى كل شيء بوضوح".

المعسكر التوتوني

نصب الجرمان خيام معسكرهم في منتصف السهل قريبًا من مجرى النهر، على بُعد أميال قليلة من مستعمرة أكواي سكستيا. توقع تيوتوبود أن رجاله قادرون على تدميرها إذا ما أمرهم بذلك، لكنه أعاد التفكير في كل ما حدث حتى الآن. فكر فيما جناه من الهجمات التي شنّها ضد المعسكر

الروماني عند مصب نهر الراين؛ فوجد أنه فقد الكثير من جنوده دون أن يتمكن من القضاء على عدوه، دون أن يهلك القنصل الروماني. لكن... لا بأس، ربما بات الآن يخشاه، وفي نفس الوقت، ساهمت الهجمات في تعزيز معنويات جنوده. قرر الملك التوتوني ألا يسمح بفقد المزيد من الرجال في هجمات غير ذات فائدة، أراد أن يصل إلى إيطاليا بالجزء الأكبر من جيشه، وهناك قد يأمر بشن حملات نهب لثروات المدن التي يمرون عليها في طريقهم حتى يدب الرعب في قلوب الرومان، لكن الوقت لم يحن بعد. ما يشغله الآن هو التغلب على هذا الجيش الجبان. واصل التحديق إلى المعسكر الروماني على قمة ذلك التل، بجبين مجعد؛ إذ لم يستطع تفسير سبب تخيمهم في هذا المكان المرتفع، فسأل المستشارين ومن حوله: "لماذا خيموا في ذلك المكان بالتحديد؟ لماذا اختاروا موقعًا بعيدًا عن مصدر المياه؟". لم يمتلك أي منهم إجابة منطقية. أخذوا جميعًا يتطلعون إلى المعسكر الروماني يعتصرون عقولهم لتفسير دوافع القنصل. تابعوا السقاة بينما ينزلون من أعلى التل باتجاه الوادي، باتجاه النهر، حتى أتى أحد الضباط يخبر الملك: "إنهم ذاهبون الآن لجلب الماء أيها الملك".

نشج تويتوبود وابتلع مخاط أنفه. لقد أربكه الطقس، أثناء النهار ترتفع درجات الحرارة بشدة، حرارة خانقة، ثم تنخفض كثيرًا بحلول الليل. عانى من الرشح واستمرار سيلان الأنف.

"سيكون من الجيد منع الرومان من الحصول على المياه التي يحتاجونها" أشار ضابط توتوني آخر. استحسّن الملك الفكرة، وأوماً برأسه موافقًا، لكنه لم يرغب في إرسال أي من محاربيه. التفت إلى جانب المعسكر، على بعد مسافة قصيرة، حيث كان الأمبريون الذين انضموا إليهم في تلك الرحلة إلى إيطاليا يخيمون مع نسائهم وأطفالهم، فأمر: "كلّفوا الأمبرونيين بالمهمة، لم يبذلوا جهدًا يذكر عند مصب الراين، فليبدلوا الآن، دعهم يفعلوا شيئًا مختلفًا عن الأكل والشرب والزنا"، وبينما يتابع ضباطه وهم في طريقهم إلى معسكر الأمبرونيين، علّق بابتسامة عريضة على وجهه: "حسنًا، فليظمأ الرومان".

وادي أكواي سكستيا*

شرح السقاة الرومان في ملء مئات القرب من النهر، تلك هي المرة الأولى، بينما يتعين عليهم الذهاب والإياب مرات عديدة متتالية لتوفير كميات من المياه النقية تكفي لعدة أيام، مع الوضع في الحسبان أنهم لن يتمكنوا من الحصول على المياه بمجرد بدء المعركة؛ إذ خيم الجرمان بالقرب من النهر العظيم.

لم يفهم السقاة، مثل بقية الجنود، الدافع وراء قرار القنصل بإقامة المعسكر أعلى التل، هل فقط من أجل مراقبة ما يحدث في الوادي؟
لم يبد ذلك الموسَّغ كافيًا.

كانوا جميعًا غارقين في هذه الأفكار عندما رأوا صفًا من جنود الأعداء يقتربون منهم، ولاحظوا أنهم أتوا من جهة مختلفة عن جهة معسكر الجرمان، فأدركوا أنهم من الفرق الداعمة للجرمان في قتالهم ضد الرومان، وعلى الفور صاح أحدهم: "إنهم أمبرونيون".

"ربما علينا طلب إمداد عسكري" علق آخر. وبالفعل أرسلوا استغاثة فورية إلى المعسكر العام على قمة ذلك التل اللعين حيث المعسكر.

الجنود الأمبرونيون

ساروا على مهل، بعدما التهموا مآذبة كي يستعيدوا عافيتهم من مشقة السير لأيام طويلة. بدا أن الملك التوتوني قد قرر المكوث للراحة لبضعة أيام في الطريق نحو روما، عند ذلك الوادي المسطح، حيث الطقس الحار ووفرة المياه.

لم يكتف الأمبرونيون بالأكل، بل شربوا النبيذ حتى الشمالة، ولم يزعجهم قدر أنملة اقتراب بعض الرومان الجبناء من ظهورهم. لقد رأوا بالفعل كيف أن الشيء الوحيد الذي يقدر عليه الرومان هو الاختباء خلف

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة أكواي سكستيا: المرحلة الأولى

الحواجز وتحصين أنفسهم داخل المعسكر لأيام وأسابيع وشهور. لهذا السبب، عندما تلقوا الأمر من الملك التوتوني بمهاجمة سقاة ذلك الجيش الجبان، لم يتوانوا، وبيطون ممتلئة ورؤوس غائبة عن الوعي ساروا نحو النهر مسلحين بالسيوف والدروع والرماح. صحيح أن الرومان قد أظهروا بعض المقاومة دفاعاً عن حاجزهم اللعين على نهر الراين، لكنهم لم يظهروا أي قوة في العراء. بدا الأمر بالنسبة لهم أشبه بنزهة.

عند الوادي

وقف عدد ضئيل من الجنود الذين رافقوا السقاة وواجهوا الأمبرونيين، كان عليهم أن يدافعوا عن رفاقهم، الذين استمروا في ملء قِرب المياه. حينها بدأ الأمبرونيون ينبحون مثل حيوانات متوحشة، وتقدموا بتثاقل ناحية الجنود الرومان، لكنهم بعد ذلك حثوا الخطى. ومع اقترابهم صاح عدد من قادة الرومان في صوت واحد: "ابدؤوا التصويب بحق جوبيتر، الآن!".

حينها انهال وإبل من المقذوفات على الأمبرونيين الذين كانوا لا يزالون يجرجرون أجسادهم. رغم أن أعداد الرومان كانت قليلة إلا أنهم قاتلوا ببسالة وانضباط. هكذا سقط عشرات الجرحى من الأمبرونيين، وقُتل آخرون. اخترقت رماح الرومان أجسادهم المتهدلة، ومع ذلك، لم يتوقفوا عن التقدم بل أغضبهم بشدة تصرف الرومان. استمروا في الاقتراب كما لو كانوا يقدمون عرضاً عسكرياً هدفه بث الرعب في نفوس الأعداء الجبناء. بعدما خضبت دماء زملائهم الأمبرونيين عشب الوادي، تحول الأمر بالنسبة لهم إلى مسألة شخصية، وليس مجرد محاولة لتنفيذ ما أمر به الملك التوتوني، فهاجموا بإصرار أكثر رغبة في الثأر لأصدقائهم.

وفي غضون لحظات اشتعلت المواجهة. وعلى الرغم من أن الرومان الذين جاءوا لإغاثة السقاة كانوا مسلحين جيّداً، إلا أن ذلك لم يكن كافياً؛ إذ تفوق الأمبرونيون عليهم عددياً وواصلوا التقدم نحوهم يطعنون بسيوفهم وأسلحتهم كل من تطاله أيديهم منهم، بدافع الغضب الخالص.

حينها أدرك قادة الرومان أنه من المستحيل الصمود. كان القنصل قد أمرهم بالتراجع إذا ما خسروا في موضع من المواضع، إذ حرص بشدة على الحفاظ على حياة كل محارب من المحاربين، فأمروا الجنود بالانسحاب. وبالفعل همّوا بالتراجع، حتى وصلت مجموعات من المقاتلين من أعلى التل لدعمهم، فتحول الانسحاب، الذي قد يُعدّ قرارًا جبانًا، إلى مجرد تبديل للصفوف، بحيث تقدم الجنود الذين وصلوا للتو بكامل قواهم نحو خط المواجهة، في حين تراجع الذين أنهكوا. وعلى الفور، انهمك قادة المائة في إعادة تنظيم الخطوط الأمامية للقتال.

بينما نقل الضباط الأوامر الواردة من القائد سرتوريوس، الذي بدوره نقل تعليمات القنصل للسعاة، فأخذوا يرددون على مسامعهم: "احملوا الماء إلى المخيم وارجعوا بمزيد من القرب! لا تتوقفوا عن إنجاز مهامكم تحت أي ظروف!".

المعسكر الروماني

وقف غايوس ماريوس في برج مراقبة أقيم بالقرب من بوابة المعسكر، يراقب القتال بين قواته وحشد من الأمبرونيين، أرسلهم تيوتوبود للحيلولة دون حصولهم على المياه. فاقرب منه سرتوريوس واقترح عليه: "القتال متوازن، لكن إن أرسلنا المزيد من الجنود ستمكن من تدميرهم وإجبارهم على الفرار إلى معسكرهم. وإذا سارت الأمور على ما يرام نضرم النيران في عرباتهم".

وقف ماريوس يحاول تقييم الظروف التي دارت فيها تلك المعركة. كان يعلم أنها ليست النهائية، ولا يمكن اعتبارها كذلك طالما أن الجنود الجرمان، الذين كانوا يشكلون الجزء الأكبر من جيش العدو، بعيدون عن القتال. ومن ناحية أخرى، كان معسكر الأمبرونيين على بُعد مسافة من معسكر التوتونيين، كما يبدو أن الملك تيوتوبود لم يشرع بعد في إعطاء التعليمات لرجاله ببدء القتال؛ إذ انهمكوا في نصب خيامهم وإعداد الطعام

والحصول على قسط من الراحة، كأن ما حدث عند النهر لم يكن على صلة وثيقة بهم.

لكنه على أي حال، أيد القنصل في نهاية المطاف اقتراح الأطربون.

"أرسل خمس كتائب أخرى، أي نصف فيلق، قوة مناسبة من الجنود الذين يتوقون إلى القتال، طالما أن الجرمان لم يتحركوا من معسكرهم. أما إذا حاول ملك الجرمان التدخل، فلينسحب رجالنا دفعة واحدة ويعودون إلى هنا، إلى أعلى التل" أمر، ثم استدار ملتفتًا إلى الأطربون، ونظر إلى عينيه مباشرة، وسأله: "هل تعليماتي واضحة؟".

"نعم، يا صاحب السمو، وماذا لو...".

"ماذا؟".

"وماذا لو فروا، هل يمكننا محاصرة معسكرهم؟".

أخذ ماريوس نفسًا عميقًا وأطرق، ثم قال: "نحاصر معسكرهم فقط، لكن لن نقرب من المعسكر الرئيسي التوتوني، مفهوم؟".

"مفهوم".

"حسنًا، ستكون أنت المسؤول عن تلك الكتائب، لا أثق أن أي شخص غيرك يمكنه قيادة انسحاب منظم حسب التعليمات مثلك. عليك أن تأمر بالانسحاب بمجرد تدخل الجرمان في هذه المواجهة. كثير من المدافعين سيطر الغضب عليهم بسرعة، دون حكمة أو تعقل، لكنك تمتلك قلبًا ناثراً هائجًا وعقلًا رصينًا هادئًا".

كانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها القنصل تقديره الكبير لسرتوريوس، وأثر ذلك فيه بالغ الأثر، ثم ما لبث أن ضرب بقبضته على صدره، واستعد لقيادة الكتائب التي ستشارك في القتال عند النهر، وفقا للتعليمات التي تلقاها من القائد الأعلى. لن يشك مرة أخرى، ولو للحظة واحدة، في أن القنصل اتخذ كل قرار وفقًا لسبب ما، وأن عدم إدراكهم

للدوافع لا يعني أنها ليست موجودة.

عند الوادي*

كان الأمبرونيون يصارعون بطريقة هوجاء، مثل ثيران غاضبة أو ديكة حانقة. يبدو أن أجسادهم تعثرت في هضم ما حشروا به بطونهم، بينما بدا على بعضهم البلادة من أثر الشمال، لكن رغبتهم في الانتقام لموت وإصابة رفاقهم دفعتهم للقتال بعنف غير مسبوق، حتى إن الجنود الرومان الذين حلوا محل الفيلق الأول بدؤوا يشعرون بالإرهاق. وسرعان ما أدرك الأمبرونيون ذلك الضعف الأمر الذي حثهم على الاستمرار في دفعهم والقتال بقوة حتى، وعلى حين غرة، وصل المزيد والمزيد من الرومان.

وهكذا توازنت القوى...

بمجرد انضمام الأفواج التي كانت تحت قيادته إلى المعركة، شرع سرتوريوس في ترتيب الصفوف الرومانية واتباع نظام التبديل المنهجي للصفوف الأولى، أي أنه كلما شعر أن جنود الخط الأول للمواجهة بدؤوا يرهقون كان يأمر بتقدم الصفوف الخلفية وتراجع الصفوف الأولى، وهكذا لم يقض أي جندي الكثير من الوقت في القتال المباشر مع العدو الأهوج.

وأظهر الأمبرونيون صمودًا من حديد، لكنهم كانوا يفتقرون إلى القيادة والتخطيط، وفي غضون فترة قصيرة، انسحبوا دون أن يدركوا ذلك. وبهذا اكتسب الرومان المزيد من الأرض، حتى تمكنوا من إبعادهم تمامًا عن النهر. وهكذا تمكن السقاة من ملء القرب كيفما شاءوا، دون أن يزعجهم أحد، بينما رأوا كيف ابتعدت بؤرة القتال عن موقع النهر. حينها، اقترب سرتوريوس من الصف الأول، واستمر في إعطاء التعليمات لجنوده. لقد منحهم اقتراب الأتربون المخضرم الشجاعة، وحثهم على بذل قصارى جهدهم ومواصلة تتبع الأعداء، الذين واصلوا التراجع حتى تحول الانسحاب إلى فرار هائج.

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة أكواي سكستيا: المرحلة الثانية

نظر سرتوريوس إلى أعلى التل باتجاه برج المراقبة الذي كان القنصل يراقب كل شيء من خلاله. لم ير أي إيماءة تشير إلى أنه يجب عليهم الانسحاب كما أن لديه موافقة من ماريوس نفسه على مطاردة العدو طالما أنهم لم يقتربوا من الجرمان.

نظر نحو الوادي، وجدهم يركضون مباشرة ناحية معسكرهم، فأمر جنوده: "اتبعوني!".

فوجئ الجنود الذين اعتادوا الدفاع عن المعسكر لأشهر طويلة، وقد قاموا بذلك الدور بشكل جيّد للغاية، لكنهم لم يعتادوا الهجوم، ناهيك عن مطاردة عدو في حالة من الفوضى. لم تنقصهم الرغبة لكنهم تشككوا في الأمر، فاستدار بعض قادة المائة ناحية برج المراقبة بحثاً عن القنصل ووجدوه هناك، أعلى البرج، لكنه لم يقم بأي إيماءة أو إشارة، كما أن ضباط الصف لم ينفخوا في الأبواق لدعوتهم إلى التراجع، بل اصطفوا في صمت مثلما يقف القنصل تمامًا. وهكذا منح صمتهم الشرعية لأوامر سرتوريوس.

تقدم الجنود سعيًا وراء الأمبرونيين حتى وصلوا إلى معسكرهم، لكن البرابرة لم يواصلوا الدفاع عن أنفسهم وعائلاتهم، بل تركوا نساءهم وأطفالهم وعرباتهم دون حماية، وتبعثروا هنا وهناك مبتعدين عن معسكرهم. فتوجه بعضهم ناحية معسكر الملك التوتوني، والبعض الآخر باتجاه الغابة المجاورة، حتى أوشك سرتوريوس على توجيه جنوده لمطاردة الفارين إلى الغابة، لكنه واجه بعد ذلك ما لم يكن متوقعًا؛ إذ تصدى لهم نساء الأمبرونيين، ودافعن عن المعسكر ضد تقدم الرومان. لم يكن لديهن أسلحة، فاستعانوا بالمتاح، بأدوات الطبخ والزراعة وحتى أذرعهن، ومعهن صغارهن الذين بدؤوا ينوحون بينما حاول بعضهم مقاومة العدو بطريقة طفولية، بعضهم. هكذا بدأ عراك غير متكافئ، في خضمه قتل معظم النساء والصغار بلا رحمة، لكنه لم يكن عراكًا سهلاً كما يبدو، فالنساء على وجه الخصوص يقاومن بشدة. ومع ذلك، تذكر الرومان عبارات التهكم والاستهزاء التي كان يرددها البرابرة لإثارة غضبهم، وما قالوه عن اعتزامهم

مضاجعة نسائهم بمجرد السيطرة على روما. لقد محت تلك العبارات أي شفقة في قلوب رجال سرتوريوس، كما لم يشأ الأطربون وقف المجزرة، فأمر بتنفيذ ما اتفق عليه مع ماريوس: "أحرقوا العربات!".

وفي غضون دقائق، غمرت ألسنة اللهب المتوهجة معسكر الأمبرونيين، والتهمت كل شيء، حتى حوصرت بعض النساء اللاتي قاتلن ببسالة لآخر نفس، وتمسكن بمعسكراتهم حتى بعدما تخلى عنها الرجال.

رأى سرتوريوس عددًا من رجاله يجرون بعض نساء البرابرة نحو جوف في السهل، بنوايا واضحة. جال يبصره نحو الغابة حيث هرب المحاربون الذين كان ينبغي عليهم الدفاع عن أسرهم، بينما وقف بعض أبناء السيدات اللاتي احتجزن، ينوحون بالقرب من ألسنة اللهب، فاقرب الأطربون من الجوف، ودون أن يصيح، مقتديًا بأسلوب ماريوس في إصدار الأوامر، دون أن يرفع صوته، ودون أن يكرر كلماته، أمر: "اتركوهن وشأنهن".

لم يبد الجنود، الذين كانوا ينتوون اغتصاب زوجات المحاربين الذين سخروا منهم ونالوا من رجولتهم وكرامتهم، على استعداد للتخلي عن فرائسهم. ولكن أمام نظرة القائد الحادة، الجليدية، أرخوا قبضاتهم بدرجة كانت كافية لأن تتحرر النساء من بين أيديهم ويهربن بينما تواصل ألسنة اللهب التهام ما تبقى من المعسكر.

مر كل شيء سريعًا.

لقد تغلب رجال ماريوس على البرابرة. حدث ذلك للمرة الأولى بعد ثلاث هزائم متتالية مُني بها الرومان أمام الجيوش البربرية. كان لنصرهم شأن عظيم، حتى ولو كانت معركة مصغرة. لا، ليسوا عمالقة، والرومان ليسوا جنباء، وما حدث في أوراسيون يتكرر ثانية. والآن لم تعد ثمة حاجة لبقاء الرومان خارج معسكرهم لفترة أطول، فأمر سرتوريوس: "الآن نعود إلى معسكرنا"، فأطاعه الرجال.

"ألن نفعل شيئاً؟" سأل أحد المستشارين الملك الجرمانى قبل ثوانٍ من قيام الرومان بإشعال النار في عربات الأمبرونيين.

حينها نظر تيوتوبود حوله، فوجد أن رجاله لا يزالون منهمكين في نصب الخيام وإعداد الطعام، ولم يكونوا مستعدين للقتال. لقد بدأ الأمبرونيون قتالاً ضد الرومان دون استعداد جيد، وانتهى الأمر بكارثة. لا يصح أن يكرر الخطأ مرتين متتاليتين، يمكنه أن يأمر جيشه بأكمله بالهجوم، ولكن بالتأكيد سينتهي الأمر إما بتراجع سريع للرومان أو بتورط كل جحافلهم في معركة ضارية لم يخطط لها مسبقاً. لكنه لم يستطع اتخاذ قراره، فقرر البقاء على الحياد.

وأمام صمته، سأله عضو آخر في المجلس التوتوني: "ألن نفعل شيئاً أيها الملك؟".

أمعن تيوتوبود التفكير في كل ما حدث. لقد تسرع عندما أرسل الأمبرونيين لإزعاج السقاة الرومان، ولم يفكر بشكل جيد، وكانت هذه هي النتيجة، ولم يكن ثمة داعٍ للتصرف بعفوية مرة أخرى، لأن ذلك قد يعني هلاك جيشه. لكن لا بد من تقديم رد منطقي يحفظ ماء الوجه أمام مستشاريه، فقال: "أولئك الذين جنبوا ولم يدافعوا عن نساءهم وأطفالهم لا يستحقون دعمنا".

ثم شرب رشفة من الماء، ماء النهر، نفس المياه التي قُتل دونها الأمبرونيون، ثم سكب ما تبقى في قربته على الأرض. سعل وبصق، وأدار ظهره للعربات المحترقة، والجثث المتفحمة.

نظر نحو برج المراقبة حيث يقف قنصل روما يراقب كل شيء من عل. وعلى الرغم من أنه لم يستطع رؤية ملامحه بوضوح كافٍ من بعيد، إلا أنه هُيئ له أن الزعيم الرومانى يحدق إليه.

المعسكر الروماني

عاد سرتوريوس لاهثًا، بزيه المملطح بالدماء، يتصبب عرقًا، ومثّل أمام القنصل مباشرة أعلى برج المراقبة ليخبره بما حدث: "أضرمنا النيران في المعسكر، ورأيت أنه ليس من الحكمة ملاحقة المحاربين الذين فروا إلى الغابة، أو بالطبع أولئك الذين لجؤوا إلى الجрман".

أطرق غايوس ماريوس، وعلق: "أبليت بلاءً حسنًا"، وكان دائمًا يميل إلى الاقتضاب في كلامه.

استدار مرة أخرى نحو بحر الخيام التي واصلوا نصبها هناك. كان بإمكانه أن يرى كيف استدار الملك الجرمانى بعيدًا وتحاشى النظر إلى ألسنة اللهب التي التهمت ما كان حتى ذلك الحين معسكر الأمبرونيين.

"يجب أن نوزع النيذ على الجنود الذين شاركوا في تحقيق هذا النصر" اقترح أحد الطربون.

وقف سرتوريوس صامتًا، لا يزال يلهث.

"إنه أفضل ما يمكن توزيعه على الجنود" قال آخر.

بينما انشغل غايوس ماريوس بفحص تحركات الملك التوتوني. احترم الجميع صمته وانتظروا رده على تلك المقترحات. ولما أحس بأعينهم منصبة عليه أجابهم أخيرًا دون أن يلتفت إليهم: "لم يحن بعد وقت الاحتفال، نحن محظوظون لأن السكارى هم من تصدوا لنا وليس نساؤهم، لو سلموهن الأسلحة، حسب ما رأيته من موقعي هذا، لأصبح كل شيء أكثر صعوبة بالنسبة لنا".

تراجع القائد. لم يفكر أحد في شيء شديد السخافة إلى هذا الحد. هل يقاتل الرجال نساء! لكنهن بالفعل أظهرن شجاعة تفوق شجاعة رجالهم.

بعد ذلك، استدار ماريوس، وهبط السلالم بينما يعطى التعليمات الأخيرة لمن تبعوه: "لا نبيذ، العشاء ثم النوم، الإفطار يقدم عند الفجر، والحرص على تعزيز كل التحصينات".

مر القنصل عبر خيام الجنود والطربون حتى وصل إلى خيمته، فصاح سرتوريوس في باقي الطربون: "ها قد سمعتم الأوامر!"، فشرعوا في نقلها إلى باقي الجنود، وأسرع هو ليلحق بالقنصل وسأله: "المعركة الحاسمة، النهائية، ستكون المعركة القادمة، أليس كذلك يا صاحب السموم؟".

"بلى" أجابه غايوس ماريوس دون أن يبطئ في مشيه، فأدرك سرتوريوس أن القائد العام لم يكن راغبًا في التحدث، فأثر ألا يزعجه. وقف يراقبه بينما يتعد وحده، منتصبًا، وكلما مر بمجموعة من الجنود وقفوا احترامًا وتبجيلًا له، فتحجب أجسادهم خيال ظله.

ذاكرة الماضي جحافل الشعب

الوادي القريب من أكواي سكستيا، جنوب بلاد الغال، عام
١٠٢ قبل الميلاد

المعسكر التوتوني

اتبع تيوتوبود مرة أخرى محاولات تهدف لإرباك الرومان واستفزازهم. فعند خندق ماريانا أمر رجاله بأن يكيلوا للرومان السباب والإهانة، لكنه الآن دفع بمجموعات من رجاله للاقتراب من المعسكر الروماني أثناء الليل والاشتباك معًا بالسيوف والدروع وإحداث ضجيج يزعج الأعداء أثناء نومهم. كذلك استخدم ماريوس نفس الاستراتيجية؛ فأرسل بعض الوحدات في دوريات ليلية لإزعاج نوم الجرمان. بدا أن كل شيء كان مقدرًا له أن يتحول إلى انتظار جديد طويل وبطيء. ولكن ذات مساء تسارعت وتيرة كل شيء.

المعسكر الروماني

استدعى القنصل الطربون إلى خيمته.

جاءت التعليمات موجزة ومباشرة بقدر كونها دقيقة: "قدموا عشاءً دسمًا الليلة، ولكن دون إفراط أو رشفة نيئذ واحدة، وغداً الإفطار قبل الفجر

وليشرب الرجال إما لبنًا أو ماء، لا أريد جنودًا ظمأى عند شروق الشمس"، ثم أظهر لهم بردية توضح بخطوط عريضة خريطة التل والنهر والمعسكر الروماني والتوتوني. ثم بدأ يطلعهم على الخطة التي عكف عليها على مدار الفترة الماضية: "أريد تسيير دوريتين هذه الليلة بنفس القدر من تلك الدوريات الليلية التي تحدث ضوضاء بالقرب من المعسكر التوتوني. ومن ناحية أخرى، سيقوم كلاوديوس مارسيلوس..." وهنا نظر إلى الشخص المقصود، وهو أحد الطربون المخضرمين: "بأخذ ٣ آلاف جندي ليخيموا في غابة أشجار البلوط القرية" وأشار إلى نقطة في أسفل التل حيث الموقع المقصود، وأردف: "خذ معك الحيوانات المستخدمة في النقل والبغال والجزء الأكبر من العبيد. كان من الأفضل أن أمنحك المزيد من الرجال، إلا أنني بحاجة إلى الجزء الأكبر من القوات أعلى التل. سوف تظهر في منتصف المعركة، عندما يبدأ الجرمان في الانسحاب، وعليك أن تدعي أن قوام الفيلق ليس ٣ آلاف فقط، بل أكثر من ذلك بكثير. هذا هو السبب في أنك ستأخذ الحيوانات والعبيد، امزجهم بين رجالك سيعطي ذلك مظهر قوة أكبر، هل فهمت؟".

أوماً كلاوديوس مارسيلوس برأسه مؤكدًا، وهو يحاول استيعاب المفاجأة؛ ومثله مثل معظم الطربون، لم يستطع تصديق ما سمعه. القنصل أخيرًا يعطي تعليمات لمعركة ضارية، أخيرًا تحقق ما طال انتظاره. الوحيد سرتوريوس لم يتفاجأ؛ فمنذ مواجهة الأمبرونيين، أدرك بوضوح أن القنصل كان على وشك شن هجومه.

"حسنًا، بحق الآلهة جمعاء، غدًا عند الفجر، سنقوم بترتيب جميع القوات، باستثناء الرجال الذين سيأخذهم كلاوديوس مارسيلوس، في مجموعات ثلاثية وفقًا لاستراتيجية triplex acies لتوزيع الأفواج وفقًا لهيكل شبكي تربياعي، أي أن يصطف جنود كتيبة واحدة في خط أفقي، ويتركون بينهم مسافات متساوية، ومن خلفهم يصطف جنود الكتيبة الثانية في المواضع الفارغة، وهكذا".

كان القنصل يعلم أن رجاله يعرفون تمام المعرفة المقصود بالتشكيل الكلاسيكي للمجموعات الثلاثية، وهي تجعل صفوف الجنود تشبه رقعة شطرنج ضخمة من الوحدات العسكرية مرتبة مثل اللعبة اللوحية تتخللهم مواقع فارغة، بينما تشغل جنود الكتيبة التالية المواقع الفارغة، كما هو الحال في لعبة الداما الحديثة. نعم، عرف ماريوس أن رجاله يعرفون التشكيل، لكنه لم يرد أن يترك فرصة لسوء الفهم ولن يأخذ أي شيء كأمر مسلم به. إنها المعركة الحاسمة ولا بد من ترتيب كل شيء كما خطط له على مدار أيام وأسابيع، بل أشهر بل سنوات.

كان القنصل ينتظر تلك المعركة منذ زمن، لذا أمعن التفكير وانهمك في تحليل أسباب الهزائم الفادحة التي منيت بها الجيوش القنصلية الأخرى في معارك نوريا وبورديجا وأراوسيو. عندما حان الموعد المناسب أصدر تعليماته على هذا النحو: "بحلول الفجر، ومع أول شعاع ترسله الشمس، تصطف القوات أمام المعسكر. سنطلق فرساننا ضد العدو لمضايقته، حتى يأمر ملكهم بمهاجمتنا، وهكذا سيتعين على الجرمان عبور النهر والصعود إلى المنحدر لملاقاة الجحافل، الذين بدورهم سوف يفتحون ممرات أمام جنود سلاح الفرسان العائدين، وفي تلك اللحظة، تبدأ المعركة" قال ماريوس، ثم سكت، يمعن النظر في الخريطة، بعد ذلك أضاف: "هل لدى أحدكم أي سؤال؟".

بدا كل شيء واضحًا، التزم سرتوريوس الصمت يراجع كل ما سمعه. "الجرمان يفوقونا عددًا. حتى بعد إبادة معظم الأمبرونيين، لا يزالون يفوقونا عددًا بفارق كبير" قال كلاوديوس مارسيلوس.

أطرق القنصل ثم أجابه بصراحة: "لهذا السبب نقاتل في مكان مرتفع عند سفح التل، وتركنا النهر خلفهم وليس خلفنا، ونصب الكمين في منتصف المعركة. لم يقل أحد أن هذا سيكون سهلاً. ألم تتمنوا القتال منذ أشهر طويلة؟ حسنًا، لقد حان اليوم الذي كنتم تنتظرونه".

لم ينعم تويتوبود بنوم جيّد خلال تلك الليلة، لقد أحدثت دوريات الرومان إزعاجًا كبيرًا، لكن هذا لم يكن الشيء الوحيد غير المتوقع الذي فعلوه، إذ جاء إليه أحد المستشارين وأشار ناحية التل وهو يصيح: "إنهم قادمون أيها الملك".

نظر الملك إلى حيث يشير، فوجد أن جنود الجيش الروماني بأكمله اصطفوا خارج معسكرهم في تشكيل قتالي مثالي على طول المنحدر. ولم يكن هذا كل شيء، بل رأى فرسان الرومان يتقدمون نحوهم ويبدو أنهم ينتوون الهجوم.

تصفح تويتوبود جيشه، فوجد أن العديد من محاربيه لا يزالون يتناولون الإفطار. لم يتوقع أحد هجومًا خطيرًا من قبل الرومان. ها هم فرسان العدو يواصلون التقدم نحوهم. لم تكن أعدادهم كبيرة لكن لا بد من مواجهتهم، فأمر الملك: "مُر كل المحاربين بالاستعداد".

وسرعان ما انضمت مجموعات حراسة المخيم إلى بقية الجنود بدروعهم وسيوفهم وفؤوسهم ورماحهم، بعدما تمكنوا بالكاد من تناول وجبة سريعة لا تسد الرمق. كما أنهم لم ينعموا بنوم كاف خلال الليلة السابقة للهجوم بسبب الدوريات الرومانية الليلية الصاخبة، التي يبدو أنها كُثِّفت على مدار تلك الليلة بالذات لإزعاجهم.

المعسكر الروماني*

نقذ الفرسان هجومًا مقتضبًا ضد الجرمان، قبل أن يمتلك العدو وقتًا كافيًا لتنسيق صفوفه، لكنهم حاولوا صد الهجوم. ومع إدراك الرومان لحقيقة أن عددهم ضئيل للغاية لم يشاؤوا إطالة أمد القتال غير المتكافئ، علاوة

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة أكواي سكستيا: المرحلة الثالثة.

على أن تعليمات القنصل نصت على أن تقتصر مهامهم على مضايقة العدو وإجباره على البدء في مطاردتهم. لهذا، ومع تقدم الجيش التوتوني الهائل، أمرت قوات الفرسان الرومانية بالانسحاب نحو سفح التل، فاستجابوا على الفور امتثالاً للخطة وللأمر الواقع، واندفعوا عائدين نحو الكتائب الرومانية التي اصطفت وفقاً لنظام محكم.

سارع ماريوس بهبوط الدرج بمجرد أن رأى جنود سلاح الفرسان يعودون إلى المعسكر يتبعهم الجيش التوتوني الضخم، ثم خرج من المخيم يحث الخطى ووسر توريوس وبقية الطربون يتبعونه، تاركين الحاجز الدفاعي خلفهم، وانضموا إلى الصفوف الخلفية للجيش الممتدة على طول المنحدر.

"اتركوا ممرات" أمر ماريوس، وكرر الطربون وقادة المائة الأمر. وبسرعة نُسقت الصفوف وفقاً لترتيب أشبه بالرقع في لعبة الداما اللوحية، بحيث تُركت ممرات واسعة بين كل جندي وآخر.

عبر القنصل من خلال الممرات وتقدم ناحية الصف الأول من الجيش. في تلك الأثناء، اندفع الفرسان العائدين نحو مؤخرة الجيش حتى أمرهم ماريوس بالعودة إلى الطليعة مرة أخرى، ووقف هو في مقدمة الجيوش، في الخط الأمامي للقتال. مثل هذا الأمر مفاجأة للجميع، لكونه أمراً استثنائياً، لم يُسمع به من قبل، ولم يحدث منذ زمن سكيبيو، راقب ماريوس تقدم العدو بتمهل، ما منحه وقتاً للتفكير، بينما يتمشى أمام أفواج الطليعة.

"أغلقوا الممرات" أمر.

سارعت المجموعات بتنظيم الصفوف على طريقة أشبه بلعبة الشطرنج الروماني؛ إذ تصطف الرقع جنباً إلى جنب دون ترك مساحات فارغة، وترتيبها مختلف عن الداما الحديثة. وبهذا لم يعد ثمة فرصة أمام العدو لشق صفوفهم، إلا إذا اندفعت دفعة هائلة من المقاتلين البرابرة ضد صفوف جحافل روما، وفي خضم المعارك كل شيء محتمل.

واصل الجرمان التقدم عبر السهل، فرغ ماريوس ذراعيه لجذب الانتباه الكامل لرجاله، وصاح: "هيا يا فيالق روما!"، دوى صوته مثل هزيم الرعد على منحدر التل. اصطفاهم على طول المنحدر سهّل على الصفوف الخلفية رؤية القائد، كما مثل مسرحًا طبيعيًا بحيث يمكن سماع صوت القنصل في جميع أنحاء التل. من الخلف نظر سرتوريوس إلى ماريوس بدهشة، لم يفتن بعد إلى ما يتويه القائد، ربما أراد مداعبة الفيلق ثم بعد ذلك يعود إلى المؤخرة لقيادة المعركة من موقع آمن...

"هيا يا فيالق روما!" دار بعينه على جميع جنوده للتأكد من انتباههم له: "أود إخباركم بأنكم أفضل محاربين في روما، والأكثر تفضيلاً من قبل مجلس الشيوخ، وأكثر من ينال إعجاب مؤسسات جمهوريتنا! أتمنى لو أخبرتكم بذلك، لكنني حينها أكون كاذبًا!".

ظل صامتًا للحظة واحدة، وكذلك التزم ٣٠ ألف جندي الصمت المطلق. في أثناء صمتهم، دوى ديبب خطى أكثر من ٦٠ ألفًا من الجرمان القادمين ضدهم، مثل طبول معركة تعلن أنها باتت وشيكة، ضارية، بقدر ما ستكون حاسمة.

لم تكن الأعداد متوازنة، بل كان الرومان أقل بكثير. لقد هزمت جيوش رومانية مماثلة لجيشهم في المعارك الثلاث الأخيرة، ورغم رغبتهم الهائلة في القتال، تسلل إليهم فجأة... الخوف.

واصل القنصل: "لا، أنتم لا تمثلون الصفوة في روما! مستوياتكم متدنية، تنتمون إلى طبقات عديمة القيمة! بل وصل مستوى معيشتكم إلى ما هو أسوأ بكثير. أنتم حثالة روما! تقبعون في قاع القاع!". حينها عبس سرتوريوس، وكذلك الطربون الذين كانوا يقفون إلى جوار القنصل، بينما تابع الجنود خطاب ماريوس في انتظار إدراك ما يرمي إليه. لم يفهموا ما يجري حولهم، تخيلوا أن القنصل أراد تشجيعهم على القتال وتوقعوا أي شيء بهذا المعنى، لكن بالطبع لم يتوقعوا الإهانة. أخفض سرتوريوس بصره، وأخذ يحرك رأسه نافيًا، دون أن ينبس ببنت شفة؛ لم تكن هذه هي

الطريقة الصحيحة لتشجيع الجنود الذين اضطروا للقتال حتى آخر قطرة من دمائهم، هل فقد القنصل رشده؟

"نعم، أنتم حثالة روما، الأكثر فقرًا بين سكانها، ولا تعول عليكم روما في أي شيء، أصواتكم ليست لها أدنى أهمية داخل مجلس الشيوخ! لم يرغب أحد في تسليحكم أبدًا، إذ خصت القوانين القديمة ملاك الأراضي بالحق في حمل أسلحة قتالية والمشاركة في الحروب! كما استُبعدتم دائمًا من الدفاع عن روما، ومن ثم من المجد والانتصارات وتوزيع الثروات! أنتم لا شيء سوى البؤس! أنتم لا تساوون شيئًا بالنسبة إلى روما، أنتم حتى غير موجودين! روما لا تثق بكم، وتعول فقط على هزيمتكم وفشلكم! وبعدها سوف يفكر مجلس الشيوخ في تجنيد جيش آخر من الجنود القدامى من ملاك الأراضي. أقوياء روما لا يلقون لكم بالأل! وبالنسبة لهم، أنتم انتهيتم حتى قبل أن تبدأ المعركة!" تابع القنصل.

ازدرد جنود الفيلق لعابهم، ابتلعوا الغضب الذي نما في صدورهم، ازداد اشتياقهم للانتقام من كل من احتقرهم. لقد سخر منهم الجرمان عند خندق ماريانا، والآن تأتي كلمات القنصل تلك لتكمل ما بدأه البرابرة.

لكن ما قاله لهم ذلك السناتور المخضرم أثر فيهم بعمق لأنهم جميعًا، في أعماقهم، كانوا يعرفون أنه على الرغم من الألم في ثناياها إلا أنها تعبر عن الواقع. لقد مضت سنوات عديدة، أكثر من قرن، منذ لجأت روما للمرة الأخيرة إلى فقراء المدينة لتسليح جيشها. تحديدًا منذ زمن حنبعل.

رفع غايوس ماريوس ذراعيه مرة أخرى. توقفت أفكار الجنود، والقادة. أرادوا مواصلة الاستماع إليه. كانوا غاضبين من كل شيء ومن كل شخص. تراجعت رغبتهم في القتال والتضحية بحياتهم من أجل روما تلك التي لا تريدهم.

"لا... مجلس الشيوخ لا يثق بكم! لكن هل تعرفون من وضع ثقته فيكم بحق؟ هل تعلمون من هو الوحيد الذي آمن بقوتكم وصمودكم على مدار

سنوات التدريبات الشاقة المتواصلة؟ هل تعلمون من هو الوحيد الذي ينتوي القتال معكم جنبًا إلى جنب تحت شعار لنموت معًا أو ننتصر معًا!". صمت القنصل مرة أخرى بينما يتمشى أمام صفوف الطليعة في جيشه.

تقدم الجرمان، حتى وصلوا إلى النهر، وبدؤوا في عبوره. فاقرب سرتوريوس، الذي كان يتابع خطاب القائد الأعلى من جهة وحركات العدو من جهة أخرى، من القنصل وهمس في أذنه: "قوات العدو تعبر النهر". هزّ ماريوس رأسه دون أن يلتفت إليه، انصب انتباهه على وجوه الفيلق، حتى سأله أحد الجنود: "من هو ذا الذي يثق بنا؟".

حينها، أخذ ماريوس يومئ برأسه مرة أخرى، الآن بطريقة أكثر وضوحًا، مُظهرًا رضاه عن هذا السؤال الذي انطلق من صفوف جيشه، وأوضح: "إنه أنا، غايوس ماريوس، قنصل روما، المنتصر في الحرب في إفريقيا، الذي هزم يوغرطة! أنا الوحيد الذي يثق بكم وبقوتكم وصمودكم! أنا، غايوس ماريوس، قررت أنه يجب على الدولة تسليحكم جميعًا ومنحكم جميعًا نفس الأسلحة، وتشكيل جيش من الكتائب المتكافئة في القوة! أنا، غايوس ماريوس، أنا الشخص الذي وضع جُلَّ إيمانه بكم! ستقولون: إذا كنت تثق بنا كثيرًا، فكيف لم تتركنا أبدًا ندخل في معارك ضد الجرمان، ضد أولئك الأعداء الذين يقتربون منا، بقدر ما استفزونا عند مصب نهر الراين؟ سأخبركم لماذا: لأنه كان موقعًا جيّدًا لتزويد أنفسنا والتدريب لفترة من الوقت ومراقبة العدو بينما يمر نحو روما، لكنه لم يكن مناسبًا للمعركة الحاسمة. وإنما هذا هو الموقع المناسب!" فأشار إلى التل، وعلى جانبيه وديان بها أشجار كثيفة، ثم أوضح: "لا يمكنهم محاصرتنا هنا، لذلك لا يهم حتى وإن كان عددهم ضعف عددنا. هنا خط المعركة هو نفسه لكلا الجيشين! أما عند نهر الراين، فقد كان النهر وراءنا، كما حدث لقواتنا في معركة أراوسيو، لكنه الآن سيكون وراء أعدائنا! ألم تكونوا عطشى، ألا تريدون الماء؟ حسنًا، ادفعوا قوات الجرمان إلى أسفل هذا المنحدر، وأجبروهم على العودة إلى النهر الذي يعبرونه الآن، ثم اشربوا من ماء الممزوج بدماء أعدائنا!

عليكم القضاء على الجرمان بالضربة القاضية والنهائية! تسألون لماذا لم أترككم تقاتلون عند الراين؟ ليس لأنني اعتقدت أنكم لا تستطيعون إحراز النصر، أو أنني تشككت في شجاعتكم وقوتكم، ولكن لأن النصر هناك لم يكن مضمونًا! هل تعلمون؟ الفقراء وحثالة روما ليس لهم الحق في فرصة ثانية! لأعضاء مجلس الشيوخ الحق في فرصة وفرص أخرى، القناصلة مثلي أيضًا لهم نفس الحق، لكن لن يمنحكم أي شخص في روما فرصة ثانية! يا حثالة المدينة! أنتم لا ينظر إليكم أحد حتى في الشوارع المؤدية إلى المنتدى أو السوق، لن تكون لديكم فرصة ثانية إذا ما فشلتم! أنتم أيها البائسون لديكم فرصة واحدة فقط! هذه هي فرصتكم الأولى والأخيرة. هنا عند هذا المنحدر، هذا التل، ذاك النهر، تلك الوديان، تلك الأسلحة التي تحملونها، تلك السنوات التي قضيناها في تدريب مستمر هي فرصتكم الوحيدة!".

توقف غايوس ماريوس لبرهة، كان في حاجة إلى التقاط أنفاسه، لكن نيران الحماسة اشتعلت داخله، وخرجت الكلمات من أعماق قلبه: "ستسألون: ولماذا سنقاتل من أجل تلك المدينة التي لا تحبنا؟ سأخبركم لماذا! لأنه ليس صحيحًا أن روما لا تحبكم! بل مجلس الشيوخ هو الذي لا يثق بكم، إن آباء الرعية هم من يحتقرونكم! خاصة أولئك الذين يطلقون على أنفسهم الأوبتيميتس، كما لو كانوا هم الأفضل! لكنكم في روما لديكم زوجات وأطفال، ومثلكم تمامًا، ليس لهم أدنى قيمة في المجتمع! وإذا ما تمكن الجرمان من مدينتنا فسوف يعرضون نساءكم وأطفالهم للإهانة، تمامًا كما سيهينون زوجات وأطفال الأغنياء والأقوياء. هكذا أخبرنا الجرمان أنفسهم ألف مرة، عندما سخروا منا لأننا لم نغادر معسكرنا عند مصب النهر! لكنني لا أثق... لا أثق على الإطلاق في جيش يشكله أعضاء مجلس الشيوخ! لأنه سيكون هشا وغير مدرب بشكل جيد، ولن يكون لديه القوة ولا الحمية ولا التوق للقاء هؤلاء المتوحشين الذين يتقدمون ناحيتنا الآن، والذين، غدًا، إذا فشلنا، سيتقدمون، نحو روما، نحو زوجاتكم وأبنائكم!".

كان ماريوس يتصبب عرقاً من الجهد الذي بذله في الصراخ كي يصل صوته إلى كل الجنود في ذلك المكان الأشبه بمسرح طبيعي ضخم على منحدر التل المزدهم بالجنود. الآن فقط أدرك سرتوريوس معنى خطاب القنصل، لكنه بات قلقاً بشأن تقدم الأعداء. تحدث إليه مرة أخرى في أذنه من خلف ظهره: "لقد عبر الجرمان النهر وشرعوا في صعود منحدر التل يا صاحب السمو".

هز ماريوس رأسه، وأمره: "فليحسنوا تثبيت واقبي صدري بشكل جيد، أشعر أن الأربطة فضفاضة للغاية"، فأشار سرتوريوس لأحد العبيد، فحضر مسرعاً لشد الأربطة الخلفية لدرع القنصل بحيث أصبح مضموماً إلى جسده ولن يتحرك إذا ما دخل في القتال. حينها أدرك الأطربون أن القنصل لم يتقدم إلى الصفوف الأمامية من أجل إلقاء الخطاب فقط، كما لم يعد يراه مجنوناً، وباتت عيون الجنود مشرقة، تشع حماساً. ودون أن يلتفت إليه، أمر غايوس ماريوس الأطربون: "أخبرني عندما يكونون على بعد ألف خطوة".

تقدم خطوتين للأمام واقترب قليلاً من مجموعات الطليعة. نظر حوله إلى جميع الوحدات العسكرية التي كانت تحت إمرته، الأقرب إليه، وكذلك الوحدات الأبعد، أعلى التل. فخاطب الجميع لآخر مرة قبل المعركة: "هل أنتم على استعداد للقتال من أجل زوجاتكم وأطفالكم، من أجل إخوتكم، من أجل الآلاف منكم الذين يسكنون شوارع روما، من أجل جميع الذين طردهم مجلس الشيوخ من رحمته، من أجل كل هؤلاء النساء والأطفال والأصدقاء الذين يثقون بكم؟ إنهم يؤمنون بقدراتكم، هل أنتم على استعداد للقتال من أجلي، من أجل من سمح بتسليحكم وتدريبكم ومنحكم فرصتكم الوحيدة؟ هل أنتم على استعداد للقتال ليس فقط لهزيمة البرابرة، ولكن لتغيير تاريخ روما؟ هل أنتم على استعداد للقتال لإثبات أن هذه الجحافل، الجحافل الحقيقية لشعب روما، أقوى وأشد بطشاً وأكثر قدرة على تدمير العدو من أي جحافل أخرى حلمت بها؟ هل أنتم على استعداد للقتال لتصبحوا جزءاً من المجد والنصر؟ أجيونوني، لأنني على استعداد للقتال

معكم، إلى جانبكم، في الصفوف الأولى! أنا على استعداد للقتال معكم، والموت معكم، وجلب النصر معكم أيضا! هل أنتم مستعدون؟ بحق كل الآلهة أجيوني".

خرجت آخر كلماته مثل صرخة هائلة، نداء استغاثة لا يمكن تركه دون إجابة، فجاءته الإجابة من آلاف المقاتلين في الصفوف الأولى: "نعم مستعدون! مستعدون! مستعدون!".

وسرعان ما انضم إليهم جميع الجنود من جميع الأفواج في وغي يصم الأذان من ٣٠ ألف صوت تدحرج في السهل ووصل إلى مسامع الجرمان. صيحة من شأنها تغيير تاريخ روما إلى الأبد.

ذاكرة الماضي المعركة الحاسمة

الوادي القريب من أكواي سكستيا، جنوب بلاد الغال، عام
١٠٢ قبل الميلاد

طليعة الجيش التوتوني

لم يكن الملك توتوبود في الصفوف الأمامية، كان يتقدم مع بقية جيشه الهائل نحو ذلك التل، لكنه كان يقبع وسط قواته، حين وصل إليه هدير الجحافل. فوجئ بعض الضباط المحيطين بالملك بغضبه الجامح من دوي أصوات الرومان. كما لمح الملك المقاتل بصيصًا من شك في نفوس ضباطه.

"إن أعدادنا ضعف عددهم، وقد انتصرنا عليهم عدة مرات بالفعل. القوة القليلة التي يمتلكونها ستُنْهَك بسبب كثرة الصراخ..." قال الملك للحفاظ على الروح المعنوية للجنود. ثم ضحك وضحك مستشاروه والمحاربون. كان لتلك الضحكة المدوية فائدة بالنسبة لهم، أمام هدير الجحافل الذي أقلقهم.

الصف الأول من الجيش الروماني

وصلت أصوات الضحك المراد به الازدراء والسخرية اللا متناهية إلى أذان فيالتي روما، فسكتوا. كانت أشبه بإبريق من الماء البارد أعادهم إلى

الواقع بعد النشوة التي تملكتهم. لكن غايوس ماريوس كان قد أتم قول ما في جعبته، وعلم أن رجاله ألهبهم الحماس بدرجة كافية، وأن ضحكة شيطانية من العدو الذي يقترب لن تؤثر فيهم. ومع ذلك، ربما بضع كلمات أخرى تفيد ..

"أصبحوا على بُعد ألف خطوة" قال سرتوريوس.

"حسنًا" أجابه القنصل بصوت منخفض. ثم رفع صوته حتى تردد صداه عبر التل، يخاطب رجاله مرة أخرى: "إنهم يسخرون منكم كما سخر منكم أعضاء مجلس الشيوخ في روما لسنوات طويلة. لكن اليوم، أيها الجنود، ستخمد كل تلك الضحكات، كل التهكم وكل السخرية التي نالت منكم! اليوم يومكم، يوم ولادة جحافل جديدة لروما! من أجل زوجاتكم وأولادكم! وأصدقائكم وأهلكم في روما! من أجل حق الآلهة عليكم!"، ثم استل سيفه ورفعته إلى السماء وأردف: "من أجلكم! النصر أو الموت! النصر أو الموت!" وهكذا عاد هدير الجحافل يشق الهواء: "النصر أو الموت! النصر أو الموت!".

أخيرًا، استدار القنصل وواجه الجرمان الذين كانوا يتقدمون عند منحدر التل بخطوات بطيئة إلى حد ما لكن بشراسة، على استعداد لإنهاء تلك المعركة قبل أن تصل الشمس إلى قمة رحلتها السماوية، ثم قال لسورتوريوس: "إذا ما تملك الجرمان مني، منّا، ولم تكن ثمة فرصة للهرب، اقتلني، هل فهمت، استل سيفك واطعني به حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة. قد يُقتل أحد قناصلة روما في خضم المعركة، لكن لا يمكن أن يأسره الأعداء أبدًا. القنصل الحقيقي لا يُأسر، أبدًا، هل تفهمني أيها الأطربون؟".

قَبِل سرتوريوس في حيرة من أمره، وعَبَّر عن إذعانه للأمر واستجابته لإصرار القنصل؛ إذ أكد: "حسنًا، فهمت يا صاحب السمو، إذا ما أحاطوا بنا، فسوف أعين القنصل على الوفاء بتعهده".

عُرف عن الرومان أن القناصلة كانوا يقدمون أنفسهم فداءً للوطن، ويتعهدون بالتضحية بحياتهم في المعركة مقابل إحراز النصر، ليحفظوا بميتة أسطورية.

"حسنًا، فليكن، دعنا نلاقي هؤلاء الجرمان الملاحين الآن".

لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة شارك فيها ماريوس في قتال مباشر، كان ذلك في إفريقيا. ولكن في تلك اللحظة، ذهب عقله إلى الوراثة أكثر بكثير، إلى سنوات شبابه، تذكر الفترة التي قاتل فيها تحت قيادة سكيبيو إيميليان في حصار نومانسيا. فتمتم في نفسه: "ستكون تلك المعركة أشبه بمعارك شبه الجزيرة الأيبيرية، ستكون شاقة للغاية وصعبة، بقدر كونها عظيمة الشأن".

مشى القنصل بخطوات عسكرية، متقدمًا على فرق الصفوف الأولى، وصاح: "لا تتقدموا، ليس بعد!"، وكرر قادة المائة التعليمات كي يسمعها الجنود.

"أصبحوا على بُعد ٦٠٠ خطوة يا صاحب السمو" قال سرتوريوس، وكان يسير دائمًا إلى جانب القنصل، يراقب تحركات الجيش التوتوني ويتابع تشكيل الأفواج الرومانية.

"دعهم يقتربون. كلما اقتربوا أكثر، كلما أصبح المنحدر أشد وعورة. ستعود الفائدة علينا كلما كان القتال من أعلى إلى أسفل" علق ماريوس، فوافق سرتوريوس الرأي. بينما ارتفعت دقات قلبه حتى بات لها صدى مسموع. لم يسبق له أن رأى مثل هذا الحشد الهائل من البرابرة يتقدم بلا هوادة.

"حسنًا يا صاحب السمو، باتوا على بُعد ٥٥٠ خطوة".

"استعدوا" صاح القنصل، فأحكم الجنود قبضاتهم على الرماح.

"٥٠٠ خطوة يا صاحب السمو".

"أعلم بالفعل أنني قنصل وسناتور، على الرغم من حقيقة أن هؤلاء البائسين الأوبتيميتس في روما لا يعجبهم هذا الأمر، لكن لا يتعين عليك

تذليل كل جملة بعبارة "يا صاحب السمو" فقط أخبرني بخطوات العدو. أنت تحسب بشكل أفضل، ولديك رؤية ثابتة تفوق قدراتي" قال ماريوس. هم سرتوريوس بمجادلته، لكنه لم يشأ، فصمت وأوماً برأسه فقط.

أطلق الجرمان صرخات خرجت من الحلق وكأنهم وحوش ضارية جاءت من العالم السفلي. أرادوا بث الرعب في نفوس الأعداء، وقد نالوا ما أرادوه.

٤٠٠ "خطوة".

استدار ماريوس ناحية الصفوف الأولى.

"انتظروا إشارتي قبل الانطلاق! ومن يلقي بيلوما* واحدًا قبل إشارة البدء فسوف ينال عقابه بعدما تنتهي المعركة" صاح ماريوس ثم أردف: "هذا إذا ما بقينا على قيد الحياة".

٣٠٠ "خطوة".

استدار ماريوس مرة أخرى. حدّق إلى الجرمان الذين واصلوا التقدم باتجاه الجحافل الرومانية.

٢٠٠ "خطوة!" كان على سرتوريوس أن يصرخ ليعلو صوته فوق عواء جنود العدو الذين كانوا قد اقتربوا بالفعل حتى أصبحوا على وشك مهاجمة الجحافل.

١٥٠ "خطوة!" مرر الأظربون يده على ذقنه المتعركة.

حينها، رفع غايوس ماريوس ذراعيه. أراد التأكد من أن جنود الفيلق امتلكوا الوقت الكافي ليثبتوا دروعهم كي يتمكنوا من مقاومة الأعداء الذين يقتربون...

١٠٠ "خطوة، يا صاحب السمو!" نطق بأعلى صوته. اعتاد الأظربون أن يتحدث إلى القنصل باحترام بالغ، لذا لم يمثل لأوامر القنصل في هذه

* نوع من الحراب استحدثها غايوس ماريوس، كانت تبدأ بها المعارك لتحطيم دفاعات الأعداء وتشتيت صفوفهم.

النقطة. كان نداؤه الأخير أشبه بالرجاء، وكأنه يتوسل إلى القنصل كي يصدر أمره ببدء القتال.

أخفض غايوس ماريوس ذراعيه في نفس الوقت * معلناً بدء المعركة، وعلى الفور، ألقى الآلاف من الجنود سهامهم في الوقت نفسه. حتى غامت السماء بسحابة مظلمة من القذائف اليدوية والرماح التي يصك بعضها بعضاً، وعم صوت اقتراش الرماح مثل وابل عاصفة عنيفة، تندفع من جبهة الرومان ناحية الصفوف الأمامية للجرمان فتشق الصدور وتخرق الأبدان، فتحصد عشرات الأرواح وتجرح المئات. تعرقل صعود المزيد لبرهة، وحينما أصبحوا على بعد ٣٠ خطوة بالكاد، أصيب جنود العدو بالارتباك. في تلك الأثناء استعد جنود الفيلق ونصبوا دروعهم استعداداً لصد الهجوم.

"أخرجوا سيوفكم من أغمادها، أخرجوها، بحق الآلهة جمعاء!" أمر ماريوس، ثم تراجع بضع خطوات، برفقة سرتوريوس دائماً، وانضموا إلى الخطوط الأمامية للقتال.

دعست أقدام الجرمان الجثث والجرحى حتى لا يوقفوا تقدمهم. لقد تسبب وابل السهام في وقوع العديد من الضحايا، ومن بقوا أصبحوا مثل الوحوش الجريحة الراغبة في الانتقام، والتدمير، بغية إهلاك العدو.

واستعرت نار الحرب... والرومان يحتمون بالدروع، بينما يواصلون طعن جنود الأعداء بالسيوف. تمنوا لو تخرق الصدور والأذرع وإذا أمكن القلوب والبطن، وتصيبها بطعنات قاتلة.

"اهلكوهم، وجهوا رماحكم!" صاح القنصل والطربون وقادة المائة. كان الجرمان غاضبين، نعم، فقد جاؤوا من على بعد أميال من معسكرهم، وعبروا النهر، وبدؤوا في تسلق شاق لهذا المنحدر، كل ذلك دون راحة، كما انخرط عدد منهم في القتال ببطنون فارغة، لقد خارت قواهم.

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة أكواي سكستيا: المرحلة الرابعة.

وبعد قتال لفترة، بات جنود الصف الروماني الأول، غير قادرين على التقدم وقاتل الأعداء، رغم أن المنحدر لعب لصالحهم؛ إذ سهل عليهم دفع الجنود البرابرة إلى الأسفل، بينما أضعف قوة أعدائهم، ومع ذلك، أراد ماريوس مزيداً من العزيمة في خط القتال الأمامي، فأمر: "أول تبديل للصفوف!".

توقف جنود الصف الأمامي، وتراجعوا بضع خطوات إلى الخلف ليحل محلهم آخرون كانوا لا يزالون محتفظين بحيويتهم.

بعد فترة من القتال المتواصل وجد ماريوس نفسه وسط مساحة خالية من الأعداء، لقد حطم هو وجنوده بخبرتهم وتدريبهم الجيد أعداداً كبيرة منهم. نظر إلى سباتاه، وهو سيف يتراوح طوله ما بين نصف متر ومتر، كان طرفه يقطر دماً، أدرك أنه قام بعمله على خط المواجهة على أكمل وجه، مثل أي محارب آخر، وقد رأى الفيلق ذلك ما ألهم عزيمتهم أكثر. لم يخطط القنصل للمعركة فقط، بل حارب جنباً إلى جنب مع باقي الجنود.

وفجأة، شعر غايوس ماريوس ببلل على صدغه، وسمع سرتوريوس يصيح: "لقد أصيب القنصل بجرح في جبهته، استدعوا الطبيب!".

بينما لم يهتم القنصل بالأمر وواصل توجيه الأوامر: "تبديل سريع للصفوف، عليكم الاستمرار في دفع البرابرة إلى أسفل المنحدر".
"سيتم التنفيذ فوراً يا صاحب السمو".

"واجلبوا الماء لجميع الجنود العائدين من الصفوف الأمامية، حتى يتمكنوا من الشرب بقدر ما يحتاجون. لا يهم إذا ما استهلكنا كل ما لدينا اليوم، هذا يومنا، اليوم الوحيد المهم، هل تفهمونني؟ ما نفعه اليوم سيحدد مصائرنا جميعاً".

أوماً الضباط برؤوسهم مدعين وغادروا في اتجاهات مختلفة لتنفيذ التعليمات بتبديل سريع للصفوف. كان أهم ما في الأمر هو الإبقاء على خط أمامي من رجال محتفظين بنشاطهم وحيويتهم ومدربين تدريباً جيداً، وعلى

الرغم من وقوع العديد من الضحايا بسبب ضراوة الجرمان، إلا أنهم استمروا في دفع البرابرة نحو النهر، بصعوبة كبيرة. وشيئًا فشيئًا، منحهم التقدم على المنحدر أملًا كبيرًا في التغلب عليهم. ربما كانوا حثالة روما المفترضين، لكنهم أرادوا انتزاع النصر، ولسوف يعيدون كتابة التاريخ، ولن يسخر منهم أحد بعد الآن.

لا تزال كلمات القنصل تتردد في أذانهم بينما يستمرون في قتال الجرمان، ودفعهم أكثر فأكثر إلى أسفل المنحدر ونحو النهر.

غابة أشجار البلوط في منتصف الطريق بين المعسكر الروماني والتوتوني مختبئًا بين الأشجار مع رجاله المسلحين ووفقًا لتعليمات القنصل، راقب مارسيلوس تفهقر الجيش التوتوني بأكمله، لكنه لم يشرع في محاولة عرقلة طريقه. لم يحن وقت تدخله بعد، فقال مارسيلوس للضباط: "لا يزالون بعيدين، لكن على الرجال والوحوش أن يستعدوا، قريبًا يحين دورنا".

الجيش التوتوني

راقب تيوتوبود محاولات محاربيه للتغلب على الرومان. لم يعجبه الوضع الذي وصلوا إليه، ورفض تصديق أن تفوقهم العددي وقوة جنوده لن تسود، كانوا أكثر بكثير، يمكنه تحمل خسارة بضعة آلاف، لكن ربما، ورغم كل شيء قد لا تعتبر فكرة التراجع سيئة. إن القتال على هذا المنحدر صَبَّ في مصلحة الرومان، إنه أشبه بزقاق بلا مخرج كما، أن وديانه الجانبية تمنعهم من استغلال تفوقهم العددي في تطويق العدو. لقد استغرق وقتًا طويلًا لإدراك كل هذا، لكن وقت تصحيح الأخطاء لم يمر بعد، نعم، قد يعد التراجع شيئًا فشيئًا استراتيجية جيدة. بدا واضحًا له أن هجوم سلاح الفرسان الروماني عند الفجر كان طعمًا أسقطهم في شباكهم، وإغراء قادهم إلى فم الذئب الروماني، لكنه الآن سيقود رجاله للانسحاب بطريقة منظمة ليعيد تنظيم صفوفه. بالطبع سوف يلاحقونهم، وبمجرد عبورهم النهر ينقضون

عليهم من جديد على ثلاث جهات دفعة واحدة ويقودوهم نحو القاع، وهذا ما حدث من قبل في معركة أراوسيو.

من الصعب تكرار ما حدث عند نهر الراين. سيكون النصر له، كل ما في الأمر أن إحرازه سيكلفه أكثر بقليل مما تكبده في المعركة السابقة، إلا أن في مقدوره التغلب على عدوه، ولسوف يفعل.

"بحق أودين إله الحرب والموت! دعهم يستمرون في التراجع، بشكل أسرع ولكن بطريقة منظمة!".

الصف الأول من الجيش الروماني

وقف القنصل يراقب تراجع الجرمان المنظم، فأخبر الطربون: "لقد كشف الخطة، الملك التوتوني أدرك أنه وقع في الفخ".

"وماذا سنفعل يا صاحب السمو؟" سأل سرتوريوس.

"سوف نواصل تنفيذ الخطة".

"هل نعبّر النهر؟".

"قلت إننا سنمضي حسب الخطة، إنه يريد الإفلات من الفخ. اليوم نحن الصيادون وهم الفرائس، وعندما يخرج غايوس ماريوس للصيد، فإنه لا يعود إلا بصيد وفير".

على امتداد السهل

كانت الحرارة خانقة. بدأت الشمس تشرق في جنوب بلاد الغال، والطقس يزداد سخونة بفعل حرارة الشمس. لم يعتد الجرمان القتال في ظل درجة حرارة عالية، تعرقوا بغزارة وخارت قواهم، وتحول الانسحاب، الذي كان ينبغي أن يكون بطيئًا ومنظمًا إلى فرار عشوائي. حاول العديد من البرابرة الوصول إلى النهر في أسرع وقت ممكن، سعيًا إلى الاسترخاء والحصول

على المياه وشرب الكثير من السوائل تعوض ما فقدوه، وكذلك الابتعاد عن الجحافل الرومانية التي كانت تتقدم بلا توقف نحوهم.

ظل تيوتوبود يصرخ ويصدر أوامره لجنوده بضرورة ضبط النفس أثناء الانسحاب. لم تكن الأمور تسير على ما يرام، لكنه وضع ثقته في عاملين اثنين: هما؛ قدرة جنوده على دفع الرومان عبر السهل، وتفوقه العددي على الأعداء. أمل أن تنكشف جوانب العدو عندما يخرجون من الوديان وأن يثبت تفوقهم العددي نفسه في النهاية، ثم سيصبح لهم القدرة على محاصرة الرومان. كانت هذه هي خطته، ورأى أنها استراتيجية جيدة، وخطه رابحة.

كان الكثيرون قد عبروا النهر بالفعل، وبدأ تيوتوبود يعيد تمركز قواته من أجل معركة أكبر بكثير مما كان متوقعًا. وفجأة... صاح عدد من الضباط الجرمان: "ماهذا؟".

نظر الملك إلى مؤخرة الجيش ولاحظ وجود قوة عسكرية معادية ثانية من سلاح الفرسان والمشاة في غابة البلوط سرعان ما انقضت على جيشه، الذي كان لا يزال يعيد تنظيم صفوفه، وصاح الجنود: "إنه جيش ثان! لقد أعد الرومان جيشًا آخر!". وهكذا، دون التوقف لكشف هوية القوة التي كانت تقترب منهم من الخلف بدقة، ورؤية أن جحافل القنصل كانت بالفعل تعبر النهر وتندفع ضدهم، سادت حالة من الذعر التام؛ إذ شعر الجرمان بأنهم أُحيط بهم. ثمة جيشان رومانيان.

نظر تيوتوبود بتمعن إلى هذا الجيش الثاني المفترض، لكنه سرعان ما أدرك أن أعدادهم ليست كبيرة، ولا يبدوون مهرة في القتال، بل هم مجموعة غريبة من الفرسان والمشاة المساعدين، وليست فيالق منتظمة، كما أنهم سلحوا العبيد. كان من بينهم فرسان وحيوانات لا يمتطيها فرسان، فصاح في رجاله: "إنها خدعة أخرى، مجرد حيلة، وهذا ما في الأمر، توقفوا، بحق أودين، هذا ليس جيشًا آخر!".

ومع ذلك، استحوذ الخوف على قلوب البرابرة. في البداية أطاح الرومان بالأمبرونيين، ثم بعد ذلك أجبروهم على العودة إلى أسفل التلال،

والآن يهاجمونهم بوحدات جديدة لا يعرفون عنها شيئاً. كان هناك الكثير من الصعوبات والأحداث غير المتوقعة، فبدا الفرار الخيار الأفضل.

الجيش الروماني

"مُرّ الجحافل بالاستمرار في مهاجمة الذين لم يعبروا النهر بعد، وكلف الفرسان بالنزول من على المنحدر كي يطوقونا ويطاردون الفارين، وأرسل دعماً لمارسيلوس ورجاله" أمر ماريوس.

"حسنًا يا صاحب السمو" أجابه الأطربون، ونقل التعليمات بسرعة.

على امتداد السهل

حاول تيوتوبود، اليائس، إعادة السيطرة على الأوضاع، لكن نصف جيشه فر في حالة من الفوضى، وطاردهم سلاح الفرسان الروماني المنحدر من التلال والوحدة العسكرية التي ظهرت من الغابة. لم يكن المطاردون كثيرين، لكن محاربيه الذين فروا دون النظر إلى الوراء، كانوا فريسة سهلة فقتل منهم المئات.

نظر الملك التوتوني ناحية النهر. لم يكن الوضع هناك أفضل، ولم يظهر رجاله الذين أصابهم الإحباط مقاومة تذكر أمام الجحافل المنظمة جيّدًا التي استمرت في التقدم، حتى ألقى بعض جنود البرابرة أسلحتهم وطلبوا الرحمة. لقد أضعف هذا روح الملك المعنوية لكنه قاوم، ولأول مرة منذ بداية المعركة، وقف في مقدمة الجيوش، لكن محاولته تلك جاءت متأخرة للغاية. ومع ذلك، دفع تقدمه بعض رجاله، بدافع الشعور بالخزي، إلى الإمساك مرة أخرى بأسلحتهم وانضموا إليه ووقفوا في وجه الكتائب الرومانية، التي استمرت في القتال، مع استمرار استراتيجية تغيير الصفوف حسب توجيهات القائد الأعلى. بينما واصلت أعداد جنود الملك التوتوني التراجع، حتى وجد نفسه محاطاً بمئات الجرحى والقتلى، لكنه استمر

في المواجهة ببسالة حتى أصبح هو الجندي الوحيد في الصفوف الأولى للجيش الجرمانى. وبالطبع لم يستطع الصمود أكثر من ذلك.

أدرك تيوتوبود أن ثمة تغييرًا في روح الجحافل الرومانية لكنه لم يستطع معرفة كنهه، ربما قال في نفسه إن تلك القوات لا تشبه الجيوش الرومانية الأخرى التي حاربها في معركة أراوسيو أو المعارك الأخرى. وفجأة أطلق صرخة استغاثته، لقد جرح بسيف رومانى، بل اثنين، وعندما أدرك قائد المائة أن من يستغيث هو الملك نفسه، إذ عرفه من درعه وخوذته، أمر الفيلق بوقف الهجوم، والإحاطة بالملك الجريح المنكوب المهزوم حتى يصل قنصل روما إلى موقعه ويقرر ما يجب القيام به، وكيف يجب التصرف في هذا الموقف.

وحتى تلك اللحظة كانت لا تزال المذبحة مستمرة، عند النهر؛ حيث استمرت الجحافل في قتل الجرمان وأخذ أسرى منهم. وعبر السهل؛ حيث واصل سلاح الفرسان وقوات مارسيلوس قطف أرواح الأعداء مثل قطع من الأرانب المذعورة.

لقد اعتاد الجرمان التحكم في زمام المعارك، اعتادوا الانتصار، لذلك لم يكونوا مستعدين على الإطلاق، لا معنويًا ولا جسديًا، للقتال الذي انحرف مساره منذ البداية.

ها هي الجثث تتراكم.

والمعركة شرسة.

وصلت عدة مجموعات من الرومان إلى معسكر العدو فصددهم. وكما في حالة الأمبرونيين، نساء قاتلن من أجل حياتهن، بشجاعة، ولكن بلا أدوات. حاولن الذود عن صغارهن، حتى قُتل كثيرن، وأسر آخرون من بينهم أطفال. هؤلاء سوف يصبحون عبيدًا في المستقبل.

وهكذا باتت هزيمة التوتونيين مؤكدة، قاد سرتوريوس القنصل إلى حيث يرقد الملك التوتونى الجريح على الأرض، محاطًا بمئات من جنود

الفيلق ينظرون إليه بفخر، وبشّره: "لقد انتزعنا نصرًا كاملاً يا صاحب السمو".

"انتصار عظيم، هذا صحيح" اعترف ماريوس.

تعلقت أعين الجنود والضباط بالقنصل بينما يتقدم نحو الملك البائس، حتى دنا منه وجلس القرفصاء إلى جواره، وسأله: "الآن أخبرني يا ملك الجرمان: مَنْ الرعديد؟".

لم يطلق تيوتوبود سوى زفرة ألم مشبعة بالدماء التي سألت من فمه، والازدراء الذي يتدفق من قلبه.

ابتسم غايوس ماريوس للحظة، ثم انتصب وابتعد خطوات قليلة عن الملك المُحتَضِر.

"هل نقتله؟" سأله سرتوريوس.

حدق غايوس ماريوس في ملك العدو، وجده ينزف باستمرار، وقد يموت خلال ساعات إن لم يقتلوه، ثم أجابه: "لا، لن نقتله، لقد استهزؤوا بنا جميعًا على مدار عامين، فلا بأس إذا سخرنا منه نحن لبضع ساعات".
أيده سرتوريوس في بهجة.

"ووزع النبيذ على جميع المحاربين بمجرد انتهائهم من تسليم الفارين!"
أمر القنصل، ثم أضاف بصوت أعلى بحيث يسمعه رجاله: "اليوم للاحتفال والشرب! ولمن يرغب، يمكن شرب نخب ملك العدو المُحتَضِر!".

تعالت الهتافات والصيحات في كل مكان. ابتعد غايوس ماريوس عنهم متوجّهاً ناحية التل لمواصلة المراقبة، ورافقه سرتوريوس تحسبًا لأي أوامر يصدرها القنصل.

لاحظ ماريوس أن أعداد الجرمان الذين يستسلمون تتزايد، وأن مطاردة الفارين لا تزال مستمرة في حدود السهل، فأمر: "مُر مارسيلوس بألا يلاحق الفارين إلى الغابة؛ لا أرغب في فقدان رجل واحد من رجالنا، ربما نصبوا لنا الكمائن".

نظر سرتوريوس إلى الضباط المرافقين له. لم يكن ثمة حاجة إلى تكرار الأمر، فتوجه عدد منهم على الفور لنقل الأوامر إلى كلاوديوس مارسيلوس. تطلّع غايوس ماريوس إلى النهر، لقد استحال لون مياهه للأحمر القاني، تلوثت بدماء الآلاف من الجرذان إثر اختراق سيوف الرومان لأجسادهم. ثم سأل سرتوريوس: "هل تعرف معنى اسم (توتونيين) بحسب اللغة الغالية؟".

"لا، لا أعرف يا صاحب السمو".

"هي كلمة من مقطعين، المقطع الأول يعني قبيلة والثاني يعني الماء، وبالنسبة للغالين، الجرمان هم قبيلة المياه. ويعتقد أنهم أقاموا قديمًا حول بحار بعيدة هناك في الشمال الذي لا نعرف عنه الكثير، ألا ترى أن الأمر لافتًا للاهتمام؟".

لم يفهم الأطربون مقصد القنصل، فأوضح ماريوس: "الجرمان، قبيلة المياه" وأشار إلى النهر الذي امتزجت ماؤه بدمائهم وأردف: "لقد سقطوا في أعماق النهر، منها جاؤوا وإليها يعودون".

في تلك اللحظة وصل أحد الضباط إلى قمة التل، يجلب أخبارًا. قال: "تم إبلاغ مارسيلوس بالتعليمات، أما الملك التوتوني... لقد توقف بنفسه".

أوما غايوس ماريوس برأسه قليلاً. لقد قضى للتو على تيوتوبود، الذي أوشك أن يتحول إلى حنبل آخر، ورأى أن موته لا يستحق منه أكثر من عبوس طفيف على وجهه. وقف سرتوريوس وباقي رجاله يراقبون ردة فعله على موت ذلك العدو المغتصب، وأشادوا به، أذ رأوا من خلاله كيف أنه عظيم... وسرعان ما ارتفعت صيحات الجنود: "ها هو الإمبراطور! ها هو الإمبراطور!".

لقد ظنوا قبل عدة أشهر أن القنصل الذي يقودهم جَبْن، لكنهم الآن يهتفون باسمه ويدعونه إمبراطورًا. وسرعان ما وصلت أخبار النصر العظيم إلى مجلس الشيوخ، ووصلت معها أخبار تلك الهتافات التي أثنت على غايوس ماريوس، قبل أي شيء آخر.

حرب جديدة تلوح في الأفق

حانة مطلة على نهر التيبير، روما، عام ٩٠ قبل الميلاد.

"أحياناً يا فتى، لا يعد النصر النهائي هو الانتصار الوحيد، رغم أنه مهم بلا شك، بل تعد منتصراً أيضاً في كل يوم آخر حافظت فيه على ضبط النفس، وصمدت أمام محاولات العدو لاستفزازك وإجبارك على التورط في قتال في الزمان والمكان اللذين قررهما هو، وليس أنت. هل تفهمني جيداً؟" تابع غايوس ماريوس وهو ينظر إلى ابن صهره بثبات.

"لا تلتفت إلى ما يقولونه عنك، يمكنك أن تتظاهر بأنك جبان دون أن تكون كذلك، كما يمكنك التظاهر بأنك أخرق وأنت لست غيبياً. الشيء الوحيد المهم هو الانتصار في النهاية، لا يهم إن وصفوك بالجبين، المهم ألا تتورط في قتال انتصارك فيه ليس مضموناً؛ لأنه بغض النظر عن أي شيء، بمرور الوقت، سوف يتذكر الناس شيئاً واحداً فقط وهو من انتزع النصر في نهاية المطاف، بينما كل التفاصيل ستمحى. تذكر ذلك يا فتى، ولا تقا تل مرة أخرى إن لم تكن قادراً على اقتلاع الفوز".

"حسنًا... أجاب قيصر، وهمّ بإضافة "يا سيدي"، لكنه غير الكلمة، يبدو أنه خشي غضب القنصل فقال: "حسنًا يا عمي". وبمجرد أن قال ذلك، رأى قيصر كيف أن سرتوريوس وبقية الجنود اتسعت حدقاتهم وتجمدوا في أماكنهم وحبسوا أنفاسهم. فحدق إليه القنصل وسأله: "هل قلت يا عمي؟" ثم التفت إلى رجاله وكررها بصوت عالٍ كي يسمعها الجميع: "يناديني بـ"يا عمي"" فدوى صدى كلمات ماريوس وسط صمت تلك الحانة المجاورة لنهر التيبير.

التفت إليه ماريوس يتصفح وجهه. بدا الصبي شاحبًا وكأنه على وشك الإغماء، شعر في تلك اللحظة بأن النبيذ الذي شربه قد ذهب بعقله. ثم فجأة، دوت ضحكة ماريوس عالية، قوية، مفعمة بالسعادة. حينها فقط استرخى قيصر، ولاينوس أيضًا، وشعرا بالارتياح، وكذلك سرتوريوس وبقية الضباط الذين رافقوا قائدهم. فانحنى ماريوس على الطاولة وقال له: "يمكنك مناداتي بعَمِّي متى شئت"، ثم التفت إلى لاينوس وأضاف: "أما أنت، فلستُ عمك، لكن طالما أنك تدعم ابن أخي، تصبح منًا". هز تيتوس لاينوس رأسه في امتنان، وتمتم: "شكرًا لك يا صاحب السمو".

أسند غايوس ماريوس ظهره مرة أخرى على مسند المقعد وتنهّد. تحدث مرة أخرى، لكن هذه المرة كان ينظر إلى كأس النبيذ الفارغة. لم يكن واضحًا هل يتحدث إلى ابن صهره، أم أراد توجيه كلامه إلى جميع الحاضرين، أم أنه فقط كان يفكر بصوت عالٍ: "آه، لقد حدثتكم عن التوتونيين، ولسوف أخبركما عن الكيمبريين وعن معركة فرشلة، لكن مجلس الشيوخ ينتظرني الآن، لذا أرى أن نؤجلهما للقاء آخر. ذات يوم سوف أقص عليكما ما جرى أثناء حصار نومانسيا؛ لقد تعلمت الكثير هناك، قضينا ٢٠ عامًا من الحرب، ٤٠٠ شهر من الحصار، آه، كم كانوا قساة!".

صمت القنصل لبرهة، بات أكثر شروذًا وتأملًا، ثم أضاف: "حسنًا، مجلس الشيوخ، إنهم يدعونني من أجل حرب جديدة، لا يتصل بي حزب الأوبتيميتس إلا عندما يتملك الخوف منهم. استدعوني أولًا بسبب الحرب في إفريقيا، ثم لمواجهة الجرمان والكمبريين، والآن لصد تمرد المدن الحليفة. إذا كانوا قد استمعوا إليّ وإلى غلاوسيا وساتورنينيو منذ عشر سنوات، أو قبلوا بمنح بعض الحقوق لسكان المناطق المتحالفة مع مدينتنا، مثل الجنسية والحق في التصويت، على الأقل فيما يخص الأمور التي تهمهم، لم تكن لتحدث انتفاضة مارس. ليتهم استجابوا إلى دروسوس الذي حاول مرارًا التفاوض معهم، لكن الأوبتيميتس قتلوا غلاوسيا وساتورنينيوس،

وأجبروني على المنفى، واغتالوا دروسوس أيضًا، حتى لم يعد ثمة بديل للحرب ضد المارسيين والحلفاء."

شعر قيصر بمزيج من الدهشة وخيبة الأمل، وسأله غير مصدق: "هل ستدعم الأوبتيميتس وتقاتل الحلفاء؟".

"لا يا فتى؛ بل أدمم روما، هذا أولًا، ومن بعده في ترتيب الأولويات تأتي مسألة تغيير السياسات في روما والأمور الأخرى. روما من أجل الجميع، لأعضاء مجلس الشيوخ سواء الصفوة منهم أو الداعمين للشعب، لطبقة الفرسان، وللعامّة، وللحلفاء أيضًا، لكن علينا أولًا الدفاع عن مدينتنا. عندما تحل الأزمات الخطيرة يجب تنحية الخلافات السياسية جانبًا، أولًا نحل الأزمة، ثم بعد ذلك يحين وقت السياسة. الأشرار والحمقى فقط هم من لا يحسنون تنحية مصالحهم الفئوية جانبًا حتى تنتهي الأزمات، وهذا ما حدث في أثينا عندما تفشى فيها ذاك الطاعون الخطير..." توقف القنصل، فبدأ وكأنه استعاد حماسه. نظر مرة أخرى إلى ابن صهره، وأردف: "إنهم يسخرون مني، أعني الأوبتيميتس، لأنني لا أجيد اليونانية، وهذا صحيح، لكنني أجيد قراءتها يا فتى. هل تعرف ما يقوله ثوقيديدس* عن الحرب بين إسبرطة وأثينا والطاعون الرهيب الذي دمر الأخيرة؟".

كان قيصر قد قرأ الكثير من النصوص اليونانية، ولكن معظمها مسرحي، إذ وجدها مسلية أكثر من البرديات التاريخية التي تحوي معلومات مكثفة، فأجابه: "لا، لا أعرف".

أحنى ماريوس جذعه قليلًا على الطاولة مرة أخرى، فلم يستطع سرتوريوس إخفاء نفاذ صبره. لم يرَ أن إبقاء مجلس الشيوخ منتظرًا لفترة طويلة فكرة جيدة، مع الأخذ في الحسبان مدى توتر الأوضاع في روما، المدينة التي اختبرها بالفعل في موجات سابقة من العنف الذي أطلق العنان

* مؤرخ إغريقي له أعمال مهمة للغاية، سُمي "أبو التاريخ العلمي" ومؤسس مدرسة الواقعية السياسية، إذ اهتم بالتطرق إلى الأمور الاقتصادية والاجتماعية في أعماله، ومن أشهرها: تاريخ الحرب البيلوبونيسية. (المترجم)

له، ولم يأمن غدرها منذ فشله في حراسة منبر العوام ساتورنينوس. عندما أحس السناتور المخضرم بالحاحه، رفع راحة يده اليسرى حتى يمنعه من قول كلمة واحدة، إذ أراد أن يستكمل حديثه عن اليونان: "كانت أثينا في حالة حرب ضارية مع سبارتا، وفي خضم تلك المواجهة، نفشى مرض رهيب، وباء حقيقي دمر المدينة وكانت مكتظة بالسكان، فلجأ معظمهم إلى الاختباء خلف أسوار أثينا هرباً من السبارتيين". بدا على القنصل التأثير الشديد بالأحداث، وواصل: "كان بريكليس هو زعيم أثينا عند بداية تلك الحرب، هل تعرفه يا فتى؟".

"أجل، لكن لا أعرف الكثير عنه" أكد الصبي.

"كان جندياً مهيباً وسياسياً عظيماً أيضاً. من المؤكد أنه أفضل مني في السياسة" ضحك، ثم أردف: "المهم أنه أدرك بسرعة ضرورة القضاء على هذا الوباء، لكنه توفي متأثراً بالإصابة. المغزى من تلك القصة، أو ما له صلة بما يحدث الآن في روما، هو أن بريكليس قد خلف من بعده قادة لا يتمتعون بالذكاء، وغير مهيين لإدارة الأزمات. وهؤلاء بدلاً من أن يوجهوا مساعيهم للحفاظ على مصلحة المدينة وشعبها، أي محاربة الوباء وإدارة الحرب على نحو مناسب، سعوا فقط إلى تكوين حُظوة لهم. ترى إلى ماذا أدى قصر نظر وغباء هؤلاء؟ فقدت أثينا ثلث شعبها بسبب الوباء، وهُزمت أمام سبارتا، وأبدًا لم تعد لما كانت عليه قبل الحرب. إنه نمط متكرر في التاريخ يا فتى، يعيد نفسه بشكل متواصل، ولا يبدو أن ثمة ما قد يمنع تكراره".

"ما قصدك بالضبط؟" سأل قيصر، كان يحاول استيعاب ما يقوله القنصل.

"أقصد الساسة الفسدة والحمقى، الذين لا ينظرون إلا إلى مصالحهم الشخصية، حتى إنهم، في بعض الأوقات، يستغلون الأزمات الناتجة عن حروب خطيرة أو تفشي الأوبئة، إما للوصول إلى السلطة أو للبقاء فيها دون النظر إلى عواقب طموحاتهم ومدى تأثيرها على معيشة وأحوال الشعب الذي يحكمونه. وقد يبلغ بهم التجبر مبلغه فيسعون إلى إطالة أمد الأزمات مهما بلغت قسوتها، طالما أن استمرارها يصب في مصلحتهم. وهنا، في

روما، يبدو الأمر كما لو أن التاريخ يعيد نفسه؛ فينشغل أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس بما يضمن لهم الانفراد بالسلطة أكثر من التفكير في الصالح العام. لكن روما محظوظة لأنني، غايوس ماريوس، فكرت أكثر في خير الجميع، في حل الأزمة، قبل أن أفكر في نفسي، وإن كنتُ مثلهم، أعني مثل الأوبتيميتس، لجلست مسترخياً دون أن أنتفض لأذود عن وطني بينما يحمل سكان مارس والشعوب الأخرى السلاح ضدنا ويحطمون دفاعاتنا. كنت سأواصل انتظار اللحظة التي أسيطر فيها على السلطة في روما مهما طال الأمد، لكنني يا بني لا أشبههم، بل ينشغل تفكيري بإيجاد حلول تضمن مواجهة الأزمة في أسرع وقت ممكن وتقليص أعداد الضحايا بقدر الإمكان، لهذا السبب سأذهب إلى مجلس الشيوخ اليوم. سوف أتعاون مع هؤلاء، مهما بلغت أنانيتهم وشرهم، وسأدعن ليس لطلباتهم، بل لما تمليه عليّ المصلحة العامة يا ابن أخي، سوف أقاتل من أجل روما وشعبها، ولمصالحه الأولوية قبل مصالح سناتورات الحزب المحافظ أو الداعمين لهم. هذا هو الفرق بين عمك والأوبتيميتس وهذا، يا فتى، يجب أن يظل دائماً الفرق بينك وبينهم. لقد استدعاني مجلس الشيوخ لأنهم يعرفون بأنني الأفضل في قيادة الحروب، رغم أن الاعتراف بذلك يؤلمهم كثيراً، وسأوافق على القتال في صفوفهم، ولكن ليس من أجلهم، بل سعياً وراء مصلحة روما، هل فهمت؟".

"فهمت يا عمي" أكد قيصر، ثم سأله: "لكن لماذا يكرهونك إلى هذا الحد؟ هل فقط بسبب الانتصارات التي حققتها؟".

"لا، ليس هذا فقط يا فتى، بل لأنني أثبتُ أن أبناء الشعب إذا ما سلّحوا ودرّبوا فإنهم لا يقهرون، لهذا يكرهونني، ولهذا يخشونني. لقد أظهرت ذلك في معركة أكواي سكستيا، ولهذا السبب لاحقوني بعد انتصاراتي على الجرمان والأمبرونيين والكيمبريين، لكنني حينها تحالفت مع غلاوسيا وساتورنينوس. من المؤكد أن والدتك أخبرتك بما حدث لهما بعد ذلك، لقد قتلا، وبقيت وحدي على قيد الحياة. هم يكرهون حقيقة أنني مازلت

حيًا، وبمجرد انتهاء الحرب ضد سكان مارس والحلفاء، سينقلبون ضدي، كما يفعلون في كل مرة".

بعد قوله هذا، وكى يتخلص من إلحاح سرتوريوس، ودّعهما، وأمر أكثر جنوده ثقة: "مُرّ دزينة من رجالنا بمرافقتكما حتى المنزل". فأوما سرتوريوس بطاعة. ثم وقف ماريوس، ودنا من الصبيين، فوقفا احترامًا وتبجيلًا له، وهمس لابن أخيه بوجه تشويه الكآبة الممسوحة بالحزن والمرارة: "أعتذر منك بشدة".

"ولمّ الاعتذار؟" سأله قيصر، لم يفهم بالضبط ما الذي يقصده.

"أعتذر لكوني عمًا لك" أجابه ماريوس بجدية بالغة.

"ولماذا تقول هذا؟ بل أشعر بالفخر لأنني ابن صهرك الذي تعتبره أختًا لك" سأل قيصر. حتى تلك اللحظة لم يفهم معنى تلك الكلمات.

تنهد ماريوس قبل أن يوضح مقصده، كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي سيقولها لقيصر الشاب قبل انقطاع لفترة طويلة. وبعدهما أراح يديه على الطاولة تحدث إليه بصوت خفيض، حتى لا يسمع ما قاله إلا ابن أخيه ولا بينوس: "أنت لم تفهم بعد البعد الحقيقي لما ستواجهه يا فتى. إن أعداءك، الذين هم أعدائي أيضًا، سوف يغفرون لك أي فعل تأتي به، باستثناء أمر واحد فقط؛ لن يغفر لك سولا أبدًا كونك ابن صهري، وكذلك دولابيل، ذراع اليمنى، كلبه الشرس. أعتذر منك يا فتى، عليك أن تتقبل مصيرك، ولسوف يتعين عليك إيجاد مسلك للتغلب عليه".

صمت ماريوس لبرهة، نظر إلى لا بينوس، ثم نقل بصره إلى ابن أخيه، وأردف: "رغم أنك حققت اليوم نصرًا عظيمًا حتى وإن كان صغيرًا".
"انتصار؟ أنا؟".

"لقد كسبت صديقًا اليوم، لقد قابلت اليوم من قد يشبه غايوس لايلوس في وفائه وحسن صداقته لسكيبو الإفريقي. أنا ماهر في كشف شخصيات الآخرين".

نظر القنصل إلى لابينوس، الذي اتسعت حدقاته وهو ينصت دون أن يرمش له جفن، وأضاف: "صديقك هذا لن يخونك أبدًا. يجب أن أذهب الآن، تذكر يا بني، احذر سولا، وإن شئت، فلا تواجه دولابيلًا أبدًا؛ إن شوكته تنمو بسرعة. عليك أن تكتسب القوة بسرعة أيضًا يا فتى، ليس ثمة ثانية يمكن أن تخسرها".

ابتعد غايوس ماريوس عن الطاولة واستدار، يتبعه سرتوريوس، ثم تقدموا فأحاط بهما ضباطه وقدامى المحاربين، وغادروا جميعًا الحانة حتى لم يبق فيها سوى صاحب الحانة، وقصر الشاب، وصديقه لابينوس و١٢ جنديًا سابقًا سيرافقونهما إلى المنزل.

"لن أصبح عظيمًا مثله أبدًا" تمتم قيصر. ثم ضغط على أسنانه وكرر: "أبدًا".

"أما بالنسبة للأمور الأخرى غير المتعلقة بالحرب، فقد تصرف كل من سيطر على الحكومة وفقًا لطموحاته، مما أضر بالمدينة وبصالحهم هم أيضًا. كانوا كلما أثمرت محاولاتهم يعود التكريم والنصر عليهم وحدهم. أما إذا فشلوا تلحق الأضرار والخسائر بالمدينة كلها".

ثوقديدس، تاريخ الحرب البيلوبونيسية، الفصل الثاني، عن حكام أثينا بعد وفاة بريكليس وسط جائحة حمى التيفود أثناء الحرب ضد سبارتا.

المحاكمة (٣)

فترة التحقيقات وجمع الأدلة

وفقا للقانون الروماني تُمنح فترة للمحامين للتحضير للمحاكمة وجمع الأدلة والشهود.

شهود الإدانة

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

"استطعت تفسير مقصد شيشرون مما قاله لنا في نهاية الجلسة التمهيدية" قال قيصر بنبرة مفعمة بالتفاؤل والحماس، لصديقه لاينوس، الذي استمع إليه باهتمام. كانت ثمة غيمة على وجهه، لم يلحظها قيصر لانشغاله بما وصل إليه حتى تلك اللحظة، وأردف: "يجب أن تكون مدعيًا عامًا بلا شك، هذا هو الشائع، أما أن يكون نفس الشخص هو موجه الاتهام والمخبر في الوقت ذاته، فهو أمر غير دارج، فالمخبر يشبه طفل صغير يركض لإخبار الكبار بأخطاء زملائه، الواشي مثل المتسلل مثل الحاسد. وعند اتهام عضو في مجلس الشيوخ، كما سنفعل مع دولابيل، فإن ما نسعى إليه هو إنهاء حياته السياسية، وعزله، وإبعاده عن الحياة العامة، وإذلاله، وتشويه سمعته". أمام شغفه وحماسه، نسي لاينوس، للحظة، الأخبار السيئة التي جاء بها واستجاب له.

"لكن، في الواقع، دولابيل هو أحد السيناتورات الفسدة، لذا فمن الواجب كشف حقيقته وفضح جرائمه. يجب أن نوقفه عن استكمال مسيرته السياسية، وإلا سنجد أنفسنا أمام سولا جديد، بل أشد تجبرًا".

"حسنًا، بالطبع يا صديقي، هذا هدفنا، ولا بد أن شيشرون يتفق معنا في هذه النقطة، لكنني على يقين من أنه قصد الكيفية؛ أي كيف نحقق هذا الهدف دون أن ننحرف عنه. توجيه الاتهام للمذنب من شأنه أن يجعلنا منبوذين؛ وعلى العكس، ينظر إلى الدفاع عن حقوق الآخرين على أنه عمل

بطولي. محاكمة دولابيللا استثنائية، فنحن نعلم أنه الأقوى، ويمتلك القدرة، ونعرف أيضًا أن أغلب أعضاء هيئة المحكمة التي سُكلت من سيناتورات الأوبتيميتس، فسدة مثله، وأنهم منحونا أربعة أشهر لترتيب الأوراق، ليس لتسهيل جمع الأدلة ضده، وإنما لأنهم فقط أرادوا انتظار عودة زعيمهم، ميتيلوس، من هسبانيا كي يترأس المحكمة. كما أنني متأكد أن الأوبتيميتس يتصرفون وفقا لرغبات دولابيللا، فهو لن يسمح بنهايات فضفاضة، بينما ميتيلوس يواصل محاربة سرتوريوس، هل تذكره؟ الذراع اليمنى لعمي ماريوس، الذي عزز حصونه في شبه الجزيرة الأيبيرية، ويواصل التمرد العسكري".

أوما لاينوس برأسه، تذكر سرتوريوس بوضوح، كان رجلاً شجاعاً من جحافل ماريوس، عُدَّ الأكثر بسالة من بين رجاله.

"وقع اختيارهم عليّ لأصبح موجه الاتهام، بدلا من شيشرون، لأنهم واثقون من أنني أسوأ منه، ومن ثم أقل خبرة. وعلى الجانب الآخر، اتفق دولابيللا مع خالي كوتا وهورتنسيوس، وهما من أفضل المحامين في روما. إنه الطرف الأقوى، لكن أمام الناس في المحكمة، هو المتهم، لذا يبدو وكأنه هو الطرف الأضعف، بينما أنا من وشى به، من خانه، من أراد تشويه سمعته لمحاباة غير الرومانيين. لكن لا، ليست هذه طريقة تكسبني الشهرة والصيت بين العامة، لا، هذا لا يمكن، بحق جوبيتر، يجب أن نجد مسلكاً يرى من خلاله شعب روما أننا ندافع عن قضية عادلة وشريفة".

"من العدل والشرف فضح الرجل الفاسد ومحاولة إبعاده عن السلطة".

"نعم، لكننا هكذا نظل داخل دائرة موجهي الاتهام. المفترض أن نظهر أنفسنا بصفتنا مدافعين عن شيء أو قضية ما، لذا؛ سأقدم نفسي أمام هيئة المحكمة كمُدافع عن المقدونيين، لتنتقل مرافعتي استنادًا إلى مبدأ أنهم شعب مستقيم يلتزم بسلطة روما، وأمام ظلم الحاكم آثروا اللجوء إلى القانون، قانوننا، الذي خضعوا لسلطته خضوعًا تامًا، ولم يتمردوا رغم أن ثمة أسبابًا معقولة يمكنهم استغلالها للترويج لانتفاضة، لذا فهم يستحقون

أن ندافع عن حقوقهم. سأكون أنا محامي الدفاع عنهم، وسأوجه الاتهامات إلى دولابيللا، وسأمزقه أثناء المحاكمة، لكن محاولاتي تلك لن يكون غرضها الهجوم، بل الدفاع عن انتهاك حقوقهم، هل تفهمني؟".

هز لاينوس رأسه قبولاً بتأني، وهو يسير متثدًا في ردهة منزل عائلة جوليا. وبعد تفكير لبرهة قال: "نعم، أفهمك بوضوح، كلامك معقول". ثم هبت الغيمة على وجهه مرة أخرى، فأضاف وقد بدا على ملامح وجهه مدى قسوة ما يخبئه بداخله: "لكن... من المؤسف أن أدواتك للدفاع.. تتقلص شيئًا فشيئًا".

"ماذا تقصد؟ ولماذا تبدو حزينًا للغاية اليوم؟".

توقف لاينوس عن السير، وتطلع إلى صديقه قائلاً: "لدي أخبار سيئة للغاية".

"أخبرني بها".

دعاه قيصر للجلوس.

"فيتوس، المهندس الذي وافق على الإدلاء بأقواله التي تدين دولابيللا، وقرر أن يكشف أمام المحكمة أنه لم يتلق أي أموال منه رغم الضرائب التي فرضها بزعم توفير المبالغ اللازمة لتحسين حالة الطريق...".

"حسنًا، تقصد المبالغ التي استولى عليها دولابيللا. نعم، إن شهادته مهمة للغاية ومفصلية بالنسبة لنا، ما خطبه، ماذا جرى؟" قاطعه قيصر بنفاد صبر.

أجابه لاينوس بسرعة، لا جدوى من تأخير النطق بالأخبار السيئة: "عُثر عليه مقتولًا في منزله اليوم".

"كيف؟".

"طعنوه!".

أخرج لاينوس من بين ثنايا التوجا، خنجرًا لُطخ نصله بلون أحمر مائل إلى السواد، ووضعه على الطاولة. كانت لا تزال آثار الدماء الجافة عليه، وقال: "قتلوه بهذا".

عبس قيصر وأظهر ابتسامة ساخرة.

"بحق جوييتير! لم يكلفوا أنفسهم عناء التظاهر بأنه قتل في حادث".

لم يستفق قيصر من الصدمة، لكن صديقة آثر أن يكمل باقي ما في جعبته من أخبار مؤلمة: "هذا ليس كل شيء، لقد تلقيتُ رسالة من المقدونيين، بتوقيع بيرديكاس. عندما مكثتُ أنت الفترة الأخيرة في منزلك الريفي، أرسلوها إليّ أنا، مفادها... أن كاهن معبد أفروديت في ثيسالونيكى، الذي كان قد وافق على القدوم إلى روما للإدلاء بشهادته أمام هيئة المحكمة... عُثر عليه مقتولاً داخل المعبد، قبل بضعة أيام".

"قتلوه هناك في مقدونيا؟"

"نعم، في مقدونيا."

ضغط قيصر فكيه، بلغ قمة الدهشة: "هل وصل قتلة دولابيل إلى هناك".
"انظر إلى الصدفة؛ لقد قُتل أهم شاهدين لديك، والأكثر مصداقية، بعد أسابيع قليلة من إعلانك عن أسمائهم في الجلسة التمهيدية. لقد ذكرت أسماءهم كي تقوي موقفك أمام هيئة المحكمة، وبفضل هذا تم اختيارك".

التزم قيصر الصمت لبضع لحظات. لحسن الحظ لم يكشف عن جميع شهوده خلال الجلسة التمهيدية، ثم غمغم قائلاً: "كان الإعلان عن أسمائهم خطأ ارتكبته. لقد فعلتُ ذلك عن قصد، تمامًا كما تظاهرت بأنني أخرق إلى أقصى درجة، فقط كي يقع اختيارهم علي لظنهم أنني فوضوي للغاية. لقد افترضت بالفعل أنهم سوف يستغلون هذه المعلومات ضدنا، لكن ذهب أقصى تفكيري إلى أنهم سوف يستخدمونها لإعداد استجابات وافية لهما، أو مثلاً الاتفاق مع آخرين كي يفتندوا أقوالهم، ولم يدر بخلدي ولو للحظة أن الأمر قد يصل إلى درجة القتل بهذه الوحشية".

ساد صمت آخر.

"هذا أمر خطير" قال لابينوس.

"خطير للغاية".

تذكر قيصر تحذير عمه ماريوس له مرارًا وتكرارًا من وحشية دولابيل والخطر الذي قد تنطوي عليه مواجهته. الآن، فجأة، بدا أن صدى كل تلك التحذيرات يتردد في رأسه دفعة واحدة.

بقي الصديقان صامتين لبعض الوقت، قيصر غارق في التفكير، ولاينوس يبحث عبثًا عن حل بديل بعد موت الشاهدين، حتى غلفهما شعور بالوحشة.

"هل توصلت إلى مخرج؟" سأل لاينوس.

"حسنًا، لدينا شاهد ثالث، ولحسن الحظ لم أذكر اسمه في الجلسة التمهيدية".

"لا يكفي" أجابه صديقه بمرارة وبصراحة في نفس الوقت، موضحًا: "إنها امرأة، أنت تعلم أن هورتنسيوس وكوتا سيفتكون بمصداقيتها بسهولة، كما أنها لا تزال فتاة شابة، حديثة السن، لن تتحمل الضغط... وحتى لو تحملت، قد يعيث استجواب المحامين بما لاقته من وحشية".

"أعلم ذلك، لكن ما تكشفه تلك الفتاة ميرتل، يندى له الجبين، كما أنها فتاة أرستقراطية من العاصمة وليست جارية، لذا قد تتحرك الضمائر تأثرًا بما سوف تدلي به من أسرار. على أي حال، أعرف جيدًا أن شهادتها ليست كافية، ومع ذلك يجب حمايتها، والسعي من أجل التوصل إلى شهود آخرين ليحلوا محل اللذين قُتلا. هل المقدونيون لا يزالون يحرسونها؟".

"لا تبرح مسكنها أبدًا، إنهم مدججون بالسلاح، ومن أراد الوصول إلى الفتاة عليه أن يقتلهم جميعًا أو لا" أجاب لاينوس.

"حسنًا، لقد منحونا أربعة أشهر من أجل إعداد ملف الاتهام" تابع قيصر بثقة، مستعيدًا طاقته بعد صدمة الأخبار السيئة، وأردف: "كما قلت، لقد فعلوا ذلك لإتاحة الوقت لميتيلوس للعودة ورئاسة المحكمة، لكنني أخطط لاستغلال كل دقيقة. لقد ارتكبوا خطأ هنا".

"بمنحك فترة طويلة؟".

"بمنحي فترة طويلة، وبقتل المهندس والكاهن بهذه السرعة. لو كانوا قتلوهما في نهاية فترة التحقيق، لحرمتنا الشهود والفرصة لإيجاد من يحل محلهم".

"تعني أنهم قتلوهما مبكرًا...؟" علق لاينوس، الذي بدأ يفتن إلى ما يرمي صديقه إليه.

"بالضبط، بحق هرقل، وهذا يمنحنا الوقت للعثور على شهود جدد".
"شهود جدد؟".

"بالضبط".

حدق إليه قيصر بعينين تبرقان بوميض الحماس وسأله: "ما رأيك أن ترافقني في رحلة؟".

"إلى أين؟".

بدا الأمر بديهياً.

"إلى مقدونيا".

طريق إغانتيا*

شبه الجزيرة الإيطالية، في الطريق نحو مقدونيا، عام ٧٧ قبل الميلاد.

منحهم أربعة أشهر أتاح فرصة كافية للبحث في القضية وتجهيز أدلة الإدانة والشهود، لكنها اعتبرت فترة قصيرة إذا ما رغب المرء في الذهاب إلى نيسالونيكى والعودة منها في الوقت المناسب قبل موعد الجلسة المقبلة، وهي جلسة الطعن. في الصباح التالي لحديثهما، غادر قيصر ولاينوس، وسارا في طريق أيبا جنوباً، للوصول إلى ميناء إبرندس. امتطيا الخيل، إذ أرادا الوصول بأقصى سرعة، واصطحبا معهما عددًا قليلاً من العبيد واتفقا مع مجموعة مُجالدين** سابقين لمرافقتهم، لأن السفر دائماً يحمل جانباً من الخطورة. وكذلك رافقهم مهندس مخضرم من روما، اسمه ماركوس، ارتاب منه لاينوس في بداية الرحلة، فسأل قيصر عنه: "لماذا أحضرته معنا؟".

"أخبرتك أننا بحاجة إلى شهود جدد، وشهادة هذا المهندس ستحل محل زميله الذي قُتل. نحن بحاجة إلى مهندس ليشهد بأن حالة الطريق تؤكد أنه لم يُنفق سيسترتيوس*** واحد لترميمه منذ سنوات".

أوما لاينوس برأسه. لكن ثمة شيء ما ظل غير مفهوم بالنسبة له، فسأل: "وكيف أقنعته بأن يدلي بشهادته، وأن ينخرط معنا في هذا العبث. سوف يعرف قريباً ما حدث مع زميله في المهنة".

* انظر إلى خريطة طريق إغانتيا.

** يعرفون باسم رجال السيف في روما القديمة، يقاتلون رجالاً أو وحوشاً لإمتاع الجمهور. (المترجم)

*** عملة يونانية قديمة، كانت تصنع من النحاس خلال الإمبراطورية، ومن الفضة في ظل الجمهورية الرومانية، وتصدر في مناسبات نادرة. (المترجم)

"عانى كثير من المقاولين من الإفلاس والأوضاع المعيشية الصعبة بسبب قرارات سولا بمصادرة ممتلكات أعدائه السياسيين، وكان دولابيلاً أبرز الداعمين له. لنفترض أن ماركوس يرغب في رد الضربة لدولابيلاً، فما يُخشى عليه قد خسره بالفعل".

تطلع لابينوس إلى صاحبه لبرهة، فوجد في عينيه بريقاً. لا يزال قيصر، لسبب ما لا يعلمه، يعتقد أنه يمكن الحكم على دولابيلاً في محاكمة داخل روما، على الرغم من معرفته بحقيقة أن أعضاء هيئة المحكمة دُفع لهم مقابل البراءة. كما أن من سيرأس المحاكمة عينه الأوبتيميتس أنفسهم، وأن محامي الدفاع كانا من الأفضل في روما.

بعيداً عن كل هذا، وبكل وضوح، انتشرت عدوى الحماس.

وصلوا إلى ميناء إبرندس، ومن هناك ركبوا أول ثلاثة مجاديف* وجدوها متاحة، حتى وصلوا إلى ميناء دراس، على الساحل المقدوني، على الجانب الآخر من البحر الأدرياتيكي.

كانوا يبحرون شمالاً، تضرب رياح البحر وجوههم، بينما جلس قيصر وصديقه يتحدثان. سأله لابينوس: "هل ستطعن ضد أي من قضاة المحكمة؟" ثم أعاد السؤال بصيغة أخرى "هل فكرت في الأمر؟".

"ثمة قاض واحد فقط أرغب في استبعاده، كلهم سناتورات وجميعهم يؤيدون دولابيلاً، لكن علينا أن نستبعد رأس الأفعى".

"هل تقصد ميتيلوس" سأله لابينوس، وكان في غاية الدهشة: "ومن يُترأس المحكمة من بعده؟".

"نعم، ميتيلوس" كرر قيصر بثقة.

"وكيف تخطط للقيام بذلك؟".

"لا أعلم، يجب أن أتحدث إلى شخص ما أولاً".

"مع مَنْ؟".

* نوع من السفن الرومانية. (الترجم)

"مع أمي، إنها من بين كل من عرفتهم في روما تبقى الأكثر ذكاء و فطنة،
أحتاج إلى مشورتها".

لم يتفاجأ لاينوس بهذه الإجابة. كان يعلم قدر إعجاب قيصر بوالدته،
تمامًا كما كان على دراية بحكمة أوريليا وذكائها. ومع ذلك، بدا له أن صديقه
وضع الكثير من الأمل في نصيحة امرأة، لكنه فضل عدم التعبير عن شكوكه
حيال الأمر. بقي الاثنان في صمت، يتطلعان إلى الأفق بحثًا عن السواحل
المقدونية، حتى غربت الشمس، فنزلا إلى القمرة ليستريحا بعض الوقت.
عند الفجر جاء أحد العبيد لإيقاظهما، وأخبرهما بأن السفينة قد اقتربت من
الساحل المقدوني.

حطت السفينة في دراس وامتطوا مرة أخرى ظهور الخيل نحو طريق
إغناتيا. كانت المدينة الساحلية الصاخبة هي المدخل إلى الطريق الروماني
المؤدي إلى الشرق، حتى وصلوا إلى كلوديانا (حاليا بجين في ألبانيا)، التي
كانت في ذلك الوقت مجرد معسكر مصغر للجنود، لكن يمكن للمرء قضاء
ليلة فيها تحت حماية القوات الرومانية المتمركزة هناك...

في اليوم التالي واصلوا التقدم نحو ماسيو سكامبا* ثم إلى إيلبسان،
وهناك تناولوا الطعام في حانة بالقرب من شاطئ بحيرة مياهها صافية،
سميت المدينة على اسمها. بيد أن الطرق كانت في حالة مزرية؛ إذ كان كثير
من ألواح البلاط إما محطمة أو مفقودة، وربما تمت سرقتها لاستخدامها
في رصف أرضية البيوت المجاورة أو بعض المباني الريفية أو الحضرية
الأخرى، والأسوأ من ذلك هو أن كثيرًا من أجزاء الطريق لم تكن مُحَصَّبة،
وبها نتوءات غائرة لدرجة أنه شاع أن تعلق عجلات العربات أثناء السير،
وتسبب هذا الوضع في عرقلة نقل البضائع عبر الطريق أيضًا. لذا كان التقدم
على ظهور الخيل أو التمرجل أفضل السبل للتمكن من السير عبر هذا الطريق،
الذي نسيه الحكام أو تناسوه.

* تعرف باسم بكين، وتقع في ألبانيا.

عكف ماركوس على ملاحظة الأضرار التي لحقت بالطريق بدقة متناهية، كما حرص قيصر على إطلاعه على ما يلفت انتباهه؛ إذ أراداً تجميع أكبر عدد من البيانات التي تدين دولابيلاً. كما ركز، على وجه الخصوص، على الجسور التي وصلت إلى حالة سيئة للغاية، والانهيارات الأرضية في المناطق التي يكثر فيها الجبال، والصخور التي جعلت الطريق غير صالح لمرور المارة.

بعد ذلك انصرفوا جهة الشرق وواصلوا التقدم.

مروا في طريقهم بمناطق بهيراكليا لينكستيس وفلورينا وإديسا، عبر طرق سيئة ومهملة بشكل لافت. شق عليهم مواصلة التقدم نحو العاصمة، رغم أن تلك الطرق صممت بعناية بواسطة البناة الأوائل، لكن الإهمال المتعمد لصيانتها على مدار السنوات الأخيرة، وخاصة خلال فترة ولاية دولابيلاً أوصلتها إلى تلك المرحلة المزرية.

مروا عبر كل تلك المناطق دون توقف إلا للتزود بالماء والطعام، حتى وصلوا إلى مدينة بيللا، عاصمة مقدونيا القديمة إبان حكم الملك فيليب الثاني المقدوني، والد الإسكندر الأكبر. وهناك أراد قيصر قضاء ليلتين، للتجول بين أطلال المدينة العظيمة.

قاد رفيقه عبر المباني التي دمرها الرومان أثناء حروبهم ضد المقدونيين واليونانيين قبل قرن من الزمان، وبقيت منذ ذلك الحين كما هي؛ إذ لم يشأ أحد ترميمها، كما لو أن روما لا تزال تخشى كارثة نهضة تلك العاصمة القديمة والقوية من جديد. لذلك، وكما حدث مع قرطاج الأسطورية، ظلت بيللا مدمرة وبقيت قيد النسيان لعقود. ومع ذلك، ونظرًا لمكانتها العالية لا تزال مثيرة للإعجاب حتى وإن ظلت تحت وطأة الهجر والنسيان.

"هنا عرض يوربيدس أعماله في آخر أيام حياته" أوضح قيصر لصديقه وهما يمران بجوار القصور الفخمة المغطاة بالنباتات، ويحدقان في جدرانها المتصدعة وحوائطها نصف المهدامة، وتلا عليه بضع مقاطع من مسرحية

"هيلين" لنفس الكاتب: "ما أشد حمقكم إذ تسعون إلى تحقيق الشهرة بالقتال وإثارة الحروب، ظناً أن إعمال القوة هو الحل. بيد أن الصراع الدموي أبداً لن يفضي إلى إنهاء الخلافات".

"هذا ما قاله يوربيدس عن الصراعات والحرب، يا صديقي. لا يمكننا ولا ينبغي لنا أن نحل كل شيء بقوة السلاح؛ وهنا يبرز دور العدالة والقوانين، وهذا ينطبق على الوضع الذي نحن بصدده".

لاحظ قيصر أن لاينوس لم يتأثر كثيراً بما طرحه عليه من اقتباسات ليوربيدس، لذا أضاف شيئاً آخر يميّز المدينة: "درس أرسطو هنا أيضاً. وهنا، في هذه المدينة التي نسير على أرضها الآن، ولد الإسكندر الأكبر".

لم يهتم لاينوس كثيراً بالحديث عن الكاتب المسرحي اليوناني الشهير أو الإشارة إلى الفيلسوف العبقري، إلا أنه بدأ ينظر إلى أطلال تلك المدينة، المهجورة والمدمرة، بعيون مختلفة بمجرد الإتيان على ذكر اسم الإسكندر المقدوني. سأل بدهشة: "هل ولد الإسكندر هنا حقاً".

على جانبي الطريق، وكلما دخلت إلى أحد المنازل نصف المدمرة، ترى لوحات من الفسيفساء بألوان لامتناهية تظهر مشاهد أسطورية. ففي وقت الأحداث لم تكن المدينة ميتة، بل كانت روحها كامنة فقط، مثل عملاق ينتظر أن يستيقظ في لحظة ما، ربما في المستقبل البعيد، لا أحد يعرف متى قد يحدث ذلك على وجه الدقة.

"عاجلاً أم آجلاً، سيتعين علينا إعادة بناء هذه المدينة"* أضاف قيصر. بعد ذلك انضموا إلى العبيد، والمهندس وواصلوا طريقهم شرقاً، حتى وصلوا إلى ثيسالونيكي في نهاية المطاف.

صحيح أن الرحلة كانت مفيدة للغاية بالنسبة لهم؛ إذ تمكنوا من تجميع بيانات من شأنها إثبات سوء إدارة دولايلا للمقاطعة، لكن القلق من ألا يسعفهم الوقت اعتراهم. حسب قيصر أن رحلة العودة سوف تستغرق

* رمم الإمبراطور أوغسطس، خليفة قيصر وابن أخته، هذه المدينة فيما بعد.

وقتًا أطول من رحلة الذهاب، وكان يعلم أنه لا يزال أمامه مهمتان يجب إنجازهما قبل موعد الجلسة؛ الأولى هي التوصل إلى شهود من أبناء الطبقة الأرستقراطية في المدينة على استعداد للإدلاء بأقوالهم أمام المحكمة، والثانية؛ مواصلة فحص طريق إغناطيا حتى بيزنطة للتأكد، دون أي مجال للشك، أن دولابيللا تلاعب بأموال الضرائب التي فرضها بدعوى أعمال الترميم، بينما الحالة العامة للطريق لا تزال مريعة لدرجة مفرعة، الأمر الذي يؤكد أن الطريق لم يشهد أعمال ترميم على مدار السنوات الأخيرة.

"إتمام مهمة واحدة، ثم البدء في الثانية قد يستغرق الكثير من الوقت، بحق هرقل" قال قيصر. بدا منزعجًا إلى حد ما، تملكه الندم لأنه أضاع الوقت وفضل قضاء يوم إضافي في بيللا، أنب نفسه لأنه سمح لشغفه بأن يجرفه بعيدًا عن هدفه.

"هل تثق في ماركوس؟" سأله لابينوس.

"نعم، إلى حد ما".

"دعه يستكمل السير عبر طريق إغناطيا ليفحص حالته، بينما نبقي أنا وأنت هنا من أجل مهمة التوصل إلى شهود على جرائم دولابيللا، وعلى وجه الخصوص، نهب معبد أفروديت، إذ ركّز المقدونيون على هذه التهمة. كما أن ما حدث لتلك الفتاة النبيلة، ابنة أحدهم، مهم للغاية".

جلس قيصر على أحد المقاعد. أسند مرفقًا واحدًا على الطاولة، بينما يمرر يده على شفتيه.

كانوا قد نزلوا ضيوفًا في أحد منازل مقدونيا؛ إذ حملوا خطابات من طرف آيروبوس وبيرديكاس، تُبلغ الطبقة الأرستقراطية في المدينة بأن أحدهم هو المُتَّهَم الرئيس في القضية ضد دولابيللا. لكن المقدونيين استقبلوهم ببعض الغلظة، أو ربما بعدم اليقين والشك. لكن قيصر لمح بصيصًا من الأمل في أعين بعضهم ممن تحدث إليهم. لم يعد المقدونيون يثقون في أي شيء أو شخص قادم من روما، إلا أنهم في نفس الوقت كانوا يتوقون إلى الانتقام من

دولابيللا، لذا، فالأمر سيان سواء تحقق أم لمهم على يد شخص روماني أو أي شخص آخر، المهم أن يتحقق.

"سأثق به أكثر إذا رافقته أنت" قال قيصر لصديق الصُّبا، وأردف: "لقد استقبلونا هنا على نحو جيد، ولا أعتقد أنني سأواجه أي مشكلات إن استكملت المهمة بمفردي، وفي غضون أيام قلائل سوف أتمكن من إقناع أحدهم بمرافقتنا إلى روما والإدلاء بشهادته ضد دولابيللا. لا بد من العثور على كاهن مخضرم، دائماً ما تُقابل شهادة الكاهن أمام المحاكمة باحترام بالغ".

"لا شك أن هذا هو السبب الذي دفعهم إلى طعن الكاهن الذي وافق على القدوم إلى روما للشهادة ضد دولابيللا" علق لاينوس.
"بالضبط".

"بالمناسبة، في الصباح أحضروا لي خنجراً وجدوه محشوراً في جسد الكاهن. لقد تركته في الردهة، مقبضه يشبه ذاك الذي استخدم لقتل المهندس في روما".

تنهد قيصر، وأوماً برأسه. كانت تلك الخناجر، تجعله يشعر بأنفاس دولابيللا تقترب من قفا عنقه.

"حسناً" قال لاينوس، وجلس إلى جواره. حاول تغيير الموضوع إذ شعر كيف أن تلك المعلومة أثقلت كاهل صاحبه، فأضاف: "إن كنت تفضل ذهابي مع المهندس، أفعل". ابتسم قيصر وربت على ساعده، وقال: "حسناً يا صديقي، أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب معه، أريد أن تصلا إلى إيبساللا (حالياً في تركيا) الواقعة في مقاطعة تراقيا. ليس من الضروري الوصول إلى بيزنطة، ولا يسمح الوقت بذلك أيضاً، هذا من شأنه أن يعطلنا. المهم هو التحقق مما إذا كان طريق إغنتايا في حالة سيئة خارج ئيسالونيكى، وهذا ما يهمني، وملاحظة ما إذا كان عند عبور الحدود الشرقية للمقاطعة، أي آخر نقطة في المنطقة التي حكمها دولابيللا على مدى السنوات الماضية، تتحسن

حالة الطريق. تلك الملاحظات سوف تكشف الحقيقة، هل يمكنك أن تفعل هذا من أجلي يا صديقي؟".

"غداً عند الفجر ننتقل" أكد لابينوس.

"رائع".

نهض قيصر ونظر إلى العبيد، ففسروا ما يريد وجلبوا له النبيذ والطعام على الفور: "لا يزال أمامنا الكثير من الوقت للاستمتاع بعشاء مناسب، بعد سفر لأيام طويلة عبر طريق من أسوأ الطرق التي مررت بها على الإطلاق في حياتي".

الحزن في نظرة العجوز

منزل العجوز أورستس، ثيسالونيكي، مقدونيا، عام ٧٧ قبل الميلاد.

أشار أشرف ثيسالونيكي وكل من تحدث معهم قيصر إلى رجل بعينه، إلى العجوز أورستس. بدا أنهم جميعًا مفتونون به، سواء الأرستقراطيين الأغنياء أو العامة في الأسواق أو الحانات، لذا، توجه قيصر إلى منزله لمقابلته. لم يكن المنزل شديد الفخامة، ولا يحتل موقعًا متميزًا، لكنه، على تواضعه، عمّه جو من الهدوء والسكينة. خرج العجوز إلى زائره الروماني على الفور، وقدم نفسه بأوضح طريقة: "أنا أورستس".

"وأنا غايوس يوليوس قيصر" أجابه قيصر، دون ألقاب. حاول أن يحدو حدو مضيفه، كما أنه، وبالنظر إلى حداثة سنه، بدا له أن الإتيان على ذكر أنه مواطن من روما والمُتَّهَم نيابة عن المقدونيين في القضية المرفوعة ضد دولابيللا قد يفسر على أنه غرور منه، بقدر ما كان غير ضروري. لقد بات جميع من في ثيسالونيكي يعرفون مَنْ هو وماذا يفعل.

"هل أحضر لك كوبًا من الماء أم كأسًا من النبيذ؟" رحَّب العجوز الثيسالونيكي بضيفه، ودعاه إلى الجلوس على أحد المقاعد وسط الفناء المتواضع والنظيف والهادئ.

"الماء فقط" أجاب قيصر؛ محاولًا مرة أخرى أن يبدو ملتزمًا بالاعتدال في عاداته.

"أحضر الماء والنبيذ" خاطب أورستس أحد الخدم، وجلس على مقربة من ضيفه.

"سأشرب كأسًا من النبيذ وأدعوك للانضمام إليّ إن كنت تحب مشروب ديونيسوس الجيد. حقيقة أنا أعتمد التقشف في حياتي كلها، لكنني استسلم أمام بعض الأهواء. في مثل عمري هذا، لم يعد كثير من الشهوات متاحًا لي، لذا؛ أتسامح مع نفسي عندما يتعلق الأمر بكأس عرضية".

"أرافقك بكل سرور".

قَدَّمَ الكأسان فشربا.

"إنه نبيذ ممتاز حقًا" علّق قيصر بينما يرتشف كأسه على مهل.

"إنه كذلك" أكد أوريستس. ثم فجأة غام وجهه، وضع الكأس على منضدة قريبة من متناول يده، وأضاف بجديّة: "لكن ما أتى بك إلى منزلي ليس التميز".

"لا" أجاب قيصر، دون أن يتمكن من تفسير كلمات مضيفه بدقة.

"لأنه ليس ثمة تميز في قضيتك، فمن جانب، من الواضح أن الجرائم التي تحقق فيها شديدة الحقارة؛ بداية من انتهاك الحقوق إلى نهب معبد أفروديت، واختلاس مبالغ مالية وفرض ضرائب ملفقة. وعلى الجانب الآخر، مازلت شابًا. يبدو أن مبعوثي المقدونيين لم يتمكنوا من التوصل إلى موجه اتهام بارع في تميزه. بلغني أن هذه أول مرة تتولى المرافعة في محاكمة".

توقف قيصر عن الشرب. وضع كأسه على طاولة صغيرة إلى جواره بعناية، ثم قال: "إنها محاكمتي الأولى. الأخبار التي وصلتك صحيحة. لكنني أحاول تعويض نقص خبرتي بالعمل الجاد والتفاني في بذل الجهد والتعامل مع القضية بنبل وروحي، وأبحث عن أفضل الشهود، حتى يدفع دولابلا ثمن جرائمه الحقيرة التي ارتكبها في حق هذه المقاطعة وسكانها باهظًا".

"مجيئك إلى هنا يشهد على تفانيك. لكن أخبرني المزيد عن النبل الروحي الذي أشرت إليه".

ارتعشت جفون قيصر. لم يتوقع أن تسير المحادثة على هذا النحو، بل اعتقد أنهما سيركزان على الحديث عن نهب دولابيليا بشكل غير قانوني لمعبد أفروديت، الذي كان العجوز كاهناً له، ومناقشة مدى استعداده للسفر إلى روما للإدلاء بأقواله في القضية. إنها رحلة طويلة عبر طريق مروع، كما اكتشف قيصر ورفاقه على مدار الأسابيع الأخيرة، ومن ثم ستكون شاقة وصعبة أكثر بالنسبة إلى شخص طاعن في السن مثله. ولكن، بدا أن مضيفه هو الذي يختبر قدراته، بدلاً من أن يكون هو الشخص الذي يدرس مدى أهلية الكاهن.

ومع ذلك، قرر أن يجيب على سؤال العجوز؛ إذ أيقن أن بناء علاقة تركز على الثقة المتبادلة معه تجعله أكثر استعداداً لسرد جرائم دولابيليا في الباسيليكا. وكان يدرك قيمة أوريستس لأن الجميع في تلك المدينة شهدوا له بالسيرة الحسنة وانضباط السلوك. لكن العجوز، على العكس، لم يكن يعرف عن قيصر أي شيء.

"أعني بنبالة الروح الميل إلى النضال من أجل العدالة، عدالة شاملة، أي أن الجميع على قدم المساواة، سواء أكانوا أقياء أو ليسوا كذلك، الرومان وغير الرومان ممن يخضعون لقوانين روما. بالنسبة لي، يمثل دولابيليا كل ما يتعارض مع هذه النبالة؛ إنه سناتور، لكنه عندما حكم هذه المقاطعة، استغل سلطته في الابتزاز والنهب ووصل به الأمر إلى اغتصاب فتاة، دون أن يخشى عواقب جرائمه تلك، إذ حرّكته شهوة السلطة والثروة والمتعة. أحلم بروما عادلة، عادلة مع الجميع، وأسعى لتحقيق هذا الحلم، وحتى إن اضطررت إلى مواجهة أعضاء مجلس الشيوخ الفاسدين ومن هم على شاكلة دولابيليا. أفعل ذلك دون أن يرتجف معصمي أو تضعف عزيمتي مهما بلغت المصاعب".

"نبالتك تحفزني، لكن سذاجتك تؤلمني. أقول لك يا بني، إن حافظت على تلك النبالة حتى تشيخ مثلي وتصبح كهلاً، من المؤكد أنك ستكون حينها قد حققت إنجازات عظيمة دون أدنى شك. لكن الأرواح النبيلة عادة

ما تتوقف سريعاً عن التصرف وفقاً لتلك القيم، أو إنها...". توقف، يبدو أنه أمعن التفكير بحثاً عن كلمة لا تبدو قاسية للغاية، ثم أردف: "... يتم الإطاحة بها. لذا، فإنه إما سيتخلصون منك في سن مبكرة، أو أن تتروى وتعيد التفكير في الأمر. وأعتقد أن الخيار الأول أكثر راحة".

"لماذا تفكر بهذه الطريقة؟" سأله قيصر باستغراب.

انحنى أوريستس إلى الأمام ووضع يده على أذنه وسأله بصوت مرتفع: "هل قلت: لماذا تفكر بهذه الطريقة؟"، وكأنه لم يسمعه. لكن قيصر لم يعر ضعف سمع محدثه اهتماماً.

"ألا تدرك أنك بتّ في نظرهم ملعوناً بمجرد موافقتك على تولي أمر هذه القضية، سواء فزت أو خسرت؟".

قوّس قيصر حاجبيه وسأله مستفسراً: "كيف ذلك، وهل يتساوى الفوز بالخسارة؟".

حينها شعر أوريستس بأنه أشبه بالفيلسوف أرسطو ينير عقل شاب طموح ليصبح إسكندر آخر. لكن ذاك الطموح لم يُقدر قوته بدقة، واندفع إلى معركة ضد عدو يتفوق عليه بوضوح في القوة والسلطة وقبل كل شيء في الثروة: "إذا خسرت أيها الشاب المدعو غايوس يوليوس قيصر، فإن حياتك السياسية في روما ستنتهي إلى الأبد. من المؤكد أنك تلقيت تحذيرات من أفراد عائلتك وأصدقائك".

"حسناً، ولكن ماذا لو ربحت...". استفسر الشاب.

"إذا ربحت سيدرك أعداؤك أنك تشكل خطراً حقيقياً عليهم وسوف يقتلونك، في أقرب فرصة" قاطعه أوريستس وأجابه بالنبرة التقليدية للكهنة. ثم خفتت الأصوات، حتى لم يعد هناك سوى أصوات الطبيعة. عكست أشعة الشمس ببهاء الأضواء والظلال في تلك الزاوية الهادئة من الفناء، بينما جلس قيصر يعيد التفكير فيما قاله أوريستس، ويتأمل جدران بيضاء يخضبها شعاع الغروب المتسلل إليها.

"يا لروعة الغروب!".

تلقت الرجل العجوز حوله وتنهد، ثم قال: "أخشى بشدة أن تخونني عيني الواهنة في آخر أيام حياتي وتسلبني التمتع بالجمال الذي يزين العالم".
أعاد قيصر التركيز على هدفه، إنه يحتاج إلى شهود مرموقين، لذا لم يهتم كثيرًا بهذه الإشارة إلى أن العجوز كاد يفقد بصره. قرر طرح السؤال الرئيس، فهو بحاجة إلى نتيجة واضحة للمحادثة: "إذن... أفهم من ردودك أنك ترفض المجيء إلى روما للإدلاء بأقوالك ضد دولايلا؟".
ساد صمت آخر.

بدا أوريستس مشتتًا، كما لو أن عقله قد غاب قليلاً، ثم سأله: "ألم أجب بالفعل على هذا السؤال؟".
دُهِش قيصر، وقال: "لا، لم تفعل".

"حسنًا، اعتقدت أننا فرغنا من تلك النقطة بالفعل" قال أوريستس كما لو أنه استفاق للتو من غيبوبة، وأردف: "لقد بتُّ في أرذل العمر بالفعل وليس لدي ما أخسره، بل موتك المبكر هو ما يستحق الرثاء. لكن إذا أصررت على مواجهة دولايلا الخسيس، فسوف أذهب معك بلا شك".
"حسنًا، سوف نغادر في غضون أسبوع، إن أمكن" أجاب قيصر وقد شعر بالارتياح.

وافق أوريستس: "حسنًا، بعد أسبوع" ثم قام، فهب قيصر واقفًا وتوجه برفقة المقدوني العجوز إلى باب المنزل. ودَّعه مضيفه في صمت متطلعًا إليه بنظرة حزينة تسللت إلى روح الشاب تظللها الكآبة وعدم اليقين.
وفي طريق عودته، سار قيصر عبر شوارع المدينة وأزقتها برفقة رجاله المسلحين، حتى وصل إلى مقر إقامته. جلس وحيدًا في الغرفة يرافقه الاضطراب والتفكير المنغص، حتى عاد لابينوس وماركوس بعد أسبوع بمعلومات حول حالة طريق إغناطيا خارج ثيسالونيكي، وأخبره لابينوس على الفور: "الطريق في حالة رهيبية حتى تراقيا، لكنه بعد ذلك يتحسن وضعه".

"ما بعد تراقيا يقع تحت سيطرة حاكم آخر، ومن المؤكد أنه يتعامل بطريقة مختلفة فيما يتعلق بمصالح العامة" علق قيصر.
"يبدو ذلك".

"وهذا يؤكد تخلي دولابيليا عن مهامه فيما يتعلق بصيانة هذا الطريق، الذي يعد مهمًّا للغاية للتجارة في جميع أنحاء المنطقة. ويشهد أيضًا على أنه احتفظ بالأموال التي جمعها لتحسين طريق إغناطيا من أجل إثرائه الشخصي".
"هذا صحيح" أكد لابينوس.

"حسنًا. بحق جوبيتر! هذه أخبار ممتازة" علق قيصر بحماس.

"هل توصلت إلى شهود؟" سأله لابينوس على الفور، دون أن يستطع مشاركته في حماسه، بل رأى أن الأمر لن يكون بهذه السهولة أمام المحكمة المشكّلة من سناتورات الأوبتيميتس في روما. أخبره قيصر بكل ما يتعلق بمقابلته مع أوريستس العجوز، فانحنى لابينوس منكسًا رأسه، ونظر إلى الأرض، ثم تنهد بقلق، وعلق: "إنه طاعن في السن، يمكن أن يموت أثناء الرحلة أو في روما، قبل موعد المحاكمة".

تنهد قيصر؛ إذ كان يعلم أن صديقه على صواب، لكنه حسم أمره، ورد عليه بحزم: "إنها مخاطرة، لكن في نفس الوقت، كبر سنه يضمن احترام هيئة المحكمة لهيئته".

"ربما".

"بل أكيد".

كان حكم قيصر نهائيًا. بعد ذلك حاول تغيير مسار الحوار وللترويح عن صديقه، فدعاه لشرب القليل من النبيذ والاسترخاء مع تناول عشاء جيد، حتى حل الليل ونام لابينوس. لقد عاد للتو من رحلة شاقة على طول طريق إغناطيا ذهابًا وإيابًا.

بينما سهر قيصر ليلته وحيدًا يفكر فيما حققه: لقد توصل إلى ثلاثة شهود: المهندس ماركوس، والكاهن العجوز الموقر أوريستس، ويجب ألا

نسى الفتاة ميرتل، التي يحميها المقدونيون في روما. ومع ذلك، لا يؤمن أحد به أو بقدرته على الفوز في تلك المحاكمة، لا أورستس العجوز، ولا صديقه لابينوس، ولا أحد. ثم جالت فكرة في ذهنه، فابتسم رغماً عنه؛ إذ تذكر زوجته الشابة، كورنيليا، التي تؤمن به وبقدراته. أسند ظهره إلى مسند الأريكة، ونطق باسمها "كورنيليا" وأخذ يحدق إلى ظلال المشعل. أحس بأنه يفتقدها كثيراً.

افتقد إيمانها الأعمى به، وأيضاً، لماذا لا نقول ذلك، افتقد جسدها الثمين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شخصيات من عبق الذاكرة

٣. كورنيليا

زوجة قيصر

ميثاق السلطة

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٨٨ قبل الميلاد.

١١ عامًا قبل محاكمة دولابيللا

أوشكت الحرب ضد شعب مارس والشعوب الإيطالية الأخرى التي تمردت على روما على نهايتها. هُزم كل من انتفضوا ورفعوا السلاح من أجل الحصول على الجنسية الرومانية بالقوة، بعدما فشلت المفاوضات، وانتصرت جحافل المدينة عليهم جميعًا. وقد ترتب على انتهاء الحرب انقضاء الهدنة التي لم توقع بل قُبلت ضمناً بين الفصيل الشعبي والأوبتيميتس.

عرف ماريوس ذلك، حاول الزعيم الشعبي السيطرة على روما قبل سنوات من تلك الحرب الأخيرة، لكن حلفاءه؛ غلاوسيا وساتورنينوس قُتلا، فاضطر هو إلى الفرار، ثم بعد ذلك وافق الأوبتيميتس على عودته إلى مدينة التبير للاستعانة بعسكرته العسكرية لوضع حد للشعوب المنتفضة في إيطاليا. ولكن بمجرد السيطرة على التمرد، طفت الخلافات بينهما على السطح من جديد.

بقيت بعض جيوب المقاومة ضد روما في شبه الجزيرة الإيطالية، وخاصة من جانب سكان سامنيوم*، كانت أشبه برقصة المذبوح، لذا لم يعرها مجلس الشيوخ اهتمامه. ثم ظهر على السطح من جديد الصراع الأبدي بين أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر ثراءً وتشدُّدًا من جانب، والأعضاء الآخرين وممثلي جمعية العوام الذين أرادوا إحداث تغييرات في المجتمع والمؤسسات الرومانية من جانب آخر.

* لقب لاتيني أطلق على سكان جنوب أو جنوب وسط إيطاليا في العصر الروماني. (المترجم)

رأى ماريوس كيف كان سولا يخطب بمهارة في مجلس الشيوخ، وخشي من أن يوكل أعضاؤه إليه مهمة قيادة الجيش الذي تعده روما لمواجهة تهديد عسكري جديد، شديد الخطورة، أكثر خطورة من يوغرطة في إفريقيا أو الكيمبريين والجرمان في الشمال؛ إنه ميثراداتس السادس*، الملقب بـ"بيوباتور"، ملك بنطس، الذي هاجمت جيوشه المواقع الرومانية في آسيا وهددت بغزو اليونان نفسها.

كان لا بد من التصدي له ومنعه من التقدم، لكنه لم يكن مثل الجرمان أو حتى يوغرطة، الذي كان زعيمًا للقبائل واعتاد الحرب والقتال بالفطرة، بل ملكًا قويًا لدولة محاربة يمتلك جيشًا متمرسًا وأسطولًا كبيرًا يمكنه، في وقت قصير، الاستيلاء على شرق البحر الأبيض المتوسط بأكمله. لذا شكّل تحديًا خطيرًا لروما، تمامًا كما فعلت قرطاج في زمن الزعيم الأسطوري حنبعل. لهذا السبب وافق مجلس الشيوخ على تشكيل جيش محترف وفقًا لإصلاحات ماريوس، فأصبحوا يُسلّحون أشخاصًا لا يمتلكون ثروات أو ممتلكات، بعدما أثبت هؤلاء في معركة أكواي سكستيا أنهم بمجرد تدريبهم يتمكنون من القتال بفاعلية هائلة، وسوف يتوجه هذا الجيش الجديد شرقًا لمواجهة جيوش ميثراداتس، ودار الحديث عن تجنيد ستة فيالق.

أدرك ماريوس بوضوح أن من سيتولى قيادة تلك الجحافل، سيصبح هو سيد روما إذا ما تمكن من هزيمة ميثراداتس، ولن تقوى قوة عسكرية أخرى على معارضة جيش بهذا الحجم، لا في إيطاليا ولا في أي مقاطعة أخرى. كان المفتاح كي يقود هذا الجيش الهائل هو أن يحصل على منصب القنصل مرة أخرى أو يصبح واليًا يمتلك إمبريوم، أي سلطة القيادة. لذا بدا ضروريًا أن يعود إلى روما بعدما أخدم التمردات الإيطالية.

وهكذا، وأمام حيل سولا للحصول على موافقة مجلس الشيوخ على قيادته لهذا الجيش، قرر ماريوس بذل محاولات سريعة ليحصل على منصب القنصل مرة أخرى، لكن الأوبتيميتس يسيطرون على أغلبية مقاعد

* انظر إلى خريطة روما وميثراداتس.

المجلس، وليس ثمة منفذ له داخل الكوريا. لذا؛ أدرك أنه بحاجة إلى دعم المؤسسة الأكثر قوة بعد الكوريا، وهي مجلس العامة، لكن نفيه بعد مقتل ساتورنينوس وغلاوسيا أبعده عن التواصل مع رجال السلطة الشعبية في روما.

بات لوكيوس كورنيليوس كينا الآن هو أقوى الرجال في مجلس العامة، فقرر مقابله على الفور، قبل أن يصبح الوضع السياسي تحت السلطة المطلقة للأوبتيميتس. وافق كينا على مقابله، وكانت ثقته بنفسه قد تعمقت إذ أُعتبر الأقوى بين الداعمين لحقوق الشعب في روما، لكن غايوس ماريوس عدّ أسطورة بين كل أولئك الذين واجهوا الأوبتيميتس. وحتى وإن اعتبره كينا، جزءاً من الماضي، وليس الحاضر، يبقى على أي حال، ماضٍ مجيد للغاية، وأسطوري، لدرجة أن مجرد ذكر اسمه يمكن أن يحث المؤيدين للشعب على الاتحاد والالتفاف حوله مرة أخرى، من أجل إعادة هيكلة المشهد السياسي في روما وتحقيق توزيع أكبر للثروة والأرض والحقوق.

لهذا وافق كينا على لقاء ماريوس، ومناقشة الأمور العالقة والاتفاق على كل ما هو ضروري.

لكنه اشترط أن يعقد الاجتماع في مكان محايد؛ أي ليس في منزل غايوس ماريوس ولا حتى في منزله. فاقترح ماريوس أن يجتمعا في منزل غايوس يوليوس قيصر الأب، وسط حي سوبورا، فقبل كينا وذهب إلى هناك برفقة منبر العوام، بوبليوس سولبيسيوس روفوس، وابنته الصغيرة، كورنيليا، وكانت عمرها حينها ٨ سنوات. اصطحبها معه لأنها ستلعب أيضاً دوراً محورياً في الخطة التي حاكها، والتي جعلته يفكر للحظة أنه من اللافت للانتباه، أن المرأة في بعض الأحيان تكون أكثر فائدة من الرجل. لكن سرعان ما تلاشت هذه الفكرة.

استضاف يوليوس قيصر الأب الاجتماع بصفته المضيف لهم. لم تكن حياته السياسية صاخبة، لكونه مؤيداً للفصيل الشعبي، ولم يكن من السهل عليه هو وأمثاله أن يظفروا بما يريدون في روما التي يسيطر عليها الأوبتيميتس

منذ سنوات طويلة. لكن اختيار أعظم القادة الشعبيين له كي يحتضن اللقاء بينهم، منحه مكانة كبيرة، لم يكن في مقدوره هو أو أي من أفراد عائلته أن ينالها عبر التدرج في هرم المناصب الروماني، وبدا لزوجته أوريليا أيضًا أنه من الجيد أن يضيفا الاجتماع.

سمع ابنهما الصغير قيصر حديثهما بينما يتناولون العشاء معًا، إذ استشارها والده في أمر استضافة الاجتماع، فاقترحت عليه قائلة: "إن كنا لن ننضم أبدًا للأوبتيميتس، فعلينا أن نتقرب من أبرز الداعمين للشعب".

دخل كينا وروفوس إلى ردهة منزل عائلة جوليا في الموعد المحدد، فوجدوا رب المنزل ينتظرهما بالفعل، وإلى جواره بالطبع غايوس ماريوس، بينما تنحت أوريليا جانبًا، إذ كان اجتماعًا للرجال لا يصح أن تحضره النساء. لاحظت أن كينا اصطحب ابنته الصغيرة معه، لم تكن بحاجة إلى تفسير كي تدرك المقصود مما فعل، ولم تبد الفكرة سيئة بالنسبة لها، بل دعت ابنها، وكان عمره حينها ١٢ عامًا، وقالت له: "غايوس، ما رأيك أن تصطحب ابنة ضيفنا إلى الفناء الخلفي كي تريها حديقتنا، بينما يناقش الرجال في هدوء ما يخص مستقبل روما؟".

ارتعشت جفون قيصر عدة مرات. لم يفهم جيّدًا، ولم يعتد أن تصدر والدته تعليمات دقيقة للغاية. نظر إلى الفتاة، فتعلقت أعينها بوالدها.

"تعالى معي!" قال لها.

فتبعته، وغادرا الردهة.

ربما لو وضع صبي آخر في مثل عمره في نفس الموقف لشعر بقليل من عدم الارتياح في حضور فتاة غريبة، لكنه اعتاد التعامل اليومي مع والدته وشقيقته. وجود الجنس الآخر في حياته أمر طبيعي.

"هل لديك إخوة؟" سألها لكسر الجليد.

فأجابت: "لدي أخ وحيد"، خفضت رأسها، كانت تشعر بعدم الارتياح.

"لدي أختان، وعلاقتنا وطيدة، إلا أنني طالما تمنيتُ لو أن لدي أختاً أيضاً، إنه شيء أفتقده. على الرغم من أن عندي صديقاً اسمه لاينوس، وهو صديق الصُّبا، تتشارك معاً أموراً كثيرة. هل عندك أصدقاء؟".

"لا" أجابت بصوت متهدج، ودعمت إجابتها بتحريك رأسها إلى اليمين وإلى اليسار. ثم، ربما تجرأت أمام طلاقته، فأردفت: "لا يسمحون لي بمغادرة المنزل أبداً، وخروجي اليوم استثناء وليس القاعدة".

فكر قيصر، كان من الطبيعي أن يُسمح للفتاة بالخروج من منزل العائلة للتسوق، لكن الغريب هو أن يصطحب كينا ابنته وليس ابنه، إلا إذا كان طفلاً صغيراً، فسألها: "هل أنت أكبر من أخيك؟".

"لا، أخي في نفس عمرك".

"حقاً؟ حسناً، أجل، من الغريب أنه أحضركِ معه".

وصلا إلى الفناء الخلفي للمنزل.

"وصفتها أُمي بالحديقة، لكن، كما ترين، لا يوجد سوى بضع أوصاف وردت تحرص على الاعتناء بها".

تمشت كورنيليا بين الزهور، وقالت بلطف بعد برهة: "إنها جميلة".

في فترة المراهقة كان إدراك قيصر لبعض الأمور بطيئاً، إلا أن حدسه كان يرشده دائماً، لكنه لم يكتفِ وامتلاً بالتوق إلى الإلمام بالمعلومة الكاملة. عهدت إليه والدته بإلهاء تلك الفتاة، لذا فإنها...

"هل حضرتِ مهرجان اللوبركاليا من قبل؟" سألها؛ كي تكتمل الفكرة في عقله. كان هذا سؤالاً مباشراً للغاية؛ إذ كان المهرجان المشار إليه هو مهرجان إله الحقول والقطعان ويقام كي تمنح الآلهة الخصوبة للنساء والحقول والقطعان، واعتاد المحترفون السير في الشوارع عراة يمسون بسياط أطلق عليها اسم "فبيورا" ومنها اشتق اسم شهر فبراير، بينما تصطف الفتيات لتلقي الضربات لأنهن اعتقدن أنها تمنحهن الخصوبة وتسهل

المخاض على السيدات الحوامل. لذا فإنه إذا حضرت فتاة المهرجان وتلقت ضربة بتلك السياط تصبح، اعتبارًا من تلك اللحظة، امرأة، وتحيض.

تحيرت كورنيليا أمام سؤاله كثيرًا.

"لا، لم أصطف أمام الجلادين في مهرجان اللوبركاليا بعد" قالت، ونكست رأسها، وكأنها شعرت بأنها تستحق اللوم لكونها لا تزال صغيرة للغاية، ثم أضافت: "مازلت صغيرة، قريبًا يحل عيد ميلادي، وحينها أصبح في التاسعة".

"حسنًا، اعتقدت بالفعل أنك لم تحصلي على ضربة من سياطهم، لكنني قصدت السؤال عما إذا كنتِ قد رأيتهم وهم يجولون في الشوارع، ويلوحون بسياط فيورا ويصيحون. لم أرد إزعاجك".

"لقد رأيتهم ذات مرة يجلدون واحدة من أبناء عمومتي، وهذا كل شيء" أومأت كورنيليا برأسها، لكنها لم تجرؤ على رفع بصرها عن الأرض أثناء التحدث.

أدرك الصبي أنها تشعر بعدم الارتياح، وفي الوقت نفسه، كان لا يزال الدافع وراء إحضارها معهم يثير فضوله، لكنه لم يشأ إخافتها. حدّق إليها، رآها طفلة، لكنها كانت جميلة ولطيفة ومهذبة، لم يكن يعرف عنها شيئًا آخر سوى أنها بدت خجولة للغاية، على الرغم من أن هذا كان طبيعيًا في هذه الحالة؛ إذ كانت تتحدث على انفراد مع صبي لم تكن تعرفه، وخارج منزل والدها.

"هل ترغيبين في معرفة عما يتحدث والدك والوالدي وغايوس ماريوس وروفوس؟" سألها.

حينها رفعت مستوى بصرها، تتطلع إليه. بدا لها لطيفًا، وطويل القامة وقوي البنية وودودًا. وعلى الرغم من أنها ظلت شحيحة الكلام، إلا أنها لم تعد تشعر بعدم الارتياح في حضوره.

"ولكن هل يمكن القيام بذلك؟؛ أن نستمع إليهم دون استئذان؟".

ابتسم ووضع إصبعه على شفثيه، ثم دنا منها وهمس لها: "اتبعيني".

أمسك بيدها برفق، فانتابتها القشعريرة. لم يلمس يدها فتى غريب من قبل، كما أن أخاها يتعامل معها بطريقة مختلفة. عندما هدأت قليلاً أحست باستمتاع، فأحكم قبضته عليها، ومنحهما مزيج المشاعر شعوراً بالثقة. وعلى هذا النحو، قادها قيصر عبر عدة ممرات ستي وصلا إلى ما يشبه مكتبة صغيرة مليئة بالبرديات.

"هذا مكتب أبي" واصل الحديث بصوت خفيض: "له مدخلان... وصلنا إلى هنا عبر الحديقة الخلفية، لكن هناك باب آخر يفضي إلى الردهة الرئيسية. إذا اقتربنا من المدخل الآخر -الأقرب إلى الردهة- يمكننا سماع ما يقولونه، فعمي ماريوس دائماً يتحدث بصوت عالٍ للغاية، كما أن الغرفة مفصولة عن الردهة بستائر قماشية فقط".

"وكذلك والدي" أشارت كورنيليا. بدا أنها تحمست للمغامرة.

"حسناً هذا رائع. إتبعيني، وإبقي إلى جوارِي، صامتة تماماً، كي نسمع ما يقولونه، اتفقنا؟"

"حسناً" همست له.

أمسك بيدها وقادها حتى وصلا إلى حجرة المكتب، المفصولة عن الردهة بستائر. وبمجرد دخولهما إلى هناك تسللت الأصوات إليهما، وباتت أكثر وضوحاً عندما تخطيا المكتبة، حتى لم يعد بينهما حائل إلا الستائر. وهناك حرر قيصر يدها.

كانت تتمنى لو لم يفعل، لكنها بالطبع لن تخبره بذلك. تبعته في صمت، فاقتربا قدر الإمكان من الستائر، وحرصاً على عدم لمسها كي لا يكتشف الكبار تسللهما، ووفقاً يتنصتان إلى ما يدور داخل الردهة.

الردة الرئيسية في منزل عائلة جوليا

"إذا تولى سولا قيادة الجيش في نولا، تصبح نهاية تطلعاتنا للتغييرات سواء التشريعية وأي آمال أخرى حتمية" قال غايوس ماريوس، بصوته القوي الذي يقطر نفوذًا وسلطة مع كل مقطع ينطق به، وأضاف: "كذلك، ووفقًا للتقسيم الجديد للجنود، سوف يتشكل الجيش من ستة فيالق كاملة، وبإضافة عدد المساعدين، يصل عددهم إلى ٦٠ ألفًا. وهكذا تكتب نهايتنا على يد سولا، ليحكم الأوبتيميتس كما يحلو لهم ويمحونا من الوجود. ولكن ليس تدريجيًا، بل جذريًا. سوف يبيدوننا."

"لكن لا يوجد شيء يمكن القيام به في هذا الصدد. لقد سيطروا على مجلس الشيوخ بعدما عرقلوا جهودك الإصلاحية أنت وساتورنينوس قبل سنوات، وما سعوا وراءنا بعد ذلك إلا من أجل توحيد القوى والتصدي لانتفاضة مارس وغيرها من شعوب الحلفاء المتمردين. لكن الآن، الوضع اختلف، فبعد هزيمة المتمردين - كما تقول - سولا وباقي الأوبتيميتس، ونظرًا لهيمنتهم على مجلس الشيوخ، سوف يسيطرون على مناصب القناصل. سيفعلون كل ما في وسعهم في سبيل الفوز في الانتخابات بأهم مناصب في الحكم، وبعد ذلك سيمنح سولا قيادة هذا الجيش" علق روفوس.

"يمكن لمجلس العامة التصدي لهم" احتج ماريوس.

"وكيف يحدث ذلك؟" سأل كينا، وكان رجلًا شحيح الكلام، حذرًا. "يمكن أن يصدر مجلس العامة قوانين تقوض سلطات مجلس الشيوخ، وتمنح لأعضائه سلطة تسمية قادة الجيوش في نولا. وعلى هذا النحو، يجتمعون لإصدار قرار تعييني قائدًا للجيوش".

صمت الجميع.

"قل لي يا روفوس، حسب رأيك، هل يمكن أن يتصدى مجلس العامة لمجلس الشيوخ على هذا النحو؟" سأل كينا.

كان الجيش الذين يتحدثون عنه سوف يُرسل إلى الخارج، إلى الشرق، للتصدي لجيش ميثراداتس؛ أي إن المسألة تتعلق بالسياسة الخارجية، وكانت القرارات المتعلقة بالخارج ضمن اختصاصات مجلس الشيوخ.

فكر منبر العوام في الأمر قبل الإجابة، ثم قال: "إذا تعلق الأمر بأي مرشح آخر لقيادة تلك الجحافل، لا أستطيع الحكم بدقة. لكن الوضع يختلف طالما أن المرشح هو ماريوس بذاته، فإنجازاته لا تزال حاضرة في الأذهان. هو القائد الذي أنقذنا من يوغرطة، وقبل أي شيء آخر، هو من تصدى للكيمبريين والتوتونيين، وأبناء الشعب لا يزالون ممتنين له للغاية. لذا؛ أرى أنه من الممكن تحقيق ذلك، خاصة إذا ركزنا في خطابنا الموجه إلى الشعب على حقيقة أن ميثراداتس قد يصبح حنيبعل آخر. إن الخوف من غزو إيطالي جديد خاصة في ظل تداعيات تمرد مارس وبقية المناطق المتحالفة، سيجبر مجلس العامة على التصويت لصالح ماريوس، كما أن -ولا شك في ذلك- العامة يثقون في ماريوس أكثر من سولا".

"الحديث عن خطورة ميثراداتس ليس محض ادعاء، إنه يهدد بعبور مضيق هيليسبونت (الدرديل) ومهاجمة اليونان، وإذا لم نتصد له هناك، فلن يتردد في التقدم حتى يصل إلى روما نفسها... إنه طموح للغاية. لكن، بالعودة إلى موضوعنا الأساسي، أحيطكم علمًا بأن مجلس الشيوخ سوف يجتمع هذا الأسبوع من أجل إعلان تعيين سولا، لذا علينا التصرف بأقصى سرعة ممكنة" أوضح ماريوس.

"يمكن أن يجتمع مجلس العامة هذا الأسبوع أيضًا" اقترح روفوس.

"سيكون ذلك مثاليًا" علق ماريوس.

يبدو أن كل شيء قد تم حله، لكن كان لدى كينا أجدته الخاصة.

"أرى أنه من الجيد أن تتولى أنت قيادة هذا الجيش، لكنك ستذهب إلى الشرق وتتركنا هنا في روما نواجه الأوبتيميتس بمفردنا. لا شك أنهم سيغضبون بشدة إذا فقد سولا قيادة الجحافل" قال كينا.

لم يتفاجأ ماريوس بما يقوله كينا، لا أحد في روما يقدم الدعم دون مقابل. أراد كشف ما يدور داخل عقل محدثه، فأنحنى نحو الطاولة وأشار إلى العبد كي يملأ كأسه بالنيذ، وقال: "أسمعك يا كينا".

"ستحصل على قيادة هذا الجيش لكونك شخصية عامة في نظر القانون*، وتعرف أنه ليس لدينا ما نفعله فيما يخص الانتخابات على منصب القنصل. ولكن..."، توقف من أجل التفكير في الأمر لبضع لحظات؛ أراد أن يطلب الكثير. دقق في وجه ماريوس، بدا أنه يتوق بشدة لقيادة الجيش الجديد، فحسم أمره أخيراً، وتابع: "بمجرد حصولك على قيادة الجيش، سأرشح نفسي لمنصب القنصل ونصيرنا روفوس لمنصب البريتور، استناداً إلى دعمك أنت ورجالك وحلفائك في روما".

لم يكن على ماريوس التفكير في الأمر كثيراً: يريدان الحصول على منصب قنصل وبريتور. بدا ثمناً معقولاً مقابل قيادة ستة فيالق، الجيش الذي كان بمثابة مفتاح السيطرة على روما. لم يكن في حاجة إلى تفكير، فقال: "فليكن، اتفقنا".

"ربما ينبغي أن نشرب نخب هذه الاتفاقية" اقترح يوليوس قيصر الأب، الذي التزم خلال المناقشة الحكمة والصمت أثناء حديث زعماء الفصيل الشعبي؛ ماريوس وكينا وروفوس.

على الفور، أمرت أوريليا، التي تنحت جانباً منذ بدء المحادثة ووقفت تنصت إليهم، العبيد بإحضار النيذ والطعام للجميع. ثم نظرت إلى ماريوس وكينا وروفوس، وأضافت: "سوف تتكرمون بتقاسم العشاء معنا في منزلنا الليلة، اسأل الآلهة أن تهدئ نفوسكم لبعض الوقت وسط هموم مهامكم الثقيلة".

قَبْلُ الثَلَاثَةِ الدَّعْوَةِ.

* الشعب أمام القانون الروماني نوعان؛ عوام وشخصيات عامة، وهؤلاء منحهم بعض الصلاحيات واختصهم ببعض الاستثناءات دون غيرهم من عامة الشعب. (المترجم)

حسنت كل الأمور العالقة، لكن كينا كان لا يزال طامعًا فيما هو أكثر.

"أنا ممن يعتقدون أن الاتفاقيات، بعيدًا عن الاحتفال بها، يجب تدعيمها بنوع من الارتباط".

أخذت أوريليا نفسًا عميقًا، لقد أدركت مقصده منذ رآته قادمًا بصحبة ابنته.

"عن أي ارتباط تتحدث؟" سأله ماريوس. كان غارقًا في التفكير بشأن كيفية تجهيز ستة جحافل لمواجهة العدو، لم يشغل تفكيره أي أفكار أخرى.

"عندي ابن وغيوس ماريوس أيضًا له ابن، لكن ابن ماريوس تزوج بالفعل بفتاة من عائلة ليسينيا، بينما قائدنا المحبوب، الوحيد الذي حصل على منصب قنصل ست مرات، ليس لديه بنات، وهكذا لن نحرز إلا تقدمًا ضئيلاً" أطلق ضحكة مقتضبة استقبلها الآخرون بابتسامة، ثم أوضح: "لكن لدي أيضًا ابنة صغيرة، كورنيليا، ويوليوس قيصر و..."، ثم نظر باحترام بالغ إلى أوريليا وتابع: "ومضيفنا لديهما ابن شاب، يوليوس قيصر الابن، ابن صهر غايوس ماريوس. إذا جمع الزواج بين ابنتي وابن صهر ماريوس، فإن هذا يعني أن اتفاقنا وثق بقوة، وأنه سيقى لأمد طويل. ثمة أوقات عصيبة قادمة، أود ضمان أن نبقى جميعًا... عائلة واحدة. الوحدة تجعلنا أقوى".

صمت كينا، منذ وقت طويل لم يتفوه بجمل متتالية هكذا.

جلس المنبر روفوس، يستعد لاستغلال مهارات الخطابة التي يتقنها من أجل إقناع مجلس العامة بضرورة التمرد على مجلس الشيوخ، ومنح غايوس ماريوس قيادة الجيش الجديد.

ارتشف كينا رشفة نبيذ بينما كان ماريوس ويوليوس قيصر الأب وزوجته يزنون طلبه الإضافي، فضلًا عن دعمه في ترشحه المستقبلي لمنصب القنصل وترشح روفوس لمنصب البريتور. بينما نظر ماريوس إلى يوليوس قيصر الأب، ثم حول بصره إلى أوريليا، فأومات برأسها قليلًا. لكن زوجها لاحظ أنها ليست مقتنعة تمام الاقتناع، وحاول إيجاد مخرج رشيق. لقد

تعقدت الأمور فجأة، لم يتوقع أن تتورط عائلته في الصفقات بين ماريوس وكينا، فقال: "إنه عرض يسعدنا ويعد شرف لنا، لكن ابنتك لا تزال صغيرة للغاية، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح، لم تبلغ بعد، إذا كان هذا ما تعنيه، لكنها قريبًا تبلغ. لا أقول إن علينا إقامة الزفاف غدًا، لا أطمح اليوم في أكثر من الاتفاق على الزواج".

ظل ماريوس صامتًا. لم يشأ في أن يعترض أي شيء أمر توليه قيادة جيش نولا، خاصة بعدما نبذه مجلس الشيوخ، وبقي مجلس العامة السبيل الوحيد أمامه. هذا تطلب الاستجابة لشروط روفوس وكينا، وخاصة ذاك الأخير؛ إذ يتزعم حزب البيولاريس في روما.

لمح قيصر الأب القلق في عيون ماريوس، فمرر ظهر يده اليسرى على فمه وقال: "سيقام الزفاف في الموعد المناسب، عندما تبلغ ابنة لوكيوس كورنيليوس كينا، وتصبح مهيئة للزواج".

حجرة المكتب في منزل عائلة جوليا

نظر يوليوس قيصر وكورنيليا بعضهما إلى بعض في مخبئهما، وسط ظلام الغرفة. ودون أن ينطق أي منهما بكلمة واحدة، أمسك بيدها، كما فعل من قبل، وقادها إلى خارج الغرفة، ثم سارا عبر الممرات حتى عادا مرة أخرى إلى الردهة الخلفية.

وهناك حرر يدها.

أخذت تنتقل ببصرها على زهور الحديقة، بينما يتحدث هو إليها.

"أعتذر منك" قالت كورنيليا بصوت أشبه بالهمس، كما كانا يتحدثان داخل حجرة المكتب.

"بمّ تشعرين؟" سألها، كان عقله مشوشًا.

"هل يُقسرونك على الزواج بي؟".

"حسنًا، إنهم يرغموننا علينا، يجبرونك أنتِ أيضًا".

"نعم، لكنني اعتدت أن يحدد لي أبي ما ينبغي وما لا ينبغي فعله. ربما الأمر مختلف بالنسبة لك".

"هذا صحيح" اعترف.

صمتا مرة أخرى.

"كنتُ خائفة" قالت بعد برهة.

"مم؟".

"خشيت سوء الحظ في الزواج، ومصيري مع الرجل الذي سأ تزوجه مجبرة".

"والآن تلاشى خوفك؟".

"أجل... أنت لطيف و... جذاب، كما أنك لا تكبرني بسنوات كثيرة".

"حقًا؟ كما إنني لا أبدو مخيفًا للغاية" قال بابتسامة ساحرة ممسوحة بالمرارة، ثم أضاف: "حسنًا، هل يمكنكني الاعتراف بأنني خائف".

"مني؟" أجابته بدهشة.

"لا" ابتسم مرة أخرى. ابتسامته بدت صافية تلك المرة ومباشرة: "ليس منك؛ أنتِ أيضًا لطيفة وصغيرة السن، والأكثر من ذلك" توقف، ضحك، وعندما خفت ضحكته أضاف: "أنك جميلة".

"هل تخشى الآلهة؟ أنا أخافهم قليلًا".

"لا أخشى الآلهة؛ فأنا سليل فينوس، كما أن عائلتي تنحدر مباشرة من إيولوس وإينياس" أكد، كما لو كان ما يقوله حقيقة لا جدال فيها، وأردف: "لكنني في الحقيقة أخشى ألا أبدو جديرًا بحسن ظنهم بي. تولى زوج عمتي منصب القنصل ست مرات والجميع في هذا المنزل يطمحون إلى أن أصبح

مثله، لا يقولون ذلك صراحة، لكنني أقرؤه في أعين أبي وأمي، وليس لدي أشقاء ذكور، فيقع على عاتقي وحدي تحقيق ما يتوقون إليه. كيف يمكن للمرء أن يرقى إلى مستوى القائد الأسطوري الذي جلب انتصارًا مهولًا في إفريقيا، وخلصنا من هجمات الجرمان، الرجل الذي بفضل إصلاحاته أصبح جيشنا أقوى جيش في العالم؟".

"صحيح، مهمة صعبة بحق" علق.

التفت إليها. أعجبه أنها لم ترد عليه بهراء مثل "لا تقلق"، أو "سترى كيف ستحقق ما تريد". كانت المهمة صعبة حقًا، وكفى.

"في الواقع... يبدو الأمر مستحيلًا" أضافت، ثم غرقت في الضحك، ولم يستطع هو إلا أن يشاركها الضحك، ثم بعد ذلك خفتت ضحكاتها، والتزما الصمت لبضع لحظات، حتى كسره هو بسؤالها: "هل تحبين القراءة؟".

"بالتأكيد" أجابت. شعرت بأن السؤال لمس كبرياءها: "اعتقدت أنني جاهلة؟" ثم خفضت صوتها وأضافت: "حسنًا، أقرأ اللاتينية، اليونانية لا أعرفها، أود تعلمها لكن أبي يقول إن اللغة اليونانية والخطابة ليست من الأمور المناسبة لعقول الفتيات، ويرى أن دوري الأساسي في الحياة هو أن أحمل في أحشائي الأجنة، وأهدي زوجي أطفالًا".

نظر إليها قيصر، وكأنه أدرك فجأة أن تلك الفتاة الصغيرة ستصبح أمًا لأطفاله يومًا ما.

"أنا شغوف بالقراءة" علق الشاب. فكر في مؤلف قد تعجبها كتاباته؛ هل تحب أعمال يوربيديس، لكنه كان يونانيًا، فسألها: "هل تعرفين بلاوتوس*؟".

"سمعت عنه من قبل، لكنني لم أقرأ له أي شيء حتى الآن، ولم يتسن لي حضور عرض مسرحي لأحد أعماله؛ لأنني لم أذهب إلى المسرح قط".
"انتظري" قال، وغادر الردهة مسرعًا.

* تيتوس ماكبوس بلاوتوس كاتب مسرحي روماني، أعماله الكوميديّة هي أقدم الأعمال التي وصلت إلينا من الأدب اللاتيني. (المترجم)

تركها وحدها بين الزهور، فأنت إليها أوريليا تناديها: "كورنيليا، والدك يناديك من أجل العشاء...".

نظرت الأُم حولها في الفناء فلم تجد ابنها، فسألتها وقد بدا الغضب على وجهها: "هل تركك غايوس بمفردك طوال هذا الوقت؟".

"لا، بل كان معي، لكنه ذهب منذ قليل، أراد أن يريني شيئًا" شرحت لها كورنيليا بسرعة لتهدئتها، وحينها عاد قيصر مرة أخرى يحمل لفافة من ورق البردي في يده، فألقى التحية على والدته ودنا من كورنيليا وقال: "هذه مسرحية الحمير أول عمل لبلاوتوس، وهي مسلية للغاية".

"إنها المفضلة لديك" علّقت أوريليا بدهشة، فاجأها تطور علاقتهما، فهما لم يلتقيا أبدًا من قبل.

"لا يمكنني قبولها" قالت كورنيليا، وخفضت بصرها.

لكن قيصر أصر بشدة وتوسل إليها أن تقبلها: "من فضلك، اقربئها وبعدهما تفرغين مناقشها معًا".

استمعت أوريليا إلى تلك المحادثة وسط حيرة، ثمة شيء يحدث هنا، يحدث بينهما، يتشاركان في أمر ما. لم تكن متأكدة تمامًا، لكن بدا أنهما يتقبلان بعضهما بعضًا وهذا أمر يبعث على الارتياح، لأنه من شأنه تسهيل تنفيذ الاتفاق.

أمسكت كورنيليا باللفافة أمام إصرار قيصر، ثم تبعها أوريليا حتى الردهة الرئيسية، حيث انضموا إلى مأدبة العشاء.

بعدهما انتهت الزيارة، وغادر الضيوف، التفت أوريليا إلى قيصر وسألته: "ما رأيك في ابنة كينا، تبدو لطيفة؟".

"نعم" أجابها باقتضاب. ثم نهض، وقبّلها على وجنتها، وانصرف.

قالت أوريليا لنفسها: "علمًا بالأمر...".

"ماذا تقصدين؟" سألتها زوجها مترنحًا بعض الشيء من أثر النبيذ. وجدته متعبًا، لقد انتابه القلق عندما بدأ كينا بعرض شروطه، مثلها تمامًا. خشيا أن ينتهي الاجتماع بكارثة. ففي نهاية يوم مرهق كان يحتاج قيصر الأب إلى النوم، فلم تعطه تفسيرات.

"لا شيء يا زوجي الحبيب، لا يهم. أعتقد أنه من الأفضل أن نذهب للنوم الآن" أجابته. ثم نهضا وتوجها إلى غرفة نومهما، بينما شرع العبيد في تجميع الأطباق والأكواب وأدوات المائدة وبقايا الطعام المتناثرة حول الطاولات دون ضجيج.

سار كينا وابنته، وسط حراسة مشددة عبر شوارع روما، أضواء مشاعل العبيد لهما ظلام الليل.

"عليك أن تنضجني سريعًا يا ابنتي" قال كينا.

أومأت كورنيليا برأسها دون أن تنبس ببنت شفة. لم يتوقع والدها منها ردًا، كل ما يريد هو أن تطيعه، وكانت تعرف ذلك.

تعليم وتدريب قيصر

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٨٨ قبل الميلاد

ذات يوم دخلت أوريليا حجرة المكتب، فوجدت ابنها جالسًا أمام الطاولة يكتب، ويتابعه بانتباه معلمه ماركو أنطونيو غنيهو. كان رجلًا مثقفًا للغاية، مزيجًا مثيرًا من العلوم الشرقية، إذ درس في أعظم الأماكن في العالم اليوناني، والأصول البربرية، لأنه ولد في بلاد الغال. كانت الأم قد سمعت المعلم، أكثر من مرة، يحكي لقيصر قصصًا عن بلاد الغال وشعوبها، بدلا من التركيز على سير أرسطو أو كُتّاب مثل يوريبيدس أو ميناندر، وكانت تعتقد دائما أن هذا مضيعة للوقت. لكن قيصر يبدي اهتمامًا جمًّا بكل حكايات البرابرة السلتيين، وتلك الحكايات وطدت علاقته بمعلمه وخلقت ارتباطًا وثيقًا بينهما، حتى بدأت والدته تفكر في إمكانية أن تكون تلك القصص مهمة، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ جعلته ينجذب ويتبه بقوة لمعلمه الذي يدرسه كي يتقن اليونانية أو اللاتينية.

"جاء عمك ماريوس يا بني" قالت أوريليا.

ترك الصبي ما كان يكتبه وراءه، وهم بالخروج لتحية الضيف. لكن نظرة جادة من عين والدته أوقفته، ففهم مقصدها، واستدرك الخطأ ملتفتًا إلى معلمه المخضرم واستأذنه: "سوف أوصل كتابة النص ليلاً، اتفقنا يا غنيهو؟". وعندما أشار له المعلم موافقًا، تجاوز الصبي والدته وهرع لرؤية عمه.

أرادت أوريليا أن يتعود على إظهار الاحترام دائمًا لمعلمه، دون الالتفات إلى حقيقة أنه كان عبدًا وأعتق، بل انصب اهتمامها على أن يتعلم ابنها تبجيل

مصادر المعرفة. كان لدى غنييهو الكثير من المعارف والعلوم، رغم أنه أصرّ أحيانًا على إضاعة الوقت في قصص محاربي بلاد الغال تلك.

أمسك المعلم بالنص الذي كان قيصر يكتبه قبل مجيء عمه، وشرع في قراءته، فسألته الأم: "عم يتحدث؟".

"يشيد هيركوليس" أجابها، وأردف دون أن يرفع عينه عن نص تلميذه: "إنها قصيدة في مدح بطولات هرقل، وبالمناسبة... كتبها بيراعة" ثم توقف عن القراءة والتفت إليها وقال: "لكنه لم ينهها بعد".

"هرقل... اختيار مناسب، إنه بطل أسطوري".

"الصبي لديه تطلعات مبالغة في الحياة".

"بل هذا مصيره" أجابت أوريليا بثقة.

"أن يصبح مثل هرقل؟" تجرأ المعلم على السؤال، انتابه الشك فيما تقوله والدة تلميذه، كانت كلماتها متكلفة وبها مبالغة مفرطة.

"أجل، أن يصبح مثل هرقل" أكدت بنفس النبرة. ثم استدارت وخرجت باتجاه الردهة للانضمام إلى صهرها وابنها، لكن تعليق المعلم أوقفها: "لكن هرقل قُتل في نهاية المطاف، سقط ضحية للغدر".

فالتفتت إليه وقالت: "صحيح، وهذا مصير كل البشر بالمناسبة، كل الناس يموتون حينما تنتهي آجالهم، أما هرقل فُبعث من جديد وأصبح إلهاً وخُلدت ذكراه".

أوما غنييهو برأسه وانحنى احترامًا لها.

ردهة منزل عائلة جوليا

انضمت أوريليا إلى غايوس ماريوس وقيصر، كانا يتحدثان وقد أسعدها ذلك. شعرت بالرضا عن اقتراح قنصل روما المخضرم وعضو مجلس الشيوخ؛ إذ قال: "جئت لأخذ الصبي إلى معسكر مارس، أريد التحقق من مستوى مهاراته القتالية".

"بالطبع. والده ليس هنا الآن، لكنني واثقة من أن غايوس يرغب في الذهاب معك" قالت. وبعد ذلك تبع الشاب عمه إلى بوابة المنزل في حماس شديد. كان يتوق إلى إظهار مدى تقدمه في استخدام السيف الروماني، وقدراته القتالية، وخفة حركته.

معسكر مارس

ازدحم معسكر التدريب العسكري بالشباب والصبية، جميعهم يأتون إلى المعسكر للتدريب على فنون القتال اليدوي وإطلاق السهام وامتطاء الجياد بمهارة دون رُكْب، وفقاً للطرق الرومانية. وبمجرد وصول غايوس ماريوس برفقة سرتوريوس وعدد من قدامى المحاربين، تنحوا جميعاً جانباً ليمر القنصل بهيئته المنتصبة وخطواته الحازمة، حتى وصل إلى موقع مثالي يمكن من خلاله اختبار مدى تطور أداء ابن صهره الأقرب إلى قلبه، فقال: "هذا موقع مثالي".

كان لماريوس ابن، وأبناء إخوة وأصهار كثر، وأحبهم جميعاً، وحرص على متابعة تدريبهم. لكن قيصر، امتلك في قلبه مكانة خاصة؛ إذ شعر فيه بالقوة، والإصرار. في روما، أولئك الذين يمتلكون إصراراً استثنائياً هم فقط مَنْ يتغلبون على العراقيل والصعوبات التي يفرضها أعداؤهم. وكانت ثمة ميزة في الصبي الصغير لم يغفلها ماريوس، وهي أن شخصيته الحازمة مُزجت بحدة الذكاء. لكن كل ذلك، ليس له أدنى قيمة إن لم يكتسب مهارات فائقة في القتال اليدوي، لأن الضعيف في القتال مهما بلغت درجة حنكته سيسقط لا محالة في أول اشتباك حقيقي مع الأعداء، سواء في براري الشمال أو ضد جيوش ميثراداتس وغيره من ملوك تلك المنطقة النائية في الشرق.

"أعطه سيف التدريب" أمر ماريوس أحد رجاله، فقدم إلى الصبي سيفاً خشبياً وأمسك عمه بآخر مشابه له.

أمسك قيصر بالسيف بكلتا يديه يحاول تخمين كم يبلغ وزنه، وكأنه أراد التأكد من أنه مماثلٌ للسيف التي تدرّب عليها، ففاجأه عمه بضربة على كتفه

بشفرة سيفه المستقيم، وجهها إليه الرجل بكامل قوته ففقد الصبي توازنه وسقط أرضًا. رمقه ماريوس بنظرة غضب وصاح: "ويحك! هل تعتقد أن العدو سوف يحذرك قبل أن يطعنك يا فتى؟" باغته، وآتبه: "هل تعتقد أن جنود الإغريق أو ميثراداتس سيطلبون منك الإذن قبل الهجوم؟ بحق هرقل، انهض وابق على أهبة الاستعداد!".

نهض قيصر، وأظهر سيفه. بينما همّ عمه بتوجيه ضربة أخرى له، إلا أنه تراجع في آخر لحظة وقال: "انتظر يا فتى. كي يصبح هذا تدريبًا حقيقيًا، يتعين عليك مواجهة شخص يتمتع باللياقة البدنية بدرجة كافية لمواجهتك كونك ما زلت ابن ١٢ عامًا".

كان غايوس ماريوس قد بلغ ٥٩ عامًا، ويدرك أنه أصبح عجوزًا بطيئًا في القتال اليدوي. اعتبر نفسه الأنسب لقيادة جيش ضد ميثراداتس، لكنه لا يصلح لتدريب شاب حائق على استعداد للقتال بضرارة.

أشار القنصل المخضرم إلى سرتوريوس، ولم يكن بحاجة إلى النطق بالأمر، وعلى الفور تقدم الضابط المقرب إلى القنصل السابق، وأمسك بالسلاح الخشبي الذي سلمه إياه القائد قبل أن يتنحى جانبًا.

ابتلع قيصر لعابه، سيواجه الآن كوينتوس سرتوريوس، القائد الثاني في جيوش عمه على مدار سنوات، كان في منتصف الثلاثينيات من عمره وقوته البدنية مذهلة.

تجمع حولهما مجموعة من الفضوليين، أرادوا معرفة كيف ينتهي اللقاء المشير.

"لماذا لا تهاجم يا فتى؟" سأله ماريوس، الذي وقف على بُعد بضع خطوات منهما.

بينما ظل قيصر يتصبب عرقًا، ولم يجرؤ على مهاجمة ذلك الضابط قوي البنية الذي شارك في معارك عديدة من قبل. مسح بظهر يده وجهه المبلل. كانت شمس الظهر حارقة، شعر بالسخونة تنبع من داخله. أخذ يفكر في

طريقة لمواجهة خصمه، لكنه كلما حاول فشل حتى بدا الأمر أشبه بالعبث. ولما لم يجد بداً، صاح قيصر بصوت عالٍ: "منذ وقت ليس ببعيد، علمتني أنه لا ينبغي أن أخوض القتال إن لم تكن فرص الفوز مضمونة، والآن ليس أمامي فرصة واحدة للفوز أمام سرتوريوس، وأنت تعرف ذلك".

أوما ماريوس برأسه، بدا راضياً، لكن كلماته خرجت مضطربة؛ ما بين الاعتراف بذكاء ابن صهره، والرغبة في التعامل معه بشدة، فقال: "يسعدني أنك ما زلت تتذكر نصائحي يا فتى. صحيح لا يمكنك الهجوم عليه، لكن ماذا لو هاجمك هو؟ ألن تحاول الدفاع عن نفسك؟" أشار القنصل السابق للقائد الثاني في جيوشه كي يبدأ بالهجوم على قيصر.

تقدم كوينتوس سرتوريوس، ليس بطريقة مفاجئة، ولكن بحزم ناحية الصبي. فكر قيصر أن الحل الوحيد هو الابتعاد عن متناول سيفه، لكن دائرة المتفرجين لم تتح له مساحة كافية للحركة. شعر أنه بحاجة إلى وقت للتفكير لكن سرتوريوس باغته بضربة أخرى على كتفه.

عوى الصبي.

ثم أصابته ضربة ثالثة.

"بحق جوييتير!" صاح قيصر.

بدأ يتراجع، في محاولة لتجنب المزيد من الضربات من خلال التلويح بسيفه. لكن سرتوريوس بخبرته واصل تسديد الضربة تلو الأخرى، على جانبه الأيسر ثم على الجانب الآخر، مرة أخرى على الكتف، على ذراعه التي استخدمها كدرع.

وقف ماريوس يتابع المشهد هادئاً ومنتبهاً. كان يعلم أنه أخضع الصبي لاختبار شاق، أراد معرفة كيف سيتصرف. هل يتضرع إلى الآلهة أو يركع لاهثاً؟ أم تراه سيطلب من سرتوريوس التوقف؟ أم يتوسل إلى عمه كي يأمر بإنهاء القتال؟ ومع ذلك، لم يفعل قيصر أيّاً من هذا، فقط استمر في تلقي الضربات، ومحاولة صدّها عبثاً، والعرق يسيل من جميع أنحاء جسده، أصيب بكدمات على ذراعيه وفخذه وسالت قطرات من دماثة.

كان الرومان أثناء التدريبات يستخدمون أسلحة خشبية غير حادة، لكنها خشنة وغير مشدبة، لذلك لم يكن غريباً أن يصاب أحد الأطراف أو كلاهما بجروح أثناء التدريب. لم يبد اللقاء برمته مثل أي جلسة تدريب عادية؛ بل محاولة لتقويم أداء الصبي.

أوقف سرتوريوس هجومه والتفت إلى القنصل السابق، فانتهاز قيصر الفرصة وأسند سيفه إلى الأرض وتوكلأ عليه من شدة الوهن، كما لو كان عكازاً، والتقط أنفاسه قليلاً. يؤلمه جسده كله، لقد أصبح مادة للسخرية، ولم يفتن إلى التصرف الصحيح، كان عليه أن يبدأ في الهجوم، لكن سرتوريوس قد يغتنم الفرصة ليتعامل معه بقسوة أكبر، وحينها تصبح العاقبة أسوأ. وضعه الآن أفضل، فعلى الأقل لا يعاني سوى بضع كدمات في أماكن متفرقة، وجرح كبير في كبريائه.

ظل سرتوريوس ينظر إلى غايوس ماريوس. حدّق القنصل إلى ابن صهره لبرهة فأحنى قيصر رأسه وعصر جبهته بقوة. "استمر، لم أمّر بالتوقف" أمر ماريوس.

تنهد سرتوريوس، حتى هو نفسه لم يفتن إلى ما يسعى إليه القائد. لقد افترض أنه يريد أن يعلم ابن صهره بعض الدروس، لكن أي درس هذا! بدا الأمر أشبه بعذاب مرير، لكنه لا يمتلك إلا الامتثال لأوامر القائد، فرفع سيفه من جديد ولوح به في الهواء.

أخذ قيصر نفساً عميقاً، وتظاهر بأنه على أهبة الاستعداد مرة أخرى. حاول حماية نفسه وأخذ موقف المدافع في محاولة لتقليل الضربات، لكنه عجز تمامًا عن إيقاف هذا المطر العاصف من الضربات.

أصاب السيف فخذ الصبي، رغم أن الضربة وجهت له بالجزء المسطح من السيف، إلا أنها أوجعته بشدة فأحني ساقه وركع على الأرض. رأى سرتوريوس ذلك بوضوح، فضربه ضربة حاسمة أخرى على وجهه؛ ولم يفعل ذلك بدافع القسوة، بل رغبة في إنهاء تعذيب الصبي. كان يعتقد أنه من الأفضل طرحه أرضاً دفعة واحدة بدلا من إطالة أمد المواجهة.

لكن ربما أساء سرتوريوس تقدير قوته، وربما لم يضع في حسابه أن قيصر فشل في الذود عن نفسه. وبغض النظر عن الأسباب، أحدث سيف سرتوريوس على وجه قيصر تأثيراً سيئاً. هل أصابه بكسر! كسر خطير؟ سقط الشاب غايوس يوليوس قيصر على الأرض، تكوم مثل كتلة خاملة، وترك مسجى على الأرض في أحد جوانب المخيم، دون حراك.

سكت الجميع، وعم الهدوء أرجاء المعسكر، كما تحجر ماريوس في مكانه، لكن سرتوريوس ألقى بسيفه الخشبي بسرعة وهرع إلى الصبي، خشي أن يكون قد أصابه مكروه. تملكه الخوف، فدنا منه لفحصه، فإذا بقيصر يستعيد وعيه ونشاطه فجأة، ويشهر سيفه بإحكام قدر استطاعته، ويسدد ضربات متتالية إلى خصيتي سرتوريوس، أشبه بضربات مطرقة بغضب بركاني.

عوى سرتوريوس، وسقط على الأرض يضغط بيديه على الجزء المصاب، بينما ينفث ويتنفس بصعوبة. عندئذ نهض الصبي ولوح بسيفه الخشبي متظاهراً بأنه مستعد لمواصلة القتال، رغم الدماء التي تسيل من عظام وجنتيه، والكدمات والخدوش التي أصابت ذراعيه. لكنه ظل منتصباً، أمام سرتوريوس الذي يحاول عبثاً النهوض لمواصلة القتال.

"يكفي هذا القدر!" صاح غايوس ماريوس.

أوما سرتوريوس برأسه وهو يتحسس مكان الألم. دنا ماريوس من ابن صهره، وقال له: "لقد خدعته يا فتى، لكن احذر؛ لا يمكن خداع الخصم الذكي إلا مرة واحدة، باتت حيلتك تلك مستهلكة، هل تفهم؟".

"نعم أفهم، لكنها على الأقل آت ثمارها هذه المرة" أجاب الشاب.

اتفق معه ماريوس، وقال له وهو يضحك: "لنعد إلى المنزل، يجب معالجة تلك الجروح. قد تقتلني أمك لأنني تسببت في تشويه وجهك". وبينما يتحدثان، وصل مبعوث يحمل مكتوباً، فتوجه إلى سرتوريوس وسلمه إياه.

انصرف العم وابن صهره، وتبعثر الحشد. علّق الجميع على ما شاهدوه للتو، كيف استطاع الصبي الصغير خداع القائد!

سارا، القنصل وقيصر، يتحدثان، يضع ماريوس يده على كتف ابن صهره. ورغم أنه تأذى من لمس له مواضع الألم؛ إذ كان مصابًا بكدمات في مناطق كثيرة من جسده، إلا أنه كتم ألمه؛ وعلى العكس، أحب مدلول تلك البادرة: شعر أن عمه وثق في قدراته وربما فخور به.

"ها قد تعلمت أنه لا ينبغي عليك الدخول في معركة إلا من أجل الفوز، وأثبت أنك تتمتع بالدهاء في سبيل الدفاع عن نفسك، وأدركت للتو أنه لا يمكن خداع عدو ذكي إلا مرة واحدة. ولكن هل تعلم، يا فتى، ما هو حجر الزاوية في مواجهة تلك الخصومة اللعينة بين الفصيل الشعبي والأوبتيميتس، التي لا تفتأ تزداد عنفًا، والتي ستورط أنت فيها يومًا ما؟" سأله ماريوس، فعبس قيصر بينما يفكر.

في تلك اللحظة، اقترب منهما سرتوريوس يحمل نبأ بالغ الخطورة: "سوف يعلن مجلس الشيوخ قرار تولي سولا مهمة قيادة الجيش الذي سيواجه ميثراداتس، خلال الجلسة المقبلة".

"علينا أن نتحدث إلى كينا وأن يجتمع مجلس العامة الآن" أجاب ماريوس بنبرة حاسمة.

استمروا جميعًا في السير عائدين إلى وسط روما.

"الدهاء" قال قيصر فجأة "الدهاء هو مفتاح التحكم في هذا الصراع يا عمي".

"صحيح، يا فتى، ولكن الحنكة تستخدمها مثلي الآن كي تحصل على قيادة الجيوش، بيد أن حجر الزاوية الحقيقي هو قيادة الجيوش، وستظل هكذا دائمًا".

شعر قيصر بالدم يسيل على وجنتيه، وجسده يؤلمه. سار بينما يتحسس يد عمه على كتفه. احتفظ الصبي بتلك الكلمات في أعماق عقله، لتبقى إلى الأبد في الذاكرة.

روما ملك لي

نولا، شبه الجزيرة الإيطالية، عام ٨٨ قبل الميلاد

بعدها حدث في المعسكر بستة أسابيع

عين مجلس الشيوخ سولا قنصلًا لروما، ومنحه قيادة جيش نولا الذي سوف يتقدم شرقًا لوقف توسعات ملك بنطس، ميثراداتس، على طول البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه، تصرف مجلس العامة بشكل منفرد، وخاض مخاطرة؛ إذ اختص أعضاءه بصلاحيّة منح قيادة الجيش لمن يروونه مناسبًا، وتمكن منبر العوام، روفوس، من إقناع شعب روما بتفويض غايوس ماريوس بقيادة جيش نولا. وهكذا استعرت الحرب بين الجانبين، لكن سولا كان هو الأسرع بين المتنافسين؛ إذ غادر روما على الفور متجهًا إلى نولا، قبل غريمه، واصطحب معه قلة من الرجال الذين يثق بهم، دون أي قوة عسكرية، كي يثبت توليه لمهام منصبه في أسرع وقت ممكن. وبالطبع، كان دولابيلًا من بين القلائل الذين رافقوه، وواصلوا السير ليلاً ونهارًا، دون توقف.

بينما ماريوس واثق الخطى، أراد تجميع عدد من المحاربين المخضرمين الذي حاربوا معه في إفريقيا وضد الجرمان كي يصل إلى جيش نولا بحراسة مناسبة. إلا أن حذره الذي أثمر عن نتائج ممتازة في مناسبات سابقة، على سبيل المثال في معركة أكواي سكستيا، أفقده روح الإقدام في ذلك الصراع أمام سولا الوقح. فقط الوقت والأحداث سيحددان أيهما أكثر مهارة.

بحلول الفجر، وصل القائد المعين من قبل الأوبتيميتس إلى نولا. وعلى الفور، أجرى لقاء سريعًا مع الطربون، وقدم لهم مکتوب مجلس الشيوخ

الذي يتضمن قرار تعيينه قائدًا للجيش الرومانية التي ستواجه جيوش بنطس. بدا كل شيء مُيسَّرًا له، لكن ماريوس وروفوس وكينا ليسوا عديمي الخبرة فيما يخص الأمور السياسية؛ إذ أرسلوا مبعوثين لإبلاغ القوات بقرار مجلس العامة بتعيين ماريوس قائدًا للجيش، وهؤلاء بالفعل وصلوا إلى نولا بالتزامن مع وصول سولا.

وجد الطربون أن هناك شخصين يقول كلُّ منهما أنه المعين والأحق بالمنصب، أحدهما غايوس ماريوس. لذا ترددوا في الاعتراف بقرار مجلس الشيوخ، ورجع ترددهم هذا إلى أن الأمر تعلق بالقائد الأسطوري ماريوس، الذي حقق انتصارات عظيمة على مدار حياته، بينما لو كان مرشح مجلس العامة أي شخص آخر فلن يترددوا لحظة واحدة في قبول تعيين سولا.

كان سولا أيضًا يتمتع بمكانة رفيعة في الجيش، لكن انتصار غايوس ماريوس ضد الجرمان، ولا سيما في معركة أكواي سكستيا، كان بالنسبة للمحاربين القدامى نقطة فاصلة في العسكرية الرومانية، وإنجازًا منقطع النظير في تاريخ روما كله، منذ زمن سكيبيو الإفريقي. أدرك سولا أنه لا يتنافس مع رجل آخر، أو زعيم آخر من فصيل معارض، لكنه يضع نفسه في مواجهة أسطورة حقيقية، لذا؛ لم يأت اللقاء بالطربون وفقًا للمتوقع. دولابلا أيضًا لاحظ أن تعبيرات وجه سولا باتت جادة، وأنه قلق للغاية، لكنه لم يهزم بعد.

"سوف أقترح عليكم اقتراحًا واحدًا" قال سولا للطربون، وأوضح: "وجهوا الدعوة لكل الضباط وقادة المائة وغيرهم لعقد اجتماع كبير في وسط المعسكر، وهناك، أمامكم جميعًا، يعرض رسل مجلس العامة الأسباب التي تُسوِّغ، وفقًا لهم، تعيين ماريوس قائدًا للجيش، وأنا سأشرح الأسباب التي دفعت مجلس الشيوخ إلى اختياري. وبعدها تستمعون إلى كلينا، حددوا أنتم من ترونه أحق بالقيادة". فنظر القادة بعضهم إلى بعض، واستحسنوا الاقتراح، وقبلوا به.

جلس سولا ودولابيللا بمفردهما في خيمة القائد الأعلى للجيش، الذي لم يُسمَّ بعد، ومن يدري قد تصبح خيمتهما بعد الاجتماع أو ربما تؤول إلى ماريوس. قال دولابيللا بعصبية: "رأيت وجوه الطربون عندما وصل رسل مجلس العامة ليلغوهم بتعيين ماريوس، ولا أعلم كيف ستمكن من إقناعهم بالامتنال لقرار مجلس الشيوخ وحده، من حيث الشكليات والأمور القانونية. إن حقيقة أن هذه الجحافل ستقاتل خارج إيطاليا وأن السياسة الخارجية من اختصاص مجلس الشيوخ لن تقنعهم، والجنود العاديون لا يحسنون فهم تلك التفاصيل الدقيقة".

كان ثمة إبريق نبيذ وكؤوس على المنضدة في وسط الخيمة.

احتفظ سولا بجموده. كان غارقاً في التفكير، فسكب نبيذاً لكليهما وقرب إحدى الكؤوس من دولابيللا، فشربا معاً. أفرغ سولا كأسه سريعاً، ثم قال: "بالفعل، من المؤكد أن الجنود والطربون لا يدركون تلك التفاصيل السياسية، أنت محق، أعلم بذلك، بل يستجيبون لأمر أخرى" وارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة، وأردف: "شُكِّلت هذه الجحافل الجديدة من الجوعى والمشردين، حسب التعديلات التي أدخلها ماريوس بنفسه على الجيش قبل مواجهة الجرمان؛ إذ سمح لأي شخص بالانضمام إلى الجيش. لا تنس يا دولابيللا مع مَنْ نتعامل، إنهم مهمشون ويتضورون جوعاً".

بعد فترة، دخل أحد الطربون إلى الخيمة وأخبرهما: "كل الضباط سيكونون جاهزين خلال وقت وجيز، كما تم استدعاء رسل مجلس العامة".
أوماً له سولا برأسه، فانصرف الأطربون بعدما قدم له التحية العسكرية.

"لا يدرك هؤلاء الجنود ولا حتى قادة حزب البيبولاريس قوانين اللعبة" قال سولا محدثاً دولابيللا، الذي ينصت إليه بانتباه شديد، وأضاف: "إن ملك بنطس ليس مجرد عدو آخر أو قائد ضعيف، بل هو الممثل عن مملكة شاسعة تسعى للتوسع وتطمع في الكثير. قبل بضعة أشهر فقط اختطف بطليموس، المرشح لأن يصبح بطليموس الحادي عشر، حاكم مصر، على أيديهم

واحتجزوه في بنطس. إن ميثراداتس يبذل قصارى جهده لتطويع الحاكم الجديد لمصر، بينما يتوسع نفوذه في جميع أنحاء آسيا، ونحن ومصالحنا سوف نتضرر من وجوده في المنطقة، إن جيشه بات على وشك عبور البحر ودخول اليونان، هذا من جانب، وكل هذا لا يراه حزب البيبولاريس. ربما ماريوس وحده من يفتن إليه، لكن البقية لا تمتد أعينهم خارج حدود روما. أما من جانب آخر، هذا صحيح؛ الفوز أو الخسارة في روما يعتمدان على تعيين قائد هذا الجيش. لكن عليك أن تواجه تحدياً مزدوجاً: إذا انتصرنا داخل روما أولاً تنتفي كل احتمالات الخسارة أمام ميثراداتس في المعركة الكبرى".

شرب دولابيلاً آخر رشفه من كأسه، وضعها على الطاولة ونظر إلى سولا مباشرة وقال: "لكن كل هذا يعتمد على إقناع الطربون وباقي الضباط بقبول تعيينك أنت وليس ماريوس قائداً للجيش".

لم يكن يدري كيف من الممكن أن يحقق سولا هذا الهدف الذي رآه مستحيلاً.

"بالضبط" أجاب سولا، ثم انطلق نحو الباب وقال: "اتبعني وتعلم... سأعلمك اليوم درساً حول حقيقة الطبيعة البشرية".

وسط المعسكر الروماني قبالة نولا

كانت قبائل السامنيت، هي آخر جماعة متمردة ضد روما، تجمعوا في نولا، وواصلوا مقاومة الرومان. لكن الحصار الرهيب الذي يتعرضون له أنهكهم، وأملوا أن يندلع الانقسام بين الفصائل الرومانية، كي تضعف القيادة؛ لأن المواجهة بين الأوبتيميتس وحزب البيبولاريس من شأنها تخفيف معاناتهم، وقد تتاح لهم فرصة ذهبية إذا ما اندلعت حرب أهلية بين الفصيلين.

فكر سولا بينما يستمع إلى رسل مجلس العامة، يفسرون أمام الطربون والجنود الأسباب التي تثبت أحقية ماريوس بالمنصب. في الواقع، لم يكن ثمة جديد فيما قالوه؛ ذكروا انتصارات ماريوس في إفريقيا وفي الشمال

واستمعوا، على وجه الخصوص، بالتذكير مرة أخرى بالفوز العظيم الذي حققه في معركة أكواي سكستيا ضد الجرمان الذين هددوا أمن روما، معتبرين أنه لن يتمكن أحد سوى ماريوس من تحرير إيطاليا من خطر جيوش بنطس الذين لن يتوقفوا عن سعيهم من أجل فرض نفوذهم في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط.

بعدما انتهى رسل مجلس العامة، تعلقت أعين الطربون بسولا، الذي تقدم ووقف على منصة خشبية. بمجرد صعوده أخذ يحرك رقبته من جانب إلى آخر؛ إذ كانت تؤلمه لأنه لم ينعم بالراحة منذ غادر روما مسرعًا، وواصل السير دون هوادة. تنحى ثم قال: "لا شك أن إنجازات ماريوس عظيمة، وأنه قائد عسكري بارع".

تفاجأ دولابيللا، وكان يجلس ضمن الصف الأمامي بجوار الطربون. أربكت جملته الأولى الضباط أيضًا؛ إذ توقعوا منه هجومًا شرسًا ضد قرار مجلس العامة. لكنه واصل خطابه: "لقد ذكرنا رسل مجلس العامة بأعماله السابقة وانتصاراته وحملاته، فماذا أقول أنا؟ هل أقول إن إنجازاته انطوت على مهمات سهلة أو يسيرة؟ وإن ماريوس لم يهزم أعداء أقوىاء؟ هل تراني كاذبًا إذا قلت ذلك؟ لا، ليس هذا ما يجب أن أخبركم به، فأنا لا أنوي تحريف الحقيقة ولن أفعل ذلك أمامكم أنتم؛ جنود روما الذين يحمون أمنها، وخاصة في ظل ظروف عصيبة مثل التي نمر بها. فتمرد مارس لم يُخمد تمامًا حتى الآن، وحصار السامنيث لا يزال مستمرًا، وعندما يبرز عدو هائل آخر في الشرق؛ بحجم ميثراداتس، ملك بنطس، الذي لا يهدد مصر أو آسيا أو اليونان فقط بل يهددنا نحن هنا في إيطاليا، كما أوضح رسل مجلس العامة، ينقضي زمن الأكاذيب والافتراءات. نحن أمام لحظة فارقة في تاريخنا، لذا علينا السعي بأفضل طريقة للقضاء على العدو الجديد قبل أن يصل نفوذه وقوته إلى درجة يصبح بعدها من المستحيل التصدي له".

استغرق بضع ثوانٍ للتنفس. كان يعلم أنهم ينصتون إليه بانتباه، لأنه لم يلجأ إلى مهاجمة ماريوس مباشرة، فأربكهم وأثار فضولهم لمعرفة إلى

أي مدى يريد أن يصل بكلماته. ثم وضع يديه على خصره، وتابع: "وكما أن ماريوس قائد عظيم، فقد أظهرت أنا أيضًا قدراتي في القيادة، وخبرتي وكفاءتي في توجيه الأتراب والجحافل في إفريقيا وفي الشمال، حيث رافقت ماريوس في كل تلك الحملات. لست مضطرًا لتذكركم، على سبيل المثال، بأن أسر الملك المتمرد يوغرطة أصبح ممكنًا بفضل جهودي، إلى حد كبير. علاوة على ذلك، في الحرب الأخيرة ضد تمرد المدن المتحالفة، أظهرت كذلك قدراتي العسكرية".

تنهد. كان عليه أن يبدأ بتوجيه الانتقاد لنفسه، إذا ما أراد أن يقارن نفسه بماريوس، فأضاف: "أعرف ما يدور في خلدكم، ربما كل ما قلته صحيح، وأنه من الممكن اعتباري قائدًا عسكريًا جيدًا، ومع ذلك، فأنتم جميعًا مقتنعون بأن غايوس ماريوس هو الأفضل".

صمت، يتصفح وجوه جمهوره، بينما يومئ الطربون برؤوسهم، ثم أردف: "يمكنني دحض هذه الفكرة، يمكنني المجادلة، ولكن، بصراحة، لا أرى فائدة من الدخول في جدال، بل دعونا نصل إلى جوهر الأمر. حديثنا اليوم لن يتعلق فقط بمن سيقود القوات التي ستقاتل ضد جيوش بنطس، بل سنتحدث أيضًا عن القوات التي ستقاتل بالفعل ضمن صفوف الجيش الروماني". حينها لاحظ أن الطربون وقادة المائة أخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض، بدوا مرتبكين، خاصة بعد جملته الأخيرة، فزادهم من الشعر بيتًا؛ إذ قال: "بالطبع، بحق جوبيتر، لقد أخبركم رسل مجلس العامة بأنه يجب عليكم قبول تعيين ماريوس قائدًا أعلى للجيش الذي سيذهب للقتال ضد ميثراداتس، لكنهم لم يثبتوا لكم أن الجيش المقصود هو أنتم حقًا. إنهم يريدونكم فقط أن تتركوا لماريوس الحق في تقرير أي شيء يخص الحملة العسكرية المقبلة، وهي حرب من شأنها، بالمناسبة، أن تجلب غنائم كثيرة وثروات هائلة للجنود الذين سيشاركون فيها، تفوق مكاسب الحملات السابقة، فمدن الشرق غنية بكنوز الذهب والفضة بكميات أكبر بكثير من ثروات المدن المنهزمة في إفريقيا أو بلاد الغال، تنتظرنا غنائم هائلة وأكثر

إغواء في آسيا، حيث انضمت مدن عديدة بالفعل إلى جانب ميثراداتس، وفي اليونان أيضًا إذا اضطررنا في نهاية المطاف لقتالهم هناك. ماريوس يعرف ذلك، لذا؛ فهو يريد الاستحواذ عليها. لكن أيها الرفاق، واسمحوا لي أن أصفكم بالرفاق، لأنني قاتلت بالفعل مع بعضكم كتفًا لكتف في الحروب ضد المدن المتمردة. أيها الرفاق، أوكد لكم أن غايوس ماريوس لن يرغب في الاستعانة بقواتكم وخبراتكم في الحرب ضد ميثراداتس."

أعطاهم بضع لحظات لاستيعاب ما سمعوه للتو، وبعد وقفة وجيزة، استأنف حديثه: "أنا يا رفاق، هنا، أمامكم، ومعني قرار تسميتي من قبل مجلس الشيوخ، لكن ألم تسألوا أنفسكم: لماذا لم يحضر ماريوس حتى الآن إلى هنا مثلي، طالما أنه قد عُين بالفعل وفقا لقرار مجلس العامة كما يدعي؟ ألم تفكروا في ذلك؟".

توقف مرة أخرى، يراقب كيف عبس جميع الضباط. ساد صمت كثيف، ودارت أفكار غائمة في عقول الطُربون، امتلأت قلوب كل من استمع إلى الخطاب بالريبة، لكنه واصل: "أجييكم، بحق جوبيتر! لقد حضرتُ، ولم يأتِ هو لأن ليس ثمة ما أود إخفائه عنكم، بينما الأمر مختلف بالنسبة له؛ إن غايوس ماريوس منشغل في روما بتنظيم صفوف قدامى المحاربين، الذين حاربوا معه في إفريقيا وفي حروب الشمال، استعدادًا للتوجه معهم لقتال ميثراداتس، حتى يتسنى له تقاسم الغنائم الهائلة مع جحافل القدامى، مع رفاقه. لذا فهو ليس بينكم اليوم!".

رأى سولا كيف عبرت وجوههم عن المفاجأة أولاً، ثم احتدم غضبهم، بينما انتاب رسل مجلس العامة الارتباك. لم يعرفوا شيئًا عما ذكره السناتور للتو، لكنهم بالفعل سمعوا أن ماريوس أراد تجميع عدد من المحاربين القدامى قبل أن ينضم إلى جيش نولا. ماذا لو لم يكن يريد حقًا إعادة تجميع بعض، إنما كل جيشه القديم كما أوضح لوسيوس كورنيليوس سولا للتو؟

تعلقت أعين دولابيلاً بقدوته بإعجاب. مرر سولا الأكاذيب إلى العقول بمهارة فائقة، وليس هذا فقط: لقد خاط تلك الحبكة البارعة والماكرة بإتقان مثالي.

لاحظ سولا براعم الشك في نظرات رسل مجلس العامة، ورأى بذور الغضب تنبت على جباه الطربون المتجعدة، ولم لا فهذا هو يخبرهم بأن غنائم الشرق التي يريدون الحصول عليها قد تضع من بين أيديهم. نظر إليهم بجدية؛ لقد سيطر على عقولهم؛ فهو يعلم تلك الأبعاد الخفية التي تجذب انتباه الجحافل، الثروات هي أكثر ما يجذبهم، لقد سعى ماريوس لإضفاء الطابع المهني على قوات الدفاع عن روما مع ضمان كفاءة الجنود، وفي خضم هذا التحول، اكتسب المال ثقلًا مهمًا في المعادلة.

وحده سولا فطن إلى المحرك الأساسي للمحاربين، قبل أي زعيم روماني آخر، حتى قبل ماريوس نفسه. عليه الآن الانتقال إلى صميم هدفه، فقال لهم: "إذن يارفاق، لديكم خياران؛ إما أنا أو ماريوس، الذي ينظم صفوفه بمنأى عنكم، وقد يخصص لكم بالكاد بضع كلمات يأمركم فيها بالاستمرار هنا في هذا الحصار الأبدي، ويغادر مع ذلك الجيش الآخر، جيشه، وليس أنتم، لاغتراف الثروات الهائلة، التي تستحقونها أنتم دون غيركم. الاختيار مطروح لكم حسب ما ترونه مناسبًا، لكن عليّ أن أحذركم من شيء واحد قبل أن تعلنوا كلمتكم الأخيرة".

يمكنه الآن أن يرى كيف أن الطربون وقادة المائة باتوا مقتنعين بالفعل بأنه الأحق بمنصب القائد الأعلى، لكنه أراد إضافة شيء من شأنه أن يجعل هذا القرار راسخًا ولا رجوع فيه: "احذروا، بحق هرقل، إذا انطلقنا من هنا مباشرة نحو الشرق، فقد يقوم ماريوس وكينا وروفوس ومن يؤيدونهم بمحاولة تغيير القوانين بحيث تعود تلك الغنائم، التي هي حقكم أنتم، إلى خزائن روما، كي تبقى تحت تصرفهم، ليصادرروا ثرواتكم التي سوف تحصلونها بجهودكم في هذه الحرب. والآن، إن كنتم تريدون حقا السير

باتجاه الشرق، تحت قيادتي، من أجل هزيمة ميثراداتس، لنعود من هناك
أثرياء ونضمن مستقبل باهر لأنفسنا، يجب عليكم، يجب علينا جميعًا، أن
نواجه أولًا...".

توقف، أخذ نفسًا عميقًا، ثم صاح: "نحو روما!".

بمجرد أن نطق جملته الأخيرة تلك، تجمد دولابيللا، تحجر في مكانه،
ارتعش وفغرفاه، لم يهاجم أحد من قبل، على الإطلاق، روما نفسها. كان ما
يخطط له سولا منقطع النظير. بدا مقترحًا سخيفًا، ومستحيلًا.

أم إنه لم يكن كذلك؟...

سولا نفسه كان يدرك أن ما اقترحه للتو فاق حدود العقل، لكنه علم
أيضًا أن المال - أو بالأحرى توك من لا يمتلكونه إلى الحصول عليه - بات
يمثل قوة هائلة يمكنها دفعهم إلى ما لا يمكن تصوره.

"فقط إذا ذهبنا إلى روما أولًا وتأكدنا من ترسيخ قرار مجلس الشيوخ،
نضمن أن تكون اليد العليا في مسألة تقسيم الغنائم للمجلس وحده. وإذا ما
ألغينا قرار مجلس العامة، الذي يستند إليه منابر العوام، من أمثال روفوس،
بمنح أعضاء المجلس الحق في تسمية قائد الجيوش، إذا ما فعلنا ذلك
حقًا، نتمكن من الحرب في الشرق بيقين راسخ بأن المغنم ستبقى لكم.
والخيارات التي لديكم هي ما يلي: قبول سلطة مجلس العامة الفاسد وإتاحة
الفرصة لماريوس وقدامى المحاربين للاستحواذ على كل شيء، أو تأييد
تعييني بقرار مجلس الشيوخ، والتوجه معي نحو روما أولًا، لضمان أن
الثروات التي ستجلب من حملة الشرق لكم وحدكم استنادًا إلى القانون.
هيا ماذا تقولون أيها الطربون؟ هل ستبقون هنا، في هذا الحصار اللعين الذي
لا نهاية له على ما يبدو، في انتظار أقل القليل أو لا شيء أبدًا، أم تذهبوا معي
إلى روما لاستعادة النظام وتمكين سلطة مجلس الشيوخ وضمان حقوقنا
المادية؟ ما الذي تفضلونه: البقاء هنا، والتخلي عن آمالكم وتركها
تتلاشى أمام أعينكم، أم التقدم نحو روما؟".

انتهى خطاب سولا على هذا النحو. أبقى ذراعيه مرفوعين بحماس هائل، في انتظار إجابة الطربون، حتى صاح أحدهم أخيرًا: "الزحف نحو روما!".

وسرعان ما انضم إليه العشرات والمئات من الضباط، رددوا مرارًا وتكرارًا: "الزحف نحو روما! الزحف نحو روما! الزحف نحو روما!". حينها نزل سولا من على المنصة، فاقترب منه دولابيل على الفور، وهو لا يزال في دهشة من الأمر، وقال له: "لا يمكنك الإغارة على روما".

"لن أهاجم روما" أجابه. وأمام شكوك دولابيل، البادية على وجهه، أوضح ما في الأمر بجملة مقتضبة: "روما مُلكي".

كورنيليا تتعلم اليونانية

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٨٨ قبل الميلاد

دعت والدة قيصر كورنيليا لقضاء النهار معها في منزلها، فوافق والدها ولم يمانع، رغم أنه لم يكن يسمح لها بمغادرة المنزل مطلقاً، حتى من أجل التسوق مع العبيد في منتدى فينالسيوم. لم يستغرب رغبة أوريليا في التعرف من كذب على الفتاة التي ستتزوج ابنها الوحيد، رغم أنه رأى سعيها لا لزوم له؛ فقد تم بالفعل الاتفاق على الزواج، لكن النساء يستمتعن بمثل هذه التفاصيل غير المهمة. بالنسبة له، طالما أن مساعيها لن تغير في الوضع شيئاً، ولن تمس ما تم الاتفاق عليه، فلن يهتم. قبل خروج الفتاة أوصاها: "تحديثي قليلاً وتصرفي بتواضع، لا تسببي لي حرجاً".

أظهرت الطاعة، وانصرفت تحرسها مجموعة من العبيد، ولم تنس أخذ بردية بلاوتوس معها إلى منزل قيصر، الواقع في حي سوبورا. بعدما رحبت بها أوريليا، لاحظت أن الفتاة تمسك ببردية ابنها فسألته، لكسر الجليد: "هل قرأتها؟".

"نعم" أجابت الفتاة باقتضاب، وفقاً لنصيحة والدها.

فأشارت لها بالجلوس على مقعد أمامها في الردهة الرئيسية، وسألته: "هل أعجبتكِ؟".

لم تكن كورنيليا تعرف ما يجب عليها قوله، فأعدت أوريليا السؤال بإصرار: "هل استمتعتِ بقراءتها؟".

"بدت لي مسلية".

"إنها مسلية حقًا، بطل الرواية رجل يبدو وكأنه أحمق. هل تعتقدين أن كل الرجال أغبياء؟" سألتها أوريليا.

ظلت كورنيليا صامتة، فاعرة الفاه، ولم ترد. فترفت بها أوريليا وهدأت من حدة استجوابها، إذ لم تتم الفتاة بعد ٩ سنوات، وبالكاد يسمح لها والدها بالخروج من المنزل والاختلاط بالناس.

"في رأيك، لماذا دعوتك إلى منزلي اليوم؟".

"لا أعرف".

"بل تعرفين، ألا ترين أن الكذب قد يعدُّ بداية سيئة للعلاقة بيننا، أليس كذلك؟".

علمت الفتاة أن أوريليا تريد أن تتجاذب معها أطراف الحديث لأنها ستصبح يومًا ما زوجة ابنها، أرادت أن تعرف رأيها في قيصر. لكن إن صارحتها تكشف لها معرفتها بالأمر، ومن ثم ستعرف أنهما وقفًا يتنصتان على الرجال. انتابتها الحيرة، لم تعرف ماذا تقول، لقد كذبت حتى لا تكشف أمامها خطأهما بالتنصت، والأسوأ من ذلك أنها إن أخبرتها بالحقيقة قد ترى الأم أن الفتاة خانت ثقة ابنها وأفشت سره. وهكذا باتت محاصرة من كل جهة، هل تجيبها بأن والدها هو من أخبرها بأمر الزواج المتفق عليه؟ لكن الجميع يعلمون أن والدها لن يفعل ذلك أبدًا...

حتى خلصتها أوريليا من ثقل الأفكار؛ إذ قالت: "أعلم أنك تعرفين بأمر الاتفاق على زواجك من ابني، كما أعرف أن قيصر يستمع إلى المحادثات مختبئًا وراء ستارة غرفة المكتب، وهو يفعل ذلك منذ كان طفلًا صغيرًا، ربما منذ خطأ أولى خطواته. هو يعتقد أنني لم أكشف أمره، لكنني كشفته، ولن يكون هذا هو موضوع محادثتنا اليوم أيتها الفتاة، الآن قولي لي في رأيك لماذا طلبت مجيئك إلى منزلنا اليوم".

ابتلعت كورنيليا لعابها، رأت أن الالتزام بتعليمات والدها بضرورة التحدث قليلاً لم يكن سهل التنفيذ. تفرست في وجهها بخجل وقالت: "كي نتحدث عن قيصر، ابنك يا سيدتي المبجلة، على ما أعتقد."

بدا على السيدة خيبة الأمل، فأجابتها غاضبة: "هذا هراء، بحق الآلهة جمعاء. ما الفائدة التي يمكن أن أحصل عليها من التحدث معك في أمر شخص أعرف عنه كل شيء؟ لا، لم أستدعِكِ لأتحدث عن ابني، بل لتتحدث عنكِ أنتِ".

"عني أنا؟ أنا لست مهمّة" تساءلت كورنيليا متشككة.

"لا شك أنك بالنسبة إلى والدك لست سوى وسيلة، وأنه أراد زواجك من ابني، أي من ابن صهر غايوس ماريوس، كي يضمن بقاء الوحدة مع أكبر زعيم للفصيل الشعبي. لقد لاحظت بعيني كيف يتجاهلك، لكنني لم أعتد التقليل من شأن أحد، حدثيني عن نفسك، أخبريني عن الأمور التي تستمتعين بها".

نظرت كورنيليا إلى الأرض في ارتباك، لم تكن تعرف من أين تبدأ، لكنها لن ترد على كل سؤال بالصمت، فقد تفسر السيدة هذا الأمر على نحو سيء، فقالت: "أحب الخياطة، وترتيب وتنظيم البيت والغزل..."، ففوجئت بأوريليا تقاطعها: "دعكِ من الإجابات التقليدية، حدثيني عن الأمور التي تثير شغفك حقاً".

رفعت كورنيليا مستوى بصرها قليلاً، وعصّت على نواجذها خجلاً، وردت: "أحب الحياكة وتسليني كثيراً، بينما أقضي يومي في توجيه الأوامر إلى العبيد، فيما يخص ترتيب المنزل، لكنني أحياناً لا أعرف كيف أفعل ذلك. أعتقد أنني سأتعلم بمرور الوقت. ولكن ما يثير شغفي حقاً هي القراءة".

"وماذا تقرئين؟"

"أقرأ في كل شيء. اقتنيت بضع برديات، لكن عددها محدود لا يقارن بما لديكم هنا" وأشارت إلى المكتبة، فتذكرت أنها كانت مختبئة هناك

للتنصت. احمرّ وجهها خجلاً وخفضت بصرها مجدداً، شعرت بإحراج شديد.

"يمكنني منحك المزيد من أعمال بلاوتوس، هل تجيدين قراءة اليونانية؟".

تنهدت كورنيليا، ها هو السؤال نفسه يُطرح عليها مرة أخرى، وأجابت: "لا، لا يرى والذي أي حاجة لأن أتعلم أكثر من مهام المنزل".
"حسناً".

صمتا لبرهة، ثم باغتتها والدّة قيصر: "هل ترغبين في تعلم اليونانية كي تتمكني من قراءة القصص مثل ثالستريس، وملكة الأمازون، أو هيلين وحرب طروادة؟ هل لديك علم بتلك القصص؟".

"لا، لا أعرف أيّاً منها، وبالطبع أود لو استطعت يوماً ما قراءتها، لكن أبي...".

"من فضلك لا تذكري أباك بعد الآن، أنتِ هنا في منزلنا، وتحدثين معي أنا، مع أوريليا".

صمتت الفتاة واكتفت بالإيماء برأسها عدة مرات، فسألته أوريليا: "ما رأيك أن أعلمك قراءة اليونانية؟".

"نعم، أود بشدة يا سيدتي" أجابت، والدموع تنهمر من عينيها من فرط السعادة. امتلأت فخراً وإعجاباً بتلك السيدة، وبدت لها مختلفة عن كل نساء روما.

فجأة، اقتحم قيصر ولاينوس المنزل وتوجها مباشرة إلى الردهة، فقطعا محادثة كورنيليا وأوريليا. ما أن وصلا حتى قال قيصر لاهثاً: "جيش سولا يعتزم الإغارة على روما! ومعه ست فيالق من جحافل نولا".

نظرت أوريليا إليهما في حيرة، وسألت ابنها: "هل أنت متأكد مما تقوله يا بني؟ هذا مستحيل، هل يدفع السناتور الروماني الجحافل إلى الانقلاب ضد روما!".

في تلك اللحظة، وصل والد قيصر أيضًا، عائدًا من المتدى؛ إذ باتت إغارة سولا على روما حديث الساعة في المتدى. كان يتصبب عرقًا، لا شك أنه عاد عدوًا على طول الطريق من وسط المدينة لجلب الأخبار. عند دخوله إلى الردهة، سمع جملة أوريليا الأخيرة، فأجاب مؤكدًا: "حسنًا، لقد تحقق للتو ما تظنينه مستحيلًا".

"اجلبوا له الماء!" صاحت السيدة بكل قوتها، ونظرت إلى العبيد، فغادر أحدهما فورًا لإحضار ما طلبته. ثم التفتت إلى كورنيليا وهي تقول: "هكذا نتحدث إليهم" وكانت تقصد أن تعلمها كيف تأمر العبيد فيطيعون، أو مات الفتاة برأسها مرة أخرى مظهرة تفهمها.

"لم يصطحب معه الفيالق الستة كاملة، يبدو أنه ترك عددًا كبيرًا من القوات من أجل حصار السامنيث. إنهم قادمون وليس في إمكان أحد التصدي له" صمت لبرهة يلتقط أنفاسه، وأضاف: "تحدثت إلى ماريوس وكينا، ماريوس مُجبر على الرحيل؛ فليس لديه ما يكفي من المحاربين القدامى في المدينة لمواجهة جيش سولا، ولا توجد طريقة لإقناع هؤلاء بالتنازل عن ولائهم. يبدو أنه قد أغراهم بغنائم الحرب ضد ميثراداتس وليس في مقدور شخص آخر التعهد لهم بما هو أفضل. إنه سولا الماكر، نذير الشؤم، الذي يثقل كاهلنا. سوف يغادر ماريوس مرة أخرى، كما فعل عقب مقتل ساتورنينوس وغلاوسيا وذاك المرسوم اللعين، وسوف يلجأ إلى إفريقيا. أما كينا..."، توقف الأب، تفرس في وجه كورنيليا الصغيرة. ترى ما الذي تفعله الفتاة في بيته؟ لم يمعن التفكير، أثر مواصلة سرد الأخبار: "سيبقى كينا في روما. عدا سولا له ليست بنفس درجة عداوته لماريوس، وقد أكد لي أنه سيتوصل إلى اتفاق لتجنب إراقة الدماء. ما ستجلبه الأيام المقبلة سوف يثقل كاهلنا".

أحضروا له الماء، وشرب حتى ارتوى، ثم تهاوى على إحدى الأرائك وردد: "سوف يشتد بأسنا".

عادت كورنيليا إلى منزل والدها تتلمس طريقها، بعد كل ما سمعته في منزل قيصر. وجدته قلقًا، يسأله أخوها عما سيفعل حيال المستجدات، بينما ظل غارقًا في صمت كثيف، فعاود السؤال: "ماذا ستفعل يا أبي؟".

تابعت كورنيليا المشهد، وحاولت أن تبدو هادئة للغاية. عندما يكون والدها في تلك الحالة، فإنه من الأفضل ألا تتفوه بشيء ولا تفعل شيئًا، كي تتجنب الوقوع فريسة لغضبه. بعد برهة أجابه: "سننتظر، الآن ليس أمامنا إلا القبول بكل شروط سولا، فهو آجلًا أم عاجلًا، يغادر روما مع جيشه لمواجهة ميثراداتس، حينها نتصرف. سوف نتحیی الفرص للاستعداد بشكل جيد".

قبل الابن تفسيرات والده دون جدال. بينما فكرت كورنيليا لو أن أنيا، والدتها، امرأة متحررة مثل والدة قيصر، لسألت واستفسرت، لكنها اعتادت الميل إلى الطاعة بحكم العادة، وقد يرجع ذلك إلى أسلوب تربيتها الحازمة، أو لأن كينا لم يكن مفتتحًا ومرنًا مثل يوليوس قيصر الأب.

سأله كورنيليا: "ومن أجل ماذا نستعد يا أبي؟" أدهش تدخلها في المناقشة الجميع، فرمقها والدها بنظرة عبّرت عن انزعاجه، لكنه أجاب: "عندما يدخل سولا روما سيمكث لفترة وجيزة ثم سيغادر من أجل التصدي لجيوش ميثراداتس، وهذا يمنحنا وقتًا كافيًا للاستعداد قبل عودته من الحرب". لم يرد أن تترسل في الأسئلة فأضاف: "أنتِ لن تحسني إدراك هذه التفاصيل، لأنكِ فتاة".

لم تطرح كورنيليا المزيد من الأسئلة، وغضت الطرف عن استخفافه بها لكونها فتاة. في الواقع، شعرت براحة أكبر وتقدير أعلى في منزل عائلة جوليا. لم تكره والدها قط، لكنها لم تكن متأكدة من حبها له، وكانت والدتها صامته على الدوام.

مِلَّةٌ سولا

روما، عام ٨٧ قبل الميلاد

كما توقع قيصر الأب، لم تعد ثمة طريقة لمعارضة سولا وجحافلَه أو التصدي لهم. وبين الصدمة والرعب، سيطرت قواته على المدينة وجميع مؤسساتها. كان مجلس الشيوخ بالفعل تحت سيطرة الأوبتيميتس، لذا واجه مجلس العامة وكل من يدعمونه.

لم يكن المنبر روفوس قد حثَّ العامة على تأييد تعيين ماريوس قائدًا للجيش فقط، بل دعا لسن تشريع جديد يمنح حقوق المواطنة الرومانية لمزيد من سكان المناطق المتحالفة، رغم أنه لم تمر فترة طويلة على الحرب ضد العديد من القبائل المتحالفة في روما. كما أن حصار نولا لا يزال مستمرًا، وكان منح الجنسية الرومانية للمزيد من الحلفاء ضروريًا من أجل تعديل عدد الأصوات، ومن ثم القدرة على جمع مزيد من الأصوات المؤيدة لتعيين ماريوس قائدًا أعلى للجيش.

لذا؛ حرص سولا على إلغاء كل هذه التشريعات الجديدة؛ وأطاح بجميع الإصلاحات، والتعداد الجديد، وقرار التوسع في منح الجنسية الرومانية للمدن المتحالفة. كما أمر باعتقال ماريوس وروفوس، لكن القنصل السابق تمكن بمساعدة قدامى المحاربين، من الفرار نحو إفريقيا على ظهر سفينة، بينما لم يحظَ روفوس بفرصة للفرار. وكان مجلس الشيوخ، قبل وصول سولا، قد أصدر بالفعل قرارًا قضائيًا بعزل روفوس من منصبه، ثم اضطر إلى إلقائه لدوافع دبلوماسية. وبعد رحيل ماريوس ودخول جحافل سولا، لم

يتبق أمام منبر العوام خيار سوى الفرار بأقصى سرعة، لكنه سرعان ما قبض عليه في منطقة على بُعد أميال قليلة من روما، وتم اغتياله.

سار سولا في المتندى تتبعه أنظار أعضاء مجلس الشيوخ والعامّة في المدينة. تجول متندًا في مشيه، مطمئنًا، أمامه رأس روفوس المفصول عن جسده، تسيل منه الدماء، ومخوزقًا على وتد خشبي. لقد أراد بالفتك بروفوس تحذير بقية القادة الشعبيين، لكن ماريوس، نأى بنفسه عن كل هذا بفراره.

"هل نهاجم الآخرين؟" سأله دولابيللا، كان يقصد كينا وغيره من قادة الفصيل الشعبي الذين لا يزالون في المدينة.

أمعن سولا التفكير، ثم أجابه بحزم: "لا... بل نقيم جسور الاتفاق معهم، قوايننا مقابل بقائهم أحياء".

"ولماذا لا نفرض قوايننا ونمحوهم من الوجود في الوقت نفسه؟" سأله دولابيللا. كان التحدث في المتندى بينما يتدلى رأس روفوس مخزوقًا في وتد يمنحه أمانًا هائلًا يكفي لقمع الشعب بأكمله. لطالما استلذ بالتجبر على الآخرين. فأوضح له القائد: "تتطلب عملية التطهير واسعة النطاق تمرکز القوات في روما لعدة أشهر، وأمامنا مشكلتان تعرقلان إبقاء الجحافل في المدينة".

"مشكلتان؟ بحق هرقل! وما هما؟" لم يفهم دولابيللا لماذا لا يستفيد الزعيم من لحظة القوة تلك ويفرض سيطرته الكاملة على جميع المؤسسات والقضاء على الفصيل الشعبي دفعة واحدة، وكان يقصد بالقضاء أي إبادتهم، عبر مجازر واسعة النطاق.

تنهد سولا، مرر يده على فمه، وأوضح: "لقد وعدت الجنود بغنائم الحرب، وليس لدينا فعليًا أموال وذهب وفضة بما يكفي لإرضاء رغبات ستة جحافل، لن يتوفر لنا ذلك دون نهب المعابد أو السيطرة على خزائن الدولة. وثانيًا، لا يزال خطر ميثراداتس قائمًا، لذا يجب أن أغادر برفقة الجحافل،

دون ترك مفرزة عسكرية واحدة تحت قيادتنا في روما. لا يمكننا أن نحكم المدينة بالقوة، على الأقل لا يمكننا ذلك الآن، ولهذا السبب سنبرم اتفاقاً مع كينا، فهو صوت الفصيل الشعبي في المدينة في ظل غياب ماريوس".

"ألهذا السبب لم تقتله" سأله دولابيللا. بدت الأمور واضحة له الآن.

"أجل، أحتاج إلى بقاء زعيم الفصيل الشعبي كي يحافظ على انضباطهم. سوف أصل لاتفاق تلغى بموجبه القوانين التي روج لها روفوس". وهنا التفت إلى رأس المدعو ونظر إليه بحقد، فتجهم وجهه ثم أضاف: "وأعتقد أن منبر العوام المخزوق ها هنا سيذكرهم جميعاً بمصير أي شخص يحاول التلاعب في التعداد الذي يصب في صالحنا الآن، هذا بالإضافة إلى سحب الجنسية التي منحها مجلس العامة للكثير من أعدائنا. سوف أعرض على كينا منصب القنصل مقابل قبوله لشروطي، إنه طموح للغاية، وسيقبل بلا شك. وبعد ذلك الاتفاق، أنت وأنا يا صديقي، سوف نقود المسيرة ضد ميثراداتس".

واصل سولا السير عبر منتدى روما، واضعاً يديه على خصره، ودار بهيبة حول الرأس المفصول عن الجسد النازف، حينئذٍ، تملكته الخُيلاء. كان يعرف أن كثيرين في روما الآن، ربما في تلك اللحظة بالذات، يتضرعون ويقدمون القرابين كي تحل رحمة الآلهة عليهم، إذ يخشون اندلاع حرب أهلية جديدة، أما هو فقد اتخذ إلهه هواه، فصار يعبد نفسه، لا ينحني سوى أمام رغباته؛ والكهنة بالنسبة له هم الجحافل، إنه دين جديد لعالم جديد: عالمه هو.

أيام كينا

روما، عام ٨٧ قبل الميلاد

سار كل شيء في روما، حتى بعد مغادرة سولا على رأس الجحافل، وفقاً لما خطط له، فعُيّن كينا قنصلاً ممثلاً عن حزب البيبولاريس، ونياس أوكتافيوس قنصلاً ممثلاً عن الأوبتيميتس.

لكن كينا سرعان ما شرع في إكمال ما بدأه روفوس، الذي فصل رأسه عن جسده، بالتوسع في منح سكان المناطق المتحالفة الجنسية الرومانية والحق في المشاركة في الانتخابات. وأراد دمج حوالي ٣٥ منطقة جديدة في التعداد، وسط رفض الأوبتيميتس، بينما فشلت كل محاولات أوكتافيوس للتفاوض معه. فما كان من مجلس الشيوخ إلا إصدار قرار بعزله من منصبه وطرده من روما وتعيين السناتور ميرولا مكانه، رغم أن سولا حذرهم من التصدي لكينا في غيابه إذ قال لهم: "لا تواجهوا كينا دون جحافل، حتى ولو انتهك بنود الاتفاق، لا تبدووا بالهجوم عليه، وانتظروا عودتي".

وأمام قوة الأوبتيميتس أضطر كينا وعائلته، إلى مغادرة روما. لكنه واصل تنفيذ خططه على نحو جيد؛ إذ استمر في تحرير العبيد وتجنيد سكان المناطق المتحالفة مشكلاً جيشاً ارتجالياً سار به نحو روما، وكان سكان تلك المناطق متعطشين للانتقام بعد هزيمتهم على يد جحافل روما على مدار السنوات السابقة.

لم تكن القوات القليلة التي تركها سولا في روما تحت سيطرة نيباس أوكتافيوس، قادرة على المواجهة الحقيقية؛ إذ افتقرت إلى الخبرة. لذا

طالب الطربون بأن يتولى ميتيلوس بيوس، مسؤولية القيادة، لكن ميتيلوس المتلثم سرعان ما أدرك أن جيش كينا يفوقهم عددًا، ففر هاربًا، تمامًا كما فعل ماريوس قبل عودة سولا. وكذلك لم يصمد أوكتافيوس، ولجأ إلى تل جانيكولوم المخصص لعبادة الإله يانوس، غرب نهر التيبر، خارج أسوار المدينة، ما سهّل هزيمة جنوده، ليفرض كينا سيطرته على روما مرة أخرى، ويتربع الفصيل الشعبي من جديد على عرش الجمهورية. كل هذا وسولا عالق في حرب ميثراداتس على أراضي اليونان.

بعد ذلك، تم اللحاق بأوكتافيوس وإعدامه، ثم فصل رأسه عن جسده وعلق على وتد، تمامًا كما فعل سولا بروفوس؛ رأس قنصل الأوبتيميتس مقابل رأس منبر العوام. بدا الأمر عاديًا بالنسبة إلى كينا، بينما رأى كثيرون من الداعمين للفصيل الشعبي أنه كان يجدر به التوصل إلى اتفاق مع الأوبتيميتس بدلًا من مواجهة العنف بالعنف، وإلا فإن إراقة الدماء لن تنتهي أبدًا. على أي حال، قرر كينا بعد ذلك التواصل مع غايوس ماريوس وابنه وتشجيعهما على العودة مرة أخرى، لأن ذلك من شأنه تعزيز سلطته، فوافق ماريوس على العودة إلى روما بصحبة ابنه وعدد محدود من قدامى المحاربين. وبمجرد وصوله، اجتمع بكينا في منزل عائلة جوليا لمناقشة سبل إعادة تنظيم الحكم في ظل المعطيات الجديدة.

منزل عائلة جوليا

اجتماع كينا وماريوس

التقى قيصر بكورنيليا مرة أخرى بعد غياب، وجلسا معًا في الفناء الخلفي، سألها:

"هل أنت بخير؟ عندما علمتُ بأن والدك اصطحبك معك بعدما طرده مجلس الشيوخ من المدينة، انتابني القلق".

"حسنًا، أنا بخير" أجابت كورنيليا. حركت مشاعرها معرفتها بأنه كان قلقًا عليها، فأضافت: "لم يرغب والدي في منحهم فرصة لاستخدامنا كرهائن، سواء أنا أو أخي."

"والدك يقلق عليك، ويهتم بسلامتك."

نظرت إلى الأرض وهزت رأسها نافية وقالت: "لا، بل يهتم بنفسه فقط"، ثم تصفحت وجهه، وأردفت: "أمثل أهمية بالنسبة له فقط لأنه من خلال ارتباطنا يصبح اتحاده مع ماريوس وثيقًا. هذا هو الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامه بي". صمت الشاب منصتًا لها بعناية، فأردفت: "لم يعد يزعجني شح مشاعره تجاهي، بل أدركت أنه يستخدمني كوسيلة للتقرب من شخص يدعم مصالحه السياسية. بيد أنني سعيدة للغاية لأن قدرتي هو الانضمام إليكم. أنت تعاملني بود، ووالدك كذلك، وخاصة والدتك".

"عرفت أنها شرعت في تعليمك اللغة اليونانية، أخبرتني بذلك".

"نعم، وأنا ممتنة للغاية لها. أعلم أنها تفعل ذلك من أجلك، من أجلك أنت فقط. إنها تريد أن أرتقي إلى مستوى الزوجة التي تستحقها، رغم أنها لم تظهر لي الأمر على هذا النحو، لكنني أدرك الحقيقة".

"قد تكونين محقة، لكنني أؤكد لك أنها إن لم تعجب بك فلن تفعل ذلك".

"ماذا تقصد؟" سألت.

"أن تُعلمك اليونانية. أكثر ما سمعته من أمي على مدار السنوات الأخيرة، هو أنها تتقدم في العمر ولم تعد قادرة على تحمل غباء الآخرين. لذا فهي إن لم تعتبرك ذكية ولمّاحة، لما تفرغت خلال فترة ما بعد الظهيرة لتعليمك لغة جديدة، كما أنها أخبرتني بإنك تتعلمين بسرعة".

"والدتك امرأة ذكية حقًا" أجابت. دُهِشت من مدى سلاسة التحدث معه؛ أرجعت ذلك إلى اعتياده التحدث مع الفتيات، فهو لديه شقيقتان، كما

أوضح هو نفسه قبل أشهر، وأردفت: "تتظاهر والدتك بعدم المعرفة، لكنها تدرك كل ما يحدث. و..." تركت الجملة معلقة.

"وماذا...؟ أكملني" حثها قيصر على مواصلة الكلام، لكنها لم تستطع قول ما أرادت بصوت عالٍ، لذا همست به: "لها رأي مستقل حيال كل شيء، حتى في السياسة أيضًا".

انفجر قيصر ضاحكًا، فانضمت كورنيليا إليه. أحبت تعامله بعفوية معها. وبعدها هدأت ضحكته قال: "هذا صحيح، أُمي تحتفظ برأي مستقل".

بعد ذلك ظلّا صامتين لبعض الوقت. أراد قيصر سؤالها عما قرأته خلال الفترة الأخيرة، لكن كان ثمة أمر آخر أثار اهتمامه أكثر في تلك اللحظة، فأشار إلى حجرة المكتبة واقترح: "هيا لنستمع لما يقولونه؟".

"والدتك تعلم أنك تنصت... أننا نتنصت" أجابته مرة أخرى بصوت هامس. إلا أنه لم يبدو متفاجئًا، وسألها: "توقعت ذلك، لكن قل لي هل طلبت منك ألا تفعل بعد الآن؟"، جعدت جبهتها، وأجابت: "لا، لم تطلب مني أي شيء".

اطمأن قيصر، ومد لها يده كي ترافقه، وهو يقول: "إذن هيا بنا"، فناولته هي يدها. ومرة أخرى، كما فعلًا قبل بضعة أشهر، قادها عبر الممرات حتى دخلا إلى حجرة المكتب التي تطل على الردهة الأساسية في المنزل، حيث يجتمع كينا وابنه، وغايوس ماريوس وابنه، وسرتوريوس، ويوليوس قيصر الأب وأوريليا.

الردهة الرئيسية في منزل عائلة جوليا

كان كينا وماريوس يتحدثان بصوت عالٍ، يقاطعان بعضهما بعضًا، بينما بقي ابناهما صامتين. بدت على ملامح الجميع الجدية، لم يسبق لهما أن رأيا الآباء على خلاف محتدم إلى هذا الحد.

من جانبه، حاول قيصر الأب تهدئتهما قائلاً: "لنرَ، كلاكما على حق بشكل جزئي، بحق الآلهة جمعاء، كلاكما فعل ما رآه مناسبًا كي تبدأ

التغييرات في الجمهورية أخيرًا وإلى الأبد، ولكن عليكما التوصل إلى اتفاق. كما تعلمان، سيعود سولا، فإما أن نتحد أو نبقى في حالة انقسام وتضعف جبهتنا. أما هو فسوف يجد أفضل حليف له كي يستعيد السلطة المطلقة". هذأتهمما كلماته بعض الشيء.

بينما بقيت أوريليا صامته، حذرة مروعة القلب، تنظر بين الحين والآخر ناحية باب غرفة المكتب.

"كان قطع رأس أوكتافيوس خطأً، والدم يجلب الدم" أصر ماريوس.

"إنما القوة والبطش هما ما يربعان الأوبتيميتس. إنها لغتهم التي استخدموها من قبل مع الأخوين غراكوس، وساتورنينوس ونيرون دروسوس، ومؤخرًا مع روفوس".

"لغتهم هم، ولسنا سواء، كما أن قطع رأس أخرى لن ييث الرعب في نفس سولا. لقد بلغت به قسوة القلب غايتها" اعترض ماريوس.

صمت كينا لبرهة، ثم أضاف: "الأمر يتوقف على ما ستؤول إليه الحرب ضد ميثراداتس. سوف يتحقق ما نرغب فيه جميعًا على أيدي ملك بنطس ورجاله؛ إذا ما قضى على سولا. وكما رأيت، ما فعلته نتج عنه فرار ميتيلوس وتمكنت أنت من العودة".

تنهد ماريوس، وأقر بنبرة أثبتت ميله إلى الاتفاق: "هذا صحيح، سوف يتحدد كل شيء وفقًا لتطور الحرب ضد جيش ميثراداتس".

"بحق الآلهة!" صاح قيصر الأب محتفلاً، لقد وصلا أخيرًا إلى نقطة اتفاق. نظر إلى العبد الأتري وأمره: "أحضروا النبيذ"، فانصرف مسرعًا لتلبية أمر سيده، وسريعًا عاد بالمشروبات. فشربوا جميعًا، وربما ساهم النبيذ باكوس في تهدئة التوتر بعض الشيء.

بعدهما انتهوا قال ماريوس: "حسنًا، لا بكاء على الحليب المسكوب، ومن أجل الآتي أقترح أمرين".

"وما هما؟" سأله كينا.

"علينا الحفاظ على انضباط هؤلاء العبيد الذين حررتهم وسلحتهم؛ إنهم يبثون الرعب في شوارع المدينة. لن أناقشك بشأن ما إذا كان ما يفعلونه ضرورياً أم لا للنيل من عزيمة الأوبتيميتس والموالين لهم من القتلة المسلحين، لكن ما أعرفه وأدافع عنه هو أن روما يجب أن تصبح في ظل حكمنا، مثلاً يحتذى به في الانضباط. وأرى أن قدامى المحاربين أكثر حكمة وانضباطاً، ويمكنهم تولي أمر تأمين المدينة دون جرننا إلى عنف جامع".

"يمكنني أن أمرهم بالانسحاب من الشوارع" وافق كينا على مقترح ماريوس، وسأله: "وماذا بعد؟".

"إذا أردنا دعمًا غير مشروط من الشعب، فعلينا تنفيذ الإصلاحات التي ناضلنا من أجلها. وأنا هنا لا أقصد فقط التوسع في منح الجنسية للقبائل المتحالفة، ولكن أود الإشارة إلى ضرورة البدء في إعادة توزيع الأراضي والقمح أيضًا".

ساد صمت كثيف لبعض الوقت، كسره كينا؛ إذ أجاب بقوله بصوت منخفض: "حسنًا".

"حسنًا إذن، هل اتفقنا؟" أصر ماريوس؛ أراد الحصول على تأكيد واضح من طرف محدثه.

"نعم، اتفقنا" أكد كينا بنبرة حازمة.

"فليكن".

"رائع!" علق قيصر الأب، وبدا بشوشًا للغاية، ومرة أخرى التفت إلى العبيد وأشار لهم كي يجلبوا الطعام والنبذ للضيوف. حينها اقتربت منهم أوريليا وتحديثت بصوت عالٍ لأول مرة منذ بدأ الاجتماع: "سأذهب لدعوة غايوس وكورنيليا كي ينضمّا إلينا لتناول العشاء". أوماً قيصر الأب وكينا برأسيهما، فغادرت السيدة على مهل عبر الردهة، كانت تعلم أنه يجب منح

الصبي والفتاة وقتًا كافيًا كي يخرجوا من حجرة المكتب ويعودوا إلى الردهة الخلفية، حيث يفترض أن يبقيا.

في ظل ضجيج العبيد الذين واصلوا جلب الأطباق وتقديم الطعام، مال ماريوس على سرتوريوس وهمس له: "أريد أن يتولى المحاربون القدامى تأمين الشوارع، وإن اضطروا إلى قتل بعض عبيد كينا، فليفعلوا"، فأومأ سرتوريوس برأسه مرة واحدة فقط.

مد ماريوس ذراعه ممسكًا بكأس فارغة كي يملأها أحد العبيد بالنبيذ، بينما يمعن التفكير. الآن بدا أن كل شيء قد تم الاتفاق عليه، رغم أن ثمة أمرًا عاليًا يقلق راحته؛ إنه أمان ابن صهره، لقد كبر ابنه وبات قادرًا على قيادة الجحافل، لكن قيصر الشاب أصغر من أن يقاتل. كان قد جلس مع والده لمناقشة سُبُل حمايته تحسبًا لعودة سولا وسيطرته على السلطة مرة أخرى، ورأى أن موعد إطلاع كينا على ما توصل إليه بشأن قيصر قد حان، فقال له: "ثمة شيء أود أن أتفق معك بشأنه".

كان قيصر الابن وكورنيليا قد دخلا للتو إلى غرفة الطعام، حسبما أشارت لهما أوريليا.

"وماهو؟" سأله.

"منصب الكاهن الأكبر لجوبيتر، فلامين دياليس، لا يزال شاغراً" قال ماريوس. لم يكن ذلك مفاجئًا، لقد كان المنصب الكهنوتي الأكثر شهرة في روما، لكنه يفرض على من يتولاه الكثير من القيود المكبلة وغير المريحة، لدرجة أن الامتثال لها كان أشبه بالمستحيل، فمن يتولى منصب فلامين دياليس لا يمكنه قضاء أكثر من ليلة خارج روما؛ في الواقع، كان عليه أن ينام في سريره دائمًا ولا يتغيب عنه لأكثر من ثلاثة أيام متتالية؛ ولا يسمح له بخلع ملابسه في الأماكن العامة، ومعنى ذلك أنه ممنوع عليه استخدام الحمامات العامة، التي اعتاد الرومان الذهاب إليها، ولا يستطيع ارتداء الخواتم التي تطوق إصبعه بالكامل أو لمس كثير من المواد شائعة الاستخدام في الحياة

اليومية مثل؛ الكروم والبلاب الذي كان ينمو بكثرة في جو روما الرطب، وكذلك يمنع من امتطاء الخيول أو النظر إلى الأسلحة أو متابعة المناورات العسكرية وما إلى ذلك من قيود لا حصر لها. ولهذا، كان من الطبيعي أن يحجم الجميع عن هذا المنصب فيما عدا قلة قليلة. رغم أنه انطوى أيضًا على امتيازات مهمة، فمن بين أمور أخرى، يمنح صاحبه الحق في حضور جلسات مجلس الشيوخ، والجلوس على المقعد الكروي، الذي عُدَّ حكرًا على الملوك والقناصل، ورمزًا للقوة السياسية والعسكرية. ولطالما أُعتبر صاحب الفلامين دياليس شخصية رفيعة الشأن ويحرسه ليكتور واحد.

"هذا صحيح، لا يزال شاغراً" أكد كينا.

"في إطار الرغبة في تعزيز تحالفنا، أود تسمية ابن صهري، غايوس يوليوس قيصر الابن، فلامين دياليس" قال ماريوس.

لم يقترح أن يتولى ابنه المنصب، لأنه كان يحتاج إليه لمساعدته في قيادة القوات، بينما كان قيصر لم يكبر بعد إلى درجة تسمح له بأن يسهم في المجال العسكري.

ظل كينا صامتًا، يقلب الفكرة في رأسه، بينما يشرب النبيذ. جلس قيصر الأب منتبهًا لرده، وأوريليا كذلك، بينما وقف قيصر الابن مدهوشًا للغاية، فشعر بالاختناق، وبدأ يسعل، لكنه سرعان ما احتوى هذا التشنج بشرب كوب من الماء. ما يقوله الرجلان فاق مستوى التوقعات، إنهما يكرران نفس الفعلة، تمامًا كما اتفقا على زواجه من كورنيليا دون أن يستشيريه أحد.

لقد أرهقه التفكير في كم القيود والحرمان من كثير من مظاهر الحياة العادية التي ستفرض عليه إذا ما وافق كينا على توليه المنصب. لكنه حافظ على صمته، وهذا هو المتوقع منه. بينما كورنيليا، في لفظة غير معتادة من فتاة رومانية، ربتت على ذراعه بيدها، لكنها تراجعت بعد برهة.

واصل كينا التفكير... على أي حال، الشاب قيصر سيصبح صهري، وعليه وضع هذا الأمر في حسبانته، ثم علق في النهاية بنبرة تشي كما لو أنه يطرح

مشكلة تعرفل تعيينه: "لكي يتم اختياره للمنصب يجب أن يكون متزوجًا. يمكننا تخطي العديد من القوانين، لكنني أعتقد أن انتهاك القواعد المتعلقة بالآلهة يجعلنا غير محبوبين".

فأوضح ماريوس متفهمًا: "لم أقل إنه يجب أن يتولى المنصب الآن، سوف يتزوج ابن صهري من ابنتك بمجرد بلوغها، وبعد ذلك يُعيّن فلأمين دياليس".

رأى كينا أن موافقته ستعزز الاتفاق السابق على زواج ابنته من غايوس قيصر الابن، فقال: "ليكن" رافعًا كأسه يقدم نخبًا بمناسبة الاتفاق الجديد مع ماريوس، بينما يرتب العبيد الأنية التي تحوي أطعمة شهية أمام الضيوف.

لم يأكل قيصر قضمة واحدة، فأثرت حالته في نفس كورنيليا وأهمها هم، وسألته: "هل أنت بخير؟".

"ذهب عني الجوع فجأة" أجاب الشاب.

معابد اليونان

معبد دلفي، اليونان، عام ٨٧ قبل الميلاد

دخل سولا اليونان عبر إيروس، وعندما وصلوا إلى معبد دلفي الشهير، أمر الجحافل بالابتعاد عن الطرق التي تقود إلى مواقع جيش ميثراداتس، وكان عليه تسوية التأخر في الدخول في قتال مباشر مع العدو أمام الجنود، فقال: "أريد استشارة البيثيا".*

بينما استغرب دولابيللا تورعه الديني، ورأى أن التباطؤ في تقدم الجحافل يمكن أن يمنح ميثراداتس مزيداً من الوقت لتنظيم قواته وصفوفه وتدعيم مواقعه في اليونان. لكنه أثر عدم مناقشته، ونقل التعليمات فوراً إلى الطربون.

هم الآن في طريقهم إلى معبد أبولو في دلفي، الذي تدهور حاله منذ فترة طويلة، لكن لا يزال كثير من الحجاج يشدون الرحال إليه، ليس فقط من اليونانيين، بل يأتي إليه أناس من أماكن بعيدة في آسيا أو بلاد الغال، يتجمعون حول معبد الهيكل المقدس، حيث تقيم ثلاث عرافات تتنبأن بأحداث المستقبل.

صعدوا منحدرات الجبال التي أدت إلى المكان المقدس. وأمام تقدم سولا، برفقة دولابيللا، وعدد من المسلحين، تنحى الحجاج جانباً. كان سولا قد نهب معبد زيوس في أولمبيا بالفعل، لذا؛ خشى الحجاج من أن يكون القائد العسكري الروماني عازماً على إثارة غضب الآلهة مرة أخرى، لكن لم يعتقد أحد أن بطشه يمكن أن يصل إلى هذا الحد، ودلفي أكثر الأماكن قداسة

* يقصد الوسيط الروحي وكاهنة الإله أبولو، يطلقون عليهم لقب "بيثيا" وتعني باليونانية "الحية". (المترجم)

في المنطقة. رغم أنه تعرض قديمًا لزلزال دمر جزءاً منه، ولكن أعيد بناؤه بعد ذلك، وعندما نهبه الفوشيين بعد هزيمتهم على يد فيليب الثاني المقدوني، والد الإسكندر الأكبر، أجبرهم على إعادة كل ما نُهب، وبهذا استعاد المعبد والهيكل وكل ما يحتويه رونقه. منذ ذلك الحين لم يتجرأ أحد على السرقة من دلفي، حتى ولو تمثالاً صغيراً، ورغم أنه مر بفترات صعود وهبوط على مدار قرون عديدة، إلا أنه لم يتعرض قط للنهب على نطاق واسع سواء في أوقات ازدهاره أو تدهوره، مثلما يتعرض له في الوقت الحاضر، ولم يجرؤ أحد على الإطلاق، بالتأكيد خوفاً من انتقام الإله أبولو الذي نُذر له الهيكل منذ مئات السنين. بل على العكس؛ منذ زمن بعيد، يقدم الملوك والحكام من جميع أنحاء العالم اليوناني هدايا فخمة إلى الهيكل امتناناً له للتنبؤات التي تحققت أو تلك التي ساعدتهم على ضمان الحفاظ على مصائر شعوبهم سواء في أوقات الرخاء أو في الحرب.

"هل سنلتقي بالعرافات؟" سأل دولابيلما عندما صدوا إلى الهيكل.

"ربما" أجابه سولا دون اهتمام. كان عقله مشتتاً، كما لو لم يعد في رأسه، أو لم يصطحبه معه في تلك الزيارة. أخذ يتلفت ويجول ببصره من جانب إلى آخر عبر ذلك المسار المتعرج بينما يواصل الصعود حتى وصل إلى الهيكل.

"اعتقدت أنه لا يمكن استشارة العرافات إلا في مواعيد معينة."

"٩ مرات فقط في السنة، من فبراير إلى أكتوبر، وفي كل شهر مرة واحدة" أجابه، ما أدهش دولابيلما؛ إذ لم يتخيل أن سولا متعمق في المعلومات الخاصة بدلفي، فطرح سؤالاً آخر: "لطالما تساءلت عن سبب تسمية الكاهنات اللاتي يتنبأن بالمستقبل في دلفي ببيا، إنه اسم يثير الفضول، يذكر بالثعبان".

تنهد سولا. في بعض الأحيان يقلقه جهل دولابيلما، لم يكن يؤمن كثيراً بالآلهة أو بالتنبؤات، لكن الجهل بالتاريخ لم يكن مقبولاً بالنسبة له. وعلى

أي حال أوضح له: "كان هذا المعبد في الأصل مخصصًا لإلهة الأرض، غايا، وكانت تحرسه ابنتها الحية العملاقة واسمها بايتون. يقولون إن أبولو قتل تلك الحية، واحتكر المعبد، وأوكل إلى النساء بأن يكن هن الكاهنات له، لذا يطلق عليهن اسم بيثيا إحياء لذكرى الحية التي قُتلت".

بدا دولابيللا في حيرة من أمره، فعلق قائلاً: "لم أظنك شديد التقوى والورع إلى هذا الحد".

"الأمر ليس كذلك، أنا فقط على علم بتاريخ المعبد، ومن خلال تلك المعرفة علمت أننا سنجد هنا كنوزًا أكثر بكثير من أي مكان آخر في اليونان. تماثيل ذهبية وفضية، وصناديق تحوي عملات معدنية، وجميع أنواع الهدايا المتراكمة ها هنا وكلها أمور لا تحظى بحراسة جيدة نسبيًا، لأن لا أحد يجرؤ على أخذها خوفًا من غضب أبولو. أقصد الهدايا المكدسة في الحرم الرئيسي وفي كل تلك الأضرحة الصغيرة أو المستودعات التي نراها في كل مكان، وكل مدينة يونانية. كل مملكة تبجل الوحي، أقامت أضرحة على طول هذا الطريق، تقدم لها الهدايا".

لم يصدق دولابيللا ما يسمعه. لم يأت سولا لاستشارة وسيطة الوحي. لا لم يكن دافعه الورع، بل سوف ينتهك المقدسات. سأله متعجبًا: "هل ستنهب المعبد؟".

"هل هناك جيش بإمكانه التصدي لنا؟".

"لا".

"حسنًا، بينما نحن لدينا جيش. علاوة على ذلك، يجب أن يرى الجنود الذهب والفضة ويلمسونها. لقد وعدتهم بأنهم سيحصلون على ثروات هائلة، وسوف يقاتلون بمزيد من الطاقة ضد قوات ميثراداتس إن رأوا أن خدمتي تجلب لهم فوائد عظيمة حقًا، ألا تعتقد ذلك؟".

من وجهة نظر عملية بحتة، كانت فكرة سولا مثالية، لكن دولابيللا لا يزال مترددًا، ربما ترجع حيرته إلى تدينه أو إيمانه بالخرافات، جادله: "لكن

دلفي... حتى ثوقيديدس وأفلاطون احترما هيكل الوحي... دلفي هي مركز العالم".

"مركز العالم، نعم، من الجيد أنك تعرف تلك الأسطورة" علق سولا. بدا مستمتعاً إلى حد ما بمخاوف القائد الثاني في جيشه.

"أسقط زيوس نسرين، أليس كذلك؟ أحدهما من جهة أقصى شرق العالم والآخر من أقصى الغرب، فسقطا في مركز العالم، هنا في دلفي، سرّة العالم" سأل دولابيللا.

"هذا ما يقولونه" علق سولا، دون أن يتوقف عن المشي، ودائمًا يتلفت حوله للتأكد من أن جميع الموجودين من الحجاج وليس من بينهم مسلحين. في الواقع لم يعترض طريقهم سوى عدد قليل من الرجال المسلحين عند سفح المنحدر، بينما واصلوا السير مباشرة نحو المعبد، فما كان من سولا إلا أن نظر إلى أحد الطربون، دون الحاجة إلى النطق بالأمر، وسرعان ما أحاط جنوده بالحراس وأجبروهم على تسليم سيوفهم ورماحهم. كان التفوق العددي لجنود سولا حاسمًا. فأصدر تعليمات واضحة: "أحضروا فيلقًا كاملًا هنا، إلى أعلى الهيكل، وأخلوا المنطقة كلها، بالقوة إذا لزم الأمر. لا أريد أي حجاج في دلفي في غضون أقل من ساعة". فأدى الأطربون التحية العسكرية إذ ضرب على صدره بقبضة يده، ثم غادر ومعه عدد من القادة لتنفيذ المهمة التي كُلّفوا بها للتو. بينما انطلق سولا، جنبًا إلى جنب مع دولابيللا ومجموعة كبيرة من الجنود المسلحين، عبر الطريق المنحدر.

لم تظهر أي من العرافات أبدًا. لم يغفل سولا هذا الأمر، فعلق بنبرة بها قدر من الاحترام: "ربما، بحق الآلهة جمعاء، يعرفن حقًا كيف يتنبأَن بالمستقبل، إنهن يتمتعن بالذكاء".

لم يعلق دولابيللا. لم يكن متدينًا إلى حد كبير، لكنه كان مؤمنًا بالخرافات كثيرًا، ولم يمل إلى الاستخفاف بأي أمر يتعلق بالآلهة أو الكهنة أو الكاهنات.

"بالمناسبة، أحصيت "٢٧ أضاف سولا.

"٢٧" ماذا؟" سأل دولايلا.

"٢٧" هيكلًا صغيرًا على جانبي الطريق الذي يقود إلى المعبد الرئيسي. هذا يعني أن لدينا ٢٧ مستودعًا للهدايا، أي أكثر مما تخيلت".

التزم دولايلا الصمت مرة أخرى. بات من الواضح بالنسبة له أن زيارة سولا للمعبد كان هدفها الأوحده هو جمع المال.

دخلوا إلى المعبد.

دوى هدير المياه التي يفترض أنها سحرية، تندفع من نافورة "كاستاليا" على شكل تمثال أسد، وتتساقط فوق بركة صغيرة من المياه، وعلى مستوى أعلى، برز تمثال آخر لأبي الهول، وإلى جانبه، كُتب قول مأثور لأحد الحكماء الإغريق السبعة، باليونانية فيما معناه "اعرف نفسك".* قرأها سولا وعلق: "هذه نصيحة مفيدة"، ثم وجه أوامره إلى جنوده: "فتشوا ساحات المعبد، أريد الذهب والفضة والعملات المعدنية وأي أشياء ثمينة هنا. اجمعوها عند الأبواب، ثم اجلبوا عربات لنقل كل شيء، سوف نقوم بصهر الذهب والفضة لتوزيعهما فيما بعد على الجنود".

وهكذا بدأ نهب معبد أبولو في دلفي. جمع جنود الفيلق تماثيل ذهبية وفضية، وصناديق تحوي عملات معدنية وأحجارًا كريمة وأشياء ثمينة على كل شكل ونوع، من الكؤوس إلى الأسلحة المزينة ببذخ. وفاحت رائحة نبات الغار من جميع أنحاء المعبد، وهو النبات الذي كانت تستخدمه العرافات أثناء التواصل مع الآلهة الأولمبية كي ينقلوا وصاياهم في كشف أسرار المستقبل، في عملية اعتبرت الأكثر قسوة وتدنيًا على مدار قرون.

هال دولايلا ما رآه. خشي عقاب الآلهة، فدنا من سولا المبتهج، وسأله: "هل حقًا لا تخاف الآلهة، ألا تخشى انتقام أبولو؟". فالتفت سولا إليه بهدوء ونظر في عينيه وقال: "لا، الأمر الوحيد الذي يخيفني هو ألا أتمكن من

* قول منسوب للحكيم الإغريقي خيلون الإسبرطي. (المترجم)

إرضاء طمع الجنود، وها أنا ذا أتخلص من مخاوفي اليوم. فبفضل الدعم الذي تقدمه ثروات المعبد لنا، سوف ننطلق نحو أثينا غدًا".

سار كل شيء على ما يرام. الجيش المجهز الذي استولى على ثروات دلفي، سيظل ممتنًا له إلى الأبد. صحيح أن أمامه حملة عسكرية ضد عدو مراوغ، لكنه بات يشعر بأنه قوي وازداد حماسًا. في نهاية اليوم انسحب سولا إلى خيمته، لكن بعد وقت وجيز دخل عليه دولابيل ينقل له الأخبار، فوجده جاثمًا على سريره، فأخبره: "ها هو أبولو ينتقم؛ لقد سيطر كينا على روما، وأعدم نيباس أوكتافيوس... كما إن ماريوس عاد."

هز سولا رأسه بلا مبالاة، فحدّق إلى الأرض، وعلّق دون أن يلتفت إليه: "أبولو لم يفعل أي شيء. في جميع الأحوال كان كينا عازمًا على نقض الاتفاق المبرم بيننا بأسرع ما يمكن. لكن يجب الاعتراف بأنه نفذ ما أراده بسرعة وبحبكة مضبوطة". ثم صمت ولم يفسر كلامه. ظل دولابيل مرتبكًا فطرح عليه سؤالًا محددًا كي يتسنى له إدراك مقصده: "وماذا سنفعل الآن؟". حينها زفر سولا ببطء شديد كل الهواء الذي تحويه رثته، ثم أجابه بينما يتأمل سقف الخيمة في هدوء: "نتجه نحو أثينا، لمواجهة ميثراداتس، وبعدها تنتهي الحرب نعود إلى روما، لكننا سنعود أقوى، وحينها سنتعامل بلا هوادة مع أعدائنا."

أوما دولابيل برأسه مؤيدًا، فما قاله قائده ومعلمه قد شمل خطة العمل بأكملها.

"سوف أنام الآن" أضاف سولا مسترخيًا، وكان اعتداء كينا على السلطة ومقتل القنصل أوكتافيوس وعودة ماريوس إلى روما عقبات صغيرة لن تحرمه بأي شكل من الأشكال التلذذ بنوم هادئ.

استراحة أبدية للنسر

منزل غايوس ماريوس، روما

يناير، عام ٨٦ قبل الميلاد

اختير قنصلا العام الجديد، وهما؛ كينا، للمرة الثانية، وغايوس ماريوس للمرة السابعة، وهو أمر منقطع النظير. لكن الرجل الذي انتصر في حرب إفريقيا وأوقف تقدم التوتونيين والكيمبريين، وغير تشكيل الجيش الروماني، أصابه المرض بعد أيام قليلة من حصوله على القنصلية السابعة، وبقي في السرير لمدة أسبوع، كان عمره قد ناهز السبعين.

حتى أقوى النسر التي تحلق عاليًا دومًا، تخور قواها يومًا ما وتضعف أجنحتها حتى لا تعود قادرة على معاودة الطيران. هكذا أضحي القائد الأسطوري، واهنًا ضعيفًا، وأصابه الهذيان، فكان يحلم أنه هو، وليس سولا، قائد الجيوش ضد ميثراداتس. داخل عقله مُزج شوقه مع اشتداد حمى المرض وغامت أفكاره واختلطت عليه الأمور، لكن تلك الساعات تخللتها لحظات استفاقة استغلها في التحدث إلى ابنه وكينا وغيرهما من القادة الشعبين.

في ظل هذا الوضع الاستثنائي، حل سرتوريوس محله في قيادة مئات من قدامى المحاربين، وتولى حراسة منزله وحفظ النظام في جميع أنحاء روما. في أحد الأيام، ما أن دخل عليه سرتوريوس يطمئن على حاله، حتى سأله ماريوس: "هل أصبحنا بمفردنا الآن؟"؛ إذ أراد أن يتحدث إليه على انفراد.

"نعم سيدي القنصل" أكد. ولما لمح شكوكًا على وجه قائده ومعلمه، طمأنه قائلاً: "كينا كان هنا قبل قليل، لكنه انصرف عائداً إلى منزله، بينما بقي ماريوس الابن وقصر الشاب في الردهة. لقد قلت إنك تريد التحدث إليهما ومعني أيضاً".

"نعم، حسناً..." وكان يجد صعوبة في الكلام فيتوقف بعد كل كلمة أو جملة يسيرة. "اسمعني، كينا... ذاك الأحمق... سوف يجلب لنا مشكلات عديدة... أقصد للفصيل الشعبي ككل... إنه متطرف للغاية... لا أعتقد أن حكمه سيكون ناجحاً...".

حاول سرتوريوس أن يخفف من جهد القنصل المخضرم بتوقع كلماته، حتى لا يضطر إلى صياغتها فيرقه ذلك، فقال: "كل شيء سيعتمد على نتائج الحملة ضد ميثراداتس، أليس كذلك؟".

"لقد تعلمت الكثير" أجاب ماريوس بثقة بالغة.

"إذا انتصر سولا واستولى على غنائم الحرب ووزعها على جنوده، يصبح لديه جيش لا يمكننا مواجهته. لكن أعتقد أن كينا يسيء فهم حقيقة الأوضاع" أوضح سرتوريوس.

"إنه يستخف بقدرات سولا".

"إذا انتصر سولا في آسيا وفرض سيطرته في روما، حينها، أعتقد أننا سننضطر إلى الانسحاب، لكن ليس إلى إفريقيا هذه المرة".

"لا تتحدث بصيغة الجمع يا رفيقي... لم يعد في العمر بقية".

ابتلع سرتوريوس الغصة، قاوم دموعه بقسوة؛ كما أن مخاطبة القنصل له بـ "يا رفيقي" أسرت قلبه.

"إلى أين تخطط للذهاب إذا سيطر سولا على السلطة المطلقة؟" سأله ماريوس.

"إلى هسبانيا، إنها أكثر ثراء بالموارد وغنية بسلاسل الجبال، وبصحة قدامى المحاربين بالإضافة إلى مصادر الدعم الأخرى نصل إلى هناك،

ونعزز حصوننا لتظل القضية الشعبية قائمة، فنواصل النضال. وعندما أمتلك القوة الكافية أتمكن حينها من العودة للتفاوض معهم، هذه خطتي".

تنهد غايوس ماريوس، أصبح يستغرق المزيد من الوقت، أكثر من المعتاد، لإدراك المعلومات. أخذ وقتًا طويلًا كي يجيب، ثم علق في النهاية: "إنها خطة رائعة"، ثم ساد صمت طويل بينهما. رغم أن ثمة أمورًا كثيرة يمكن أن تطرح في تلك الجلسة، لقد رافق سرتوريوس ماريوس في حملات لا حصر لها وكان دائمًا مخلصًا له، والإخلاص في السلم والحرب، في خضم الصراع الأبدي بين الأوبتيميتس والشعبيين، بات سلعة نادرة للغاية، تفوق قيمته أفخم المجوهرات التي يمكن للمرء أن يتخيلها. لكنهما آثرا التوقف عن الكلام، وتقاسما صمتًا طويلًا، أشبه بوداع صامت، حتى عبّر له ماريوس عن رغبته في التحدث إلى قيصر: "أريد التحدث إلى ابن صهري لبعض الوقت".

فنهض سرتوريوس وألقى التحية العسكرية. سار لبضع خطوات في صمت، ثم استدار وغادر الغرفة، وبمجرد وصوله إلى الردهة، أبلغ قيصر الشاب: "القنصل يريد التحدث إليك".

نظر قيصر إلى والده فأشار له مشجعًا، ثم التفت إلى ماريوس الابن فهز رأسه مؤيدًا وقال له: "استقرت حالته بعض الشيء، عندما تنخفض الحمى يُسمح لنا بالتحدث إليه، لذا كن موجزًا يا فتى". بعد ذلك، مر الشاب قيصر عبر صفيين على الجانبين من المحاربين القدامى القائمين على حراسة منزل القنصل. وبمجرد دخوله عليه، غمغم العجوز ماريوس، طريح الفراش، بصوت واهن: "اقترب... يا غايوس" فأطاع قيصر وجلس على مقعد إلى جوار السرير شغله سرتوريوس قبل دقائق.

"لم يعد لدي الكثير من القوة... لذا آثرت الدخول في الموضوع مباشرة... لقد حذرتك عدة مرات من سولا... سأفعل ذلك مرة أخرى الآن. إن كينا يسيطر على المدينة ويعتقد أنه سيسيطر عليها إلى الأبد... لكن سولا سيعود... ميثراداتس ليس عدوًا له، أما كينا... لا أعرف... سوف تزوج ابنته... عليك إجباره على احترام اتفاقنا بخصوص تعيينك فلامين

دياليس... أعلم أن المنصب يقلق راحتك يا فتى، لكن صدقني... أفعل ذلك من أجل حمايتك؛ لم يأمر أحد من قبل بإعدام كاهن جوبيتر، صدقني، هذا المنصب... سيحميك... على الأقل سيمنحك الوقت... على الأقل للتفكير... إذا ما ساءت الأمور...". لم يكمل، اضطر إلى التوقف، لم تسعفه قوته على قول المزيد.

"حسنًا، أن أتولى منصب فلامين دياليس وأحذر سولا" لخص قيصر كلام عمه كي يدرك العجوز أنه فهم جوهر عباراته المبتورة. استحسن القنصل قوة إدراكه وسرعة بديهته: "هذا صحيح يا فتى... أحسنت... والآن... أطلب منك أن تستدعي ابني... لن يحلق النسر بعد الآن إلا نحو عالم الموتى".

نهض قيصر. كان على وشك الوصول إلى الباب، لكن ماريوس همس إليه بصوت خافت: "احذر دولابيلًا أيضًا، إنه خطير تمامًا مثل سولا".

أوما قيصر بالموافقة. أغمض ماريوس عينيه، بينما غادر الشاب الغرفة وعاد إلى ممر المحاربين القدامى، فوجد أن ماريوس الابن في طريقه نحو الغرفة، بينما وقف والده ينتظره. لم يكن من المناسب مغادرة هذا المنزل دون وداع لائق لمن ربما يصبح رب عائلة ماريًا قريبًا، وما أن رآه حتى سأله: "ماذا قال لك؟".

"لقد أصر على أن أتزوج من كورنيليا، وأن أتولى منصب فلامين دياليس، وأحذر سولا ودولابيلًا" أجابه.

"الزواج في الظروف الحالية يعدُّ في صالحنا، كما سنصّرُ على تعيينك كاهنًا. أما فيما يخص الحذر من سولا ودولابيلًا نسأل الآلهة أن تحميانا من بطشهما. لا أعرف هل في إمكان كينا وماريوس الابن التصدي لهما أم لا، لكن ليس أمامنا سوى التعلق بالأمل فيهما".

وقف سرتوريوس على مقربة منهما، يسترق نجواهما، بينما احتفظ لنفسه بأفكاره السوداء حول مستقبل نظام كينا، وما أخبره به ماريوس قبل قليل. كانت لديه خطته البديلة: اللجوء إلى هسبانيا.

داخل غرفة ماريوس، جلس ابنه على مقربة منه ينتظر أن يتحدث إليه، لكن الأب ظل يرتعش. عندما تحسس جبهته، وجد أن الحمى اشتدت عليه، فأحسّ به العجوز وصاح بصوت متهدج: "يوغرطة أين هو ذاك اللعين؟".

"لقد مات يا أبي، أسرته قواتك، وُسجن وأعدم، هل تذكر؟".

استحسن غايوس ماريوس إجابته، لكنه ظل يرتعش مضطربًا، وسأله مرة أخرى: "وتيو توبود، ماذا عنه؟، لديه جيش ضخم... لكن يجب ألا نهاجمه بأي شكل... يجب أن نتظر..".

"سقط تيو توبود في المعركة يا أبي، في أكواي سكستيا، لقد هزمت جيشه، كما هزمت كل الجيوش التوتونية والأمبرونية والكيمبرية وكل من واجهتهم يا أبي، كنت أنت المنتصر دائمًا".

بدأ غايوس ماريوس يهدأ وتوقف عن الاهتزاز، تقلب من جانب إلى آخر، ثم قال: "علينا إذا أن نتصدى... لميراداتس... سوف تتولى أنت قيادة الجناح الأيسر... وسرتوريوس الأيمن... بينما أقود أنا الأوسط... علينا أن نحيطه... بسلاح الفرسان... كما فعلنا في أكواي سكستيا، هل تفهم؟".

"أفهم يا أبي... سوف نتصدى له وفقا لهذا التكتيك" أجابه؛ إذ لم يشأ معارضة والده المحتضر في شيء. لم ير أي جدوى من تذكيره بأن سولا هو من يقود جيش روما ضد ملك بنطس في آسيا.

التفت غايوس ماريوس إلى ابنه ونظر إليه للحظة، ثم سأله: "انتزعت الانتصار في حروب عديدة، أليس كذلك؟".

"بلى، فعلت يا أبي".

ألهمته إجابات ابنه الراحة، فأغلق عينيه مسترخيًا. وبعد لحظة واحدة، توقفت الملاءات عن الاهتزاز، أصبح كل شيء ساكنًا. يبدو أنها منحته راحة أبدية. أسرع ماريوس الابن بإخراج عملة ذهبية من بين ثنايا التوجا، ووضعها بحذر بين فكي والده، واستعد لبقية طقوس الجنازة. لقد حرص

على وضع العملة كي يجدها خارون* الذي يعبر بقاربه نهر ستيكس باحثًا عن تلك العملات في أفواه الجثث. ثم خرج إلى الردهة وأعلن الخبر دون ضجة، مثل عسكري ينقل رسالة محددة، دون إظهار أي مشاعر، تمامًا كما ودّ والده: "لقد رحل أبي".

مكتبة

t.me/soramnqraa

منتدى روما

يناير عام ٨٦ قبل الميلاد

بعد وفاة غايوس ماريوس بيوم واحد

أقيمت مراسم حرق جثة ماريوس، بحضور عائلة قيصر، في ظل حراسة عدد من قدامى المحاربين الذين استمروا في حراستهم بدافع الصداقة والولاء. وفي طريق العودة نحو حي سوبورا، سألت أوريليا زوجها: "ترى هل يجلب هذا، رغم قسوته، بعض السلام للمتوفى؟". أجابها: "لا أعرف". مروا بمجموعة كبيرة من الجنود المسلحين، يرأسها شاب يبلغ من العمر حوالي ٢٨ عامًا.

"إنه فيمبريا" قال قيصر الأب، بينما يحث الخطى، ويدعو أفراد أسرته إلى اللحاق به: "لنعد إلى المنزل في الحال".
"من هو فيمبريا؟" سأل قيصر الشاب.

"إنه الذراع اليمنى لكينا الحاكم الفعلي لروما بحكم الأمر الواقع، منذ أخضع مجلس الشيوخ لسيطرته" أجاب، ثم نظر إلى أوريليا وأضاف: "وطالما أن فيمبريا هو من يتولى تأمين شوارع روما، أقول لك، لن تعرف مدينتنا السلام. إنه أعنف رجاله، وإن كنا نتشارك معًا القضية الشعبية. لكن لا، لم ولن ندعم، سواء أنا أو ماريوس، أساليهما تلك للسيطرة على روما."

* وفق الميثولوجيا الإغريقية هو رجل عجوز كئيب متجهم، يعد تجسيدًا للموت والعالم السفلي. (المترجم)

أثينا، مارس عام ٨٦ قبل الميلاد

صعد سولا إلى قمة هضبة أكروبوليس*، ومن هناك كان بإمكانه تأمل المشهد بشكل أفضل؛ اعتُبر الأمر بالنسبة لليونانيين كارثة، أما بالنسبة له فكان درسًا لهم؛ اشتعلت النيران في المدينة بأكملها، ووسط ألسنة اللهب التي التهمت كل شيء، اغتصب جنوده ونهبوا بلا هوادة.

كان دولابيللا رجلًا بلا ضمير، لكن رؤية مشاهد احتراق تلك المدينة الأسطورية، التي زينها النحات فيدياس، وحكمها بريكليس في الماضي بحنكة مبهرة أشادت بها سجلات التاريخ، لم تسلمه من القلق؛ فما يفعله قدوته سولا خارج نطاق المعقول. أولًا أغار على روما، وهو أمر لم يسمع به من قبل، ولم يسبق له مثيل، ثم نهب حرم دلفي المقدس، والآن يحرق أثينا بحجة أن المدينة دعمت تقدم ميثراداتس عبر اليونان على أمل أن يحررها من نير الرومان. وسط تصاعد الدخان والنيران التي أحاطت بهم، سأله: "هل كان هذا ضروريًا حقًا؟".

"من وجهة نظر عسكرية بحتة، لا" اعترف له سولا ثم أوضح: "لكن من وجهة نظر استراتيجية وفي إطار حرب نقائل فيها مدناً يجب أن تقرر هل ستبقى حليفة لنا أم لا، نعم كان ذلك ضروريًا. أعتقد أن الشعب اليوناني بأسره سيفهم رسالتي الآن، ومفادها؛ إما أن تكون معنا أو ستلتهم النيران مدينتك، ليس ثمة خيار وسط. تعال، لننزل من هنا قبل أن تحيط ألسنة اللهب بنا ولا نستطيع الخروج. وهم بالنزول، فتبعه دولابيللا في صمت، بينما يحاول استيعاب مدى قسوة ومكر زعيمه.

منزل عائلة جوليا، روما، خريف عام ٨٦ قبل الميلاد

جاء كينا إلى منزل عائلة جوليا، دون سابق إنذار، لكن بالطبع، لم يمنعهم ذلك من استقباله وتكريمه كما فعلوا دائمًا. كما واصطحب ابنته كالعادة،

* هضبة صخرية عالية تقع وسط أثينا، والكلمة من مقطعين: (أكرو) ويأتي من العلو والارتفاع، و(بوليس) تعني المدينة، وكان اليونانيون يتخذون الأكروبوليس قاعدة حصينة ضد الغارات المعادية. (المترجم)

التي أتمت بالكاد عامها العاشر، وباتت تشعر بالارتياح في منزل خطيبها. كانوا جميعًا يعاملونها كما لو كانت ابنة ثالثة لهم، حتى أن أوريليا واصلت تعليمها اليونانية، وأظهرت لها مودة دائمة.

لم تعد ثمة ضرورة لأن يوجه الأم أو الأب قيصر وكورنيليا بالذهاب إلى الفناء الخلفي، بينما يتجاذب الكبار أطراف الحديث حول السياسة والأمور الخطيرة الأخرى، إذ، وعلى الفور، شبَّك قيصر يده بيدها، وذهبا مباشرة إلى حجرة المكتب كي يتسنى لهما التنصت عليهم.

"كان رحيل ماريوس مؤسفًا حقًا، لكنني أرى أنك تحكّم على نحو جيد" بدأ قيصر الأب الحديث بأسلوب ودي، وأضاف: "كما أن تعيين لوسوس فاليريوس فلاكوس، الرجل الحكيم، قنصلًا بدلًا من ماريوس، فكرة جيدة لتهدئة معنويات أكثر المحافظين عدااء لنا في مجلس الشيوخ". وأثر عدم الإتيان على ذكر فيمبريا العنيف، الذي منحه كينا صلاحيات واسعة.

"لهذا عينته" أجاب كينا بينما يقدم له الخادم كأسًا من النبيذ، وأوضح: "فلاكوس رجل حكيم بلا شك. أحيانًا أعتقد أنه حكيم إلى درجة المبالغة". لم يعلق أحد، إذ كان الجميع يعرفون أن كينا يميل إلى التشدد من أجل إحكام سيطرته على المدينة، ولهذا السبب، وعلى مدار أشهر، فضّل ترقية فيمبريا. "أعترم إرسال جيش آخر إلى اليونان" قال كينا، مغيرًا دفعة الحديث، وأوضح: "لا أريد أن تبقى الحرب ضد ميثراداتس في يد سولا وحده".

"لقد حقق انتصارات عديدة في خيرونيا وأورخومينوس، إن لم أكن مخطئًا... انتصارات متتالية، أليس كذلك؟".

ابتسم كينا لمحاوره، وعلّق بينما يتفرس في وجهه لتقييم ردود أفعاله وتفسير إيماءاته: "ظل قيصر المخضرم دائمًا بمنأى عن المناصب السياسية العليا. يعتقد كثيرون أن السبب في ذلك هو أنك لست ماهرًا في السياسة، لكنني لا أتفق معهم؛ بل أعتقد أنك رأيت كثيرين ممن يقربون السياسة يصبح مصيرهم الموت، لذا آثرت البقاء دائمًا تحت الظل، وأرى أنك أكثر حنكة

مما تبديه. كان غايوس ماريوس يمكث كثيرًا وباستمرار في منزلك، وهذا ما أثبت لي صحة اعتقادي. لهذا السبب أقدر نصيحتك يا قيصر، وجئت أطلب نصحك: هل تعتقد أن إرسال ذلك الجيش الثاني فكرة جيدة؟".

شرب قيصر الأب رشفة من كأسه، وتريث قبل أن يجيب. لم تعد ثمة جدوى من التظاهر بالغباء السياسي، لقد اكتشف كينا السر وراء بُعد عن خط المواجهة السياسية، وعرف أنه ما فعل ذلك إلا خشية النيل من سلامة عائلته، فقال بنبرة حازمة: "أجل، إرسال جيش ثانٍ كي لا تبقى حرب ميثراداتس تحت تصرف سولا وحده تبدو فكرة جيدة".

"كنت أعرف! بحق هرقل!" صاح كينا بانفعال، "كنت أعرف أن عليّ فعل ذلك، وتأييدك لي جعلني أدرك مدى أهمية هذه الخطوة. سوف أرسل فلاكوس على رأس هذا الجيش، وهذا لن يولّد رفضًا في مجلس الشيوخ، أقصد الأوبتيميتس على وجه الخصوص".

"اختيار فلاكوس بالذات أيضًا فكرة جيدة" أضاف قيصر الأب.

"لو كان ابنك أكبر سنًا، كنت سأقترح عليه الالتحاق بهذا الجيش الجديد، ستكون فرصة جيدة للتميز عسكريًا. لكنه لا يزال صغيرًا، أليس كذلك؟".

"عمره ١٤ عامًا... بالفعل لا يزال صغيرًا للغاية".

"صحيح، لا يزال صغيرًا على الحرب، لكن لم يعد صغيرًا على الزواج". ظل قيصر الأب وأوريليا ينتظران تفسيرًا لجملة الأخيرة، حتى أضاف كينا مبتسمًا بود: "تذكر أن هناك اتفاقًا بيننا يا صديقي".

"لم أنسه أبدًا يا صديقي وقنصل روما، أتذكره جيّدًا. ابني وابنتك سيتزوجان ولكن فتاتك الصغيرة لم تبلغ القابلية الطبيعية للزواج بعد، لديها الآن...".

"١٠ سنوات" أجابه كينا مكملًا جملة محدثه. بدا منزعجًا، كما لو كانت الطفلة هي المسؤولة عن بطء نموها، وأردف: "لكنها ستبلغ قريبًا، وقريبًا تصبح قادرة على تحمل متاعب الزواج" بدت كلماته وكأنها تهديد أكثر من الآن...".

في تلك اللحظة، نكست أوريليا رأسها، وخفضت بصرها، دون أن يلحظ أحد؛ إذ بدأت، للمرة الأولى، تساورها الشكوك حول مدى جدوى زواج ابنها قيصر والفتاة كورنيليا. كان إعجابها بكينا يتناقص يوماً بعد يوم، منذ رحل ماريوس، الذي كان بمثابة ثقل في الجهة الموازية يضمن توازن قراراته. حافظت على ابتسامة عريضة على وجهها، خبأت خلفها شكوكها وهواجسها، واقترحت: "هل نتناول العشاء معاً؟".

"إذا تفضلتما علينا بذلك" علق كينا.

حضرت كورنيليا وقيصر عائدين إلى الردهة الرئيسية دون أن يستدعيهما أحد. لمحت أوريليا الفتاة والصبي، بدت السعادة على وجهيهما، فقررت عدم اتخاذ أي قرار بشأنهما، وتركت تحديد مصير مشروع زواجهما لسير الأحداث. كذلك انضمت أختا قيصر إلى المائدة والاجتماع الودي. خفف تبادل المحادثات إلى حد ما من مخاوف أوريليا والتوتر الخفي الذي نبع من ضغط الأخير رغبة في تسريع إتمام الزواج.

انتهى العشاء، وعاد كينا وابنته إلى منزلهما، بعدما ودعهما قيصر الأب وأوريليا وقيصر وأخته. في تلك الليلة، جلس قيصر الأب على حافة سريره، في غرفته، وقال لزوجته: "سوف أقبل عرضي الزواج المقدمين لبنتينا".

"هل تقصد زواجهما من بيناريوس وماركوس آتيوس بالبا" سألته، وكان المشار إليهما قد طلبا الزواج من الفتاتين قبل بضعة أشهر؛ الأول طلب يد جوليا الكبرى وكان من عائلة أرستقراطية، بينما الثاني أفصح عن رغبته في الزواج من جوليا الصغرى، وكان من عامة الشعب، ولا ينتمي إلى عائلة ذات حسب ونسب. والواقع أنه في ظل تلك الظروف المضطربة، أضحى الزواج من مواطنين غير بارزين في السياسة مرغوباً فيه إلى حد ما، لأن حياة هؤلاء غالباً ما تكون أقل عرضة للمخاطر.

"نعم" أكد قيصر الأب.

"هكذا علينا فقط أن نقلق بشأن زواج واحد."

"بالفعل".

"الأكثر حساسية وأهمية."

"الأكثر حساسية نعم، والأكثر أهمية" كرر، ثم أضاف جملة أصابت أوريليا بالقلق: "أشعر بأنني لستُ على ما يرام؛ إذ لم يشكُ زوجها قط من قبل. بدا ذلك غريبًا بالنسبة لها.

منزل القنصل لوكيوس كورنيليوس كينا

في نفس الليلة

جاء فيمبريا بعد منتصف الليل. كان مسلحًا ترافقه مجموعة كبيرة من الرجال الذين لا يعرفون الرحمة مثله، متبهين في انتظار أوامره. بمجرد دخوله على كينا سأله: "هل طلب قنصل روما مجيئي؟".

"نعم، لقد استدعيتك" أكد كينا، وقاده إلى غرفة المكتب، وهناك قال له: "قررت إرسال جيش ثانٍ إلى الشرق لمواجهة ملك بنطس".

"حسنًا" علق فيمبريا لإثبات حسن استماعه وانتباهه، رغم أنه لم يكن واضحًا بالنسبة له مدى علاقته بالأمر.

"سيقود فاليريوس فلاكوس هذا الجيش".

"فلاكوس؟ ولكنه جبان، يصلح سياسيًا أو ربما يناسبه منصب القنصل هنا داخل روما، لكنه قائد ضعيف للغاية".

"أعلم ذلك، وربما لهذا السبب، على وجه الخصوص، لن يمانع مجلس الشيوخ في تعيينه. الأوبتيميتس تحديدًا سيرون أنه لن يمثل تهديدًا لسولا، وأن شخصًا مثل فلاكوس لن يكون قادرًا على التفوق عليه في الحرب ضد ميثراداتس. وبهذا نمرر قرار تعيينه دون أي صعوبات".

فهم فيمبريا خطة الزعيم، لكنه لم يدرك حتى الآن جدوى إرسال شخص مثل فلاكوس للقتال جنبًا إلى جنب مع سولا، سوف يتغلب عليه فورًا ودون

أدنى مشقة. فظن كينا إلى ما يدور في عقله، وكأنه يقرأ أفكاره، وعلق: "أعرف ما تفكر فيه، سيقع فلاكوس فريسة سهلة أمام مكائد سولا، لهذا سترافقه في حملته بصفتك عضواً في قيادة الفيلق، ولهذا السبب استدعيتك الليلة".

أوما فيمبريا بتأن، يحاول إدراك ما يسمعه، بينما يقول: "كان من الممكن أن يخبرني القنصل بالأمر غداً في المتدى أو داخل الكوريا أو...". قاطعه كينا موضوعاً: "بالطبع، لم آت بك إلى هنا في منتصف الليل كي أخبرك بذلك فقط، وإنما أردت إبلاغك بأنني سأكلفك بمهمتين في تلك الحملة العسكرية، ولن أستطيع كشف تفاصيلهما في متدى روما في ظل حضور أعضاء مجلس الشيوخ من كلا الفصيلين".

أطبق فيمبريا شفثيه، والتزم الصمت لبرهة ثم سأله مستفهماً: "مهمتان؟". "أرغب في تعيينك قنصلاً أو نائباً للقنصل، لكن سنك لا يزال صغيراً للغاية، لم تبلغ الثلاثين بعد. كما أنه، وكما قلت لك، سيحظى تعيين فلاكوس بقبول الجميع، بينما ستكون مهمتك الأولى هي اغتيال فلاكوس وقيادة الجيش بدلاً عنه. لا يهمني كيف تفعل ذلك، لكن عليك أن تنفذ، يجب أن تصبح قائداً لهذا الجيش قبل أن تصلوا إلى آسيا".

"حسناً"، وافق فيمبريا. أعجبه فكرة أنه سيتولى قيادة جيش بأكمله. كان يرغب في الترقى بسرعة وبشكل مذهل، والقتل من أجل الوصول لم يكن أمراً جليلاً بالنسبة له، حتى لو كان الشخص الذي يتعين عليه اغتياله هو قنصل روما. على أي حال، كان قنصلاً ضعيفاً. فسأله مستفسراً: "قلت إنني سأقوم بمهمتين".

"نعم، اثنتان" أكد كينا، لكنه التزم الصمت لبرهة. بدا وكأن من الصعب عليه النطق بتفاصيل المهمة الثانية بصوت عالٍ، فجلس على أحد المقاعد، بينما ظل فيمبريا واقفاً، رغم توافر مقعد آخر ظناً منه أنه يعرف ما يتوي قوله، وعبر عن ذلك بقول: "ستكون المهمة الثانية بالنسبة لي هزيمة ميثراداتس، أليس كذلك؟".

مرر كينا أصابعه على شفثيه وذقنه برفق، فابتلع لعابه ونكس رأسه لبضع لحظات، ثم رفعه ثانية. ثبت عينيه على فيمبريا، وهو يقول بتأنٍ دون أن يرفع صوته، ببرودة الجليد ووضوح الكريستال: "لا، ميثراداتس لا يهم، إن أمره ثانوي في تلك الحملة، سوف نتعامل معه في الوقت المناسب. ستكون مهمتك الثانية هي قتل سولا".

رحيل يوليوس قيصر الأب

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٨٥ قبل الميلاد

انتهت مراسم حرق جثة يوليوس قيصر الأب، الذي، وبعدهما أخبر أوريليا بأنه ليس على ما يرام، اشتد عليه التعب، وتدهورت صحته بسرعة، وبات طريح الفراش حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

جلس قيصر على أحد المقاعد، منحنيًا يضغط على أذنيه بكلتا يديه، كما لو أنه لا يريد سماع أي شيء أو أي شخص. أصبح هو رب الأسرة، عمره لا يزال ١٥ عامًا. فكّر أنه حتى القائد الأسطوري، سكيبيو الإفريقي، الذي لا يمتلك نفس قدراته بكل تأكيد، قد تحمل مسؤولية عائلته مبكرًا، لكنه لم يكن صغيرًا إلى هذا الحد مثله. شعر بأنه لا شيء. ظل غارقًا، مهمومًا. كان والده قد أتم عددًا من المهام قبل وفاته وأهمها؛ زواج أختيه، الذي بدوره منحه آخر لحظات السعادة في حياته بولادة حفيده آتيا*، ابنة جوليا الصغرى وبالبا، فعلى الأقل رحل والده بعدما متع عينيه برؤية حفيده.

أغلق قيصر عينيه، يمعن النظر في وضعه الحالي، حتى أحسّ بقدوم شخص ما من خلفه، فأرخى يديه عن أذنيه وفتح عينيه وقام واقفًا. لقد أتت إليه كورنيليا، تشد من أزره وتدعمه، همست بنبرة يشوبها الحزن والحسرة: "أنا آسفة لأجلك".

تفرس في وجهها في صمت، رغم أنها ابنة ١١ عامًا فقط، إلا أنها بدت وكأنها امرأة مكتملة، هادئة وجذابة. ربما اعتقد والدها خلاف ذلك، لكنها

* ستصبح في المستقبل أمًا للإمبراطور أغسطس قيصر.

نمت بسرعة كبيرة. دعاها للجلوس على مقعد إلى جواره، وأجاب: "شكرًا لك".

كان مجلس الشيوخ، الذي سيطر عليه الفصيل الشعبي منذ رحيل سولا، قد قرر تمديد قنصلية كينا للمرة الثالثة يرافقه سنو بابيروس كربون، الأكثر اعتدالًا، في أعلى منصب قضائي لهذا العام، لكن الجميع عرف أن بابيروس كان مجرد حاكمٍ ظاهري، وأن الحاكم الفعلي الأوحده في روما هو كينا، والد كورنيليا.

جلست إلى جواره، لم تدرِ ماذا تفعل أو كيف تتصرف في مثل هذه المواقف، لكن رؤية قيصر مكتئبًا للغاية حركت مشاعرها، وهتمها حاله، إذ أصيب والده بالحمى ورحل في غضون أسابيع قليلة. أفصح لها عما يدور في خلدته، وكأنه يفكر بصوت عالٍ، أو يناجي نفسه وينعي حاله: "أشعر بالوحدة، بعد رحيل عمي، والوالدي من بعده. أشعر بأنني لا شيء".

"بل لك شأن كبير، وشيمتك البسالة".

ارتسمت على وجهه ابتسامة تشع الحسرة من ثناياها، فعلق ساخرًا: "بالتأكيد... أنا قادر على التنصت من وراء ستارة حجرة المكتب، كما أن سولا بجلاله وقدرته يرتجف من شدة الرعب أمامي". اكتسبت نبرة صوتها قوة أكبر، وقالت له: "ليس عليك الاختباء خلف أي ستارة بعد الآن، أصبحت رب الأسرة، يجب على كل من يدخل هذا المنزل أن يتوجه إليك بالحديث. باتت الكلمة كلمتك والقرار قرارك". تطلّع إليها قيصر بدهشة، كما لو أنه اكتشف أن من أمامه فتاة أخرى، ليست تلك الطفلة التي تحدث إليها منذ فترة طويلة، اكتسبت شخصية، وأصبح يمكنه الاعتماد عليها. ربما تغيرت فجأة. إدراكه لذلك فرج همه بعض الشيء. لن يبق وحيدًا ومهمومًا بعد الآن.

وكان ثمة شيء آخر. أمعن النظر إليها مرة أخرى، فنظرت هي إليه أيضًا، لم يتحاش أي منهما النظر إلى الآخر. ودون سابق إنذار، شعر بحاجة قوية إلى الاقتراب أكثر، فقرب يده من يدها فلم تتبعد، وكانا قد أمسكا بأيدي

بعضهما بعضًا بالفعل في أكثر من مناسبة، عندما كان يقودها إلى حجرة المكتب للتصت على ما يقوله الكبار، لكن الأمر حينها لم يكن يتعد كونهما طفلين. الآن عندما مد قيصر يده باتجاهها، ولمس يدها، ارتجفت. بدا الأمر مختلفًا هذه المرة، شيء ما تغير داخله، الشوق الذي شعر به تجاهها لا علاقة له بأي شعور طفولي، كما أن رد فعلها لا علاقة له بأحاسيس طفلة. فكر في لمس وجهها بيده الأخرى، حتى أنه فكر في تقييلها. جالت في خاطره أمور كثيرة، ثم أدرك أنه لا يجب عليه فعل أي منها، ولن يستطيع. كان واثقًا من أنها لن تصده بل ستستجيب له، لكن لا ينبغي عليه أن يفعل أي شيء مما فكر فيه، أراد فقط الخير لها.

دخلت أوريليا الردهة، بهدوئها المعتاد، الذي حافظت عليه رغم وفاة زوجها، إذ رأت أن تلك الظروف ليست مناسبة للانجراف للآلام، حتى وإن اخترقت ضلوعها، يجب أن تبقى متبهة ومدركة لكل ما يدور حولها. رحبت بالفتاة وسألتها: "ما رأيك أن تبقي هنا لتتناول طعام الغداء معًا؟".

ررفت جفونها عدة مرات وكأنها تفيق من نشوة، فأحنت رأسها خجلًا، ثم رفعتها مرة أخرى. نظرت إلى قيصر وسألته، دون أن توجه كلامها إلى أوريليا: "هل ترغب في بقائي؟"، فأعرب عن ترحيبه بها ورغبته في بقائها.

لم تفسر والدة قيصر ما فعلته الفتاة بسوء نية، فقد أقرت بأن قيادة المنزل، وسلطة تقرير من يأكل أو لا يأكل في منزل عائلة جوليا في روما، أصبحت له. وعلى الفور، التفتت إلى العبد وأمرته بجلب مقعد آخر.

"هل والدك سيأتي أيضًا؟" استفسر قيصر.

هزت كورنيليا كتفيها علامة عدم معرفتها وقالت: "أبي نادرًا ما يتحدث إلي، أنت تعرف ذلك". كانت الصبية لا تزال في حالة ذهول من المشاعر التي انتابتها لأول مرة قبل لحظات، بينما ردّت أمه بثقة: "إنه آتٍ، قريبًا يأتي للحديث معك يا غايوس، تأكد من ذلك تمامًا". لم تفسر مقصدها، أخفت ما وراء تلك الكلمات، فهي مثل أي شخص في روما، تعلم أن كينا أرسل جيشًا

آخر إلى الشرق بقيادة فاليريوس فلاكوس وفيمبريا للحد من سيطرة سولا على الحملة ضد ميثراداتس، وهي بلا شك مناورة سياسية وعسكرية بارعة لكسر شوكة سولا، أكثر من يرعب الفصيل الشعبي. كان أكثر ما يخشونه هو استفحاله المتوقع بمجرد عودته إلى روما بعد انتهاء الحرب، وإذا سارت خطط كينا كما أراد، يصبح زواج قيصر من كورنيليا خطوة مناسبة للغاية. أما إذا نجح سولا في إحباطها، تنقلب الأمور ويتحول ارتباطهما إلى مصدر خطر؛ إذ سوف يعتبره سولا عدوًا يجب إبادته، فهو لن يتعامل بلطف مع صهر كينا. كانت أوريليا على يقين من ذلك، إلا أنها فضلت أن تدع أفكارها السوداوية جانبًا ورحبت بجلوس الفتاة إلى جوار قيصر لتناول العشاء؛ فحتى اللحظة والد الفتاة هو من يحكم روما. طالما أن الأوضاع هكذا، فالأمور تسير في الطريق الصحيح، كما أن أوريليا لاحظت أن ثمة اختلافًا في نظراتهما بعضهما لبعض اليوم.

فيمبريا يواجه سولا

نيقوميديا، مملكة بيتانيا، آسيا، عام ٨٥ قبل الميلاد

أُحيط بالقنصل فاليريوس فلاكوس، ولم يعد بإمكانه الهرب؛ إذ أمسك به رجال فيمبريا في نيقوميديا أخيرًا. وكان مبعوث كينا قد شرع في تنفيذ الخطة في بيزنطة، حتى قبل أن يعبر إلى آسيا؛ إذ عُرف فلاكوس بالصرامة البالغة والقسوة مع الجنود؛ وذلك لأنه أراد إعداد جيش قوي فأخضعهم لتدريبات شاقة استعدادًا لخوض الحرب ضد ميثراداتس، لكنه كان في المجمل متطلبًا للغاية. فاستغل فيمبريا هذا الوضع لإثارة تمرد عام فرض من خلاله السيطرة على قيادة الجيش الثاني، ومع ذلك، تمكن فاليريوس فلاكوس من الهرب.

كان غايوس فلافيوس فيمبريا يدرك بوضوح أنه لا يمكن لروماني برتبة قنصل التجول في آسيا دون أن يتعرض للخطر، وأن العدو لن يسمح له بذلك لأنه في إمكانه تجنيد القوات أو إقامة تحالفات مع الملوك المحليين وهو ما صعب فراره. فلاحقه وطارده حتى قبض عليه في مملكة بيتانيا، ثم أمر اثنين من الجنود بالإمساك به، وواصل تسديد طعنات قوية بسيفه أسفل بطنه.

"بحق جوبيتر! لقد جننت، أنت وكينا..." صاح القنصل بينما يسدد له فيمبريا الطعنات، حتى سقط راکعًا على ركبتيه، ويصق دمًا من فمه، وفجأة تغيرت قسما ت وجهه بفعل الآلام الشديدة. حينها، انحنى فيمبريا، بدافع الفضول المطلق، بجوار القنصل المحتضر وسأله: "لم تصفنا بالجنون؟ هل تعتقد أن ميثراداتس عدوٌ مهم للغاية بالنسبة لي أو لكينا؟".

مال فاليريوس فلاكوس، على أحد جانبيه، والدماء تسيل، لكنه رغم شدة ألمه وغضبه، غرق في نوبة ضحك هستيري، ضحكات متقطعة تخللها بصق المزيد من الدماء. بدا مستمتعاً بغباء قاتله، ولعل الشيء الوحيد الذي خفف عنه لحظات العذاب تلك، هو علمه بأن الرجل الذي خانته وقتله، سيقتل قريباً لا محالة. ورغم أنه وجد صعوبة في الكلام إلا أنه آثر الرد عليه: "ليس ميثراداتس، إنما...". ثم تشنجت عضلات وجهه في محاولة لاستنشاق المزيد من الهواء من خلال أنفه أو فمه، لكنه ظل يبتلع الدم فقط. كاد يخنق، فاستند فيمبريا، على ركبتيه، وجعد جبينه وانحنى لسماع آخر كلمات فلاكوس؛ إذ قال: "عدوكم الأكبر... هو سولا"، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ورحل إلى الأبد.

ظل فلاكوس ملقى على أحد جانبيه، يضغط على بطنه بيده، تحيط به بركة من الدماء، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، وعلى وجهه مزيج من الشعور بالمعاناة والمفاجأة والغضب. كل تلك المشاعر التي بقيت عالقة سيأخذها معه إلى عالم الأموات. بينما نهض فيمبريا ووقف على قدميه، بجبينه المجعد وتعبيراته الجادة، يحيط به ضباطه في انتظار التعليمات، فما لبث أن التفت إليهم وأمر: "سوف نزحف لملاقاة ميثراداتس".

سفينة حربية رومانية وسط بحر إيجه

عام ٨٥ قبل الميلاد.

جلس ثلاثة رجال يتحدثون حول طاولة عليها عدد من الخرائط في مقصورة قبطان السفينة، إنهم سولا ودولابيل ولوكولوس. أدرك سولا أنه لن تنجح أي حرب ضد ميثراداتس دون دعم بحري كافٍ، فقد سيطر أسطول ملك بنطس على شرق البحر الأبيض المتوسط. لهذا كلف سولا لوسيوس ليسينيوس لوكولوس، وهو رجل يثق فيه الأوبتيميتس، بإنشاء أسطول روماني مستعينا بدعم من إفريقيا ومصر وممالك الشرق الأخرى. أظهر لوكولوس جدارته في تنفيذ المهمة الموكلة إليه؛ وفي الواقع، عاون سولا

في الهجوم على أئينا، لكن الأمر الآن تعلق بتحديد كيف يمكن التصرف في ظل وجود لاعب جديد في الحرب: إنه فيميريا.

لخص لوكولوس الرسائل الأخيرة القادمة من آسيا قائلاً: "قتل فلاكوس على يد فيميريا في نقيوميديا دون أن يهتز معصمه أو يعيد التفكير في الأمر، ثم قاد جيش كينا في مواجهة جيوش ملك بنطس في مملكة بيتانيا وهزمهم، ونتيجة لذلك لجأ ميثراداتس إلى ميتيليني بجزيرة ليسبوس. باختصار؛ من الواضح أن فيميريا عرف كيف ينقل عنفه الوحشي إلى قوات جيشه". لم يجرؤ لوكولوس على اقتراح أي إجراء، لا فيما يتعلق بميثراداتس، ولا، أقل من ذلك بكثير، فيما يتعلق بفيميريا؛ إذ فضل التزام الصمت الحكيم أمام سولا والاستماع بانتباه إلى الأوامر.

ومع ذلك، كان لدولابيللا رأي فيما يجب القيام به، فاقترح: "يمكننا التقدم بسفن الأسطول لحصار جزيرة ليسبوس، وبالاستعانة بقوات فيميريا المشتركة وقواتنا نحاصر ميثراداتس من جبهتين، وبهذا نضع حدًا لتقدمه".

"يمكننا ذلك..."، علق سولا، ولم يكمل جملته. أخذ يحدق إلى الخريطة المفتوحة على الطاولة وبعد فترة أضاف وكأنه يقول شيئًا عابرًا: "لكننا لن نفعل"، ثم ظل ساكنًا، وعيناه مثبتتان على الخريطة التي توضح ملامح شرق البحر الأبيض المتوسط وحدود مراكز القوى الرئيسية؛ فيميريا في آسيا، وميثراداتس في ليسبوس وقواته متمركزة في آسيا، وكان لدى سولا أسطوله وقواته في آسيا أيضًا. أصبح الوضع معقدًا أو ربما بلغ من السهولة مبلغًا من فرط تعقيده.

"وماذا نفعل إذن؟" سأل دولابيللا.

انصرفت أعين سولا عن الخريطة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بهدوء: "سوف نعرض على ملك بنطس السلام. سلامًا يجلب المنفعة. سنسهل عليه العودة إلى مملكته". ثم تصفح وجوه من حوله، وجد دولابيللا مدهوشًا وكذلك لوكولوس أيضًا، ف شعر بأنه مضطر لشرح ما رآه واضحًا ولا يحتاج

إلى تفسير: "هزيمة ميثراداتس ليست أولوية بالنسبة لنا الآن، وإنما الأمر الحتمي الآن هو القضاء على فيمبريا".

"صار في متناول أيدينا نصر كامل" علق دولابيللا. بدا غاضبًا إلى حد ما. "ليس هذا هو النصر الذي أسعى إليه" علق سولا بحزم، وأوضح: "إن هزيمة ميثراداتس بمساعدة جيش الفصيل الشعبي ليس ما أطمح إليه". "وماذا سنفعل إذن؟".

"نمحو فيمبريا من على الخريطة أولًا؛ لقد سيطر حزب البيبولاريس على السلطة في روما مرة أخرى، يقودهم كينا، بعد رحيل ماريوس، وبات يتحكم في كل شيء. فغيّر التعداد مرة أخرى بدمج العديد من قبائل المناطق المتحالفة، وهو ما يخالف ما اتفقنا عليه، وقد يعد هذا أول فصل من سلسلة إصلاحاته. وفيمبريا مبعوثه في هذه الحملة، هدفه منعنا من تحقيق النصر المطلق، ومن ثمّ يسلبني الحق في طلب إقامة حفل نصر روماني على شرفي لأنه من شأنه تعزيز سلطتي، كما سيمهد لي طريق العودة إلى روما على رأس الجحافل المنتصرة من أجل العرض العسكري الكبير. إنه يعتقد أنه ذكي للغاية، لكن خطته تلك ستنتهي بحرب جديدة، لهذا سنشرع هنا والآن مهمة التخلص من فيمبريا".

هز دولابيللا رأسه رافضًا لما يسمعه، كذلك شعر لوكولوس لكنه لم يجرؤ على معارضة القائد الأعلى للجيش، فجادله الأول: "ولكن إذا طرحنا سلامًا يجلب المنفعة على ميثراداتس، فذلك يعني أنه لن يتحمل تكاليف الحرب. ودون أموال لن نكون قادرين على إرضاء قواتنا. وحينها يصبح من المستحيل تنفيذ أي شيء".

"أنت محق في ذلك" ابتسم سولا، ثم أوضح: "بالتأكيد سيكون هناك من يتحمل ثمن هذه الحرب والحرب التي سنشنها ضد فيمبريا، وبالفعل ثمة مواقع يمكننا جمع الأموال من خلالها، ومن أجل الحصول عليها سنقاتل في إيطاليا".

مدينة ميتيليني، ليسبوس، عام ٨٥ قبل الميلاد

أعاد ملك بنطس قراءة مکتوب لوسيوس كورنيليوس سولا، التي يعرض عليه فيه، بصفته حاكم روما، سلامًا لن يحمله دفع تكاليف الحرب أو أي تعويض أو جزية، عليه فقط أن يعود إلى مملكته ويحترم حدود ما قبل الحرب.

أضحى ميثراداتس محاطًا بجيشين رومانيين، وقد بات أسطوله واهنًا للغاية بسبب الهجمات المستمرة التي شنها سولا ولوكولوس، لذا رأى تلك الهدنة هدية يقدمها له الحاكم الروماني. ورغم أنه لم يفهم تمامًا الدافع وراءها، لكنه لم يفكر مليًا، وأخبر المبعوث الروماني الذي يقف منتظرًا رده: "أخبر الحاكم بأنني قبلت".

منزل عائلة جوليا، روما

عام ٨٥ قبل الميلاد

ذهب كينا إلى منزل عائلة جوليا وقابل قيصر الشاب. قدم له تعازيه في وفاة والده بعبارات مقتضبة، ثم انتقل مباشرة إلى الموضوع الذي جاء من أجله؛ إذ أراد التأكيد على أن ثمة اتفاقًا يجب تنفيذه، وأراد تحديد الموعد. عرف قيصر أنه لا يستطيع ولا يجب أن يعارض والد زوجته المستقبلية، والحاكم الفعلي لروما، ومن ناحية أخرى، ولم الكذب؟ فهو يشعر بعاطفة قوية تجاه الفتاة واعتبر نفسه محظوظًا لأنها ستصبح زوجته يومًا ما، يكفي أنه يكن لها حبًا، في عالم يتم فيه التفاوض على اتفاقات الزواج بصفقتها عقودًا ملكية. لقد كان محظوظًا بالفعل، ورغم حداثة سنه إلا أنه تحدث بثبات مع القنصل وصاحب الحكم المطلق، وأجابه: "سيحدث ذلك عندما تبلغ الفتاة السن المناسبة للزواج".

"حسنًا، وهذا ما تم الاتفاق عليه، يعجبني أنك تحترم كلمة والدك..."
علّق كينا مستحسنًا. ثم قطع حديثهما دخول مبعوث يلهث إلى الردهة - كان

يقصد كينا- عرّفه بنفسه، وقال: "أحمل أخبارًا من آسيا، سيدي القنصل."

تصرف كينا كما لو كان في منزله، فرفع يديه وبسط راحتيه، يشير إلى المبعوث بقول ما في جعبته وهو يقول: "حسنًا، هات ما لديك؟". كان من حولهم أوريليا وكوتا وكورنيليا وباقي نساء البيت، فشعر المبعوث بعدم الراحة، لكن الحاكم حثّه قائلاً: "بحق الآلهة جمعاء، تكلم! القنصل هنا وسط الأصدقاء! أليس كذلك؟"، والتفت إلى قيصر، فأوماً له مؤيدًا.

حينها أنشأ الرجل يخبره بإيجاز ودقة بما لديه: "عرض سولا السلام على ميثراداتس، فقبل وعاد إلى مملكته، وعندما علم فيميريا بالأمر، أمر قواته بمواجهة سولا لاتفاقه مع ملك بنطس على السلام دون التشاور معه أو العودة إلى مجلس الشيوخ. لكن سولا كان قد رشى قواته بالفعل بمبالغ كبيرة من المال لذا انقلبوا عليه ورفضوا القتال في صفوفه. بعد ذلك شن سولا هجومًا ضد فيميريا كما لو كان عدوًا له، وحاصره في ثياتيرا، بين ساردس وبرغامس. ولمّا لم يجد بداً من الفرار، هرب إلى برغامس، لكن رجال سولا تتبعوه وحاصروه في معبد إسكولابوس، وهناك انتهى الأمر به بالانتحار. الآن يسيطر سولا على الجيشين في آسيا، وبعدها توصل إلى اتفاق سلام مع ميثراداتس، يهدد بالعودة إلى روما في غضون أسابيع."

ظل كينا صامتًا، تمامًا مثل كل من كانوا في الردهة. إنه قنصل روما، وزعيم حزب البيبولاريس، والحاكم الفعلي للمدينة، لكنه الآن أضحى بلا جيش يمكنه من صد هجوم سولا المرتقب الذي أصبح يمتلك جيشين.

وقف كينا مذهولًا. أخذت الأفكار تحوم داخل عقله وكأنها ثعابين جائعة: "ولكن من أين يحصل على هذا القدر من المال؟ اتفاقه على السلام مع ميثراداتس ينفي إمكانية أن يحملّه تكاليف الحرب، فمن أين له بالمال؟ هل نفذ عمليات نهب جديدة؟" ظل يفكر بصوت عال، وكأن ما حل به أضخم وأقسى من أن يكتمه داخله، لكن لم يجرؤ أحد على الإجابة على هذه الأسئلة ولا توقع هو ذلك. بعد لحظات توقف، واستمر في التأمل في صمت: لقد دُمرت خطته لإبادة سولا في آسيا، والأسوأ من ذلك، ساهمت

في تقوية شوكته، أدرك حينها أن المهام الخطيرة يجب أن ينفذها المرء بنفسه. لقد فوّض فيمبريا وها هو فشل تمامًا، لذا سيواصل النضال وحده، لكن ماذا سيفعل بخصوص الزواج؟

التفت كينا إلى قيصر وقال: "هذا العرس سيقام، أما الآن فأمامي أعمال تستحق كل اهتمامي". ودون أن يلتفت إليها، نادى على ابنته: "كورنيليا، اتبعيني"، فأجابته مظهرة الطاعة الكاملة: "حسنًا يا أبي". عند خروجها، نظرت إلى قيصر فبادلها بابتسامة تحمل وداً. سوف تصبح زوجته قريبًا.

وهكذا غادر الأب بعقله المحمّل بالخطط، وابنته ذات القلب الوردي منزل عائلة جوليا. بينما أدركت أوريليا أن الرأي في حفل الزفاف الذي سمعته قبل بضع لحظات تحالفًا جيّدًا، قد ينتهي به الأمر إلى أن يصبح ثقلاً جديدًا، لكن كيف تعارض كينا؟ وفي نفس الوقت، كيف تسمح بانعقاد هذه الزيجة في ظل ازدياد قوة سولا أكثر فأكثر، كما أنه، وعلى ما يبدو، باتت عودته وشيكة؟ إذا تفوق سولا على كينا فلن يسلم صهره من البطش. عبست أوريليا وازدردت لعابها، ربما تحمل الأيام المقبلة المزيد من الأعباء.

زفاف قيصر

روما عام ٨٤ قبل الميلاد

مرت الشهور والسنوات، وأصبحت كورنيليا امرأة. باتت تبلغ من العمر ١٣ عامًا، أي أنها لا تزال تعتبر طفلة، لكن زواجهما لم يكن مبكرًا للغاية بحسب مقاييس العصر*، إذ اعتبر المجتمع الروماني أن الفتاة، أو بالأحرى الطفلة، تصبح مهيئة للزواج بمجرد أن تمتلك القابلية الطبيعية على الإنجاب. في الواقع تعجل والدها كثيرًا بإنهاء المراسم، إلا أنه لم يكن من السهل تحديد موعد إقامة حفل الزفاف؛ لأن الرومان قسّموا الأيام إلى (dies fasti) وهي الأيام التي يسمح فيها بالاحتفال وإقامة حفلات الزفاف أو البدء في مشروع كبير، وأيام أخرى (dies nefasti)، حيث لا ينبغي الاحتفال بالزيجات ولا بدء المشاريع المهمة خشية غضب الآلهة. كان المجتمع الروماني غارقًا في الخرافات إلى حد كبير، وروما تشهد أوقاتًا مضطربة، لذا يجب تجنب إثارة غضب الآلهة بقدر الإمكان. على العموم، بعد مشقة، اتفقوا أخيرًا على موعد مناسب لعقد القران.

في الموعد المحدد، تجمعت العائلتان للاحتفال، بعدما اتفقوا على شروط الزواج وأن يكون النكاح بسيادة، أو ما عُرف باسم نكاح وفقا لمانوس؛ والذي بموجبه تخضع العروس لكامل السيطرة القانونية لرب عائلة الزوج وتنفصل تمامًا عن سلطة والدها، لتصبح منذ لحظة توقيع العقد

* لم تحدد القوانين القديمة السن المناسبة للبلوغ، لذا كان لرب الأسرة الحرية الكاملة في الحكم ببلوغ أي من أفراد أسرته، استنادًا إلى علامات النمو الفسيولوجي، لكنه كان من المعتاد اعتبار الفتاة بالغة حين تصل إلى ١٢ عامًا، والفتى بالغ إذا ما وصل إلى ١٤ عامًا. (الترجم)

واحدة من بنات العائلة. وعلى الرغم من أن كينا لم يرغب في فقدان السيطرة الكاملة على ابنته، إلا أنه أمام إصرار قيصر فضّل توثيق الارتباط بأحد أقارب غايوس ماريوس بدلاً من إطالة أمد التفاوض في خضم العاصفة السياسية التي تعصف بروما.

وُقِعَ العقد، وقرروا أن يقيم حفل الزفاف في غضون عدة أشهر، بحد أقصى عامين. وبهذه المناسبة، أهدى قيصر كورنيليا خاتماً من حديد مصهور، وضعه في بنصر يدها اليسرى، وهو الإصبع الذي اعتقد الرومان أنه يتصل مباشرة بشرايين القلب، على أمل استبداله، في القريب العاجل، وبحسب عاداتهم، بآخر ذهبي، واختتم الحفل بمأدبة فخمة وتمنيات كل أسرة للأخرى بالسعادة والازدهار.

آسيا، عام ٨٤ قبل الميلاد

كان سولا قد أنفق كل احتياطياته من الذهب والفضة، التي استولى عليها في اليونان من أجل رشوة جيش فيمبريا. وقد نجحت خططه من الناحية العسكرية والسياسية، لكنه الآن بات بحاجة إلى المال، إلى كميات ضخمة من السيسترتيوس، والدنانير. لا يهم نوع العملة، المهم أن يحصل على مبالغ كبيرة، فلديه جيشان عليه أن يسدد تكاليفهما، بينما خزائن الدولة ليست تحت سيطرته، وإنما يسيطر عليها كينا. وكى يتجنب إنهاك قواته في حرب طويلة ضد ميثراداتس سمح لملك بنطس بإنهاء الحرب وفقاً لمعاهدة لا تجبره بتكبد تكاليفها، وهو تصرف غير مألوف تماماً في روما سواء في حالات النصر أو الخسارة. لكن هذا السلام سهّل السيطرة المطلقة على الجيشين الرومانيين والعودة إلى حدود ما قبل الحرب، وحال دون سقوط المزيد من الجنود، كان في حاجة إلى جميع الرجال المسلحين استعداداً للهجوم على روما، للمرة الثانية.

لم يتوقف دولابيلاً أبداً عن طرح معضلة نقص الموارد المادية عليه؛ فلم يتبق لديهم سوى القليل من ذهب وفضة دلفي وأثينا، لكنها ليست كميات

كافية لتسديد تكاليف الحرب المرتقبة ضد روما وكينا، خاصة وأن الجنود اعتادوا على تلقي الكثير وبشكل منتظم. لكن سولا لا يتراجع أبدًا، ومنذ اقترح اتفاق السلام على ميثراداتس، دبر وسيلة لتمويل حملته العسكرية التالية ضد كينا؛ إذ أجبر جميع المدن والممالك المتحالفة مع روما، التي دعمت ميثراداتس في بداية الحرب على دفع ضرائب إضافية كعقوبة على تمردها، وعمّم القرار على كل المقاطعات التابعة لروما التي أيدت تقدم ملك بنطس. كانت تلك الضرائب هي مصدر تمويل حملاته، فاستغل عمليات النهب لثروات آسيا بالقوة التي نفذها على نطاق واسع وكذلك حريق أثينا وكان لا يزال عالقًا في الأذهان، كي يحث المدن والمقاطعات على الاستسلام والالتزام بدفع الضرائب مهما بلغت قيمتها.

روما عام ٨٤ قبل الميلاد

كان كينا عازمًا على التصدي لسولا بمجرد وصوله إلى إيطاليا، وقد عزز زواج ابنته بابين صهر ماريوس منصبه كزعيم مطلق للفصيل الشعبي، وهذا من شأنه أن يمنع أي خيانة تحاك من وراء ظهره إذا ما غادر المدينة. كانت الخيانة هي أكثر ما يقلقه، لكنه لم يفطن إلى التصرف الصحيح على أية حال.

شرق البحر الأبيض المتوسط، عام ٨٤ قبل الميلاد

أبحرت سفن سولا نحو روما. سيتوقف في اليونان لالتقاط القوات التي تركها هناك، ومن ثمّ يتقدم مباشرة نحو ميناء إبرندس، ومن هناك ينفذ الإغارة على قلب الإمبراطورية، للمرة الثانية، أراد توجيه الضربة القاضية.

وقف في مقدمة السفينة يتأمل الأفق، فاقرب منه دولابيل من الخلف. على الفور شعر سولا بوجوده فسأله دون أن يلتفت إليه، بينما يتطلع إلى البحر، نحو روما: "هل انطلق الرسل قبل رحيلنا؟".

"نعم".

"إلى كراسوس في إسبانيا، وميتيلوس بيوس في إفريقيا، وبومبيوس في إيطاليا؟" سأله سولا بدقة، وكان قد كتب رسائل إلى أبرز زعماء الأوبتيميتس؛ إذ أراد إعادة تجميع قوى التيار المحافظ. كان لديه عدد غير قليل من الجحافل، اكتسبوا خبرة في القتال من خلال المعارك البحرية التي خاضوها تحت قيادة لوكولوس والانتصارات في اليونان وآسيا على جيوش ميثراداتس. لكنه توقع أن كينا سوف يسعى إلى تشكيل جيش ضخم لمواجهة؛ لذا رأى أن أي مساعدة إضافية يمكن أن يقدمها بيوس أو بومبيوس أو كراسوس ستفيد، إذ كان عازماً على قلب الموازين لصالحه.

"غادر الرسل الثلاثة، سيدي الوالي" أكد دولابيللا.

"حسناً".

منزل عائلة لوكيوس كورنيليوس كينا، روما، عام ٨٤ قبل الميلاد

"أينما تحل سأرافقك"* قالت كورنيليا معلنة موافقتها على الزواج، ضمن مراسم الحفل الذي جاء أكثر حميمية مما تمناه كينا. خلال الفترة الأخيرة، وجه زعيم البيبولاريس طاقاته لتكوين جيش كبير يمكنه التصدي لسولا بمجرد وصوله إلى إيطاليا، وبالفعل استطاع تجنيد مئات الآلاف من الرومان، وسكان المناطق المتحالفة الذين أغراهم بالتوسع في منحهم الجنسية الرومانية. في الواقع، وجد دعمًا وحماسًا أكبر بين هؤلاء، ولم يمثل هذا الأمر مفاجأة له، إذ توسع منذ البداية في منح الجنسية الرومانية للمناطق الحليفة، لكنه لم يقدم شيئًا يذكر لشعب روما نفسها فيما يخص توزيع القمح والأراضي. لم يهتم كينا بتلك الأمور أبدًا، بل كان ماريوس هو من يدافع عن ضرورة البدء في تنفيذ المطالب التي دعا لها الأخوان غراكوس وساتورنينوس وغيرهما من المدافعين عن عامة الشعب، الذين ناضلوا وقتلوا جميعًا بأمر من الأوبتيميتس. بيد أن كينا كان شديد التعلق

* باللاتينية Ubi tu Gaius ego Gaia، وهي جملة تنطقها العروس لتعلن موافقتها على الزواج وإخلاصها لزوجها. (المترجم)

بالسلطة، ومحبا للسيطرة، ولعل تلكؤه في تنفيذ تلك الإصلاحات خفف من حدة عداة المحافظين الذين لا يزالون في المدينة له، فضمن له تعزيز سلطته. كما أن قرب عودة سولا وفر ذريعة كافية لتأجيل أمر توزيع القمح أو الأرض - في حقيقة الأمر، لطالما اعتقد أنه لن يضطر أبداً إلى الالتفات لتلك المطالب- لكنه بدأ يدرك مؤخراً أن إهماله لمطالب الرومان من شأنه النيل من دعم مجلس العامة له.

ظل كينا غارقاً في أفكاره ، إذ أقلقه وجود عدد كبير من الأوبتميتيس في المدينة. استمرت مراسم حفل الزفاف، وبعدها نظقت العروس بجملتها تلك، ألقت بنفسها بين ذراعي والدتها، متوسلة إليها كي لا تُنتزع عنوة من منزل العائلة هكذا، وظلت تصرخ وتبكي كما لو أن المسألة حياة أو موت، وكأنها تعتبر اقتيادها إلى منزل زوجها أشع الأقدار.

كان هذا المشهد ضمن المراسم التقليدية للزفاف الروماني. عُرف بالزواج بالاختطاف، ويقام إحياء لذكرى اختطاف السابينيات بأمر من رومولوس*، مؤسس روما. كان يُفرض على العروس تأدية المشهد مظهرة رفضها التام للزواج وتشبثها بعائلتها، وتشاركها أمها، وعلى هذا النحو، لعبت أنيا الدور المحدد لها أيضاً، فأظهرت حسرتها على مصير ابنتها التي تُختطف من بين أحضانها عنوة، لكنها سيطرت على انفعالاتها؛ لأنها لم تكن محبة للظهور.

بعد ذلك بدأت زفة العروس حتى بيت الزوجية، على أنعام عازفي الفلوت، وضوء المشاعل. رافق الحاضرون من الأقارب والأصدقاء الموكب، يتقدمهم ثلاثة أطفال، كما حمل كينا وزوجته أنيا وأوريليا والدة قيصر التي ستحل محل الأم والأب، مشاعل، وأدوات غزل، ومغزل، وهي من رموز الحياة التي ستعيشها كورنيليا منذ تلك اللحظة في منزل عائلة جوليا.

* بعد تأسيس روما، وضع المؤسس الأول رومولوس خطة لزيادة عدد سكانها، لكن الوطن الوليد عانى من قلة عدد الفتيات، لذا أمر باختطاف أعداد من الصابايا السابينيات، وكانوا من الشعوب المجاورة لروما، وقد حاول كثير من المؤلفين القدامى تفسير الشخصية الرومانية استناداً إلى هذه الواقعة. (المترجم)

وعند مرور الموكب عبر شوارع حي سوبورا صاح المئات ممن تجمعوا على الجانبين: "ثالاسيو! ثالاسيو!".

كانت تلك هي الكلمة التي يستخدمها الروماني الباسل الذي يقتلع شجرة رائعة بغية الاحتفاظ بها، عندما يحاول شخص آخر سلبها منه، فيتمسك بها ويردد تلك الكلمة. على هذا النحو، استخدم المصطلح للتعبير عن تمني أن يحالف العريس الحظ ويتمكن من الوصول بالفتاة التي اختطفها -والمقصود بها زوجته- إلى منزله دون أن يسلبها أحدهم منه.

لا شك أن قيصر، ابن صهر ماريوس، جسّد آمال العديد في روما الذين رأوا، أو بالأحرى، أرادوا أن يروا في هذا الشاب صورة البطل الذي يمكنه تحقيق أحلامهم يومًا ما بالتصدي لأقوى أعضاء مجلس الشيوخ، وتنفيذ وعود تقسيم الأرض والقمح وغيرها من الثروات، وكلها إصلاحات لم ينفذها كينا رغم وعوده.

ها هو قيصر يتزوج، ما يعني أنه ينضج. برقت لهم بارقة خير، ومعها نما أمل استثنائي لدى كثير من العوام المهمشين. هل يمكن أن يصبح ابن صهر ماريوس قائدًا مستقبليًا حقًا ليناضل من أجل تحقيق مطالب أسلافه، تلك المطالب التي يتجاهلها مجلس الشيوخ ويصر على قمع كل من يدافعون عنها، المجلس الذي اضطهدهم عندما سيطر عليه الأوبتيميتس في السابق، وحتى في ظل سيطرة حزب البيبولاريس بقيادة كينا يواصل تجاهلهم؟ فكر البعض في هذه الأمور، فقط القليل منهم، بينما انشغل آخرون بطقوس الاحتفال والتضرع إلى إله الأعراس ابن فينوس وباخوس، فصاحوا: "هيمين! هيمين!".

رافق كينا الموكب بجسده، لكن عقله ذهب بعيدًا. سار معهم، بذهن غائب لم يعرف الفرح ولم يرَ البشري، وقد أسفر تفكيره عن عدة استنتاجات؛ وسيبدأ التنفيذ بمجرد انتهاء المراسم. لم يتبق الكثير، فقد وصل الموكب أخيرًا إلى منزل عائلة جوليا. هناك استقبلهم الجيران بإلقاء المكسرات على الأطفال الثلاثة الذين قادوا الموكب لتعزيز خصوبة الزوجين الجديدين،

فأمسك قيصر بقطعة من الصوف وبعض الزيت، أعطاهما له أحد العبيد، فمَنَحهما بدوره إلى عروسه، فقبِلَتَهما منه وأعطتهما لخادمة كانت ترافقها. أما هي فأهدته عملة معدنية، وقدمت عملات أخرى قرباناً للإلهة "لار" كي تحفظها في حياتها الزوجية.

بعد ذلك اقترب قيصر وكورنيليا من باب منزل جوليا، وسط سوبورا، واحتضنها بين ذراعيه. كانت لا تزال تبدو فتاة صغيرة، وزنها ضئيل، بينما كان هو قوي البنية، أعجبها الشعور بقوته. وبحذر، حملها عبر عتبة المنزل. التعثُر في تلك الحالة يعدُّ فألاً سيئاً، لكن لم يحدث شيء من هذا، لقد باركت الآلهة زواجهما، وهكذا انتهى الحفل.

على الفور، أمر كينا بحملة اغتيالات لعدد من الأوبتيميتس الأعضاء في المجلس، ومن غيرهم، ومصادرة ثرواتهم، فخضبت الدماء مرة أخرى شوارع روما. فكر أنه بعدما يهزم سولا، ويعود سالمًا إلى أرض روما، يصبح بإمكانه توزيع ثروات هؤلاء، هذه هي الطريقة التي حل بها مشكلته الحالية، كي يضمن البقاء في السلطة لفترة... هل يمكن القول، إلى أجل غير مسمى؟ ثم غادر متجهًا بعيدًا خارج حي سوبورا، بل خارج روما، ليقود جيشه الضخم، حتى وصل إلى ميناء إبرندس؛ إذ بات وصول سولا وشيكا.

أما العروسان، فأخيرا أصبحا بمفردهما في الردهة. كان العالم من حولهما يتجه نحو حرب جديدة وكارثة حقيقية، لكنهما ظلّا بمنأى عما يحدث، لقد تزوجا للتو.

كينا يتصدى لسولا

الساحل الشرقي لليونان، عام ٨٤ قبل الميلاد.

واصلت سفن سولا الإبحار، حتى اقتربت من السواحل اليونانية. أراد دولابيللا الاستفسار بشأن الخطة، فسأله: "ما هي الاستراتيجية التي ستبعتها؟". فأجابه سولا بنبرة حاسمة: "كما فعلنا مع فيمبريا".

كان عدد من القادة، قد أبحروا بسفينة ثلاثية المجاديف وانطلقوا نحو مدينة أنكونا في إيطاليا، وتسللوا بين صفوف جحافل كينا، وسط عتمة الليل، وهناك تحدثوا إلى جنود زعيم حزب السيبولاريس.

روما، عام ٨٤ قبل الميلاد

تأمل قيصر وجه العروس بسعادة، وأمسك بيدها يقودها، كما فعل في ذلك اليوم الذي تعارفا فيه، عندما انتقلا معاً من الردهة الخلفية إلى حجرة المكتب، كي يتنصتا على ما يقوله الزعيمان عن روما وعنهما. ها هو الزواج الذي اتفق عليه أبواهما، وعرفا به عبر التنصت، أصبح واقعاً، أصبحا زوجاً وزوجة، وأشعلت الشموع من أجلهما. إنها ليلتهما ولن يزعجهما أحد.

قادها هذه المرة إلى غرفة النوم التي ستصبح لهما إلى الأبد. كانت أوريليا قد تنازلت لهما عن حجرتها، فابنها الشاب، العريس الجديد، أصبح رب الأسرة. كان الشيء الوحيد الذي تغير في الغرفة، هو السرير، فلا يصح أن يكون سرير الزفاف مستعملاً. أعدته لهما أوريليا وباركته الآلهة التي تعزز خصوبة الزوجين، ووضعت عليه تمثال صغير بقرن هائل حجمه غير متناسب

مع بقية تفاصيله، لكن وجوده لم يرهب العروس؛ إذ علمت أنه وفقاً للعادات يجب أن تبقى إلى جوارهما على مدار الليلة الأولى، بعد ذلك يسمح بوضعه في إحدى زوايا الغرفة، لكن لا بد أن يبقى دائماً بالقرب من السرير.

رأها فاتنة، ومنحها هو الكثير من الأمان. تألمت قليلاً في الالتقاء الأول، لكنه كان حذرًا. فوجئ بأن الأمر مختلف تمامًا عن تجاربه السابقة مع بائعات الهوى في سوبورا، تفاجأ حقًا وأحب شعور استسلام الفتاة التام له. لم يستطع في تلك اللحظة أن يقيس إلى أي مدى سيؤثر البحث عن هذا الإحساس على وجوده طوال حياته، بل على وجود روما وتاريخ العالم بأكمله. قضى تلك الليالي مستمتعًا مع كورنيليا، لقد أحبها حقًا، وعاشا غافلين عن المواجهة المستعرة بين كينا وسولا، كأنهما في جزيرة معزولة عن العالم المحيط بهما. كانا يتوقان شوقًا في صمت، وهما يتحسنان أنفاس بعضهما بعضًا، وتمنيا العيش في أرض بعيدة لا تعرف الحرب التي تظال نارها الجميع.

معسكر كينا، أنكونا، شمال إيطاليا، عام ٨٤ قبل الميلاد

تسللت فيالق سولا إلى معسكر كينا، وانخرطوا بين الجنود، فقد جاءوا لتنفيذ مهمة محددة، وهي إبلاغ الجنود بمعلومات من شأنها قلب الموازين. كان كينا قد استعد لمعركة ضارية أراد أن تتم المواجهة خارج حدود إيطاليا، تحديدًا في ثيساليا، أي على الأراضي اليونانية. لكن جواسيس سولا نشروا شائعات مفادها أن سولا مستعد للعفو عن جميع الرجال الذين انضموا إلى صفوف كينا، وأنه سيدفع لهم الكثير من المال إذا ما انشقوا عنه. بالطبع صاحبتهما عملات ذهبية وفضية أظهروها لهم ومنحوها لمن أراد الاستماع إليهم، فكانوا يقولون: "يملك سولا الكثير من العملات على كل شكل ولون...".

لم يكن كينا قد دفع لجحافل بعد، كما أنه لم يوزع قمحًا أو أرضًا، وتلك هي القنصلية الرابعة له، أي أربع مدد من الحكم اتسمت بكثرة الوعود وشح الإنجازات. لذا بدأ جنود كينا من عامة الرومان يميلون إلى تصديق سولا.

بيد أن الجنود القادمين من المناطق المتحالفة أظهروا ولاء أكثر، فهو على الأقل منحهم الجنسية. لكن ما أزعجهم حقًا هو علمهم بانضمام بومبيوس وميتيلوس وكراسوس إلى جبهة سولا، وقد عُرف الزعماء الثلاثة بأنهم الأشد بطشًا خلال حرب روما ضد المناطق المتمردة. تذكروا أسماءهم وقسوتهم البالغة، وعزز خوفهم إدراكهم لحقيقة أن كينا لم يثبت من قبل كفاءته وحنكته في قيادة الحروب.

كل هذه الأمور أدت إلى تآكل ولاء جحافل أنكونا لزعيم البيبولاريس: الخوف من بومبيوس وميتيلوس وكراسوس والقوات التي جلبوها معهم من إفريقيا وهسبانيا أو التي جندوها في إيطاليا، بالإضافة إلى الإغراء بالأموال، فضلًا عن أن خبرات سولا لا غبار عليها مقارنة بخبرة كينا التي لم تثبت بعد. كل ذلك مثل مزيجًا مدمرًا للجبهة كينا وخططه.

روما، عام ٨٤ قبل الميلاد

نُصّب قيصر فلامين دياليس. منحه المنصب الجديد شعورًا بالسعادة، لما له من مكانة دينية مرموقة؛ إنه أهم كاهن بين ١٥ كاهنًا؛ إذ قُسم الكهنة عند الرومان إلى كبار، وهم كهنة جوبيتر ومارس وكويرينوس، وصغار؛ وهم مسؤولون عن حث الناس على عبادة الآلهة الأقل شأنًا مثل فولكانو، وفولتورنو، وفلورا، وسيريس وآلهة أخرى. من بينهم جميعًا، كان كاهن جوبيتر الأكثر تميزًا، إلا أن القيود المكبلة التي يفرضها المنصب على من يتولاه من حيث حرية التنقل داخل وخارج المدينة أصابت قيصر بشيء من الإحباط.

إلا أن سعادته وإحباطه تلاشيا مع علمه بوصول سولا إلى إيطاليا، كما أثار الخبر قلق بقية أعضاء حزب البيبولاريس.

أرادت كورنيليا التخفيف عنه، فقررت ألا تستلقي عارية الليلة لتكرار ما يعلّنه كل يوم، بل همت بفعل شيء آخر. لقد رأت رسمًا منقوشًا على عملات معدنية تسمى "سبينتريا" أظهرتها لها خادمة مستقدمة من مصر،

وأخبرتها أن تلك العملات سُكِّت عليها رموز جنسية، كل عملة تظهر زوجين من العشاق في أوضاع حميمية متعددة لم تكن لتتخيلها، لكن ما بقي في ذاكرتها منها مشهد امرأة راكعة أمام الرجل وتداعبه. هالها ما رأَتْ، وسألتها: "وهل يحب الرجال هذا حقاً؟".

"يحبونه للغاية" أجابت، قبل أن تحذرها: "لكن لا يجب على الرومان فعل ذلك".

"لماذا؟".

"لا أعرف سيدتي، هذا ما يؤكدونه لي".

هَمَّت كورنيليا بتقليد ما رأته على العملة، لكن قيصر أمسك بيدها وسحب رأسها برفق بعيداً عنه رافضاً، فسألته: "ألا يعجبك؟".

"ليس الأمر هكذا، لكن لا يجب عليكِ فعل ذلك".

"لماذا؟".

"لأن الفم عضو مقدس، به نتحدث، ونشارك في النقاشات، ونتواصل من خلاله، نستخدمه في تلاوة الأحكام والخطب. الفم عضو مقدس، لا ينبغي على أي روماني أن يدنسه هكذا".

صممت كورنيليا وأنصتت إليه، ثم ما لبثت أن سألته: "ألم تفعل ذلك أبداً في حياتك؟". فالتفت إليها وبادلها بسؤال آخر: "لَمْ تطرحين الكثير من الأسئلة الليلة؟" وكي يمنع تسلل المزيد من الأسئلة على الأقل خلال تلك الليلة طبع لثمة على شفثتها، وواصل حتى حدث ما لا بد منه. بعدما انتهيا، تمددا في حالة من النشوة، وظلا يحدقان إلى سقف الغرفة، يراقبان الظلال المرتعشة في الزوايا، كان ضوء الشموع خافتاً، فساد الهدوء أرجاء المنزل. لقد نام الجميع، لكن كورنيليا لم تكف عن طرح الأسئلة: "ولماذا تفعل المستدمات من مصر هذه الأشياء؟". فسألها مستفسراً: "تقصدين ما انتويتِ فعله قبل قليل؟"

"بالضبط".

"يقولون إن الإله المصري أوزوريس حكم مع أخته وزوجته إيزيس، إلا أن الإله ست الحاقد قتله، ولضمان عدم إمكانية عودته للحياة مرة أخرى، قام بتقطيع جسده إلى أشلاء وأخفاها في أماكن مختلفة. لكن إيزيس، بمساعدة الآلهة الأخرى، استعادت جميع أجزاء جسده وأعدت تشكيل هيئته من جديد، كانت بحاجة فقط للعثور على قضيب شقيقها وحبيبها. يقولون إن إيزيس صنعت له دعامة من طين وأنها بمجرد اكتمال الجسد، أعادت أوزوريس إلى الحياة بطريقة سحرية. يقول البعض إنها أعادت إحياءه برفرفة جناحيها الساحرين، بينما تشير مصادر أخرى إلى أنها نفخت في تلك الدعامة" أجابها بصوت هامس.

"وكيف عرفت تلك القصة؟" سألت.

"ها ها ها ها! ليس كما تعتقدين، ذكرها هيرودوتس في كتابه الثاني "قصص Historias")". يوجد في مكتبة والدي الكثير من البرديات، وقد قرأتها كلها".

ابتعدت عنه قليلاً وهي تفكر، ثم خطرت لها فكرة مزعجة، فسألته: "هل سبق لك أن كنت مع واحدة من المستقدمات من مصر؟".

"لم ألتق مطلقاً بأي شخص قادم من مصر، ولا أعتقد أنني سأفعل ذلك أبداً"، فضحك الاثنان.

استلقى على ظهره، وعلق: "لكن مصر بلد مهم".

"لماذا".

"تعدّ مفتاح السيطرة على الشرق، وهي في الواقع أحد أسباب حربنا ضد ميثراداتس. لم نحاربه فقط لأنه هدّد مقاطعاتنا الشرقية واليونان، وإنما لأنه طمح في الاستيلاء على مصر. إن مملكة الفراعنة أرض غنية للغاية".

"هل يوجد بها ذهب، كما هو الحال في هسبانيا؟" سألت كورنيليا.

"لا، بل غنية بالقمح".

نظرت إليه في حيرة من أمرها. بالنسبة لكورنيليا، لا يمكن مقارنة الذهب بالقمح، فأوضح لها: "روما تنمو بمعدل سريع، والناس بحاجة إلى تناول الطعام، ودائمًا نحن بحاجة إلى المزيد والمزيد من القمح. هنا تكمن مكانة مصر بالنسبة لنا؛ فقمحها يعد مصدرًا غنيًا ومفيدًا لنا، كما أنها تحتل موقعًا استراتيجيًا مهمًا لمن أراد السيطرة على الشرق، هذا إن أرادت روما حقًا السيطرة على هذا الجزء من العالم".

بدأت كورنيليا تشعر بالنعاس. كان قيصر لا يزال يتحدث، وكأن صوته يهددها كي تستسلم للكبرى، فأردف: "تمامًا مثل بلاد الغال التي تعد مفتاحًا للشمال. دائمًا ما تأتينا الهجمات من جهة الشمال: حنبعل، في زمن سكيبيو، أتى من الشمال، تمامًا مثل الكيمبريين والتوتونيين في زمن عمي ماريوس. إذا سيطرنا حقًا على كل بلاد الغال، فستكون روما دائمًا أكثر أمانًا. وجود الكثير من القبائل الغالية يجعل من المستحيل السيطرة على هذه المنطقة، ولكن يومًا ما يجب على شخص ما التفكير في الأمر بجدية، استقيت الكثير من المعلومات عن بلاد الغال لأن ماركو أنطونيو غنيهو، معلمي في الصغر، كان قادمًا من هناك، درس في الإسكندرية، لكنه ينحدر من بلاد الغال وأعتقد أن هذا هو سبب اهتمامه فيما بعد بالبحث كثيرًا عن موطنه الأصلي. أخبرني بألف قصة عنه، يمكنني أن أخبرك باسم جميع القبائل التي تسكن بلاد الغال، وعاداتهم، وأماكن تمرركزهم، والمواقع التي أتوا منها. كان غنيهو معلمًا جيدًا، والآن يدرس في مدرسة افتتحها بنفسه...". توقف، ثم استلقى على جانبه لمواصلة الحديث، لكنه عندما التفت إليها وجدها غارقة في النوم، فصمت واستلقى على ظهره مرة أخرى، وظل يحرق في السقف ثانية يفكر في بلاد الغال ومصر.

معسكر كينا، أنكونا، شمال إيطاليا، عام ٨٤ قبل الميلاد

استدعى كينا ضباط جيشه، على إثر الأخبار التي وصلته بشأن تشكك العديد من جنود الفيلق في قدرته على مواجهة سولا، الذي اعتبره لا يقهر،

الأمر الذي أغضبه؛ فسولا لم يهزم ميثراداتس بشكل نهائي، في الواقع، كان قد اتفق معه على سلام لم يعد بالفائدة على روما، بل عُدَّ اتفاقاً مخزياً. صحيح أنه حقق بعض الانتصارات في اليونان، وفي الماضي كانت له إسهامات في الحرب ضد يوغرطة في إفريقية، لكنه لم يفعل شيئاً ضد الجرمان، بل الفضل كله وبلا منازع يعود لبسالة ودهاء غايوس ماريوس.

وبغض النظر عن حقيقة قدرات سولا العسكرية، رأى كينا أنه لا يمكن أن يتقدم جيشه الضخم نحو اليونان دون ضمان ولائه أولاً، فتوصل إلى حل نهائي؛ سيعدهم بأجر إضافي إذا ما تغلبوا على سولا، أما الآن، فسيُدفع لهم أول دفعة من رواتبهم؛ كي يشعر جنود الفيلق بمزيد من الثقة في قيادته.

ونظراً لاقْتصار تركيزه على الأمور السياسية في روما، لم يكن على دراية بالكيفية التي أغرى بها سولا جنوده، ولا بمدى ضخامة الرشاوى التي عرضها عليهم. كان كينا يدرك الأمور متأخراً للغاية دائماً. وقف أمام الضباط، دون حراسة، وعندما دنا منه أحد الجنود يطالب بتقاضي راتبه، انهال عليه الليكتور بالضرب، فوصلت أصوات استغاثته إلى باقي جنود الفيلق فالتفتوا حولهم دون أن يستدعم أحد. لقد أجاج تصرف الليكتور غضبهم، وفي محاولة لتهدئتهم، حاول كينا الوصول بسرعة إلى المنصة كي يتحدث فيسمعوه جميعاً. أمر الحراس بأن يفسحوا طريقاً له، لكن نشبت مناوشات بينهم وبين الجنود الذين اعترضوا طريقه وأخذوا يوبخونه وطلبوه بدفع رواتبهم.

همس وهو يعرض على نواجذه: "بُلّه، لو علموا أنني انتويت الحديث عن رواتبهم...". لم يكن يدرك أن الكلمات والوعود لم تعد مجدبة، في الوقت الذي أرسل فيه سولا الأموال والذهب إلى الجنود بالفعل. كانت تلك هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء. لقد تملك الغضب منهم، ولم يقدر على الوصول إلى المنصة، إذ تفاجأ بوابل من الحجارة تتساقط على الحراس ويصيبه بعضها، رغم أنهم واصلوا حمايته بدروعهم، بيد أن الوضع كان قد تجاوز حدود السيطرة، فالجنود غاضبون إلى حد الجنون بسبب تأخر دفع

رواتبهم، يتملكهم الخوف من التورط في حرب ضد سولا الذي يخشونه كثيراً، واعتبروه الطرف الأقوى. تحوم الأفكار داخل عقولهم، لقد وعدهم بالعفو عنهم ورَّحِبَ بانضمامهم إلى صفوفه إذا ما تخلوا عن القضية الشعبية وانشقوا عن صفوف القنصل، والأهم من ذلك كله، أنه منحهم بالفعل دفعات مقدمة من الأموال.

استلوا سيوفهم، وسالت دماء رومانية بأياد رومانية.

لم يستطع الحراس الصمود أمام الحشد الهائل من الجنود الغاضبين، بينما التزم الضباط وقادة المائة والطربون الحياد، لم يصدر أحدهم أمراً واحداً، فوجد كينا نفسه محاطاً بالجنود المسلحين. اخترق السيف الأول جسده من الخلف، والثاني من أحد جانبيه، تلته البقية. نصف دزينة أخرى، من جميع الجهات وفي نفس الوقت.

لقد سقط كينا ميتاً للتو. لقي نفس المصير الذي يلاقه كل ديكتاتور. لفظ أنفاسه الأخيرة دفعة واحدة، وفارقت روحه جسده تاركة تعبيرات الدهشة على وجهه، كما لو أنه لم يصدق ما حدث.

ها هي رشاوي سولا تؤتي ثمارها مرة أخرى، وهكذا باتت عودته إلى روما حتمية، ومجرد مسألة وقت.

قرار أوريليا

روما عام ٨٤ قبل الميلاد

وصل خبر وفاة والد كورنيليا إلى منزل عائلة جوليا، ولصدمتها غرقت في نوبة بكاء، فعانقها زوجها كي يهدئها. لم تكن تنعي رحيل أب لم يُظهر لها حبًّا أبدًا، وإنما بكت لأن سقوط القنصل يعني بداية انهيار حزب البيولاريس. وبالتزامن مع مقتله، وصل إلى المدينة كبار القادة؛ كراسوس وبومبيوس وميتيلوس بيوس، ومعهم جنودهم من هسبانيا وإيطاليا لدعم سولا بمجرد عودته إلى روما.

أدرك الجميع في منزل قيصر أن الوضع بات حرجًا للغاية. هل يستطيع بايريوس كربون، القنصل الشعبي، بمفرده تجميع جيش كبير يتسم رجاله بالإخلاص والولاء بما يكفي لمواجهة سولا وحلفائه من الأوبتيميتس؟ فجأة نهضت أوريليا وقالت: "سوف أخرج الآن"، وعندما أحست باستغراب قيصر لخروجها في ظل تلك الظروف، تحججت: "أريد شراء ما يكفي من الطعام لأسابيع تحسبًا لتعقد الأمور. إذا عاد سولا إلى روما، قد تعاني الأسواق شحًا في المواد الغذائية".

لكن قيصر وافق على أي حال؛ فوالدته دائمًا حذرة للغاية، فأوصاها: "اصطحبي معك ما تحتاجينه من العبيد يا أمي، لا تتهاوني فيما يخص أمانك"، فأومت له بالموافقة وانصرفت.

كانت كورنيليا لا تزال تبكي بين ذراعي قيصر، واقتربت أختا زوجها منها لتهدئتها، وعندما لمحت أوريليا تهم بالخروج من المنزل قالت وسط

نحيب: "يجب أن نساعدنا، سوف أرافق والدتك". لكن السيدة توقفت وردّت بحزم: "لا!". ثم أحست أن رفضها جاء صارمًا أكثر من اللازم ومرًاوعًا بعض الشيء، فأعدت صياغته بكلمات لطيفة: "لقد تلقيت للتو خبرًا يقصم الظهر وعليك أن تستريح... ثم توقفت، ونظرت إلى بنتيها؛ إذ بدا أنهما تؤيدان مقترح كورنيليا، وأضافت: "أرى أن تبقي في المنزل وتعيدا ترتيب المؤن التي لدينا، وإذا ما اكتشفتما أنه ينقصنا بعض المواد تخرجان لإحضارها، وهكذا يصبح لدينا كل ما نحتاج إليه".

هكذا، ودون أن تقبل بأن يرافقها أحد سوى العبيد، خرجت أوريليا إلى الشارع، وسارت عبر أزقة حي سوبورا، حتى اعتقد العبيد أنها تقصد الذهاب إلى متدى فينالسيوم لشراء مؤن، إذ اعتبر أحد أهم الأسواق الكبيرة في المدينة. لكنها أخبرتهم بأنها ستوجه أولًا إلى مجمع الحوانيت جنوب المتدى.

سارت أوريليا بوجه يبدو عليه التوتر. لم تعد كورنيليا هي الزوجة التي توثق ارتباط ابنها بالسلطة الحاكمة، لقد انهارت تلك السلطة للتو، ولا شيء ولا أحد يستطيع التصدي لسولا، إذ عدّ نضال حزب البيولاريس مجرد عذاب طويل وبطيء. أصبحت كورنيليا الآن تمثل ثقلاً، ثقلاً خطيراً للغاية. ساروا حتى توقفوا عند أحد الحوانيت المشهورة ببيع التوابل، وعندما قالت للعبيد: "سأدخل هنا بمفردي"، فأذعن لرغبة سيدته، واستعد لمنع دخول أحد حتى تفرغ من التسوق.

دخلت السيدة واقتربت من البائع وتحدثت إليه بصوت منخفض: "هل زوجتك موجودة اليوم؟ لقد طلبت منها أن تحضر لي بهارًا مخصوصًا منذ عدة أيام، وأعتقد أنها ربما أحضرته بالفعل". لكن الرجل لم يجبه سوى بإيماءة من رأسه، وعلى الفور انصرف كي يستدعي زوجته؛ إذ تعود ألا يسأل عن التفاصيل إذا ما جاء أحدهم يسأل عنها على وجه الخصوص. بعد قليل خرجت إليها امرأة في منتصف العمر، ملامحها لطيفة، بدت هادئة، فخطبتها أوريليا باسمها، وهي لفته هدفها بناء جسور الثقة بينهما، قائلة: "هل أحضرت ما طلبته منك يا موثيا؟".

"نعم سيدتي، لكن أحذرك من خطورته ثانية".

"السموم كلها خطيرة، ما يهمني هو أن يكون سريع المفعول؛ ثمة مشكلة يجب اقتلاعها من جذورها، لكنني لا أريد إطالة أمد المعاناة، فأهوال الموت كافية".

"إنه سريع للغاية، جلبته لكِ بمشقة كبيرة و...". ابتسمت أوريليا بحنكة، توقعت أن تقول لها البائعة تلك الجملة، فأخرجت كيسًا يحوي عملات معدنية ووضعت على الطاولة المليئة بالتوابل، فأخذته السيدة في صمت، وذهبت إلى الجزء الخلفي من الحانوت، ثم عادت بعد لحظات تمسك بقينية في يدها.

"هل مفعوله مميت؟" سألت أوريليا، وهي تضع يدها على القينية بحذر مرتعدة الفرائص.

"بضع قطرات منه تقتل أقوى الجنود، يطلق عليه سردينيا، على اسم الجزيرة التي يجلب منها، وهو يستخلص من نبتة سامة، من يتجرعه يموت تاركًا ابتسامة غريبة على وجهه. إنه مميت وسريع المفعول".

أومأت أوريليا مرة واحدة، واستدارت، لتغادر الحانوت. الآن عليها الذهاب لشراء الطعام من المنتدى. كانت في عجلة من أمرها؛ عليها إنهاء التسوق وتحضير العشاء، ومن ثم تتخلص من الحمل الذي بات يثقل كاهل أسرتها.

شعرت بضيق خانق، رغم أن من يعلم بما تنتويه قد يظن غير ذلك، إلا أنها أحست بتعاطف حقيقي تجاه كورنيليا، ولكن مع وفاة كينا، تغير كل شيء فجأة. وبغض النظر عن أي شيء آخر، كان عليها أن تحمي ابنها وتحرره من القيود التي تربطه بالنظام المنهار، فعندما يعود سولا لن ينظر بعين الرحمة لأي شخص على صلة بعائلة كينا. واصلت السير بحزم غلفه حزن عميق، وعانت تقلصات في بطنها وخفقان غريب في قلبها، إلا أنها ظلت عازمة على تنفيذ قرارها، فالعواطف النبيلة لا تليق بروما، وإنما يجب أن يحظى الشخص بالدهاء وسرعة البديهة في ظل التقلبات التي تشهدا المدينة.

تقدم سولا

إيطاليا، ٨٣-٨٢ قبل الميلاد

تقدمت جيوش سولا عبر شبه الجزيرة الإيطالية محرزة الانتصارات كما فعل حلفاؤه أيضًا. فسيطر على منطقة كمبانية، وهزم القنصل نوربانوس الذي عُيِّن خلفًا لكينا، وكانوا قد أطلقوا عليه سكيبيو الجديد، وهو اسم عظيم لا يتناسب مع قدر كفاءته، وانضم جنوده بعد ذلك إلى صفوف سولا المنتصر. وفي الشمال، في أسكولي بيتشينو، هزم ميتيلوس بيوس وبومبيوس جحافل القنصل الشعبي الجديد بايريوس كربون، وفي محاولة أخيرة يائسة للفصيل الشعبي، لجؤوا إلى أكثر زعيم ملهم ليتصدى لسولا، فاختراروا غايوس ماريوس الابن قنصلًا جديدًا. فقبل التحدي وسار بجيش ارتجالي، شكّله في اللحظات الأخيرة، نحو ساكريبورتوس لخوض معركة ضارية ضد قوات سولا ودولابيللا.

وعندما علم جنود سولا بقدومه سألوه: "ماذا نفعل؟". أجابهم سولا دون تردد: "سوف نتصدى له". وكان قد رأى في منامه أن ماريوس الأب حذر ابنه من القتال في ذلك اليوم، فتيمن به وعقد أملاً كثيرة على تلك المواجهة. لكن دولابيللا كان له رأي مختلف؛ فاقترح: "لقد واصلت القوات السير على مدار أيام طويلة، يجب أن ينعموا براحة، أرى أنه من الأفضل الانتظار...". لكنه لم يسعفه الوقت لإكمال جملته؛ إذ أسرع عدد من الجنود جاؤوا من أطراف المخيم نحو خيمة القائد وهم يصيحون: "إنهم يهاجموننا، يهاجموننا!".

بعيدًا عن أحلام سولا، أراد ماريوس الابن مهاجمة أعدائه على حين غرة، ودون منحهم أي فرصة للراحة.

نظر سولا إلى دولابيل، فاعترف الأخير: "لم يعد ثمة خيار آخر، سنذود عن أنفسنا، ونصدى لهم". وهكذا بدأت الحرب، واستمرت المواجهة لساعات طويلة.

روما، عام ٨٢ قبل الميلاد

لم تتمكن أوريليا من تنفيذ خطتها، ولم تمتلك الشجاعة الكافية، إذ تقلصت أحشاؤها كلما همت بلمس القنينة. مرت أيام، وشهور، بل مضى أكثر من عام كامل، متمسكة بالأمل في أن تتمكن القوات التي تشكلت بقيادة القناصل الشعبيين المتعاقبين من التصدي لسولا، ومع ذلك، كان كل شيء ينذر بكارثة حقيقية. مُنى الفصيل الشعبي بهزيمة تلو الأخرى، وشُدَّ الحصار على روما، وتضعض بأهلها الحال، بينما الأمل الذي أودعته أوريليا في قدرة ماريوس الابن على إيقاف سولا اتضح أنه... كان سرابًا. صحيح أنه اتصف بالبسالة إلا أنه لم يرق إلى مستوى حنكة ودهاء والده.

ولسبب ما، كانت أوريليا مقتنعة بأن روح ماريوس العظيمة قد انتقلت إلى ابن صهره، إلى قيصر الشاب، لكن ابنها كان لا يزال صغيرًا للغاية، عمره الآن ١٨ عامًا فقط، ولم يكن ثمة ما يمكنه فعله حيال المشهد العبي في روما. وفي ظهيرة أحد الأيام، سألت كورنيليا حماتها: "ماذا سيحصل برأيك؟".

"ذهب قيصر إلى المنتدى، وسوف يعود بالأخبار" أجابت بهدوء. على الرغم من أنها استنشقت رائحة الهزيمة المطلقة منذ فترة طويلة، فقد وصل ميتيلوس بيوس من إفريقيا وبومبيوس من إيطاليا، وماريوس الابن يواجه سولا الذي يمتلك الخبرة والجيش، لا يمكن أن تنتهي المحاولة إلا بنتيجة واحدة محتومة. كل هذه المصائب التي تلوح في الأفق دفعتها إلى الإصرار على تنفيذ خطتها؛ إذ رأت أنه ليس ثمة مخرج لها ولعائلتها سوى تنفيذ ما انتوت فعله قبل عدة أشهر. فقعدت العزم، وعرضت على زوجة ابنها

الشابة صحناً من المرق الساخن، قدمته إليها بنفسها، وقالت لها: "اشربي هذا، سوف يذوّقك، لا يزال الجو بارداً ورطباً. لدينا بالفعل ما يكفي من المشكلات وليس ثمة داع لأن نضيف الوهن والمرض إليها، أليس كذلك يا صغيرتي؟". فقبلته وأمسكت بالصحن بكلتا يديها.

"احذري، لا يزال ساخناً للغاية" حذرتها، لأن السخونة تضعف مفعول السم، كما أن حدة طعم السم تخف إذا ما شُرب السائل بارداً.

نفخت كورنيليا عدة مرات في المرق كي يبرد قليلاً. ثم وبهدوء، وحرصاً على عدم سكب أي من المرق، قربت حافتها من شفيتها وشرعت في ارتشافه، ثم ما لبثت أن صاحت: "آه! بحق جوبيتر، إنه ساخن للغاية! سأنتظر قليلاً" ووضعت الصحن بحذر شديد على المنضدة. فتعلقت عينا أوريليا به، وحاولت الحفاظ على هدوئها.

"أردت إخبارك بأمر ما" قالت كورنيليا.

"أخبريني يا صغيرتي" أجابت بنبرة هادئة، دون أن ترفع عينيها عن المرق الذي يتصاعد البخار منه.

"أردت أن أعبر عن شكري وامتناني لك لما فعلته من أجلي، وودك وترحيبك بي في هذا المنزل. لقد رحل أبي كما لم تكن والدتي مقربة مني دائماً، كما أن أخي ليس قوياً أو ذكياً مثل قيصر. إن لم أكن زوجته، وإذا لم تكوني أنتِ وبناتك إلى جواري لضعت وبقيت وحيدة وخائفة. صحيح أنني أشعر بالخوف حقاً، وأعتقد أننا جميعاً نخشى انتصار سولا، لكنني على الأقل لا أشعر بالوحدة، إنك تتعاملين معي بود ولطف... كما لو كنت ابنة أخرى لك. منذ البداية بذلت جهداً كي تعلميني اليونانية، وأنا أعتبر أن خير ما حدث لي في هذه الدنيا هو أنني أصبحت زوجة قيصر، وأنتِ أنتِ حماتي".

أومأت أوريليا برأسها ولم تعلق. ظلت عيناها مثبتتان على المرق، ولم تمتلك شجاعة النظر مباشرة إلى عيني الفتاة، على الأقل ليس الآن.

التقطت كورنيليا الصحن مرة أخرى بحذر، وواصلت حديثها: "أردت فقط إخبارك بأنني سأظل دائماً وفيه لعائلة جوليا وسيبقى دعمي لزوجي لا حدود له مهما تغيرت الظروف، ومستعدة دائماً لتنفيذ كل ما يُطلبه مني، وسأدعن دائماً لإرادة قيصر وعائلته، وولائي لكم أبدي".

نكست أوريليا رأسها، بينما قربت كورنيليا الصحن من شفيتها بتأنٍ كي لا ينسكب أي من المرق. لكنها لم ترتشف منه شيئاً، إذ كان لا يزال البخار يتصاعد منه، فانتظرت حتى يبرد قليلاً. لم تكن قد خططت لذلك، ولكن فجأة قررت الفتاة أن هذه هي اللحظة المناسبة لإعلان الخبر الذي أرادت إطلاع أم زوجها عليه. كانتا بمفردهما، والآن أفضل من أي وقت آخر. سوف تخبر أوريليا أولاً، ومن ثمّ تخبراً قيصر معاً، فأضافت: "هناك شيء آخر أردت إبلاغك به...".

"تحدثي يا صغيرتي" أجابتها أوريليا بحسرة. لم يكن الأمر هيناً عليها، فما تقوله الفتاة أجاج مشاعرها، لكن مهما بلغت قسوة الأمر، إلا أنها حافظت على تماسكها، فهدفها الأكبر تمثل في رغبتها في حماية ابنها مما أصبح الآن تحالفاً ضاراً بالنسبة له.

"أعتقد أنني حامل" قالت كورنيليا. بعد ذلك الإعلان القصير والموجز، بقدر كونه عظيم الشأن والأثر، قربت الصحن من شفيتها مرة أخرى، فانتفضت أوريليا واقفة وهي تصيح: "انتظري!". فارتبكت الفتاة وأسقطت الصحن فتهدم على سيفساء الأرضية، وانسكب المرق.

"بحق هرقل! أنا آسفة! كم أنا بلهاء!" صاحت الفتاة بحرج.

"لا، لا بأس، اعتقدتُ أنني رأيتُ... بقعة... على الصحن... ويجب ألا تشرب زوجة ابني من وعاء متسخ، الآن سوف نطلب آخر" طمأنتها أوريليا.

"لكن هذا الذي انسكب، كنتِ قد أعددتِه لي بنفسك... أنا آسفة، أعتذر منك...".

"إنه مرق يا كورنيليا، ليس مهمًا إلى هذا الحد، كما أنه للمرأة الحامل الحق في كسر كل صحون العالم. أحضروا صحن مرق آخر، صحنين، أريد أيضًا أن أشرب شرابًا دافئًا، وبحق الآلهة، نظف هذا فورًا" أمرت أوريليا أحد العبيد.

"هل تريد سيدتي أن تقدمه بنفسها أيضًا؟" سألها العبد.

"لا، بل قدمه أنت" أجابت، ثم التفتت مرة أخرى إلى كورنيليا، وقالت: "انسي أمر المرق المسكوب، سوف يعود قيصر من المنتدى قريبًا بالأخبار، هذا هو المهم. والأهم هو ما قلته لي للتو، منذ متى عرفتِ بالأمر؟".

"لم أحض منذ ثلاثة أشهر".

نهضت أوريليا بتأنٍ، واقتربت من زوجة ابنها واحتضنتها بمودة، وقالت: "في المرة القادمة، أخبريني من أول شهر، اتفقنا؟".

"حسنًا يا أوريليا... هل يمكنني مناداتك باسمك دون ألقاب؟".

"يمكنك يا صغيرتي، يمكنك" ردت والدة قيصر، وأغمضت عينيها.

كانت لا تزال كورنيليا محرجة وخجلة، لكنها شعرت بالامتنان لحمايتها الودودة، وفكرت كم هي محظوظة. على الرغم من حقيقة أن حزب البيبولاريس في روما كان يحتضر، إلا أنها تقدّر كونها جزءًا من تلك العائلة.

رفات ماريوس

منزل عائلة جوليا، عام ٨٢ قبل الميلاد

تلقى قيصر خبر حمل كورنيليا بمفاجأة من سيصبح أباً لأول مرة، وبعاطفة الشاب الشغوف لرؤية طفله الأول. لقد أمضى أيامه خلال تلك الفترة في الذهاب إلى المنتدى والعودة إلى المنزل بأخبار حول تقدم سولا عبر إيطاليا، لكنه، في أعماقه، كان يعتقد أن العالم صار مظلمًا بسبب الحياة التي تحملها كورنيليا في أحشائها، ولم يدر بما يتوجب عليه فعله كي يغير مسار الأحداث التي تسير ضد تيار آماله ورغباته وسلامة عائلته.

في إحدى الليالي، عاد إلى المنزل بأحدث الأخبار، لم تكن سارة: لقد أخذ ماريوس الابن زمام المبادرة وهاجم قوات سولا، لكن زعيم الأوبتيميتس، الذي يمتلك الخبرة ودعم أعضاء مجلس الشيوخ المحافظين له، تمكن من إحراز النصر، ففر ماريوس الابن إلى مدينة بالسترينا. وكان القنصل الشعبي، نوربانوس، قد مُني بالهزيمة بالفعل منذ فترة طويلة. كما اضطر كربون، إلى الفرار نحو إفريقيا. أما ميتيلوس وبومبيوس فيواصلون دحر ما تبقى من جيوب الفصيل الشعبي في إيطاليا.

"بات الأمر مسألة وقت، قريبًا يدخل سولا إلى روما ويفرض سيطرته على كل شيء" علق بعدما انتهى من سرد الأخبار، فساد صمت خانق، لم ينبس أحد ببنت شفة. لم تستطع كورنيليا التحمل، فنهضت بثناقل وحذر؛ فمع تقدم الحمل باتت حركتها أكثر صعوبة، واعتذرت منهم قائلة: "أنا متعبة... سوف أذهب للنوم".

"سأرافك" قال قيصر، وكان دائماً منتبهاً للغاية لحالتها.

هبط الظلام في ردهة عائلة جوليا، بل أظلمت روما كلها. لقد غربت شمس كل من آمنوا بالقضية الشعبية وحل الليل الطويل بظلمته الحالكة.

منتدى روما

كان كراسوس أول من وصل إلى إيطاليا من أجل دعم قضية التيار المحافظ، بينما تأخر ميتيلوس وبومبيوس قليلاً؛ إذ كان عليهما مواجهة مجموعات صغيرة من سكان المناطق المتحالفة، الذين رفضوا الاستسلام لفكرة أن كل أحلامهم في الحصول على الجنسية الرومانية قد أُجهضت بانتصار سولا، وأنه سوف يخضعهم مرة أخرى إلى سياساته التقييدية.

أخيراً دخل سولا مدينة روما. فرض سيطرته دون أن تعترضه مقاومة تذكر، وكأنه لم يتبق من نضال الفصيل الشعبي سوى أفكار معارضة لأفكاره ومجرد اختلاف في وجهات النظر السياسية، والأفكار وحدها ليست كافية للتصدي لجيش هائل.

ورغم تمكنه من فرض السيطرة الكاملة، إلا أن كل هذا لم يكن كافياً بالنسبة له، كان يتوق إلى ما هو أكثر من الهيمنة، إلى ما يفوق السيطرة على كل شيء؛ فهو يتلذذ بالانتقام. عندما خرج السيناتورات للترحيب به في المنتدى أمام مبنى الكوريا، سألهم: "أين هو؟"، لكن يبدو أن قادة الرعية لم يفهموا مقصده، ولا حتى كراسوس، وحده دولابيللا فسّر سؤاله، أراد فقط التأكد من صحة تفسيره فسأله: "تقصد ماريوس؟ قبره؟".

بعد ذلك قاده شيوخ المجلس ومجموعة كبيرة من جنوده إلى المكان الذي تم فيه إيداع رفات الزعيم الشعبي الأسطوري، في ضريح تم بناؤه بسرعة، شبه مرتجل، على أحد جوانب طريق أبيا، لم يكن عظيمًا كما ينبغي لزعيم بعظمة ماريوس؛ إذ توجهت كل جهود حزب البيولاريس إلى التصدي لسولا ومحاولات منع تقدمه، ولم يَقم نصب تذكاري يتناسب مع نجاحاته غير المسبوقة في السياسة والحرب.

توقف سولا أمام النصب حيث استقرت رفات عدوه، لا، ليس نصبًا جنازياً فخماً، ولم يتناسب مع عظمة الشخص الوحيد الذي تولى منصب القنصل سبع مرات. إلا أن سولا كان حانقاً عليه لأن دفن رفاتة يعني أن الآلهة ستمنحه الرحمة. شعر بعدم الارتياح، فسأل: "هل أحرقوا جثته؟"، وعندما أجابه عدد منهم بالإيجاب، أمر: "أخرجوا الرفات"، فدق المحاربون بقسوة على جوانبه، ثم دخل عدد منهم وخرجوا بعد فترة وجيزة، يحملون صندوقاً معدنياً صغيراً يحوي بلا شك رفات ماريوس.

"اتبعوني" أمر وتقدمهم، فتبعوه دون أن يفهموا إلى أين، أرادوا معرفة ما الذي ينتوي فعله، لكن لم يجرؤ أحد منهم على النطق بما يدور في علقه إلا دولابيللا، فدنا منه وسأله: "إلى أين؟".

"إلى خارج المدينة، سوف نذهب بعيداً للغاية" رد بإجابة مبهمه.

ساروا لعدة أميال، حتى باتت المدينة خلف ظهورهم. استمروا في السير بمحاذاة نهر التيبير حتى وصلوا إلى نهر أنيو، وهناك توقف سولا أخيراً وقال: "ها قد ابتعدنا بما فيه الكفاية" ونظر إلى جنوده الذين يحملون الصندوق وأمرهم: "اقذفوه هنا".

بدا الشك على وجوه الجنود، إنها رفات زعيم أسطوري أنقذ المدينة عدة مرات من هجمات خطيرة، ووفقاً للميثولوجيا الرومانية؛ يضمن نثر رفات ماريوس في النهر حرمانه من الراحة حتى في عالم الأموات. لكنه لم يترك لهم أي مجال للتفكير، أو الاستفسار. ازدرد الجنود شكوكهم بصمت واقتربوا من حافة النهر، وخطو بضع خطوات حتى غطت المياه حصورهم، وحينها فتحوا الصندوق وسكبوا الرفات لتجرفها مياه النهر.

"حسناً!" قال سولا. مكث هناك لفترة، متطلعاً نحو النهر للاستمتاع بانتصاره الخاص الذي حققه ضد ماريوس، بعد وفاته. إنه عدوه الذي يكرهه، هُزم الآن ومات ولن ينعم براحة أبدية. بدا له نصراً مطلقاً.

منزل عائلة جوليا، بعد ظهر ذلك اليوم

علم قيصر بما فعله سولا برفات عمه غايوس ماريوس، فظل صامتًا لفترة طويلة. كان لاينوس هو من أخبره بالأمر، وطلب المغفرة ألف مرة على فعلته تلك. خرجت كورنيليا إلى الردهة؛ حيث كان ينتظر صديق قيصر، وقالت له: "أعتقد أنه من الأفضل لك الذهاب الآن؛ لم أره قط في مثل تلك الحالة، بمرور الوقت سيتقبل ما حدث".

فاحترم لاينوس موقف صديقه وتركه وحده مع كورنيليا، ودّعها وغادر. عادت هي إلى حيث كان يجلس زوجها، بجوار حوض تجمع مياه الأمطار، ملتزمًا الصمت، منكس الرأس، يحرق إلى أرضية الفسيفساء. لم تكن أوريليا موجودة في ذلك الوقت، كانت قد ذهبت إلى منتدى فينالسيوم، للتسوق.

دنت كورنيليا بهدوء من قيصر، دارت حوله وعانقته من الخلف، فهمس لها بنبرة هادئة وباردة لا تظهر مشاعره: "لا أعرف كيف أو متى، لكنني يومًا ما سأواجه سولا، سأتصدى لهم جميعًا".

"مَن؟" سألته.

"الأوبتيميتس".

"سولا فقط هو من عبث بالنُصب" أشارت كورنيليا. خشيت أن يقرر قيصر مواجهة كل السيناتورات الفاسدين في وقت واحد.

"سولا وحده المسؤول عما حدث، لكن لم يحاول بومبيوس ولا كراسوس إيقاف هذا العبث، كلهم متواطئون، يستحقون جميعًا بنفس القدر من الآن فصاعدًا كراهيتي الأبدية" علّق قيصر. ثم رفع مستوى بصره متطلعًا إلى زوجته وأضاف: "كورنيليا، أتفهم أن الدافع وراء فسادهم هو الرغبة في إثراء خزائنتهم، وأن عداوتهم لنا سببها نضالنا من أجل تحسين الأوضاع، وأدرك أنهم يقاومون من أجل حماية مناصبهم ولا يمانعون في القتل من أجل ذلك. لكن تدنيس قبر أحد أعظم جنود روما، من أجل الانتقام منه تعدى

حدود الغضب. لقد عبروا اليوم خط اللاعودة، وفي يوم من الأيام، سأعبر أنا أيضًا نفس الخط لأرد عليهم جميعًا بالدم على الفظائع التي ارتكبوها في حقنا. أقسم على ذلك... بحق جويتر". ولم يكن ذلك مجرد قسم، لقد صدر من الفلامين دياليس، كبير كهنة الإله جويتر نفسه.

شق الرعد السماء، وبدأت تمطر بغزارة.

"تعال" قالت كورنيليا، وأمسكت بيد زوجها بلطف وقادته إلى الداخل.

أطول ليالي روما

روما، في ٣١ أكتوبر، من عام ٨٢ قبل الميلاد

الساعة الثالثة بعد شروق الشمس*

يبدو أن الفصيل الشعبي قد فقد كل شيء بالفعل. قرر سولا إجراء سلسلة من الجلسات في مجلس الشيوخ لإلغاء جميع القوانين التي سنها ماريوس وكينا والقادة الشعبيون الآخرين من بعدهما، كي لا يبقى شيئاً من النظام السابق. لن يترك ذكرى واحدة. نعم... بدأ أن حزب البيولاريس قد تهاوى تمامًا وفقد كل ما لديه.

لكن فجأة، وبشكل غير متوقع حدثت ضربة القدر التي ستهز التاريخ؛ إذ تسلح السامنيون واللوكانيون، وهما من الشعوب الإيطالية، وتقدموا نحو روما من أجل الإطاحة بسولا، بثبات وعزيمة على مواصلة القتال مهما طال أمده.

لعل الدافع وراء تحركهم كان علمهم بأن سولا يترأس الفصيل الروماني الأقل ميلاً للمساواة بين سكان المناطق المتحالفة والمواطنين الرومان في الحقوق. فقرر السامنيون مهاجمة مدينة التبير قبل أن تنضم القوات التي جندها بومبيوس وميتيلوس، إلى قوات سولا وكراسوس، ويصبح حينها الأمر مستحيلًا.

* تقريبًا الساعة السابعة صباحًا وفقًا للتقويم الحالي، لكن التقويم الروماني قسّم اليوم وفقًا لسطوع وغروب الشمس، فالساعة الأولى هي موعد شروق الشمس، وساعات النهار عددها ١٢، أي إن الساعة السادسة تعني منتصف النهار، وموعد القيلولة. (الترجم)

كان سولا قد وصل للتو إلى مجلس الشيوخ كي يترأس أولى جلسات مناقشة إلغاء القوانين التي سنها حزب البيولاريس على مدار السنوات الأخيرة، وحينما علم بخبر تقدم السامين توقف ونكس رأسه في صمت، ووضع يديه على خصره. تعلقت أعين دولابيللا وكراسوس به، فالتفت إليهما نصف التفاتة، بتأن. بات من الضروري تأجيل انعقاد جلسات المجلس.

منزل عائلة جوليا

في نفس اليوم، في التوقيت نفسه

دخل لاينوس منزل صديقه قيصر وصدرة مليء بالأمل، يذف إليه الخبير: "السامنيون يتقدمون نحو روما! أعدادهم بالآلاف! سيواجه صعوبة في التعامل معهم حتى ولو واجههم بجيشه الكامل من المحاربين القدامى! إنها انتفاضة عامة، وقد انضم إليهم اللوكانيون بالفعل".

اتفق معه قيصر وعلق: "ليتهم كانوا قد أنهوا تلك الحرب الاجتماعية قبل هذا".

"كان كينا أثناء توليه السلطة يولى اهتمامًا كبيرًا لحقوقهم وخاصة الحق في الحصول على الجنسية، لكن سولا يعتزم إلغاء كل تلك القرارات وهم يعلمون ذلك".

"وهذا هو المحرك الأساسي الذي دفعهم إلى التمرد بلا أدنى شك" قال قيصر. لم يستطع احتواء حنقه، وأضاف: "أمل أن يتمكن السامنيون من تمزيق جسد سولا الملعون إلى أشلاء"؛ إذ كان غضبه لتدنيس نصب عمه ماريوس لا يزال حاضرًا في ذاكرته. أضحى أمله الوحيد أن يلاقي سولا أقسى ميتة ممكنة، وأكبر إهانة يمكن تخيلها لرفاته.

فجأة، سمعا صرخة امرأة تفتقر القلب، نابغة من الأعماق، لألم هائل لم تتمكن من إخفائه. فاستدارا نحو غرف المنزل، فوجدا أوريليا قادمة من غرفة زوجة ابنها وتقول: "لقد بدأ المخاض!"، ثم أضافت بإلحاح: "إنها لا

تزال صغيرة للغاية، وقد لا تكفي مساعدة القابلة. بحق جويتر يا بني، اذهب وابحث عن الطبيب اليوناني". كان ثمة شيء في لهجة أوريليا جعلت ابنها يدرك أن المخاض لا يسير على ما يرام، لقد أنجبت والدته ثلاث مرات، وتذكر جيّدًا ما تقوله.

قبالة أسوار روما

الساعة السادسة

قضى سولا ساعات طويلة في الفحص والتدقيق كي يتأكد من قوة تحصينات روما، دون أن تشي ملامح وجهه بالاطمئنان أو بالثقة؛ إذ لم تكن حصون المدينة قوية بما يكفي لتحمل الحصار، وكان يعرف ذلك جيّدًا. فمع توسع روما في شبه الجزيرة الإيطالية، لم يهتم الحكام بتحسين دفاعات الجدار السرفياني العريق، الذي بُني منذ زمن سحيق كي يحميها من الهجمات. وحتى في أسوأ لحظات الحرب الاجتماعية الأخيرة أو أثناء تقدم الجرمان نحو روما، لم يُرمم الجدار كي يصبح سدًا منيعًا ضد أي هجوم محتمل واسع النطاق؛ إذ كان يعتقد دائمًا أن جيش روما قادر على ردع أعدائها قبل أن يصلوا إلى الجدار الدفاعي.

وهذا ما سهّل على سولا مهمة الإغارة على المدينة مرتين، فما عزز موقفه في الماضي ها هو يصب في مصلحة عدوه الآن.

"سقاتل خارج المدينة، قبالة الأسوار" كشف سولا لضباطه الأكثر ولاء له ومن بينهم دولابيل وكراسوس بينما يتناقشون في خيمته أمام "بوابة كولين"، في الجزء الشمالي بالجدار السرفياني، أحد أشهر بوابات روما، وأوضح: "الجدار ليس في حالة جيدة بما يكفي لمقاومة الحصار، لكن يمكننا استغلال ارتفاعه كمنصة ينطلق منها رماة السهام لدعم قوات المشاة أو...". توقف سولا، وبعد برهة، واصل الحديث، ولكن حول مسألة أخرى: "علينا الاستعداد لبدء القتال في أي لحظة. تشير التقارير الواردة من

الدوريات التي أرسلتها حول روما إلى أن السامنيين يتقدمون بإصرار نحونا وقد يصلون إلى هنا عند غروب الشمس".

"قد لا يهاجمون قبل حلول الفجر على الأقل" قال كراسوس.

هز سولا رأسه نافيًا وعلق: "لا يمكنني التحقق من ذلك، أفضل أن نستعد لمعركة ليلية. لن أترك مجالًا للمفاجآت. إنهم كثيرون وأتوا من أجل الاستيلاء على كل شيء".

منزل عائلة جوليا

الساعة السابعة

ظلت كورنيليا تصرخ بلا توقف، بالكاد غادر الطبيب غرفتها فسأله قيصر عن وضعها؛ إذ لم يكن خبيرًا في أمور المخاض. لكن صرخات كورنيليا من شدة الآلام كشفت أنها تجاوزت المعاناة المعتادة للمرأة في مثل هذه الظروف، فأخبره الطبيب: "بحق أسقليبيوس، لا تسير الأمور على ما يرام، وضعية الطفل داخل الرحم تعقد سير المخاض، فقدمه إلى الأسفل، ومن المفترض أن تكون رأسه في موضع قدمه الآن، كما أن الأم لا تزال صغيرة السن، وهذا طفلها الأول. بصراحة... لا أرى أن الحالة مطمئنة".

خرجت أوريليا من الحجرة كي تستمع إلى توصيف الطبيب للحالة، وبعدها انتهى سألته بقدر من الفظاظة والتفكير العملي: "إذا ماتت هي... هل يمكننا إنقاذ الجنين؟". تنهد الطبيب وتجهّم وجهه، ثم أجاب بدقة: "حينها يمكن إجراء عملية قيصرية بعد الوفاة وقد نتمكن من إنقاذه، لكن كل هذا يعتمد على تطور الحالة على مدار الساعات القليلة القادمة".

"هل تقول ساعات؟" سأل قيصر بنبرة تشبه حشجة مذبح، وأضاف: "لا يمكن أن تتحمل كورنيليا هذا الوضع لساعات!".

"ستعاني كثيرًا، هذا صحيح، لكن من واقع خبرتي، في مثل تلك الحالات، يطول المخاض؛ لذا عليك الاستعداد لما قد يحدث" قال الطبيب

الذي بدا متعاطفًا مع مشاعره، ثم توجه عائداً إلى الغرفة حيث ترقد كورنيليا وأضاف: "أحتاج إلى المزيد من الماء الساخن والملاءات النظيفة".

أخذ قيصر يتنقل بين جوانب الردهة، يضغط بيديه على رأسه. راقبه لابينوس ولم يدر ماذا يفعل أو كيف يهدئ من روعه، ألمه ما به وأثر فيه، بينما لم يكف عقل أوريليا عن التفكير. ظنت أنه ربما تخلصها تلك الولادة العسيرة من كورنيليا المسكينة وتحرر قيصر من علاقاته بالماضي القريب المرتبط بنظام كينا، ليصبح ابنها أقل تميزاً بين حزب البيبولاريس الذي يعتزم سولا محوه من الوجود بمجرد تعزيز سلطته. ومن ناحية أخرى، فكرت... ترى هل سيتمكن سولا حقاً من فرض السيطرة الكاملة؟ هل سيقدر على صد تمرد السامنيين؟ أم ستمكن تلك الجيوش المشكلة من سكان المناطق المتحالفة مع روما من هزيمة رجل لم يتمكن كينا ولا ماريوس الأب ومن بعدهما ماريوس الابن من هزيمته؟ بالطبع كلهم قاتلوا من قبل في صفوف الجحافل الرومانية التي تحركها الرشاوى، ومع ذلك، يحارب السامنيون الآن من أجل انتزاع حقوقهم. لم يكن تمردهم سلعة يمكن أن تباع. كان على سولا أن يقاتل، كما فعل في اليونان... وفي خضم المعارك أصبح كل النتائج محتملة..

"هل من أخبار عن تقدم السامنيين؟" سألت أوريليا.

"سمعنا أنهم يقتربون من روما بأقصى سرعة، وهذا جل ما نعرفه" أجاب قيصر.

"حسناً، اذهب لتقصي الأخبار، وجودك هنا لن يفيد" اقترحت. ثم غادرت الردهة وذهبت إلى حيث الطبيب وكورنيليا التي كانت لا تزال تصرخ.

"لنذهب، دعنا نستطلع ما يحدث بالخارج" أصرَّ لابينوس. لكن قيصر لم يؤيد الفكرة، إلا أنه أراد الابتعاد قليلاً؛ لذا غادرا المنزل، وسارا في شوارع روما يقصدان الجدار العريق.

قسّم سولا جحافله وجحافل كينا الذين اشترى ولاءهم له بالمال في نولا، إلى ثلاثة أجزاء. بعد ذلك قاد اثنين منهم إلى خارج المدينة، ليمركزا قبالة الجدار الدفاعي المتهالك من الناحية التي ستأتي منها القبائل المتمردة في محاولة نهائية لتحقيق التوازن في الحقوق الإجتماعية. وعين كراسوس قائداً على جحافله، وكان يثق بهم أكثر. أما دولابيل فسوف يقود جحافل نولا. وقف أعلى بوابة كولين لمراقبة كل شيء، لقد احتاج أن يترك الثلث الثالث من القوات داخل المدينة، تحسباً لأي محاولة شعبية للتمرد قد تشكل جبهة ثانية للحرب، وهو أمر من شأنه أن يعيق فرض سيطرته وحكمه لروما. بدأت الشمس تهبط في الأفق.

"ها هم قد وصلوا!" أعلن أحد الحراس.

وعلى مدى البصر كان بإمكان المرء أن يرى سحابة هائلة من الغبار؛ ثم، شيئاً فشيئاً، ومع مواصلة تقدمهم، انقشع فبرزت الصفوف الأولى من المحاربين السامنيين المسلحين، يتقدمون بسرعة هائلة، يهرولون نحو الجنود الرومان.

ازدرد سولا لعابه. سيحل رداء الظلام في غضون ساعات قليلة، فأمر: "أحضروا المشاعل، بحق جوبيتر، أحتاج إلى كل مشاعل روما!"؛ إذ سوف يلتقي الجيشان وسط ظلمة الليل، وأراد القائد الروماني إضاءة كاشفة تظهر كل ما يحدث في ساحة المعركة.

منزل عائلة جوليا

الساعة التاسعة

لم يستطع قيصر ولا بينوس الخروج من حيز حي سوبورا؛ إذ انتشرت قوات تابعة لسولا عند مداخل المنتدى وفي الطرق الرئيسية. كما أن زعيم

الأوبتيميتس أصدر أمرًا صريحًا بحصار الحي الذي اعتبر معقلًا للفصيل الشعبي والداعمين له، لأنه لم يرد إتاحة الفرصة لانتفاضة داخلية من الممكن أن تؤدي إلى إشعال فتيل التمرد العام في روما بأكملها.

"لنعد إلى المنزل" اقترح قيصر، ووافق لابينوس، بات أي تحرك عسكري مناهض لسولا مستحيلًا. لم يتمكنوا حتى من مواصلة السير في ظل انتشار القوات في كل مكان، فعادا مسرعين. كان قيصر قلقًا للغاية على زوجته، وعند وصولهما وجدا أوريليا في الردهة، تمرر قطعة قماش على جبهتها ورقبتها، ولم تتوقف صرخات كورنيليا، فسألتهما: "ما الجديد؟".

"سولا يحاصر حي سوبورا، ليس ثمة طريقة للوصول إلى الجدار" أجاب قيصر. فسمع صرخات كورنيليا وصاح: "بحق الآلهة جمعاء! ألا تستطيعون فعل أي شيء من أجلها؟". لم تجبه. لم يكن ثمة ما يمكن إضافته إلى ما شرحه الطبيب بالفعل، وبصراحة لم يتحسن وضعها.

أعلى أسوار روما

الساعة العاشرة

وقف سولا يراقب الجحافل التي انقسمت إلى جناحين كبيرين على استعداد لبدء القتال. عندما اطمأن إلى إتمام مهمة تشكيل الصفوف، أدرك أن ثمة مهام أخرى عليه التفرغ لها، بعدما خرج دولابيل وكراسوس لقيادة الجحافل حسب تعليماته، بينما وقف عدد من الطربون في انتظار أوامره. فالتفت إليهم وأمر: "أريد توزيع ثلثي المشاعل، مقسمة بالتساوي بين قوات دولابيل وكراسوس، ويبقى الثلث الأخير على طول الجدار، وأن يتمركز الرماة أعلى الأسوار."

منزل عائلة جوليا

الساعة الحادية عشر

توقفت كورنيليا عن الصراخ. ورغم أن توقفها أثلج صدورهم إلا أنهم خشوا أن تفقد الوعي في أي لحظة، لأنها إن لم تكن واعية فلن تستطيع تحفيز المخاض بالدفع، وحينها لن يولد الطفل أبدًا، وقد ينتهي المطاف بموت الأم والجنين.

جلس، لا، على وجه الدقة، تهاوى على أحد المقاعد، فعالمه بأكمله على وشك الانهيار. في البداية فقد حزب البيولاريس السيطرة على المدينة، ثم عاد سولا بتجبره، وزوجته تحتضر، وحينها متعثر، ولم يخرج إلى الدنيا بعد، وإذا خارت قواها واستسلمت، فمن المحتمل أن يفقد ابنه أيضًا. كان مقتنعًا بأن الطفل سيكون صبيًا. دنا منه لاينوس، وقال له، محاولًا تشتيت انتباهه عما يحدث داخل حجرة كورنيليا: "ربما ينجز السامنيون ما فشلنا في تحقيقه".

"ماذا تقصد؟" سأله قيصر بشرود؛ إذ ظل عقله متشبثًا بالتفكير فيهما.

"هزيمة سولا" أجاب لاينوس.

أعلى أسوار روما

الساعة الثانية عشرة (آخر ساعات النهار)

تقدم الجيش السامني حتى أصبح على بُعد ألف خطوة من الجحافل، ذبلت أشعة الشمس وغربت، وحل الظلام، أظلم كل شيء، وفي بحر ظلال الليل، اختفى الجيش السامني عن أعين الرومان. لكن سولا كان متنبهاً للغاية، وعندما همَّ أحد الطربون بقول شيء ما، رفع يده مشيرًا إليه بالصمت، ودقق في الأصوات التي تتسلل في ظلام الليل.

أضاء السامنيون المشاعل، ليتمد مئات الآلاف من البريق اللامع بسرعة البرق مثل فسيفساء من نار على مرمى البصر. وعليه أمر دولابيل وكراسوس

جنودهما بفعل الشيء نفسه، فأطاع الجنود، لكن سولا كان له رأي آخر؛ إذ فطن إلى إمكانية أن تنفذ المشاعل كلها في وقت مبكر للغاية. لم يعرف كم بلغ عدد جنود العدو، لكنه كان يعرف بدقة عدد جنوده، لذا أمر الطربون: "أبلغوا كراسوس ودولابيلبا باستخدام نصف المشاعل فقط ولا يستخدمان النصف الآخر حتى الساعة الثانية من الليل"، فانصرفوا لإبلاغهما بالتعليمات.

كان الضوء هو المفتاح في معركة تدور رحاها وسط عتمة الليل.

سار سولا بين الظلال أعلى قمة جدار روما العريق، يراقب كل شيء دون أن يتمكن الأعداء من رؤيته.

بدأ السامنيون الهجوم وبسرعة اشتعل القتال.

منزل عائلة جوليا

الأول من نوفمبر، الربع الأول من الليل*

وصل وغى الحرب حتى ردهة منزل قيصر، أدرك الجميع أنها معركة شرسة وضارية، وفيما عدا ذلك لم يعلم أحد أي شيء بخصوص تفاصيلها على وجه اليقين، وفي غياب المعلومة تنتشر الشائعة. وبالفعل انتشرت الشائعات بين العامة، في شوارع وأزقة حي سوبورا حول كيف كان السامنيون يتوغلون عبر الصفوف الرومانية المصطفة بإحكام، ولم تخل من ومضات نور لا يخبو بريقها. لكن ترى هل عبرت تلك الأقاويل حقا عن الواقع؟

سار قيصر هائما على وجهه، يراقبه لابينوس. شعر بالمرارة والعجز مرة أخرى عن عدم تمكنه من تقديم الدعم لصديقه. توقفت كورنيليا عن صراخها المفجع، لكن لم يخرج الطبيب ولا أوريليا لإطلاعه على أخبار تقدم المخاض.

* اعتبر الرومان ساعات الليل هي الفترة ما بين غروب الشمس وشروقها في يوم جديد، وقسمت إلى أربع فترات. (المترجم)

رأى دولابيل كيف أن الجحافل التي كانت تحت قيادته عديمة الخبرة وغير مستعدة للقتال. كانوا يفقدون قواهم بسرعة، على الرغم من حقيقة أنه أمر باستبدال سريع في الخط الأمامي للقتال، لقد بذل هو نفسه جهداً للانتقال من جانب إلى آخر لإعطاء الأوامر الخاصة بمواقع الجنود؛ نعم، حرص دائماً على الابتعاد عن الطليعة. كانت شراسة السامنيين الغاضبين الذين يناضلون من أجل حريتهم وحقوقهم أقوى من قوة الأسلحة والجنود الذين يقاتلون مقابل الرشاوى وحفنة من العملات. وسرعان ما انتشر الاضطراب في صفوف هذا الجناح، وبدأ دولابيل، بحذر شديد ولكن بشكل لافت للانتباه، في التراجع؛ لم يكن ليقبل بالتضحية بنفسه.

بينما حافظت القوات المخضمة، الذين قاتلوا بالفعل في الحرب في اليونان أو في آسيا، بقيادة كراسوس على مواقعهم بانضباط، وهناك لم يحرز السامنيون أي تقدم يذكر. وقف سولا براقب المشهد بأكمله من عل، وأدرك ضعف جناح جحافل نولا، فأمر: "أضيئوا المشاعل!".

وسرعان ما أضاء مئات الرماة المستعدين لإطلاق السهام مشاعلهم على طول الجدار.

واصل السامنيون تقدمهم واستمروا في دفع فيالق دولابيل نحو الجدار، فاستدار بعض جنود الرومان وركضوا عبر بوابة كولين، والبوابات الأخرى التي ظلت مفتوحة للحفاظ على الاتصال بين القوات داخل وخارج المدينة، وإتاحة الفرصة لإرسال التعزيزات أو تبديل القوات.

انتظر الرماة أمراً بإطلاق السهام على السامنيين، لكنهم كانوا لا يزالون بعيدين للغاية. ومع ذلك، كان لدى سولا فكرة أخرى، فأمر الرماة: "استهدفوا كل من يتقهقر!".

نظر الطربون إليه ولم يعلق أي منهم بكلمة واحدة، بينما تعلقت أعين الرماة بالطربون والضباط، لكن لم ينبس أحدهم بينت شفة. وحده سولا واصل الصياح وتوجيه التعليمات التي تحثهم على ردع كل من يتفهمق: "أطلقوا سهامكم على الفارين، بحق الآلهة جمعاء! نفذوا الآن!".

وعلى الفور، شرع الرماة، الذين كانوا يوجهون رماحهم وسهامهم بدقة نحو السامنيين، في تغيير أهدافهم كما أمروا، لاستهداف كل من يقترب من الجدار، وسط إلحاح سولا وصياحه: "الآن، بحق جوبيتر!". وفي غضون لحظات، أسقطوا أمطارًا من الفولاذ على الجنود الفارين، حتى قُتل أكثر من ١٠٠ جندي روماني في الضربة الأولى.

قتلت سهام رومانية جنودًا رومان.

كانت عقوبة الفرار من القتال قاسية، أصابتهم بحالة من الصدمة، فتراجع كل من فكر في الانسحاب. حتى دولابيل نفسه، خشى العقوبة فتراجع عن الفرار، وحث الذين هموا بالانسحاب على العودة إلى ساحة القتال.

خاطب سولا ضباطه، وهو لا يزال على قمة الجدار: "أطلقوا السهام على كل من يجرؤ على الاقتراب من أسوار روما! بحق جوبيتر، أطلقوا السهام عليّ أنا إذا ما رأيتموني أهمُّ بالفرار". أصيب كل من حوله بالدهشة. وعلى الفور هبط من أعلى الجدار، وسار بمحاذاة من الداخل، وكلما مر على باب مفتوح أصدر الأمر نفسه بحزم: "اغلقوا الأبواب!". وبمجرد أن يوليهم ظهره كان يدوي وقع سقوط الحواجز الحديدية المشبكة عمودياً كي تُقفل الأبواب الضخمة، وعندما وصل إلى بوابة كولين أمر الحراس: "بمجرد أن أخرج، أغلقوا هذا الباب أيضًا!". وكان برفقته مجموعة من قدامى المحاربين المخلصين له.

بمجرد خروجه من المدينة، توجه مباشرة نحو الجناح الذي يقوده دولابيل. كان موقف سولا واضحًا للغاية بشأن ما فعلوه، فصاح بكل قوته: "النصر أو الموت!". وعلى الفور بدأ العشرات من الرجال من حوله يرددون الصيحة مرارًا وتكرارًا: "النصر أو الموت! النصر أو الموت!".

يمكن أن يتصف لوسيوس كورنيليوس سولا بالأنانية والغرور، والمكر، وإنه لا يتوانى لحظة في نهب أقدس المعابد، ولا يجد غضاضة في التلاعب بالإرادات وكسر الولاءات وتعزيز الخيانات، ومستعد دائماً لفعل أي شيء من أجل تحقيق أهدافه السياسية، وإرضاء طموحه الشخصي. ربما كان حقيراً وفساداً وحتى ديكتاتوراً مستقبلياً بلغ منتهى القسوة والتجبر، لكن ثمة صفة واحدة لم يتصف بها أبداً؛ وهي الجُبْن.

منزل عائلة جوليا

الربع الثالث من الليل

تحول المخاض إلى معاناة طويلة الأمد، حتى بدا أن كورنيليا تفقد حياتها شيئاً فشيئاً، ومعها الروح التي تحملها في رحمها. أمام كل ما يحدث، أقبل قيصر على فعل طالما اعتبره المجتمع الروماني لا يليق برجل؛ وعُدَّ مخالفة حقيقية، لقد عبر الحدود. لكنها لن تكون أكثر الحدود إثارة للدهشة أو آخر الحدود التي سيعبرها في حياته؛ إذ دخل الزوج الشاب إلى حجرة كورنيليا. وبمجرد أن رأوه يدخل، ابتعد العبيد عن الفراش، والتفت إليه الطيب في استغراب، إلا أنه لم يعلق، وظل منهما في عمله. بينما بدت أوريليا أقل دهشة؛ فهي من ربته على عدم القبول بأن ثمة شيئاً مسلماً به أو مستحيلاً، طالما أنه يحاول، كما أنها لن توجهه إلى ما يجب عليه فعله وما لا يجب عليه؛ فهو الآن رب الأسرة.

وجد قيصر مقعداً شاغراً إلى جوار كورنيليا، فدنا منها، فانسحبت الخادمة التي كانت ترطب جبهتها بقطعة قماش مبللة، كي تتركهما بمفردهما، بينما نظر إليه الطيب وأخبره: "الأمر يتوقف على استمرارها في الدَّفْع". تأمل قيصر كورنيليا، وجد الفراش ملطخاً بالدماء، وزوجته تتعرق بغزارة وتلهث وعيناها مغمضتان. قَرَّبَت أوريليا إليها كوباً من الماء، وهمست لها: "لقد أتى غايوس". فحاولت أن تفتح عينيها بينما ترشف الماء، ثم بللت الدموع وجنتيها. بدا على وجهها شعور بمزيج من الألم والمرارة والعجز، لم تستطع

النطق بكلمة واحدة، باتت واهنة إلى أقصى حد، فهمس لها: "عليك مواصلة الدفع، افعلي ذلك من أجلك، من أجلي، من أجل طفلنا الصغير، يمكنك أن تفعلي ذلك، وأنا أعلم أنك تستطيعين".

استجابت لتوسلاته وحاولت مرة أخرى، بكل قوتها، لكن بدا أن محاولاتها تضيع عبثاً، حتى أمر الطبيب: "من الأفضل أن يغادر الأب الغرفة". حينها نظر قيصر إلى والدته فأشارت له بالطاعة، وامثل هو لتعليمات اليوناني المخضرم، فحياة زوجته وابنه باتت في يده، ثم غادر الغرفة.

في الخارج، وقف وإلى جواره لاينوس، ظلت صرخات كورنيليا تصم أذانهما، على مدار ما بدا وكأنه ساعات طويلة لا تنتهي، حتى فقد قيصر الأمل في إمكانية أن يسير شيء واحد على ما يرام في تلك الليلة القاسية. ولما بلغ منه اليأس مبلغاً خرجت والدته إلى الردهة وهي تصيح بصوت عالٍ وواضح: "إنها طفلة!".

قبالة أسوار روما

الربع الأخير من الليل

اقترب سولا من كل من حاولوا الفرار، وذكّرهم: "لقد أصدرت أوامر بقتل كل من يقترب من الجدران!"، ثم واصل دفعهم نحو الصفوف الأمامية. وعلى هذا النحو استمر سولا ودولابيللا في تكرار التحذيرات، يرددها من ورائهم الضباط والطربون، فما كان من الجنود سوى الامتثال والصمود، فتهديدات سولا لم تكن مجرد كلام، بل حقيقة واضحة وأفعالاً يرونها بأعينهم. وهكذا عاد معظم جنود الفيلق إلى القتال اليدوي ضد السامنيين.

كانت الخسائر على كلا الجانبين لا تُحصى، إلا أن جيوش المناطق المتحالفة لم تتخل عن الهجوم للحظة واحدة، حتى أوشكوا على تدمير جحافل نولا الواهنة وذلك لأنها سُكلت من رجال غير أكفاء ولا يمتلكون

خبرات عسكرية كافية. لكن المعركة كانت تتطور على صعيدين، كطرفي نقيض؛ فجناح كراسوس على العكس، هاجم وتغلب على العدو بضراوة.

أتى أطربون من جناح دولابيللا، بعثه كراسوس نفسه، إلى سولا يبلغه برسالة أراد بها توضيح صدق نواياه: "لقد دمر جناح كراسوس السامنيين على جانبه وسيواصل محاصرة من يهاجموننا والتصدي لهم". فأوما زعيم الأوبتيميتس برأسه مؤيداً، وقال: "فلينفذ كراسوس خطة تطويق العدو". ثم نظر إلى دولابيللا وأضاف بيقين كامل: "النصر بات لنا يا صديقي".

أوشك الليل الطويل على نهايته، ولم يتبق من المعركة سوى الرمق الأخير.

بزغ أول شعاع للشمس يلقي بظلاله على بحر من جثث السامنيين والرومان الذين سقطوا في القتال الدامي أثناء الليل، بينما واصلت جحافل كراسوس القتال بهدوء أكثر، ولكن بلا هوادة وبلا رحمة، مثل آلة سحق مثالية. بينما أنهكت قوات المناطق المتحالفة، وبدؤوا يدركون بدهشة وصدمة قدر خسارتهم.

تأمل لوسيوس كورنيليوس سولا شروق الشمس فوق روما، فقال لصديقه: "ليس هذا بشروق ليوم آخر يا دولابيللا، بل بزوغ فجر عهد جديد". في تلك اللحظة اقترب منهما كراسوس، محاطاً بمجموعة من جنود الفيلق الذين رافقوه لحراسته، وأخبر سولا: "لقد قضيت عليهم، في غضون بضع ساعات لن يتبقى منهم أحدٌ على قيد الحياة. أعتقد أنني قدمت أداء أفضل من دولابيللا" وسمح لنفسه بابتسامة.

لمح سولا الغضب على وجه دولابيللا. كان صحيحاً أن كراسوس حقق ما لم يحققه دولابيللا، لكن الواقع أنه قاد جحافل من قدامى المحاربين، في حين أن دولابيللا كان يقود الفيلق الأقل خبرة، وكانت تلك المعركة أولى تجاربهم العسكرية. ففطن إلى أمور كثيرة جلية في فجر ذلك اليوم؛ أولها أن كراسوس بلغ مبلغاً عالياً من الطموح الجامح بقدر كونه وقحاً، وأن غروره

أعماه لدرجة الحماقة فلم يستطع التمييز بين تحقيق الانتصار بجدارته الشخصية، وبين الانتصار بفعل الجهود المشتركة، وتوقع أن يتحول ذلك إلى طموح قاتل سيودي به يوماً ما. كما عَلِمَ أن دولابيلاً لن يتوافق معه أبداً. فحدثته نفسه، بأنه الآن، مع بزوغ فجر جديد، سيحصل، هو سولا على كل ما تمنى، وكانت طموحاته لا حدود لها.

منزل عائلة جوليا

الساعة الأولى (وقت بزوغ الفجر)

"إنها فتاة" أعلن الطبيب.

قد يستقبل كثير من الرجال هذا الخبر بخيبة أمل، لكن وضع قيصر كان مختلفاً. ففي تلك اللحظة، لم تكن مسألة وجود وريث لعائلة جوليا مهمة أو طارئة بالنسبة له، إذ سيحين وقت التفكير في كل هذا فيما بعد. بينما الآن ما يثقل كاهله هو قلقه بشأن صحة عائلته، أراد التأكد أن المولود الجديد يتمتع بصحة جيدة وأن تسترد كورنيليا صحتها، قبل كل شيء.

"يبدو أنها فقدت الوعي" قالت أوريليا وهي تنظر إلى الأم الشابة. فأمر الطبيب أحد الخدم بتحميم المولودة وتطهيرها من آثار الدماء، وأسرع نحو كورنيليا ووضع يده على جبهتها. وجد أنها لا تتفاعل، بدت وكأنها لم تعد واهنة أو فاقدة للوعي، بل فاقدة للروح، فأخذ يحرك رأسه رافضاً، وواصل محاولات إسعافها. زَمَّ شفّتيه، بدا وكأنما سقطت على وجهه كآبة ممسوحة بشعور بالعجز، حينها جثا قيصر على ركبتيه إلى جوارها وتشبث بيدها، وهمس لها: "لا تركيني يا كورنيليا... لا تركيني..."

المحاكمة (٤)

جلسة رد القضية (الطعن)

يجوز للمتَّهم أو لمحامي الدفاع طلب استبعاد أحد القضاة إذا ما ثبتت علاقته بالمتَّهم ما قد يؤثر على التزامه الحياد في حكمه.

نصيحة أوريليا

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

بعد خمس سنوات من الليلة التي وضعت فيها كورنيليا مولودتها، تجمع أفراد العائلة قبيل موعد جلسة رد القضية المرتقبة، وبات منزل قيصر وكأنه مكان سري لتجمع النساء. تجتمعن للعشاء في الردهة؛ زوجته كورنيليا، وأختاه، وابنة أخته آتيا، ووالدته. لقد رحل والده وعمه ماريوس، وخاله أوريليو كوتا لن يتردد على منزلهم طالما أن محاكمة دولابيللا لا تزال مستمرة، لأنه بصفته محامي الدفاع عن المتهم عدّ خصمًا قانونيًا لقيصر، ومن ثم لم يتبق في عائلة جوليا شخص محنك يمكن اللجوء إليه لطلب المشورة.

لم يعتد بيناريو وبالبا الذهاب كثيرًا إلى منزل قيصر، وكأنهما أرادا البقاء على مسافة آمنة من صهرهما الذي تجرأ على مواجهة دولابيللا الجبار. كما أن صديقه لاينوس عديم الخبرة فيما يخص المعارك القانونية. لذا فإن ما تبقى له، وبدا منطقيًا، هو أن يبحث عن سناتور مقرب من عائلة جوليا أو سياسي بارز من الداعمين للقضية الشعبية يمكنه نصحه.

لكن قيصر، الذي لا يسير أبدًا وفقًا للمتوقع، سعى للحصول على المشورة من شخص آخر. كان قد أخبر لاينوس بالفعل عن ذلك الأمر خلال رحلتها إلى مقدونيا؛ سوف يستعين بخبرة وذكاء والدته أوريليا. إنه يثق كثيرًا في حكمتها وقدرتها على تحليل الأمور، وسيحدث إليها بخصوص الموضوع الذي شغل تفكيره طوال رحلة العودة من عاصمة مقدونيا.

"في غضون أيام قلائل ستعقد جلسة رد القضاة يا أمي. لقد استقيت معلومات كافية وانفقت مع شهود جدد كي أتمكن من مواصلة توجيه الاتهامات لدولابيللا، ولا يخفى على أحد أن المحكمة المشكّلة من أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس تتوي تبرئته من كل الجرائم المنسوبة إليه. لذلك لن يوضع في الحسبان مدى قدرتي على الترافع أو قوة حججي. إن أمامي فرصة لا تعوض ولن أفوتها". مكتبة سر من قرأ

"لكن لا يمكنك تحدي جميع القضاة" علقت أوريليا بجديّة، وأبدت اهتمامًا واضحًا بما يقول.

"هذا صحيح، وحتى وإن فعلت، سوف يستقدمون أعضاء آخرين من الأوبتيميتس الداعمين لدولابيللا أيضًا. لا، لن أضيع الوقت أو الطاقة في محاولة مرهقة مقابل احتمال ضئيل في أن يتحسن موقعي في المحكمة بشق الأنفس. إنني أفكر في أمر مغاير".

"وهو...؟" استفسرت والدته.

"سوف أظن ضد شخص واحد، وهو ميتيلوس بيوس".

"هل ستظن ضد رئيس المحكمة ذاته؟" تساءلت أوريليا، بينما ظلت تفكر في الأمر وتحاول استيعاب ما يرمي إليه ابنها.

"نعم، رئيس المحكمة، وهو زعيم الأوبتيميتس، إنهم يحترمونه جميعًا. فمنذ موت سولا انصب تركيز دولابيللا على نفسه وملذاته وجرائمه، وأضحى ميتيلوس هو العقل المدبر للفصيل المحافظ. تكفي لفظة منه، إيماءة واحدة برأسه، كلمة أحادية المقطع حتى يتبعه الجميع مثل كلاب مدربة. لن أتمكن من تغيير هيئة المحكمة بأكملها، لكن يمكنني على الأقل المطالبة باستبعاده. لا بد لي من إبعاد ميتيلوس على أي حال، ولكن...".

"ماذا...؟" استفسرت أوريليا.

استغرق قيصر بضع لحظات للتفكير، ثم اعترف أخيرًا بنبرة حازمة: "لا أعرف السبيل إلى ذلك". لم يخش ولم يخجل من الاعتراف بأنه بعد أربعة

أشهر من التفكير، لم يَكُن صياغة مناسبة لفكرته. فطن إلى ما يجب عليه فعله، لكن شق عليه التوصل إلى الكيفية. ثم نظر مباشرة إلى بؤبؤ عينيها وأردف: "لهذا السبب لجأتُ إليك يا أمي، أنتِ أذكى شخص أعرفه ويمكنني الوثوق به. بإمكانني طلب النصح من شيشرون أو العجوز أركياس، معلمه، أو محام خبير آخر، أو حتى أحد السناتورات، لكنني أعلم أنه لا أحد سيسدي إلي النصح بصدق، على الأقل ليس في هذه القضية. يخشى الجميع بطش دولابيللا وميتيلوس إلى درجة تمنعهم من تقديم المساعدة لي أو تزويدي بأفكار تمكنتني من إبعاد رئيس المحكمة، وأنا أعلم أنه ليس لديك خبرة في القضاء، لكنني أتق تمامًا في كياستك وفراستك. ترى ما هي نقاط ضعف ميتيلوس برأيك؟ كيف أتمكن من استبعاده؟ أخبريني".

ساد الصمت، التزمت كورنيليا وأختا قيصر وقيصر نفسه بالصمت احترامًا لأوريليا، التي حافظت على تعابير الجدية بقدر ما كانت هادئة. وبعد تفكير قالت أخيرًا: "حسنًا، الأمر هين نسبيًا... يريد ميتيلوس أن يحذو حذو والده، وهو يسعى لاتباع نهجه وتلمس خطواته في كل شيء. لقد كان والده قنصلًا، وعلى نفس المنوال، ها هو ميتيلوس بيوس يترأس المحكمة في قضية دولابيللا".

"نعم عينه سولا، كما عين أيضًا دولابيللا قنصلًا في العام السابق".

"بالضبط، ومع ذلك، فإن مجلس الشيوخ أقام على شرف والده حفل نصر تيجيلاً لانتصاراته المشكوك في أمرها في إفريقيا، أي في الحرب التي أنهاها عمك ماريوس بالسيطرة على يوغرطة نفسه. لذا؛ فإن جوهر الأمر هنا هو أن ميتيلوس الأب كان قنصلًا وأقيم من أجله حفل نصر، أما نجله، رئيس المحكمة، السناتور الذي تريد الطعن ضده، وصلت مكانته إلى حد أنه أصبح الزعيم الحالي للأوبتيميتس، لكن لم يقام على شرفه احتفالًا بالنصر حتى الآن".

"الاحتفال الذي يتوق إليه ويفصله عنه هزيمة سرتوريوس، الرجل الثاني في جيش عمي ماريوس، المتمرد عليه في هسبانيا" تابع قيصر. أدرك مقصد

والدته، ثم أردف: "لقد عاد ميتيلوس بيوس من هسبانيا وسيمكث هنا لبضعة أسابيع، لكن بما أن دولايلا طلب منه أن يترأس محاكمته، فإنه سيبقى في روما، وهكذا يصبح بعيداً عن الحرب في هسبانيا، التي ستكون بالتأكيد فرصته الأخيرة لقيادة جيشه ضد متمرد شعبي كبير المقام، ومن ثم، تفوته غنيمة إحرار نصر عظيم يُسوِّغ منح مجلس الشيوخ له حفل النصر الذي طال انتظاره."

"بالضبط يا بني" أكدت والدته، فأوماً قيصر برأسه. ثم التزم الصمت، بينما عادت أختا قيصر وكورنيليا إلى الحديث مرة أخرى، ليس من منطلق عدم الاهتمام أو عدم الاحترام، لكنهن كن يعلمن أن الحوار بينهما قد انتهى، وأن قيصر بعد إيماءته تلك سيبقى شاردًا يعيد التفكير فيما طرحته والدته. جميعهن علمن أن أكثر ما يشعر قيصر بالامتنان له، في ظل تلك الظروف، هو الشعور بالسكينة في منزله، وبالنسبة له فإن أصوات شقيقته وزوجته وهنَّ يتحدثن بهدوء تبعث على الراحة.

بعد برهة، نظر قيصر إلى أمه وسألها: "لقد أخبرتك أنك أذكى امرأة أعرفها، أليس كذلك يا أمي؟"

"لقد أخبرتني بذلك عدة مرات من قبل" أجابت.

"حسنًا، أصحح الخطأ، أنتِ أذكى شخص، من بين كل الرجال والنساء الذين قابلتهم في حياتي. في الحقيقة، أرجو ألا أخسر ودك أبداً."

"لا، لن تخسره" أكدت بغموض، لكنها أتبعته جملتها بابتسامة كي تنسف أي احتمال في أن تسبب تأثيراً سلبياً في نفس ابنها.

"إنها هسبانيا إذن..." قال وهو يعرض على نواجذه، ثم شرد.

"إلا أن طريقك لا يزال غير ممهد. عليك السعي من أجل تحسين أدائك في الخطابة، كي تصل إلى هدفك" نصحته بنبرة جادة.

"أعرف يا أمي، أعرف ذلك جيّداً" لم يأخذ نصيحتها على محمل سيء؛ بل جعلته يتأكد أنها لم تكشف خطة التظاهر بالحماقة أثناء الجلسة التمهيدية.

عنى له ذلك أن هيئة المحكمة لن تتوقع منه خطابًا رائعًا في الجلسة المقبلة أيضًا، وهذا بدوره يشير إلى أنهم لا يرونه قادرًا على الطعن ضد أي شخص، وسيتمكن من مفاجأتهم.

نظر إلى زوجته، كانت هي الوحيدة التي اعترف أمامها بالحقيقة وبأنه تظاهر بالحماقة أمام المحكمة، فقط كورنيليا، التي، رغم انشغالها بالتحدث مع جوليا، إلا أنها ظلت تتابع بانتباه بالغ حديث زوجها ووالدته. وجهت إليه نظرة ذات مغزى، نظرة تنم عن تفهمها له، حينها شعر قيصر برغبة هائلة في تبادل الحب معها.

من يرأس هيئة المحكمة

مقر باسيليكاً سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

كان أول ما لفت انتباه يوليوس قيصر عند دخوله إلى مبنى باسيليكاً سيمبرونيا هو قلة عدد الجمهور. فباستثناء قضاة المحكمة، والمتهم، ومحامي الدفاع، وصديقه لاينوس، لم يتجمع سوى بضع عشرات من العامة، وأفراد أسرته، فغمغم: "لا يبدو أن المحاكمة تثير الاهتمام بدرجة كبيرة"، وجلس على مقعد بجوار طاولة، خصصاً للمتهم، واستقر لاينوس بجانبه على مقعد آخر مشابه.

"لا يمكننا التكهّن بأي شيء، كلهم يتوقعون خسارتنا. لم يروا... لم يتوقعوا..." توقف لاينوس، لم يكمل جملته، حاول البحث عن كلمات ينهي بها جملته دون المساس بمشاعر صديقه الذي يكن له حباً خالصاً.

"ولن يتوقع أحد، خاصة بعد خطبتي الحمقاء في الجلسة الافتتاحية، وما تلاها من مقتل الكاهن والمهندس. لن يصدق أحد أنني قادر على إظهار مقاومة تذكر أو إلقاء خطبة تستحق حضورهم" صاغ قيصر كلمات دقيقة تكمل جملة صديقه غير المكتملة، وأضاف: "لكن حقيقة الأمر ليست كما بدا؟".

أحس لاينوس بأنه أخطأ، فقال معبراً عن صدق نواياه: "بحق جوبيتر، ليس ذنبي أن يعتقد الناس ذلك".

"لكن هذا ما يدور في عقولهم بالفعل" أجابه قيصر، وأضاف بينما يتطلع نحو هيئة المحكمة: "وأنا لا ألومك، وكيف لي أن أفعل ذلك. هذا صحيح، لقد افتقرت خطبتي إلى المهارة والبلاغة... انظر، ها قد وصل ميتيلوس".

شغل ميتيلوس بيوس مقعدًا وسط هيئة المحكمة بصفته الرئيس، وهو نفس المقعد الذي احتله خلال الجلسة التمهيدية. نظر إليه بقية أعضاء المحكمة بإعجاب واضح.

"يأكلون من صنع يده" علق لاينوس.

"لهذا سأقوم بالطعن ضده" همس له قيصر بصوت خفيض. ثم سأله: "هل تأكدت أن الداعمين لنا وللقضية الشعبية يتجمعون في الخارج كما اتفقنا؟".

"قلة منهم فقط، ولا أستبعد أنهم ما جاءوا إلا لقرابتك لغايرس ماريوس" أجابه لاينوس.

"نعم، أتفق معك" أذعن قيصر لتلميحاته، دون أن يرفع عينيه عن هيئة المحكمة، وأضاف: "لا يثق بي أحد، ومن جاؤوا فعلوا ذلك فقط لأنني ابن صهر غايوس ماريوس، لا أكثر ولا أقل. حسنًا، لا يهم السبب الذي أتوا من أجله. استمع إلي جيدًا؛ بمجرد أن أذكر اسم ميتيلوس بيوس في خطابي، اخرج وأخبرهم جميعًا بالخبر، سوف يجذب ذلك انتباه الجميع، أولئك الذين حضروا وغيرهم أيضًا".

جال ببصره في أرجاء قاعة المحكمة الشاسعة، شبه الفارغة، وأضاف: "أريد أن تمتلئ هذه القاعة قبل أن تنتهي كلمتي".

انتصب معاونون لرئيس هيئة المحكمة، بالقرب من مقاعد القضاة.

"أوشكت الجلسة على البدء" أشار لاينوس.

نظر معاونون إلى رئيس المحكمة.

خلال الجلسة التمهيدية تحاشى ميتيلوس فتح فمه بقدر استطاعته، لكنه كان يعلم أنه سيتعين عليه آجلًا أم عاجلًا الاضطرار إلى الكلام لإعطاء التعليمات وتنظيم سير الجلسات، وهذا يعني أنه قد يُجبر على التحدث، وإظهار تلغثه أمام الناس، الأمر الذي سلبه الإحساس بالارتياح. لذا

تحدث على انفراد إلى معاونيه قبل بدء الجلسة الحالية، واتفق معهم على أنه سيكتفي بالإشارات والإيماءات والكلمات القليلة، وأوكل إليهم مهمة تفسير مقصده منها وإبلاغ الحضور بالتعليمات بجمل مترابطة.

في الواقع، لاحظ قيصر أن ميتيلوس لم ينطق بكلمة واحدة، بل أولاً برأسه قليلاً دليلاً على سماحه ببدء الجلسة. ففي روما، يسمح لرئيس المحكمة بتفويض أحد أو كل معاونين كي يقوموا هم بإدارة المحاكمة وفقاً للنظام الذي يضعه بنفسه، ومن مهامهم أيضاً استدعاء الشهود أو إعطاء الكلمة لمحامي الدفاع أو موجه الاتهام في القضية.

"التزموا الصمت!" صاح أحدهم بصوت عالٍ، فصمت الجميع، وأعلن: "في القضية المرفوعة ضد المذنب، سنيو كورنيليوس دولابيللا، تعطى الكلمة للدفاع، في حالة رغبة أي من المحامين في الطعن ضد أحد أعضاء هيئة المحكمة".

نهض أوريليو كوتا وتحدث بثقة دون أن يتحرك من مكانه: "الدفاع راض تماماً عن تشكيل هيئة المحكمة، ولا نرغب سواء أنا أو زميلي هورتنسيوس في الطعن ضد أي من القضاة. ونعلن إذعاننا الكامل لرجاحة عقولهم حتى نصل إلى حكم عادل".

التفت مدير معاونين، الذي أضحى صوت ميتيلوس أمام الناس، إلى رئيس المحكمة، فقابله بإيماءة بالموافقة، ففهم أنه يسمح له بالتحدث. وعلى الفور ثبت عينيه على صدر الصحن، وأعلن بصوت عالٍ: "تعطى الكلمة في القضية المرفوعة ضد المذنب سنيو كورنيليوس دولابيللا، لموجه الاتهام، إذا ما رغب في الطعن ضد أي من أعضاء هيئة المحكمة".

قام غايوس يوليوس قيصر، ووقف بتأن. اليوم قرر فعل كل شيء بروية، على الأقل حتى تمتلئ القاعة بالناس.

حينها دخل شخص فضولي آخر، أحد أولئك الذين يخرجون في الصباح للتجول عبر المنتدى، أو شارع فيكوس توسكوس القريب من مقر

الباسيليكا. ربما كان في طريقه إلى مجّمع الحوانيت لشراء شيء ما، وعندما وجد الأبواب مفتوحة، قرر الدخول لمعرفة ما يجري بداخلها، لكنه خرج على الفور، مثلما فعل آخرون ممن دخلوا بدافع الفضول وخرجوا يجرون ذيول الخيبة. إنها محاكمة دولاييلا، وموجه الاتهام الأخرق ذاك... يوليوس قيصر، وليس ثمة ما يثير الاهتمام. لقد تقرر كل شيء قبل أن تبدأ الجلسات، والآن مُنحت الكلمة لذاك الأخرق، الممثل القانوني نيابة عن المتضررين.

لم يمكث قيصر بجوار كرسيه وطاولته، لكنه قرر السير بضع خطوات والوقوف في منتصف القاعة، بين المتهم والمحكمة ومحامي الدفاع والركن المخصص لموجه الاتهام.

"أشكر رئيس المحكمة لإعطائي الكلمة" بدأ. ونظر مباشرة إلى ميتيلوس، معترفاً بوضعه كأعلى سلطة في تلك المحاكمة على الرغم من صمته وحقيقة أنه لم يتحدث إلا من خلال أصوات معاونين. أخذ نفساً عميقاً وواصل: "سوف أستغل الكلمة، في الواقع، من أجل الطعن ضد أحد القضاة، أو بالأحرى أحد أعضاء مجلس الشيوخ، لأنه في هذه المحاكمة، كما هو الحال في جميع المحاكمات الآن، جميع القضاة يتم اختيارهم من بين أعضاء مجلس الشيوخ...".

هنا لاحظ قيصر أن الصحن المركزي الشاهق امتلأ بنظرات مريبة؛ إذ أشار للتو إلى أحد التغييرات التي أحدثها سولا، والذي بموجب اشتراط أن يكون القاضي سناتوراً، إلا أنه لم يلتفت وتابع: "وهذا دائماً ما يعد أمراً... حساساً، أقصد جلسات رد القضاة".

تنهد لاينوس، للحظة، خشي أن يضيّع صديقه وقته وينخرط في انتقاد قوانين سولا، بدلاً من التركيز على ما يجب فعله خلال الجلسة وهو الطعن ضد ميتيلوس.

"حقاً، إنها جلسات تحمل شيئاً من التعقيد والهرج، وذلك لأنها تتضمن الإشارة إلى وجود تضارب في المصالح بين المدعى عليه والقاضي

الذي يُطالب بتنحيته. ويعتبر العضو في مجلس الشيوخ غير قادر على التزام الحياد إذا ما جمعت مصالحيه مشتركة بالمدن. بدأ أن قيصر مبتهجاً بوصفه لدولابيلاً بـ"المدن" بينما كان ينظر إليه مباشرة للحظة واحدة كلما نطق بالكلمة. إنه الآن يشير إلى أن أحد أعضاء الهيئة قد لا يكون موضوعياً في حكمه، وأضاف: "هل هذا يعني أن لدي هذه الفكرة، أو هذا التصور، أو هذا الرأي فيما يخص أحد أعضاء المحكمة الحالية، البالغ عددهم ٥٢ قاضياً؟" توقف لبرهة، كما لو كان ينتظر ردّاً من أحدهم.

"الجواب هو لا، ولا أشكك في موضوعية أو نبل الروح أو حيادية أيّ من قضاة هذه المحكمة، لكن... "توقف، ثم استدار بروية ليواجه هيئة المحكمة، وأضاف: "لكنني أرغب رسمياً في الطعن ضد الوالي، كوينتوس كاييلوس ميتيلوس، رئيس هيئة المحكمة".

بدأ الهمس في جميع أنحاء الباسيليكا، من المدرجات وحتى ممرات الوصول إلى الصحن المركزي. غمغم الجميع. علّم قيصر أنه أشعل فتيل الأمل، ثم نظر إلى لاينوس، فنهض صديقه على الفور وخرج. كان عليه إبلاغ جميع المؤيدين للفصيل الشعبي الذين تجمعوا أمام المبنى أن موجه الاتهام، أن ابن صهر غايوس ماريوس، أراد الطعن ضد ميتيلوس نفسه، الزعيم الفعلي لأعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس، وأنه تجرأ وطالب باستبعاده.

انتشرت الأخبار التي تعرضت للتفخيم والتأويل والمبالغة عبر المنتدى، ثم ما لبثت أن وصلت إلى جميع أنحاء المدينة. لم يتنه الصراع بين الفصيل الشعبي والأوبتيميتس أبداً، بل ظل كامناً فقط، وُئد تحت الثرى في ظل القوانين القاسية التي سنّها سولا خلال فترة حكمه. لكن لم تفارقه الروح بعد، ظل مثل شعلة خافتة وسط الرماد، من السهل حث العامة فيتنفضون من جديد ليناضلوا من أجل حقوقهم.

أما داخل الباسيليكا، فقد التزم ميتيلوس الصمت. ربما تحمس العامة قليلاً بفكرة أن أحدهم تجرأ وواجه الزعيم المحافظ المبجل. لكن ميتيلوس

لم يتوان عندما ذهب ماريوس قبل سنوات إلى منزله للتفاوض معه. لا، بل لنقل، عندما حاول ماريوس فرض الاتفاق عليه. والآن لن يتوانى أيضًا لأن شابًا عديم الخبرة يعاني الخيلاء، بغض النظر عن مقدار دم ماريوس الذي يسري في عروقه، تجرأ وطالب باستبعاده.

عرف قيصر أن عليه أن يدعم طلبه بأسباب وجيهة، فأوضح: "بالطبع، سأدعم هذا الطلب بالأسباب وسأدافع عن هذا الطعن بنفس نبل الروح والموضوعية والحياد التي أفترض أن جميع أعضاء المحكمة يتمتعون بها، بما في ذلك الشخص الذي أطلب تنحيته"، ثم صمت لبرهة. نظر إليه معاونون بأعين تفيض منها الدهشة، ثم التفتوا بسرعة إلى رئيس المحكمة. لم يسبق لهم أن رأوا محامياً، سواء كان مدافعاً أو متهمًا، يجرؤ على الطعن ضد رئيس المحكمة نفسه. كانوا يعلمون أن ذلك ممكنٌ من الناحية القانونية، وأنه قد حدث من قبل؛ سمعوا عن واقعة مشابهة، لكنهم لم يروها بأنفسهم.

أوما ميتيلوس برأسه إلى معاونين، فقال أحدهم: "على وجه الطعن أن يوضح أسبابه". كانت تلك الجملة بمثابة ترجمة لإيماءات ميتيلوس. التفت قيصر نحو لابينوس، وكان عائدًا من خارج المحكمة، فأشار له بأن القاعة بدأت تمتلئ بالناس، وأن كل شيء يسير على ما يرام، فأردف: "ولكن طالما أنني لا أشك في حياد أي من أعضاء هذه المحكمة، فلماذا أظن ضد رئيسها؟ لسبب يسير للغاية وهو أن مصلحة روما تبقى دائمًا فوق كل شيء؛ خير الوطن وأمن الدولة أهم بالنسبة لي من أي قضية أو محاكمة تنظر هنا. ما هي مشكلة روما الكبرى اليوم؟ ما هو الخطر الأكبر الذي يهددنا؟"، ترك سؤاله دون جواب، وصمت مرة أخرى. تصفح الصحن فوجده يمتلئ بالجمهور، حينها أجاب على سؤاله قائلاً: "إنه سرتوريوس".

بمجرد قول اسم القائد الثاني في جيش ماريوس، الرجل الذي يقود تمردًا متواصلًا في هسبانيا، القائد الذي يحاول ميتيلوس بيوس هزيمته على مدار عامين كاملين دون أن يتغلب عليه، عمّ الصمت؛ صمت العامة بدافع الإعجاب. لم يكن أحد في روما يجرؤ على ذكر اسم سرتوريوس، الزعيم

الشعبي المنفي، الداعم للفصيل الأكثر ميلاً لمصالح العامة، ومع ذلك، تجرأ هذا المحامي الشاب للتو على ذكر اسمه داخل مقر باسيليكاسيمبرونيا، أثناء المحاكمة، في وسط منتدى روما، أمام القضاة الأوبتيميتس، ظلوا صامتين منتبهين، بانتظار تفسير من ذاك الشاب الأهوج، ربما يتفوه بحماقة يعتبرها مجلس الشيوخ ذريعة مناسبة لاعتقاله وإعدامه على الفور، لتنتهي بذلك تلك المحاكمة اللعينة، بشكل أو بآخر.

ضغظت أوريليا على يد كورنيليا، فأدرت الفتاة أن القلق تملكها لأن ابنها تخطف الحدود.

فكر قيصر في وقع كلماته، استشعر أن التوتر وصل إلى أقصى حد. كان يعلم أن عليه قياس مدى عمق اللجّة، فسارع بقول: "أعتذر من قضاة المحكمة، لأنني ذكرت اسم سرتوريوس، لكن تحاشي التحدث عن مصدر متاعبنا قد يعني عدم توافر الرغبة في مواجهتها". لم يكن وصف سرتوريوس بـ"المتاعب" تصرفاً آمناً على الإطلاق في نظر الأوبتيميتس، بل على العكس تماماً، بدوا مرتبكين، فكروا: ترى ما الذي يرمي إليه هذا الشاب؟

"سرتوريوس يهدد أمن دولتنا هذه" أوضح قيصر ليقضي على شكوكهم، مشدداً على لفظ الإشارة "هذه" حتى يظن العامة أنه ربما أراد الإشارة إلى أن ثمة دولاً رومانية أخرى. في الواقع أراد بخطابه التوجه إلى فصيل وإلى الفصيل الآخر أيضاً، كان كمن يسير فوق رمال متحركة، وأضاف: "إذا كان سرتوريوس يمثل أكبر تهديد لنا، وأن الأمر يتطلب إنهاء التهديد السرتوري، فإن على روما إرسال أفضل رجالها لإيقافه عند حده. والجميع يعرف أن أفضل مرشح لدينا لقيادة المواجهة في هسبانيا، نظراً لأقدميته وخبراته، ليس سوى كوينتوس سيسيليوس ميتيلوس بيوس، ابن كوينتوس سيسيليوس ميتيلوس نوميديكو، الذي انتصر قديماً في نوميديا، بإفريقيا."

شعر كراسوس، الذي كان حاضراً، بأن الخطاب يتعمد تجاهله، فمنذ مشاركته الناجحة في معركة بوابة كولين، يُنظر إليه على أنه الأفضل بين القادة العسكريين. لكن مجلس الشيوخ رأى أن ميتيلوس هو الزعيم الشرعي في

ظل تلك الأوقات العصبية، نظرًا لأقدميته، فهو الأقدر على قيادة الجحافل، وإذا ما أخفق، توقع أن يلجأ مجلس الشيوخ إلى بومبيوس الذي يثق به ميتيلوس كثيرًا.

وبينما يواصل الجماهير الاحتشاد، أشار رئيس المحاكمة إلى بومبيوس، ففهم الرسالة، واندفع خارج المحكمة كما فعل لاينوس في وقت سابق. لمحهما كراسوس وآلمه تجاهل الجميع له، سواء موجه الاتهام أو قائد الأوبتيميتس، فازدرد كل تلك الإهانات، دون أن يلتفت إليه أحد.

واصل قيصر: "لقد حصل والد كبير القضاة المرموقين على لقب "قاهر النوميديين" لانتصاراته في نوميديا، حيث كان يقاتل ويناضل من أجل روما. لم يقاتل هنا، بل خارج سور سيرفيان، خارج المدينة... وكيف يحصل المرء على الألقاب والانتصارات الملحمية؟ عبر الإنجازات التي يحققها في معارك ضارية. سكيبيو الإفريقي، أول من بدأ تقليد الاعتراف بالانتصارات العظيمة عبر منح الألقاب التي تخلد ذكرى القائد الروماني الذي يحقق إنجازات غير مسبوقة، فحصل على لقبه العظيم بعد هزيمة حنبعل في إفريقيا، ومن بعده ميتيلوس الأب بسبب انتصاراته على النوميديين. أنا أرغب في شيئين: أولهما، سلامة روما، والثاني، أن تتاح الفرصة لميتيلوس بيوس ليحذو حذو والده ويتمكن من تحقيق نصر عظيم، ويقام على شرفه احتفال كبير بالنصر، احتفال مستحق".

نطق قيصر بكلمة "مستحق" بنبرة ساخرة، والتفت إلى العامة الذين اكتظوا في جميع أركان الباسيليكا، فتعالت الضحكات. لم يتمكن الأب ميتيلوس في الواقع من إنهاء الحرب ضد يوغورطة في نوميديا، بل فعلها ماريوس، لذلك، على الأقل، اعتقد الناس أن مجلس الشيوخ منحه لقب "قاهر النوميديين" فقط لكونه عضوًا بارزًا في الأوبتيميتس، ورغبة في التقليل من شأن السناتور ماريوس، الذي كان يميل دائمًا لمصالح العامة.

لاحظ قيصر أن بومبيوس عاد بعد فترة وجيزة يتبعه عشرات من المسلحين، قتلة دفع لهم السناتورات في استعراض واضح للقوة حتى يدرك

المحامي الشاب وجميع الحاضرين بوضوح أن الأوبتيميتس لن يسمحوا له بترهيبهم حتى في وجود حشد من العامة. وهكذا واصلت حدة التوتر في تزايد، وفي محاولة لتخفيفه خفّض قيصر حدة نبرته قليلاً، لكنه حافظ على قوة صوته؛ فعل ذلك كي يبدو أكثر هدوءاً واحتواءً للموقف، بينما يضيف: "نحن هنا، في الباسيليكاسيبرونية، نسير على نفس الأرض التي شهدت ولادة سكيبيو الإفريقي، ونيريوس سامبرونيوس غراكوس، صهر سكيبيو، زوج ابنته كورنيليا، الذي بنى هذا المبنى على نفس الأرض التي كان يقيم عليها سكيبيو في حياته".

لقد قال "كورنيليا" للتو، زوجته أيضاً اسمها كورنيليا. نظر إليها لبرهة، فوجد عينها مليئتين بالإعجاب والفخر والحب، ثم انتقل ببصره إلى والدته، التي كانت تراقبه بفخر ودهشة. لو كان قيصر قد حدّق إلى عينها لبضع ثوان، لأدرك أن ما في عينها لم يكن إعجاباً فقط، وإنما مزج بخوف هائل جاهدت لإخفائه؛ في الواقع دُهِشت من حجم التغيير الذي طرأ على أسلوبه في طرح أفكاره مقارنة بخطابه الفقير في الجلسة الافتتاحية، بينما داسها الخوف والمرارة إذ كشف قيصر كيف أنه حاد الذكاء وشديد الدهاء، ومن ثم بات يُعدُّ مصدر خطر في نظر الأوبتيميتس. لكن لم يكن لدى قيصر وقتاً كافياً لتفسير كل تلك المشاعر، كان عليه أن يواصل تقديم الحجج.

ازدرد ميتيلوس لعابه؛ فالإتيان على ذكر سامبرونيوس غراكوس أصابه بعدم الارتياح، ليس فقط لكونه صهر سكيبيو، وإنما لأنه والد الأخوين غراكوس، أول من ناضل من أجل حقوق الشعب، وهما من غرسا بذرة حزب البيولاريس. لقد أثقل كاهله ذلك الأمر، لكن أكثر ما أزعجه هو أنه لم يستطع تفسير الهدف من وراء هذا الخطاب، ولم يكن قادراً على إدراك مقصد موجه الاتهام بوضوح.

"نعم، من بين أحضان الثرى يتأملنا سكيبيو الآن، مثلما تراقبنا الآلهة في السماء. أنا أظن ضد ميتيلوس ليس رغبة في تغيير تشكيل هيئة المحكمة، وإنما أطمح في توفير أفضل دفاع ممكن لروما؛ كي يتفرغ أكفاً قائد لدينا

لمواجهة ذلك العسكري المتمرد، سرتوريوس، الذي لا يزال يتربص بنا في هسبانيا... أم أن ميتيلوس قرر الاختباء في أمان خلف تلك الجدران؟ أو أنه فقط... يعاني الخوف؟"، قالها قيصر ولم يخف.

قديمًا، واصل عمه ماريوس صموده في الوقت الذي وصفه فيه الجميع بأنه جبان تملك الرعب والهلع منه، فصمد على مدار أشهر أثناء حملته العسكرية ضد الجرمان، ولم يسمح بأن تجرّفه ظنونهم أبدًا؛ لأنه كان محددًا وعرف جيدًا ما يجب عليه فعله ومتى يفعله. وفي النهاية أثبت أن قوة إصراره على توجيه الضربة في اللحظة المناسبة كانت أكبر من الظنون مهما بلغت حدتها. كان السؤال هنا هو: هل يمتلك ميتيلوس القدرة على مقاومة من تجرأ ولمح إلى أنه جبن على مرأى ومسمع من بقية أعضاء مجلس الشيوخ؟ وهل يحمل ميتيلوس جينات البطولة؟ هل يمكنه فعل ما فعله ماريوس، ويتحمل الإهانة مقابل عدم الانخراط في خطط عدوه؟ أم تراه سيطلق العنان لغضبه، ويصبح ممن يفقدون توازنهم أمام الإهانة، فتسلبهم القدرة على التفكير المنطقي؟

عم أرجاء الباسيليكا صمت مطبق؛ فمقدم الاتهام الشاب وصف رئيس المحكمة بالجبن، وحدث كل شيء أمام الجميع.

"هل يخشى الخسارة أمام سرتوريوس، أو الفشل من التغلب على عدوه واستحقاق حفل نصر على شرفه، الحفل الذي طال انتظاره. هل يتتابه الخوف - باختصار - من أن يضل طريقه ولا يرقى إلى مستوى إنجازات والده أبدًا؟" تساءل قيصر، ثم صمت لبرهة. كان يتصبب عرقًا بسبب الجهد الذي يبذله في خطابه، والتوتر الهائل الذي يشعر به، لكن الأمر لا يمكن أن ينتهي على هذا النحو. كان عليه أن يوفر مخرجًا يليق بهيبة رئيس المحكمة، مسلكًا نبيلًا يمكن من خلاله تحقيق هدفه بالتنحي. وليس هذا فقط، لقد أهان قائد الأوبتيميتس علنًا. كان عليه أن يدحض هذه المزاعم وإلا فإنه بالتأكيد لن يبقى على قيد الحياة حتى يحل المساء، فأنشأ يقول: "لا أرى ذلك، أنا على يقين بأن ميتيلوس ليس خائفًا من الحرب ولا يخشى مواجهة سرتوريوس،

وأعتقد أنه يمكنه تحقيق إنجازات بنفس قيمة وعلو شأن ما حققه والده، لكنه وقع ضحية فتح بتورطه في هذه المحاكمة، على الرغم من أنها لا تهمه شخصياً، ومن ثم لا غبار على التزامه الحياد في حكمه النهائي. إلا أن انشغاله برئاسة المحاكمة يقيه هنا داخل روما، بعيداً عن هسبانيا، ويجبره على إهمال واجبه الحقيقي والأهم تجاه روما وهو دحر سرتوريوس، وبهذا لن يتمكن من اللحاق بركب إنجازات والده. لا، لا أستطيع التفكير للحظة، أو تصور، بحق جوبيتر أوبتيموس ماكسيموس، وهرقل والآلهة جمعاء، أن ميتيلوس قد يمسه الخوف".

كان قيصر قد ركز في معرض حديثه على نفي ما قاله من قبل، لكنه ألح في كلمة "الخوف" في وسط الباسيليكا التي لا تزال مكتظة بالعامه. الآن وجوه هيئة المحكمة تبدو جادة للغاية، ثمة ١٠٠ رجل من القتلى المأجورين، المسلحين في جميع أنحاء القاعة، والجميع صامتون. أخذ ميتيلوس يحدق إلى وجه ذلك المحامي الشاب، لكن ذلك لم يثنه قيصر عن مواصلة خطابه، فنطق بجملته الأخيرة: "قد يعتقد رئيس المحكمة أنني عدو له، لكن الواقع يقول إنه ليس أنا من يقيه في روما، بعيداً عن فرصته الحقيقية في الانتصار وتحقيق حلمه، بل المذنب دولابيللا هو من يمنعه من العودة ليحول بينه وبين مجده". وبهذا انتهى خطاب غايوس يوليوس قيصر، فتوجه عائداً إلى حيث يجلس لاينوس، ليشغل مقعده في ركن موجه الاتهام.

وفجأة حدث شيء غريب، بدأ الجمهور من عامة الشعب في التصفيق، تصفيق حماسي ومتواصل.

سرف ميتيلوس نظره عن قيصر، وتطلع إلى دولابيللا. لم يكن المدعى عليه بحاجة إلى النظر إلى الوراء، لقد شعر بغضب ميتيلوس وهو يمسح وجهه، لكن دولابيللا كان منشغلاً بأمر آخر؛ يحاول تمالك غضبه ويقدر الموقف وإلى أي مدى يمكن أن تنحرف الأمور. ثم نظر ميتيلوس إلى معاونين ورفع يده اليسرى، وثنى أصابعه الخنصر والبنصر والإبهام، تاركاً إصبع السبابة والوسطى مفرودين، ففهم المسؤولون الرسالة. وقف الأكبر

سنًا من بينهم محاولًا ترجمة الإيماءات إلى عبارات: "في غضون يومين، سيتلقى المُتهم ردًا من هيئة المحكمة بخصوص طلب الطعن المقدم، رُفعت الجلسة".

وعلى الفور شرع الجمهور، المتحمّس للغاية، في الخروج من مقر الباسيليكًا بينما يتناقشون حول ما شاهدوه للتو. في حين اجتمع القضاة مع ميتيلوس، وتُرك دولابيلًا جالسًا بمفرده في وسط القاعة، تحت أعين حراسه الساهرة، وانتشر القتلة الذين استدعاهم بومبيوس في جميع أنحاء الباسيليكًا.

بقي قيصر ولاينوس لفترة من الوقت يتهامسان في الزاوية المخصصة للدعاء، ويلملمان البرديات المتناثرة على الطاولة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تحت قبة الباسيليكا

باسيليكا سيمبرونيا، عام ٧٧ قبل الميلاد

ركن موجه الاتهام

شرع الخدم في إطفاء المشاعل وإغلاق النوافذ والأبواب، وكان لا يزال أعضاء المحكمة والمتهم ومحاميا الدفاع وموجه الاتهام داخل القاعة، إلا أن الظلال كانت تزحف داخل الباسيليكا شيئاً فشيئاً كلما أغلقوا نافذة أو باباً.

جلس لاينوس يتابع القضاة بينما يتجادبون أطراف نقاش ساخن فيما بينهم، وهمس لقيصر ببهجة: "لقد شققت صفهم، كم أنت عبقرى".

"سوف يستسلم" قال قيصر.

"تقصد مَنْ؟"

"ميتيلوس، سوف يستسلم، إنه يتوق للعودة إلى هسبانيا ومواجهة سرتوريوس، وهزيمته، ومن ثم يحقق انتصاره المنشود، الذي يجعله مساوياً لوالده في الشرف والكرامة. كانت أمي محقة في كل هذا، هكذا يصبح الأمر متوازناً؛ هم قتلوا شهودي وأنا الآن، في جلسة رد القضاة، أستبعد رئيسهم من الملعب، هكذا أرد الضربة. لكن المعضلة تكمن في... "نظر حوله، في جميع أنحاء الصحن وأضاف: "حسنًا، السؤال هو ترى من سيعينون لرئاسة المحكمة بدلا من ميتيلوس".

"أألم تقولوا أأأ أنه متحدثٌ أخرق؟" قال ميتيلوس، دون أن يخفي سخطه.

"كان بالفعل أخرق حقًا في الجلسة التمهيدية" أشار بومبيوس، واتفق معه باقي القضاة.

"لقد أخطأتم التقدير، هذا الشاب عرّضني للإحراج أمام روما كلها. بعد ما حدث اليوم، ليس أمامي خيار سوى العودة إلى هسبانيا وهزيمة ذلك اللعين سرتوريوس" أجاب ميتيلوس. وكان كلما زاد غضبه قل تلعثمه كما لو أن الغضب الجم يتغلب على عييه الخلقى.

"هل ستقبل طعنه؟" سأل بومبيوس.

"بالطبع سأفعل" أكد ميتيلوس.

"ولكن إن كنت قد اتخذت قرارك، فلماذا طلبت يومين للرد؟" عبّر بومبيوس عن الارتباك العام الذي أصاب القضاة.

"لأنني أعلم أن دولابيل سيصر على بقائي رغم كل شيء، لذا أحتاج وقتًا كافيًا كي أقنعه".

"وكيف تخطط لإقناعه؟ دولابيل قال إنه لن يقبل رئيسًا غيرك في هذه المحاكمة، لأنك الوحيد الذي يثق به تمام الثقة".

"لقد فكرت بالفعل في مَنْ سيحل محلي في رئاسة المحكمة".

"كراسوس؟" تجرأ أحد القضاة وسأله. لكن ميتيلوس هز رأسه نافيًا، كان يعلم أن كراسوس لا يطيق دولابيل.

"مَنْ إذن؟" سأل آخر. لكن ميتيلوس ظل صامتًا، يقلب الفكرة داخل عقله.

لم يكن دولابيللا بحاجة إلى الانتقال إلى أسفل الحنية لمعرفة ما يتحدثون بخصوصه، علم بالفراصة أن ميتيلوس يخبر القضاة بأنه ينتوي العودة إلى هسبانيا. أدرك أن ذلك القيصر ذكياً للغاية، وأدرك أيضاً أنه سيخسر أحد أفضل مؤيديه في المحكمة. جلس منكس الرأس، لكنه عندما انتبه لذلك، استقام وتطلع إلى المحامي الشاب، الذي يكيل الاتهامات والحجج ضده. لقد تأكد حدسه الذي ما انصرف عن عقله منذ نهاية الجلسة التمهيدية، كان قيصر بالفعل محنكاً كما توقع سولا، كان يجب أن يقتلوه منذ زمن بعيد. أدرك أنه، وكما هو الحال في العديد من المناسبات الأخرى، سيتعين عليه تنفيذ المهام الأشد قدارة بنفسه، وفي اللحظة المناسبة.

منصة المُتهم

"إنه يحدق إليك" همس لاينوس لرفيقه، فرفع قيصر عينيه ونظر إلى دولابيللا. كان جالساً بلا حراك، في صمت، يتفحصه بدقة، وكأنه أراد أن يخترق عقله بنظراته ويطلع على أفكاره.

"أعتقد أنك أخطأت في التقدير، عدوك ليس رئيس المحكمة، بل عدوك الحقيقي والوحيد دولابيللا نفسه".

"ربما، رغم أن الرئيس الجديد للمحاكمة سيكون أحد البارزين، لكن صحيح أن ألد أعدائنا هو دولابيللا نفسه" علق قيصر، دون أن يرفع عينيه عن المذنب، كما يحب أن يصفه علناً، وأوضح: "هو الوحيد الذي يكشف حقيقة ما أرمي إليه".

"وماذا ستفعل؟" سأل لاينوس.

"أفتح جبهة حرب ثانية".

"لا أفهمك..."

أوضح قيصر، دون أن يرفع عينه عن دولابيل: "لم تنته بعد الحرب بين البيبولاريس والأوبتيميتس يا صديقي. لقد هزموا عمي ماريوس ومن بعده كينا، والد زوجتي، ثم بعد ذلك دارت طواحينهم على ماريوس الابن، لكنني مازلت باقياً على قيد الحياة. هناك جبهة حرب قائمة في هسبانيا، بقيادة سرتوريوس، وسأفتح أنا جبهة أخرى هنا، ستكون مختلفة، لأنني لن أستخدم أسلحة، سأحاربهم بقوة الكلمة. ألم تر كيف تحمّس العامة اليوم؟ الآن يخشى الأوبتيميتس عمق تأثيري، وسيأتي اليوم الذي يدركون فيه جميعاً أن ثمة جبهة حرب حقيقية، هنا في روما. ولكن في الوقت الحالي، دولابيل وحده يدرك هذا الأمر". سكت لبرهة يمعن النظر في أرجاء صحن الباسيليكا العريقة، ذات الإضاءة الخافتة وأضاف: "مع إطفاء المشاعل وإغلاق النوافذ، سيطرت الظلال على الأجواء هنا بالداخل، لكن ظل دولابيل لا يزال ساكناً، يحدق إلينا، لقد أصبح الحصول على إدانة ضده الآن حتمية أكثر من أي وقت مضى. في السابق، كانت إدانة دولابيل مسألة أخلاقية ورغبة في تحقيق العدالة، لكن الآن بات نفيه مسألة حياة أو موت، يتعلق بقائي أو موتي بقدرتي على تحقيق ذلك، أرى نظرات الكراهية التي تنبثق من عينيه نحونا، إنها تحمل خبر موتي".

المذنب: دولابيل حاكم مقدونيا

الجرائم التي ارتكبها سنيو كورنيليوس دولابيل أثناء حكمه
لمقدونيا التابعة للنير الروماني

الجريمة الأولى اغتصاب

منزل آيروبوس، زعيم الطبقة الأرستقراطية، ئيسالونيكى،
مقدونيا، أواخر عام ٧٨ قبل الميلاد

"آه! يا لك من عاهرة!" صرخ دولابيللا وهو يسحب يده من بين أسنان الفتاة ميرتل، فاستغلت انشغاله بالألم ودهشته من مقاومتها فدفعته وأسرعت باتجاه البوابة، لكن دولابيللا، حاكم مقدونيا، تعقبها. لقد كان ممتلئ الجسم ولا يقدر على الجري، وبدا مقارنة برشاقة الفتاة وكأنه عملاق بعين واحدة، بمظهره المخيف الذي ينم عن قسوة بالغة.

"يا لك من عاهرة!" كرر وهو يعض على نواجذه، ويضغط بيده السليمة على تلك المجروحة النازفة، بينما تصيح الفتاة مستغيثة: "افتحوا! افتحوا!" وتطرق على البوابة التي أغلقها حراس الحاكم، بيديها الغضة البيضاء بياض اللبن، لكنه واصل الاقتراب منها.

"كنت أعتزم اغتصابك فقط، لكنني الآن سأصعب عليك جام غضبي وسأذيقك مرارة القسوة" قال. فتلفتت حولها، تبحث عن سلاح تواجهه به، أو أي شيء يمكنها الاحتماء فيه، أو مهاجمته به. وحين أدرك دولابيللا مسعاها، توقف، وأمر الحراس: "افتحوا!". لم تفهم الفتاة ما يرمي إليه، وعلى الفور فُتح الباب، لكنه لم يجلب لها بصيص من نور أو فرصة للتحرر، إذ سد فتحته الحراس المسلحون بأجسادهم الباردة الخالية من المشاعر.

"أمسكوا بها!" أمرهم دولايلا، فأحاط بها الجنود، بينما تشبثت هي بأحد ملاقيط المجرمة التي كانت تستخدم لتدفئة الغرفة في ليالي الشتاء الباردة في مقدونيا. وعندما دنوا منها أسرع بإشهاره في وجوههم بحنق واندفاع، فاستل الجنود سيوفهم، وصاح الحاكم: "أحكموا وثاقها دون جرحها سأكون أنا من يسيل الدماء!".

أظهر أحد الجنود سيفه الروماني أمام الملقط الذي تمسك به الفتاة. كانت ميرتل ذكية، وجميلة، وماكرة أيضًا، لكنها، لا، لم تكن قوية البنية بما فيه الكفاية، فسقط الملقط من يدها. وعندما همت بالانحاء لالتقاطه، سارع أحد الجنود بإبعاده.

"وثّقوا يديها وقدميها. سهلوا عليّ المهمة" أمر. أدرك الجنود هدفه، فطرحوا الفتاة أرضًا، وأمسكوا بيديها وقدميها مفصولين، ثم صاح: "أعطوني خنجرًا!" فقدم له أحدهم واحدًا، وأسرع يخلع عنها بعض ملابسها، وهي تقاومه بكل قوتها، لكن الجنود أحكموا الضغط على يديها وقدميها بقسوة، بينما تنتفض محاولة الخلاص من قبضاتهم حتى تناثرت الدماء. ودون التوقف عن مقاومة الحراس صاحبت الفتاة: "بيرديكاس سوف يقتلك".

"تقصدين خطيبك... اللعنة! لقد نسيت أمره" قال دولايلا، وأشار إلى أحد جنوده وأمره: "أحضروا ذاك الأبله". ثم التفت إلى الفتاة مرة أخرى وقال: "إن كان سيقتلني بسبب ما أفعله بك، فحري به أن يراه بأعينه، ألا ترين ذلك منطقيًا؟".

"يا لك من لعين!" كان هذا هو جل ما استطاعت الفتاة قوله، قبل أن تتلقى صفعه قوية على وجهها أفقدتها الوعي. تألمت يده المصابة عندما صفعها، لكن لا بأس سيستدعي الطبيب بعدما ينهي مهمته، لقد أوشك ولم يتبق أمامه الكثير. بعد دقائق عاد الجنود إلى الغرفة يمسكون ببيرديكاس، وبمجرد أن رأى خطيبته، وملابسها ملقاة في أحد جوانب الحجرة، يمسك بها عدد من الجنود بقسوة بالغة، والحاكم الروماني منحني أمامها، يضحك، ويواصل جريمته، قاوم الحراس لكنه لم يمتلك الوقت لفعل أي شيء، إذ

سارع أحدهم بضربه بقوة أسفل بطنه على حين غرة، وكان حارسًا مخضرمًا يعرف جيدًا كيف يوجه ضربة تحبس الانفاس إلى شخص متمرّد.

تمهل دولابيلّا وتأنى، انتظر كي يلتقط بيرديكاس أنفاسه حتى لا تفوته مشاهدة كيف يعبث بجسد خطيبته. عندما تأكد من انتباه الشاب، أفقدها عذريتها بوحشية، وسط صرخاتها المدوية. كانت تبكي الألم وضياع الشرف، لكن ذلك لم يثن حاكم مقدونيا عن الاستمرار كي يلحق أكبر قدر ممكن من الضرر بها، حتى اختلطت دماء جرح يده، بنزف الفتاة. تحمس أكثر، ودنا منها وهمس في أذنها: "الآن أكرر الأمر، لكن بطريقة أخرى... سأمنحك نطفة تهبك طفلًا ثمينًا من أصل روماني لا تستحقينه. من المؤكد أنك ستضيقين ذرعًا بحمله في أحشائك"، ثم وقف وتعري، كان كل شيء يسير وفقا لإرادته.

"سأقتلك، سأقتلك...!" صاح بيرديكاس، خرج عن شعوره، لقد أصابه الجنون من هول غضبه ومرارته. بينما أغمضت ميرتل عينيها، تتوسل إلى أفروديت، تمنّت لو أنها ماتت قبل هذا.

الجريمتان الثانية والثالثة الفساد والنهب

قصر حاكم مقدونيا، ثيسالونيكى، أواخر عام ٧٨ قبل الميلاد
(قبل واقعة الاغتصاب بثلاث ساعات)

استقبلهم دولابيللا جالسًا على كرسيه المبطن بجفء واضح: "حسنًا؟" قال بتملل، رغم أن إضافة بضع كلمات أخرى تعبر عن تقديره لممثلي الطبقة الأرستقراطية في ثيسالونيكى لم تكن فكرة سيئة. لقد استغرق المقدونيون سنوات كي يقبلوا النير الروماني، لكنهم أثبتوا، على مدار الآونة الأخيرة، أنهم يمكن اعتبارهم حلفاء جيدين في المعارك ضد القبائل البربرية التي كانت كامنة في نهر الدانوب، وخاصة التراقيين، كما دعموا سولا في حملته الطويلة والشاقة ضد ملك بنطس، ميثراداتس. لذا فإن استقبالهم ببضع كلمات لطيفة لا ينم عن تصرف خاطئ.

لكن دولابيللا فطن إلى أنهم ما حضروا إلى قصره إلا لمناقشته في عدد من المشكلات، وعرف أن الأسلوب الهجومي والغلظة وعدم المبالغة في الترحيب، هي أفضل طريقة لمواجهة ما جاؤوا من أجله، كي يجبر كل من يدعي أو يقدم الشكاوى على التفكير جيدًا في كلماته قبل أن يتفوه بها.

نظر الشاب بيرديكاس إلى المخضرم آيروبوس، زعيم الطبقة الأرستقراطية، ووالد خطيبته ميرتل، يستأذنه قبل التحدث، وذلك لخبرة العجوز في التعامل مع الرومان، كما أنه زعيم النخبة. وعندما أومأ له العجوز

بالموافقة، تقدم بيرديكاس خطوة إلى الأمام ووقف مقابلًا لدولابيللا، لكنه التزم بصيغ الاحترام والتقدير، أكثر بكثير من الحاكم، فقال: "أنا بيرديكاس ومعى العجوز آيروبوس، وكما يعلم كل من في روما، نعتبره زعيمًا لنا في ئيسالونيكى، ونود توجيه التحية إلى الحاكم الرومانى، سنيو كورنيليوس دولابيللا".

رد دولابيللا على جملته بانحناءة طفيفة إلى اليمين بينما ظل جالسًا على كرسية مستندًا إلى مسند الظهر، وكأنه يحاول الابتعاد عن محاوره والمطالب التي جاء بها، وكرر: "حسنًا" مرة أخرى، بعنجهية وغرور. حينها أدرك بيرديكاس بوضوح أن التأتق والاحترام لن يؤتيا ثمارهما في تلك المحادثة، لذا قرر طرح طلباته بأسلوب مباشر: "لم نعد نطبق الوضع الحالي أيها الحاكم، فقد أدت الضرائب التي فرضت على القمح إلى زيادة سعر الخبز بحيث لم يعد في متناول المواطن المتواضع. علاوة على ذلك، مثلت الضريبة الإضافية التي فرضت من أجل ترميم طريق إغانتيا ثقلًا على كاهلنا جميعًا. لذا أحيط سيادتكم علمًا بأن مواردنا استنزفت في محاولات تقديم المساعدة لمن هم في أمس الحاجة إليها، والشعب المقدوني ظل دائمًا على العهد وتصرفنا بإخلاص ووفاء لروما في حروبها ضد ميثرداتس أو التراقيين. كما أن مجلس شيوخ روما اعترف بأننا حلفاء للشعب الرومانى، فهل هكذا تكافئ روما من يدعمها؟". دار الشاب بعينه على ما حوله، فرأى تمثالين نُهبًا من المعبد المقدس لأفروديت، ووضعًا بعناية على جانبي كرسي عرش دولابيللا المرتفع عن الأرض. هاله ما رآه لكنه لم يتمالك نفسه، وأضاف: "والأسوأ من ذلك هو أن السلطة الرومانية التي من المفترض أن تضمن سلام مقدونيا وسلامة شعبها المخلص دائمًا، لم تتوان في نهب أقدس معابدنا."

أخذ دولابيللا نفسًا عميقًا، أتبعه بزفير مماثل، مرر يده على ذقنه، وكان قد حلقتها قبل ساعة تقريبًا. لم يجبه، بل أمر أحد حراسه: "مُر باستدعاء المهندس فيتوس"، فهرع الجندي لتنفيذ ما طُلب منه. ثم نظر الحاكم مرة أخرى إلى بيرديكاس، وقال: "دعنا نقسم كلامك حسب الموضوع؛

أولاً: ارتفعت أسعار القمح بسبب تردي جودة المحصول المقدوني منه، فاضطرت إلى استيراد كميات إضافية من مصر، لذا، من المنطقي أن يرتفع سعره. الناس يريدون أن يأكلوا وأنا أضمن لهم الطعام، لكن إذا كان عليّ إحضار القمح من مكان بعيد، فعلياً أن نتشارك في دفع المقابل، ألا تعتقد أن ذلك منطقي؟ هذا هو سبب الضرائب الاستثنائية على القمح هذا العام".

هم بيرديكاس بالإجابة؛ فقول الحاكم إن جودة المحصول المقدوني رديئة كان محض كذب، كما أنه لم يستورد أي شيء من مصر، وارتفاع الأسعار لم يكن له أي مسوغ. لكنه شعر بيد آيروبوس تربت على كتفه، وفهم أنها إشارة كي يصمت، وأن مقاطعة الحاكم أثناء حديثه، حتى لو كان كاذباً، لن تثمر حلاً، فواصل دولابيلاً: "أما بالنسبة لترميم طريق إغناطيا، الذي بنيناه نحن، بناه الرومان، ويمتد من الموانئ الغربية لدراس وأبولونيا حتى بيزنطة شرقاً، فذلك لأنه بات في حالة مروعة، وهو طريق مهم للغاية بالنسبة لروما، ولكنه أكثر أهمية بالنسبة لكم؛ لأنه يعبر مقدونيا كلها، فهو العمود الفقري للمقاطعة، تعبرون خلاله باستمرار إذا أردتم الانتقال من مدينة إلى أخرى. لكنني مجبر على إحضار مهندس لترميم هذا الطريق الذي دمرته عربات البضائع الخاصة بكم، كي أوفر لكم الراحة، أنتم من تستخدمون الطريق أكثر من أي شخص آخر، وأعتقد أن المستفيدين منه يجب أن يشاركوا في التمويل. ألا ترى أنه من العدل أن تساهموا في التمويل اللازم لإعادة تأهيله؟".

"مع كل الاحترام الواجب لك يا صاحب السمو، نحن ندفع بالفعل الكثير من الضرائب، ومن المنطقي أن يذهب جزء من هذه الأموال لصيانة الطرق... جادله بيرديكاس. لكن الحاكم قاطعه بحزم، وبانزعاج وبصبر نافذ: "بحق هرقل، من يستخدم عليه أن يدفع!". حينها دخل أحد الحراس، برفقته المهندس الذي طلب الحاكم حضوره، فخاطب دولابيلاً الوافد الجديد دون إعطائه الوقت للتفكير: "لنرى، هيا يا فيتوس، حدثنا عن حالة طريق إغناطيا؟".

نظر المهندس إلى الحاكم، ثم إلى آيروبوس وبيريديكاس. استشف أن الأجواء مشحونة بالتوتر، فأجاب على الفور ودون مراوغة: "الطريق في حالة سيئة للغاية أيها الحاكم، وثمة حاجة ماسة للبدء في أعمال الترميم على طول الطريق، وأنا بحاجة إلى الأموال التي وعدتني بها قريبًا من أجل...". لكن دولابيللا لم يدعه يكمل جملته، إذ سارع بمقاطعته بحدة: "اصمت"، وهكذا أسكته؛ إذ أدرك أنه يعتزم طلب الحصول على دفعات من أموال الضرائب التي فرضت بدعوى ترميم هذا الطريق، ومن ثم يكشف أمام سكان المقاطعة أنه لم يدفع له أي شيء. في الواقع، لقد احتفظ بتلك المبالغ لنفسه، خبأها في خزائنه السرية داخل قصره.

صمت المهندس على الفور، فأمره الحاكم وهو يحدق إليه: "يمكنك الانصراف الآن، سوف نتحدث فيما بعد بخصوص تلك التفاصيل" قالها بنبرة أخف حدة، فابتلع فيتوس لعابه، وانحنى تبجيلًا، ثم استدار وغادر القصر.

لكن محاولات الحاكم لإسكات المهندس لم تحل دون أن يفهم المقدونيان ما في الأمر، بل بدا واضحًا وضوح الشمس، ما أجاج غضبهما، لذا قال بيديكاس بحدة: "إذا لم ينخفض سعر القمح وإذا لم تُمنح أموال الضرائب إلى المهندس ليشرع فورًا في ترميم الطريق..." لكن دولابيللا قاطعه هو الآخر: "ماذا سيحدث... قل لي يا فتى"، ثم تجهم وجهه وأضاف: "هل تهددني بالتمرد؟ مثلما فعلتم مع حكام آخرين من قبل؟".

فطن الشاب إلى أن دولابيللا يشير إلى تمرد الإسكندر، ابن بيرسيوس، على ميتيلوس؛ وإفانتوس ضد غايوس سكستيو، ردا على ارتفاع أسعار القمح. بيد أن تلك الانتفاضات باتت الآن جزءًا من الماضي، وعلى مدار سنوات عديدة لم ينتفض المقدونيون. عندئذٍ قرر آيروبوس التدخل بينهما بحكم منصبه، فتقدم بضع خطوات للأمام، وقال بنبرة هادئة وحازمة في الوقت نفسه: "تمرد! لا، لا أبدًا، ليست هذه الروح التي جئنا بها إلى هنا. نحن فقط نعبر عن مخاوفنا بشأن الضغوط التي تفرضها الضرائب الجديدة

على المقدونيين. جئنا لنعرب عن معارضتنا لهذه الضرائب يا صاحب السمو، لأننا نعتبرها مُبالغاً بها، سواء التي فُرضت على القمح أو الخاصة بترميم الطريق. وإذا كان حاكم روما لا يرى أنه من المناسب تقليصها، فلن يكون أمامنا خيار آخر سوى رفع مطالباتنا إلى مستويات أعلى: سنرسل لجنة من ممثلي الشعب المقدوني إلى مجلس شيوخ روما". حينها عمّ الهدوء إذ سكت الجميع. كان العجوز يعلم بتوق دولابيللا إلى إقامة احتفال نصر عظيم على شرفه، وأنه طالب مجلس الشيوخ بذلك، لذا فهو لن يرغب في أن يبعث سكان مقاطعته بشكاوى ضده في الوقت الحالي وحتى يصدر المجلس قرار الموافقة.

حدق دولابيللا إلى الأرض لبعض الوقت، بينما لا يزال جالساً على مقعده الوثير، مرر يده على ذقنه مرة أخرى... إن لجوءهم لمجلس الشيوخ قد ينطوي عليه إثارة الإزعاج، لكن الأمر لن يصبح خطيراً للغاية، بالطبع. كان قد طلب للتو من روما أن يقام على شرفه احتفال نصر، لانتصاره مؤخراً على التراقيين في الشمال، وربما تطغى شكاوى المقدونيين على طلبه، لكنه لم يكن أبداً رجلاً يستسلم للضغط، مهما كان نوعه.

تطلّع بيرديكاس وأيروبوس إلى التمثالين المنهويين من معبد أفروديت، الموضوعين على جانبي كرسي عرش الحاكم، الذي لم يسوّغ فعلته بكلمة واحدة. كما أنهما على أي حال لن يلحّا في الأمر؛ إذ قررا أن ينصبّ تركيزهما، في الوقت الحالي، على مسألة الفساد المالي. صحيح أن الدين من الأمور التي تثير المشاعر، لكنهما إنفقا أنه من الأفضل الالتزام بالتفكير العملي المنطقي ومواصلة التفاوض بحكمة.

وقد كانا مخطئين.

أخطأ بشكل كامل.

كان دولابيللا ممن يعتقدون، وفقاً لقاعدة متأصلة داخله، أنه يمكن للمرء أن يحصل على كل ما يريد، حتى وإن بلغت حدوده عنان السماء،

من خلال اللعب على أوتار العاطفة. ورغم أنه بلغ منتهى الوقاحة وكان ميله الدائم إلى بث الذعر في القلوب، إلا أنه يجيد التلاعب بالمشاعر والرغبات ببراعة الحرفي الذي يصوغ الأواني من بلور هش. بعدما فرغ من التفكير، رفع الحاكم مستوى بصره، وخاطب آيروبوس: "إذا خفضت سعر القمح وقلصت الضرائب الممولة لترميم طريق إغناتيا، هل تقسم لي أنه لن تكون هناك انتفاضة أو شكاوى إلى مجلس الشيوخ في روما؟".

حينها بدا للزعيم المقدوني المخضرم أن التوصل إلى اتفاق مع الحاكم الروماني لم يكن صعبًا للغاية كما ظن، وأجابه بحزم وثقة: "بالتأكيد يا صاحب السمو، أضمن لك ذلك، لا تمرد أو شكاوى، إذا قمتم بتخفيض سعر القمح وتقليص الضرائب".

هز دولابيل رأسه رافضًا، وعلق: "لا أريد كلامًا، أريد قسمًا، أن تقسم لي بما هو أشد قداسة عندك"، ثم انحنى إلى الأمام لسماع رده. فأومأ آيروبوس بالموافقة بتأنٍ إذ أحس بأنه ماهر في التفاوض، واعتبرها لحظة انتصار، وعندما رأى التماثيل التي سرقها الحاكم، أقسم يمينًا خاصًا بدله ذا صلة بما يراه أمامه: "أقسم... بأفروديت".

فهم دولابيل التلميح، لكنه لن يلتفت إليه، على الأقل ليس في الوقت الحالي. استند بظهره من جديد على مسند المقعد، وأومأ برأسه رافضًا، وقال مشيرًا إلى بيرديكاس: "لا يكفي... عليه أن يقسم هو أمامي أيضًا". وبشكل غريزي، تراجع الشاب المقدوني خطوة إلى الوراء، ليس بدافع الخوف، فهو لا يزال شابًا وبه حمية، لا يخشى شيئًا أو أحدًا، ولا يزال لديه الكثير ليتعلمه في الحياة بقدر ما سيلاقيه من معاناة، بل تراجع مثل جندي يبحث عن الموقع الأنسب لتقوية دفاعه كي يقدر على مواصلة القتال. فأشار إليه آيروبوس يحثه على الانصياع لرغبة الحاكم، قائلاً: "أقسم يا فتى".

عبس بيرديكاس، لم يعجبه ذلك، امتلأ قلبه بمزيج من المشاعر السلبية، لكن إن كان قسمه سيضمن التزام الحاكم بالتخفيض الضريبي، فلن يعد ثمنًا باهظًا، فقال: "أقسم". لكن دولابيل أخذ يهز رأس رافضًا مرة أخرى وهو

يتسم، وعلّق: "لا ليس هكذا، أقسم كما أقسم زعيمكم، بما هو أشد قداسة عندك". فتجد جبين بيرديكاس. كان والد زوجته المستقبلية بارعاً للغاية حينما أقسم بأفروديت، فأراد أن يحذو حذوه، لكنه لم يرد أن يفسر الحاكم تكرار القسم بأفروديت، انتقاداً له. فكر في قسم آخر يخرج من المأزق، وينول به رضا والد خطيبته، فقال: "أقسم بحياة ميرتل، خطيبتي، هي أقدس ما في هذا العالم بالنسبة لي."

هزّ دولابلا رأسه عدة مرات في إشارة إلى أنه قبل القسم بصورة رسمية. في الواقع، كان يتلذذ بقدرته على إذلال كل من حوله، فسأله بفضول حقيقي: "لم اسمع بهذا الاسم من قبل". حينها امتلأ الشاب المقدوني فخراً، وبدأ يشرح للحاكم الروماني أصل اسم خطيبته: "ميرتل هو الاسم الثاني من بين الأسماء الأربعة التي عُرفت بها والدة الإسكندر الأكبر على مدار حياتها؛ في البداية كانوا يسمونها بوليكسينا؛ لكن بعد زواجها من فيليب الثاني، والد الاسكندر، سُميت ميرتل؛ وبعد ذلك أطلق عليها أولمبياس وأخيراً ستراتونيس".

"حسنًا، حقًا" علق الحاكم. تظاهر بالاهتمام بالمعلومة التاريخية، وأضاف: "إنها إذن والدة الإسكندر، السلالة المقدونية العظيمة التي تفتخرون بها والتي تعتبرون أنفسكم أحفادًا وورثة لها".

"هذا ما نحن عليه بالفعل" أكد بيرديكاس بجرأة.

"بالطبع بالطبع..." قال دولابلا وكأنه يتفق مع محدثه، وفجأة تغيرت نبرة صوته، باتت أكثر قسوة وأمر جنوده: "اعتقلوهما!"، ليفاجئ الجميع، الجنود والمقدونيين. وعلى الفور استجاب الجنود للأمر، وأخرجوا سيوفهم من أعمادها وحاصروا الرجلين، اللذين لم يستوعبا بعد ما يحدث حولهما.

لعنة تُيسالونيكِي

مقر إقامة آيروبوس، هضبة أكروبوليس في تُيسالونيكِي،
أواخر عام ٧٨ قبل الميلاد
بعد اعتقالهما بثلاث ساعات

قوس دولابيّلا ظهره للحظة، وأطلق نخرة تشبه ما يطلقه خنزير يختنق من فرط الطعام، وصاح: "آآه!"، وقام مستندًا بيديه على الأرض، لقد أرهقه ما فعله للتو، وكانت أعضاؤه الخاصة لا تزال عارية، تقطر دمًا. التفت إلى بيرديكاس وهو يضحك بشراهة فتناثر لعابه على جسد ميرتل الممددة على الأرض، المقيدة من قبل جنود الفيلق، حتى أشار إليهم بإيماءة خفيفة بأن يتركوها، فأطاعوا على الفور. ثم توجه إلى بيرديكاس وقال له: "في الواقع، يا فتى، كانت خطيبتك عذراء. أقول كانت..."، ثم أمر الجنود: "أحضروا والد تلك العاهرة!".

زحفت الشابة شيئًا فشيئًا مبتعدة عنه، وتكومت على نفسها في إحدى زوايا الغرفة بالقرب من نافذة كبيرة يشع منها الضوء، تطل على بيوت ومباني العاصمة بكل تفاصيلها الخلابية من الأعلى، إذ بُني المنزل الأرستقراطي العريق على قمة هضبة الأكروبوليس، في أحد أطراف المدينة. ونظرا لارتفاعه عن مستوى الأرض بدا للناظر من فضاء النافذة أنه يقف على شفا هاوية سحيقة.

دنا دولابيّلا من النافذة لاهثًا ومرهقًا من الجهد الذي بذله، يتلمس نفحات الهواء النقي. رأته ميرتل يتكئ على سورها، ففكرت بسرعة،

وحاولت مهاجمته بكل قوة الغضب بداخلها، عاقدة العزم على إلقائه في الفراغ بدفعة تودي بحياته، حتى ولو سقطت معه في الهاوية نفسها.

داخل غرفة مجاورة

توجه جنود دولابيللا إلى العجوز آيروبوس وقالوا له: "انهض وتعال أيها الرجل العجوز، الحاكم يستدعيك"، فنهض بثقل من على المقعد، خائفًا مما سيلاقيه. كان قد سمع صرخات ابنته والسباب الذي وُجِه إلى بيرديكاس، ولم يكن بحاجة إلى أدنى استفسار كي يعرف ما حدث. الأمر الوحيد الذي يجهله حتى تلك اللحظة هو حجم الكارثة. تبع الجنود، كان الرعب ذاته ينتظره في الغرفة الأخرى، وعلم أن حياته، كما عرفها، انتهت إلى الأبد.

في الغرفة الرئيسية بالمنزل

أحس دولابيللا بجسده يصارعه من الخلف ويدفع به نحو فضاء النافذة، فتشبث بحوافها باستماته، وأجهض المحاولة. دفعته ميرتل بكل قوتها، كانت لا تزال شابة تتمتع بالصحة، وداخلها غضب هائل، لكن جسدها النحيل المنهك خذلها مرة أخرى ولم يصمد أمام الحاكم البدين الذي أخذ يصيح ويستغيث: "أيها الحراس!". فأحاط الجنود بالفتاة وصفعوها على وجهها، ثم أمسكوا بساقيها، وجرجروها بعيدًا عنه نحو الزاوية الأخرى، وهناك أخذوا يركلونها بقسوة فتكورت متخذة وضع الجنين، تحمي رأسها بيديها.

التقط دولابيللا أنفاسه، لقد مرت فترة طويلة منذ أن رأى الموت يقرب منه إلى هذه الدرجة. لم يختبر ذاك الشعور حتى أثناء حملته ضد التراقيين، إذ كان حريصًا كل الحرص على ألا يتقدم في الصفوف الأمامية للقتال أبدًا. لكنه على أي حال ابتسم، لقد اختبر الكثير من المشاعر في ذلك النهار، فكلما اقترب الموت يتعمق تقدير المرء لقيمة الحياة. شعر بالإعجاب بنفسه. فضّل

الابتعاد عن النافذة، إذ ربطته بها ذكرى سوداوية، والتفت إلى الجنود، وكانوا لا يزالون يركلون الفتاة، فقال: "كفى، بحق جوبيتر! إذا قتلتموها تسدون إليها معروفاً، أريدها حية تعاني".

تعالت ضحكاته، كان سعيداً بحق، نعم، لقد مر وقت طويل منذ أن رأى الموت يقترب، استرجع معركة بوابة كولين من الذاكرة، حيث رأى هو وسولا في بداية القتال أن الوضع يندرز بكارثة، لكنها انتهت بنصر روماني. تذكر كراسوس وصراخه، ف شعر بالمرارة قليلاً، إعتقد الأبله أنه هزم السامنيين بمفرده، بينما في الواقع تغلب جناحه على العدو بفضل خبرات جنوده وقدرتهم على القتال. وبينما هو غارق في أحداث الماضي، وانتصاراته، تسلل إلى أذنيه همس الفتاة فعطل مسار أفكاره؛ إذ كانت تتمم متوعدة: "ستصيبك لعنة ثيسالونيكي...". فسأل وهو عابس الوجه: "ماذا تقولين؟".

"ستصيبك لعنة ثيسالونيكي... ستدمرك!" صرخت، وهي تبصق الدماء من إحدى شفتيها، لقد شقتها ضربة بحذاء أحد الجنود.

"لعنة ثيسالونيكي!" تعجب الحاكم. في تلك اللحظة دخل والد الفتاة إلى الغرفة فصاح دولابيل بدم بارد: "بحق جوبيتر، ها قد حضر آيروبوس، صاحب هذا المنزل، زعيم الطبقة الأرستقراطية المقدونية العظيمة. انظر، هذه ابنتك، لقد أصيبت بكدمات طفيفة، كما أنها... لم تعد عذراء. ولكن إذا تزوجها هذا الغبي الذي اخترته ليصبح صهرك المستقبلي، فلا يزال بإمكانها أن تمنحك أحفاداً وتتمتعون جميعاً بحياة مليئة بود وهدوء لا تستحقونهما. يا لكم من مساكين. بالطبع، سيبقى لكم القليل من المال، بعد ما سأحمله إلى روما. ربما يصبح لك حفيد قريباً ينمو وترعرع في رحم ابنتك، لكنه سيولد بلا شرف. أما الباقي... لم يحدث الكثير من الأمور، ألا تصدق؟".

اقترب أكثر من العجوز، الذي وقف صامتاً لا يملك كلمات يرد بها عليه، فأضاف: "لكن أنصت إلي، لا يزال ثمة أمر آخر لم أخبرك به بعد". لم ينظر آيروبوس إليه، ظلت عيناه تحدقان إلى ابنته التي تسيل الدماء من جسدها، الجسد الذي دُنس شرفه، والتي قبعت متكورة حول نفسها في

إحدى زوايا الغرفة. فصاح دولابيلاً بقسوة: "أيها العجوز! هل يجب أن أمر بأن تُصفع أنت أيضًا حتى تنظر إلي؟". دُهِش العجوز من تهديده، ووجه إليه بصره بتململ، فعلق دولابيلاً مبتسمًا: "هكذا أفضل هل تعرف ماذا سأفعل الآن؟". لم يجبه. انتظر دولابيلاً إجابة منه، أراد أن يتحدث محاوره، أن يسأله، أن يُجبر على إجراء محادثة مع مغتصب ابنته أمام أعينها، وأعين صهره المستقبلي، الذي يقيده الحراس الذين نزعوا عنه حميته بلكمة أسفل البطن تحبس أنفاسه كلما استفاق وقاوم. على أي حال، حقق الحاكم مراده؛ إذ أجابه في نهاية المطاف: "لا، لا أعرف"، لقد أجبر العجوز نفسه على الرد لأنه أدرك بوضوح أن الرد عليه هي الطريقة الوحيدة لإنهاء الكابوس بأسرع وقت، وكرر: "لا أعرف ما الذي سيفعله الآن... الحاكم".

شعر دولابيلاً بالرضا بهذا الخضوع التام، كان يحب أن يرى أحفاد الإسكندر الأكبر ذاك يتدللون أمامه. لم يكن راضيًا منذ أرسله سولا إلى تلك الزاوية من العالم، لكن المنصب وفر له فرصة مناسبة لإثراء خزائنه الشخصية كما حقق انتصارًا عسكريًا من شأنه أن يمنحه احتفال نصر. لقد امتلأ بالفخر بنفسه، لأنه انتصر على أولئك الذين يعتبرون أنفسهم متفوقين بينما يراهم هو مجرد حثالة، كان يشعر بالفوقية وأنه ليس مثل بقية البشر.

"الآن، أيها العجوز، سوف أذهب إلى معبد أفروديت، الأكثر قداسة عندك، وأنهبه بالكامل، سأستولي على تماثيله كلها، كي آخذها معي إلى روما لتزين منزلي الكبير في وسط المدينة، أو إحدى فيلاتي الفخمة في الريف. سأخذ أيضًا كل الذهب والفضة، وسأترك كل تلك الساحات التي تقدسونها كثيرًا فارغة تمامًا، لكنني على أي حال سأترك لكم تلك الأعمدة الأيونية القديمة التي تدعمها. هذا، أيها الرجل العجوز... كُـرر مشددًا على وصفه بالعجوز بازدراء "... هو ما سأفعله الآن".

بعد ذلك انصرف دولابيلاً، وعندما مر بجوار بيرديكاس المعذب، امتلك الشاب الجرأة وسأله: "لماذا... لماذا كل هذا؟"، لكنه تلقى لكمة أخرى على بطنه، أسكته وجعلته يتقيأ، فأمر دولابيلاً حراسه: "اتركوه".

بمجرد أن حرره الجنود من قبضاتهم ولكماتهم، انهار الشاب، جثا أولاً على ركبتيه ثم انهار على الأرض، أمسك بيطنه بكلتا يديه، كاد يختنق من شدة القيء، أخذ يلهث بشدة. ولسوء حظه، ووسط معاناته أتاه صوت الحاكم الذي انحنى بجواره وهمس له: "هل تسأل لماذا أفعل كل هذا؟". وعندما أوما الشاب بالإيجاب، همس له في أذنه: "يا فتى، كل ما في الأمر أنني أفعل ذلك لأن لدي القدرة على فعله، هل تفهم؟ لأنني أستطيع". ثم انتصب مرة أخرى وصاح في جنوده: "دعونا نذهب"، وسار تاركًا خلفه الخراب المطلق.

رأى آيروبوس أن بيرديكاس لا يزال يعاني صعوبة في التنفس، وبدلاً من السعي نحو ابنته أولاً، ركض لمساعدة الشاب على النهوض حتى يتمكن من التقاط أنفاسه. إنها لحظة الاختيار الحاسم، وقد اتخذ قراراً من بين قرارات عديدة تؤخذ في الحياة، أحد تلك القرارات التي قد تجلب ندمًا أبدياً لاحقاً، وعندما وجده ينحني لمساعدته قال له بيرديكاس: "أشكرك...".

استغلت ميرتل تلك اللحظة، لحظة انشغالهما، لتزحف عائدة نحو النافذة. تسلقت حوافها، ثم وقفت واستدارت لبرهة نحو حبيبتها، ونظرت إليه مودعة وهمست: "لم أعد جديرة بك! أو بغيرك!"، ثم تفحصت هيئتها بمرارة، ملابسها الممزقة، وجسدها المغطى بالكدمات، والدماء التي تسيل على فخذيها. لقد هُتكت عرضها للتو، ولطخ شرفها وشرف والدها وعائلتها بأكملها... وخسرت كل شيء، لن يهتم أحد بأن ما حدث حدث بالإكراه، وأنه أوطأها عشوة*. ما أن لمحها بيرديكاس، وكان لا يزال جالساً، مستنداً بظهره إلى الحائط، يحاول التعافي من الضربات التي تلقاها غير قادر على النهوض لمنعها، حتى أخذ يصيح ويصرخ بيأس: "ميرتل! يا ميرتل! توقفي!" ويستغيث: "أوقفوها! أغيثوها! امنعوها!"، محاولاً الاستنجاد بصديقه أرخيلائوس، الذي وصل للتو إلى الحجرة، وبآيروبوس. فوجدهما واقفين ينظران إليها من هول الصدمة، دون أن يحاول أي منهما منعها من إلقاء نفسها في الهاوية.

* أجبرها بالقوة على أمر غير رشيد.

تعلقت أعين الفتاة بالدها، لكن لم تصدر عنه إيماءة واحدة، فاستدارت نحو الهاوية. تطلعت إلى معالم مدينة ئيسالونيكى من حولها، هالها كل هذا الفضاء الضخم المظلم وفترت همتها قليلاً، لكنها تماسكت واتخذت قرارها بأن تكتب نهاية مناسبة لكل ما حدث...

لا أحد عرف كيف ولا أين، ولا أحد أمكنه تفسير ما حدث بعد ذلك؛ إذ استمد بيرديكاس قوته من العدم، وتمكن من النهوض والركض نحو النافذة، وفي آخر لحظة، تشبث بسترتها الممزقة. وعندما كاد يفلتها أمسك بأحد ذراعيها، وخصرها، وشدها بقوة إلى الخلف. لقد تمكن من إنقاذها. تمددت الفتاة على الأرضية الرخامية بوهن شديد، وانهار هو مرة أخرى، وهو يصيح بها: "لا تقربي تلك النافذة مرة أخرى"، فأومأت بالطاعة. حتى تلك اللحظة لم تكن تعرف كيف يمكنها التصرف، لكنها ستنصاع لأمر بيرديكاس، رغم أن والدها - حسب ما بدا منه - فضل موتها، لكنها نجت وبقيت على قيد الحياة. كانت لا تزال في حيرة من أمرها، إلا أن كلام حبيبها أضاء لها بصيص شعاع من أمل شق الظلام.

لمح بيرديكاس قدر التخبط الذي عانى منه والدها، فتوجه إليه وقال مطمئناً: "ستعود مبجلة في عيني، وأعين الجميع...". رغم أنه شق عليه التحدث، نظر إليه الأب بحيرة وكذلك فعل أرخيلوس، فسأله بقله حيلة: "وكيف ذلك؟". تمنى لو سقطت في الفراغ، تمامًا كما أرادت هي، فأجابه بغضب جم: "سوف نثار منه، سنقضى على هذا الكلب الروماني". وضغط بكلتا يديه على بطنه المصابة بالكدمات.

"هل تتحدث عن دولابيللا، السناتور والحاكم؟ أنت لا تدرك قدر ما تنفوه به، هذا مستحيل" علق آيروبوس باستخفاف. فهز بيرديكاس رأسه رافضاً لما يسمعه، وقال: "بل سيصبح ممكناً، سوف أجد السبيل إلى ذلك، كي اقتلع روحه، وسوف أتزوج ميرتل. لقد ابتهلت بأن تحل عليه لعنة ئيسالونيكى، وسأحرص على إلحاق تلك اللعنة به".

الجريمة الرابعة

تدنيس المقدسات ونهب المعبد

ثيسالونيكي، على المنحدر الجنوبي، أواخر عام ٧٨ قبل
الميلاد

(في نفس ذلك اليوم)

بعدهما خرج من منزل آيروبوس، توجه دولابيللا، برفقة الجزء الأكبر من
حاميته في ثيسالونيكي، مباشرة إلى معبد أفروديت، وكان يقع بالقرب من
المنطقة الإدارية وقصر الحاكم.

"أغلقوا كل المداخل والمخارج!" أمر رئيس الحامية، إذ لم يرغب في
مقاطعة من أي نوع أثناء نهب المعبد. بمجرد تطويق المنطقة، ترجل دولابيللا
داخل الصرح المقدس، وأخذ يمر عبر أعمدته الأيونية العريقة، الصامدة على
مدار قرون عديدة، ترافقه مجموعة كبيرة من الجنود. وقف في وسط الساحة
المقدسة، واستدار بروية يلتذذ برؤية الزخارف والنقوش الفاخرة التي زُينت
بها الجدران، وأمر: "اجمعوا كل شيء". فتبادل الجنود النظرات فيما بينهم،
دون كلمة واحدة، واستفسر أحدهم: "كل شيء يا صاحب السمو؟".

"كل ما يمكنكم أخذه، خذوه" أوضح دولابيللا، الذي فتنه التماثيل
والنقوش الثمينة والقذور البرونزية. تأمل العملات المتنوعة المتناثرة هنا
وهناك، يلقيها المئات من المصلين الذين يأتون للتوسل لأفروديت إلهة
الحب والجمال من جميع أنحاء المدينة، وأضاف: "اتركوا هذه الأعمدة
الأيونية اللعينة فقط، وما عداها، سنأخذها إلى روما".

لم يكن ذلك معهد دلفي أو أولمبيا، فقد نهبهما سولا بالفعل، قدوته في الخراب، في الماضي القريب، فنهب اليوم وثروات معبد أفروديت في ثيسالونيكي ستبقى له وحده.

منزل العجوز أوريستس، ثيسالونيكي، مقدونيا.

كان جميع من في المدينة يلجؤون إلى العجوز الطاعن في السن لطلب نصحه في أوقات الأزمات، العجوز الذي بالكاد يخرج من منزله. يقول إنه على مدار ٨٠ عامًا من عمره قد ألمَّ بكل خبرات الحياة؛ وشاهد حروبًا انتهت بالانتصار أو أخرى بالهزيمة، كما عاصر مقدونيا الحرة الأبية، وكذلك المقاطعة الخاضعة للنير الروماني. لقد عاش حلماً بالتمرد على القوة الرومانية ثم بعد ذلك استفاق وأدرك قدر استحالتة، فتخلص منه واقتلعه من ذهنه وقذف به بعيداً عنه.

والآن، وصل أوريستس إلى أرذل العمر، ولم يعد محبباً للاختلاط بالناس، كما أن الاستمتاع بصحبة امرأة أصبح شيئاً من الماضي بالنسبة له، فقد نخرت السنون عظامه ووهن جسده، حتى اختزلت كل متاع الدنيا وزينتها في كأس نبيذ، يسمح لنفسه بها من وقت إلى آخر، بينما يجلس منتظراً أن يأتيه الموت. لكن إن جاء إلى منزله أحدهم يطلب نصحه، انتبه، وأنصت باهتمام وأعطاه من عصارة خبرته.

في ذلك اليوم الصعب ذهب إليه آيروبوس وبيرديكاس وأرخيلاوس وقصّوا عليه كل ما حدث. كان حديثاً طويلاً ومريراً لخصوا فيه جرائم الحاكم الروماني، في سلسلة مؤلمة تفيض بالرعب. وبعدها انتهوا من إخباره بما حدث، أضاف أرخيلاوس: "بينما نتحدث نحن الآن، يعيث رجاله بمعبد أفروديت وينهبونه".

كان بيرديكاس لا يزال مصاباً بجروح بالغة، لذا فهو يتحدث بصعوبة بالغة، وكأن كل ما تبقى من طاقته بعد كل اللكمات قد نفذ أثناء محاولة إنقاذ ميرتل في اللحظة الأخيرة.

"معبد أفروديت!" كرر أوريستس، بذهن شارد. منذ وقت ليس ببعيد عمل كاهنًا للمعبد، بدا له هذا أسوأ ما قالوه، فقد اعتبر أن حادثة اغتصاب الفتاة كارثة حقيقية لكنها تمس والدها وخطيئها على وجه الخصوص. بينما رأى أيروبوس وبيرديكاس أن اغتصاب الفتاة تجاوز كل الاعتبارات. وبالنسبة لذلك الأخير، ونظرًا لحبه الجرم للفتاة، رأى الكارثة بأبعاد مختلفة عن تقدير الآخرين لها. لكن نهب معبد أفروديت أو فرض ضرائب على القمح وأخرى من أجل الإصلاحات المزعومة لطريق إغانتيا، بهدف إثراء الخزائن الخاصة بالحاكم، نانت موضوعات عامة تخص جميع المقدونيين.

"يمكننا استغلال الظرف والترويح لانتفاضة شعبية في جميع أنحاء مقدونيا" اقترح أرخيلوس، الذي كان، نظرًا لشبابه وتهوره، أحد أولئك الذين اعتقدوا أن نير الرومان كان مؤقتًا. لكن أوريستس هز رأسه رافضًا وقال: "لقد تأخر الوقت يا فتى، ربما كان ذلك ممكنًا قبل ٢٠ عامًا، لكن ليس الآن، الرومان يزدادون قوة وسيظلون الأقوى، إن قوتهم لا تتراجع بل تزداد. يمكننا الدعوة إلى تمرد عام، بل ونحاول قتل الحاكم الروماني قبل أن يغادر مقدونيا، لكن غضب روما سيقع علينا بوحشية وسوف تسيل الدماء في المنطقة بأكملها. إنهم يا بني يحكمون الأراضي من الشرق إلى الغرب، ولا يبيحون التمرد، تلك أمور لا يتسامحون فيها؛ لأنه إذ ما ثارت منطقة ما فإنها تمثل نموذجًا سيئًا للمقاطعات الأخرى التابعة لحكمهم. لا، ليس هذا هو الحل، لا أنصح بالتمرد على الإطلاق".

"هل نظل مكتوفي الأيدي؟ بحق أفروديت، أهذا ما تنصحنا به؟" سأله بيرديكاس وسط تناثر البصاق من فمه. كان لا يزال يعاني آلامًا مفرطة، لكنه استمد قوته من شدة الغضب، فنظر إليه أوريستس دون أن يعلق، وتدخل أيروبوس لتسوية موقف الشاب: "لقد استشاط غضبًا وحن جنونه".

"أنفهم ذلك" أبدى العجوز تفهمه لحالة الشاب، وأضاف بعدما ارتشف رشفة واحدة من النبيذ تنقي حلقه: "مقدونيا الآن تابعة لحكم روما، لذا يمكننا اللجوء إلى القضاء الروماني ونطالب بتعويض مناسب، واستعادة

كل ما نهب من المعبد والأموال التي لم تُستخدم لجلب القمح من مصر، فضلاً عن أموال الضرائب التي جُمعت تحت مزاعم ترميم طريق إغنتايا، لا أكثر ولا أقل. لن تضمن لنا القوانين الرومانية الحالية أكثر من ذلك، ولكن ربما يمكننا - إذا ما اتفقنا مع محام متمرس - إجبار دولابيل على دفع غرامة تنغصه، أو استصدار حكم بنفيه خارج مدينته."

تهد آيروبوس؛ إذ رأى، مثله مثل البقية، أن ما يقوله العجوز مجرد عقاب ضئيل مقارنة بما اقترفه من آثام، وقال: "إذن لا جدوى من هذه المحاكمة، يجب أن يموت دولابيل إن أردنا غسل العار الذي ألحق به..." توقف قبل أن يكمل جملة بكلمة شق عليه نطقها "... ابنتي، ونستعيد شرفنا". بينما أيد بيرديكاس فكرة العجوز قائلاً: "أرى أن فكرة المحاكمة نيرة، لأنها ستسوِّغ وجودنا في روما، وهناك نتبع ذاك اللعين. من المؤكد أن المحاكمة ستجبره على الظهور أمام العامة، وهذا كل ما أحتاج إليه".

بدأ إصرار بيرديكاس على الثأر لخطيئته في إثارة إعجاب والدها، لكنه رأى ما يقوله ضرباً من الجنون فعلق: "سيظل دائماً محاطاً بحراسه المسلحين. الهجوم عليه في روما مستحيل. وحتى لو فعلت ذلك، فسيكون الأمر بمثابة انتحار؛ سوف يقتلونك حينها على الفور". لكن بيرديكاس كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن هذا هو السبيل الوحيد للثأر من الحاكم المغتصب، فأجابه: "أنا عازم على الذهاب إلى روما كي أعوض ميرتل عما فقدته. سوف أسلبه حياته دون الالتفات إلى حياتي أو موتي، لذا؛ أؤيد فكرة المحاكمة لأنها سوف تمنحني فرصة مناسبة".

"حسنًا... الفتاة، حسب ما قلته لي، توسلت بأن تحل عليه لعنة ثيسالونيكي. ربما يساعد ذلك، لكن لا بد من اللجوء إلى القضاء و... لا أعرف..." صمت أورستس وبدا في حيرة من أمره.

ساد الصمت، ظل الرجل العجوز يفكر ويتأمل، حتى سأله آيروبوس: "ما الذي يقلقك؟".

"لن يكون الأمر سهلاً. لا، ليس من السهل العثور على أرستقراطي روماني على استعداد لتوجيه الاتهامات لدولابيللا باسمنا. يجب أن نعثر على محام شجاع، شجاع للغاية... أو متهور لأقصى حد، أو ربما كليهما في نفس الوقت".

ميناء دراس

بعد ثلاثة أسابيع من اليوم الحافل بالجرائم

غادر دولابيللا ئيسالونيكى في عجلة من أمره. عدم الرضا الشعبي عن الضرائب التي فرضها على القمح والتي لم يكن في الحقيقة مضطراً لاستجلابه من مصر، والضرائب الأخرى بمزاعم ترميم طريق إغناتيا دون أن يقوم بأي إصلاحات فيه، كما أن اغتصاب ابنة أحد الأرستقراطيين ونهب معبد أفروديت شوّه ما تبقى من سمعته، حتى أصبح الغضب العام ينذر بإمكانية قيام انتفاضة شعبية ضده في أي لحظة. لهذا السبب قرر العودة سريعاً إلى روما.

أثناء سيره عبر طريق إغناتيا من الشرق متجهاً غرباً نحو ميناء إيرندس، رأى بنفسه أن الطريق كان بالفعل في حالة مؤسفة للغاية. في الواقع، علقت عرباته، المحملة بالتمائيل والذهب والفضة والكثير من الطعام، أكثر من مرة في التواءات والفراغات المترامية هنا وهناك على طول الطريق، وتعين على الجنود التدخل مراراً لسحب البغال العالقة بقوة. بفضل قوة جنوده قطع المسافات سريعاً، لكنه امتلأ سعادة؛ فكل بلاطة متصدعة وكل نتوء في الطريق، وكل جسر مدمر، كانت تذكره بالأموال التي احتفظ بها لنفسه. ما الذي قد يهمه في حالة طريق لن يطأه مرة أخرى؟ في الواقع لا شيء، الشيء الوحيد المهم هو أنه جمع ثروة فاقت كل توقعاته، وانفع بالفعل بشكل كبير من التقييدات التي فرضها سولا على حزب البيبولاريس خلال السنوات الماضية. لكن أعظم هدية حصل عليها من ديكتاتور روما كانت قرار تعيينه حاكماً لمقدونيا.

وصل أخيراً إلى ميناء إبرندس، وهناك أدرك الجنود أنهم بحاجة إلى سفينة كاملة، رباعية كبيرة، ليتمكنوا من نقل كل متعلقاته إلى روما. حينها فقط أدرك بوضوح حجم ما جمعه خلال فترة حكمه لتلك المقاطعة النائية، فجلس مبتهجاً، يرتشف النبيذ على رصيف الميناء باسترخاء، بينما يشرف على عملية الشحن. سوف تغادر السفينة، في غضون ساعات قليلة، عندما يرتفع المد، ليصبح هو وثرواته بعيداً عن نظرات المقدونيين المعادية، الذين كانوا يراقبونه من مسافة بعيدة، لكن ثمة فكرة ظلت عالقة في رأسه.

"في غضون ساعة سيكون كل شيء جاهزاً" قال له سيكستوس، قبطان السفينة التي ستقل متاعه إلى روما. بدا سعيداً مستبشراً لأنه سيحصل على مبلغ جيد من المال مقابل رحلة قصيرة وآمنة بدرجة كبيرة.

"ما هي لعنة ثيسالونيكى؟" سأله دولابيل، وكان هذا ما يؤرقه، وأتبع سؤاله بإيماءة وجهها إلى أحد العبيد ليقدّم لمحدثه كأساً من النبيذ.

"إنها أسطورة يرددها البحارة، لكن لماذا يهتم حاكم مقدونيا بمثل هذه الأمور؟" سأله القبطان... وفجأة عبس كأنما غام بسحابة من القلق.

"لسبب لا يخلصك في شيء" أجاب دولابيل بغلظة، ثم أضاف بود: "أسألك بدافع الفضول، لقد سمعت عنها مرات عديدة، وأردت معرفة المقصود بها، فافترضت أن بحاراً مثلك سيفسر لي أمرها، لكن يبدو أنني كنت مخطئاً". لقد قصد الحاكم هز ثقة القبطان في نفسه كي يحثه على الإفصاح بما عنده، وبالفعل نجحت خطته، فاستهل البحار كلامه قائلاً: "ثيسالونيكى ابنة الملك العظيم فيليب الثاني، وُلدت من علاقة جمعته بإحدى محظياته، فهي أخت غير شقيقة للإسكندر الأكبر، لكنها كانت تحبه حباً جنونياً رغم أنهما لم يقضيا وقتاً طويلاً معاً، إذ كان الإسكندر دائماً مع أرسطو في صغره، وفي شبابه انشغل بحملاته في بلاد فارس والهند. لقد حصلت الفتاة على اسمها تخليداً لذكرى الانتصار العسكري الذي أحرزه والدها على منطقة ثيساليا، حيث جمعت اسم آلهة النصر الإغريقية (نايكى) باسم المنطقة فسُميت ثيسالونيكى. وعندما مات الإسكندر، تغيرت الأوضاع؛ قام جنرالاته، كما

يعلم الجميع، بتقسيم إمبراطوريته بينهم. استولى كاسندر على مقدونيا ودمر مدينة بيدنا، وأسس مدينة جديدة على البحر لتصبح عاصمة لمقدونيا. ثم قتل والدة الإسكندر، وأخذ أخته غير الشقيقة ثيسالونيكي زوجة له وسمى المدينة الجديدة باسمها".

"لا أرى أي لعنة أو شيئًا خطيرًا فيما تخبرني به" علق دولابيللا. بالفعل لم ير ما يربح في قصة ثيسالونيكي تلك التي توسلت الفتاة المغتصبة قبل أسابيع بأن تحل لعنتها عليه.

"لا يزال للقصة بقية، أيها الحاكم" أوضح البحار، وتابع: "كان الإسكندر قد حصل على قارورة من الماء الخالد. تقول بعض المصادر أنه غسل شعر أخته به، بينما تشير روايات أخرى إلى أن ثيسالونيكي هي التي غسلت له شعره. مهما يكن، عندما مات الإسكندر، صُدمت أخته وأنكرت موته وانتحرت إذ أَلقت بنفسها في البحر، ولكن حدث شيء غير متوقع؛ لم تغرق ثيسالونيكي، لكنها تحولت إلى عروس بحر تجوب البحار حتى الآن بالقرب من السواحل اليونانية، وتظهر للسفن العابرة تسأل البحارة بلغتهم Ζει ὁ βασιλιάς Αλέξανδρος! أي ما يعني...". هنا قاطعه دولابيللا منزعجًا: "هل الملك الإسكندر لا يزال على قيد الحياة؟"، وأردف: "أنا أجد اليونانية، أكمل القصة".

"تأمل حورية البحر في الحصول على إجابة نموذجية، فهي تريد أن يقول البحار على الفور "إنه يعيش ويحكم ويحتل العالم"، فإذا تلقت هذه الإجابة، كل شيء يسير على ما يرام، وتسمح للسفينة بمواصلة الإبحار. ولكن إذا أجاب أحدهم بأن الإسكندر قد مات، فإن ثيسالونيكي تتحول إلى الشرير الخارق، غورغون الفظيع، وتتسبب في حدوث هزات شديدة غاضبة تؤدي إلى تحطم السفينة وهلاك كل طاقمها".

توقف القبطان للحظة يلتقط أنفاسه، شرب بعض النبيذ ثم أضاف: "لم أصادف حورية بحر من قبل قط، ولا أرغب في ذلك أبدًا بكل تأكيد، لكنني سمعت في الحانة أحد القباطنة يروي لقاءه بحورية البحر في ثيسالونيكي

وإدعى أنه نجا فقط لأنه أجاب بالإجابة الصحيحة. ولكن قد تكون تلك الأساطير نابعة من تأثير النبيذ، لأنني، في الواقع، أعتقد أن نيسالونيكى قُتلت بالفعل على يد أحد أبنائها، بدافع الغيرة، على ما يبدو، لأنها كانت تفضل أحد الإخوة دون الآخر".

أنهى القبطان القصة، والتقط كأسه وشرب آخر رشفة من النبيذ، ثم أعاد كأسه الفارغة على الطاولة وأضاف: "رغم أن ثمة كائنات غريبة كثيرة في البحر... من يدري". لم يعلق دولابيللا بكلمة واحدة، ظل صامتًا يتأمل البحر. فسّر القبطان صمته على أنه لم يعد راغبًا في وجوده، فقام ليودعه، ليبقى الحاكم وحده يفكر بجذ، وفجأة شعر بالاضطراب. كان البحر هادئًا، لكن جبينه تجعد، طمأنه أن لديه الإجابة الصحيحة، وبافتراض أنهم صادفوا عروس البحر تلك التي استدعتها ابنة آيروبوس، سيتعين عليه فقط قول إن "الإسكندر العظيم يعيش ويحكم ويحتل العالم" فتباركه وتسير أموره على ما يرام، ولكن ثمة...

وفجأة وقف وأمر جنوده: "دعهم يفرغون السفينة من كل شيء، سأعود إلى روما برًا".

المحاكمة (٥)

جلسة المحاكمة الأولى

الشاهد الأول المهندس ماركوس

باسيليكاً سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

تأمل قيصر أرضية الباسيليكاً السيمبرونية، التي بُنيت على الأرض التي سكن فيها سكيبيو الإفريقي، في الماضي، كما ذكر الجميع بالفعل في الجلسة السابقة. تمنى أن تتلبسه روح سكيبيو خلال تلك المحاكمة اللعينة، كي لا تُجهض مسيرته السياسية. كان ما مر به في الفترة الأخيرة شاقاً، خاصة بعد مقتل شاهده الرئيسي، المهندس فيتوس، ومن بعده كاهن معبد أفروديت في ثيسالونيكي، لكنه حقق انتصارات أيضاً على نطاق أضيق؛ إذ تمكن من تنحية ميتيلوس من رئاسة المحاكمة، وتوصل إلى شهود جدد يدعمون موقف المقدونيين خلال رحلته إلى عاصمة المقاطعة. لذا استبشر وصدق، للمرة الأولى منذ بدء الجلسات، أن ثمة فرصاً للفوز لم تضع بعد، وتحمس للغاية لهذه الفكرة.

نظر نحو البوابة، لم يصل القضاة بعد. ترقب رؤية أول من سيدخل منهم، لأنه سيكون رئيس المحكمة الجديد بعد تنحية ميتيلوس، فالتفت إلى لابينوس، الجالس إلى جواره. كان يناقشه في بعض نقاط الاستجواب الذي أعده، فهذه هي الجلسة الأولى من الناحية الفعلية، أي أن اليوم فقط تبدأ هيئة المحكمة النظر في تفاصيل القضية، أما الجلسات السابقة فقد خصصت لأغراض تنظيمية بحتة؛ من حيث اختيار المحامين والقضاة وهكذا.

دار ببصره على الجمهور. كانت والدته وزوجته وأخته من بينهم، بدت الأم، جادة صامته ظلت تتطلع إلى الباب الذي سيأتي منه القضاة، تنتظر بلهفة معرفة من سيكون الرئيس الجديد لهيئة المحكمة، بينما ركزت عينا كورنيليا الدامعتان عليه مباشرة، دون أن تلتفتا إلى أي شيء آخر. نظراتها تنطق بما تشتمل عليه نفسها من آلام وأحزان، فهي لم تتراجع قط عن التوسل إليه كي يتخلى عن وعده للمقدونيين، وينأى بنفسه عن هذه المحاكمة، خشية على حياته، ظلت تلح وتلح حتى توقفت قبل بضعة أيام فقط، وأخبرته بأن إظهاره لمهاراته الحقيقية في جلسة رد القضاة نبهت الأوبتيميتس إليه، والأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يعثب به العابث، لأن دولابيللا نفسه لم يعد يعتبره عدوًّا أقل خيرة أو مهارة. حاولت إقناعه بالتأكيد عليه أن أوريليا تتفق معها في الرأي، لكنه مع ذلك لم يلتفت إليها، ولم ينقص توقفها عن دعمه من عزمته شيئًا. رفض رفضًا قاطعًا الانصياع لخوفها، وأمام إصراره غرقت السيدة الشابة في لجة الحزن واليأس. إنها تجلس هناك في المدرجات بين الجمهور، صامته مثل تمثال، تنظر إليه بعينين حمراوين من كثرة البكاء، تتوسل إليه بنظراتها. لم تتوقف عن التوسل أبدًا، وعلى يمينها، كان بإمكان قيصر رؤية أخته تتحدثان بوجوه كاسفة.

"بدووا يدخلون" نبهه لاينوس، فالتفت نحو بوابة المحكمة. كان بومبيوس هو من يتقدم القضاة، تقاطعت أعينهما وهمس له لاينوس بريبة: "بومبيوس؟ ألا يزال صغيرًا للغاية على رئاسة المحكمة؟". لكن كلاهما كانا يعلمان أن قدر أهمية الحد الأدنى للسن والقوانين الأخرى التي تنظم تولي المناصب العليا في روما، يعتمد بشكل أساسي ومباشر على هوية الشخص وتوجهه السياسي.

"هذا منطقي، لقد برع بومبيوس بالفعل في الحروب ضد المناطق المتحالفة بسبب وحشيته في ساحة المعركة. الآن يريدون معرفة هل سيظهر كفاءة مماثلة في ساحات القضاء."

"وإن شئت قلت قسوة مماثلة أيضًا..."، أيده قيصر، واتفق معه. ثم التفت إلى الساعات المائية التي تقيس الوقت المخصص لكل طرف للمرافعة أو استجواب الشاهد، بينما سأله لاينوس: "هل توقعت ذلك؟".

"بومبيوس قادر على أي شيء، تمكنا من إزاحة ميتيلوس، ورئيس المحكمة الحالي أقل خبرة ولكن ربما يكون أشد قسوة... ليس من السهل التكهن بما سيحدث... المهم أن دورك في الوقت الحالي هو مراقبة الساعات والتأكد من أنهم لا يتلاعبون بها كي يسلبوني جزءًا من وقتي".

"حسنًا".

نظر قيصر إلى يساره فوجد أن المحامين كوتا وهورتنسيوس يرمقانه بنظرة من يراقب شخصًا سيتحول بعد قليل إلى فريسة سهلة وضحية. كانت نظرة خاله تنم عن شعوره بالمرارة بينما عينا هورتنسيوس حملت قدرًا من السخرية...

متدى روما، عشية يوم المحاكمة

في مملكة الظلال، وسط المدينة الكبيرة التي لا تضيء شوارعها المشاعل لتغرق في عتمة الليل، سارت امرأة تحث الخطى بخفة فتاة صغيرة، حتى توقفت بالقرب من مجمع الحوانيت، أحاطت بها مجموعة كبيرة من العبيد المدججين بالسلاح اصطحبتهم معها كي يحموها من بطش العصابات الليلية. رغم أن المتدى كان أكثر أمانًا من أي مكان آخر في روما، بفضل معبد فيستا، الذي فرض الاحترام في حضرته حتى على رجال العصابات، فضلًا عن يقظة حراس المباني الإدارية المتمركزة في مجملها على طول المتدى.

لكن العودة مرة أخرى إلى سوبورا، الحي الذي خرجت منه قبل قليل، وسط الظلام الدامس، انطوى عن مخاطرة كبيرة. لقد خاطرت تلك السيدة الرومانية كثيرًا خلال تلك الليلة، وما دفعها إلى ذلك إلا رغبة في الحفاظ

على حياة، ليست حياتها، بل حياة أكثر رجل أحبته في حياتها. لن تقدر على الوقوف مكتوفة الأيدي بينما تراه يقبل على الانتحار بعينه ويصر على التورط في تلك المحاكمة التي ستقضي عليه، ولن يتمكن من الخروج منها حياً حتى وإن انتصر على المذنب. لهذا قررت، منحطمة حاجز المتوقع، أن تتخذ هذه الخطوة، وترتكب تلك... الخيانة.

"سيدتي!" همس أحد العبيد لها محدراً من اقتراب مجموعة من الرجال المثلثين.

"اهدؤوا" أمرت بنبرة سلطوية. من وسط الظلمة، خرج هورتينسيوس وأوريليو كوتا، يقودان تلك المجموعة المخيفة، فكررت الأمر: "اهدؤوا" وكأنها أرادت توجيهه لنفسها. فهدأ العبيد، ظاهرياً، ومن تحت السترات لامست الأيدي الخناجر والأسلحة والسكاكين.

باسيليكاسيمبرونيا، روما

محاكمة دولابيللا، الجلسة الأولى

أدلى المهندس ماركوس، الشاهد الأول بأقواله، وأجاب على أسئلة قيصر بوضوح ودقة، ولم يترك هامشاً واحداً قد يثير الشك؛ إذ كان طريق إغناتيا في حالة مزرية ويحتاج إلى تصليحات بداية من ميناء دراس وحتى ئيسالونيكى، عاصمة المقاطعة. كما أنه المتجه من ئيسالونيكى نحو الشرق وحتى بيزنطة، سيجد الطريق محطماً وغير مُحَصَّب بدرجة تستحيل معها عبور العربات، إلا في حالة توافر مجموعات كبيرة من الرجال يمكنهم سحب العربة إذا ما علقت وسط التواءات الغائرة التي لا تعد ولا تحصى. كذلك باتت أجزاء شاسعة من الجسور على وشك الانهيار، وانتشرت الحجارة في منتصف الطريق بسبب انحدار الجبال ما أدى إلى وجود بروزات على طول الطريق. وبالنظر إلى حالة الطريق وبصفته مهندسًا، أكد أنه لم ينفق أحد سيسترتيوس واحداً الترميم هذا الطريق منذ سنوات طويلة، وأي شخص يقول غير ذلك يُعدُّ... كاذباً بلا شك. وهكذا جاءت شهادته قاطعة ولا

يمكن دحضها، صلبة مثل الصخر. وكان دولابيللا قد جمع ضريبة محددة من المفترض أن أموالها تُستخدم في ترميم هذا الطريق، لكن المهندس نفى تلقيه أي أموال لترميم الطريق.

جلس قيصر هادئًا وواثقًا بنفسه. يبدو أن الرحلة إلى مقدونيا استحوطت العناء بالفعل.

"كلمة الدفاع" قال بومبيوس بنبرة حازمة.

وعلى عكس ما فعله ميتيلوس، لم يلجأ رئيس المحكمة الجديد إلى الحراس لينطقوا بما يريد قوله، بل تحدث جيّدًا وبلا تلثم. ورغم أقوال المهندس التي تثبت بلا مجال للشك تهمة الفساد المالي والإداري على دولابيللا، إلا أن بومبيوس بدا مرتاحًا للغاية، وكأنه لم يعلق أهمية تذكر على شهادة الشاهد. دُهِش قيصر لهذا الأمر، وحاول تفسيره عبثًا.

نهض أوريليو كوتا، ترفّق في مشيه واتأد حتى وصل إلى منتصف القاعة، ونظر مباشرة إلى المهندس الذي كان على بعد خطوات قليلة منه وأكثر قربًا من مقاعد هيئة المحكمة. انتبه الجمهور، الذي ملأ الصحن المركزي، باهتمام، ثم سأله، وهو يسير بتأنٍ ويحدق إلى أرضية الباسيليكا: "سيد ماركوس... أنت مهندس، أليس كذلك؟".

"بلى".

"أنت المهندس الذي كان يُستقدم دائمًا لتنفيذ الأعمال العامة في روما، وبناتظام قبل بضع سنوات؟".

"هذا صحيح، فقبل بضع سنوات شاركت في مد بعض خطوط المياه في المدينة وترميم عدد من المباني في المنتدى" قال بهدوء، فخورًا باستعراض سيرته الذاتية. وكذلك شعر قيصر بالارتياح، رغم أنه بدأ يدرك ما يرمي إليه كوتا.

لم يكن كوتا هيئًا...

"لكنك بعد ذلك بقيت بلا عمل لفترات طويلة، تحديداً منذ عودة سولا إلى السلطة وتصدّر دولايبلا لإدارة عقود عدد من المشروعات العامة؟".

"نعم، ولكن...". فأسرع كوتا بمقاطعته: "على الشاهد خلال الاستجواب الاكتفاء بالإجابة بعبارات واضحة ومباشرة، دون أن يجادل أو يدحض أو يفسر أو يشرح" ثم أضاف: "بعبارة أخرى، المهندس الذي يشهد ضد دولايبلا أمامنا الآن فقد صفقات العمل منذ توليه مهمة الاتفاق مع المهندسين، أليس صحيحاً؟". كان حريصاً على ألا يصف دولايبلا بالمتهم، على عكس ما يفعله ابن اخته كلما سنحت له الفرصة.

"بلى، لكنهم توقفوا عن التعاقد معي دون سبب، فقط لمحابة المقربين من...". حاول ماركوس أن يوضح اللفظ الذي احتواه سؤال المحامي رغم التحذيرات، لكن كوتا قاطعه ثانية: "بحق جوبيتر! لسنا مهتمين بمعرفة الأسباب التي دفعت دولايبلا إلى تجنب التعاقد معك!"، واستمر في الحديث دون توقف كي يقطع على ماركوس أي فرصة للتوضيح والجدال: "قد يرجع قرار دولايبلا بالامتناع عن التعاقد معه على مشروعات جديدة لأسباب متعددة: إما لأنه لم تعجبه نتائج أعماله السابقة، أو لأن الميزانية لا تسمح، أو لأي سبب آخر. ما يهم هو أننا نود الإشارة إلى أن لدى الشاهد سبباً يراه وجيهاً يجعله يكن العداء تجاه موكلي، وقد تكون شهادته مدفوعة بالغضب والرغبة في إيذائه".

هز ماركوس رأسه نافيةً وحاول التعليق على ما يقوله كوتا، إلا أنه حرص على عدم ترك فرصة له، فأنهكه بأسئلة سريعة ومتلاحقة "لماذا ذهب المهندس ماركوس بالفعل إلى مقدونيا؟ ولم عكف على فحص طريق إغانيا بمثل هذه الدقة؟ في الواقع، جوهر الأمر يكمن في الكيفية التي مول الشاهد بها رحلته الباهظة إلى مقدونيا؟ لأن هذه رحلة طويلة ومكلفة. سؤالي الأساسي، السؤال الذي تحتاج المحكمة للإجابة عليه لتقييم مصداقية أقوال الشاهد هو: من دفع تكاليف رحلة المهندس ماركوس إلى مقدونيا؟".

ازدرد ماركوس لعابه، مرر يده على شفثيه الجافتين. لم يكن الكذب خيارًا مفضلاً أمام المحكمة، ليس فقط خشية أن تطبق عليه عقوبة الحنث باليمين، ولكن لأنه، وبشكل عام، كان الكذب في المحكمة أمرًا مستهجنًا، يعرضه لازدراء قد يعرقل فرص حصوله على تعاقدات عمل مع الدولة فيما بعد، فاعترف: "غايوس يوليوس قيصر هو من دفع تكاليف رحلتي".

"موجه الاتهام؟" ألحَّ كوتا، مشيرًا بإصبعه السبابة إلى مكان جلوس ابن أخته الشاب.

"نعم" قال المهندس.

في تلك اللحظة انتفض قيصر وتحدث إلى هيئة المحكمة دون طلب الاذن: "كنت قد اتفقت مع مهندس آخر للإدلاء بأقواله التي تفيد بأنه لم يُسمح له ببدء أعمال ترميم طريق إغناتيا وأنه لم يحصل على أي أموال للقيام بذلك، لكنه عُثر عليه مقتولًا بخنجر عالق في ظهره. لهذا اضطرت إلى اللجوء إلى مهندس آخر لإثبات سوء حالة الطريق...". فتدخل بومبيوس وتحدث بنبرة سلطوية: "محامي الدفاع هو مَنْ يتحدث الآن". فصمت قيصر وظل ساكنًا وكان على رأسه الطير.

"يمكنني أن أطلب ألا يقاطعني المحامي الشاب، لكنني لن أفعل ذلك" علق كوتا بتعجرف لكنه ظل هادئًا؛ فكل شيء تحت السيطرة ويسير وفقًا لما حُطّط له. ثم تابع موجهًا كلامه إلى قيصر: "نأسف جميعًا لوفاة شاهدك السابق، على الرغم من أنه كان بإمكانك البحث عن مساعد له. لكن لا، هذا أسهل وأكثر مرونة ويمكن التأثير عليه بسهولة والتلاعب بأقواله، وأنا أقول ذلك. لقد جلب المُتَّهم شاهدًا آخر، مهندسًا آخر يشعر بالفعل بالعداء ضد موكلي، ودفع له جيدًا كي يستنطقه بما يريد أمام هيئة المحكمة". ثم التفت إلى المهندس وقال: "يا للأسف... لا يُعاقب قانوننا على الحنث باليمين كما ينبغي، للآلهة!.. الأمر! بحق جوبيتر، هذه ليست شهادة، بل مجرد حفة من الأكاذيب المشتراة بالدفع المسبق!"، ولم يزد كلمة واحدة.

كان قيصر على وشك التحدث، لكن بومبيوس تدخل ليسدل الستار على أقوال الشاهد الأول: "هل جلب موجه الاتهام شهودًا آخرين؟". لم يعد قيصر يمتلك فرصة لتغيير الوضع، فالمحاكمة لن تعود إلى الوراء. نكس المحامي الشاب رأسه، وتنهد بعمق، وحاول تنظيم نفسه كي يتسنى له ترتيب أفكاره.

الشاهد الثاني العجوز أوريستس

باسيليكا سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

أراد قيصر أن يجادل بخصوص مرافعة كوتا، لكن الحقيقة أنه لم يعرف السبيل إلى ذلك، كما أن استعجال بومبيوس لم يصب في صالحه. لقد طعن كوتا في مصداقية المهندس، طرح بأقواله أرضاً، واختصر الأمر بسهولة شديدة في أنها شهادة مدفوعة الأجر لا يمكن أن يلتفت القضاة إليها أو أن يضعوها في الحسبان. ظل عقله مشوشاً وغرق في التفكير، حتى أنه لم يلتفت إلى نداء رئيس المحكمة، الذي بدا وكأنه يستمتع برؤية الشاب يوليوس قيصر، ابن صهر غايوس ماريوس، أسيراً للصدمة، إذ كرر: "هل جلب موجه الاتهام شهودًا آخرين؟".

"أوريستس، كاهن معبد أفروديت في ثيسالونيكي سابقًا" همس لابينوس لرفيقه، فأيده قيصر في شرود. أخذ نفسًا عميقًا وحاول تمالك نفسه من هول الصدمة، ثم قال: "الإدعاء...". وصمت. ابتلع لعابه وأضاف وهو يتفرد في وجه بومبيوس: "يرغب المُتَّهَم الآن في استجواب العجوز المبجل أوريستس، كاهن معبد أفروديت في ثيسالونيكي". تحدث بصوت عالٍ وواضح، ثم جلس للاسترخاء والتفكير أكثر، حتى يتخذ العجوز مكانه على مقعد الشاهد، فيما همس له لابينوس: "يبدو وكأنهم أعدوا لكل شيء على أكمل وجه، كما لو كانوا قد درسوا كل الحجج المضادة بعناية". فتنهد وأجاب: "لا، بل يبدو أنهم علموا بأمور لا ينبغي عليهم معرفتها، كيف عرفوا بدقة متناهية أنني تحملت تكاليف رحلة المهندس؟ وأن عقود ماركوس

توقفت منذ تصدّر دولابيليا؟ هذا أمر سهل معرفته، لكننا عدنا من مقدونيا قبل بضعة أيام بالكاد. كيف كشفوا هوية الشاهد، ثمة لغز في الأمر. لقد توصلوا إلى معلومات دقيقة تخص دفاعي، شخص ما نقل المعلومات إليهم". ولم يعرف لاينوس بماذا يجيبه.

متدى روما

عشية يوم المحاكمة

"اهدؤوا كما قلت لكم" أمرت السيدة.

أرعى العبيد قبضاتهم عن خناجرهم. في الواقع، لم يشعروا برغبة في الانخراط في أي أعمال عنف؛ إذ اصطحب الرجلان المثلثان معهما مجموعة كبيرة من الحراس، أكبر من المتوقع، وإذا ما نشب عراك فسوف يسقط كثيرون من الجانبين. تمنوا أن يتفاهم الأسياد بعضهم مع بعض، وبدا أن السيدة تملك زمام الأمور.

"بم أردت إخبارنا؟" سأل أحدهم.

"سأخبركما بما يكفي لدحر دفاع قيصر أمام هيئة المحكمة، ماذا تريدان معرفته؟" أجابت. فتبادلا النظرات، ثم التفت أحدهما إليها، أراد سؤالها عن الدافع وراء خيانتها لقيصر، لكنه غير رأيه في آخر لحظة، وقال: "نحتاج إلى معرفة هويات شهوده وكل شيء عنهم، وخاصة نقاط ضعفهم".

ترددت المرأة، وأخذت تتلفت إلى الطريق المظلم، ثم حدقت إلى تلك الوجوه المثلثة، وأجابت: "فليكن!". وهكذا جرت الخيانة.

باسيليكاسيمبرونيا، روما

محاكمة دولابيليا: الجلسة الأولى

نهض قيصر بتأن. كان ثقل دفاعه يرتكز على قوة أقوال المهندس، لكن بعد مرافعة كوتا، تلاشت قيمتها عملياً. الآن انصب اهتمامه على أوريستس،

فمنذ التقى به للمرة الأولى في مقدونيا، فطن إلى أن شهادته ستقدم أفضل دعم لموقفه أمام المحكمة، لكن بعد ذلك تغير كل شيء. صحيح أن العجوز أظهر استعداداه للتعاون معه من أجل تحقيق العدالة وإدانة دولابيللا على جرائمه وأعماله الوحشية، لكنه كان طاعناً في السن، كما أن الرحلة الشاقة من مقدونيا استنزفت ما تبقى لديه من قوة وتضعفت حالته الصحية. ومنذ ذلك الحين ينتاب قيصر الشك فيما إذا كان هذا الرجل سيقاوم الوهن بحيث يقدر على الوقوف أمام هيئة المحكمة في اليوم المحدد للجلسة أم يستسلم قبلها.

خلال الأيام التي سبقت جلسة المحاكمة، دعاه لتناول العشاء مع عائلته عدة مرات، واعتاد في الأيام الأوائل أن يقرأ عليهم مقاطع من سوفوكليس أو يوربيديس بشغف أسرهم جميعاً، لكنه شيئاً فشيئاً بدأ ينطفئ؛ فتدهورت قدرته على السمع، حتى أصبحوا يضطرون إلى تكرار الأسئلة عليه أكثر من مرة. وفي الأيام الأخيرة، طرأ عليه تدهور ملحوظ في الذاكرة، فبات كثير النسيان، تغيب عنه المحادثات التي أجراها في اليوم السابق، رغم أن أحداث الماضي ظلت محفورة في ذاكرته. مع وضع كل هذا في الحسبان، وبعد مقتل المهندس والكاهن بخنجرين، وتجريد الشاهد الأول من مصداقيته، أدرك قيصر أن ليس أمامه سوى تعليق أماله على أقوال ذلك الرجل العجوز الواهن، إذ بات عليه استغلال ما تبقى له من أوراق رابحة، ولم تكن كثيرة.

وقف قيصر في وسط الصحن، يستجوب أوريستس بصوت عالٍ وواضح، ينطق بأسئلته كلمة بكلمة وكأنه يتهجي حروفها، ويحرك شفثيه بتأنٍ بينما ينظر إليه مباشرة: "اسمك أوريستس، وعملت كاهناً لمعبد أفروديت في ثيسالونيكي، هل هذا صحيح؟".

"بلى، صحيح" أكد الرجل العجوز بصوت واهن، ولكنه مفهوم للجميع. "وبسبب هذا، وبالنظر إلى كبر سنك، وبعد أن عشت حياة الشرف على مدار عمرك يكن لك أبناء مدينتك الاحترام والتجيل؟".

"نعم، أحظى بتبجيل الجميع".

"يأتون عادة إليك لاستشارتك في الأمور المهمة؟".

"هذا صحيح".

أوما قيصر برأسه بهدوء، بات واثقًا تمامًا في قوة أقوال شاهده. في خضم الثقة استدار إلى المدعى عليه ورمقه بنظرة لها مغزى وهو يزم شفثيه، ثم التفت مرة أخرى إلى العجوز، وسأله: "وهل صحيح أنه عندما جاءك بيرديكاس وأرخيلاوس وآيروبوس لاستشارتك في السبيل الأمل للتصدي لجرائم الحاكم، دولابيل، نصحتهم باللجوء إلى القضاء الروماني، وتجنب التمرد أو المواجهات العنيفة؟".

"صحيح، هذا ما نصحت به".

هز قيصر رأسه بثقة، والتفت إلى أعضاء المحكمة للحظة فوجد أن القضاة، رغم استعدادهم لتبرئة دولابيل من كل جرائمه، أظهروا اهتمامًا حقيقيًا بما يمكن أن يمتلكه هذا الكاهن المخضرم في جعبته، تمامًا كما اعتقد قيصر منذ البداية، أن شهادة عجوز مبجل، كاهن سابق، علاوة على كونه مثقفًا للغاية، ستلفت انتباه أعضاء مجلس الشيوخ. كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل عمليًا، النيل من عزمهم على تبرئة المتهم، لكنه أمل في أن بصيصًا من شك، أو شعورًا طفيفًا بالذنب، من شأنهما إحداث صدع في ذلك الجدار العنيد.

"وهل صحيح أن الحاكم والمتهم في هذه المحاكمة فرض ضرائب وهمية بدعوى ترميم طريق إغانتيا لكنه لم ينفذ أي شيء على الإطلاق، وضرائب إضافية لجلب كميات من القمح من مصر، بينما في الواقع، لم يجلب شيئًا، وأنه نهب تماثيل وكل ثروات معبد أفروديت، ولم يكتفِ بكل تلك الجرائم، بل قام باغتصاب الفتاة ميرتل العفيفة العذراء، التي تنحدر من عائلة أرستقراطية؟" سأله. فأكد أوريستس بثبات وعزيمة رغم الوهن الظاهر في صوته: "نعم، لقد ارتكب الحاكم كل هذه الجرائم". لم يكن لإجابته

صدي مدوّ بسبب افتقار العجوز للقوة، لكن إجابته اتسمت بصدق قذف الرعب في القلوب، وأصاب القضاة بعدم الارتياح. بدت وجوههم كاسفة حتى أنهم تمللموا في جلستهم، وتظاهروا بتعديل وضع وسائدهم وأرديتهم وكأنهم لم يرتاحوا في الجلوس بأي وضعية.

"من يتحدث أمامكم بمثل هذا الثبات لم أدفع له مقابل شهادته" أكد قيصر، وأوضح: "مؤل المقدونيون رحلته إلى روما، بالفئات الذي تبقى لديهم بعدما نهب المتهم كل شيء. كما أنه ليس شخصاً يكن العدا للمتهم، بل هو كاهن سابق موقر عُرف بالاستقامة طوال حياته، ويحظى باحترام النخب المقدونية، كما أنه يحترم قوانيننا ويثق في عدالتنا. وأمام غضب المقدونيين الذين فكروا في الانتقام من الحاكم الروماني الجائر والخسيس، الذي أساء إلى سمعة روما أينما ذهب، نصح العجوز مواطنيه بعدم التمرد وحثهم على اللجوء إلى القضاء الروماني كي يعرضوا جرائمه أمام هيئة المحكمة وهم ينتظرون الرأي والحكم النهائي. إن العجوز المبجل، الذي يوقر قانوننا، ينسب تلك الجرائم المروعة إلى دولابيل، والحق يقال إن جرائمه تلك تصبح أكثر بشاعة عندما ندرك أنه ارتكبها باستخدام القوة التي منحها له روما. لقد مُنح القوة كي يحكم وليس ليذل الشعب وينهب الثروات، وقد يميل الدفاع إلى تسويغ تلك الجرائم بمبدأ القياس أي بقول إن مثل هذه الانتهاكات تحدث وحدثت بالفعل في الماضي بهدف توفير الأموال اللازمة لسد احتياجات أكثر أهمية، على سبيل المثال، في أوقات الحرب. وقد يرغب في تذكيرنا كيف أن سولا نفسه، الذي تسير المحاكمة برمتها وفقاً للقوانين التي سنّها، كان قد نهب معبدي أولمبيا ودلفي، ولكنه فعل ذلك بهدف جمع الأموال للقوات التي كانت تواجه ميثراداتس، ملك بنطس. أما بخصوص القضية التي ننظرها الآن، لا يوجد أي عذر يمكن أن يخفف أو يُسوغ أو يمحو الجرائم التي ارتكبها المتهم ضد سكان مقدونيا. ولا شك في أن كل ما اجتره المدعى عليه من جرائم كان هدفه تحقيق مصالحه الشخصية، دون مصالح الدولة الرومانية."

لم يفوت قيصر فرصة للإشارة إلى دولابيللا بوصفه "المتهم". لقد فعل ذلك مرارًا. بعد ذلك، طرح على أوريستس كثيرًا من الأسئلة توضح تفاصيل التماثيل المفقودة في معبد أفروديت، وطلب منه أن يصف كيف رآها محملة على عربات الحاكم وتحديد الكنوز الأخرى التي نُهبَت من المعبد. روى الرجل العجوز تفاصيل كل هذا، بثبات ومصداقية، بصوت متهدج قليلًا لكنه مسموع، وبعاطفة حاول السيطرة عليها تجاه ذاك المكان المقدس للغاية بالنسبة له وبالنسبة للمقدونيين جميعًا. وعندما انتهى بدا راضيًا تمامًا عن نتيجة الاستجواب، فصاح: "بحق جوبيتر!" لا مزيد من الأسئلة!". ثم عاد ليجلس إلى جوار لاينوس الذي أثنى عليه باقتضاب إذ لم يشأ أن ينصرف انتباهه عن الساعات: "أحسنت".

"شكرًا لك" همس قيصر وهو يسكب لنفسه كوب ماء، وأضاف: "أكثر ما يقلقني هو أسئلة كوتا. أفكر كيف سيتحمل أوريستس المزيد من الأسئلة، إنه يتصبب عرقًا، هل رأيت؟ يبدو منهكًا للغاية، ربما كان علي الإيجاز معه". التفت لاينوس نحو أوريستس؛ ألمه حاله، تضعضعت حالته بشكل لافت، لكنه علق محاولًا تهدئة صاحبه: "ربما، لكن، من ناحية أخرى، كانت شهادته ممتازة، وسوف تدعم أقواله موقفنا". فأيده قيصر.

في هذه الأثناء، كان أوريليو كوتا قد نهض بالفعل وابتاد في مشيه نحو الشاهد محددًا إلى الأرض ظاهريًا. بدا أن محامي الدفاع المخضرم فقد طرف الخيط الذي ستنتقل منه مرافعته، وربما لم يكن الأمر كذلك في الواقع. توجه إلى الجمهور وأولى ظهره إلى الشاهد حتى لا يرى شفثيه أو وجهه ويستشف ما يريد قوله: "بعبارة أخرى، علينا الآن أن نصدق أن هذا الأجنبي العجوز" شدد كوتا على آخر كلمتين بازدرء محسوب بعناية: "رأى كيف دنس الحاكم دولابيللا المقدسات بنهب أحد المعابد المقدسة. أليس هذا صحيحًا أيها الرجل العجوز؟". لكن أوريستس لم يجبه. لقد وصفه كوتا بالأجنبي وبالعجوز لكنه كان يدرك أن مظهره النبيل والموقر ترك انطباعًا جيدًا لدى العديد من أعضاء المحكمة، لذلك أراد التأكد من صحة

المعلومات التي تلقاها هو وزميله عشية ذلك اليوم قبل أن يبدأ في تمزيقه أمامهم. لا يزال يخشى أن تكون الخائنة أرادت خيانة مزدوجة، لذا كان كوتا حذرًا إلى أقصى حد. وأمام صمت الشاهد، كرر مع الحرص دائمًا على أن يوليه ظهره ويتحدث بصوت مسموع للجمهور، دون أن يرفعه بدرجة كبيرة: "أتساءل أيها العجوز أوريستس، إن كان يجب علينا تصديق ما قلته".

لم يحرك الشاهد ساكنًا ولا صدرت عنه كلمة واحدة. فأردف المحامي: "أتساءل ما إذا كان الأجنبي العجوز لا يجيني بدافع الازدراء لأسئلتني، أو الاحتقار، لهذا المحامي أو لهيئة المحكمة... أم إنك فقط تفهم اللاتينية التي يتحدث بها المُتَّهَم؟"، ثم التفت إليه وإلى القضاة. لكن أوريستس التزم الصمت، كان رجلًا مثقفًا، ولم يكن يعاني صعوبة في فهم اللغة اللاتينية، على الرغم من أن اليونانية لغته الأم، لكن كوتا تحدث إليه موليًا ظهره له، لذا؛ لم يتسن له تبين كلماته، فأثر الصمت. كان مرتبًا إلى حد ما حتى أنه لم يدر هل بدأ الاستجواب أم لا.

"أم إن هذا الرجل العجوز يعاني مشكلة في السمع؟" قرر كوتا مشاركة استنتاجه مع جميع الحاضرين في باسيليك سيمبرونيا، فسرت المهمات في جميع أنحاء القاعة. حينها أشار بوميوس إلى أحد معاونين، فقام على الفور ودعا الجميع إلى التزام الصمت، وأطاع الجميع.

"حسنًا، بحق الآلهة جمعاء، ليس السمع ضروريًا لإدراك أن شخصًا ما ينهب معبدًا، بل للتحقق من أن شخصًا ما يرتكب جريمة... كل ما يكفي هو النظر. دعونا لا نطلب من الرجل العجوز النبيل أكثر مما يقدر عليه" أضاف كوتا ساخرًا. وعلى إثره غرق هورتنسيوس في نوبة ضحك وتبعه كثير من الجمهور، علاوة على ذلك، أطلق كوتا على الرجل العجوز لقب "نبيل"؛ إذ رأى أنه إذا أوشك على تحطيمه حتى يبدو أشبه بحفنة من العظام النخرة فلا مانع من تذييل اسمه بصفات الهيبة الاجتماعية لزيادة حدة التهكم.

بعد ذلك التفت إليه مباشرة، ووقف على بعد خطوات قليلة منه، وسأله ببطء وهو يركز على كل كلمة على حدة، كما لو كان يتحدث إلى رجل أصم

وأحمق: "أوريستس! عندما شاهدت الحاكم بينما ينهب معبد أفروديت كما تزعم، كنت تقف على مسافة كم خطوة؟". هنا فقط أجابه الشاهد بثقة: "لقد طوقت قوات الحاكم أنحاء الميدان، لكنني رأيته بأم عيني يغادر معبد أفروديت مع الفيلق الذي حمل التماثيل من الحرم وبقيّة كنوزه".

"كنت تقف على مسافة كم خطوة؟".

"لا أدري... ٥٠ خطوة، ربما أقل قليلاً...".

نظر المحامي للجمهور وعلّق: "أتفهّم ذلك". ثم استدار إلى الشاهد يطرح عليه سؤالاً آخر بصوت مرتفع: "النز... في هذا الصحن، على سبيل المثال، من بين الحضور، تجلس أختا المُتّهَم، هل تعرفهما؟". في تلك اللحظة سيطر التوتر على قيصر وعلى لاينوس كذلك.

"أجل، أعرفهما، فقد تناولت العشاء في منزل قيصر عدة مرات أثناء فترة إقامتي في روما" أوضح الشاهد.

"رائع! لا أرى أي خطأ في ذلك، النقطة التي تهمني هي أن يستطيع الشاهد التعرف عليهما من بين الجمهور، على بُعد أقل من ٣٠ خطوة من حيث نقف. أنا أستطيع رؤيتهما بوضوح، هل يمكن للشاهد أن يشير إلى موقعيهما؟".

فهم أوريستس المغزى من السؤال، تصفّح وجوه الجمهور، لكنه لم يرَ سوى وجوهاً مشوشة، لم تسعفه عيناه بما يكفي للتعرف على أي شخص، أخذ يحدق ويحدق عبثاً، بينما ألحّ عليه كوتا: "هل يمكن للشاهد من موقعه هذا أن يشير إلى أي امرأة من بين الجمهور؟". فتجدد جبينه. حاول قدر إمكانه، لكن كل شيء أمامه بدا ضبابياً. ولما يئس اعترف له: "لا أستطيع الآن، لقد تدهور بصري كثيراً في الأسابيع القليلة الماضية، قبل ذلك كنت أرى بشكل أفضل".

"بالطبع...". واصل كوتا دون أن ينظر إليه ودون أن يرفع صوته، لكن ما قاله كان مسموعاً بالنسبة لمعظم الناس: "علينا تصديق أيضاً أنه كان يسمع

جيدًا لكن حدث له ما حدث فأصبح أصم". فسأله العجوز "ماذا...؟ لم أسمع نهاية جملتك الخبرية بشكل صحيح... أم إنها كانت استفهامية؟". فضحك هورتيغسيوس مرة أخرى وانتقلت عدوى الضحك إلى جزء كبير من الجمهور ومن أعضاء مجلس الشيوخ. لكن كوتا لم ينته بعد، بل التفت مرة أخرى إلى الشاهد، وتحدث بصوت عالٍ وواضح، كما كان يفعل دائمًا كلما أراد له أن يسمع كلامه: "هل تناول الشاهد العشاء في منزل موجه الاتهام أمس؟". همّ أوريستس بقول شيء، لكنه توقف فجأة، ظل صامتًا وساكنًا تراقبه أعين القضاة المنتبهة. لم يقل كلمة واحدة، فقط ارتعشت جفونه وفغر فاه.

"يستطيع الشاهد أن يجيب. من المقبول أن يتناول الشاهد الغداء أو العشاء ويتحدث إلى محام استدعاه للمحاكمة للإدلاء بشهادته، ولا حرج في ذلك" تابع كوتا بهدوء، بينما ظل أوريستس صامتًا. فاستغل المحامي الفرصة وفسر الدافع وراء صمته بقول: "بالطبع، ربما يكون ما في الأمر هو أن الشاهد لا يمكنه تذكر هل تناول العشاء أمس في منزل المُتَّهَم أم لا". حتى أن أوريستس همّ بالتأكيد على صحة ما يقوله المحامي، لكنه أدرك أن الاعتراف بذلك يضعه في موقف محرج أمام المحكمة، فالتزم الصمت. ثم دوى سؤال كوتا في وسط الصحن المركزي لباسيليكاسيمبرونيا العريقة: "هل تناول الشاهد العشاء في منزل موجه الاتهام أمس؟".

متدى روما

عشية المحاكمة

"من حضر إلى المنزل الليلة؟" سأل أحد المثلثين. أثار السؤال دهشة المرأة فاستفسرت: "وما علاقة ذلك بالمحاكمة؟". لم ترغب، رغم خيانتها، في إعطاء هؤلاء الأشخاص أي معلومات أكثر مما كان ضروريًا لخسارة قيصر في القضية، فأوضح أحدهما: "معرفة ذلك سوف تساعدني في استجواب الشاهد".

عم الظلام الدامس شوارع المدينة، تمامًا مثل أفكار الجميع في ذلك الركن من المنتدى، بجوار مجمع الحوانيت.

باسيليكاسيمبرونيا، روما

محاكمة دولابيللا، الجلسة الأولى

لم يستطع أوريستس أن يتذكر، فأثر الكذب: "نعم، تناولت العشاء الليلة الماضية في منزل المحامي الذي ينوب عن الشعب المقدوني". فما كان من كوتا إلا أن صاح: "هذا ليس صحيحًا". وبالطبع لم يستطع المحامي الاستشهاد بمصدر معلوماته، لكنه كان يعلم أن أوريستس سيملكه الارتباك والحيرة عندما يدرك أنه يعرف عنه أكثر مما يتذكره هو نفسه، وإلى حد كبير. أحس كوتا أن ما يفعله كان شديد القسوة وأكثر مما يقدر هذا الرجل العجوز على تحمله، لكن في الاستجواب وأثناء المحاكمة لم يكن ثمة مجال للشفقة، فأضاف بإصرار: "الشاهد لم يتناول العشاء مع نائب المقدونيين أمس، لكنه فقط لا يتذكر. هل يتذكر الشاهد ما إذا كان قد تناول الإفطار هذا الصباح أم لا؟".

"أحرص على تناول الفطور دائمًا" أجاب أوريستس لكنه لم يكن متأكدًا حقًا. بدت أحداث الماضي أكثر وضوحًا بالنسبة له، لكن الذكريات القريبة بقيت مبعثة وغير واضحة. لم يستطع فهم ما يجري، وما أصابه، ولم يمهله كوتا بل استمر في ملاحظته بالأسئلة: "هل يتذكر الشاهد الأصناف التي تناولها على الإفطار؟ هل شرب حليب الماعز مثلًا أم العصيدة، اللحم، المكسرات، ربما النيذ؟". بينما لم يستطع أوريستس التذكر، كانت ذاكرته ضبابية، فلا يمكنه الإجابة بالنفي أو بالتأكيد، كما لم يجد الكذب مرة أخرى خيارًا مناسبًا. بدا أن هذا المحامي يعرف كل شيء عنه، فاعترف: "لا أذكر".

هز قيصر رأسه رافضًا. هذه المعلومات حول ما طرأ من فقدان للذاكرة على أوريستس على مدار الأسابيع القليلة الماضية، لا يمكن أن يكون أحد العبيد هو من نقلها، كانت معلومة محددة ودقيقة للغاية... من خانة إذن؟

طرات على ذهن كوتا فكرة رائعة، فنفذهها على الفور؛ إذ سأله: "هل يتذكر الشاهد أنني طلبت منه الإشارة إلى شخص بعينه قبل قليل؟". فأجابه بثقة: "أجل" يبدو أنه لم ينس بعد. حينها لعق كوتا شفثيه قبل أن يسأل مرة أخرى: "مَن؟". فما كان من أوريستس إلا أن فغر فاه وظل ساكناً، بدا محاصراً ولم ينطق بكلمة واحدة، بينما أصر كوتا: "مَن؟". أنصت الجميع؛ لقد قدّم كوتا مرافعة مثيرة لانتباه كل من بالصحن.

"لا أذكر" أجاب أوريستس. حينها علم كوتا أنه لا يحتاج إلى المزيد، فالتفت إلى الجمهور، ثم إلى القضاة، وتحدث بقوة شخص يشعر بأنه يقدم حجة حتمية غير قابلة للنقاش: "لا يسمع، ولا يرى، ولا يتذكر حتى ما حدث قبل دقائق. قد يحاول المُتَّهَم دفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا التدهور العقلي الذي يعاني منه الرجل حديث عهد به، أو أنه طرأ عليه في الأسابيع القليلة الماضية، لكنني أعتقد أن الأمر ليس كذلك. يا قضاة روما، نحن لسنا أمام شهادة رجل عجوز مبجل، كان كاهناً لمعبد أفروديت المقدس في ئيسالونيكى، بل أمام رجل عجوز هرم، بلا سمع أو بصر أو ذاكرة. هل يمكننا تصديق ما يقوله عما يفترض أنه شاهده أو سمعه أو يعتقد أنه يتذكره مما حدث في مقدونيا قبل عدة أشهر؟ قدم لنا المُتَّهَم أولاً شهادة اشتراها بماله، ثم عرفنا على رجل عجوز مجرد من معظم الحواس الأساسية، يتلاعب به، ليكرر ما أمره بقوله، شاهد هرم خرف اشتراه بالمال، لا يذكر سوى ما كرره المحامي على سمعه ألف مرة. صحيح أن موجه الاتهام لا يزال شاباً وعديم الخبرة، لكن بصراحة، توقعنا منه أداء أفضل".

بعد جملته تلك، تجول أوريليو كوتا في الباسيليكا، مثل قنصل أثناء احتفال نصر عبر شوارع روما، ثم توجه إلى مقعده، إلى جوار هورتينسيوس، فاستقبله باحتفاء. بينما عند منصة المُتَّهَم، كان المزاج العام هو الشعور بالهزيمة المطلقة.

"إنهم لا يعرفون الكثير عن شهودنا فقط، بل يعرفون كل شيء" همس لابينوس لقيصر. لم يجب قيصر، لقد فُت في عضده. تفرّس في الوجوه

بحثًا عن هوية الخائن، رأى أخته وأمه بوجوه جادة للغاية، جلست والدته مثل تمثال مصري منحوت، صامتة وجامدة في مقعدها، بينما وجد زوجته الشابة كورنيليا تبكي، وتتحاشى النظر إليه. لماذا تتجنب كورنيليا النظر إليه؟ أخرج صديقه من تساؤلاته: "لم يتبق سوى شهادة الفتاة، ماذا سنفعل؟ هل نستدعيها؟".

سرت الهمهمات في جميع أنحاء الغرفة، عشرات المحادثات تعليقًا على ما شاهدوه للتو خلال الاستجواب الأخير. بدأ يتضح للجميع أن قيصر لم يعضد اتهاماته بأي شكل من الأشكال، بينما انسحب العجوز أورستس في حيرة من أمره، منكبًا رأسه وغارقًا في التفكير، وعاد إلى حيث كان ينتظره بيرديكاس وأيرووبوس وأرخيلاوس. لم يدرك حقًا ما حدث للتو، لكنه فطن إلى أن الأمور لا تسير لصالحهم.

علا صوت بومبيوس القوي فوق ضجيج الأصوات: "هل لدى المتهم المزيد من الشهود؟"، لكن قيصر ظل صامتًا، شعر وكأن سؤال رئيس المحكمة ذاك مثل السيف على رقبتة يحك تفاحة آدم. سأله لاينوس "هل نستدعيها؟". فغمغم قيصر أخيرًا، أفاق للتو من سكرته: "علينا أن نستدعيها، ليس ثمة خيار آخر...".

الشاهد الثالث

الفتاة ميرتل

باسيليكا سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

ترك قيصر الفتاة تحكي قصتها بنفسها، تجنب طرح أسئلة إلا في أضيق الحدود. كانت الرواية واضحة ومباشرة وفجة بما فيه الكفاية، إذ حكت الفتاة تفاصيلها بدقة، قاومت البكاء والمشاعر، وكانت شهادتها مهمة أمام مجلس يميل إلى تأييد دولابيللا. روت الفتاة كيف دخل المتهم إلى منزلها، مستغلاً فرصة غياب والدها وعدم وجود خطيبها، وأنه ضربها، وطرحها أرضاً، ثم أمر عددًا من جنوده بالإمساك بها، حتى أتم فعلته. وصفت كيف حاولت الانتحار وكيف أنقذها خطيبها في اللحظة الأخيرة، وكيف أن أملها الوحيد في الشعور بالخلاص هو أن تدين المحكمة في روما مغتصبها، وأن شرفها يتوقف على حكم تلك المحكمة. وبعدها انتهت علق باقتضاب: "حسنًا"، دون أن يشعر بالحاجة إلى إضافة المزيد. ليست تلك شهادة مدفوعة الثمن أو أقاويل رجل هرم تأكلت ذاكرته، بل فتاة شابة ومتعلقة، سردت الأحداث بأسلوب منطقي ومقنع، بدافع الشعور بالمرارة والعجز أمام وحشية الحاكم الذي استغل سلطته وقوته وارتكب جريمة مروعة دنّست شرفها.

جلس قيصر، وبجدٍ شديد، نظر إلى محامي الدفاع، منتظرًا، أن ينهض خاله مرة أخرى، لاستجواب الشاهدة. لكن هذه المرة ظل كوتا بلا حراك. وقف هورتيثيوس، ترجل بضع خطوات بتأنٍ وبرصانة شخص درس كل شيء جيدًا، وتدرّب على ما سوف يقوله أمام المحكمة. زم شفّيته وبالغ في

إيماءات التأيد، كما لو أنه، على ما يبدو، يتفق مع الشهادة فيما قالته للتو. وعندما أصبح قريباً منها قال باستخفاف: "امرأة! أولاً شهادة مهندس حصل على الثمن مسبقاً، ومن بعده رجل عجوز مختل بلا ذاكرة، ثم الآن يقدم لنا المُتهم شهادة امرأة".

تجدد جيبين قيصر؛ إن القانون الروماني يسمح للنساء بالإدلاء بالشهادة في المحكمة. لم يأت بجديد على الإطلاق، لم يتوقع أن يسلك محامي الدفاع هذا النهج. إلى أي مدى يريدان جر المحاكمة؟

متدى روما

عشية المحاكمة

"حسناً، بفضل ما كشفته لنا، أصبح لدينا ما يكفي لتفنيد أقوال شهود قيصر، لكننا نحتاج أيضاً إلى معرفة هل ستدلي الشابة التي تدّعي أنها تعرضت للاغتصاب بشهادتها أم لا؟" سأل أحد الملمثمين. في تلك اللحظة بالذات أحست السيدة بأنها آثمة؛ وبدا لها -لسبب ما- أن إعطاءهم تفاصيل تخص الفتاة الشابة ينم عن خيانة أكبر، لكنها ذكّرت نفسها بأن حياة قيصر لها الأولوية المطلقة، فأجابت بثقة: "نعم، ستدلي بشهادتها".

"عليك إذن أن تعطينا معلومة من شأنها تدمير مصداقيتها أمام المحكمة" قال الملمث الآخر.

باسيليكا سيمبرونيا، روما

محاكمة دولابيللا، الجلسة الأولى

نوع هورتينسيوس في نبرات صوته بحيث تماشى مع جوهر عباراته. دوى صوته عاليًا في جميع أنحاء قاعة الباسيليكا الشاسعة حيث تجري المحاكمة، بينما يقول: "هل علينا الآن أن نحكم وفقا لشهادة امرأة". ثم رفع صوته أكثر ولوّح بذراعيه بازدراء لم يحاول إخفاءه: "امرأة!". ولمّا أحس

بأن قيصر يعتزم التدخل لتذكيره ببنود القانون الذي يسمح للنساء بالإدلاء بشهادتهن في القضايا المختلفة تمامًا مثل الرجال، وأصل التحدث دون توقف، فقال بسرعة وبصوت مرتفع للغاية، بينما يترجل بتباهٍ في جميع أنحاء الغرفة.

"بالطبع، يمكن للمرأة أن تشهد في المحكمة، وهو شيء أعتبره غير منطقي، ولكن... مد ذراعيه، ورفع كفيه في مواجهة الجمهور: "حسنًا، في روما نقبل شهادة النساء، أجل نقبلها، لكن دعونا نستعرض بإيجاز قيمة شهادة المرأة. هل عليّ تذكير الجميع بأن المرأة الأولى، باندورا، لم تكن سوى هدية مسمومة من زيوس، كما نقرأ في أقدم كتب الشعر؟ إن مكائد النساء هي أساس كل صراع بيننا نحن البشر وبين الآلهة، وبعضها أيضًا، حتى الآلهة التي تراقبنا وتساعدنا وتعاقبنا أحيانًا، لم تسلم من مكرها. سرق بروميثيوس النار المقدسة ومنحها للرجال، لكنه حذر أسلافنا من قبول أي هدية من زيوس، فهل انصاع أسلافنا للنصيحة؟ لا، وجاء عقاب زيوس على شكل امرأة؛ باندورا، رفضها بروميثيوس، وقبلها إيميثيوس، شقيقه، واتخذها زوجة له وأنجبا، وماذا فعلت باندورا بعد ذلك؟ فتحت جرتها الشهيرة وأطلقت سراح كل الشرور التي تعذبنا حتى يومنا هذا، بما في ذلك الكذب، والذي هو أيضًا إلهة أنثى، متجسدة في أباتي، التي نسميها نحن فراوس، لأنها أم كل الغش والخداع*. وهكذا، بداية من باندورا، مرورًا بفراوس، وحتى يومنا هذا، لا تجلب المرأة سوى المصائب. وفي الحالة التي نحن بصدها الآن، تجلب الأكاذيب والافتراءات أيضًا. حتى الإلهة مينيرفا نفسها كذبت على أوليس عندما وصل أخيرًا إلى إيثاكا، وأخبرته بأن بينيلوب اتخذت زوجًا آخر غيره، ولم تتوقف قط عن الكذب والافتراء إلا بعدما كشف أوليس حقيقتها. لكن يبقى الكذب هو طبع النساء، حتى الآلهة منهن، وهذا ما يقدمه لنا المتهّم الشاب بالاحتيال. والآن، بحق الآلهة جمعاء، حتى حرب طروادة كانت بسبب امرأة! هل هذه هي أقصى قدرات موجه الاتهام؟".

* أسطورة إغريقية ذكرت في كتاب هيسود "أعمال وأيام هيسود". (المترجم)

صمت قيصر. جاءت مرافعة محامي الخصم على غير المتوقع، ولم يكن لديه رد على هذا السؤال إذ اتسق ما تعرض له من خيانة مع ما يستعرضه محامي دولابيللا عن النساء ومكائدهن وخداعهن. إدراكه بأنه تعرض للخيانة أصابه بالدوار، فضلًا عن أنه بدأ يتأكد من أن الخائن امرأة أيضًا. تيقن أنها زوجته. هل يمكن أن تخون كورنيليا؟ لقد وثق بها كثيرًا وأخبرها بكل التفاصيل السرية، سلمها بنفسه المعلومات التي يستخدمها الآن كوتا وهورتنسيوس ضده! كان يتشارك معها كل شيء، ففي التحدث إليها راحة تشرح قلبه، لقد وفي وفي بعض الوفاء مذلة. لكن لا، عقله يرفض التصديق. اختلطت الأفكار في دوامات كثيفة داخل رأسه، لهذا لم يرد على حجج محامي الخصم، بل ظل ساكنًا مثل تمثال من حجر.

شعر هورتنسيوس بتفوقه على خصمه. حينها التفت إلى ميرتل، ولم يكن قد طرح عليها أسئلة بعد، وسألها: "عندما جاء الحاكم إلى منزلك أيتها الفتاة، ماذا كنتِ ترتدين؟".

"هل تسأل عما كنت ارتديه؟" كررت ميرتل، متفاجئة من السؤال.

"هل نحن أمام شاهد آخر مصاب بالصمم أيضًا؟" علّق، ثم التفت إلى الجمهور وأضاف ساخرًا: "من الواضح أن الصمم في مقدونيا يبدأ في سن مبكرة"، ثم ضحك ملء فيه، وضحك معه العديد من الحاضرين ومعظم قضاة المحكمة. لم تجد بدءًا لإسكاتهم سوى الرد على السؤال، فصاحت كي يعلو صوتها على صوت الضحك: "كنت أرندي غلالة*!". حينها التفت هورتنسيوس إليها، وعلّق بسخرية: "ترى وتسمع وتتكلم"، ليغرق الحضور في نوبة جديدة من الضحك، لكنه فجأة تجهم وجهه ليكشف عن قسوة وغلظة لا حدود لهما: "غلالة فقط؟ هل تعد رداء مناسبًا تستقبل به الفتاة المقدونية العفيفة الأغراب عادة؟".

* رداء تراثي، غالبًا ما يغطي حتى أسفل الكاحل، ويلبس تحت التوجا أو الستولا. (المترجم)

"لا، عادة ما أرتدي فوقها ستولا، وهي تشبه البالا* التي أرى الرومانيات يرتدونها خارج المنازل."

"لكنك كنتِ ترتدين غلالة فقط عندما فتحت الباب".

"إنه الحاكم، هل كان يجب أن أرد حاكم روما في ثيسالونيكى عن منزلي؟ هل هذا ما كان يجب عليّ فعله؟" صاحت الفتاة بتحد.

ساد الصمت أنحاء الغرفة، اتسعت حدقاتهم جميعاً، فأوماً قيصر برأسه معجباً بقوة وثبات الشابة، بينما ظل هورتينسيوس ساكناً أمام الفتاة لبرهة، بعدها أجاب: "الأسئلة يا فتاة، أنا هنا مَنْ يطرحها، والشاهد عليه أن يجيب على السؤال فقط. لكن بما أنكِ تسألين، فسوف أجيئكِ، المرأة التي تعتبر نفسها عفيفة لن تفتح الباب بنفسها في تلك اللحظة؛ كانت ستأمر أحد العبيد بفعل ذلك، بينما تهرع هي إلى غرفتها لترتدي ملابس مناسبة بدلاً من أن تخرج أمام الحاكم بملابس مثيرة، هذا ما كان يجب عليكِ فعله أيتها الفتاة، لكنك لم ترغبي في المثل أمام الوالي بعفة، بل تصرفتِ مثل العاهرات، كما أخضعتِ نفسك له لأنكِ أردتِ تشويه سمعته أمام الجميع".

"إن كنت قد سلمت نفسي للحاكم برغبتى كما تقول، فقد يعني هذا أنه نسي دفع الثمن" أجابت ميرتل مرة أخرى بجرأة غير متوقعة.

نكس قيصر رأسه. في الواقع أدهشته الفتاة بقدر جرأتها، لكن عقله انشغل بأمر آخر، همس للابينوس: "إنهم يعرفون كل شيء".

"كل شيء؟"

"حقيقة أنها استقبلته بملابس خفيفة... لم أكشفها إلا لشخص واحد فقط" همس قيصر بمرارة. هرس الحزن قلبه، فازدرد لابينوس لعابه بصعوبة ولم يعلق.

واصل هورتينسيوس الاستجواب، بقسوة وغضب؛ أراد القضاء على أي أثر للتحدي في وجه هذه الفتاة الشابة التي تجرأت على مواجهته في

* يشبه المعطف الفضفاض. (المترجم)

محكمة تقام على أرضه: "وهل كان ثمة رجل في المنزل عندما استقبلتِ الوالي؟".

"لا، لكنني لم أستطع رد الحاكم...". فقاطعتها، ولم يسمح لها بإكمال جملتها، بل غمرها بسيل من الاتهامات: "استقبلته وأنتِ نصف عارية، وبمفردك، في منزلك في ظل عدم وجود الوالد أو الأخ أو أي رجل آخر من أقاربك. لقد أردتِ هذا الموقف وقمتِ بالترتيب له عن قصد". ثم التفت إلى الجمهور، وواصل تسويغ الجرم الفظيع: "لقد خدعته، فنتته، أرادت تشويه سمعة الحاكم، كما توقعْتُ من قبل، لأن كل هذا مجرد عملية احتيال يقوم بها الأجانب لتشويه سمعة حكومتنا في مقدونيا. تلك المحاكمة مجرد محاولة للتمرد، إنهم يتظاهرون باحترام قوانيننا لكنهم على قدر من الدهاء. إنهم يحاولون فقط تفويض سلطتنا، وهم أشد خطرًا من مسلحين في ساحة المعركة، لأنهم لو واجهونا عسكريًا فسوف تفتك بهم جحافلنا بسهولة، لذا أرادوا تدميرنا هنا في قلب روما، تدمير الحكومة من الداخل، ويحظون بدعم لا يقدر بثمن من الأعداء الحقيقيين لمجلس الشيوخ". وهنا التفت إلى قيصر وتابع: "لا أعرف تحديدًا، هل هذا بدافع الانحراف الفكري، أم سذاجة من يقدم الدعم والحماية والصوت لهؤلاء الكذبة، ولتلك الكاذبة، هنا في قلب روما، في باسيليكاسيمبرونيا، في متدى مدينتنا."

حاولت ميرتل تكرار نفس الجملة التي بدت لها مفتاحًا لتبرئتها، لكن هورتنسيوس رفع كلتا يديه باسطاً راحتيه لإسكاتها فارتبكت الفتاة. لم تدر كيف تثبت عفتها وتدافع عن موقفها، فتت في عضدها، فصمتت مجبرة، بينما واصل هو: "لا يكفي يا فتاة أن تكون المرأة شريفة فحسب، بل يجب أن تتعفف أيضًا". فأشارت بسبابتها إلى دولابيليا بأس وغضب أهوج وهي تردد: "هذا الرجل اغتصبني! هتك عرضي عنوة، دنس شرفي ودمر حياتي..."، وذرفت دمعاً كثيفاً استماتت في كبتة منذ بدء الاستجواب. فاقترب منها هورتنسيوس، لم يلن قلبه لدموعها، بل همس لها بينما يتناثر اللعاب من فمه على وجهها: "كل ما تقولينه محض افتراء! خدعة تحوكها عاهرة، وتحاول

الآن بالدموع التلاعب بنا!". ثم انحنى أمامها ليتحدث بالقرب من أذنيها، وكأنه يخبرها بسر، ولكن بصوت عال بحيث سمعه الجميع: "الدموع لن تفيدك". بعد ذلك نهض مرة أخرى والتفت إلى المحكمة وقال: "شاهد مشترى، وآخر مجنون فاقد للذاكرة، وأخيرًا عاهرة، هذا كل ما في الأمر".

ذرفت ميرتل دمعاً ثميناً وسط نظرات القضاة القاسية.

حينها، تأمل بومبيوس ضوء الشمس، وجد أن الوقت قد تأخر، سيكون من الأفضل استكمال المرافعات في يوم آخر، بينما ظل قيصر يحدق إلى كورنيليا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

خيانة الأقرب إلى القلب

روما عام ٧٧ قبل الميلاد

حث قيصر الخطي عبر شوارع المدينة، في طريق العودة من المنتدى، من الباسيليك، يمشي مشية الحائر، من لم يجد من يدلّه على الحقيقة، حتى وصل إلى منزله في حي سوبورا دون أن يشعر. مشي كتمثال لايرمش له جفن يندفع الشرر من عينيه، يزم شفّته ويصك فكيه كحجري رحي بكل قوة الغضب الذي تراكم بداخله، لقد فُتّ في عضده حقاً. لحق صديقه لاينوس به بشق الأنفس، دون أن يتبادلا كلمة واحدة طوال الطريق. لم يكن لاينوس قد رأى قيصر بمثل هذا الغضب من قبل. وصلا إلى منزل عائلة جوليا، فاندفع رب الأسرة الشاب إلى الفناء مثل أسد بري ينقض على فريسة، ولن يلفتها منه أحد، ليس على الأقل في تلك الليلة.

"أين هي؟" سأل العبيد، بمجرد دخوله. فنظروا إليه بارتباك، حتى لاينوس لم يفهم تمامًا مقصده.

"أين هي؟" ألح قيصر.

حينها فقط أدرك لاينوس مغزى نظرات قيصر للجمهور خلال جلسة المحاكمة؛ اعتقد صديقه أن إحدى نساء أسرته تواصلت مع محامي دفاع دولابيل، وزودتهم بالمعلومات اللازمة لدحض أقوال الشهود. وبيقين شبه كامل، شعر لاينوس بأن صديقه يشك في ولاء زوجته.

"بحق الآلهة جمعاء! أين ذهبت كورنيليا؟" صرخ قيصر بنفاد صبر، فلم يعرف العبيد بماذا يجيبونه.

"ماذا ستفعل؟" سأل لاينوس خوفاً من الأسوأ. لم يصدق أن كورنيليا يمكن أن تخون قيصر، وكذلك شق عليه التفكير في أن عقل صديقه استسلم لتلك الخاطرة. بينما جن جنون قيصر، وأخذ يدخل إلى غرف المنزل ويخرج منها بعد برهة، فتش غرفته هو وكورنيليا، ثم غرفة والدته، دون أن يجد أحداً.

"كورنيليا!" صاح وردد: "وحدها تعرف كل شيء، لقد سلمتها بنفسى المفتاح، حدثتها عن الشهود، وهي... هي... هي...!"، توقف ولم يجرؤ على النطق بما يحدثه به عقله، بينما وقف لاينوس صامتاً، يحاول استيعاب ما يسمعه.

التفت قيصر إلى العبيد، فأسرع أحدهم بالرد: "لم تعدن بعد من المتدى، وقلن قبل خروجهن إنهن سوف يزنن منزل عائلة كينا في طريق العودة، للاطمئنان على والدة السيدة كورنيليا، يبدو أنها مريضة...". فأجابه قيصر بغضب: "أرسل لهم أحد العبيد، أحضر كورنيليا فوراً!" لكنه سيطر على نفسه ولم يوجه ضربة إلى العبد المسكين المنحني أمامه.

بعد برهة دخلت كورنيليا إلى الردهة. سمعت صراخه فسألت بنبرة لطيفة بريئة كما العادة: "ما الأمر؟ لماذا كل هذا الصراخ؟". هداً قيصر قليلاً وحاول تمالك نفسه، بينما تتقدم نحوه بثقة وهي تقول: "فضّلت والدتك البقاء لبعض الوقت مع أمي في منزلنا... أعني... في منزل والدي. في الحقيقة أمي ليست على ما يرام، لكنني أردت العودة بأقصى سرعة ممكنة لأنني انشغلت عليك كثيراً بعد ما حدث أثناء الجلسة، ورغبت أن أبقى معك، وجاءت أختك معي".

دخلت أختا قيصر إلى الردهة. شعرتا بالذعر لمحياه، لكنهما أرجعا الأمر إلى ما حدث في الجلسة، كما أن كورنيليا، التي تكّن لزوجها كل الحب والتفاني والولاء، لم تفتن إلى أنه غاضب منها هي بالذات، فلم يطرأ قط في ذهنها أنه قد يظن بها ظن السوء، أو يرغب في إلحاق أقل ضرر بها. صحيح أنها رآته غاضباً، في الواقع، بلغ غضبه عنان السماء، كان ذلك جلياً،

لكنها أرجعته إلى عدم التوفيق الذي منى به في جلسة اليوم، لقد أطاح كوتا وهورتنسيوس بأقوال شهوده بكل قسوة.

كان يومًا شاقًا بالنسبة له دون أدنى شك.

"ماذا يحدث يا غايوس؟" سألته ببراعة، لكنها بدأت تدرك أنه يكتّم أمرًا جليلاً بداخله.

"هل تسألين عما يحدث؟ تريدین معرفة ما جرى؟" كرر وهو يتمشى عبر الردهة بلا هدف، ملوحًا بذراعيه، حتى توقف وحدق بها: "ألم تري؟".

"ما علاقة ذلك بي؟" سألته، بدت في تلك اللحظة جادة، ومتوترة.

"خلال الجلسة حطم المحاميان مصداقية كل الشهود الذين جلبتهم، لأنهما يعرفان كل شيء، كل التفاصيل" أصر، بينما استندت كورنيليا بثقلها على حافة أحد المقاعد، وارتمت عليه، فواصل: "علما بكل شيء يا كورنيليا، اكتشفت متأخرًا أنهما يعرفان التفاصيل التي أخبرتك أنتِ فقط بها."

ساد صمت كثيف وقاس. خشي لاينوس مما قد يقبل عليه صديقه، بينما كان كل ما تخشاه كورنيليا أن يظن بها قيصر ظن السوء. سألت الشابة بأعين كاسفة، يفيض الدمع منها، رغم أنها تماكنت نفسها: "لهذا تعتقد بأنني خنت ثقتك، وكشفت لهما أسرارك؟".

بدا هو جادًا للغاية. اقترب منها والشرر يتطاير من عينيه، فتدخل لاينوس مسرعًا: "أنت عصبي الآن، ولا تدرك عواقب ما تفعله أو ما تقوله".

"ابتعد، هذا أمر شخصي بيني وبين زوجتي" باغته قيصر.

حدق لاينوس إليه لبعض الوقت، تفهّم موقفه. وعلي عكس إرادته، تنحى جانبًا بتمهل، ووقف على مقربة منهما، وبقي مستعدًا للتدخل إذا ما اقتضت الحاجة.

جلس قيصر القرفصاء أمام كورنيليا، ليتحدث معها من نفس المستوى، وكانت هي لا تزال جالسة. بدا هادئًا وباردًا لدرجة أدهشت الجميع، رغم

الغضب الظاهر على محياه، فقال لها بنبرة حازمة: "لا، لم أقصد أنك ذهبت بإرادتك إليهما. لا، لا أعتقد أنك قمتِ بخيانتِي بكامل وعيكِ".

هزّت رأسها بالنفي وهي تنشج وسط توتر شديد. الآن أدركت سبب غضبه: "لا تعتقد أنني خنتك عن قصد، لكنك تقصد أنني أفشيت أسرارك دون أن أعي ذلك، وبذلك سهّلت، بشكل أو بآخر، وصولها إليهما، وأن فعلتي هذه هي أصل الكارثة، وكل ما حدث اليوم نتج عنها، هل ما فهمته صحيح".

"بلى" أجاب قيصر وهو يلهث.

أومأت برأسها مرة أخرى، وانسالت الدموع بصمت على خديها بمرارة، مؤكدة: "لكنني لم أتحدث إلى أي شخص قط بأي مما قلته لي عن الشهود". بدأت تسترجع جميع المحادثات التي أجرتها خلال الأيام القليلة الماضية، تذكر كل كلمة نطقت بها ولمن قالتها.

"تذكري جيّدًا يا كورنيليا" أمر قيصر، لكن حدة غضبه بدأت تخف، مُزج بشفقة، بل بحب، واختلطت خيبة الأمل بالعاطفة.

كانت خائفة، تذرف الدمع، وبدا على وجهها شعورًا بالذنب تجاهه. واصلت التفكير تجتر من الذاكرة كلمة أو لفظ قالته دون وعي خلال الأيام القليلة التي سبقت انعقاد الجلسة، حتى خطر في ذهنها خاطرة: "لا، لم أتحدث عن الشهود مع أحد قط، إلا إذا..." لكنها لم تكمل الجملة، كانت أعظم مما يمكن قوله.

"ماذا تقصدين؟" ضغط قيصر على ذراعيها، ليس لتهديدها، بل لحثها على إمعان التفكير، فالأمر ليس هينًا.

لم تكن مسألة فقدان للذاكرة أو عدم وعي. فطنت الفتاة إلى كل شيء منذ البداية، لكن ما اكتشفته كان مهولًا لدرجة أنها لن تقبل على إخباره به أبدًا. حاولت ثنيه عن الوصول إلى الحقيقة بطرح سيناريوهات أخرى مغايرة تمامًا، فقالت: "ربما سمعنا أحد العبيد بينما كنا نتحدث..." أرادت كسب

بعض الوقت. كانت في حاجة إلى إمعان التفكير في مدى صحة ما أدركته للتو: "ربما أنصت أحد العبيد إلينا، مثلما اعتدنا نحن على ذلك من قبل، ألا تذكر؟".

"تقصدين عندما وقفنا معًا، وعلمنا بخبر الاتفاق على زواجنا" سألهما
قيصر للتأكد من أنه يفهم جيدًا ما ترمي إليه.
"شيء من هذا القبيل".

ودون أن يتركها، حتى دون أن يقف على قدميه، قلب قيصر النظر فيمن حوله حيث العبيد في الردهة، ثم التفت إليها وسألها: "هل تعتقدين أن أحدهم تجسس علينا؟ هل ترين يا كورنيليا أنه يجب أن أستجوبهم واحدًا تلو الآخر حتى أصل إلى الخائن من بينهم؟"، ثم نهض بثقل من أثر الصدمة. أخذ يتأمل العبيد، أدهشته فكرة أن تأتيه الخيانة من أحدهم. لقد اعتاد والداه الإحسان إليهم، ولم يُعاقب أي منهم قط ظلمًا في منزل جوليا. كما أنه بعد وفاة والده أعتق عدد منهم ممن كبروا في السن، امتثالاً لرغبته. على مدار سنوات عرف الجميع أن عبيد عشيرة جوليا يتلقون معاملة أفضل بكثير مما يتلقاها أي عبد في أي منزل آخر. لطالما أظهروا كرمًا معهم، كما يكافئونهم بالمال الذي يدخره بعضهم حتى يتمكنوا فيما بعد من شراء حريتهم. لا يمكن أن تأتي الخيانة من بينهم، لكن عليه استجوابهم، إذا ما اتفقت معه زوجته فسوف...

لكن كورنيليا أخذت تهز رأسها نافية. لم تُرد ظلمًا للعبيد، فتمتت: "لا، لا أظن أن أحدهم فعلها... أنا على يقين من أنهم مخلصون لك". حينها تنفس العبيد الصعداء، لم يدركوا أنهم حبسوا أنفاسهم على مدار اللحظات الأخيرة. لمس دفاع السيدة الشابة عنهم قلوبهم، إذ أدركوا أنه من السهل عليها أن تشير إليهم بأصابع الاتهام وتتهمهم بالخيانة وينتهي الأمر.

عاد قيصر إلى زوجته مرة أخرى، وقال لها: "أنت تخفين عني شيئًا، وتعرفين هوية الخائن. لقد تحدثت مع شخص ما، مع مَنْ؟ وأين؟ في

المتدى أم في السوق؟ ربما أخبرتِ والدتكِ خلال إحدى زيارتكِ لها؟ أم تحدثتِ مع أحد السناتورات في البازيليكا أو أحد قدامى المحاربين الذين حاربوا مع عمي ماريوس؟ إلى مَنْ تحدثتِ يا كورنيليا؟ إذا لم يكن العبيد، فقد تحدثتِ إلى شخص ما عما يخص الشهود. لماذا تصمتين هكذا؟ هل أنتِ حريصة على حماية الخائن إلى هذا الحد؟".

ضغط على ذراعيها مرة أخرى، ضغط بشدة عليهما دون أن يسبب لها أذى، فقط أراد إظهار غضبه الجرم أمام إصرارها على الصمت. فأدركت هي أنه لن يكف عن طرح السؤال تلو الآخر حتى يحصل منها على إجابة، لكن الإجابة التي تراها صحيحة تمامًا، كانت فظيعة للغاية؛ لذا التزمت الصمت وأصرت عليه. بكت دون توقف بينما لا يزال قيصر أمامها يسأل ويسأل: "مع مَنْ يا كورنيليا؟" بحق الآلهة جمعاء! لن ألومك، لكن أخبريني مع مَنْ تحدثتِ؟ أخبرتِ مَنْ بتفاصيل شهودي؟ مَنْ؟".

"معني" قالت والدته، وكانت قد دخلت للتو إلى الردهة. فاستدار قيصر ينظر إليها. كانت تقف عند عتبة الباب بوجه جامد. أرخى ذراعيه عن زوجته، فنهض وتطلع إلى أوريليا. دون أن يقول أي شيء، ظل يحدق بين حيرة وذهول.

سلمت أوريليا شالها إلى إحدى الخادومات، التي استبشرت بعودتها وأملت أن تضع حدًا لما يتعلق بهوية الخائن.

"أخبرتني كورنيليا بخصوص ملابس ميرتل" أوضحت أوريليا، كانت دائمًا هادئة ورزينة: "لاحظتُ قلقك فسألتها عن السبب، وهي أخبرتني بالشكوك التي كانت لديك حول ما إذا كان يجب أن تدلي ميرتل بشهادتها أم لا، خوفًا من أن يكتشفوا أنها استقبلت دولابيلًا بمفردها وبملابس غير لائقة. وكذلك أخبرتني عن تدهور حالة أوريستس، وفقدانه للذاكرة، وعرفت الباقي خلال زيارته المتكررة لمنزلنا. كما كنتُ أعلم بتفاصيل رحلتك أنت ولاينوس والمهندس ماركوس إلى مقدونيا. كانت لدي كل المعلومات وقمت بنقلها إلى محامي دولابيل، إلى أخي، خالك، أجل".

ثم التفتت إلى أحد العبيد وطلبت أن يأتيها بكأس من الماء... بينما كانت تنتظره، واصلت تفسير الأمر لابنها: "أرى أنه من غير المعقول أن تصدق أن كورنيليا قد تخبر أحدًا ليس جديرًا بثقتك بأسرارك، تلك الفتاة تبجل الأرض التي تطؤها قدمك يا غايوس. بحق الآلهة جمعاء، كورنيليا ذكية ومخلصة لك بشكل لا يصدق! كيف يمكن أن تخبر أي شخص آخر غيري بنقاط ضعف شهودك؟".

تهاوى قيصر على أحد المقاعد. وفي تلك اللحظة سمع صوت فتاة تقتحم الردهة وهي تصيح: "أمي أمي!", فهرعت جوليا الصغيرة، إلى والدتها وعانقتها، ولحقت بها الجارية وهي تقول: "لقد أخافها الصراخ يا سيدتي، فهربت مني". ودون أن تعلق كورنيليا، عانقت ابنتها في صمت.

"قومي يا عزيزتي، واذهبي إلى غرفتك مع الصبية وانتظري زوجك" أمرت أوريليا زوجة ابنها، فأذعنت السيدة الشابة لأمرها دون كلمة واحدة. كانت مدهوشة مثل الجميع مما يجري، فانسحبت من الردهة مع الفتاة. ثم التفتت أوريليا إلى العبيد وإلى لاينوس وقالت: "اذهبوا جميعًا إلى حجراتكم لاستكمال مهامكم، وأنت يا لاينوس أيضًا، عد إلى منزلك، أمامكما يوم آخر غدًا، لتكون خير عون لابني، كعهدنا بك"، ثم تنهدت قبل أن تضيف: "في هذه المحاكمة الأبدية اللعينة".

أطاعوا جميعًا. كانت أوريليا تتحدث دائمًا وسط هالة من السلطة تجعل أوامرها لا تقبل الجدل. لم تكن تصدر الأوامر، في العادة، بحضور ابنها، لكنها إذا ما أصدرت أمرًا ولم يعترض قيصر تصبح طاعتها واجبة.

التزم قيصر الصمت في ذهول، حتى انسحب الجميع وأصبحا بمفردهما، هي واقفة، وهو جالس، في صمت. ظلا هكذا لبعض الوقت، مرت اللحظات بطيئة وثقيلة، لم يُسمع فيه سوى طقطقة المشاعل، حتى قالت أوريليا أخيرًا: "إن أردت، يمكنك معاقبتي".

"وكيف أفعل شيء مثل هذا يا أمي؟".

تنهدت وجلست إلى جواره.

تبدو الكتابة على محياهما. جلسا متجاورين، يتقاسمان خيبة الأمل والهزيمة.

"لماذا فعلت ذلك يا أمي؟"

نهضت أوريليا مرة أخرى. استدارت، تحاشت النظر إلى عينيه بينما تتحدث، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لها. ظلت تتجول في الردهة بينما تفسر ما فعلته، ربما كانت حتى تلك اللحظة تحاول كشف جوانب في نفسها لم تلاحظها من قبل: "أردت إنقاذك. إن ربحت في هذه المحاكمة، سيتعقبونك. قد يرون فيك قائدًا جديدًا للفصيل الشعبي، ربما ماريوس جديدًا. ظننت في بداية المحاكمة أنه إذا خسرت تنهي بيدك مسيرتك السياسية، ومنذ قررت الترافع في هذه القضية امتلأت بالأسى. عندما حان موعد الجلسة التمهيدية رأيت أن أداءك سيء للغاية، لكنني أدركت أنك في ذلك اليوم تظاهرت بالحماسة كي يقع اختيارهم عليك أنت وليس على شيشرون، وقد نجحت خطتك، وعينتك المحكمة. إلا أنني بعد ذلك، في جلسة رد القضاة، فطنت من خطابك أمام ميتيلوس إلى أنك بإمكانك إحراز الفوز، أو على الأقل إزعاج المحكمة رغم أنها مُشكَّلة من الأوبيتيميس الموالين لدولايبلا. إنه هدف صعب للغاية، ومستبعد حدوثه، لكنني لم أعد أراه مستحيلًا؛ خاصة بعدما تمكنت من التوصل إلى شهود واعتزمت كشف بعض نقاط الضعف في مرافعات محامي دفاع دولايبلا. لذا، وكى أحول بينك وبين هدفك المهلك، التقيت بأخي سرًا وأعطيته معلومات تكفي لدحر أقوال شهودك، وهذا ما حدث. الآن أعلم أنك لن تفوز، كما أعرف تمام المعرفة أنني أخطأت، لاحظت كيف نظر إليك دولايبلا أثناء المحاكمة اليوم، إنها نفس النظرة التي انبثقت من عينيه في الجلسة التمهيدية. لقد حكم عليك يا بني، منذ ذلك الحين، بالإعدام ويتظر فقط نهاية هذه المحاكمة الدموية والمروعة التي تدفعنا جميعًا إلى الجنون، والتي دفعتني إلى خيانتك، وتقودك إلى الهلاك، وتضعك في مواجهة مع كورنيليا الأكثر ولاء لك في هذا العالم، وكل هذا

من أجل ماذا؟ من أجل لا شيء. أردت إنقاذك فوقعت في براثن الخيانة، لكنني أتيت متأخرة للغاية أيضًا. رغم ما فعلته، لم يتغير من الوضع شيء، وسوف يتعقبك دولابيل. كل ما جنيته بخيانتني أنني سببت جرحًا لن يلتئم أبدًا، لك أنت ولكورنيليا، وللجميع. لقد أخطأت حقًا. ثم تهاوت على أحد المقاعد، أرادت المزيد من المياه، شعرت بحفاف في الحلق لكنها لم ترد استدعاء العبيد.

"لقد أخطأت بخيانتني يا أمي؛ أنا أيضًا أخطأت في حق كورنيليا. لم يكن أيُّ منا على صواب".

"لا، لا أحد منا" اعترفت.

نهض قيصر من على مقعده، وجلس على مقعد آخر، أكثر قربًا من والدته، وغطى وجهه بيديه. تألمت لحاله، وسألته: "ماذا ستفعل يا بني؟".

"أرغب في بعض الراحة كي أعيد النظر في كل ما حدث. أنت محقة، هذه المحاكمة تدفعنا جميعًا إلى الجنون، وتحرضنا بعضنا على بعض؛ أنا ضد خالي كوتا، أنت ضدي، ثم أتيت على كورنيليا. لا بد لي من الهدوء والتفكير بوضوح". ثم نظر إلى عينيها وأضاف: "أرى أنني لست مضطرًا إلى انتظار خيانة أخرى، أليس كذلك يا أمي؟".

"بلى، إذا توصلت إلى أي مسلك للفوز في هذه المحاكمة، فلن أكون أنا الشخص الذي يكشف أسرارك مرة أخرى".

"حسنًا، سوف أذهب... كي أطلب العفو من كورنيليا". ثم نهض، ودنا من أوريليا وانحنى لتقبيلها على جبهتها، وهمس لها: "عمت مساء يا أمي، أشكرك على محاولة إنقاذي، اطمئني سوف أنجو، وسترين بنفسك، لقد قمت بتربيتي كي أصبح منتصرًا"، ثم سار مبتعدًا. وعندما أوشك على مغادرة الفناء التفت إليها وقال: "حكّم عليّ بالإعدام من قبل يا أمي، هل تذكرين؟".

"أذكر، بأمر من سولا" أجابته.

"بأمر من سولا" كرر.

غادر قيصر الردهة وذهب إلى غرفة النوم. وجد كورنيليا تنتظره منزوية على السرير، ولا تزال متوترة بسبب كل ما حدث، ذهبت ابنتهما مع الخادمة التي تعني بها، وبقيتا بمفردهما. فجلس إلى جوارها دون أن يجروا على لمسها، وقال: "أنا آسف، ليس ثمة ما يمكنني فعله أو قوله لمحو خطي في حقلك اليوم". أنصتت إليه بينما جلست مُحْتَبِيَّةً تعانق ساقها، وتدفن ذقنها بين ركبتيها. كانت غاضبة لا شك، إلا أنها محبة. بعد صمت قالت بصوت أشبه بالهمس، بنبرة مليئة بالامتنان والعرفان: "ذات يوم ليس ببعيد خاطرت بحياتك من أجلي".

"نعم، وقفت في وجه سولا".

كل الشرور مصدرها سولا.

"هل ما زلت تحبني بنفس القدر؟" سألته. كان هذا السؤال غير لائق بالنسبة إلى سيدة رومانية، لم يجدر بها ولا ينبغي عليها أن تتحدث عن الحب، لكن زواجهما برمه كان أمرًا استثنائيًا، على الأقل من حيث المشاعر. لقد شعر الاثنان بعاطفة متبادلة، شغف لا يمكن كبته تجاه الآخر. كان معتادًا في روما أن تتزوج مراهقة، أو فتاة بلغت للتو، من رجل يبلغ من العمر ٣٠ أو ٤٠ عامًا، بينما هي تزوجت بشاب، كان لا يزال في سن المراهقة تقريبًا، ووقعا معًا في الحب.

"نعم، أحبك بنفس القدر. لا أعرف ماذا جرى، والدتي على حق، لا أعرف كيف شككت بك. أعرف حقًا أنك ذكية للغاية إلى درجة تمنعك من التحدث بأي شيء أخبرك به خارج إطار العائلة، وبالطبع لم تتخيلي للحظة أن والدتي قادرة على فعل ما فعلته، وأنت لست مسؤولة عن أي مما حدث".

"حسنًا، رغم أنني أفهم أنها فعلت ذلك لحمايتك، إلا أنه فاق حدود ما يمكن توقعه" قالت بنبرة حكيمة.

"نعم، ولكن مع ذلك، لم يجدر بي أن أشك فيك على الإطلاق" قال، ثم صمت وضغط بيديه على جانبي رأسه، فمدت يدها وسحبت يديه الكبيرتين

الباردتين، ووضعت يديها الصغيرتين الدافئتين على جانبي رأس زوجها، وسألته بهدوء: "هل يؤلمك مرة أخرى؟".

"نعم، من حين لآخر يعاودني الألم، لكن يداك دائماً تهدئاني" أجابها. ظلا على هذا الحال لبعض الوقت، يجلس هو على حافة السرير، وتستند هي على ركبتيها من خلفه تدلك صدغيه، وتطمئنه، حتى هدأ، وخف الألم. تعاوده تلك الآلام من حين إلى آخر، إلا أنه لم يذهب إلى الطبيب بعد.

"هذه المحاكمة تدفعني إلى الجنون" قال قيصر.

"لا، لا يا حبيبي، لقد جننت في اليوم الذي واجهت فيه سولا من أجلي، لكنني أحبك هكذا؛ وأنت مجنون، مجنون يعتقد أنه يستطيع صدّ أي شيء وأي شخص، مجنون يعتقد أنه يجب محاربة مجرم بائس مثل دولابيل، وأعشق جنونك" قالت بينما تدلك رأسه.

تنهد قيصر...

واصلت تدليك صدغيه بينما تهمس في أذنيه: "عمرك الآن ٢٣ عامًا، لكن بالنظر إلى كل ما لاقيته وواجهته تبدو وكأنك قد عشت مائة عام يا حبيبي، مائة عام".

"لا أعرف... ربما...".

أغلق قيصر عينيه، لقد خسر القضية. كان مجنونًا عندما وافق على عرض المقدونيين، أو ربما، كما قالت كورنيليا، جن جنونه منذ واجه سولا، كثيرة هي الأمور التي واجهها في حياته. أحس بلمسات أصابعها الرقيقة تدلك صدغيه، لا تزال ثقته بها راسخة مثلما كانت دائماً، إنها ملاذه. أبقى عينيه مغمضتين، نعم... كل الشرور مصدرها سولا، معلم دولابيل... سولا... لوسيوس كورنيليوس سولا...

شخصيات من عبق الذاكرة

٤ . سولا

العدو اللدود لماريوس وقيصر
القنصل مرتين، دكتاتور روما

مؤتمن على الآلهة

روما، أواخر عام ٨٢ قبل الميلاد

خمس سنوات قبل محاكمة دولابيللا

مرت بضعة أيام قبل أن تتعافى كورنيليا من متاعب الوضع، لقد كانت الولادة في سن مبكرة مؤلمة وشاقة بالنسبة لها، لكنها نجت. باتت منهكة للغاية ومرهقة، وأضيف إلى آلامها قتامة الأحداث التي تجري في روما.

كان قيصر إلى جانبها دائماً يراجع النظر قبل إخبارها بالمستجدات. لم يكن انتصار سولا في معركة بوابة كولين هو كل ما حدث في تلك الأيام الرهيبة، بل؛ دُمّر الفصيل الشعبي وهُزم حلفاؤه من سكان المناطق المتحالفة، كما لم تصمد مدينة بالسترينا، التي لجأ إليها ابن غايوس ماريوس وتحصن بها، أمام حصار قوات الأوبتيميتس وسقطت بسهولة. وصلت أخبار مشوهة إلى روما حول ما آل إليه مصيره؛ ولم يتضح ما إذا كان ماريوس جونيور في النهاية انتحر أم أعدم.

"على أي حال، لقد مات" أكد قيصر بنبرة تغلفها الكآبة، وقرر أن يجنب زوجته الواهنة آخر الأخبار التي تجوب روما؛ فقد أمر سولا بإرسال رأس ماريوس الابن كي تُخوزق على وتد وتعرض في الممتدى، كما فعل في الماضي غير البعيد مع روفوس، منبر العوام، عندما أغار على روما للمرة الأولى. كما قرر تسمية نفسه باسم "سولا فيليكس" أي سولا السعيد، في لفته أوضحت أنه لن يقبل المصالحة، إنه سولا السعيد بالنصر المطلق، السعيد بالخسارة الكاملة للفصيل الشعبي، السعيد لأن روما أصبحت الآن مُلكاً له.

ورغم حرص قيصر إلا أن كورنيليا علمت بالأنباء الموجهة فنهضت
بتثاقل وبدأت، برفقة قيصر، تتجول في جوانب الغرفة. أدركها من الهول
والرعب ما لم تعد قادرة على كتفه، فقالت له: "ذهب ماريوس، وسقط ابنه
ميتاً، ورحل والدك ثم والدي، وهرب سرتوريوس، أملنا الأخير، والذراع
اليمنى لماريوس، إلى هسبانيا، إنه يصارع هناك من أجل البقاء. أصبح سولا
يهيمن على المدينة ويتحكم في كل شيء، امتلك السلطة المطلقة، بينما
نحن، محاصرون هنا، في روما، يا غايوس، في مُلك سولا، سوف يحين
دورنا قريباً، سوف يفتك بنا. أنت ابن صهر غايوس ماريوس وأنا ابنة كينا،
فوق كل ذلك أنت زوجي، سوف يقتلنا جميعاً، حتى جوليا الرضيعة لن
تأخذها بها رحمة".

لم يعرف قيصر بماذا يجيبها، إن التلميح إلى الموت المحتمل لابنتهما
المولودة حديثاً أصابه بالقشعريرة وسُلت أفكاره. دخلت أوريليا إلى الغرفة
وسمعت رثاء زوجة ابنها، ظلت كورنيليا تكررهِ مرة تلو الأخرى، فاقتربت
منها وعانقتها محاولة طمأنتها وقالت: "سوف يشتد بأسنا، لا جدال في ذلك،
لكن يجب أن نتمسك بالهدوء والوحدة، غايوس حيٌّ وقويٌّ، ولا يزال شاباً،
سنجد معاً طريقة للنجاة من بين كل هذا الجنون".

بدأت تلك الكلمات فعالة لتهدئة نفس كورنيليا، فصمتت وانتقلت من
حضن أوريليا وارتمت بين ذراعي زوجها. وفجأة، كما لو أنها استشرفت
المستقبل قالت: "سوف تكون أنت من يحميننا، لا أعرف كيف ستفعل ذلك،
لكنك ستفعل، أنت من نسل إينياس، ولن تقف الآلهة على الحياد، سوف
تساعدك". فعانقتها وأغلق عينيه، لقد شعر بثقل المهمة، حماية زوجته،
ووالدته، وابنته، وأختيه، إنه رب الأسرة، لا يهم أنه لا يزال ابن ١٨ عامًا،
وأن سولا كان سيناتوراً قوياً يتمتع بسلطات غير عادية، ومواجهته بمفرده
عنت الانتحار بعينه. لكن... وماذا عن دعم الآلهة؟ لقد تحدثت كورنيليا عن
دعم الآلهة... أصبحت روما كلها الآن في يد لوسيوس كورنيليوس سولا،
العدو اللدود لعائلة جوليا وكل من يمثلها، من الذي يمكن أن يعارضه في

ظل سلطته المطلقة؟ الآلهة؟ كان قيصر رجلاً متديناً، مثله مثل أي شخص في روما، لكن لديه شكوك في أن بعض القرابين ستكون كافية لحل مشاكله، وتمكينه من إخماد قوة سولا بشكل أساسي، ومنحه القوة اللازمة لمواجهة، ومع ذلك...

ظل قيصر يفكر ملياً: لقد خسر الجيش المُرسَل لمحاربة ميثراداتس؛ وكذلك مني الجيش الذي أرسله كينا بالخسارة؛ بفعل أموال سولا، بينما هُزم السامنيون في معركة بوابة كولين، وأبديت قوات ماريوس جونيور في بالسترينا. لكن لا يزال جيش الآلهة موجوداً، القوة الإلهية على الأرض، أعطته كورنيليا المفتاح، كما أن روح ماريوس تحميهم أينما حلت. علق وهو يضغط على أسنانه: "كم كان حاذقاً". فسألته أمه وزوجته في صوت واحد: "مَنْ هو؟". حينها نظر إليهما والبريق في عينيه وقال: "ماريوس".

"ماريوس؟" سألته كورنيليا.

"لا، نحن لسنا وحدنا، أنت محقة يا كورنيليا؛ سوف تعيننا الآلهة، جوبيتر سوف يحمينا".

دكتاتورية سولا

مبنى مجلس الشيوخ، روما، عام ٨٢ قبل الميلاد

"وإلى متى تستمر تلك الديكتاتورية؟" تجرأ دولابيللا، السناتور الوحيد القادر على التعامل المباشر مع سولا، على طرح السؤال، وكانوا في وسط غرفة الاجتماعات الكبيرة في كوريا هوستيليا. لكن سولا، لم يأخذ السؤال على نحو سيء، في الواقع، كانا قد اتفقا مسبقاً على أن يسأله هذا السؤال بعدما ينهي خطابه أمام قادة الرعية، لتتاح له الفرصة كي يعلن بوضوح أنه جاء إلى روما للبقاء في السلطة لمدة غير نهائية وأنه لن يتزحزح عنها مهما حدث.

"إلى متى ستستمر هذه الديكتاتورية؟" كرر سولا السؤال بأسلوب بلاغي ومصطنع وسط القاعة، وسمح لنفسه بابتسامة عريضة قبل أن يجيب: "سوف تستمر حسب ما تقتضيه الحاجة. بهذا انتهى اجتماع مجلس الشيوخ، إذ قرر سولا أن ذلك كان كافياً خلال الجلسة، وسوف يستأنفون الجلسات اعتباراً من اليوم التالي؛ إذ خطط لعقد سلسلة من الجلسات لسن أكبر عدد ممكن من القوانين للسيطرة على جميع المؤسسات، بثبات ومنهجية. لكن في ذلك الصباح، وصلت إلى روما هدية رائعة قادمة من مدينة بالسترينا، عُرضت بالفعل في المنتدى، فتلهف للاطلاع عليه.

وفي طريقه مع السناتورات نحو "الهدية"، استعاد سولا تفاصيل تدرجه في المناصب من الذاكرة، فهو على طول مسيرته السياسية، ترقى على نحو جيد؛ أولاً، انضم إلى صفوف الأوبتيميتس، لكن بعد أن حقق القيادة بين

أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر تشددًا. سيطر على كل شيء، وتقلص أمامه حزب البيولاريس الذي ينتمي إليه الشاب يوليوس قيصر، حتى أصبح لا شيء. ابتسم الديكتاتور؛ لقد ترقى من مجرد ملازم بين صفوف ماريوس في إفريقيا، إلى أن أصبح منبرًا عسكريًا في الحرب ضد التوتونيين والكيمبريين، ثم أصبح بريطورًا في روما؛ ثم بريطورًا في صقلية. بعد ذلك، وفي صعود لا يمكن اعتراضه، أصبح أحد القادة الرئيسيين في الحرب الاجتماعية، حتى عُين في منصب القنصل. وأمام تقدم ميثراداتس، وفشل ماريوس في تولي قيادة الجيش الروماني المبعوث إلى الشرق للتصدي لجنود ملك بنطس المهيب، الذي سيطر على اليونان، في توسع راقبه مجلس الشيوخ الروماني بحذر، وبعدهما تولى هو قيادة الجيوش أغار على روما للإطاحة بماريوس. في غيابه، استغل ماريوس وحليفه كينا الفرصة وأسسوا حكومة شعبية في روما، إلا أن ماريوس رحل وعاد هو من الشرق بعد الاتفاق مع ملك بنطس، ليتزع السلطة من قبضة حزب البيولاريس، الذي هُزم في حرب أهلية دموية كانت ناجعة للغاية بالنسبة له وحقق من خلالها أهدافه. والآن، سمي نفسه ديكتاتورًا، وها قد حُكِم على حزب البيولاريس بأن يُقتل من جذوره، حتى لا يتبقى أثر من الحديث عن منح الحق في الحصول على الجنسية، والتصويت للمزيد من المدن المتحالفة مع روما أو للطبقات أو الفئات الاجتماعية الأخرى غير الداعمة للفصيل المحافظ في مجلس الشيوخ.

لم تكن الديكتاتورية هي القاعدة الأساسية في روما؛ بل على العكس، فمنذ أكثر من قرن من الزمان، تحديدًا منذ تسمية غايوس سيرفيليوس لفترة وجيزة ديكتاتورًا خلال الحرب البونيقية الثانية، لم تعرف الجمهورية الرومانية الديكتاتورية. في الواقع تفاجأ قادة الرعية كثيرًا بقراره، لكنه ابتسم ملء فيه بينما وقف يتحدث بين أعضاء مجلس الشيوخ الأقرب إليه والأساسيين في حكومته الجديدة المكونة من شخص واحد، فقال لهم: "الآن نحن من نقرر القواعد والشواذ". عندها أدرك الجميع، حتى أقوى المدافعين عنه ما بين السطور، وأنه قصد أنه هو وحده من يمتلك القرار، سولا وحده. وأردف:

"في الواقع نحن أمام نظام جديد، أمام... كيف أصيغها؟ نحن أمام واقع جديد".

ساد الصمت، دون معارضة أو أي تلميح للرفض. الخوف يترك البشر عاجزين عن الكلام.

توجهوا جميعًا نحو المنتدى، وهناك، في المنتصف، على مرأى ومسمع من الجميع، كان رأس ماريوس جونيور مخوزقًا على وتد. دنا منه سولا بتأني مستمتعًا بما يراه، ويرونه جميعًا، أولًا نشر رماد ماريوس كي يحرمه الراحة حتى بعد الموت، ثم الآن قطع رأس ابنه وعلقه على قضيب، وفي تلك اللحظة، وجد سولا فرصته للشماتة مما أصاب ماريوس وعائلته؛ عائلة مارييا.

"يجب أن تكون مجددًا جيّدًا أولًا قبل أن تحاول توجيه السفينة"* علق، وضحك بقوة، ثم استدار عائداً إلى منزله. كان على وشك البكاء من فرط السعادة، لقد قطع دابر عدوه الأبدي، غايوس ماريوس، وكذلك قضى نهائياً على ابنه، حان وقت الاحتفال.

منزل سولا، روما

سار سولا ودولابيللا نحو مقر إقامة دكتاتور روما الجديد، وقد تملك الثاني الفضول لمعرفة ملامح النظام الجديد الذي يعتزم الزعيم فرضه في روما، كي يخدم مصالح المحافظين الأكثر تشدداً، فسأله مستفسراً: "ومن أين تبدأ؟".

"سنلغي القوانين التي سنها حزب البيولاريس واحدًا تلو الآخر. لكن من المهم ألا نغفل دور العدالة".

"العدالة؟".

* قول منسوب للكاتب المصري، أبيان، في كتابه التاريخ الروماني.

"أقصد تشكيل المحاكم؛ فالقوانين الحالية تسمح لمواطنين من فئة الإكوايتس* أو حتى ممن ينتمون إلى طبقات أخرى، بتولي أمر البت في بعض القضايا، وبعض المحاكم ليست موالية للمجلس وهذا قد يتسبب لنا في مشكلات. ولكنها سوف تختفي عندما ينص القانون على أن تصرفات رجال الدولة والإدارة والتشريع لا تخضع لطائلة القانون، حتى وإن حوكم أحدنا تبقى براءته مضمونة" أوضح سولا، ثم ابتسم. لم ير دولابيللا الأمر هيئاً إلى هذا الحد، فسأله: "وكيف تخطط لتسوية هذا الأمر بحيث تضمن الأمان لنا جميعاً؟".

"سأصدر قانوناً ينص على أن تشكل المحاكم من أعضاء مجلس الشيوخ فقط" أوضح الديكتاتور، بينما يواصل السير بهدوء نحو منزله. لم يسع دولابيللا إلا الإعجاب بجراته، إنه يهون المشكلات إلى حد لا يمكن تصوره. فطن إلى أن معلمه خطط لإبادة أي ينبوع أو مؤسسة رومانية يمكنها معارضة نظامه الجديد، أو الوقوف أمام فرض الواقع الجديد الذي أخبرهم عنه في صباح ذلك اليوم.

"سرتوريوس باق" همس دولابيللا، دون أن يتوقفا عن المشي، فأجابه: "هذا حقيقي، إن سرتوريوس يمثل جبهة خطيرة، وستخلص منه في الوقت المناسب لا محالة. إلا أن خطره لا يزال بعيداً عنا في الوقت الحالي، فهو يقبع هناك في هسبانيا، وسوف نوكل أحد رجالنا بالتصدي له. أرى أن ميتيلوس يتوق إلى إقامة احتفال نصر روماني على شرفه، وهزيمة سرتوريوس في هسبانيا يمكن أن تمنحه ما يحلم به، فهو حريص على أن يحذو حذو والده". هنا بدا أن سولا يتحدث إلى نفسه أكثر من حديثه إلى دولابيللا، وأضاف: "نعم، سوف نرسل ميتيلوس، ومع ذلك، فأنا مهتم أكثر بالأمر الداخلي العالقة هنا في روما".

أثارت جملته تلك فضول دولابيللا إلى حد كبير، وكانا قد وصلا للتو إلى مقر سولا، فرأى أن يستريح ويلتقط أنفاسه. وما أن اطمأن على مقعده

* الطبقة الدنيا بين الأرستقراطيين، والطبقة الأعلى منها هي طبقة الباتريكيان أي الأشراف أو النبلاء.

وقدّم العبيد الطعام واللحم الفاخر المطبوخ بصلصات شهية برائحة تسيل اللعاب، بالإضافة إلى كميات وفيرة من النيذ لهما ولباقي الحضور، حتى سأله: "وما هي تلك الأمور العالقة؟". فلم يرد عليه سولا، بشكل أدق، لم يرد بالكلمات، أشار بطرف عينه إلى المقعد على يمينه، حيث جلست ابنته إيميليا وصهره مانيوس أسيليوس غلابريوس.

لم تكن إيميليا في الواقع ابنته من صلبه، بل ابنة زوجته، ابنة سيسيليا ميتيلا، التي تُوفيت مؤخرًا، لكن سولا اعتنى بها كما لو كانت من دمه، وليس ذلك بدافع الحنان أو العطف أو ما شابه، ولكن هذا ما فرضته عليه العادات الرومانية التي ظل المجتمع متمسكًا بها.

كان غلابريوس سيناتورًا شابًا يتوقع له مسيرة سياسية واعدة، إضافة إلى كونه صهر ديكتاتور روما، وهو من أعضاء الحزب المحافظ وإلا فلن يقبل سولا أبدًا بزواجه من ابنة زوجته. ولمّا لاحظ دولابيل أن عين الديكتاتور لا تحيد عنه، فهم التلميح وهزّ رأسه بهدوء في صمت؛ إذ فطن إلى أن الزعيم ربما يعتبر أسيليوس أحد تلك الأمور العالقة التي أشار إليها؛ إذ تجرأ على انتقاد إعلان سولا نفسه ديكتاتورًا دون تحديد موعد نهائي لانفراده بالسلطة.

ورغم أن كثيرين أيدوا أن روما، على مدار السنوات الأخيرة، كانت في حاجة إلى زعيم من حديد لمواجهة حزب البيولاريس، إلا أنهم رأوا ضرورة تحديد مدى زمني لفترة حكمه، لكن لم يجرؤ أحد على التصريح بهذا الانتقاد على الملأ، خاصة بعد رؤية العنف والقسوة اللذين فتك بهما سولا بكل أعدائه؛ إذ باتت تُحتسب أعداد القتلى بين صفوف الفصيل الشعبي بالميئات ولا تزال مرشحة للزيادة. كما أصبحت قرارات الاحتجاز والحظر والنفي التي تصدر بحق أولئك الذين يتجرؤون على مواجهة سولا أمرًا شائعًا.

صحيح أن دولابيل تجرأ على سؤال سولا عن المدى الزمني لديكتاتوريته، وفعل ذلك على الملأ، لكنه لم يقصد السؤال ولم يسأله أمام

العامه، إذ كانا قد اتفقا عليه مسبقًا، فهو أشبه بمشهد مسرحي يخدم مصالح الزعيم. إلا أن أسيلIOS، ورغم كونه محافظًا نظر إلى قرار سولا بعين الريبة. في الواقع، كان اللقب الذي منحه سولا لنفسه وصفياً للغاية لقدراته وصلاحياته؛ لقد سمى نفسه الدكتاتور الذي يسن القوانين وينظم شؤون الدولة، أي يمكنه وضع القوانين والتحكم في مؤسسات الدولة كما يشاء. لقد منح نفسه السلطة المطلقة، دون تحديد المدى الزمني لفترة حكمه.

فجأة صاح سولا بغضب وعصبية: "أسيلIOS!". كان دولابيل يدرك ما يأتي وراء تلك النبوة جيّدًا، فعقف حاجبيه وتهد، انشغل بالتحديق إلى قاع الكأس. في الواقع، هو لم يتكهن لذلك الشاب بمستقبل مزدهر، لقد أخطأ أسيلIOS عندما ظن أنه في وضع آمن يسمح له بالانتقاد لمجرد كونه صهر الشخص الذي يوجه إليه الانتقاد. عندما لم يرد عليه الشاب من هول الصدمة، كرر سولا: "أسيلIOS!" وهو لم يعتد استدعاء أحدهم مرتين. فأجابه أخيرًا: "نعم... يا أبي".

فابتسم سولا وهو يقول: "هل تعتقد أن كلمة أبي التي تخاطبني بها الآن، تجعلك في وضع أفضل؟". هنا ساد الصمت في جميع أنحاء الغرفة، وتوقف الضيوف عن الأكل والشرب، وانتصب العبيد بلا حراك مثل التماثيل، حتى لم يتبق إلا صوت هدير الماء الذي يرتطم من نافورة تتوسط الردهة، وكأن نبرة سولا القاسية والجادة المفاجئة أصابتهم جميعًا بالشلل.

"لم أفهم... همّ أسيلIOS بالإجابة. فأمسكت إيميليا بذراعه تحاول ثنيه عن الجدل؛ كانت تعرف أنه لا يجب مواجهة زوج والدتها، خاصة في حضرة الضيوف، ومهما تكن إجابة زوجها لن تؤدي إلا إلى تفاقم الأمور، وأن سولا سأله لا ليحيب.

"هل تعتقد يا أسيلIOS أنه يحق للابن انتقاد قرارات الأب علنًا؟". حينها أزاح أسيلIOS يد إيميليا عن ذراعه؛ ودون أن يدرك ذلك، كسر للتو الرابط الأخير الذي كان يربطه بسولا، فعادت إلى الورا مستندة على مسند ظهر المقعد، كما لو أنها لم ترد الظهور في كادر واحد مع زوجها أمام زوج أمها،

كي لا يشملها بغضبه. حينها فطن الشاب إلى ما يحدث، لكن رد فعل سولا بدا له مبالغاً فيه.

"ربما لم أعبر عن شكوكي بشأن مدة هذه... الدكتاتورية في المكان المناسب، لكنني أعتقد أن تحديد مدى زمني لـ...". لكن سولا قاطعه، وخاطبه باستخفاف، رغم كونه سناتوراً: "هل تعتقد أن رأيك يهم يا فتى؟... بحق جوبيتر، لا، لا يهم. إذا كنت قد أظهرت مثل هذه الوقاحة بيننا وعلى انفراد، كان بإمكانني على الأقل توبيخك على انفراد أيضاً، لكنك تجرأت وانتقدتني في العلن، رغم أنه قبل بضعة أسابيع فقط، كان الفصيل الشعبي لا يزال يحاول تعظيم شوكته في مدينتنا. لقد تكبدت عناء حرب أهلية طويلة للغاية كي أخضع روما مرة أخرى إلى سلطة مجلس الشيوخ، لأولئك الذين قدّر لهم الآلهة أن يحكموا هذه المدينة، هذه الجمهورية ومقاطعاتها. هل فعلت كل هذا كي تأتيني الانتقادات من أفراد عائلتي؟ إذا كان هناك شيء واحد نحتاج إليه في الوقت الحالي فهو الوحدة، وقد كسرتها".

صمت سولا، شرب كأسه من النبيذ على مهل، استغرق وقتاً أطول، وسط صمت كثيف، وعندما انتهى، أصدر حكمه: "انهض وارحل بعيداً يا أسيليوس، لن تعود إلى هذا المنزل مرة أخرى". فما كان من الشاب إلا أن فغر فاه، وبقي جالساً على مقعده إلى جوار زوجته. تفرس في وجهها للحظة ثم حدّق إلى والد زوجته، الذي لم يمهل الزعيم وقال: "اعتبر نفسك طلّقت زوجتك ابتداءً من اليوم".

نهض أسيليوس بتثاقل من أثر الصدمة وقال: "إنها حامل، كنا سنخبرك بالخبر الليلة". فمد سولا ذراعه ممسكاً بكأس فارغة يومئ للعبد كي يملأها، ثم شرب رشفة بتمهل، ووضع الكأس على الطاولة أمامه، وهو يحدق إلى أسيليوس ويقول: "حسناً يا فتى، ها قد أخبرتني، اذهب الآن واعلم بأنك محظوظ لأن كونك والد ابن ربيتي إيميليا أنقذ حياتك. الآن، بحق جوبيتر، اخرج من منزلي!". فخرج دون أن يودع زوجته، وأدرك الآن أنه على حين غرة، فقد الجاه والمنصب.

بعد رحيله عاد الضيوف للشرب والأكل، واستأنف الموسيقيون العزف. خفت حدة التوتر بين الحضور، وتلهى الجميع، كلهم عدا إيميليا، بقيت صامته، تحديق إلى الأرض بوحشة. لقد أحببت أسيلوس وتعرف أن زوج أمها يرى أن انتقاداته له منطقية، لكنها غير ملائمة للظروف، كانت حُبلى، ومطلقة للتو، سيولد طفلها بلا أب، امتلأت بالذعر والمرارة والوحشة، لكنها كتبت مشاعرها وأخفتها وراء وجهها الجامد الصامت.

"ألا تعتقد أنك ربما كنت قليلاً، دعنا نقول... قاسياً مع أسيلوس؟ فهو قبل أي شيء... "تجراً دولابيلاً على السؤال، لكنه توقف يحاول اختيار ألفاظه بعناية: "أعني.. من عائلتك".

"لا، لا يا صديقي، لم أكن قاسياً، بل صارماً. ومن وجهة نظر سياسية بحتة كنتُ محنكا بمهارة" اعترض سولا، وأوضح: "إذا قابلت معارضة أحد أفراد عائلتي بقسوة مفرطة، ألا تعتقد أن كل شخص ليس من عائلتي سيفكر مرتين قبل الاعتراض على أوامري، خاصة أمام العامة؟".

"بلا شك" أوما دولابيلاً برأسه مؤيداً، بينما اقترب منه أحد العبيد يسكب له المزيد من النبيذ، ثم سأله: "إذن، هل تم حل كل الأمور العالقة الآن؟".

مرة أخرى، لم يجب سولا على السؤال بالكلمات، الآن لديه ابنة للزواج، كان لا بد من إضفاء الطابع الرسمي على الطلاق وبالطبع سوف ينهي الأمور القانونية بأقصى سرعة بمجرد حلول الصباح. كونك ديكتاتوراً يمنحك امتيازات هائلة، لكن المسألة الآن أن إيميليا باتت... متاحة للزواج، أي فرصة جيدة لتقوية العلاقات والروابط والتحالفات السياسية ذات الصلة. شعر سولا ببعض الولاءات المضمونة للغاية، مثل ولاء دولابيل، ولكن ثمة نسور رومانية بدأت تحلق عاليًا للغاية، لذا فمن الجيد أن يُحكم وثاقها بحيث يسمح لها بالطيران في حدود مجاله هو وليس أبعد من ذلك، كي يضمن استمرار ولائها له بأي طريقة. يمكنه تحقيق ذلك برباط زواج، ولن يؤجل عمل اليوم، فأخذ يتفحص وجوه من حوله بتأنٍ، ودولابيل يراقبه بعناية، حتى ثبت نظره على أحدهم؛ إنه بومبيوس، وكان يجلس على مقعد قريب منه.

فكر بسرعة، واستعرض الأحداث والأفعال التي سبق وتمعن فيها، إنه على وشك إصدار أمر مهم. جال برأسه أن بومبيوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الشباب البارزين، وله قدرات مهولة في ساحات المعركة حتى أنه لُقّب بـ"السّفاح الشاب" أثناء مشاركته في الحرب ضد تمرد المناطق المتحالفة نظرًا لجرأته على سفك الدماء؛ إنه شاب أرستقراطي وطموح لا حدود له، لذا فهو ممن يرغب في بقائهم حوله. يدرك سولا أنه يتقدم في العمر، وبات يتوق إلى الاستمتاع ببضع سنوات من السكينة قبل وفاته، كما فطن إلى أن إعادة تنظيم الدولة بحيث تتمحور السلطة حول الطبقة الحاكمة من أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس تتطلب رجالًا أقوياء، لا يرتجفون في لحظات تنفيذ العقوبة أو الإعدام، ولا يتريبون أمام اتخاذ قرارات حاسمة أو الدخول في حروب إذا لزم الأمر.

وبومبيوس، خلال الحرب الأهلية الأخيرة، أظهر براعته التي لا خلاف عليها، وقاد ثلاثة جحافل بمهارة وكفاءة عاليين ضد قوات ماريوس وجنود الفصيل الشعبي، مع ذلك كان يفتقر إلى النسب؛ إذ كان والده نبيل بارز، فيما عرّفه القانون الروماني باسم "إنسان جديد*" أي إن والده كان أول من تولى منصب سناتور من بين أفراد عائلته، وهو ما يعني أن عائلته لم تكن ذات نسب مثل معظم الحاضرين ومعظم الأوبتيميتس. بالنسبة لهذا السياسي الروماني الطموح، فإن الارتباط بسولا سيكون بمثابة نقلة نوعية حاسمة لمسيرته المهنية، ومرتبة من الشرف واعدة للغاية بين صفوف المحافظين.

أحس بومبيوس بعيني سولا مثبتتين عليه، فنظر إليه بلا أنفة، فقط أظهر انتباهه، وكأنه حاول كشف ما يدور داخل عقله. كان عليه أن يعترف بأنه موافق، لكنه، أمام دكتاتور روما القوي، أثار التريث وسمع أمر سولا أولاً فقال له: "أنت، ياغالينيوس بومبيوس، سوف تتزوج ابنتي إيميليا"، ولم ينتظر ردًا، إذ سرعان ما صرف نظره عن الرجل الذي اختاره ليصبح صهرًا له

* باللاتينية "نوفو هو مو" وهو مصطلح يشير إلى الرجل الأول في عائلته الذي يعمل بمجلس الشيوخ، أو يتولى منصبًا رفيع المستوى.

ودون أن يناقش أي تفاصيل تخص هذه الزيجة. أصدر أمرًا للعبيد لإحضار المزيد من النيذ والطعام لجميع الضيوف؛ فحفل الزفاف الجديد اقترب.

تهنأت إيميليا. لم تكن لديها أي مشاعر تجاه الشخص الذي اختاره زوج والدتها ليصبح زوجًا لها، مع ذلك، شعرت بقدر من الارتياح لأنها سوف تصبح زوجة أحد أقرب حلفاء الديكتاتور، وبهذا ضمنت أن الابن الذي تحمله في رحمها سيقى محميًا، وهذا ما طمأنها.

بينما شرد بومبيوس وواصل الشرب. لم يعرب عن موافقته على الزواج بعد، لكن من الواضح أن الديكتاتور لن يعترف برفضه. لقد تزوج من أنتيستيا أيضًا، دون أن يشعر تجاهها بالحب، على الأقل ليس في البداية، تذكر أنه كان متهمًا بالفساد والاختلاس لمشاركته في نهب غنائم معركة إسكولوم، وكيف أنه وجد نفسه في مأزق أمام هيئة محلفين قاسية، لأن توزيع غنائم الحرب لم يتبع الإجراءات الصحيحة وفقًا للقانون والعرف الروماني. لذا سلك الطريق السهل، إذ أنه، وقبل بدء المحاكمة، تودد إلى أنتيستيا، ابنة رئيس المحكمة التي تنظر القضية، وتزوجها-وأخذ رشفة أخرى- إذ رأى أن هذه الخطوة كانت مناسبة له تمامًا؛ إذ ضمنت له تبرئته من كل التهم. ثم بعد ذلك، وعلى غير المتوقع، بدأ يعجب بزوجته الشابة، التي أثبتت دائمًا أنها زوجة صالحة. لم يرغب أبدًا في التخلي عنها، وبالطبع لم يكن من العدل أن يفعل ذلك، إلا أن معارضة قرار سولا تعني بداية نهايته. حينها رفع بومبيوس كأسه وصوته في نفس الوقت: "من أجل زواج سعيد من إيميليا، ربيبة لوسوس كورنيليوس سولا، ديكتاتور ومنقذ روما!".

"أحسنت!" رد سولا برفع كأسه أيضًا، وحذا باقي الضيوف حذوه. بدا الجميع سعداء، وبالطبع لم تكن أنتيستيا حاضرة.

حقد بومبيوس إلى الأرض، يحاول تدبر أمره. على أي حال، لن يعود الليلة إلى منزله؛ بل سيذهب للنوم في منزل أحد الأصدقاء وسوف يرسل قرار الطلاق كتابيًا إلى زوجته الأولى، فالنساء يتعاملن بعاطفة مفرطة للغاية. لم يشعر بومبيوس برغبة في تقديم تفسيرات، وسيتعين على أنتيستيا مغادرة

منزل الزوجية، منزلها، منزلها، لأنه سيعود بعد بضعة أسابيع مصطحبًا إيميليا بصفتها زوجته الجديدة.

"نعم الآن، أليس كذلك؟" سال دولابيليا بصوت منخفض، مخاطبًا سولا: "الآن كل الأمور العالقة تم حلها، أليس كذلك؟". لكن سولا هز رأسه نافيًا وأوضح: "لا، لا يزال ثمة أمر آخر، لكنه ليس هنا". فسأله: "من؟". ليجيبه بنبرة حاسمة: "إنه أمر قيصر".

عبس دولابيليا، وسأل بريبة: "قيصر؟ غايوس يوليوس قيصر؟ هل تقصد ذاك الفتى؟ إنه عديم القيمة، فهو لم يشارك في حملة عسكرية واحدة، ولم يترافع قط في محاكمة، والناس لا يعرفون حتى ما إذا كان يجيد الكلام أم يتلعثم. هل أنت قلق حقًا من ذلك الشاب؟ من هو...؟ كم عمره...؟ ١٩ عامًا؟".

"١٨" صحح له سولا معلوماته. كان يعرف كل شيء عن الشاب، وأضاف: "إنه فلامين دياليس".

"فلامين دياليس!" لم يصدق دولابيليا ما يسمعه، هل تقدم سولا في العمر إلى هذا الحد، وأصبح مصابًا بجنون العظمة؟ وأضاف: "إنه منصب كهنوتي بلا سلطة سياسية".

"بل يمنحه مكانة مرموقة أمام الشعب وأمام الجميع" قال سولا.

ساد الصمت.

"حسنًا، عينه ماريوس وكينا، إذا كان هذا هو ما يقلقك كثيرًا، فما عليك سوى إلغاء تعيينه. لديك السلطة المطلقة الآن بلا أي حدود، فقط عليك أن تأمر بتنفيذ أوامرك".

"هذا لا يكفي بالنسبة لي" أجاب سولا بجدية شديدة.

كانا يتبادلان محادثة خاصة، بينما انشغل الآخرون بالحديث في أمور متعددة، لكن دولابيليا لم يستمع إلا لمعلمه فقط. كان يحاول معرفة ما إذا

كان لا يزال ذلك الرجل المحنك الذي تعلّم منه الكثير، أم إنه فقد عقله حقًا. إذا كان الأمر كذلك، فربما حان وقته... لكن سولا واصل حديثه: "لا، لا يكفي تجريده من هذا المنصب. في الواقع، أنا أفضل أن أجذبه إلى مدارنا، إلى فصيلنا، كما فعلنا مع بومبيوس للتو. سأطلب من قيصر أن يطلق ابنة كينا، ويتزوج فتاة أرستقراطية رومانية شابة، ابنة أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس الأقرب إلى... طريقة رؤيتنا للأمور".

نكس دولابيللا رأسه وهو يتنهد بينما يجري تقييمًا نهائيًا لكلمات سولا، ثم قال: "لا أزال أراك مبالغًا".

"لا، لا أبالغ. هذا الشاب، ابن صهر غايوس ماريوس، لا أحد يعرف إلى أي مدى قد تصل قدراته، أريده معنا وليس ضدنا". لم يجد دولابيللا بدءًا من مجادلته، فأخذ يومئ برأسه بتأنٍ، بينما يفكر: كان ماريوس لا يزال في نظر الشعب القائد العظيم، الأسطورة، وبالفعل استحق هذه السمعة، وبعد وفاة ابنه، يبقى غايوس يوليوس قيصر قريبه الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة. لا يبدو أن سولا يفقد عقله، بل لا يزال مكرًا حذرًا، ويحتفظ بعقلية الزعيم الذي حقق بمكره وحدسه السيطرة المطلقة على روما، حتى أنه قادر على توقع الأخطار المستقبلية.

"لعلك على حق" علق أخيرًا، وشرب من النبيذ. لكن فجأة تشكك في إمكانية حدوث ذلك، فاستفسر: "وماذا لو رفض ابن صهر ماريوس، غايوس يوليوس قيصر، أن يطلق زوجته؟".

"حينها..." لم يكمل الجملة، رفع كفيه إلى الأعلى، ولم يكن دولابيللا بحاجة إلى توضيح.

طلاق قيصر

منزل من عائلة جوليا، روما، عام ٨٢ قبل الميلاد.

بعد مأدبة سولا ببضعة أيام

"إِقْبَلْ يا غايوس" توسلت إليه كورنيليا، وهي جالسة في أحد الزاويا، ترتعش مثل حيوان يرتجف، لكن صوتها خرج هادئاً بشكل مذهش "إِقبل" تلك كانت المرة الأخيرة، فدفنت وجهها بيديها تخنق تنهداتها، إذ حاولت تحرير قيصر من ارتباطه بها، لكن إيماءاتها ولغة جسدها ودموعها تدعوه ألا يتخلى عنها.

لم يعد في عائلة الشاب، الذي كان يبلغ من العمر ١٨ عاماً، كما يتذكر سولا جيِّداً، ثمة رجال كبار يمكن الاستماع إلى نصائحهم؛ فغايوس ماريوس، معلمه العظيم، الذي علّمه الكثير عن السياسة والحرب، قد رحل قبل أربع سنوات؛ كما توفي والده، ووالد كورنيليا، كينا من بعده، خلال الحرب الأهلية قبل عامين.

في الردهة، وقف قيصر وكورنيليا ولاينوس، واثنان من البالغين لم يتفقا معه فيما اتوى فعله، هما؛ خاله أوريليو كوتا، ووالدته أوريليا، إذ كان قد قدم إلى المنزل قائد مائة بعثه سولا لتنفيذ أمر إحضار قيصر إلى مقر إقامة الديكتاتور في روما. وبمجرد وصوله إلى الردهة عرّف الجندي بنفسه ونقل رسالة الزعيم بسرعة مذهلة: "يطلب لوسيوس كورنيليوس سولا حضور الشاب غايوس يوليوس قيصر إلى منزله للحديث بشأن طلاقه من كورنيليا، ابنة المجرم كينا، كي يتزوج مرة أخرى من فتاة أرستقراطية تناسبه". وبعدما

انتهى من عرض الرسالة وقف ساكنًا ملتزمًا الصمت مثل تمثال ينتظر أن يرافقه الشاب إلى مقر إقامة الديكتاتور.

قوبلت الرسالة برفض تام من أفراد العائلة، التي باتت تفتقر إلى وجود شخص يمتلك الحنكة اللازمة للتعامل بذكاء وحكمة مع أمر الديكتاتور. دنا قيصر من كورنيليا، وربت على كتفها، وعندما أحست بيده قالت: "إقبل الطلاق وأنا بنفسك، لا أرغب في جلب الأذى لك"، بدت مقتنعة تمام الاقتناع بما تقوله.

تأملت أوريليا وجه ابنها؛ تولى القائد الأسطوري العظيم سكيبيو الإفريقي مسئولية عائلته بعدما بلغ ٢٥ عامًا، بينما عمر قيصر لا يزال ١٨ عامًا فقط. الآن عليه التصدي بمفرده للوسوس كورنيليوس سولا، دون أن يدعمه أب أو صهر، وقبل كل شيء، دون وجود عمه ماريوس إلى جواره. ليس أمامه سوى الخضوع أمام سلطة الديكتاتور. نصحه خاله، أوريليو كوتا، بذلك؛ إذ قال: "يجب أن يهرع الشاب الصغير إلى منزل سولا ويخضع لأوامره، ليس ثمة خيار آخر".

بدا لأوريليا، دون أدنى شك، أن رأي شقيقها كان معقولًا، إلا أنها قرأت في نظرة ابنها الباردة، شوقًا وتمردًا داخليًا لا يقهر، من شأنه أن يدفعه نحو مواجهة وحشية مع سولا، معركة لن يستطع الفوز فيها. لقد ربته على عدم الاستسلام، وعلى الصمود... لم تكن تعلم أنه سينفذ ما ربته عليه مبكرًا إلى هذه الدرجة وضد عدو بقوة وبطش سولا.

"ما رأيك يا أمي؟" سأل قيصر، لكنها لم تجبه. خطت بضع خطوات بثاقل عبر الردهة، وهي تفكر: لو كانت قد أتمت خطة تسميم كورنيليا، لما وصلت الأمور إلى هذا الحد، لكن الفتاة كانت حينها تحمل في أحشائها ابن قيصر، كما أنها ظلت دائمًا وفيه للعائلة، ولم يعد التخلص منها خيارًا متاحًا. ومهما وصلت الأمور؛ سواء إلى الأفضل، أو إلى الأسوأ كما هو الحال في ذلك الوقت، ومهما تعقدت الظروف لا يمكن إنكار حقيقة أن كورنيليا باتت جزءًا أساسيًا من عائلة جوليا، ويجب التعامل مع الأمور بشكل مختلف الآن.

"سوف يستجيب ابني لأمر سولا بأسرع وقت، لكنه بحاجة للاستعداد بشكل مناسب للمثول أمامه". خاطبت قائد المائة الذي استمر في فرض حضوره على الجميع في منتصف الردهة، تحدثت إليه أوريليا بخضوع واضح شابه بعض من سلطة خفية، فهي قبل كل شيء سيدة هذا المنزل، والمحارب العسكري المخضرم يعلم ذلك جيّدًا. ثم أضافت: "نحن فقط بحاجة إلى بعض الخصوصية... أعتقد أنه ليس ثمة ما يمنعك من أن تنتظر ابني في الخارج أمام البوابة لبضع لحظات، أليس كذلك؟".

فكر قائد المائة لبضع ثوان، كانت لديه تعليمات دقيقة بعدم السماح لأفراد عائلة الشخص المطلوب استدعاؤه بالتلاعب به. تريب، فزادته أوريليا من الشعر بيتًا: "أنت تحمل السلاح يا قائد المائة، والشخص الذي ترغب في إحضاره هو فلامين دياليس، إن رفضت فقد ترتكب ذنب تدنيس المقدسات، ألا تخشى الآلهة؟".

صمت الجندي يزن كلامها، وأخفى على الفور السيف الذي ثبته عند خصره بين ثنايا رداءه، ثم قال: "يمكنني الانتظار في الخارج قليلًا... لكن إن لم يظهر المدعو بسرعة، سوف آتي على رأس سيتوريا (كتيبة مسلحة)، وحينها لن يبقى باب يمنعنا من الدخول".

"بل سيحضر في الحال. تفضل الآن من فضلك..." قالت كورنيليا بصبر نافد، وأشارت إلى الباب، فأطلق الجندي التحية العسكرية، بضرب صدره بقبضته، واستدار وغادر الردهة أولًا، ثم ما لبث أن خرج من المنزل. فأسرع العبيد بإغلاق البوابة وتأمينها بقضيب عرضي سميك، لكنه غير كاف تمامًا لمواجهة ٨٠ رجلًا مسلحًا، كما هدد مبعوث سولا. تصفحت أوريليا وجوه الواقفين، وقالت: "لدينا بضع لحظات، علينا استغلالهم جيّدًا"، فتطلع الجميع إليها، حتى كورنيليا الصغيرة بدا وكأن الرعب الذي تملكها جعلها واعية بما يحدث، توسعت حدقتا عينيها تحيط بهما هالة من الأمل.

اقتربت أوريليا من ابنها وقالت: "غايوس! سوف تذهب إلى سولا، بينما أنا سوف أعتني بكورنيليا، سأعتني بها جيّدًا، لا داعي للقلق بشأنها،

لكن لا تذهب وحدك". والتفتت إلى لابينوس وقالت له: "هذا هو الوقت الذي تتجلى فيه الصداقة الحقيقية، ويبرز فيه المعدن الأصلي للأصدقاء، هل أنت مستعد لمرافقة ابني إلى منزل سولا؟ أعلم أنها زيارة محفوفة بالمخاطر إلى حد الهلاك". ودون أن يتردد لابينوس للحظة أجابها بنبرة حاسمة: "أفعل، بدافع الصداقة والعاطفة والغضب تجاه الديكتاتور. وإن كان مصير قيصر المحتوم إذا ما عارض سولا هو الاحتجاز، فإنني أتوق إلى رؤيته صامدًا مهما كلفه الأمر، وأفضل الموت شامخًا بدلًا من العيش راكعًا أمام ذلك الديكتاتور غير الشرعي الذي يدمر كل شيء". "أجل!" أجابته الأم، واستحسنت صنيعه.

ثم نظرت أوريليا إلى أخيها وقالت: "لقد أعطيتنا رأيك بالفعل وهو أمر منطقي، يجب أن يوافق غايوس على طلاق كورنيليا وأن يتزوج ممن يأمره بها سولا. لكن قيصر... "وهنا التفتت إلى ابنها وأوضحت: "سيفعل ما يقرره هو، ما يمليه عليه عقله وقلبه، وأشعر بأنه سيرفض، أولًا: لأنني ربتيه على ألا ينحني أمام أحد، وثانيًا: لأنه... يحب كورنيليا"، ثم أمنت النظر إلى الفتاة وأضافت: "ولا بأس في ذلك، لأن هذه الفتاة ودية دائمًا لقيصر ومن العدل أن يظهر ابني الولاء إليها الآن". ثم دنت من زوجة ابنها وأضافت: "لا تقلقي يا صغيرتي؛ سولا لا يقتل النساء أو الأطفال، ليس لأنه لا يريد ذلك، ولكن لأن هذا التصرف سيجعله غير محبوب. إنه يكتفي بمصادرة الأراضي والممتلكات والأموال ليزيقنا مرارة البؤس والعوز، لكننا لدينا العديد من الأصدقاء في روما وسوف نتخطى؛ لذا لا تخافي أبدًا". والتفتت الأم المكلومة الواعية إلى قيصر مرة أخرى وقالت: "أنت ستأخذ كل المال معك، كل ما لدينا".

"لا يا أمي، ما نملكه من مال وذهب سوف تحتاجون أنتم إليه كي...".

"لا، لا يا بني، ستحتاج أنت إلى هذا المال أكثر بكثير منّا، أنا متأكدة من ذلك، فبمجرد أن تعارض سولا، إذا ما قررت في النهاية رفض أوامره، سوف يهجم هؤلاء الجنود الذين ينتظرون عند الباب علينا، وسينهبون كل شيء له

قيمة في هذا المنزل، لذا خذ كل شيء معك. أنا على يقين من أنك ستستعين بها على نحو مناسب" قاطعته. ثم صممت أوريليا. تنهدت بعمق وهي تحدد إلى الأرض، ثم رفعت رأسها، وقالت: "هذا ما سنفعله، أسأل الآلهة أن تشملك بحمايتها. لا تنس أننا من نسل إينياس، كن شجاعاً ولا تكن أحمق، كن عادلاً لكن ليس غيبياً، تذكر النصيحة التي قدمها لك عمك ماريوس. كان يخبرني دائماً بمحادثاتكم؛ لا يهم إن وصفوك بالجبن، ما يهم هو الفوز في النهاية. حسناً، لقد انتهى وقت الكلام، إنهم ينتظرونك في الخارج، ومن المؤكد أن صبرهم قد نفذ. اخرج إليهم يا بني، تخفف، وسوف يصلك المال أينما حللت".

هز قيصر رأسه نافيًا وهو يقول: "لم نقل كل الكلام بعد يا أمي، بقي شيء واحد"، وتعلقت عيناه بكورنيليا. دنا منها وجلس إلى جوارها، وقال: "بقي أن أقول لك وداعاً يا كورنيليا. استمعي إليّ، ما قالته أمي صحيح، فأنا أحبك من كل قلبي وسيظل حبك محفوراً في قلبي إلى الأبد. ابقِي على يقين من ذلك مهما فعلت، ومهما وصلك عني". ثم قام وتوجه بسرعة نحو غرفة والدته، وجمع عدة أكياس تحوي عملات ذهبية وفضية. شعر بالأسف لأنهم احتفظوا بالباقي في منزل ريفي لهم في أحد الضواحي، وقريبا ستتم مصادرتها.

"سأرافك" قال لابينوس عندما عاد قيصر إلى الردهة، فابتسم له قيصر، فالصداقة الحقيقية في أوقات المحن تفوق قيمتها أطناناً من الذهب. رغم حقيقة أن المال قوة، لكن ما أقبل عليه صديقه كان خطيراً للغاية، لذا أراد أن يتأكد من أنه قد حزم أمره بناء على تفكير عقلاني، فسأله: "أمتأكد أنت؟".

"مثلما خضنا تلك المعركة الخاسرة عندما كنا صغاراً" أجابه وضحك محاولاً تهدئة التوتر.

"إذن هيا بنا" ثم توجهوا نحو الباب. لكن قيصر توقف فجأة وقال: "نسيْتُ قلنسوتي". فهضت كورنيليا وذهبت بسرعة إلى غرفة نومهما، وأحضرت قلنسوة كاهن جوبيتر، وعادت إلى قاعة المنزل، حيث كان زوجها ولاينوس في انتظارها، واقتربت منه وضبطتها على رأسه.

إلى جوار البوابة وقف حارس الفيلايين دياليس، يرتدي رداء أبيض وفي يده حزيمة الليكتور، وهي عبارة عن حزمة طويلة من العصي، وكانت الحزيمة تعبر عن النفوذ، والعبارة منها أنه يمكن بسهولة كسر عصا واحدة، لكن لا يمكن كسر الحزمة كلها معًا. ففي المناطق البعيدة عن مركز المدينة أو المناطق المقدسة بها، يحمل الحارس حزيمة مربوطة بفاس، لكن داخلها يحمل الحزيمة دون فأس.

كان اصطحاب الحراس يجري تبعًا للمناصب، وفي المجتمع الروماني مُنح لقلّة من الناس الحق في أن يحرسهم الحراس، فالمنبر يمكن أن يرافقه حارسان، ويرافق البريتور ٦، والقناصل أو الديكتاتور ١٢، لكن سولا أعلن أنه سيرافقه دائمًا ٢٤ حارسًا، وهو رمز آخر يدل على أن ديكتاتوريته لم تتبع التقاليد والعادات المعروفة.

بينما لا يمكن أن يرافق فلايين دياليس إلا حارس واحد فقط، رغم أن صاحب هذا المنصب هو الروماني الوحيد، من غير القضاة والقناصل والديكتاتور، الذي يتمتع بهذا الامتياز. نظر قيصر إلى حارسه، وعلق: "حارس واحد فقط مقابل ٢٤ يحمون سولا" واعتصب ابتسامًا وأضاف: "رمز واضح على كيفية توزيع القوات"، ثم أمر العبيد برفع العارضة الثقيلة التي تدعم الباب، وخرج إلى الجنود فأحاطوا به على الفور. وبمرافقة لاينوس ساروا في طريقهم نحو مقر إقامة لوسيوس كورنيليوس سولا، الديكتاتور والمالك واللورد صاحب الحكم المطلق في روما.

لاحظ قيصر أن جميع الجنود غطوا سيوفهم بأرديتهم، وأنهم تطلّعوا باحترام وهيبة نحو قلنسوته. كان يعلم أنه سيخوض مواجهة حاسمة، لكنه شعر بدعم عمه ماريوس له، حتى وهو في عالم الأموات، بفضلله أصبح فلايين دياليس، فإلى أي مدى كان سولا على استعداد للضغط على كاهن جوبيتر العظيم؟

اقتراح سولا

منزل سولا، روما، عام ٨٢ قبل الميلاد

سار قيصر ولا بينوس ومعهما الجنود حتى وصلوا إلى قصر سولا، وكان قصرًا شديد الفخامة لا يحتوي على ردهة واحدة وإنما ما يصل إلى خمس ردهات؛ أولها بمثابة دهليز، وهناك صادفوا بوميوس، كان خارجًا من أحد غرف رئيسه الجديد الحاكم الأوحده، وكان بوميوس قد طلق أنتستيا رسميًا وتزوج إيميليا، ابنة سولا. التقت عينا قيصر وبوميوس للحظة، كانت نظرة قيصر متحدية، بينما نظرة بوميوس باردة، جليدية، مثل قنديل البحر، هدفها أن يلزم الخصم حده. ورغم أن المواجهة استمرت لبضع لحظات فقط، إلا أنها كانت كافية لأن يعبر كل منهما عن موقفه من الآخر بوضوح، ثم انصرف بوميوس دون التحدث إليهما.

"إنه يحتقرنا" علق لا بينوس، فلم يرد قيصر، اكتفى بإيماءة برأسه بينما يمعن التفكير، إذ كان قد علم بطلاق بوميوس وزواجه مرة أخرى، جال في خاطره أن شخصًا بقوة وبطش وقسوة بوميوس، السفاح الشاب، قد أذعن أمام ضغط سولا... أليس من المعقول أن يفعل الشيء نفسه، كما اقترح عليه خاله كوتا؟

"ادخلا!" صاح قائد المائة، ووجههما نحو الردهة الثانية، التي استخدمها الديكتاتور لمقابلة ضيوفه من عامة الشعب. دخل قيصر ولا بينوس وحارس الكاهن إلى الردهة، ولدهشتهم، وجدوا أنها فارغة، لم يكن بها سوى سولا متكئا على أريكة، ويجلس إلى جواره دولابيللا، ذراعه اليمنى. كل شيء

يشير إلى اعتزام سولا تعيين دولابيلاً قنصلاً لروما للعام الجديد، ولم يكن ثمة شخص آخر، باستثناء الجنود المنتشرين في زوايا الفناء الضخم. تم تفتيش قيصر ولاينوس والحارس عدة مرات لتجنب أي مفاجأة سيئة للديكتاتور. لم يكن من الضروري وجود كل هؤلاء الجنود، باستثناء حقيقة أنهم كانوا يثون الذعر، إذ أُعتبروا رمزاً للديكتاتورية التي لن تتلاشى قريباً على ما يبدو.

لاحظ قيصر أن أي جندي منهم لم يبذل جهداً لإخفاء أسلحتهم أمام الفلامين دياليس.

نهض دولابيلاً من على مقعده وقال: "حسناً، بحق جوبيتر، من لدينا هنا؟ ابن صهر غايوس ماريوس المهيب"، وخطا بضع خطوات نحو قيصر حتى بات على بعد خطوتين بالكاد، وهي لحظة استغلها ليبدأ في الدوران حوله على مهل يتفحصه من كئيب، وهو يقول لسولا: "لا أرى أن ثمة ما يجعله مخيفاً للغاية. بصراحة يا لوسيوس، أصر على أنك تبالغ كثيراً". ثم ألقى نظرة سريعة على لاينوس، لكنه تعمد تجاهله، وعاد إلى أريكته مرة أخرى.

لم يقل سولا كلمة واحدة حتى الآن، بل واصل الاستمتاع بأكل المكسرات وبعض الجبن التي رتبها له الخدم أمام أريكته، بينما تنحى حارس قيصر جانباً، تاركاً قيصر ولاينوس وحدهما في وسط الردهة. صحيح أنه كان حارساً، لكن لم يشعر قط بأنه يحمل روح البطولة.

"هل أنتما جائعان؟" سألهما الديكتاتور دون الالتفات إليهما، لكنه استخدم صيغة الجمع التي تضم على الأقل كلا من قيصر ولاينوس. لم يكن رجلاً يظهر احتراماً لأحد، إلا أنه لاحظ أن قيصر اصطحب معه ذاك الحارس، وأنه حرص على ارتداء قلنسوة كاهن جوبيتر، فلامين دياليس. اكتفى لاينوس بهز رأسه نائياً، لكن قيصر أجابه بغطرسة: "نشعر بالجوع، الجوع للحرية... يا صاحب السمّ".

توقف سولا عن المضغ، وعم صمت كثيف، كانت جرأته أعظم من أن تخفف حدتها صيغة الاحترام الرسمية.

مرر سولا لسانه بين أسنانه، إذ علقت قطعة صغيرة من اللوز بين ضرسين فأزعجته، إلا أنه واصل المحاولة حتى تمكن من إخراجها بالضغط بطرف لسانه، وابتلعها مع رشفة نبيذ. ثم أخيراً قال وهو يضع الكأس على المنضدة دون أن يلتفت إليهما: "قصدت الجوع... للطعام".

"لا، نحن لسنا جائعين للطعام" أجاب قيصر.

"حسناً، دعنا نتقل مباشرة إلى الحديث بشأن الأمر الذي استدعيتك من أجله، أيها الشاب غايوس يوليوس قيصر، هل تعرف لماذا أتيت بك إلى هنا؟".

"أعلم... يا صاحب السمو".

ابتسم سولا، وأضاف: "أفضل الحصول على إجابة أكثر دقة منك".

سحب قيصر شهيقاً بملء رئتيه، ثم أطلق زفيراً قوياً، وأعطاه إجابة كاملة كما طلب منه، إذ لم يكن ثمة حاجة إلى المعارضة في كل شيء: "لوسيوس كورنيليوس سولا قلق من زواجي من كورنيليا، ابنة كينا، الذي كان حليفاً لغايوس ماريوس، عمي، وكلاهما كانا أعداء للسناتور السابق والديكتاتور الحالي لروما، سولا. ووفقاً لما أفاد به قائد المائة، يريد الحاكم مني أن أطلق زوجتي ثم أتزوج بفتاة أرستقراطية شابة من إحدى العائلات التي تتبنى وجهات نظر حزب الأوبتيميتس، الفصيل المعارض للمطالبات التي دافع عنها عمي على مدار سنوات عديدة؛ من توزيع الثروات والأراضي على الشعب، ومنح الحق في الجنسية الرومانية لأعداد أكبر ممن يتمتعون بها الآن. لقد أوجزت، لكن أعتقد أنني كنت دقيقاً في وصفي".

فكر سولا في الأمر قبل أن يتكلم مرة أخرى، أخذ يلوك قطعة من الجبن بينما يمعن النظر في الوجه المتحدي لمحاوره الشاب، ومن جانبه، تابع دولابيل الحوار بغرض التسلية. كان تحدياً غير متكافئ، وفي رأيه، نبعت

كوميديا الموقف من حقيقة أن قيصر لم يكن مدرّكًا لدونيته مقارنة بعظمة وهيبة سولا الذي يمتلك القوة المطلقة. ليس مستبعدًا ألا يخرج الصبي من تلك الردهة حيًّا، ولم يتوقع قيصر، رب عائلة جوليا، الخير من وراء صمت سولا.

"نعم، أديت إجابة أكثر دقة" قال سولا. كان دائمًا باردًا، مترفعًا ومشغول البال.

ساد الصمت مرة أخرى.

"لكنني لن أنصاع" تجرأ قيصر وأعرب عن رفضه صراحة.

"ماذا تقصد؟" سأله سولا بهدوء هائل.

"لن أوافق على تطليق زوجتي".

تنهد لوسيوس كورنيليوس سولا بعمق وروية وهدوء، ثم نهض بثقل بجسده المترهل من على الأريكة، دنا من محاوره وعندما بات بالكاد على مسافة قدم واحدة، ودون أن يتبس بينت شفة، صفعه بقوة أدهشت الشاب. كان الطاغية طاعنًا في السن، لكن يبدو أنه احتفظ بذراعين بهما قوة رجل عسكري فظ، لقد شقت الصفحة شفاه قيصر.

تقدم لاينوس إلى الأمام وحاول التدخل، لكنه رأى العشرات من أفراد الفيلق المسلحين يبرزون من بين الظلال في الزوايا الأربع للفناء، يظهرون سيوفهم، فتجمد في مكانه. لم يصدر قيصر أي رد فعل مندفع، بينما عاد سولا بثقل واستقر على الأريكة.

جلس دولابيل يراقب ما يحدث مبتسمًا مستمتعًا يشرب كأسًا آخر من النبيذ.

"هذا بسبب نبرتك الوقحة" قال الديكتاتور وأضاف: "أنفهم أنك ترفض تطليق زوجتك والزواج من أرستقراطية، ابنة أحد أعضاء مجلس الشيوخ المرموقين من اختياري. لكن ما لن أتحملة أبدًا هو أن مراهنًا عديم الخبرة

يتجرأ على النظر إليّ بفوقية في عقر داري، هل هذا واضح لك يا فتى؟ أم أن عليّ أن أطلب من أحد جنودي هؤلاء أن يوضح لك معنى كلماتي بالقوة من منطلق أن العنف يولد الفهم؟".

ابتلع قيصر لعبه بسرعة وكبرياء. لم يكن ثمة فائدة من تلقي ضربة مقابل لا شيء، تذكر نصيحة عمه: "لا تخض معركة إن لم تكن قادرًا على الفوز".

"بل فهمت بوضوح يا صاحب السمو، لكنني مدهوش من أن شخصًا يعتبر نفسه حاميًا للعادات والتقاليد الرومانية يجرؤ على صفع كاهن جوبيتر".

ابتسم سولا باقتضاب ولوّح بيده باستخفاف، وقال: "لقد لاحظت هذه التي تضعها على رأسك بالفعل، وأنت حرصت على اصطحاب حارسك، ومع ذلك، فإن تعيينك فلامين دياليس، أثناء حكم كينا أمر مشكوك في شرعيته، تمامًا مثل كل قراراته. دعنا الآن من جوبيتر الذي تتحدث عنه كثيرًا، ولنعد إلى موضوعنا الأساسي: ألن تطلق ابنة كينا اللعين؟".

فكر قيصر في إجابته جيدًا قبل أن يقول: "مع كل الاحترام الواجب... لا يا صاحب السمو".

"مع كل الاحترام الواجب... كرر سولا بسخرية، والتفت إلى دولابيللا وقال: "هل سمعت ذلك؟ مع كل الاحترام الواجب... ثم غرق في نوبة ضحك، وانضم إليه العديد من جنود الفيلق، وكانوا من قدامى المحاربين الذين خاضوا معه الحرب ضد ميثراداتس، ورافقوه في صولاته وجولاته، وشعروا بأنهم جزء من ضحكاته وانفجاراته؛ شاركوه في الضحك وكانوا الذراع المنفذة لغضبه.

كانت ضحكاتهم مهينة لقيصر، لكنه لم يعلق، فاجأه استخفاف سولا بتعيينه لمنصب فلامين دياليس. لم يكن هذا الأمر ضمن حساباته.

نهض سولا مرة أخرى، فتبعه دولابيللا بعناية. لم يكن أمرًا معتادًا أن يقوم سولا أمام ضيوفه وهو نادرًا ما يفعل ذلك... أما أن ينهض مرتين في نفس الجلسة، بدا أمرًا غريبًا تمامًا. اقترب الديكتاتور متمهلاً من قيصر،

كانت شفته تنزف، تسيل قطرات من الدماء على ذقنه، ثم تسقط الواحدة تلو الأخرى على أرضية الفسيفساء في قصر الديكتاتور.

عاد زعيم الحزب المحافظ المخضرم إلى نفس المكان التي مر به قبل لحظات عندما صفع قيصر، ورفع يده مرة أخرى. فما كان من قيصر إلا أن أغلق عينيه وأدار وجهه استعدادًا لتلقي ضربة أخرى، دون أن يتراجع خطوة واحدة، لكن لم تأت الصفعة الثانية، وعندما فتح عينيه وجد سولا أمامه يحك أذنه بيده.

"أنت تحتقرني. تحتقرني لأنك تعتقد أنك أفضل مني، وأفضل منه" قال سولا وأشار إلى دولابيل للحظة ثم عاد يبصره إلى قيصر مرة أخرى: "تعتقد أنك أفضل من جميع أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس، تعتقد أنك متفوق أخلاقياً علينا جميعاً لأنك تهتم بحثالة روما، أشباه الخرق البالية، فقراء المدينة، الذين ولدوا لخدمتنا، وهم مثلهم مثل جميع سكان إيطاليا الذين يطالبون بالجنسية دون أن يستحقوها. تعتقد أنك أفضل مني، لأنك تعتبر نفسك أكثر عدلاً وحكمة ووطنية، لكنك في الحقيقة لست أكثر إنصافاً ولا حكمة ولا وطنية. أنت تحمل دم عمك في عروقك، أعظم خائن عرفته روما على الإطلاق، من سعى طوال حياته لخرق النظام الطبيعي للأمر. ومن أجل ذلك أنا هنا، لإعادة كل شيء إلى حالته الطبيعية المنطقية، كي تتولى أعرق العائلات الأرستقراطية مهام إدارة وقيادة الدولة الرومانية، ولتأسيس نظام جديد يضمن عدم وجود هامش للمعارضة، ولهذا أنا على استعداد للتعامل بأكبر قدر ممكن من القوة والعنف حسب الحاجة. أنت تحتقرني لأنني أفرض نفسي بالعنف، أنت تنظر إلي باستخفاف لأنك تعتبر نفسك أكثر فضيلة مني. لكن هل تعلم يا فتى، ثمة مزية فيك، حتى أنك لم تكتشفها بعد، لكنني أراها بوضوح". ثم اقترب منه حتى أحس قيصر بأنفاسه المعطرة تداعب وجهه: "ما لا تعرفه، وما لم تكتشفه بعد يا فتى، هو أنك تشبهني. ربما لم تتضح ملامح ذلك بعد، ولكن داخلك بذرة ستجعلك مثلي، وإذا ما تركتك تكبر، فسوف ينتهي بك الأمر إلى أن تصبح مثلي

تمامًا". ابتعد خطوتين وأدار ظهره له للحظة واستأنف حديثه: "لكنني، على عكس ما تفعله أنت، لا أحتقرك. أعرف كيف أحكم عليك وفقًا لأبعادك الحقيقية. أرى ما يميزك وأرغب في انضمامك إلي صفي. نحن، عائلات مجلس الشيوخ العريقة، نحتاج إلى أفضل ما في روما معنا من أجل هذا النظام الجديد، لكن لهذا يجب أن تقسم على الاستسلام والولاء المطلق لي. لننطلق معًا بداية من طلاق ابنة كينا والزواج ممن اختارها زوجة لك. وسوف أمنحك فرصة يا فتى، أكبر مما تستحقه بكثير بالتأكيد. فكر بحكمة قبل التحدث مرة أخرى".

عاد سولا إلى الأريكة، واستند على مسند الظهر، وأمسك بكأس وشرب منه وهو ينتظر رد قيصر الذي لم يتأخر؛ إذ قال: "أنا لست مثلك يا صاحب السمو، وأتوقع أنه طالما نظامك هذا قائم، فلن أصبح أبدًا عضوًا في مجلس الشيوخ. أنا أعتذر منك، مع تفهمي بأن رفضي سينهي مسيرتي السياسية حتى قبل أن تبدأ، لكنني مع ذلك، لا أنوي تطلق كورنيليا".

"ولم لا؟" سأل سولا بدافع الفضول الحقيقي. "كل هذا بدافع التحدي؟".
"أنا لا أحب تلقي الأوامر من أي شخص يا صاحب السمو، لكن ثمة سببٌ آخر".

"وهو؟".

"أحب زوجتي".

"لقد كان زواجًا أهدافه سياسية بحتة، رتبته عمك وكينا" قال سولا رافعًا كفيه وحاجبيه علامة التعجب.

"مهما يكن، لكنني على أي حال يا صاحب السمو، أحب زوجتي وأقسمت على الولاء لها، وأنا لا أنكث عهدًا قطعته على نفسي".

"أنا أيضًا لا أنقض عهدًا، وقد أقسمت بألا أسمح لأي قريب أو تابع لماريوس بأن يهدد هذا النظام الجديد. لا يزال أمامي مسألة سرتوريوس، الذراع اليمنى لعمك، المتمرد في هسبانيا، لكنني سأنهاي أمره قريبًا ولا شك

في ذلك، أما هنا في روما، فلم يتبق أمامي سواك" أجاب سولا بهدوء بالغ. لم يعلق قيصر، بل وقف ينتظر كلمة الديكتاتور النهائية، ولم تتأخر كثيرًا: "يمكنك الانصراف الآن".

ارتعشت جفون الشاب وعبس. أعاد الجنود سيوفهم إلى غمدها وانسحبوا نحو زوايا الردهة. التقت عينا قيصر ولاينوس، امتلاً حيرة وريبة، ثم سارا بسرعة، ومعهما الحارس أيضًا، قبل أن يغير الديكتاتور رأيه ويقرر إعدامهما معًا في الوقت والحال، ومن يدري، ربما يشمل الحارس في قراره.

عندما أصبح دولايلا وسولا بمفردهما سأله: "لماذا تركته يذهب؟ إن كان أمره يقلقك إلى هذا الحد، فلمَ لم تقتله في الحال؟" استفسر دولايلا. "ليس هنا، ليس في منزلي، لا يزال الداعمون للفصيل الشعبي كُثر في روما، ورغم أنني لا أعترف بتعيينه لمنصب فلامين دياليس، إلا أن أتباعه والعامّة يجعلونه لكونه كاهن جوبيتر. يجب أن أحل هذا الأمر بهوادة؛ أوّلاً يجب استبعاده من منصبه الكهنوتي، وحينها نرى ماذا سيفعل. أنا فقط بحاجة إلى إتهام أو وجهه له ليصبح ذريعة لمحاكمته أمام محكمة تابعة لنا، كي نضمن الحكم بإعدامه. إذا ما اتبعنا القانون يسير كل شيء بصرامة وهدوء... وإتقان".

ضغط مُهلك

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٨٢ قبل الميلاد

لَمَّا عَادَا إِلَى مَنْزَلِ عَائِلَةِ جُولِيَا ثَانِيَةً، سَأَلْتَهُمَا أُورِيلِيَا: "لِمَاذَا عَدْتُمَا إِلَى هُنَا ثَانِيَةً؟".

"أَرَدْتُ أَنْ أَظْهَرَ لَهُ أَنِّي لَسْتُ خَائِفًا مِنْهُ" أَجَابَ قَيْصَرٌ بِشَكْلِ قَاطِعٍ، فَبَاغَتْهُ أُورِيلِيُو كُوتَا قَائِلًا: "بَلْ يَجِبُ أَنْ تَخْشَاهُ يَا فَتَى". وَلَمْ يَعلُقْ لِابْنِيُوسِ.

اقْتَرَبَ قَيْصَرٌ مِنْ زَوْجَتِهِ وَاحْتَضَنَهَا، فَارْتَمَتْ فِي أَحْضَانِهِ وَهِيَ تَرُدُّ بَيْنَ الْبِكَاةِ وَالنَّحِيبِ: "لَمْ أَشَأْ أَنْ تَتَأَذَى بِسَبَبِي". فَأَجَابَهَا: "الْأَمْرُ لَا يَتَعَلَّقُ بِزَوْاجِنَا فَقَطْ، حَتَّى لَوْ لَمْ أَكُنْ مَتَزَوِّجًا مِنْكَ، فَسَيُظَلُّ يَكْرَهُنِي. عِدَاوَتُهُ لِي سَبَبُهَا أَنِّي ابْنُ صَهْرٍ مَارِيُوسِ". ثُمَّ نَظَرَ قَيْصَرٌ إِلَى وَالِدَتِهِ، وَقَالَ: "لَقَدْ أَخْبَرَنِي عَمِّي بِذَلِكَ مِنْذُ زَمَنٍ، لَكِنِّي لَمْ أَصْدُقْ حِينَهَا، أَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ لَنْ يَغْفِرُوا لِي أَبَدًا كُونِي ابْنُ صَهْرِهِ." مَكْتَبَةٌ سُرٌّ مِّنْ قَرَأَ

تَنَهَّدَتْ أُورِيلِيَا، يَجِبُ أَنْ يَغَادِرَ ابْنُهَا رُومًا، لَكِنَّهُ كَانَ عَنِيدًا أَوْ رُبَّمَا قَوِي الْعَزِيمَةَ، شَجَاعًا أَوْ رُبَّمَا مَجْنُونًا، الْوَقْتُ وَحْدَهُ سَيَفْصِلُ فِي الْأَمْرِ. بَعْدَ مَرُورِ يَوْمَيْنِ بِالْكَادِ، وَصَلَ مَبْعُوثٌ مِنْ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ إِلَى رَدْهَةِ مَنْزَلِ عَائِلَةِ جُولِيَا، يَحْمِلُ مَكْتُوبًا. قَرَأَهُ قَيْصَرٌ، وَكَانَ مُحَاطًا بِوَالِدَتِهِ وَخَالِهِ كُوتَا وَزَوْجَتِهِ الشَّابَةِ كُورْنِيلِيَا وَصَدِيقِهِ الْمَخْلُصَ لِابْنِيُوسِ، وَبَعْدَمَا فَرَّغَ أَبْلَغَهُمْ بِمَا جَاءَ فِيهِ: "يَخْبِرُونَنِي بِأَنِّي قَدْ جُرَدْتُ مِنْ مَنْصَبِي الْكَهْنُوتِيِّ، لَمْ أُعَدِّ فَلَامِينَ دِيَالِيْسِ. إِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ أَيِّ ذَنْبٍ، وَلَا يُوقِرُ مَقْدَسًا، وَلَا يَدْخُرُ جَهْدًا فِي إِعْمَالِ الْقُوَّةِ."

"خشيت أن يأتيك رد فعل أسوأ من جانبه" علقت أوريليا. وأضاف كوتا: "إزاحتك من منصبك ليست سوى البداية". لم يعلق أحد على جملته، وكان على حق، إنها عملية تصفية تدريجية، سيواصل تنفيذها بدقة، مثل طبيب يجري عملية جراحية دقيقة للغاية، إنه يهدف إلى إزاحة الشاب من الحياة العامة في روما، حتى، يسهل عليه، بعد ذلك، إزاحته من الحياة نفسها.

"على أي حال، لم يكن يعترف بتعييني فلامين دياليس، لأنه لا يعترف بشرعية أي من قرارات كينا أو ماريوس. لقد كان هذا إجراءً شكلياً أمام أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس العامة في نفس الوقت..." أجابه قيصر، وبعدها بقي صامتاً لبضع لحظات. لقد بلغ الهم واليأس مبلغهما في نفسه، فظل يتمشى في الردهة مشية الحائر لا يعرف مذهباً ولا مضطرباً؛ وفجأة توقف وتصفح وجوهم جميعاً والبريق في عينيه وأضاف: "حسناً، سوف ألعب وفقاً لقواعده وقوانينه، ونظامه الجديد" كان يتحدث بقوة، بنبرة قنصل يخوض معركة: "سوف أرشح نفسي لمنصب الخمسة عشر. صحيح أنه منصب أقل من فلامين دياليس في الهيبة، لكنهم يعينون وفقاً لاختيار الشعب، وليس من قبل مجلس الشيوخ، وهذا يعني أن المنصب لا يخضع لأهواء سولا، بل يعتمد على إرادة الشعب".

صدموا جميعاً، وعجبوا لشأنه، إنه يسعى إلى مواجهة غير متكافئة بقدر كونها سخيفة في نظر كوتا. لكن أوريليا لمحت في ابنها بصيص روح مثابرة، ولم تملك إلا الإعجاب به، رغم أنها في الوقت نفسه كانت تخشى قدر ما سيتعرض له بخوض تلك الانتخابات، لأن سولا سوف يفسر الأمر باعتباره تحدياً لسلطته.

منزل سولا، بعد بضعة أيام

"ماذا فعل؟" سأل سولا بدهشة.

"ترشح لانتخابات الكهنة الخمسة عشر، إنه يعلم إنهم يعينون بالانتخابات الشعبية، بعيداً عن سيطرتنا في مجلس الشيوخ، لا شك أنه تحد واضح".

"هو كذلك بلا شك، لكن الناخبين يمكن التلاعب بهم تمامًا مثل السيناتورات، ويمكن شراؤهم مقابل أموال أقل بكثير. قم بشراء أكبر عدد ممكن من الأصوات، للحيلولة دون انتخابه، وبالإضافة إلى ذلك، مُرِّ بمصادرة ممتلكاته. لا أريد أن يمتلك المال الكافي كي لا يحاول رشوة آخرين". توقف الديكتاتور للتفكير بعمق ثم أضاف: "كان كينا يمتلك الكثير من الأموال؛ وبمصادرة المهر* الذي قد يكون أعطاه لقيصر عند زواجه من ابنته، لن تبقى له أي موارد تمكنه من شراء الأصوات، هكذا يصبح بلا حول ولا قوة"، ثم قهقه الديكتاتور وهو يضيف: "كم هذا ممتع".

"ما هو بالضبط؟"، سأله دولابيللا.

"أن أستبعده خطوة بخطوة، وأشدد الحصار عليه رويدًا رويدًا، كي أخنقه تدريجيًا. إنه أمر ممتع حقًا".

اتفق دولابيللا معه في الرأي، وغادر الردهة لإعطاء التعليمات اللازمة للرجال الذين كانوا ينتظرونه في بهو منزل سولا. كانت ثمة أوامر عليه إصدارها، إذ اقتربت الانتخابات وعليه شراء الكثير من الأصوات.

منزل عائلة جوليا

بعد ١٥ يومًا

نكس قيصر رأسه، وجلس على أحد المقاعد، دون الاتكاء على مسند الظهر، ومعه والدته وزوجته الشابة وخاله كوتا ولاينوس يستمعون إليه في صمت.

"كل ما جنيته بتحدي سولا هو أنني جعلت الأمور أكثر سوءًا، لم يصادر ممتلكات عائلتنا فحسب، بل حرم كورنيليا من أموالها أيضًا، كما أنني خسرت في الانتخابات، لقد اشترى العديد من الأصوات بقدر ما شاء. كم

* تعددت طرق الزواج في روما، ووفقا لإشارة الكاتب يُفهم أن زواج قيصر وكورنيليا تم بطريقة (coemptio) كويميسيو أي طريقة الشراء؛ إذ يدفع ولي الفتاة للشاب مبلغًا من المال نظير زواجه من ابنته، لمساعدته في إتمام أمور الزواج وشراء جهاز العروس. (المترجم)

من السهل إفساد الناس، أبناء الشعب، مثلهم مثل أعضاء مجلس الشيوخ"، شدد على كلماته الأخيرة، كما لو أنه في لحظة تجل كشف حقيقة الواقع كلها دفعة واحدة فتركته مجمدًا من هول ما أدركه من وحشية، هؤلاء الذين أراد النضال من أجل حقوقهم تخلوا عنه مقابل حفنة من العملات! هل يبقى هذا النضال منطقيًا بعد كل ما حدث؟

كانت أوريليا تعرف ابنها جيدًا، وأدركت ما يجول بخاطره، فذنت منه وقالت له: "أهل روما يستحقون العناء. حقيقة أن قلة من نوابهم يمكن استمالتهم وجرهم إلى الفساد بسهولة، لا تعني أن الغالبية العظمى من الذين يعانون صعوبة الحالة المعيشية ويتضورون جوعًا في الشوارع وتدوسهم انتهاكات بعض أعضاء مجلس الشيوخ لا يستحقون الدفاع عنهم. لكن هذه معركة غير متكافئة يا بني، فرصك في الفور منعدمة، لن تنتصر أبدًا، على الأقل ليس الآن، ليس أمام سولا، الذي وصلت قوة سلطاته إلى ذروتها. يجب أن نركز على الحفاظ على حياتك، ونستأنف خطة رحيلك في أقرب وقت ممكن، بما تبقى لدينا من أموال، فقريبًا يصدر سولا أمرًا باعتقالك. في البداية أراد إحراجك في الانتخابات العامة، لكنه الآن سيتعامل معك مباشرة، خذ ما تبقى لدينا واخرج من روما، وكما أخبرتك من قبل، سوف يساندك بعض معارفنا، كما ستدعمني كورنيليا وابنتك وأختك".

قبل قيصر نصحتها، ربما كانت على صواب. ظل جالسًا على حافة المقعد يتأرجح من قسوة الشعور بالهزيمة. ثم أضافت والدته بضع كلمات أخرى: "لم يهزمك يا بني؛ لم يفلح في إجبارك على إطلاق كورنيليا، وهو ما كان يريده أكثر من أي شيء آخر كي تنضم إلى صفه. في هذه المعركة الرابع هو أنت، لكن عليك الرحيل من روما الآن، وأنا سوف أجمع كل الدعم الذي أستطيع جمعه كي يسمح لك بالعودة، وإذا فشلت جهودي كلها، فثمة حل آخر يتطلب الصبر."

"وما هو يا أمي؟"

"لقد كبر سولا في السن، وسيموت قريبًا، لكن حتى ذلك الحين لن
أدخر جهدًا كي يسمح لك بالعودة. الآن اخرج من روما سالمًا، قبل فوات
الأوان".

الفرار من روما

طريق آبيا، روما، عام ٨١ قبل الميلاد

خرج قيصر ولاينوس يتدثران بظلال الليل، على طول طريق آبيا، باتجاه الجنوب. سارا على طول الطريق العريق، الذي يمتد إلى قرون طويلة، دون أن يغمض لهما جفن عن جانبي الطريق، خائفين من الدوريات الليلية، وكانا قد خرجا قبل إصدار قرار اعتقال قيصر بوضع ساعات.

"سيتعين ترميم هذا الطريق عاجلاً أم آجلاً" علق قيصر، ففوجئ لاينوس بكلام رقيقه. كان على حق، وإعادة تأهيل هذا الطريق كانت موضوعاً للنقاش في مجلس الشيوخ، ولكن في ظل الخلافات بين الأوبتيميس والحزب الشعبي لم توجه المبالغ اللازمة لإنجاز هذه الأعمال.

"حسناً، دعنا الآن نركز على الحفاظ على حياتك، كما تقول والدتك، بعد ذلك نفكر في طريق آبيا وأمر ترميمه" قال لاينوس مازحاً. "نعم، سوف أعنتني به يوماً ما" أجاب قيصر بجدية، وهو يحدق في ألواح القرמיד القديمة التي نزعت من الرصيف، ما أدهش لاينوس كثيراً، لكنه اعتاد على أن يقول صديقه أشياء غير متوقعة وفي أوقات غير مناسبة.

حثا الخطى حتى أحاط بهما ظلام الليل الدامس، ولم يكن ثمة قمر في السماء يبدي الظلمة، لكنهما لم يتوقفاً أبداً. واصلا السير يتلمسان الطريق على مدار ساعات حتى ابتعدوا قدر الإمكان عن المدينة.

"أوشكت الشمس على الشروق" قال لاينوس، وكانا قد أنهكا بشكل كامل، فاقترح عليه صاحبه: "أجل، دعنا نجلس على أحد الجوانب لنستريح لبعض الوقت".

"لقد هرب، لم يتمكن أحد من العثور على قيصر" أعلن دولابيللا وهو يقف أمام ديكتاتور روما. "لقد تصرفنا ببطء، كان يجدر بنا التكهن بأنه سيحاول الهروب بعد هزيمته في الانتخابات" أجابه سولا وهو يعرض على نواجذه. فتجراً دولابيللا وقال: "ربما كان علينا التصرف قبل الانتخابات. ليت مجلس الشيوخ كان قد أصدر قراراً باعتقاله قبل حسم نتيجة الانتخابات".

لكن سولا هز رأسه نافيًا، وأوضح: "مُطْلَقًا، إن اعتقال الخاسر والفائز لا يستويان". فنظر إليه دولابيللا وقال: "كانت الانتخابات... مزورة".

لقد جعلوا الشعب يرى الحقائق في المرأة، فماروا الإحفاق معكوسة. "ثمة أمور كثيرة مزورة في الحياة ستحدث عنها بالطبع... لكنه، أمام العامة، خسر في الانتخابات، وهذا ما يهمنا في الأمر برمته. حتى أتباعه الذين يرون فيه ذلك القائد القادر على أن يخلف ماريوس أو كينا في القتال ضدنا، سوف ينكمش حماسهم. لو كان أكثر ذكاء، لكان قد هرب مباشرة بعد محادثتي معه قبل بضعة أسابيع. ما كان عليه الترشح للانتخابات. على الأقل حينها كان سينجو محافظاً على سمعته بين مربيه. لكنه الآن، ومهما كانت ملابسات الانتخابات، سواء نزيهة أو مزورة، فقد رأى أتباعه أنه ليس لديه ما يفعله ضدي وضدنا، إنهم ملتهمون للغاية وبهم غرور، لكن لديهم القليل من الذكاء". رآه دولابيللا على صواب، كل ما قاله سولا، كما هو الحال دائماً، بدا له منطقياً تماماً.

"كم عدد الجنود التابعين لنا في إيطاليا؟" سأل الديكتاتور.

"١٢٠ ألفاً، الجيش الذي واجه ميثراداتس في الشرق والفصيل الشعبي خلال الحرب الأهلية بأكمله، بالإضافة إلى أن جحافل أنكونا لا يزالون في إيطاليا لضمان فرض النظام الجديد".

"حسنًا، دعهم يبحثون عنه، أريد قيصر في بيتي حيًّا أو ميتًا، إما راکعًا على ركبتيه أمامي أو تلقى جثته عند قدمي. دعهم يصطادونه، كما تُصطاد الذئب أو أخبث الحشرات".

إيطاليا

بعد عدة أسابيع من فرار اعتقال قيصر

في عتمة الصحراء، ووسط ظلال الليل والوحشة، قضى قيصر ولاينوس ليالي طويلة حالكة يتناجيان، دون أن يتوصلا إلى أي مخرج للأزمة. كانت الحلقة تضيق أكثر فأكثر، والجنود ينتشرون في كل مكان يبحثون عن المجرم الهارب الذي تجرأ ورفض تطليق زوجته. ١٢٠ ألف جندي يتبعونه رغم أن تهمته الوحيدة هي أنه لم يحث بوعدة لها بأن يبقى على العهد وألا يتخلى عنها أبدًا.

في بعض الأحيان، عندما يشتد البأس وأنت تواجه عدوًّا متجبرًا، وحينما توشك الكآبة والشعور بالهزيمة على السيطرة عليك، يتعلق أملك الوحيد بموت الشخص الذي يضطهدك. قالت له أمه ذلك، إن سولا كبر في السن وقد يموت قريبًا، لا أحد يعلم متى، لكن من المؤكد أن موته بات الحل الوحيد الذي قد ينجيه مما ألمَّ به، حتى أن لاينوس في إحدى الليالي التفت إلى رفيقه وقال له مطمئنًا: "إن سولا يأكل كثيرًا، فهو سمين ويشرب الخمر بكميات هائلة، وينغمس في العربة التي لا نهاية لها، لا يستغرب أن يموت فجأة في إحدى تلك الحفلات الخاصة به".

وعلى مدار فترة اختبائه، رافقه لاينوس على الدوام، وحده عرف مكانه، فكان يهبط إلى المدينة كي يتزود بالطعام والماء، ويحملهما إليه حتى أبعد الزوايا النائبة، ويمكنه معه طوال الليل كي يستأنس به في وحدته. استمر على تلك الحال حتى خشي قيصر أن ينكشف أمره، وهو الوحيد الذي يأخذ بيده ويدعمه. كان يوصيه بتجنب الذهاب إلى أي من منازل أصدقاء أو معارف عائلة جوليا أو أتباع غايوس ماريوس، إذ قبعوا جميعًا تحت المراقبة.

منذ فرار قيصر، أصبح لاينوس يتحرك بحذر شديد، ولمزيد من الاحتياط لم يعد إلى منزله قط، بل كان يتنقل بين منازل الأصدقاء المختلفين في سوبورا، الحي الأكثر ازدحامًا في روما؛ حيث هناك منزله ومنزل قيصر. كان من السهل على لاينوس الاختباء بين العامة، لكن بالنسبة إلى قيصر، بات الأمر مستحيلًا في ظل انتشار الآلاف من الجنود الذين يجوبون الشوارع ويسيطرون على جميع مداخل المدينة.

امتلاً قيصر قلقًا على صديقه إذ يعرّض نفسه للخطر من أجله، لكنه علم أنه لولاه لمات وتعضن. فكّر في الاستغناء عن دعمه كي ينأى به عن بطش سولا، وكان قد احتفظ بمبلغ وفرته له والدته، لكن جنود سولا في كل مكان وجميعهم يبحثون عنه. في ظل هذا الوضع استحالت إمكانية أن يذهب بنفسه إلى بلدة أو مدينة لشراء الطعام من سوق عام، وانطوى هذا الأمر على مخاطرة كبيرة. وبينما الوقت يمر، أحكم الضغط عليه حتى بات لا يطاق.

في أحد الأيام جاء إليه لاينوس وكان اليأس قد بلغ منه مبلغًا. لما لاحظ قيصر انزعاجه، أوضح له: "كل يوم تزداد صعوبة تفادي المرور عبر الدوريات. بحق الآلهة جمعاء، أمس تقريبًا حاصروني أثناء محاولتي الخروج من روما. لقد شددوا السيطرة على الطرق وانتشرت وحدات الجيش في كل مكان، وحدات كاملة هل تصدّق؟ يعزّمون البحث وسط الجبال، أمرهم سولا بألا يتوقفوا عن البحث تحت كل حجر في إيطاليا، ربما يجب أن تبتعد أكثر، اذهب إلى الشرق، أو..." لكنه صمت فجأة؛ لم يكن متأكدًا من أن ما يريد قوله مناسبًا، لكنه فعل: "إلى هسبانيا، إلى سرتوريوس".

"فكرت في ذلك؛ في كلا الأمرين" أخبره قيصر، وأضاف بينما يتأمل أفق غروب الشمس من سفح التل حيث كانا: "في الشرق، تصبح وطأة الضغط العسكري ومطاردتي أقل، لكنهم يراقبون جميع الموانئ، ستكون مخاطرة كبيرة أن أحاول الشروع في رحلة، على الأرجح سيخونني أحدهم ويسلمني

إلى فيالكو سولا قبل أن تصل السفينة إلى اليونان أو إلى آسيا. أما بالنسبة إلى هسبانيا، بصرف النظر عن حقيقة أنني سأواجه نفس المشكلة عند محاولة السفر إليها، سوف يعتبر سولا انضمامي إلى سرتوريوس عملاً عدائياً، ولن يخلو الأمر من رد فعل أكثر عنفاً من جانبه ضد زوجتي وابنتي ووالدتي وأختي... لا يمكنني فعل ذلك."

تهدد لاينوس؛ كان يعلم أن ما قاله قيصر صحيحاً. شعر بالأسف، وأثر في نفسه ما آل إليه وضعه، فأصر يائساً: "لكن الحلقة من حولك تزداد إحكاماً".

"أعلم ذلك؛ لذا قررت الاختباء وسط الأهوار" أجابه قيصر، وصمت، كما سكت لاينوس، لكنه لم يتمالك الصبر كثيراً وصاح فيه: "هذا خطير جداً، الهواء هناك ملوث، سوف تمرض أو تموت".

"ها أنا ميت بالفعل، انظر إليّ" وأشار إلى قاعدة المنحدر. رأى ٣٠ جندياً يصعدون بتمهل، يفحصون كل كتلة من الأرض، يحركون الحجارة من أماكنها، وكأنهم أرادوا اتباع أوامر سولا بالحرف" أجابه قيصر بقلّة حيلة.

تبادل لاينوس وقيصر النظرات لبرهة، وتعانقا، ثم ودّعه قيصر قائلاً: "سوف نلتقي هنا في غضون أسبوعين. قررت التوغل في الاتجاه المعاكس لسير الجنود، شمالاً نحو الأهوار، لن يدخلوا هناك خوفاً من الحمى المنتشرة في المنطقة، لكنني سأبقى. لن يفعلوا لك شيئاً، طالما أنك لست معي".

"اعتنِ بنفسك، بحق جويتر".

"سوف أتشبث بالحياة" كرر قيصر مبتسماً. ثم أخذ كل الطعام الذي أحضره صديقه وقربة مملوءة بالماء وسار نحو منطقة المستنقعات الرطبة الممتدة في اتجاه الشمال، التي لم يدخلها أحد من قبل إلا ولاقى المرض أو الموت.

في المرة الأولى التي التقى فيها لابينوس بقيصر بعد دخوله إلى الأهوار، وجد حالته الصحية متدهورة إلى حد ما، وراه واهنا، فأرجع ذلك إلى الصعوبات التي مر بها وندرة الطعام، لكنه أحضر له طعامًا كافيًا، وزوده بكميات مناسبة من رقائق البسكويت الذي يتناوله الجنود عادة، وهو خفيف الوزن ويسهل الاحتفاظ به حتى وسط المستنقعات بالإضافة إلى الخبز والجبن والمكسرات واللحوم المقددة وقربة أو اثنتين مملئتتين بالماء النظيف الصالح للشرب.

وعندما التقى به ثانية بعد أسبوعين، أدرك لابينوس أن الأمر لم يعد يتعلق بضعف يسير ولم يقتصر على بروز هالات سوداء تحت عينيه اللتين غامتًا بنظرة حزن وانكسار، بل لاحظ أنه بات يتعرق بغزارة ويرتجف كثيرًا. أهمه حاله، فسأله: "هل أنت مريض، عليك أن تأتي معي إلى منزلي الريفي". "لا! بحق جوبيتر! هذا من شأنه أن يعرضك للخطر... أنت وعائلتك بأكملها..." اعترض قيصر بإصرار. بدا منكسرًا محطّمًا، تخرج الكلمات من فمه بمشقة كبيرة.

فكر لابينوس بسرعة، أراد مد يد العون لصديق الصّبا، مع عدم الإضرار بنفسه. لاحظ أن قيصر بدا مختلفًا، لم يعد في وضع يسمح له بالتفكير بشكل سليم، صحيح أن اصطحابه إلى منزله كان أمرًا خطيرًا للغاية، ولكن... هل ثمة خيار بديل؟

"لا تعد إلى الأهوار، ابق هنا حتى أعود لك بحلول الصباح ومعني الطبيب، لنرى ما سيقوله بخصوص حالتك الصحية، اتفقنا؟" قال له بلهجة أمرية.

لم يجب قيصر، جلس على الأرض وهز رأسه في صمت بينما يغطي نفسه بالشراشف النظيفة التي أحضرها له صديقه، فتركه مجبرًا. لم يكن

بإمكانه فعل أي شيء آخر له في ذلك اليوم. نزل من على الجبل، وفي طريق عودته إلى القرية، ذهب إلى بلدة قريبة بحثًا عن طبيب يوناني تعامل معه من قبل، واتفقا على أن يأتي معه لفحص مريض دون أن يكشف له هويته، ثم سارا عبر الطرق والشوارع، وفي طريقهما مرّا بحانة مليئة بالجنود، وبسهولة تعرف الكثير منهم عليه وعلى الطبيب الذي يرافقه.

كان قائدهم، كورنيليوس فاغيتس، قائد مائة يتمتع بقدرات فائقة في تتبع المجرمين، ما أهله قديمًا لمهمة العثور على العبيد الهاربين، فقد كان ماهرًا للغاية في ذلك. لكنه كان يتقاضى مكافآت ضئيلة على المهمات الخاصة بالبحث عن أشخاص مغمورين، فئات لا يجدي نفعًا ولا يسد الرمق، لذا؛ قرر منذ سنوات طويلة التطوع في الجيش لأنه وفر له مصدرًا للرزق أكثر استقرارًا. ومثله مثل بقية الجنود، عرف فاغيتس أن الشاب لاينوس أحد المقربين لقيصر، الهارب المطلوب العثور عليه، لذلك توصل إلى أنه لا يوجد أفضل من التمرکز بالقرب من منزل عائلة لاينوس في القرية، ومع ذلك، لم يلحظ رجاله شيئًا غريبًا، أو هكذا قالوا له، وكان قائد المائة قد تقدم في السن، وبات يجد مشقة في مطاردة الهاربين، لذا اعتمد على جهود رجاله وملاحظاتهم، لكنه في ذلك اليوم بالذات أجبرته غريزة التحري على التصدي للأمر بنفسه، فأمر رجاله: "تعالوا!" فتبعوه على مضض. كان مكوثهم في الحانة أفضل بكثير بالنسبة لهم، ولم ينفذوا أي دوريات في المنطقة منذ بضعة أيام.

"لقد تتبعناه من قبل عدة مرات" قال أحد رجاله مُسَوِّغًا تكاسلهم بينما يشير إلى لاينوس. "وفي كل مرة يعود إلى منزله أو من حين لآخر، يذهب إلى الجبال للصيد".

"يصعد الجبل؟" سألهم كورنيليوس بينما كانا يتتبعان لاينوس والطبيب من على بُعد على طول طريق مزدحم سهل عليهم التمويه. "نعم، باتجاه الأهوار".

"وهل تتبعونه إلى هناك؟" سأل فاغيتس بينما يواصل السير.

"حسنًا، نتبعه حتى منزله الريفي، نعم" أوضح أحد الجنود البارزين؛ إذ خشي أن يتهمهم القائد بالتقصير، وأوضح: "لكن في حقيقة الأمر عندما تعمق بين الجبال تتبعناه لمدة نصف يوم، ثم عدنا وانتظرناه بالقرب من منزله، وكان يعود دائمًا بصيد يسير، لهذا السبب"....

"لهذا السبب استتجتم أنه يذهب للصيد فقط، دون أن تتحققوا من الأمر. هل كان يحمل معه مؤنة من ماء أو طعام عند صعوده إلى الجبال" سأل قائد المئة، وقد تأجج غضبه من رجاله، فتنحج الجندي قبل أن يجيب: "نعم، الكثير... وفسرنا الأمر على أنه يجلب كل تلك الكمية لنفسه، حتى يفرغ من الصيد".

"ومتى يعود من الصيد؟".

ازدرد الجندي لعابه قبل أن يجيب بصوت خفيض: "في اليوم التالي".
"ويحكم! ألم ينشغل بالكم بالتفكير في سبب أخذه للكثير من المؤن من أجل قضاء ليلة واحدة فقط!". اختتم كورنيليوس فاغيتس استجوابه، ساخطًا من غباء رجاله، ومستاء من نفسه لأنه لم يشرف على عمليات المراقبة بنفسه. ثم حدث شيء لفت انتباهه وجعله يترك المحادثة؛ إذ وجد أن لاينوس والطبيب ينحرفان عن الطريق ويتجهان نحو الجبال.

"هل من المعتاد أيضًا الذهاب للصيد برفقة طبيب؟" أضاف مؤنبا، دون أن ينتظر ردًا من أي من رجاله "ويحكم! ما أشد حُمقكم!".

عند سفح الجبل، ملجأ يوليوس قيصر جنوب روما

وجد لاينوس والطبيب قيصر مستقلقيًا على الأرض على أحد جانبيه، منحنيًا، يتشبث بالشراشف يتدثر بها ويرتجف. كان الليل قد حل، وعلى الفور، دنا منه الطبيب وسأله: "منذ متى وأنت تتألم؟".

"منذ بضعة أيام... لكن هذا الصباح ازدادت... حدة الآلام... وساءت حالتي..." أوضح قيصر بصوت متهدج. فحص الطبيب وجهه ووضع يده

على جبينه وسأله مرة أخرى: "هل هذه هي المرة الأولى التي تصاب فيها بمثل هذه الحمى؟". فhez قيصر رأسه نافيًا.

"هل استمرت لحوالي أربعة أيام؟ أو ربما لأربعة أيام آخر؟" سأله. فنظر إليه قيصر فاغترًا فاه من دهشته بعلم الطبيب بما حدث بالفعل، وأجاب: "هذا صحيح... لقد تكررت عدة مرات... لكنها في كل مرة كانت تهدأ بعد ذلك...".

"لن تُشفى طالما أنك لا تزال هنا أيها الفتى" قال الطبيب، ثم نظر إلى لاينوس وأضاف: "بحق أسقليبيوس، إنه مصاب بمرض الملاريا بسبب استنشاقه لهواء ملوث من الماء الراكد، يجب أن نخرجه من هنا وإلا ستدهور حالته أكثر فأكثر. إنه لا يزال شابًا، وإذا ما نقلناه إلى مكان جاف بحلول الفجر قد يتعافى تمامًا، لكن إذا بقي هنا سيموت لا محالة. الماء والغذاء لا يكفيان، عليه الابتعاد عن هذا المكان الموبوء".

"سأفكر في حل" أجاب لاينوس. ففطن قيصر إلى مقصد صديقه وقال معترضًا: "لا يجب أن أذهب إلى منزلك... لا يجدر بي توريط شخص آخر معي... كل من يساعدني سيعدم". حينها اتسعت حدقتا الطبيب، لقد علم للتو أن هذا الشاب المحموم هو الهارب الذي يبحث عنه كل الجنود في إيطاليا، تملكه الخوف من انتقام رجال سولا فصاح مذعورًا: "لن أبقى هنا الليلة"، وكانت العودة ليلاً وسط الظلام تنطوي على مخاطر كثيرة؛ فقد يتوه الشخص بين الجبال أو يسقط في واد. ثم التفت إلى لاينوس وقال له: "ادفع لي ما اتفقنا عليه ولا تبحث عني ثانية أو تطلب مني معالجة هذا الهارب".

حدق إليه لاينوس. أظهرت ظلال ضوء القمر الوجه الجاد للطبيب وهو يمد ذراعه ناحيته وراحة يده إلى الأعلى، ينتظر عمالاته المعدنية.

قال له قيصر: "ادفع له... من مالي الخاص" وأشار إلى إحدى الحقائق التي كان يحمل فيها الأموال التي أعطتها له والدته قبل مغادرة روما.

امتلاً لابينوس بالغضب لكنه حاول التحكم في انفعالاته، وأخرج بعض العملات المعدنية من حقيبة قيصر ووضعها في يد الطبيب.

ولمّا لمح الطبيب انزعاجه قال له: "ليس للأمر اعتبارات شخصية، الموقف حرج للغاية بالنسبة لي، لكوني طبيباً أقف عاجزاً أمام مريض ولا أستطيع مساعدته، لكنك تعلم أن سولا يريد صديقك حياً أو ميتاً، ولا أرغب في أن يرتبط اسمي به بأي شكل من الأشكال، هذه ليست معركتي. لكن ربما تخف الحمى قليلاً إذا ما وضعت قطعة من القماش المبلل بالماء البارد على جبهته، استمر في هذه العملية طوال الليل قد تتحسن حالته، وعند الفجر خذه إلى مكان آخر، حينها تصبح فرص الشفاء أفضل".

لم يقل لابينوس شيئاً.

أحكم الطبيب قبضته على العملات المعدنية وسار مبتعداً وسط ظلام الليل.

"التربكه الآلهة وينتهى به الأمر في وادٍ" صاح لابينوس بغضب.

"هذا الرجل... لا يلام... إنه يخشى سولا... لا تغضب ممن ساعدنا..."
علق قيصر. فجلس لابينوس إلى جواره، وغمس قطعة من القماش في ماء بارد، وهو يقول له: "تتعامل بكرم أخلاق مع الجميع يا قيصر، وكرمك هذا سوف يتسبب في هلاكك في يوم من الأيام".

ولم يتبادل الصديقان كلمة أخرى في تلك الليلة، لم يقدر قيصر على الكلام، ولم يكن لابينوس في مزاج جيّد للتحدث.

بعد ساعات سقط لابينوس نائماً، لكن قيصر ظل متيقظاً، ربما يرجع ذلك إلى إصابته بالحمى، أو لأن قواه قد خارت تماماً، لكنه بدأ يعيد التفكير في كل شيء: ما الهدف من تمرده هذا، ما الذي جناه من الإصرار على عدم الإذعان لسولا أبداً؟ ألم يكن من الأسهل أن يحذو حذو بومبيوس ويستسلم لضغوط الديكتاتور فيطلق كورنيليا ويتزوج من أي فتاة يختارها له هذا الطاغية؟ ماذا سيحقق من وراء الصمود والعناد والمعارضة المستمرة

لسولا؟ ألن يضمن خضوعه لسولا واقعًا أفضل لزوجته كورنيليا ووالدته وعائلته بأكملها؟

لو طلقها ستعاني بالتأكيد، كما سيتألم هو أيضًا. لكن أليس ألم الطلاق أخف وطئًا من أن تعاملها الدولة الرومانية بصفقتها زوجة متمرّد، هارب من العدالة، أعلنه سولا عدوًا للدولة؟

كان يتعرق بغزارة أرهقه التفكير في كل شيء، وقد فقد القدرة على التفريق بين الصواب والخطأ، ومع ذلك، فكورنيليا لا تريد الطلاق، وافقت فقط من أجل حمايته، وأيدته أمه في تمرده على الطاغية، كما قدم له لاينوس دعمًا لا حدود له. لماذا كل هذا الدعم لشاب لم يبلغ ٢٠ عامًا بعد؟ ماذا رأوا فيه جميعًا؟ استدار على الجانب الآخر، انكمش واستلقى في وضع الجنين، لكنه كان يعرف ما رآه الجميع فيه، وقبل كل شيء، ما رآه سولا نفسه؛ إنه ابن صهر غايوس ماريوس، أعظم القادة الشعبيين، الوحيد الذي كان يخشاه سولا حقًا طوال حياته، وهذا جعله يفكر أكثر لماذا تعامل معه الديكتاتور القوي بهذا القدر من الغضب؟ ربما يصبح مصيره، كما أخبرته والدته، أعظم مما تخيله. وإذا كان سولا يخشاه إلى حد إطلاق عشرات الآلاف من الجنود بحثًا عنه في جميع أنحاء إيطاليا، فربما يرجع ذلك لكونه قويًا ومخيفًا بالفعل. وهذا ما شجعه أكثر، إنه ابن صهر ماريوس العظيم، وسوف يرقى إلى مستوى ما توقعه الجميع منه: والدته، وزوجته، وأختاه، وكل من آمنوا به، لن يخذلهم بالاستسلام، لم يستسلم أمام سرتوريوس على مرأى من عمه في معسكر مارس. لقد فهم قيصر ما أراد ماريوس التحقق منه في ذلك اليوم، عندما أخضعه لسلسلة من الضربات التي لا نهاية لها سددها له سرتوريوس؛ أراد عمه أن يتأكد مما سيفعله: هل يستسلم أو يطلب الرحمة أم، على العكس من ذلك، سيظهر أنه أحد أولئك الذين لم ولن يستسلموا أبدًا، بغض النظر عما يواجهونه، لا يستسلمون.

كان ينحدر من نسل إينياس ومارس وفينوس.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ثم تذكر أن سولا عبث برفات عمه، ودنّس قبره، وأنه أقسم على ألا ينحني أبدًا لهذا الطاغية، وأن قدره هو التصدي لسولا وكل الطغاة الذين قد يحلون محله. هو من سيغير روما. وفي خضم أفكاره، احتضنه إله النوم، مورفيوس، وغفا أخيرًا.

عند سفح الجبل

بحلول الفجر

استيقظ لاينوس مع أول ضوء للنهار. تأمل فيما حوله، وهاله ما رآه، فصاح منزعجًا بينما يهز قيصر الغارق في النوم منهكًا من أثر الحمى: "بحق هرقل، إنهم قادمون!".

"من؟".

"الجنود" وأشار نحو قاعدة الجبل، ثم أضاف: "إما أنهم تتبعوني أو خاننا الطبيب، أو كلاهما معًا، لا أعرف، لكنهم قادمون" والتفتت إلى قيصر وصاح: "اهرب فورًا، إلى الأهوار إذا لزم الأمر". لكن قيصر فاجأه إذ هز قيصر رأسه نافيًا بهدوء، ولما رآه مدهوشًا أوضح له: "لا... لم يعد في مقدوري الاختباء... لقد خارت قواي تمامًا... ويبدو أن ذلك الطبيب، سواء كان خائنًا أم لا، طبيب ماهر... الأهوار لم تعد خيارًا الآن... أنا...". همس له لاينوس بمرارة: "سوف يعتقلونك ويسلمونك إلى سولا و...". فقاطعه قيصر، كانت الحمى قد هدأت قليلًا بحلول الفجر كما توقع الطبيب، ما سمح له بالتفكير بوضوح: "خذ ما لدي من أموال واهرب أنت قبل أن يفوت الأوان".

"لن أتركك، أصبحت ضعيفًا ووحيدًا، وكيف آخذ أموالك؟ ما الجدوى من ذلك؟ أنت تتوهم من تأثير الحمى".

"لا، أنا بخير الآن وأرى كل شيء بوضوح". ثم نهض واقفًا على قدميه ونظر نحو الجنود الذين يقتربون، وأضاف: "لن يفيد بقاء المال هنا معي،

سوف يسرقه الجنود مني بمجرد وصولهم، لكنه في أيد أمينة معك، معظم الأموال التي أخذتها من والدتي موجودة بالفعل في منزلك الريفي. خذ هذه الحقائق أيضًا، واذهب بعيدًا، عد إلى منزلك، وسوف يصلك خبري قريبًا، لن يسلموني إلى سولا، سترى فيما بعد كيف. إذا كانت الانتخابات الأخيرة قد علمتني درسًا واحدًا، فهو أنه يمكن شراء الضمائر شريطة أن تعرض على أصحابها مبالغ كبيرة"، ثم ابتسم وأضاف: "أتعلم من عدوي. صحيح أن سولا ملعون، لكن يمكن أن نستقي منه بعض الأساليب السوقية".

بدأ لاينوس يتفهم فكرة صديقه، كانت خطة محفوفة بالمخاطر، لكنها منطقية. لم يجادل، أخذ المال، وربت على كتفه للحظة، ودون أن ينبس بينت شفة، استدار وبدأ في الاختباء بين الأشجار كي لا يراه جنود الفيلق، بينما جلس قيصر بثبات ينتظر اعتقاله. سرعان ما حاصره عدد من الجنود المسلحين، فسألهم ليس بنبرة هارب، بل بنبرة من يمتلك السلطة: "مَنْ قائدكم؟".

"إنه أنا" قال له كورنيليوس فاغيتس، الذي وصل للتو إلى قمة المنحدر، يلتقط أنفاسه بصعوبة.

"أريد التحدث إليك على انفراد" اقترح قيصر.

"لا أعتقد أنك في وضع يسمح لك بالتفاوض على أي شيء أيها الهارب" أجاب فاغيتس بنوع من الانزعاج من الاضطرار إلى تسلق الجبل للإمساك بذلك الهارب من العدالة.

"أعتقد أن وضعي يسمح لي بالتفاوض، ولكن على انفراد" أصر قيصر. أخذ القائد المخضرم نفسًا عميقًا. نظر إلى رجاله ففهموا مقصده. لقد عملوا معًا على مدار شهور ويعرفون كيف يفسرون إيماءاته، وعلى الفور تراجعوا جميعًا بما يكفي لإضفاء الخصوصية على المحادثة بين قائدهم والمتمرد.

"لقد واجهت صعوبة في صعود التل" علق قيصر.

"بل جبال" رد عليه. فسمح قيصر لنفسه بابتسامة، وأجاب: "لا يا قائد المئة، بل مجرد تلال، لكن السنوات تلقي بأثرها عليك. لقد حان وقت تقاعدك من الجيش، تستحق الحصول على الراحة... وعلى مكافأة مناسبة أيضًا". لم يكن فاغيتس بحاجة إلى الكثير من التوضيح فسأل دون مواربة: "كم؟".

اعتقد قيصر أنه من المناسب التحدث مباشرة في الموضوع، وقد أحب ذلك، إذ ذكره بأسلوب عمه ماريوس. إنه الآن يحاول شراء الوقت بالمال، ربما يكلفه ذلك كل ما يمتلكه: "ما يضمن لك حياة كريمة لما تبقى من حياتك، دون الحاجة إلى الاستمرار في العمل". تأمل فاغيتس لبعض الوقت، لم يتبق على تقاعده سوى بضعة أشهر، كما أنه لم يعد راغبًا في الاستمرار بين صفوف الجيش، لكنه بحاجة إلى المال، فرغم الأجور العالية التي يتقاضاها من الجيش على مدار السنوات الأخيرة، إلا أنه لم يحسن الادخار كما أن النيذ والعاهرات وسائل ترفيه باهظة الثمن تفوق المقدرة المادية لأي ضابط روماني عادي، فقال: "سوف يتعين عليّ أيضًا شراء صمت رجالي".

"كم عددهم؟".

"سيتوريا، ٨٠ جنديًا"، حينها نظر قيصر حوله بتشكك، لم يصطحب معه سوى ٣٠ فقط، فأوضح له: "لم يأت معي نصفهم حتى، لكن البقية سيسألون، علينا إسكاتهم جميعًا، لأن الدفع لمن حضروا معي إلى هنا فقط لن يجدي". فوافق قيصر وقال: "حسنًا ٣٠ دينارًا من الفضة لكل رجل منهم، و٣ آلاف لك".

"٣ آلاف دينار من الفضة لن توفر لي مستقبلًا جيدًا، بل حياة متواضعة للغاية. أريد ٥٠ دينارًا من الفضة لكل من رجالي و١٥ ألفًا لي".

"أنفق معك فيما يخص رجالك، ولك ٣ آلاف".

"١٢" ألفًا".

"دعنا نعدل الأرقام" اقترح قيصر بهدوء، إنه يساوم على ثمن حياته: "٤٠" دينارًا لكل من رجالك و٨ آلاف لك".

بالنسبة لفاغيتس، بدا ٤٠ دينارًا مبلغًا مناسبًا لجنوده، وسيقبلون به بلا شك، لكن المبلغ الخاص به يحتاج إلى زيادة، فاقترح: "٩ آلاف لي".
"٨٥٠٠".

"حسنًا،" ٨٨٠٠ أصر القائد.

"ليكن، ٤٠ دينارًا من الفضة لكل من رجالك ٨٨٠٠ لك" قبل قيصر.
"أعطني المال".

حينها لم يتمالك قيصر نفسه فضحك بصخب، وقال: "ثم تقطع رأسي هنا؟". ثم أضاف بعدما هدأت ضحكته: "خذني إلى مكان جاف وآمن، بعيدًا عن هذه المستنقعات الموبوءة، وسأخبرك إلى أين ترسل أحد رجالك برسالة بخط يدي، وفي غضون ثلاثة أيام تحصل على أموالك". لقد علم قيصر أنه في اليوم الرابع قد تعود الحمى، وبحلول ذلك الوقت يجب أن يصبح حرًا. زم فاغيتس شفثيه وعبس، وقال: "بحق جويتر، ولكن إن لم أحصل على نقودي بحلول اليوم الثالث، فسوف أقيدك بالسلاسل وأخذك بنفسى إلى سولا".

"سوف تحصل على أموالك بكل تأكيد" أكد قيصر.

أحد الحوانيت لمقابلة كورنيليوس فاغيتس
بعد ثلاثة أيام

دخل لابينوس إلى حانوت قائد المائة يحمل أموال قيصر في كيس معلق في يده اليمنى. احتوت رسالة صديقه على تعليمات دقيقة للغاية حول ما يجب القيام به. خطأ لابينوس بضع خطوات داخل الحانوت ووضع الكيس على الطاولة التي يجلس أمامها القائد يشرب كأسًا من النبيذ.

"هل هذا كل المبلغ؟" استفسر.

"هنا؟ في ذلك الكيس الصغير ١٢ ألف دينار؟ لا يا رجل، لا" قال قيصر، ونظر إلى صديقه وسأله: "هل أحضرت كل ما اتفقنا عليه؟".

فأوماً لابينوس برأسه، والتفت ناحية الباب، وقال: "الباقى فى الخارج، يحمله أحد عبيدى ويحرسه جنود هذا القائد".

"لنخرج إذن" قال قائد المائة، وأفرغ ما تبقى فى كأسه من النبيذ فى رشفه واحدة.

"لن أفتح الصناديق التى أحضرها صديقى بحضور رجالك، ربما لا يجد البعض أن توزيع الأموال عادلاً" أشار قيصر. فنظر فاغيتس إليه وضحك ثم قال: "بحق هرقل، أنت على حق!". ثم غادر الحانوت وأصدر تعليماته للسماح للعبيد بحمل الصناديق إلى الداخل. فاستغل لابينوس تلك اللحظة للتحدث على انفراد مع قيصر.

"كيف تأكدت من أنه سيسمح لنا بالرحيل؟".

"لقد سئم كل شيء، الجيش والحرب، لن يستفيد أى شيء إذا سلمنا، والكرم ليس من صفات سولا، وهذا ما يعلمه الجميع. سوف يتركنا نذهب، وسيعطي ٤٠ ديناراً لكل من جنوده، كي يسمحوا لي بالهرب مجدداً، مفلساً لكنني حر. ألا يستحق هذا أن نشرب معاً كأساً من النبيذ؟". ثم أمسك بالإبريق وقرب كأسين نظيفين، وصب فيهما النبيذ بكل أريحية، كما لو أنه لم يعد مطلوباً للعدالة، بل قائد لهذه الوحدة العسكرية. بعد ذلك أضاف: "سوف يمكث قائد المائة هنا لبضعة أشهر حتى يحين موعد تقاعده، يتظاهر بالبحث عني. سيظل على هذا الوضع لأسابيع قليلة، يشرب الخمر مع رجاله السعداء بالمال الذي تلقاه مني حتى يتقاعد". ثم قرب كأس النبيذ إلى صديقه وعرض عليه: "هل تشرب معي نخب الحرية التي أفلستني؟".

أوماً تيتوس لابينوس برأسه رافضاً، وأمسك بكأس النبيذ الذي قدمه له قيصر مبتسماً، وقال: "إما أن الحمى أثرت عليك، أو أنك فقدت عقلك".

لكن قيصر نفى كلا الخيارين، وأوضح له: "لا هذا ولا ذلك يا صديقي، الأمر فقط أنني بتُّ أدرك الكثير عن الطبيعة البشرية" وشرب كأسه حتى آخره، ثم أعادها إلى الطاولة، ونظر إلى لابينوس وقال: "سوف أعود للاختباء مرة أخرى".

الانتصار الأول

لم يحقق قيصر أول انتصاراته في ساحة المعركة؛ بل عبر نضاله بين الحمى والمصاعب. عبر الاختباء على مدار أيام وأسابيع وشهور في أكثر زوايا إيطاليا قسوة، هاربًا على الدوام... في انتظار الموت أو الإذن بالعودة إلى روما.

منزل سولا، روما، عام ٨١ قبل الميلاد

ذهب البريتور ماركوس إميليو ليبيدوس، وأوريليو كوتا ووالدة قيصر، إلى قصر لوسوس كورنيليوس سولا لطلب العفو عن الشاب. حتى كراسوس وميتيلوس وقادة الأوبتيميتيس الآخرين طالبوا سولا بالتوقف عن اضطهاده، ليس بدافع الرحمة، ولكن لأن الفشل في اعتقال قيصر كان يضحك صورة من تجرأ على تحدي سلطة النظام الجديد. أدرك سولا هذا الأمر أخيرًا بوضوح.

بعد مغادرتهم، تنهد الديكتاتور ومكث مع بومبيوس ودولابيل، اللذين حضرا جلسات التماس العفو عن قيصر، فسأل دولابيل: "ما رأيك يا دولابيل؟". دائمًا ما أراد بومبيوس إلى جانبه بسبب قوته في المجال العسكري، لكنه اعتبره أصغر من أن يدلي برأيه في الأمور السياسية.

"لا أعرف ماذا أقول، من المنطقي أن تطلب الأم العفو عن ابنها، وينطبق الأمر نفسه على خاله أوريليو كوتا، وهو بالتأكيد الأكثر اعتدالًا من بينهم، وأتقن في محاولة إقناعنا بفكرة أن التسامح من شأنه أن يخفف من الانزعاج

في صفوف الفصيل الشعبي، الذي تم إخضاعه منذ فرضت حكمك، وطهرت المؤسسات من عناصره منذ أحكمنا قبضتنا عليها. لكن حضور البريتور لبيدوس، لدعم طلبهم يشير إلى أن قضية هذا الشاب الهارب أخذت أكبر من حجمها. يبدو أن كراسوس وميتيلوس يتفقان معي في هذه النقطة، لكنني لا أفهم دوافع لبيدوس على أي حال".

"لبيدوس يحاول البروز، إنه يعلم أنني لا أقدره وأني سأضع قيودًا تعرقل صعوده السياسي، طموحه لا حدود له، وهو يحب إصدار الأوامر أكثر من أن يتلقاها. أنا مقتنع بأنه يعد نفسه للترشح زعيمًا للحزب الشعبي، هل ثمة طريقة يقدم بها نفسه بصفته قائدًا للجماهير أفضل من المطالبة بالعفو عن ابن صهر أعظم قاداتهم؟" قال سولا.

"هذا محتمل للغاية، ومع ذلك وبعيدًا عن تقلبات لبيدوس السياسية، لقد تخلصنا من كل أعضاء الفصيل الشعبي هنا في روما، لكن لا يزال أمامنا تمرد سرتوريوس، الذراع اليمنى لغايوس ماريوس، في هسبانيا. ومن ناحية أخرى - في الواقع - كما أشار آخرون، فإن قدرة قيصر على الاختباء لفترة طويلة، دون أن يتمكن أحد حتى الآن من إلقاء القبض عليه يفتح جبهة شعبية أخرى ضدنا في إيطاليا، رغم أنه لا يحظى بأي دعم عسكري، لديه فقط الدعم السياسي، وهو ضعيف نسبيًا، ولكن ربما... "قال دولابيللا، ثم صمت لبرهة للتفكير قبل أن يكمل: "حسنًا، أرى أنه ربما من المناسب أن نعفو عنه".

تنهد سولا، والتفت إلى بومبيوس، ليرى ماذا سيكون رأيه، فقال: "اتفق مع دولابيللا، قيصر ليس له شأن، لكن مع الاستمرار في البحث غير المثمر عنه، والذي يبدو أن لا نهاية له، ما نجنه هو أننا نعظم صورته في نظر العامة، كما أشار كراسوس وميتيلوس بالفعل اليوم".

هز سولا رأسه في صمت عدة مرات، يفكر فيما سمعه، وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه: "بحق جويتر أوبتيموس الأعلى، ما أشد حمقكم... وسذاجة الجميع... "بدا الديكتاتور يائسًا لأن لا أحد استطاع أن يقدر الموقف حق قدره: "نحن نتحدث عن ابن صهر غايوس ماريوس،

أخطر عدو واجهته الأرستقراطية الرومانية على الإطلاق، كان ماريوس على وشك تدميرنا، والقضاء على سلطة أعضاء مجلس الشيوخ، يبدو أنكما قد نسيتما. كنا نخوض حربًا ضد رجاله في إيطاليا قبل أقل من عام واحد، وكما تقول، لا يزال أنصاره يقاتلون ضدنا في هسبانيا بقيادة سرتوريوس".

ثم صمت لبرهة، كان بحاجة إلى التفكير؛ العفو عن قيصر لم يكن تصرفًا سليمًا، لكنه لن يستطيع معارضة كل الداعمين له دفعة واحدة. لم يفتن أحدهم إلى القوة الخفية في ذلك الشاب. تذكر سولا نظرتة الجريئة له. عندما يجرؤ شاب يبلغ من العمر ١٨ عامًا فقط على مواجهة ديكتاتور يمتلك مطلق السلطة في روما، فهذا يعني أنه لا يضع حدودًا لتطلعاته. هل كان من الصعب على الآخرين إلى هذا الحد رؤية ما يراه واضحًا جليًا؟

تنهد سولا وأضاف: "سأعفو عن ذلك اللعين غايوس يوليوس قيصر لكن السبب الوحيد وراء اتخاذ هذا القرار هو تجنب أن نصبح مادة للسخرية. حسنًا، كان دولابيل على حق في هذه النقطة، كل يوم يمر دون اعتقاله رغم تعيين ١٢٠ ألف جندي للبحث عنه، يضعنا في محنة. لا أريد أن أساهم في تضخيم شخصيته، وإظهاره بمظهر القوى الذي لا يقهر، بينما هو، حتى الآن، عديم الشأن والقيمة، فهو لم يترافع في قضية واحدة ولم يشارك في أي عمل عسكري. هذا صحيح، لكن كلاهما على خطأ، الجميع مخطئون بشأن الشخص الذي تعتبرونه جميعًا غير مهم، لأنه إذا لم يمت صغيرًا، فسوف يكبر ويكتسب القوة وحينها يصبح مصدر خطر لنا جميعًا. لقد أصبحت الآن مثل كلب عجوز، وسوف يتعين عليكما أنت يا دولابيل أو أنت يا بومبيوس التعامل مع الشخص الذي تستخفان به كثيرًا الآن، الشخص الذي تحتقرانه، حينها سأكون قد أودعتكم الحكم. أقول لكم إن ما يمليه عليّ عقلي وينبع من غيرتي الجمة على قضية المحافظين هو مواصلة البحث عنه، لكنني أميل إلى العفو لأنه يمنحني راحة البال لما تبقى من حياتي، ولم يتبق الكثير. كما سيسهم هذا العفو في القضاء على أسطورة أن هذا الشاب لا يمكن إضعافه، سوف أقتلعها من جذورها، لأنه لا يمكن محاربة أسطورة إذا ما آمن بها

الناس. عليك أن تتصرف دائماً لمنع العدو من امتلاك أساطير يؤمن بها، لأنها ستمنحه الأمل. بلا الأساطير لا يوجد أمل، وإذا ما فقد العدو الأمل تسهل هزيمته ودحره نهائياً، هذا هو السبب في أنني سأعفر لقيصر هنا والآن، لكنني أكرر سؤالي: لماذا لا يجب أن تقللا من شأن ذاك الشاب يوليوس قيصر؟".

ظل سولا صامتاً للحظة، أمسك بالكأس وارتشف رشفة نبيذ، ثم أعادها إلى المنضدة، وحدث إلى دولابيل و بومبيوس ثم قال: "لأن ماريوس محفور بداخله، وروحه تسري في دمائه*".

* الترجمة الحرفية للعبارة "ممتلئ بنسخ عديدة من ماريوس" وهي عبارة نسبها المؤرخ سويتونيوس إلى سولا في كتابه "القيصرة الاثنا عشر" الفصل السابع.

المحاكمة (٦)

جلسة المحاكمة الثانية

شهادة دولابيللا

باسيليكاسيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

انشغل قيصر بترتيب العديد من البرديات التي تحوي تعليقات توضيحية على منصة المُنْتَهَم، وعلى يمينه لابينوس يدور ببصره على الجمهور.

"هناك الكثير من الناس لم نستدعهم" قال له لابينوس وقد بدا عليه الانزعاج. فسأله قيصر بشرود، بينما يدقق في أوراقه: "هل كنت تفضل أن يحضر عدد أقل؟". صمت لابينوس ولم يجبه، فأردف قيصر بنبرة هادئة أدهشت محدثه: "صمتك يعني الإيجاب، أنت تُفضّل لو كان عدد الجمهور أقل، تعتقد أنه، بعد كارثة الجلسة الأولى، كلما قل عدد الأشخاص الذين يشهدون كارثتي الجديدة في هذه الجلسة الثانية، كلما كان أفضل، أليس كذلك؟ هل أنا مخطئ في تفسير أفكارك يا صديقي؟"

تنهد لابينوس وقال: "لا، أنت لست مخطئاً". وافقه قيصر، وأخذ يتفحص من حوله؛ كان دولابيللا جالساً بالفعل في صدر القاعة، مستعداً للإدلاء بشهادته؛ واستقر أعضاء هيئة المحكمة، برئاسة بومبيوس، كل على مقعده، بينما تنظر إليه زوجته وأمه وأخته بمزيج من الإعجاب والقلق على وجوههم. استقبلهم قيصر بإيماءة طفيفة وابتسامة قسرية. كان تصالحه مع والدته كاملاً، لكن ألم الخيانة لا يزال ينبش في قلبه. لقد فهم أن ما دفعها لخيانته في الجلسة الأولى إلا خوفها من أن يتمكن، بطريقة ما، من إزعاج دولابيللا المخيف، لكنها أدركت أن أداء ابنها ليس مهمّاً فدولابيللا سوف يتبعه سواء أدى أداء حسناً أم أظهر أنه أحرق، لذا افترضت أنه من الأفضل أن يفعل كل ما في وسعه لتثويته سمعة الحاكم الجائر، وتعلم أنها مهمة صعبة

بحق. لم يعد ثمة أحد يفكر في إمكانية إدانة دولابيللا، لكن، ورغم كل شيء، لا يزال قيصر يرعى بصيص أمل وشغفًا للقتال بداخله، كعادته؛ واسع الأمل، كبير الهمة، صُلب النفس.

"وقف هورتنسيوس" لفت لابينوس انتباهه، فانتبه قيصر وظل يراقب تحركات محامي الدفاع، بينما لا يزال متعمقًا في تأملاته. لقد تصالح مع كورنيليا نهائيًا، سامحته رغم أنه شكك في ولائها له، أضحى هي أفضل دعم له، وأعظم تعويض ومصدر قوته خلال المحاكمة.

سألته زوجته فجر ذلك اليوم، بينما تعدل رداءه: "تفكر في كيفية الإحاطة به، أليس كذلك؟ سوف يدلي دولابيللا بأقواله أمام المحكمة اليوم".

"نعم، هذا صحيح" أجابها، والتفت إليها وقال: "هل تدرين؟ من اللافت للانتباه، أن أمي، بخيانتها لي في الجلسة الأولى، منحتني فرصة ثانية للمرافعة".

فنظرت إليه بجبين متجدد، وقالت بصدق: "لم أفهم مقصدك".

"لقد رأى دولابيللا ومحاميه وأعضاء المحكمة والجمهور، اثنين من يوليوس قيصر، اثنين مختلفين تمامًا: الأول عصفور الجلسة التمهيدية، حيث سمحت لشيشرون بتدميري كي أحصل على تعييني موجهًا للاتهام، لكن أحدًا لم يكشف الخطة؛ ثم رأوا يوليوس قيصر المحنك في جلسة رد القضاة، حيث تمكنت من تنحية ميتيلوس جانبًا. حينها تساءل الجميع أيهما هو الحقيقي، الشخص الذي برزت مهاراته أثناء المحاكمة أم ذاك الأخرق. والآن، بعد كارثة الجلسة الأولى، التي دمر فيها هورتنسيوس وكوتا مصداقية جميع شهودي، بات الجميع، بما فيهم أعضاء المحكمة وكوتا وهورتنسيوس والمدعى عليه والجمهور مقتنعين بأنني ذاك الأخرق الذي رأوه في الجلسة التمهيدية وفي الجلسة الأولى من المحاكمة".

"واليوم سيعود يوليوس قيصر الحقيقي، الشخص الذي برز خلال جلسة رد القضاة، الشاب الشجاع والجريء الذي وقعت في حبه، الشخص الذي

تصدى لسولا حتى كاد يموت من أجلي؟" سألته، رغم أنها تعرف الإجابة بالفعل.

"اليوم، كما تقولين، سيعود يوليوس قيصر الحقيقي الذي تحبينه، الشجاع الجريء بالتأكيد، الشخص الذي واجه سولا من أجلك، لكنه اليوم سيواجه كلبه المفترس، دولابيلاً".

أحاطت كورنيليا خصره بذراعيها وهي تهمس له في أذنه: "أمل أن تحميك الآلهة".

"سوف تبدأ الجلسة" نبهه لاينوس.

خلال الفترة التي تستغرقها إفراغ الساعة الرملية بأكملها، واحدة تلو الأخرى، سيقوم دولابيلاً بالإجابة على أسئلة هورتنسيوس المبتهج على الدوام. جلس قيصر يستمع بانتباه شديد إلى كل إجابة، وكل كلمة يتفوه بها المذنب، ولاحظ أن تصريحاته قاطعة، وأنه كان مسترخياً تماماً أمام المحامي ولم يهتز للحظة، ينظر إلى الجمهور بجرأة. بدا دولابيلاً مرتاحاً وهادئاً وراضياً عن أسئلة هورتنسيوس، وواثقاً من قوة موقفه، ولم لا؟ لقد استدعاه الدفاع للإدلاء بشهادته باعتباره الشاهد الرئيسي والوحيد.

"يقول المُتَّهَم بأن طريق إغناطيا في حالة سيئة حقاً، هل هذا صحيح؟" سأل هورتنسيوس.

"إنه كذلك" اعترف دولابيلاً، ليفاجئ قيصر ولاينوس، لكنهما سرعان ما أدركا أن المدعى عليه فكر جيداً في شهادته، إذ أوضح: "صحيح أنه في حالة سيئة، لكنه ليس وعراً كما قيل، كان وعراً بحق عندما وصلت إلى المقاطعة، لكن الأعمال والإصلاحات التي قمت بها حسنت من حالته، ولا يزال في حاجة إلى المزيد من الأعمال بلا أدنى شك".

"رائع" علق هورتنسيوس، وأردف: "نفهم من كلامك أن الضرائب التي فرضتها من أجل تحسين حالة الطريق قد استخدمت إذن لهذا الغرض".

"هذا صحيح" أكد دولابيلاً.

"وعلى النحو نفسه استخدمت الضرائب التي فرضت على القمح لجلب كميات منه من مصر، صحيح؟".

"بالضبط."

"حسنًا، لا يزال يتعين علينا توضيح نقطتين بخصوص الاتهامات الموجهة إلى الحاكم السابق لمقدونيا، وهو قنصل سابق وسناتور يستحق إقامة احتفال نصر على شرفه في شوارع روما" علق محامي الدفاع محاولاً تلخيص مسيرة موكله، وأضاف: "بقيت نقطتان، كما قلت: الأولى؛ مسألة نهب معبد أفروديت في ثيسالونيكي، والثانية؛ الأكاذيب التي تروج لها فتاة مقدونية غير متزوجة وغير عذراء، وقحة للغاية، إذا ما أردنا وصفها بعبارات هادئة... لكن دعنا نتقل أولاً إلى موضوع المعبد: هل معبد أفروديت المقدس للغاية لدى المقدونيين في ثيسالونيكي، قد نُهب؟".

"صحيح، لكن عملية النهب قد حدثت بالفعل قبل وصولي إلى المدينة، إن المقدونيين ليسوا متدينين ولا يعتنون بمعابدهم. عندما وصلت إلى عاصمة المقاطعة وجدت أنه مُجرّد من التماثيل ومن جميع الكنوز القيمة." "هذه هي خلاصة القول" تابع هورتينسيوس دون التشكيك في أقوال المدعى عليه، بل تعامل معها بصفقتها حقائق غير قابلة للمناقشة: "يتبقى، إذن، دحض الاتهامات التي تروج لها تلك الفتاة المقدونية عديمة الشرف. هل يمكن للحاكم السابق لمقدونيا أن يطلعنا على ما حدث بالفعل بينه وبينها؟".

"الأمر يسير؛ لقد استدعيتني... في البداية، بدائي الأمر غريبًا، أن تمتلك فتاة شابة وأرستقراطية الجراءة على دعوة رجل غريب إلى منزلها، لكنني بدافع المجاملة الخالصة قررت الذهاب. وعندما وصلت، وجدتها بمفردها وكانت ترتدي ملابس مناسبة للغاية للقاءات الحميمة، وبمجرد دخولي أخذت تلمح لي برغبتها، وأنا رجل أرمل، فانصعت لها، لأن مسألة الحفاظ على شرفها تخصها هي وحدها. أفترض أنها كانت تأمل من وراء ما فعلته أن تنتقل معي

لاحقًا إلى روما كي أوفر لها حياة فاخرة إلى جوارى، لكنني بالتأكيد أفضل الرومانية على أي امرأة مقدونية أخرى" ثم غرق في نوبة ضحك، وانضم له المحامي الذي كان يستجوبه وبعض الجمهور وقضاة المحكمة.

جلست ميرتل وبيرديكاس وآيروبوس وأرخيلاوس وأورستيس وبقية المقدونيين ينصتون إلى ما يقوله بحسرة، ازدردوا اللعاب، وابتلعوا الصمت، وشدوا قبضاتهم كي يتمكنوا من احتواء الغضب الذي تغذيه أكاذيب دولابيللا، وسخرية هيئة المحكمة منهم في كل لحظة، حتى تحول الغضب إلى ضغينة لن يمحوها إلا الموت.

انتظر هورتينسيوس حتى خمدت الضحكات ثم قال: "أعتقد أن كل شيء بات واضحًا للغاية، ليس ثمة المزيد من الأسئلة، ولا أرغب في استدعاء المزيد من الشهود. الدفاع لا يريد إطالة أمد تلك المسرحية، أو إجبار القضاة على تحمل أكثر من ذلك".

بعد ذلك منح بوميوس الكلمة للمتهم.

لم يقف قيصر على الفور، بل ظل جالسًا متطلعًا نحو دولابيللا. لم يتحدث معًا من قبل، حتى عندما استدعى سولا قيصر إلى منزله قبل خمس سنوات، وكان دولابيللا حاضرًا معه، التقت أعينهما فقط، وحدثا بعضهما إلى بعض عدة مرات، لكنهما أبدًا لم يجريا محادثة مباشرة معًا.

بعد برهة، نهض قيصر أخيرًا بتأنٍ ووقف في منتصف القاعة ووجهه إلى الجمهور، ثم أخذ شهيقًا وزفره فقال: "شاهد واحد يعني شهادة باطلة. اعتماد القضية على شاهد واحد فقط يعني أنك لم تقدم شيئًا. يريد محامي الدفاع صرف الانتباه عن إخفاقه في العثور على شهود يدعمون رواية المذنب، بزعم الرغبة في عدم إطالة أمد قضية يعتبرها مسرحية، هذا مثير للاهتمام؛ فالمحاكمة في نظر محامي الدفاع، مجرد مسرحية، ربما يراها مسرحية هزلية، أو كوميدية. كيف يرى قضاة تلك المسرحية المزعومة إذن؟ لكنني لن أركز على تلك النقطة أكثر من ذلك، لأن محامي المذنب - حسب

ما يبدو لي - على وشك النهوض ليقول إنه لا ينبغي لي تأويل كلماته. لنعد إذن إلى الشاهد الذي أحضره محامي المذنب، الشاهد الوحيد، أو بمعنى آخر، إلى المذنب نفسه". هنا التفت إلى دولابيل ثم تابع: "كُنْتُ قد أحضرت العديد من شهود الإدانة ضد المذنب، كما أوضحت من قبل في الجلسة التمهيديّة، لكن الشاهدين الرئيسيين وهما؛ أحد الكهنة الذين عملوا في معبد أفروديت خلال فترة حكم المذنب لمقدونيا، والمهندس الذي جلبه المتهم للتخطيط لعمليات ترميم طريق إغانتيا المفترضة، وكلاهما كانا على استعداد للإدلاء بأقوالهما التي تؤكد أن المذنب نهب كنوز المعبد كما لم ينفق سيسترتيوس واحدًا من أجل تحسين حالة الطريق، لكنهما ماتا... بل قُتلا على يد غرباء طعنًا بخنجرين..." "كرر قيصر جملته الأخيرة بينما يقترب من منصة المُتَّهَم، حيث كان يجلس لابينوس، ثم رفع برديّة بين البرديات المتراكمة على الطاولة، وأخرج خنجرًا من تحتها، نظيفًا ولا معًا، وأمسك به ورفع كفي يراه الجميع، وهو يقول: "خنجر، بل اثنان، نعم، في ظهر الجثة، الجثتين، وهذا كل ما تركه الرجال القتلَى بعدما نفذوا جريمتين مروعتين بخنجرين مثل هذا."

ظل دولابيل صامتًا. حتى الآن لا يزال قيصر يلمح فقط إلى أن قتل الشاهدين قد يكون قد نفذ وفقًا لأوامره. شعر بفضول لمعرفة ما إذا كان سيجرؤ على الإفصاح مباشرة عما أراد قوله. ازدرد قيصر لعابه بقوة، وهو مستعد لفرض الأمر الواقع. كان يعلم بالفعل أن دولابيل قد حَكَمَ عليه بالإعدام، فلماذا لا يهاجمه بكامل قواه؟ أبرز الخنجر بشفرته الحادة ومقبضه العاجي الأبيض، ليراه الجميع، ثم أضاف: "أنا متأكد من أن تلك العمليات نُفذت بيد قتلة مأجورين بتحريض من، سنيو كورنيليوس دولابيل، المتهم في هذه القضية".

حينها نهض هورتنيسيوس وأعلن: "اتهام جديد يسوقه المُتَّهَم بلا دليل، أم أنه يفترض أن المدعى عليه سيكون شريكًا في جميع جرائم القتل التي تُرتكب يوميًا في روما وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها؟".

التفت قيصر إلى هورتينسيوس وقال: "لا، لا أظنه مسؤولاً عن كل الجرائم".

ضحك عدد من الجمهور، فأشار بومبيوس إلى الحراس، لم يرد فقدان السيطرة على الجلسة، فوقف أكبرهم ودعا الجميع إلى التزام الصمت، فخفتت الضحكات. ثم استأنف قيصر حديثه قبل أن يمنحه رئيس المحاكمة الكلمة: "لا، ليس مسؤولاً عن كل الجرائم، لكنني مقتنع تمام الاقتناع بأنه هو من استأجر القتلة الذين اغتالوا الكاهن والمهندس، وتركوا الخنجرين في ظهريهما عن قصد" ثم تطلع نحو دولابيل وسأله: "أليس هذا صحيحاً؟".

أخفى سنيو كورنيليوس دولابيل مشاعره خلف ابتسامة ارتسمت على شفتيه، بدت له حماقة ذاك المحامي الشاب هائلة بدرجة لا تصدق. كان عليه فقط أن ينكر حقيقة ما يتهمه به لينتهي الأمر، فكلمته شهادة قوية، نظراً لكونه أحد أعضاء مجلس الشيوخ البارزين، أمام ما يسوقه محام شاب مجهول وعديم الخبرة من اتهامات، وقال: "لا، لم أمر بقتلهما، علاوة على ذلك، وكما يعلم الجميع في روما، رجالي لا يحملون خناجر ذات مقابض عاجية بيضاء كهذه، لكنهم يحملون خناجر حادة ذات مقابض مطلية باللونين الأحمر والأسود، وهي بالطبع مختلفة تماماً عما أظهره المُتَّهم في يده، وبني عليه افتراء أن الخنجر الذي غرس في ظهري شاهديه يخص أحد رجالي".

بقي قيصر ساكناً في وسط الغرفة، بدا دهشاً للحظة، مهزوماً مرة أخرى. لكن قبل أن تبدأ المهمة بقليل، استأنف الكلام: "الخنجر الذي أظهرته لكم ملك لي، كان هدية من زوجتي، بينما الخناجر التي ظهرت عالقة في الجشئين مختلفة. ربما تكون كلماتي قد أوهمت الشاهد بأنني قصدت قول إن الخنجر الذي كنت أحمله بيدي يعود إلى القتلة، لكن لا". ثم اقترب من الطاولة مرة أخرى، وبتمهل أخرج من تحت إحدى البرديات خنجرين حوافهما ملوثة بدماء جافة، ثم ترك خنجره، وأمسك بالاثنتين الأخريين من الحواف، مظهرًا المقبضين الملونين بالأحمر والأسود أمام الجميع، وصاح: "هذه هي الخناجر التي قُتلا بها، وهي، مماثلة لما يحمله رجال دولابيل عادة، بحسب

تصريح المتهم نفسه. لدي شهود أحياء يمكنهم أن يشهدوا بأن هذين هما بالفعل الخنجرين اللذين عُثر عليهما في ظهر الكاهن المقدوني المقتول وكذلك ظهر المهندس".

فغر دولابيلافاه ولم ينطق بكلمة، لم يحرك فكيه، تنفس الصعداء، والتفت إلى هورتينسيوس وكوتا، فنهض الأول وقال: "هذا لا يثبت أي شيء، مجرد صدفة، ليس فقط حراس المدعى عليه هم من يستخدمون مثل هذه الخناجر، ولا يمكننا حتى التأكد من أنهما استخدما بالفعل في عمليتي الاغتيال".

ابتسم قيصر قبل أن يجيب. لقد دفع دولابيلافاه، تقريباً دون أن يدرك ذلك، إلى أن يشهد ضد نفسه: "ربما يكون الأمر محض صدفة، لكن ليس الدفاع أو موجه الاتهام من عليهم البتّ فيه، بل يقرره قضاة المحكمة، لأنه اتضح أننا لسنا في مسرح أو في مهزلة أو عرض من عروض سيرك ماكسيموس، إنما أمام القضاة في الباسيليكا السيمبرونية، على أرض روما". والتفت إلى القضاة وأضاف: "يضاف إلى أقوال شهودي، شهادة المذنب نفسه اليوم... التي تدينه". ثم نظر إلى هورتينسيوس مرة أخرى وسأله: "أم سيجادل محامي الدفاع عن المذنب ويصف موكله بالكاذب؟ أو ربما يُسوِّغ اعترافه بقول إن المتهم بات رجلاً عجوزاً خرفاً لا يحسن تذكر حتى لون الخناجر التي استخدمها رجاله؟ من المؤكد أن سماع ذلك من المحامي سيكون مسلياً بلا شك". عندها عم الضحك جميع أنحاء القاعة مرة أخرى.

تابع بومبيوس بأعين منتبهة سير الجلسة. دعا الحراس إلى فرض النظام، فعاد الهدوء إلى الباسيليكا، وكان الجميع قد اعتقدوا أن استجواب قيصر للمتهم قد انتهى، لأنه -في الواقع- عاد إلى منصة المُتَّهَم، لكنه وقف فجأة والتفت إلى دولابيلافاه وسأله: "هل يؤمن المتهم بأن المقدونيين يستحقون العدالة، عدالتنا؟".

استرخى المدعى عليه واستراح على مسند الظهر، وانتبه له رغم أنه كان يرمقه بنظرات جانبية طوال الوقت. جاء سؤاله غير متوقع تماماً، ويبدو أنه غير ذي صلة بالقضية. صحيح أن للمقدونيين الحق، وفقاً للقوانين الرومانية،

في محاكمة حاكم سابق لمقاطعتهم من خلال وساطة مواطن روماني آخر، وهو في هذه الحالة، قيصر، الذي وافق على أن يكون المتهم في القضية. كان الأمر كذلك، لكن، الآن يطلب المحامي الشاب منه تقييم ما إذا كانوا يستحقون بالفعل هذا الامتياز أم لا، حسب رأيه.

لم يعرف دولابيلاً تفسير الفخ من وراء هذا السؤال. فكر أنه إذا ما أعرب عن رأيه الحقيقي فقد يعني ذلك أنه يهاجم هيئة المحكمة ذاتها، وهو يحتاج إلى تأييدها لتبرئته تماماً؛ كما أنه لم ير كيف أن التعبير عن رأيه في هذه النقطة يمكن أن يضر به بأي شكل من الأشكال. استقام وأجاب بصوت عالٍ وواضح: "بصراحة، أعتقد أنه المقدونيين مثلهم مثل أي شعب آخر غير روماني لا يستحقون عدالتنا، روما للرومان فقط، هم فقط من يستحقون أن ينعموا بتطبيق القوانين الرومانية. يزداد الأمر سوءاً عندما نخص شعب مقدونيا بالذكر، إنهم شعوب منهزمة ومنحطة، هم الآن لا قيمة لهم، ولن تعود لهم مكانتهم القديمة مرة أخرى. إنهم يعيشون على ذكرى الماضي الذي ربما تفوقوا فيه إلى حد ما، لكنهم ينسون دائماً أنهم الآن مجرد رعايا يخضعون لعزتنا، ويغفلون في أحيان كثيرة حقيقة أن الإسكندر، الإسكندر الأكبر، مات منذ قرون عديدة ودفن في...". توقف، لم يكمل جملته، أراد القول بأنه دفن في الإسكندرية، ولكن فاجأه هزيم رعد هائل، هز جميع أنحاء الباسيليكا أسكته. كان ذلك غريباً، لقد كانت السماء صافية دون غيوم، لكن لا بأس، ربما تكون قد غامت دون أن يلحظ، لم يشأ التفكير في سيناريوهات أخرى، ومع ذلك، توقف عن الكلام.

توقف كذلك عن الحركة، حبس أنفاسه مشدوهاً، أبقى فمه مفتوحاً ودار بنظره على الجمهور. فجأة تقاطعت نظرتيه مع نظرات الفتاة ميرتل الباردة القاسية، لاحظ أنها تتحدث إلى رفاقها المقدونيين، لكنه لم يستطع تبين ما تقوله، كانت تقول جملة أشبه بـ: "هذا ما هددته به".

"هذا ما توعدته به" قالت ميرتل لبيرديكاس. أخذت تكرر جملتها، وقلبها ينبض بالغضب الممزوج بشعور بالنصر: "هذا ما قتله".

أدهش الرعد الجميع، بما فيهم قيصر، لكنه لم يُبالِ كثيرًا للأمر، ربما لأنه لا يعاني عذاب الضمير ولم يغتصب فتاة شابة ضعيفة لم تستطع الانتقام فتوسلت بأن تحل لعنة ثيسالونيكي على الظالم المتجبر، ولم يتلق تهديدًا يمنعه من قول إن الإسكندر قد مات. لم يكن مقيدًا مثل غيره، فاستأنف الاستجواب دون الالتفات إلى الهزيم.

"من المثير للاهتمام معرفة أن رأي المتهم في هذه المحاكمة برمتها هو أنه لم يكن ينبغي أن تعقد من الأساس" قال قيصر بابتسامة ساخرة على وجهه.

توقف الرعد.

تحاشى دولابيللا النظر إلى ميرتل، والتفت إلى قيصر. حاول التخلص من أكثر الأفكار فظاعة وغرابة حول تلك المصادفة بين ذكر وفاة الإسكندر والرعد المفاجئ الذي بشر بأمطار غزيرة، وقال: "أحترم القانون، لذا أقبل بهذه المحاكمة" لم يرد أن يفسر القضاة أنه يزدرى حكمهم النهائي مهما كان. لكن، بعيدًا عن هذا الازدراء، وبغض النظر عن أنه قد رشاهم جميعًا، فقد فهم أن المحكمة ليست المكان المناسب للإفصاح عن حقيقة أفكاره أو محاولة إحراج أي شخص علنًا، وأمام الجمهور لا يجدر به التقليل من شأن المحكمة، فأضاف: "لقد قصدت فقط القانون الذي بموجبه تتم محاكمتي بناء على اتهام يسوقه أغراب، وسوف أغير هذا القانون. لكن بما أنه لا يزال معمولًا به، فأنا ألتزم به، وينبع ذلك من حرصي على احترام القانون".

"هذا كل ما في الأمر. المرجو من المحاكمة هو كشف ما إذا كان المتهم قد امتثل فعليًا للقوانين خلال فترة حكمه لمقدونيا أم لا" علق قيصر. وقبل إعطاء فرصة للمدعى عليه للرد، عاد إلى منصبه وهو يلفظ جملته الأخيرة: "ليس لدي المزيد من الأسئلة."

المرافعة النهائية لمحامي الدفاع

باسيليكا سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

أنهى قيصر استجوابه لدولابيللا بجملته مثيرة؛ لذا بات هورتينسيوس مضطراً إلى محو حقيقة اعتراف دولابيللا الواضح على نفسه بأنه أمر بقتل أول شهود ضده. بغض النظر عن أن المحكمة مهينة لتبرئته، كان هورتينسيوس يدرك أنه، ونظراً لكون المحاكمة علنية، ومع ازدحام الباسيليكا بالجمهور وفي ظل وضع سياسي متوتر للغاية، من الضروري الحفاظ على مظهر دولابيللا بقدر الإمكان أمام الجميع، وفي نفس الوقت النيل من مصداقية قيصر.

وكان المواجهة بين الأوبتيميتس وحزب البيولاريس، بقيت كامنة، مثل بركان خامد يمكن أن يندلع في أي مكان، وفي أي لحظة، فهم محاميا الدفاع أن دولابيللا لم يدفع لهما مقابل تبرئته أمام المحكمة فقط، وإنما من أجل تحسين صورته أمام العامة أيضاً. في الواقع، لم يكن بحاجة إليهما كي يحصل على حكم بالبراءة، وإنما احتاج إليهما كثيراً كي يتظاهر بأن سلوكه في حكم لمقدونيا كان قويمًا وسار وفقاً للشرعية والقانون.

وقف هورتينسيوس استعداداً للمرافعة النهائية، بينما آثر أوريليو كوتا البقاء في الظل منذ نهاية الجلسة الأولى. في حقيقة الأمر كانت فكرة أنه يواجه ابن أخته الصغير تخنقه، وآلمه أنه ساهم في تدمير صورته أمام الناس. لم يعجبه ذلك، لكنه لم يشعر بالمسئولية تجاه ما حدث أيضاً؛ إذا كان قد حذره بالفعل ألف مرة من قبول الدفاع عن المقدونيين والوقوف أمام

دولابيللا، وأردك أنه قد فات أوان وقف آلة العدالة الرومانية المدمرة، عندما حاول هورتينسيوس القضاء على ما تبقى من قيصر. لقد ساق قيصر خدعة الخنجر وأقلق دولابيللا بمزيج من قوة الخطابة والاستراتيجية المتقنة، لكن الأمر لم يتعد كونه بصيصًا عابرًا من الحنكة في مواجهة عاصفة الرعد والبرق التي سيقذفها الآن هورتينسيوس في وجهه، عاصفة موجزة ومكثفة في آن.

"حسنًا يا حضرات القضاة" بدأ هورتينسيوس مرافعته بينما يتمشي كعادته ويلوح بذراعيه الطويلين: "ماذا لدينا الآن؟ سأكون دقيقًا وموجزًا للغاية، ليس لأنني أعتبر هذه المحاكمة مسرحية هزلية، كما اعتقد المُتهم وحاول إظهار أنني والمذنب... "زلّ لسانه، فأصلح خطأه بسرعة: "أقصد دولابيللا، السناتور والحاكم السابق لمقدونيا. لقد كنت غاضبًا، غاضبًا للغاية بسبب خدعة الخنجر، وسأحرص على أن تكون مرافعتي مقتضبة، لأن براءة المدعى عليه واضحة للغاية كما أن المُتهم يفتقر إلى الأدلة. أنا لا أرى أنه من الضروري الالتفات إلى حجج معقدة قد تشتت انتباهنا؛ فشهوده هم؛ مهندس دُفع له مسبقًا مقابل الإدلاء بأقواله، ربما لم يفعل ذلك صراحة، إن شئت قلت، لكن هذا لا ينفي كونها مشترة، فعل ذلك من خلال تمويل رحلة المهندس المذكور إلى مقدونيا؛ ثم تأتي قصة رجل عجوز هرم فقد الذاكرة، لا يرى ولا يسمع بشكل صحيح، وأخيرًا، اتهامات تسوقها... امرأة، والمرأة، كما نعلم جميعًا، تميل دائمًا إلى الكذب حينًا والمبالغة حينًا آخر، دون أن يضع في الحسبان كونها امرأة ليست عذراء رغم أنها غير متزوجة. هذا كل ما استطاع جمعه. ليست ثمة شهادة واحدة تستحق أن تأخذها المحكمة في الحسبان. والآن، ماذا لدينا على الجانب الآخر؟ سناتور حقيقي، قنصل سابق، انتصر على التراقيين، وهو الحاكم الذي اهتم بتحسين ظروف مقاطعته بجلب الطعام لسكانها من مصر لتجنب المجاعة، وترميم طريق إغناطيا المدمر. هذا الرجل الذي يريدون إلقاء اللوم عليه في انحطاط مقدونيا التي ربما كانت مجيدة في الماضي، ولكنها الآن تتجه نحو كارثة اجتماعية واقتصادية بسبب عار شعبها، الذي ينهب أبنائه معابدها ثم

يتهمون رومان أبرياء بما اقترفته أيديهم من تدهور. وهكذا، نستنتج أن سنيو كورنيليوس دولابيل بريء تمامًا من كل ما اتُّهم به ظلمًا، ولعل الجلسات المتعاقبة لهذه المحاكمة أَلقت الضوء على أمر واحد فقط، "هنا التفت إلى قيصر وتابع: "لقد كشفت لنا أن عداء ابن صهر غايوس ماريوس تجاه أعضاء مجلس الشيوخ الأوبتيميتس وراثيًا ويتساوى مع حماقاته وتفاهاته اللا متناهية. هذه ليست محاكمة تنظر اتهامًا بالفساد، وإنما أريد بها استكمال حلقات اضطهاد سياسي وقح وأخرق وخبيث".

أنهى هورتنسيوس خطابه وتوجه إلى منصة الدفاع. لم يحفل به أوريليو كوتا، بل اكتفى بإيماءة برأسه للاعتراف بتقديره للمرافعة الموجزة والدقيقة. صحيح أنها لم ترق إلى مستوى العبقرية الفذة، وكان قد رآه أكثر تألقًا في مناسبات أخرى، إلا أنه ولسوء حظ ابن أخته ليس في مقدوره إثبات ارتكاب دولابيل لتلك الجرائم، إذ يفتقر إلى المهارة الكافية والخبرة اللازمة. لم يمر وقت طويل حتى وقف المحامي الشاب في وسط الصحن، فشعر كوتا بفضول حقيقي لمعرفة ما سيقوله لمحاولة إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه.

مرافعة يوليوس قيصر النهائية

"الرجل الأول: إن مرافعته تستند على أمتن أساس من البرهان والحجة.

الرجل الثاني: من دقق النظر في الأمر تبين له أن قيصر قد ظلم ظلمًا مبيّنًا".

مسرحية يوليوس قيصر، شكسبير، الفصل الثالث، المشهد الثاني.

باسيليكا سيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

بدأ قيصر مرافعته الأخيرة موجهاً كلامه إلى هيئة المحكمة، وبصره مثبت على بومبيوس بقول: "لن أكون مختصرًا، بل سأكون صادقًا. لن أوجز بل سأتوسع في اتهامي؛ لأن قائمة الجرائم التي ارتكبتها المدعى عليه طويلة". التفت إلى دولابيل، بينما ينطق اسمه اسمًا كما لو كان ينطق بكلمات بذئية: "سنيو... كورنيليوس... دولابيل" ثم نظر إلى رئيس المحكمة قبل أن يحذره من الحد الزمني لمرافعته النهائية وقال: "صحيح أن مرافعتي ستكون شاملة وصادقة لكنني سوف ألتزم بالمدة التي تمنحني إياها الساعة الرملية". في مواجهة الأكاذيب والقتل والفساد الصريح، لم يكن لديه سوى قوة الكلمة.

"أعتقد أنه لكي يفهم تمام الفهم ما نقوم به خلال تلك الجلسات التي تُعقد هنا، في كنيسة سيمبرونيا، في وسط منتدى روما، يجب أن نجيب على

بضع أسئلة دقيقة للغاية: ماذا أو من نحاكم في هذه المحاكمة؟ ما هي أوجه الخلاف في هذه القضية؟ ما الذي نسعى لإثباته على مدار الجلسات؟"، وواصل واضعاً يديه على خصره، ويتصفح وجوه الجمهور والمحكمة، ومحامي الدفاع والمتهم بالتناوب، يستدير بتأنٍ، ويتحرك بهدوء شديد في جميع أنحاء القاعة: "ثمة ثلاثة أسئلة، لكنّها متشابهة إلى حدّ كبير، فالأول: ما هو موضوع هذه المحاكمة؟ ظاهرياً، يمكننا قول إن هذه القضية تتعلق بالأفعال غير القانونية التي ارتكبتها المذنب أثناء حكمه لمقدونيا، هذا هو ظاهر الأمر ومحور النقاش بأكمله، لكن هذه المحاكمة -في جوهرها- أعظم وأعلى شأنًا، إنها أشبه بثمرة الجوز الموجودة داخل القشرة السميكة والصلبة اللازمة لتوفير البيئة المناسبة لنضجها، ولا تقل القشرة أهمية عن الثمرة، تلك القشرة هي روما وعدالتها، وكلاهما سيحكم عليه من خلال هذه المحاكمة، ووفقًا لما ناقشه ونقرره، ودونها لن تكون هناك محاكمة ولن يُعترف بمفهوم الجريمة ذاته أو بالأحرى الجرائم التي يُحاكم بسببها المذنب سنيو كورنيليوس دولابيلنا هنا اليوم... وبينما نفعل ذلك تراقبنا، ليس فقط أعين الحاضرين وليس سكان مقاطعة مقدونيا فقط، لكنني مستعد للتأكيد على أن جميع المقاطعات في كل منطقة من مناطق العالم المختلفة التي تحكمها روما، ينصب انتباهها علينا الآن، يراقبون من كتب ما نفعله وما نقوله لأنهم يريدون معرفة مدى قوة التزامنا بالقانون وميلنا لتحقيق العدالة. إنهم يعرفون، يعرفون ذلك جيّدًا، في المقاطعات الإسبانية، والغالية، وفي إفريقيا، وفي جميع أنحاء إيطاليا، أو سردينيا أو صقلية، وفي جزء كبير من اليونان، ولا شك في مقدونيا، مدى قوة أسلحتنا وجيوشنا وذكاء استراتيجياتنا في ساحات المعركة، وباستخدام تلك الأسلحة وتلك الجحافل، أخضعنا تلك المناطق لحكمنا. لكنهم الآن يريدون معرفة هل نحن مجرد غزاة أم نصلح للحكم والقيادة أيضًا، ويريدون معرفة هل يتصف حكامنا بالعدل أم بالظلم، يلتزمون بالقانون أم لا يستحقون مناصبهم. هذا ما سيتضح هنا على مدار الجلسات، رغم أنه من وجهة نظر قاصرة، قد يبدو للوهلة الأولى أننا نحكم فقط على جرائم الحاكم الجائر، لكننا إذا ما نظرنا بأعين من يراقبوننا

ويعتبرون السيادة مصيرنا نحن الرومان، ندرك حينها أن ما نقرره هنا، واليوم، هو مدى استحقاقنا للبت في مصائر كل تلك الأمم بصورة واقعية وفعالة، بحق جوبيتر ومارس وفينوس والآلهة جمعاء!".

جلس الجميع ينصتون إليه، وساد صمت مطلق.

همهم هورتينسيوس وهمس لزميله في الدفاع: "مجرد كلمات!". فأجابه: "بالفعل، مجرد كلمات، رغم فصاحته، وإنصات الناس إليه". ثم دار بنظره نحو الجمهور في لفظة خفية، ولكن واضحة جعلت هورتينسيوس نفسه يلتفت إلى الحشود التي تجمعت في باسيليكاً سيمبرونيا منذ الصباح.

وبالفعل، استحوذ توصيف قيصر لأهداف المحاكمة على أذهان الحاضرين، خاصة من يدعمون القضية الشعبية في روما، الذين يميلون دائماً إلى المطالبة بتغيير الأمر الواقع وإعادة توزيع الثروات. هؤلاء مثلوا الأغلبية داخل القاعة؛ إذ تطرق قيصر إلى صلب حكم روما وأراد أن يرى المواطنين إلى أي مدى سيواصل التشكيك في النظام الحالي الذي فرضه سولا ولا يزال قائماً.

كان من الطبيعي أن ينتبه المقدونيون بشكل خاص لخطابه فالمحاكمة برمتها مختصة بأمرهم وشؤونهم بشكل مباشر، لكن المثير للدهشة أنه جذب انتباه واهتمام القضاة وبقية المواطنين الداعمين للحزب المحافظ؛ الذين أرادوا الحفاظ على الأوضاع كما هي، وأيدوا استمرار حكم وسيطرة مجموعة صغيرة من الأوبتيميتس. هؤلاء جميعاً ظلوا يمعنون التفكير في كلماته، أرادوا معرفة إلى أي مدى سيذهب هذا المحامي الشاب في انتقاداته للنظام الحالي. وهكذا، انغمس الجميع في إطار خطاب قيصر، كل على حسب اتجاهه.

كان بومبيوس يدرك مخاوف الأوبتيميتس، وبصفته رئيس المحكمة، الذي عينه أعضاء مجلس الشيوخ الأكثر تحفظاً، بعد رحيل ميتيلوس إلى هسبانيا، سمح لقيصر بالتحدث من أجل الحفاظ على المظهر العام ولكن

مع الالتزام بحدود ما يمكن قوله، بينما أدرك قيصر أيضًا أن ليس فقط العيون مثبتة عليه وإنما العقول والأفكار أيضًا. مهما يكن، كانت تلك فرصته، فتابع: "قَدَم المحامي هورتينسيوس ملخصًا مقتضبًا لحججه من أجل إبراء ذمة المتهم من جميع التهم الموجهة إليه. في إيجازه سعى -على ما يبدو- إلى تقليص سلسلة جرائم موكله الطويلة لتظهر وكأنها عدد محدود من الإغفالات التافهة، ليست ضمن صميم مسؤولياته؛ فبخصوص نهب معبد أفروديت، فإن ذلك حدث بالفعل ولكن -وفقا للدفاع- قبل وصول المتهم إلى ئيسالونيكى. أما مسألة جلب القمح المفترض من مصر، فإنه يؤكد على ذلك دون تقديم أي دليل لتدعيم أقوال شاهد الدفاع الوحيد، دولابيللا نفسه، بينما مقتل شاهدي الأولين مجرد مصادفة. ولما أحضرت شهودًا آخرين، وصفهم محامي الدفاع باحتقار شديد بأنهم شهود حصلوا على الثمن مسبقًا، أو عجايز مجانيين وامرأة يُستهان بها. وعليه فإن المذنب بريء، هذه هي حجته. وكان المقدونيين الذين جاءوا من ئيسالونيكى إلى هنا لم يجدوا طريقة لإهدار المال القليل المتبقي لديهم بعد ما نهبه دولابيللا إلا الترويج لدعوى قضائية مكلفة للغاية يتهمونه بها افتراء، وكما لو أن المرأة التي دُئس شرفها لا يشغلها في هذه الحياة سوى إذلال نفسها أمام المئات من الغرباء. لكن مَنْ يمكنه تصديق أكذوبة أن المقدونيين وتلك الفتاة قبلوا بخسارة المال وإذلال أنفسهم فقط من أجل الافتراء على شخص بريء؟".

توقف قيصر ومرريده اليسرى على شفثيه، كان في حاجة إلى الماء، لكنه لم يرغب في تشتيت الانتباه، ليس بعد، لقد ساقه الغضب، لكنه كان يتحكم في خطابه بشكل جيّد وتمكن من تأجيج الحماس في قلوب العديد من الحاضرين الذين كانوا يميلون إلى تصديقه أكثر من محامي دفاع دولابيللا، قرأها في عيونهم التي نُبتت عليه. كان عليه المضي قدمًا ومواصلة مرافعته. شعر بأن الدماء تغلي في عروقه، فأضاف: "لذلك لن أختصر"، وحدث إلى حراس الساعات المائية ثم نظر إلى عيني بومبيوس مباشرة وقال: "وألتمس من رئيس المحكمة أن يبتعد الحراس عن الساعات التي تحدد فترة مرافعتي

لمسافة كافية، لأن عدم استغلال محامي الدفاع لمدة مرافعته كاملة لا يعني أنني لن أستغل مدتي. الساعات ممتلئة، ست ساعات ممتلئة، وسألتزم بالوقت الذي يستغرقونه كي يفرغن الواحدة تلو الأخرى، وفقاً للقواعد. ولكن بمجرد ضبطهن، لا أرى ضرورة لأن يظل الحارس قريباً منهن". فنظر بومبيوس إلى المحامي بجدية بوجه جامد، لا يشي بأي مشاعر. في الواقع، تمامًا كما ختم قيصر، كان بومبيوس قد أمر الحراس بالتلاعب بالساعات أثناء المرافعة الختامية للدعاء إذا لزم الأمر لتقليل مدته، ولم يفكر أبدًا أن المحامي الشاب سوف يلتفت إلى هذه التفصيصة. ومع ذلك، أمام تحدي قيصر المباشر والعلني، لم يرَ بومبيوس، الذي شعر بأن جميع الحاضرين يراقبونه من كثب، بُدًا من المراوغة، فأشار للحارس كي يتعد عدة خطوات عن الساعات المائية، إلا أنه احتفظ بتصرف قيصر في أعماق قلبه، ولم يكن لينسى أو يغفر له ما اعتبره وقاحة.

مرر قيصر يده اليمنى على رأسه يداعب خصيلات شعره. لقد بات طويلًا للغاية، يفضل طويلاً، رغم أنه بدأ يدرك أن معدل تساقطه يتسارع، أقلقه هذا الأمر، أزعجه الميل الأولي نحو الصلع المبكر، لكنه الآن لن يفكر في شعر رأسه، بل سيركز على أشياء أخرى، على أمور أكثر أهمية. توقف عن مداعبة شعره وتابع: "لا، لن أوجز في خطابي، وكذلك لن أطيل الحديث عبثًا، بل سأحرص على التوازن، لكن حتى مع ذلك سأراجع كل ما حدث هنا: لا يعترف الدفاع أو المدعى عليه بأنه احتفظ بأموال الضرائب التي جمعها لترميم طريق إغنتايا، رغم اعترافه بأن الطريق المشار إليه ليس في حالة جيدة، ومُسوّغهُ هو أنه عندما وصل إلى ثيسالونيكى كان أسوأ بكثير، بحق الآلهة جمعاء! هل يعقل أن عامين كاملين من حكم المقاطعة، لا يكفيان لترميم طريق؟ بل هي مدة كافية لإنشاء طريق جديد بالكامل! وإذا اتبع الحكام والقناصل والولاية نهج دولابيل في الإدارة فإن روما ستصبح معزولة عن بقية العالم، مع أنه يكفي أن يأمر الحاكم بشق طريقين من دراس إلى بيزنطة، أحدهما ذهاب والآخر عودة، فيطاع!".

عم الضحك أرجاء الباسيليكا، واستمر لفترة طويلة، وحينها كان لابد من تدخل جميع الحراس لاستعادة الهدوء. في هذه الأثناء، انتهز قيصر الفرصة، واقترب من منصة المُتَّهَم وشرب الماء الذي كان في أشد الحاجة إليه، شرب بتمهل، لم يكن الأمر مجرد جفاف في الحلق من كثرة الكلام، وإنما كان يعاني الظماً من شدة التوتر. بعدما فرغ عاد إلى وسط القاعة، والأعين كلها منصبة عليه، وأردف: "فضلاً عن إنكار المذنب لتهمة اختلاس الأموال العامة، فقد استهان محاميه بشهودي وحججي. قالوا بازدراء إنهم توقعوا مني المزيد. احتقروا حتى الشهادة التي أدلت بها هنا أمام الجميع، فتاة شابة لَطَّخَ شرفها، لقد سخروا منها واتهموها بالكذب، وكان الشيء الوحيد الذي جادل الدفاع بشأنه هو... أنها امرأة. ولدعم حجته، قدم المحامي هورتينسيوس قائمة بأساطير تسلط الضوء على نماذج سلبية لنساء في مسار التاريخ، وهي خطبة، إذا جاز لي القول، متحيزة بشكل واضح، لأنه بنفس الطريقة يمكننا مجادلته بطرح نماذج أخرى توضح الأوقات التي أظهرت فيها المرأة ليس فقط أنها حسنة الخلق، وإنما بريئة من كل الشرور التي تصيبنا. والأكثر من ذلك، أننا إذا ما استعرضنا الآلهة والأحداث التي وقعت في الماضي، نصبح قادرين على الوصول إلى استنتاج مفاده أن النساء جديرات بالثقة مثلهن مثل الرجال، أو أكثر".

"مجرد أمثلة فردية ومصادفة" قاطعه هورتينسيوس، الذي وقف ماداً ذراعيه، وأطلق ضحكة مصطنعة لم ينضم إليها سوى عدد قليل من المتعاطفين مع الأوبتيميتس وطريقتهم في رؤية العالم. لكن قيصر لم يعترض على تدخله، بل قَبِلَ التحدي بجدية وضحد كلامه قائلاً: "ألفت انتباه المحامي إلى أننا مازلنا في حدود المدة المخصصة لمرافعتي. ولكن أيًا كان، دعنا ننخرط في الجدل حول أخلاق النساء؛ يمكننا أن نتذكر أن إله الخداع ليس امرأة، إنه دولوس، إله مذكر. غالبًا ما يتم تصنيف النساء على أنهن متقلبات وأكثر ميلاً إلى الخيانة، مع أننا في الأوديسة* نفسها نقرأ أن

* الإلياذة والأوديسة، للشاعر الملحمي، هوميروس، تحكيان قصة طروادة وأبطالها، ولهما ترجمات متعددة إلى اللغة العربية. (المترجم)

بينيلوب ظلت ثابتة ومخلصة لزوجها يولييسس طوال الوقت الذي كان غائباً فيه عن إيثاكا في اختبار قاس للإخلاص والولاء أرى أن الكثير من الرجال قد لا يتحملونه". توقف قيصر عن الحديث يحدق في عيون بومبيوس.

كان الجميع في روما يعلمون أن بومبيوس، كان قد تزوج أنتيستيا، زوجته الأولى، للتلاعب بالمحكمة حيث كان والدها قاضياً، ثم، بعد ذلك، تخلى عنها وأذعن لأوامر سولا. لم يكن بومبيوس مثلاً جيّداً على الإخلاص، كان فقط وفياً لطموحاته، وأمام تلميحات محامي الادعاء لم يقل بومبيوس شيئاً، رغم أنه فهم الهجوم. كان قيصر يحاول إظهار المدعى عليه في صورة سيئة، ومن الواضح أنه شمل رئيس المحكمة في محاولاته تلك، وعلى ما يبدو، لم يعد الحكم النهائي للمحكمة أكثر ما يهمه.

"ظلت بينيلوب مخلصة حتى النهاية، ولكن هناك المزيد؛ يمكننا أن نتذكر أن روما قد أسسها أحفاد إينياس، وأن إينياس نفسه ابن إلهة أنثى، إنها فينوس؛ فروما، في أصلها الإلهي، تحمل دم إلهة. وبنفس الطريقة نجد أن إلهنا الذي يحظى بمكانة خاصة بيننا، وبنينا له معبداً دائرياً، على بعد خطوات قليلة من المحكمة التي نتجمع فيها الآن، هو الإلهة فيستا، وفي معبد هذه الإلهة الأنثى، لدينا أكثر الأشياء قداسة في تاريخنا وهي النار المقدسة التي تحمي مدينتنا ويضمن لهيبتها المتألق بقاءها. دعونا نسأل أنفسنا: لمن عهدنا بحماية هذا اللهب المقدس الذي نعول عليه جميعاً؟ في إمكاننا تخصيص فيالق قوية أو مجموعات من قدامى المحاربين في جيوشنا الجبارة لحمايته، أو حتى مجموعة من المصارعين، لكن لا، فقد تقرر منذ أمد بعيد أن شعلة فيستا المقدسة ستتم حراستها ومراقبتها دائماً من قبل ست كاهنات عذراوات، نعهد إليهن بحماية أقدس مقدسات مدينتنا، إلى ست نساء؛ إلى عذارى فيستال".

توقف قيصر بعدما أدى المعنى ببلاغة وفصاحة وأراد معرفة ما إذا كان لدى هورتينسيوس أي تعليقات جديدة. لكن لا؛ لقد نجح في إسكاته، بدا الأمر وكأن المحاكمة قد تغير مسارها. وهكذا فرغت الساعة المائة الأولى، وبدأ السائل يتدفق من الثانية، قطرة تلو الأخرى.

استأنف غايوس يوليوس قيصر خطابه بثقة تامة: "وقيل أيضًا أن امرأة، هيلين الطروادية، كانت السبب الرئيس وراء حرب طروادة الرهيبة، وهذا صحيح، بالتأكيد، وفقًا لهوميروس في الإلياذة. لكن إذا استمعنا إلى رواية يوربيديس لنفس الأحداث، الذي بدوره تتبع نفس القصة التي قدمها لنا ستيشكوروس*، وهما بالمناسبة من المؤلفين الذين نصحني محامي المذنب بالقراءة لهم، نرى أن هيلينا لم يكن لها أي علاقة بهذا الحريق الهائل الذي أودى بحياة الكثير بطريقة عبثية. وهكذا، يمكننا قضاء ساعات في الجدل ومناقشة مقتطفات من أعمال مؤلفين يونانيين ورومانيين من الماضي البعيد والقريب تظهر نماذج لنساء لسن خائبات، ولا متقلبات، ولا كاذبات".

نظر إلى الساعات الرملية؛ بقي أربعة من أصل ستة، ألم تفرغ الثانية بسرعة كبيرة كما لو كانت قد أفرغت دفعة واحدة؟ لم يعلّق، تابع: "لكنتي لا أريد أن أصيب هيئة المحكمة بالملل ولا أن أبتعد عن القضية المركزية في هذه المحاكمة. أود فقط التأكيد على أن ميرتل، الشابة المقدونية التي سلبها المتهم شرفها، بالقوة والعنف، يمكن تصديقها أو عدم تصديقها، ولكن لا يمكن -بأي حال من الأحوال- إرجاع الأمر لمجرد كونها امرأة". ثم خطا بضع خطوات نحو هورتنيسيوس وأضاف: "والواقع أنني أيضًا كنت أتوقع أداء أفضل من الدفاع. بالنسبة لي -على الأقل- فيما يتعلق بأخطائي أو حماقاتي في هذه القضية يمكنني أن أزعم بأن هذه هي مرافعتي الأولى، إلا أن العذر نفسه لا ينطبق على محامي المذنب، لما لديهما من خبرة في القانون، مشكلتهما ليست نقص الكفاءة، وإنما يرجع الأمر إلى أن المتهم ليس لديه مسوغات منطقية أو شهود على قيد الحياة كي... وشدّد قيصر على شبه الجملة (على قيد الحياة) "يشهدون لصالحه، ولا حتى مقابل كل الذهب الذي أودعه المدعى عليه في خزائنه، عن طريق النهب والسرقة بأساليب غير قانونية. بالفعل نحن أمام لص مبتز قاتل ومجرم".

* شاعر يوناني، اشتهر بسرد القصص الملحمية، ولم أجد له أعمالاً مترجمة إلى العربية. (المترجم)

امتلاً الصحن بدوي تصفيق الجمهور، وارتفعت الأصوات تصف
المتهم بـ"المجرم!".

كان من الواضح أن الناس لم يتعاطفوا مع دولايلا أبداً، احتاجوا فقط
لمن يشعل قلوبهم بالحماس والرغبة في الانتقام. إن دولايلا يمثل استبداد
سولا، وانتصار الأوبتيميتس، وهلاك حزب البيولاريس، هزيمة الأخوين
غراكوس ودروسوس وساتورنينوس وغيرهم ممن ناضلوا من أجل حقوق
الشعب حتى قتلوا بدم بارد، إنه يجسد هزيمة ماريوس. لقد خلفهم جميعاً
ابن صهره، وها هو لا يزال واقفاً، يواجه بالكلمة، ويتحدث بقوة، ويخطب
ببلاغة.

نظر بومبيوس نحو الباب، وأشار إلى محارب قديم من جحافل سولا،
فأوماً الرجل المخضرم برأسه علامة الفهم، وتوجه إلى شخص ما خارج
المبنى. توقع بومبيوس أن المُتَّهَم سيلهب قلوب العوام بكلماته لذا؛ أعد
قوة عسكرية للسيطرة على الوضع بالقوة إذا ما اقتضت الحاجة. وبالفعل
لاحظ قيصر وجود عشرات من الرجال، بملابس مدنية، لكنهم مسلحون
بأكثر من الخناجر وحدها، انتشروا في جميع أنحاء الصحن. كان عليه أن
يقيس كل كلمة من كلماته جيداً؛ لقد حان وقت الجدية والصرامة، وبات
الوضع خطيراً للغاية.

ظل العامة يهتفون، فرغ ذراعيه، وتوقف الجميع عن توجيه الإهانات
لدولايلا، وهدأت الأصوات الصاخبة.

نهض هورتينسيوس؛ إذ وجد المُتَّهَم يشق طريقه متحكماً للغاية في
الموقف، كان من الضروري إن يثبت عدم صحة حججه، أن يواجه أفكاره،
ويجهز على سلاح خطابته، فقال مقاطعاً قيصر: "لا يمكن الوثوق بالنساء؛
داخل كل واحدة منهن بذرة كليتيمنسترا التي، دعونا نتذكر، انتهى بها الأمر
بقتل زوجها أجاممنون عند عودته من حرب طروادة". خفض قيصر ذراعيه
بروية، لم يبد غاضباً ولا متفاجئاً من مقاطعة هورتينسيوس، أدرك أنه بات
يائساً، فهو الآن من يتحكم في زمام الأمور، وكليتيمنسترا وفقاً للأسطورة

كانت مثالا للمرأة غير الوفية القاتلة، هكذا رويت قصتها، ورويت أيضا من أوجه مختلفة أخرى، لكن جميعها غير مكتملة. لقد اعتزم قيصر الخوض في قلب مرافقته، وتحويلها إلى خطاب سياسي، لكنه لن يترك فرصة الرد على المثال الذي طرحه محامي الخصم كي يقضى على أي محاولة لتشتيت ذهن الحاضرين، فقال وهو يتقدم خطوة بخطوة نحو مقعد هورتنسيوس: "كليتيمنسترا، زوجة أجاممنون، قتلت زوجها بلا شك، لكننا لا نعرف بدقة كيف فعلت ذلك، والنقاش مفتوح حول ما إذا كانت قد ذبحته أم... أنها شنته. لكن قصتها التي تمثل نقيض بينيلوب المؤمنة الطائفة، دائما تروى غير مكتملة، دائما هناك تفاصيل غير معروفة. لكن دعني أقول لك، كليتيمنسترا قتلت زوجها بالفعل عند عودته من حرب طروادة لأنه جلب معه حبيبة أخرى، كاسندرا، وإن لم تعتبر ذلك سببا كافيا يدفع الزوجة إلى قتل زوجها، يبدو أن الجميع قد نسوا أن أجاممنون قتل ابنتها إيفيغينيا وقدمها قربانا للآلهة كي تدعّمه في الحرب، قتل ابنته، قتل ابنة كليتيمنسترا. يمكن أن يستمر الجدل لساعات حول ما إذا كان ما فعلته كليتيمنسترا انتقاما لموت ابنتها صحيحا أم لا، لكن ما لا نشك فيه أبدا هو أنها كانت لديها، على الأقل، دوافعها الخاصة التي تسوّغ -وفقا لوجهة نظرها- قتل أجاممنون، بنفس الطريقة التي تمتلك بها ميرتل، الشابة المقدونية، أسبابها لاتهام سنيو... كورنيليوس... دولابيلباغتصابها".

أنصتوا له بعيون متسعة، وسكت هورتنسيوس. عاد قيصر مرة أخرى، بتأنٍ إلى منتصف الصحن، رفع ذراعيه مرة أخرى، ولم يقاطعه أحد، فتابع: "لكن في بداية حديثي، قلت إن مهمة هذه المحاكمة أبعد من الجرائم التي ارتكبتها سنيو كورنيليوس دولابيلبا، لقد توقعت أن هذه المحاكمة سوف تصقلنا، وستثبت حقيقة روما ومدى التزامنا بالعدالة التي نرغب في تحقيقها، لأنفسنا ولجميع من نحكمهم. هذا مهم للغاية، لأننا نستطيع أن نفرض أنفسنا بقوة الأسلحة في الغزوات، لكننا سنكون قادرين فقط على الحفاظ على ما حققناه مهما مر الوقت إذا ما عرفنا كيف نحافظ عليه بقوة

عدالتنا تجاه الجميع، ليست عدالة تطبق فقط على عدد قليل دون الباقي. أتذكر الآن، وهي ذات صلة، الكلمات التي قالها ثوقيديديس على لسان بريكليس عندما أعطى هذا الحاكم اللامع صوتًا لخطابه الشهير تخليدًا لذكرى مواطنيه الذين سقطوا في الحرب البيلوبونيسية الطويلة" وأنشأ يسرد الجزء المشار إليه باليونانية.

لكنه لم يرد أن يوجه حديثه فقط إلى قلة من القضاة الذين يمكنهم فهم اليونانية جيدًا، بل أراد التحدث. في الواقع، كان يتوق للتحدث قبل كل شيء، باسم شعب روما الذي يمثله حشد المواطنين المتجمعين بين الجدران الأربعة لباسيليكاسيمبرونيا، حتى إنه بعد إعلان نص المؤرخ الإغريقي الذي تضمن كلمات بريكليس، أعاد تلاوته بالرومانية حتى يتمكن جميع الحاضرين في القاعة من فهمه جيدًا:

«نحن نتمتع بنظام سياسي لا يشبه قوانين جيراننا، الذين لا يدخرون جهدًا في تقليد الآخرين. في الواقع، نحن نمثل نهجًا سياسيًا تقتدي الأمم الأخرى به. أما بالنسبة للاسم، فبما أن الإدارة تمارس لصالح الأغلبية وليس الأقلية، فقد سمي هذا النظام بالديمقراطية، أي احترام القوانين؛ أن يتمتع الجميع بحقوق متساوية في الدفاع عن المنفعة الخاصة (...). وعلى الرغم من أننا في الأمور الشخصية نغمس في ذواتنا، إلا أننا في القضايا العامة، وبدافع الخوف قبل كل شيء، لا نُقبل أبدًا على خرق القانون، بل نطيع من يحكموننا وينبع ذلك من التزامنا بالشرعية، ولا سيما البنود التي تنصف ضحايا الظلم»*.

توقف قيصر مرة أخرى، حتى يتمكن الناس من استيعاب معنى هذه الكلمات تدريجيًا، لكنه كان يعلم أن عليه ترجمة العبارات إلى أفكار، فتابع حديثه بتأنٍ وصبر، دون تسرع، على الرغم من أن الوقت يمر والساعات لا تتوقف: "دعونا ندقق النظر، ونمعن التفكير في معنى هذه الكلمات. لقد لا نسمي طريقة حكمنا بالديمقراطية، سواء تعلق الأمر بحكم روما نفسها، أو

* ثوقيديديس، تاريخ الحرب البيلوبونيسية، الكتاب الثاني، الفصل السابع والثلاثون.

المناطق التابعة لها، وصحيح أن قوانيننا تسير في نفس الاتجاه الذي تحدث عنه بريكليس؛ وهو الاهتمام بمصالح ليس القلة، بل بمصالح الأغلبية، أو هكذا أعتقد. وبنفس القدر من الأهمية، نريد أن نمثل قدوة للآخرين وألا نقلد أحدًا، وهذه النقطة هي جوهر تقدمنا. أنا على يقين بأن من يستمعون إليّ اليوم سيتفقون معي في هذه النقطة، وقد رأينا بالفعل كيف أن تجاهل حقيقة أننا لا نحكم روما وحدها، وإنما نحكم مناطق شاسعة خطأ فادح، فقبل بضع سنوات فقط، بدأ تمرد مارس، وسرعان ما انضم إليه العديد من المناطق المتحالفة، لأنهم اعترضوا على طريقة حكمنا لهم. وبعدها أريقت الكثير من الدماء، توصلنا إلى اتفاقيات معهم لأن قوانيننا تلقي بظلالها على مصائرهم. لهذا يجب أن ندرك، دون أي لبس أو مراوغة، أن قوانيننا تؤثر ليس فقط على الإيطاليين، ولكن على سكان كل المقاطعات الخاضعة للحكم الروماني، ويحكمها ولاية رومان، يجسدون نموذجنا في الحكم. وكل حاكم منهم، يجب أن يقدم مثالا يحتذى به في حكمه، لأنه لا يعبر عن نفسه فقط، أو كما يعتقد المتهم المائل أمامنا، بل يمثلنا جميعًا، يمثل روما، وفي القضية التي ننظرها الآن كان من المفترض أن يقدم المتهم قدوة ومثالا وصورة جيدة عن الرومان. على أي حال، لجأ المقدونيون إلى القضاء الروماني لأنهم يخضعون للقوانين التي سنتها روما وعممناها لتشمل شعوبًا أخرى، وتجنبوا اللجوء إلى القوة والعنف في مواجهة جرائم دولابيل، النموذج الفاسد الذي أرسلناه، لسوء الحظ، إلى ئيسالونيكي. هذا هو السبب في أنه من المهم للغاية أن ننصف المظلومين، أو حسب تعريف بريكليس نفسه ضحايا الظلم، ولكن ثمة المزيد...".

اقترب قيصر من منصة المُتَّهَم حيث كان يجلس لاينوس، فأسرع بإعادة ملء كأسه بالماء، وشربه على عجل، وأعادته مرة أخرى على الطاولة. ذكَّره الماء بالساعات المائية، فنظر إليها، بقي له ثلاث، ولاحظ أن الحارس يقف بعيدًا، لكنه من الواضح تمامًا أنه تلاعب بهن في وقت ما؛ إذ كان الماء يتساقط بسرعة كبيرة، خاصة الساعة الثانية، لقد فرغت في غضون لحظات معدودة،

أو هكذا بدأ الأمر. استدار قيصر نحو المتهم، ظل دولابيللا يتململ في مقعده، كما لو أنه لا يجد الراحة في أي وضعية. سر قيصر لملاحظة هذا، بينما، أخذ بومبيوس يتنقل ببصره من جانب إلى آخر، نحو الرجال الذين دخلوا واستدعاهم للسيطرة على القاعة إذا ما تحول الهتاف إلى أعمال العنف، ثم إلى كوتا وهورتنسيوس، وحارس الساعة المائية، ثم نظر إلى العامة وإلى دولابيللا نفسه... الذي ثبتَّ نظره أخيرًا على قيصر، فتقاطعت نظراتهما.

عاد قيصر إلى صدر القاعة، وقال: "ولكن هناك المزيد. حسب نص المؤرخ سالف الذكر يخبرنا بريكليس أيضًا عن الخوف، فأى نوع من الخوف قصد؟ إنه الخوف من القانون، الخوف من عدم الالتزام ببنوده، والرغبة مهمة للغاية. إن الفزع الذي تثيره جحافلنا في ميادين المعارك هو الذي يدفع أعداءنا إلى التراجع أو الاستسلام، وخشية العقوبة قد تكون رادعة تمنعنا من خرق القانون أو ارتكاب أعمال فساد مالي وإداري وأخلاقي. بينما يبدو أن ثمة حثالة، من أمثال دولابيللا، يمارسون الفساد بسعادة، مثل خنزير يرتع في حظيرة".

قاطعت صيحات الجمهور مرة أخرى مرافعة قيصر، وتعالَت الأصوات بالإهانات التي وجهت إلى المتهم. لم يحدث من قبل أن وجه المُتَّهَم اتهامات لاذعة ومباشرة إلى هذا الحد في هجومه على المذنب، وهذا ما ألهب الرغبة في التعبير عن كرههم لدولابيللا: "مجرم! دولابيللا مجرم!". "خنزير!".

نظر بومبيوس نحو الباب، فدخل المزيد من الرجال، بلا شك، يحملون أسلحة لكنهم لا يشهرونها، ومع ذلك، كان من الممكن أن يشعر قيصر بثقل المعدن القتالي المتراكم داخل الصحن المركزي في باسيليكاس سيمبرونيا. لم يعرف السبب، لكنه كان مقتنعًا تمامًا بأن بيرديكاس وأرخيلاوس وآيروبوس وبقية المقدونيين لم يتجولوا في المدينة، ولم يُقبلوا على حضور تلك الجلسة بالذات، دون أسلحة خفية بين أرديتهم، بنفس قدر تسليح رجال بومبيوس.

في هذا المحيط الكثيف من النظرات المتقاطعة، أغفل قيصر إيماءة وجهها دولابيلاً إلى أحد عبيده الذين تجمعوا في أحد الأركان، فنهض الخادم بسرعة واقترب من أحد موظفي الباسيليكا وسلمه بردية صغيرة تحوي رسالة إلى رئيس المحكمة، فسلمها إليه على الفور، بينما استمر الآخرون في دعوة الحضور إلى التزام الصمت وسط الضجة والصيحات والشتم التي بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً.

تسلم بومبيوس البردية المطوية، فضها وبدأ يقرأها في صمت:

«لدي إحساس بالمرارة، وكأنني أشهد، هنا في وسط باسيليقا، تجسّد غايوس ماريوس. أنت تعرف ما يجب القيام به مع قيصر الشاب، كان سولا محقاً».

ورغم أن رئيس المحكمة لم ير من أين جاءته، وأنها لم تكن تحوي أي توقيع، لم يتردد في توجيه نظره نحو دولابيلاً، بمجرد أن فرغ من قراءتها، فوجده جالساً يعبث بأظافره، كما لو كان الأمر لا يخصه، وكأنه لا يتأثر بما يحدث أمامه على الإطلاق. لقد اتخذ بالفعل قراراً بتصفية قيصر في أسرع وقت ممكن، بمجرد انتهاء تلك المسرحية الهزلية. حقاً، كان يراها على هذا النحو، تلك المحاكمة برمتها في رأيه مجرد مسرحية هزلية. احتفظ بتلك الفكرة داخل عقله، فأتاحت له -أخيراً- الجلوس بهدوء أمام هيئة المحكمة التي قد تدينه وقد تبرئه. لا يوجد أفضل من فكرة راسخة تجلب لك راحة البال. بالنسبة له فإن اتخاذ قرار يحدد حياة أو موت من تجرأ على مواجهته هدأ من روعه، على وجه الخصوص عندما قرر كيف ومتى سيكون موت ذلك العدو. لم تكن البردية التي أرسلها إلى بومبيوس غرضها الاستئذان منه، بل مجرد مجاملة للزعيم الشاب الذي ترعرع في أحضان الأوبتيميتس، وحظي بدعم أكثر المحافظين المخضرمين. فمنذ فترة طويلة، تحديداً منذ وفاة سولا، لم يعد دولابيلاً يطلب الإذن من أحد.

عاد قيصر إلى الطاولة حيث يجلس لابينوس، كي يحصل على المزيد من الماء. همس إليه صديقه: "حارس الساعة". فالتفت قيصر بسرعة نحو

الساعات فوجد الضابط يهم بالابتعاد، من الواضح أنه تلاعب بها للتو، مستغلاً لحظة الاضطراب. أدرك حينها أنه بدءاً من تلك اللحظة بالذات، سيمر الوقت بسرعة أكبر. في الواقع، كان لديه شعور بأن العد التنازلي لما تبقى من حياته بدأ اعتباراً من تلك اللحظة أيضاً، وسيسوقه نحو نهاية محتومة، من المؤكد أنها ستكون عنيفة. لكن المسألة الآن كم من الوقت لديه لقول كل ما يريده قبل أن تنتهي مدته، وكم يسعفه الوقت لإنجازه قبل أن تنتهي حياته.

عاد مسرعاً إلى وسط الغرفة، ونظر إلى هيئة المحكمة، وأمام إصرار الموظفين ساد الهدوء من جديد، ليضيف: "نعم، أيها القضاة، هذا الحكم لا يتعلق فقط بدولابيللا، بل يتعلق بجوهر وضعنا الحالي؛ بل ما نريد أن نكون عليه؛ هل نصف أنفسنا بالغزاة أم بالمحررين؟ هل نريد أن نكون طغاة أم شخصيات أسطورية أمثال داريوس الأول أو الإسكندر، اللذين لم يحتلوا فحسب الأراضي، بل كانوا كرماء مع شعوبها، فحظوا بالحب والتقدير من قبل جميع مقاطعات إمبراطوريتهم؟ هذا ما نقرره في هذه الحالة، ووفقاً لأرسطو، فإن: السياسي المحنك، هو الحاكم الذي يسعى إلى الفضيلة ولديه القدرة على الحكم وفقاً لمنظور شامل. ونحن لا يمكننا اتخاذ قرارات أو إصدار حكم بالبراءة أو بالإدانة في هذه المحاكمة بمنأى عن ذلك، لكن يجب مراعاة الطرفين؛ المتهم من جهة، ومن جهة أخرى، من تعرضوا للظلم على يديه، دون تمييز حسب الجنسية، خاصة في ظل خضوع أهل مقدونيا لقوانيننا الخاصة، وقبولهم لها باعتبارها قوانين تحكمهم أيضاً. هناك من يقول، وهذا ما سمعته في المنتدى في أكثر من مناسبة، إنه يجب صياغة المزيد من القوانين للنظر في قضايا مثل تلك التي نحن بصددتها أو غيرها من القضايا المماثلة. لكنني أقول لا، كلما زاد عدد القوانين، استشرى الفساد. لا يتعلق الأمر بالخوض في سن قوانين لا نهائية بل بالتأكد من اتباع القوانين التي لدينا بالفعل. لكنني أعلم، ونعلم جميعاً... "ثم هز رأسه بروية، واستدار نحو الجمهور بذراعين ممدودين، كما لو كان يشملهم جميعاً في

خطابه: "ما يسعى إليه المتهم سرًا، إنه يتلاعب بالإرادات ويمارس كل أنواع الضغط على القضاة كي يبرئونه من جرائمه، وهو ما يذكرني بلا شك بكلمات بلاوتوس حين قال "إن الظلم لا يليق بالمقسطين*"، وأظنني بحاجة إلى الإيمان بأن قضاة روما يميلون إلى العدل، وعلى النحو ذاته، أعتقد أن ما يسعى إليه دولابيللا، بعبارة أو بأخرى، ولإعادة صياغة قول بلاوتوس النبيل، لا يليق بنا".

أخذ نفسًا عميقًا، نظر إلى الساعة المائية، الوقت يمر بسرعة، تبقى اثنتان. كان بإمكانه أن يشير إلى التلاعب بالساعات، لكنه كان قد تمكن من رفع الروح المعنوية كثيرًا بالفعل، ورأى أنه من الحكمة أن ينهي خطبته بأسرع ما يمكن، حتى وإن كان مدفوعًا بضغط الساعات المائية التي تم التلاعب بها، فأردف: "لقد قدمت شهادات وأدلة على الممارسات السيئة لسنيو كورنيليوس دولابيللا، ولكن في حالة استمرار وجود شكوك، علينا فقط ملاحظة ليس سلوكه في الماضي. إن أسلوبه في التصرف في الوقت الحاضر، يتمحور حول قضاء يومه بين الحفلات والمآدب، والإسراف، والرفاهية دون رقابة، والزنا وجميع أنواع التجاوزات. سأعود إلى بلاوتوس العظيم؛ الذي قال: "ما أخذ بالباطل لا يدوم" وهو كذلك، فإن كان دولابيللا قد جمع ثروته من خلال العمل والجهد، لاستغلها بمزيد من ضبط النفس والعادات الأفضل، لكن تبذيره الحالي واستعراضه الفاحش للثروة ليس سوى نتيجة للأصل المظلم المخادع والإجرامي للمال المسروق من المقدونيين من خلال فرض ضرائب غير مشروعة ونهب المعابد المقدسة. وإذا سمحنا بتبرئة المدعى عليه من الجرائم المرتكبة ضد المقدونيين هناك في مقدونيا، لمجرد أنه مواطن روماني، فسوف يتحول إلى تهديد يروعنا جميعًا. في الواقع، وفي إطار القانون، إذا ما أصدر القاضي حكمًا جائرًا، يحابي أحد الأطراف، فهو بذلك يظلم الطرف الآخر، وإذا ما أعلن قضاة هذه المحكمة براءة دولابيللا من جرائمه، فإنهم بذلك يظلموننا جميعًا، يظلمون

* مسرحية أمفيتروس لبلاوتوس، المقدمة.

الرومان الذين يحاولون الامتثال للقوانين وكذلك المقدونيين الذين قرروا الخضوع لقوانيننا وعاداتنا. كنت قد قرأت نصًا يونانيًا فيما معناه أنه "على المرء أن يكون صارمًا في ميدان المعركة، ورحيمًا في ساحة القضاء" لكنني أضيف إلى هذا سؤالًا: رحيمًا مع مَنْ؟".

هنا دوت في عقله كلمات شيشرون التي قالها له منذ أشهر فيما تعلق بضرورة أن يقدم نفسه بصفته المدافع وليس موجه الاتهام: "وأنا أجيب أيها السادة القضاة، أن يكون رحيمًا مع المظلوم، أي مع المقدونيين في هذه القضية التي ننظرها. لم يدخر محاميا الدفاع أي فرصة لوصفي بأني موجه الاتهام، لأنني صراحة من أوجه الاتهامات إلى دولابيل، لكنني الآن أقوم بدور أكبر بكثير، وأكثر أهمية، أنا محامي الدفاع عن حقوق المقدونيين، أولئك الذين عانوا من ظلم مروع، من سلسلة طويلة لا تنتهي من الفساد على يد دولابيل. وإن كنت أدافع عن المقدونيين، فهذا من أجل الصالح العام لنا جميعًا، نحن الرومان وغير الرومان، وكل من يخضعون لقوانين روما العادلة التي نحبها، لم أعد صوت المقدونيين، بل المحامي الذي يسعى إلى العدل من أجل كل مواطن سئم من رؤية كيف يسعى سناتور فاسد إلى التملص من جرائمه بعدما شوه سمعة روما هناك حيث حكم. وأقول لكم إن التراخي عن إيقاع أشد العقوبة على الفسدة يمهد الطريق للتمرد والحرب، بدلًا من أن يؤسس للسلام الروماني".

ساد الهدوء أرجال القاعة، بينما ظل قيصر منتصبًا في وسط القاعة، ونظرات الجميع مثبتة عليه. سكت لبرهة ثم أردف: "لقد كنا قساة مع المقدونيين - على وجه الخصوص - في ساحة المعركة، ولكن الآن، أمام القضاء، يجب أن نتحلى بالرحمة وأن ننظر في ادعاءاتهم طالما أنها، كما في هذه الحالة، عادلة، وأن نتعامل مع مظلهم وتعويضهم عن معاناتهم. جميع القضاة تحت حنية الباسيليكا من أعضاء في مجلس الشيوخ، وعلى وجه التحديد، من الذين يسمون أنفسهم الأوبتيميتس، أي الصفوة، وأولئك الذين ينتمون إلى حزب الأوبتيميتس يعتبرون أنفسهم أفضل مَنْ في المجتمع.

بحق الآلهة جمعاء، أثبتوا أنكم كذلك الآن!"، وأضاف هامسًا: "حسنًا الأوبتيميتس الفسدة الملاعين"، ثم عاد سريعًا إلى النبرة الحازمة في نطق كل كلمة من كلماته: "أظهروا أيها القضاة أنكم تعارضون هذا الإثم وتذكروا طريقة تفكير ديموقريطوس، الذي يقول إن: "الآلهة تحب أعداء الظلم" أي أن ثمة أسبابًا تجعل الآلهة تحبكم، وكذلك سكان روما والجميع. قد تحتوي أفضل سلال التفاح على ثمرة واحدة فاسدة، وإذا ما تمت إزالتها، نحافظ على الباقي طازجًا وصحيًا، ولكن إذا تركت التفاحة الفاسدة في السلة، فإنها في النهاية، وقبل أن تمر فترة طويلة، سوف تصيب باقي الثمار بالتعفن."

نظر مرة أخرى إلى الساعة المائية، لم يبق سوى واحدة وكانت على وشك النفاد، فأضاف: "أنا أو من بالعدالة. أو من بقدره روما، أعرف أن كوتا وهورتنسيوس حاولا التدليس وتسويغ جرائم المتهم، وقدموا صورة مشوهة وخلطوا الأوراق لإرباكنا جميعًا. لكن تذكروا أيها القضاة هذا القول المأثور: "إن انحراف الصالحين عن النزاهة هو أسوأ ما يمكن حدوثه على الإطلاق"* وأن: "شعاع العدل يشق حتى أحلك الظلمات" وبصفتكم حماة العدالة، عليكم أن تروا الحقيقة في وسط ظلام الرواية الخيالية والمخترعة التي يسوقها المتهم، وازدراء المدعى عليه لكل ما هو عادل ولائق وشريف. لذا أتوسل إلى الآلهة تنوير بصيرتكم حتى يدان المتهم، من أجل اقتلاع أكثر أنواع التفاح فسادًا وسُمًا وأشدَّ خطورة! تفاحة فاسدة لن تجلب إلى روما الثروة أو الازدهار، وإنما الحروب وتمرد كل أولئك الذين عانوا تحت سلطتها الفاسدة!"

توقف للحظة، كان بحاجة لالتقاط أنفاسه قبل أن ينتهي من قول كل شيء، ويعرب عن أهم شيء. تعالت صيحات الجمهور ضد دولابيل، بعضهم بدؤوا يصفقون له، لكن قيصر رفع ذراعه يدعوهم إلى التزام الصمت، ومرر أصابعه على رأسه ملتفتًا إلى الجمهور، وعيناه تبحثان عن كورنيليا، وحينما التقت أعينهما شعر بأن حبها له تأجج وتعمق، ثم نظر إلى

* عبارة تُسببت بعد زمن الأحداث للقديس جيروم، لكن ربما كانت متداولة من قبله.

والدته فاستشف من نظراتها أنها تؤيده. أخيرًا واجه دولابيللا وقرأ الكراهية في وجهه. فأخذ نفسًا عميقًا، والوقت ينفد، ثم تحدث بملء فيه: "في إطار هذه المحاكمة، لا نحاكم دولابيللا فقط، كما قلت، بل نحكم على الكثير في خضم الجلسات، ولست أدافع عن المقدونيين فقط، بل أحمي مصالح روما كلها. حاول محاميا المتهم إقناعنا بأن إدانة دولابيللا تعني إدانة روما، لكن الأمر ليس كذلك، دولابيللا لا يمثل روما، ولا أنتم كذلك أيها القضاة. أنا هنا من أمثل روما وشعبها، واليوم، هنا والآن، مَنْ يحمي روما هو أنا، وروما هي أنا"، ثم رفع ذراعيه عاليًا بينما تذرّف الساعة الرملية السادسة قطراتها الأخيرة، فساد تصفيق حاد.

بدا بومبيوس جادًا للغاية، بينما حافظ دولابيللا على مظهره هادئًا، لكنه في أعماقه يشتعل غضبًا. أما كورنيليا فبدت متحمسة، وأوريليا فخورة لكن القلق ينهش قلبها. بمجرد أن جلس إلى جوار لابينوس حتى هنا قائلاً: "لقد تألقت يا صديقي، مثلما كنت في ليسبوس".

استمر التصفيق. نظر قيصر إلى لابينوس بعيون يملؤها الغضب، وقلبه ينبض بأقصى سرعة، وأجاب بشكل قاطع: "مثلما كنت في ليسبوس".

شخصيات من عبق الذاكرة

٥. لابينوس

صديق الصِّبا

أرض صافو (ليسبوس)

ميتيليني، جزيرة ليسبوس، شرق البحر الأبيض المتوسط*
عام ٧٨ قبل الميلاد، قبل عام وبضعة أشهر من محاكمة
دولابلا

يبدو لي أنه أشبه بالآلهة تمامًا...
ذاك الرجل السعيد الذي يحتضنك...
ويستمع، في صمت...
إلى صوتك اللجينيّ ويتأمل ابتسامتك المشرقة...
كم كانت الحياة التي عشناها معًا ثمينة ورائعة...
وأنتِ إلى جوارِي تغطين جسدي بأكاليل البنفسج والورود الحلوة
أذكر خصلات شعركِ المموجة**.

طوى قيصر ورق البردي ووقف يتأمل بحر إيجة. بدت له قراءة
أحد أعمال الشاعرة "صافو" في تلك الجزيرة، التي هي موطن الشاعرة
الإغريقية، أكثر الأشياء منطقية في العالم. صحيح أنهم كانوا على وشك
الدخول في معركة ضد قوات ميتيليني التي تدافع عن أسوار مدينتهم ضد
الهجوم الروماني، لكن تلك القصائد التي كتبها صافو ذكّرتَه بجسد زوجته

* انظر إلى خريطة ميتيليني

** أبيات من شعر إغريقي، نسبها الخبراء عام ٢٠١٤ إلى الشاعرة صافو.

الدافئ، تدلُّ كورنيليا، وسط عتمة الليل، وابتسامتها عند الفجر. هداًته تلك الذكريات وأعادت شحنة بالطاقة ليوم كان يتوقع أن يكون شاقاً وطويلاً؛ لأن القسطنطين، لوسيوس ليسينيوس لوكولوس، الذي وصل للتو إلى الجزيرة لقيادة القوات الرومانية في تلك البقعة من العالم، استدعاه ولاينوس إلى خيمته، شعر قيصر بأنه سيكلفهما بمهمة خطيرة. ترى هل كان خائفاً؟

عبس وهو يضع لفافة ورق البردي التي تحوي قصائد صافو جانباً، هز رأسه يؤكد لنفسه، وسط الصمت العميق الذي ساد ذلك الفجر، شرق البحر الأبيض المتوسط، أنه نعم، كان يشعر بالخوف. في الواقع، لم يكن يخشى أمراً واحداً، بل الكثير؛ كان خائفاً من الفشل، من ألا يرقى إلى المستوى المتوقع منه، من ألا يتمكن من إثبات أنه جدبر بقرابة غايوس ماريوس. كان يخشى ألا يطيعه جنود الفيلق لصغر سنه، بلغ بالكاد ٢١ عاماً، ومُنح رتبة "منبر لاتيكلافيوس*" هو وصديقه تيتوس لاينوس. حقاً كان قلقاً من الحرب وأضناه التفكير في كيفية مواجهة العدو. وكيف سيتعامل مع الدماء والعنف في الخطوط الأمامية. حتى ذلك الحين، كان قد شارك فقط في مناوشات أو مناورات في إطار التدريبات العسكرية في ميدان مارس وفي المعسكر الميداني في ليسبوس، لكنه الآن سيخضع للاختبار في قتال مباشر ضد أعداء روما. كان ذلك مختلفاً تماماً عن التدريبات والكمائن التي نصبوها لسقاة الخصوم، أو الدوريات الأخرى للكشف عن أولئك الذين انتفضوا ضد روما في تلك الأراضي، الآن، بات متأكداً من أن القادم سيكون شديد الخطورة.

وكان عدد المدن الآسيوية وجزر بحر إيجه** والممالك الصغيرة التي تمردت ضد روما في المنطقة يزداد شيئاً فشيئاً، مستغلين لحظة ضعف روما وانشغالها في المواجهات الداخلية المستعرة بين سولا وماريوس؛ إذ تسببت الحرب الأهلية بين الأوبتيميتس وحزب البيبولاريس في انحسار الحراسة

* أحد المنابر (القادة العسكريين) الستة في الفيلق، وهو أدنى منصب في هرم المناصب الرومانية.

** انظر خريطة ميتيليني.

على المواقع التابعة لروما في آسيا. لكن مجلس الشيوخ في قرار رآه قيصر منطقيًا تمامًا أصدر أمرًا بمعاقبة كل هؤلاء السكان الذين تمردوا، كي يبعث برسالة مفادها أن ها هي روما تعود من جديد لتستعيد ما فقدته.

كانت جزيرة ليسبوس واحدة من تلك المناطق التي خانت ثقة روما، لكن سكانها، الذين، على الرغم من عدم إمكانية الوثوق بهم، لم يكونوا أغبياء وعرفوا بأفعال روما لعقاب المدن المجاورة، وأيضًا عن خبرة لوكولوس في القيادة العسكرية، الذي كلفه سولا بنفسه بفرض السيطرة الرومانية في الشرق. لذا تحصنوا بحصن ميتيليني، أكبر مدن الجزيرة، وتمكنوا من تأمين الأسوار وتعزيز الأبراج الدفاعية، كما زدوا أنفسهم بالقمح الوفير والمؤن الأخرى وحفروا آبارًا عميقة للغاية لضمان توفير المياه العذبة حتى يتمكنوا من مقاومة حصار طويل وشاق.

كانوا يعلمون أن مقوماتهم الضعيفة لا تضمن لهم التغلب على العدو في المواجهات المباشرة، لذا تجنبوا المواجهة. كما رأوا أنه ليس بالضرورة أن تنشب معركة، إذ إن مدينتهم تمثل جيبًا صغيرًا وأمام روما الكثير من المواقع التي يجب توزيع القوات عليها، لذا؛ كانوا مقتنعين بأنهم، إذا صمدوا البضعة أشهر، قد ينسحب الرومان إلى موقع آخر لحماية المصالح الرومانية به. وربما، عندما يتسلل الكلل والجهد مع استمرار وقوع إصابات يصبح ممكنًا بدء مفاوضات مع روما والتوصل إلى اتفاق بموجبه يعفو مجلس الشيوخ عن المدينة مقابل الموافقة، على سبيل المثال، على بقاء حامية دائمة في ليسبوس. وقد يُنظر إلى هذه النتيجة على أنها هزيمة، لكنها هزيمة من أجل البقاء على قيد الحياة، يتجنبون من وراءها حرق وتدمير منازلهم وتشيت عائلاتهم وكل شيء يمتلكونه، هزيمة بطعم النصر. كانوا يعلمون أن الرومان انتقموا بوحشية ممن خانوهم، وعرفوا كذلك أنهم براغماتيون، وعندما يطول أمد الحصار تصبح كل الحلول ممكنة، لذا صمدوا لأسابيع طويلة.

سمع يوليوس قيصر وقع خطوات تقترب منه، وكان يعرف من القادم،

فقام من على الأرض حيث كان يقرأ صافو أمام البحر، وثبت الخنجر على خصره واستدار، فنظر إليه صديقه وقال: "أخيراً وجدتك".

"لم أختبئ، أردت الانفراد بنفسي للقراءة لبعض الوقت أمام منظر خلاب كهذا، وددت الحصول على كأس من النبيذ، لكنني انتظرتك كي أشارك معك".

"ها ها ها ها! بحق هرقل! هذا مجهود رائع منك!"

كان لابينوس، كعادته دائماً، مرافقاً له، حتى في بعثته إلى الشرق، بعدما عفا سولا عنه أمام توسلات العشرات من الأقارب والأصدقاء والشخصيات العامة. وافق على مضض، لكنه، فلنقل، اقترح على قيصر أن يغادر روما، على الأقل لفترة من الوقت لأنه أراد تعزيز سيطرته على المدينة الواقعة على نهر التيبير بعيداً عن تدخلات ابن صهر غايوس ماريوس. لذا فإن سولا قبل عفواً مغلفاً بالنفي، ليس كعقوبة، ولكنه أشبه برحلة طويلة وفقاً لرغبة الديكتاتور. وهكذا، لكنه سمح له بالبقاء لبضعة أسابيع في منزله بعد شهر من الهرب، حتى يتعافى جسدياً من الحمى ويستمتع بعناق زوجته، وضحكات ابنته الصغيرة جوليا، وأختيه وبالطبع نصائح والدته. وعندما انتهت المهلة ودّع زوجته وأختيه، وقبّل ابنته، وحصل على مباركة والدته، وغادر إلى الشرق.

"فيم تفكر؟" فاجأه صوت لابينوس، وأخرجه من عمق أفكاره. كانا قد دخلا للتو إلى الخيمة، بعدما عادا من الشاطئ القريب من المعسكر، وطوال الطريق لم يقل قيصر كلمة واحدة.

"حقيقة... في روما، في عائلتي". عبّر له لابينوس عن تفهمه بإيماءة برأسه ثم طرح سؤالاً من شأنه أن يجنب صديقه ألم الحنين ويعيد ذهنه إلى حاضره الحالي: "هل تعتقد أنهم سوف يكلفوننا بمهمة دبلوماسية أخرى؟".

صب قيصر المشروب في الكأسين، وقدم أحدهما إلى صديقه، بينما ينظر بتمعن نحو مدخل الخيمة. كان لو كولوس، بمجرد وصوله إلى الشرق، قد أرسلهم إلى بيتانيا، لمطالبة الملك نيكوميديس الرابع، باسمه، بتوفير

سرية من السفن، لتعزيز قوة الأسطول الروماني في شرق البحر الأبيض المتوسط. وأتم قيصر مهمته، لكن ثمة شائعات إدّعت أنه بغى مع الملك كي يتمكن من إقناعه. كان قيصر متأكدًا من أن أعداءه في روما روجوا لهذه الشائعات للإضرار بصورته العامة، لكن ما أزعجه هو أن تلك الأكاذيب وصلت إلى آذان كورنيليا، وأقلقه رد فعلها، لكن لابينوس قال له حينها، وكأنه يقرأ أفكاره: "لن تشك فيك أبدًا". كانت هذه الأمور موضع استياء شديد في المجتمع الروماني، "كورنيليا... تقصد كورنيليا؟" سأله قيصر مستفهمًا، فأكد لابينوس: "نعم، كورنيليا". فوافق قيصر الرأي. كان هذا صحيحًا؛ فثقتها به لن تتزحزح أبدًا. قد يشك فيه آخرون، لكنها لن تفعل، وكذلك أوريليا، والدته.

كان صحيحًا أن ملك بيتانيا، المعروف بميوله المنحرفة، قد لَمَّح له بما أراد، بل وضغط عليه كي يقبل، ساومه: السفن مقابل الإذعان لرغبته، لكن قيصر رفض وقال له فلتفعل ما تريد، وهدده بأنه سيعود إلى لوكولوس ليلبغه بتمرده. لقد أصر على الرفض رغم علمه بأن ذلك سيفقده هيئته السياسية وقد يعاقب بخفض رتبته العسكرية، لكنه أيقن بأن لوكولوس سيعاقب الملك عقابًا رادعًا وسيسلح عدة جحافل ويهاجم بيتانيا لتذكيره بأن اتفاقياته مع روما بتوفير السفن عند الحاجة إلزامية، وبأن القسطنطينوس رجل لا يتعامل بهدوء مع العصيان. تذكر قيصر كيف تغيرت ملامح وجه نيقوميديس الرابع، وكيف أمر بطرده من قاعة الاجتماعات، ثم، وفي اليوم التالي، تلقى رسالة منه تحوي معلومات حول موقع السفن البيتانية الجاهزة لخدمة روما. وهكذا امتثل نيقوميديس الرابع لقوة روما.

ومع ذلك، فقد انتشرت الشائعة في جميع أنحاء آسيا. لم يسأله لوكولوس قط كيف حصل على السفن، فقد كان رجلًا براغماتيًا، لا تهمة الكيفية.

"غرقت أولًا في الشوق إلى عائلتك، والآن تسترجع ذكريات مهمتنا في بيتانيا. هل ثمة طريقة تجعلك تفكر في وضعنا الآن؟" قال لابينوس، فابتسم قيصر.

"هل تعتقد أنه سيكلفنا بمهمة دبلوماسية أخرى؟" كرر لاينوس سؤاله.
هز قيصر رأسه نافيًا، وقال أخيرًا: "لا، لقد جاء من أجل إنهاء الحصار
ولدي شعور بأنه سيشاركنا معه في تحقيق هذا الهدف".

"هل تقصد أنه سيدق طبول الحرب؟"

هز قيصر رأسه بالإيجاب، دون كلمة واحدة، فأدرك لاينوس خطورة
الموقف. الشائعات ليست مميتة، لكن السيوف والحرايب والسهام تخرق
الأبدان. لم يقاتلا من قبل، كلاهما كان حديث عهد بالمعارك. شربا في
صمت وهما يحدقان إلى الأرض بيأس جم.

أوامر لوكولوس

المعسكر الروماني أمام ميتيليني، جزيرة ليسبوس، خيمة
لوكولوس (قَسْطُور روما في آسيا)

عام ٧٨ قبل الميلاد

كان من المنطقي أن يتم اتخاذ القرارات العسكرية الخاصة بهذا الحصار في خيمة قائد الحصار، ومن هناك تُوجه التعليمات إلى القوات المنتشرة في ليسبوس. ومن المفترض أن يكون كوينتوس مينوسيوس ثيرموس، البروبريتور المكلف بمهمة إنهاء جيوب المقاومة الأخيرة ضد روما في المنطقة، هو مَنْ يستدعي المنابر وبقية القادة العسكريين إلى خيمته.

نعم، كان ذلك المنطقي والمعتاد، لكن لوسيوس ليسينيوس لوكولوس وصل للتو إلى ميتيليني على متن سفينة خاصة تابعة للأسطول الروماني في بحر إيجه، إنه قَسْطُور الجمهورية الرومانية المهيب في الشرق، والأهم من ذلك، الذراع اليمنى للديكتاتور القوي سولا في هذه الناحية من العالم. في الواقع، حارب لوكولوس جنباً إلى جنب مع سولا في الحرب الاجتماعية، وفي القتال ضد الملك ميثراداتس ملك بنطس، وفي الحرب الأهلية الأخيرة، أي أنه لم تعد ثمة حاجة للمزيد كي يمنحه سولا ثقة عمياء، وكان رجلاً غامضاً غليظ القلب، يميل إلى الصمت، قليل الكلام، مكفهر الوجه، ملامحه جامدة.

ورغم أن ثيرموس هو المكلف بقيادة الحصار إلا أنه وقف عند قدم القَسْطُور، يتصبب عرقاً، في وسط الخيمة، إذ توقع أنه جاء كي يحقق معه

بخصوص تفاصيل إدارته لأموال الجيش الروماني هناك ويدقق في أوجه التقصير. بالنسبة للديكتاتور سولا، كان المال هو مفتاح كل شيء، ولهذا فضل تعيين أقرب أصدقائه في المناصب المالية العالية، أي القسطنطين أكثر من مناصب المنابر أو القادة أو الليغاتوس. كان ثيرموس يدرك جيداً أنه تأخر في اقتحام المدينة، ومن ثم فرض السيطرة على جزيرة ليسبوس بالكامل. لم يكن التلكؤ أمراً محبباً عند سولا، الذي يعرف كل شيء، ويتحكم في كل شيء، ويريد السيطرة على كل شيء. حتى عندما قيل إنه قرر الانسحاب من الحياة العامة، لم يبشر وصول لوكولوس إلى ميتيليني بالخير بالنسبة إلى ثيرموس الذي كان يخشى أنه مسيرته السياسية والعسكرية ستبقى ملطخة إلى الأبد في عيون سولا بسبب تباطؤ تقدمه في ذلك الحصار اللعين، أو قد ينهي مسيرته إلى الأبد، وفي أسوأ الأحوال قد يصدر سولا قراراً بمعاقبته لعدم قدرته على السيطرة على تلك الجزيرة.

وبمجرد وصوله بدأ لوكولوس كلامه دون أي ديباجة أو تحية: "تماماً مثلما تتوقع يا ثيرموس، الدولة الرومانية ليست راضية عن تطور الأحداث في هذه الزاوية الصغيرة من بحر إيجه". عرف ثيرموس أنه عندما يقول لوكولوس "الدولة الرومانية" يقصد بها سولا. فأجاب محاولاً تسويغ موقفه: "المدينة أيها القسطنطين، أكثر تحصيناً مما يمكن تخيله للوهلة الأولى بكثير، جدرانها لا يمكن اختراقها. لن أقول إنها منيعة، لكن بالقوات المحدودة الموجودة لدي في الجزيرة، لا أرى طريقة أخرى لإسقاطها سوى استمرار الحصار".

جلس لوكولوس على مقعد وثير في وسط الخيمة، وإلى جواره طاولة عليها كؤوس مملوءة بالبيذ. لم ير القسطنطين أنه من المناسب دعوة محاوره لمشاركته في الشرب، فتذوق وحده نبيذ باخوس، وشرب بصمت رشفة طويلة، ثم وضع الكأس، وحدق إلى قائد الحصار وقال: "إطالة أمد الحصار من شأنها تعزيز مقاومة المدينة، وقد تتحول جزيرة ليسبوس إلى بؤرة تمرد في شرق لا يزال موالياً لميثراداتس. صحيح أن ملك بنطس قد واجه روما

وهُزم وأُبرم اتفاقاً مع الدولة الرومانية، لكن ليسبوس، التي دعمته، لم تُخضع بعد، وهذا أمر لا يقبله مجلس الشيوخ. إن عدم قدرتك هنا يا ثيرموس، تجذب إليك أعين روما الغاضبة".

ازدرد القائد لعابه. الآن هو على يقين من أنه عندما قال: "أعين روما"، قصد "عيني سولا". لم يكن ثيرموس خائفاً من روما، بل سولا هو ما يربعه، ويخشى ردود فعله الانتقامية تجاه من يخذله. لم يستطع التحكم في القلق، مسح براحة يده اليمنى عرق جبينه. ابتسم لوكولوس، إذ وصل وضع القائد إلى ما أراه بالضبط، فأردف: "لكنني أؤمنُ جهدك، يا مينوسيوس ثيرموس على أية حال، و... روما أيضاً تقدرُ لك ذلك، لهذا السبب سنمنحك فرصة ثانية للسيطرة على المدينة".

"شكراً جزيلاً لك أيها القسّطور. أنا مستعد لتنفيذ الأوامر وفقاً لما ترونه".

حذق لوكولوس إليه، فاستقر جيداً على مقعده وقال: "لقد وضعت خطة للحد من مقاومة سكان هذه الجزيرة، لكن من أجل تنفيذها بشكل صحيح، أحتاج إلى اثنين من الضباط الشباب... الشجعان. فكرت في يوليوس قيصر ذاك وصديقه، الشاب الذي يرافقه دائماً".

"هل تقصد تيتوس لابينوس".

"نعم، إنه هو، أريد التحدث إليهما". هم مينوسيوس ثيرموس بالذهاب لاستدعائهما، لكن لوكولوس رفع راحته اليمنى وأخبره: "لقد سمحت لنفسني باستدعائهما، وأنتظر مجيئهما". فأوماً القائد برأسه دون أن يقول أي شيء، وكذلك بقي لوكولوس، بدوره، صامتاً، يحدق في وعاء زجاجي مليء بشمار التوت الأحمر الذي أحضره معه على متن السفينة من مدينة غيرسون (تركيا).

"هل تريد نبئاً؟" دعا القائد أخيراً لمشاركته في الشرب.

"نعم، شكراً لك" أجابه ثيرموس. لاحظ أن الكؤوس ذهبية، فأخذ

يتأملها ليجد أن أدوات المائدة التي يستخدمها لوكولوس في رحلاته إلى الشرق مصنوعة من الذهب الخالص، حينها أدرك أن القسطنطين، مثله مثل جميع الأوبتيميتس، يميل إلى البذخ والترف.

شربا معًا بينما يناقشان أحوال الطقس. لم تكن محادثة تافهة، لأن هطول المطر أو عدمه قد يؤثر على خططهم لمهاجمة المدينة المحاصرة. بعد برهة أراح قائد الحصار ستائر الخيمة متطلعًا إلى الخارج، وقال: "لقد جاء".
"فليأتيا" أمر لوكولوس.

كان ثيرموس مهتمًا للغاية برؤية إلى أين يتجه لوكولوس، وما هي ملامح خطته الجديدة. فاجأه اختيار قيصر بالذات لتنفيذ تلك الإستراتيجية الجديدة، وأدهشه أن سولا أعلنه عدوًا الروما، بغض النظر عن عفوه الظاهري عنه. ربما أدرك سولا أنه -في مرحلة ما- عليه أن يتوقف عن قمع أعدائه. هل قرر زعيم الأوبتيميتس إظهار كرمه مع يوليوس قيصر؟ أربكه أن يأتي مبعوث سولا لاستدعاء نفس الشخص الذي أسقطه الحاكم من أنعامه حتى وإن عفا عنه، كما لو أنه أراد له أن يجعله لابعاء رئيسًا في محاولات السيطرة على المدينة. أثار الأمر تساؤلاته إذ لم يفطن إلى الجانب الخفي من ورائه بعد.

انتصب قيصر ولاينوس عند مدخل الخيمة، ولوكولوس لا يزال جالسًا على مقعده. لم يقدم النبيذ لهما، وهما بالطبع لم يتوقعا منه ذلك، وفي الواقع، لم يأمل قيصر خيرًا من أي من رجال سولا المقربين. لكن رؤساءه استدعوه إلى هذا الاجتماع ولم يكن ثمة مجال لمعارضة أمر عسكري، عليه فقط أن يطيع. كان لوكولوس قد كلفه من قبل بالمهمة الحرجة عندما أرسله إلى بيتانيا من قبل، ولم يتوقع أن يكلفه الآن بمهمة أقل تعقيدًا، بل شعر بأن الأمر ينطوي على تعليمات أكثر خطورة.

"ها نحن نلتقي مرة أخرى أيها المنبر العسكري" قال لوكولوس.
"بالفعل أيها القسطنطين" أجاب قيصر.

حذق القسطنطين أولاً إلى الأرض لبرهة، ثم نظر إلى ثيرموس، وأخيراً التفت إلى قيصر ولايينوس. ثم أنشأ يوضح لهم بالتفصيل استراتيجيته لإخضاع ميثيليني، وشرح الجزء الذي سوف يتولاه المنبران، بينما جلس قائد الحصار يستمع إليه باهتمام بالغ، وبجبهة متجددة، ومن وقت لآخر يرتشف رشفة من كأسه، دون أن يعلق أو يتجرأ على مقاطعة القسطنطين. كذلك أنصت إليه قيصر ولايينوس، وظلا يتبادلان نظرات الدهشة، دون أن يتجرأ أحد على طرح الأسئلة أو الاستفسارات حتى انتهى من عرض كل التفاصيل وسأل: "هل لدى أحدكم أي استفسار؟".

اقتصر ثيرموس على التحديق في قاع كأسه الفارغ، وهز لاينوس رأسه نائياً، لكن قيصر عرض بعضاً من... شكوكه؛ إذ قال: "وفقاً لخطة القسطنطين سوف نتحمل أنا ولايينوس الجانب الأكثر خطورة من المهمة برمتها".
"والأكثر أهمية أيضاً" علق لوكولوس مبتسماً.

"حسناً، لكنني أفضل القيام بهذه المهمة... بمفردي."

لم يتفاجأ مبعوث سولا برد الشباب. لقد تجرأ رب عائلة جوليا من قبل وعارض سولا نفسه، وتوقع أنه لن يظل صامتاً أمام الأمور التي لا تبدو واضحة بالنسبة له، فرد عليه: "لقد أعطيتكما فرصة لإظهار البطولة. هل يريد المنبر يوليوس قيصر الاستحواذ على المجد كله لنفسه بدلاً من مشاركته مع من يعتبره صديقاً له؟".

استمع لاينوس إلى هذا النقاش غير المتوقع بالنسبة له دون أن يدرك إلى أي جانب عليه الانحياز.

"بل دعنا نقول فقط، يا حضرة القسطنطين، أنني أفضل أن أتحمل الخطر وحدي وأناى بصديقي عنه" أوضح قيصر.

"هل يخشى المنبر يوليوس قيصر المعركة؟" سأله لوكولوس، بابتسامة ساخرة أخرى، فأجاب: "يمكن أن يفكر القسطنطين بشأني كيفما يشاء، لكنني حريص على الالتزام بالأوامر". تذكر قيصر أنه رفض تطبيق كورنيليا عندما

طلب منه سولا ذلك، وأن ذلك العصيان جرّه إلى الكثير من المعاناة، فأضاف
موضحًا: "الأوامر العسكرية".

سكت الجميع بينما نظقت الأعين بالكثير، حتى قطع لاينوس الصمت
بقوله: "سوف أشارك أنا أيضًا في تنفيذ الخطة وفقًا لتعليمات القسطنطين".
وأضاف: "جنبًا إلى جنب مع المنبر يوليوس قيصر". حينها وقف لوكولوس،
وتمشى نحو الطاولة ليصب المزيد من النبيذ وهو يقول: "بحق جوبيتر، يبدو
أن رفيقك في المتاعب، أكثر دقة منك يا قيصر"، قال ذلك ثم نظر إلى قائد
الحصار.

لاحظ لاينوس أن عيني قيصر امتلأتا بالغضب؛ إذ لم يتوقع أن يؤيد
لاينوس مشاركته في هذا العبث بمثل هذا الإصرار، فقال له: "أعلم أن
المهمة محفوفة بالمخاطر، لكنني لن أترك بمفردك، وسوف ننجز ما كلفنا
به".

"المنبر لاينوس أكثر تصميمًا وشجاعة من المنبر قيصر، ألا ترى يا
ثيرموس؟" علّق لوكولوس، والتفت إلى قائد الحصار الذي التزم الصمت،
ثم تابع: "من الواضح أن الخطة تنطوي على كثير من المخاطر، لكن سولا،
من خلالي، يقدم لغايوس يوليوس قيصر فرصة كي يثبت مهاراته أمامه. إذا
ما نفذت الخطة، وسيطرنا على مدينة ميتيليني سوف أبعث بتقرير إيجابي عن
إنجازاتك العسكرية إلى روما وإلى بوتولي نفسها، حيث يقيم سولا الآن منذ
ابتعاده عن الحياة العامة". سكت الجميع ولم يعلّق أحد، فكرر لوكولوس:
"هل تملك الخوف من غايوس يوليوس قيصر حقًا؟". فكر قيصر في الأمر
لبرهة قبل أن يجيب، ولكن عندما فعل كان مقتضبًا: "لكنني سوف أمثل
للأوامر". ثم انصرفا، قيصر ولاينوس، من الخيمة، ليعود القائدان بمفردهما
مرة أخرى.

"يبدو جبانًا" أشار ثيرموس. لكن لوكولوس مرر أصابع يده اليسرى
على شفتيه، واستمر في التفكير للحظات، ثم أجابه: "لا أتفق معك، الجرأة
على التصريح أمام قائدك الأعلى بأنك تخشى المعركة تتطلب قدرًا هائلًا

من الشجاعة. إن المهمة التي كلفته بها تنطوي على مخاطرة كبيرة، يوليوس قيصر هذا... غريب الأطوار حقًا". بدا جين القسطنطين مجعّدًا، ربما كان لديه شكوك بشأن الأوامر التي أصدرها للتو، لكنها توجيهات سولا، وهو رجل لا يقبل إلا أن تُنفذ تعليماته بدقة بالغة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

المعسكر الروماني المحاصر لميتيليني

في الطريق نحو خيمة قيصر ولاينوس

"بحق هرقل! لماذا ورطت نفسك؟ أحتاج إلى مخرج لأزمتي مع سولا لإبراء نفسي من الذنب، لكن أنت وضعك مختلف"، كان قيصر يتحدث بغضب: "كان يجب أن تؤيد موقفي وحسب".

"أنا أيضًا في حاجة إلى إثبات خضوعي التام له؛ لأنني صديقك؛ وسوف تظل علاقتي بك مثل نقطة سوداء عالقة بي ما حييت. إن سولا لا يكرهك وحدك، بل يكره كل من يدعمك أو يزعم ذلك، وأرى أنني تأخرت كثيرًا، ولم يعد بإمكانني الآن إلا مواصلة دعمك ومساعدتك كي نمحو معًا تلك الوصمة أمام روما ومجلس الشيوخ، وأمام سولا قبل كل شيء، كي يتألق اسمك في سجلات تاريخ روما. أدرك بوضوح أنني حينها، وحينها فقط، أضمن أن يتألق اسمي، سوف ننجز مهامًا عظيمة معًا يا صديقي. وحينما يشرع أحد المؤرخين في تسجيل مآثرك العسكرية بإنصاف، فيمعن في أسماء من كانوا حولك، سوف يذكرني، سيكتبون اسمي في سجلات التاريخ، ليخلد ذكري. الآن نركز على ميتيليني ومحاولات البقاء على قيد الحياة حتى نعود من جديد إلى روما ونتمكن من تحقيق كل ما نتمناه، ففكر في كورنيليا، ربما يقوي ذلك من عزيمتك" أجاب لاينوس بهدوء وثقة بالنفس.

توقف قيصر يفكر في كلمات صديقه، لاحظ كيف واصل لاينوس المشي بحزم، ربما لا يقدر حجم خطورة المهمة بشكل صحيح، لكنه -بلا شك- وجد فيه الصديق الوفي المخلص. وعندما شعر لاينوس أن قيصر قد

توقف عن المشي، استدار ناحيته واقترح عليه: "تعال؟ أرغب على الأقل في كأس نبيذ آخر، لم يكن القَسْطُور مضيافاً بدرجة كافية".
أطلق قيصر ضحكة صافية، بددت بعضاً من التوتر وأجابه مرحباً بالفكرة: "تعال يا صديقي، بحق جوبيتر، لنشرب معاً".

القضاء على قيصر

خيمة قسطنطين روما، ميتينيني، عام ٧٨ قبل الميلاد

"إنها استراتيجية متقنة، وقد تسمح بالسيطرة على مدينة ميتينيني، لكن... " قال ثيرموس، لكنه توقف، تردد في إكمال جملته. فعلق لوكولوس: "بحق جوبيتر، إذا كان هناك شيء واحد أكرهه فهو الجمل غير المكتملة".

"لكن تلك الخطة يشوبها نقطة ضعف وحيدة" تجرأ ثيرموس أخيراً على القول.

"وما هي؟".

أدرك قائد الحصار أن محاوره لن يشعر بالرضا إذا لم يوضح له كل شيء، فقال: "التيارات والرياح حول الجزيرة... متقلبة. قد لا يكون من السهل على القوارب التظاهر بالرحيل والعودة مرة أخرى وفقاً للخطة".

"حقاً!؟" استرخى لوكولوس على مقعده الوثير ذي مسند الظهر المرتفع، لكن تعبيرات وجهه والنبرة الساخرة التي قال بها تلك الكلمة أنارتا عقل ثيرموس. لوكولوس ملاح خبير بكل تأكيد، وبلا شك كان يدرك ذلك الأمر، كما علم ثيرموس أن تيار البحر ورياح الفجر المتغيرة يمكن أن تعيق عودة الأسطول الروماني في الوقت المناسب حسبما تشير الخطة. ثم طرأت على عقله فكرة، فبقي متجمداً، فغرفاه واتسعت حدقاته بقدر حجم ذهوله؛ لقد فطن للتو إلى البعد الحقيقي لتلك الخطة والهدف من ورائها، قال: "وإذا تأخر أسطولنا بسبب التيارات والرياح، سيحيط جنود العدو بالمنبر الشاب قيصر، دون أن يمتلك قوات كافية للتصدي للأعداء، وحينها...".

"... يمحي من الوجود" قاطعه لوكولوس، وأوضح: "هذا ما طلبه مني سولا، إنه لا يهتم بأمر ليسبوس، ميتيليني لا تهمة في شيء، رغم أننا سنضطر إلى إخضاعها في النهاية. لكن الأمر الجوهرى بالنسبة له هو موت ذلك الشاب الذي تجرأ على تحديه في روما."

تريث ثيرموس وأمعن التفكير قبل أن يقول: "لكن سولا قد عفا عنه وأعلن ذلك أمام الجميع".

"ألم تتراجع قط عن قرار اتخذته يا ثيرموس؟"

تنهد قائد الحصار ووضع كأسه جانبًا، ثم أوما براسه بالإيجاب، وقال: "أجل، أفعل في بعض الأحيان بالطبع، لكنك في معرض حديثك معهما ذكرت سولا. أألن يدفعهما ذلك إلى الاحتياط؟ في الحقيقة، أنا مقتنع بأنه فطن إلى أن ثمة أمرًا وراء تلك الخطة، صحيح أنه شاب وعديم الخبرة في القتال، لكن لديه حدسٌ جيّد يرشده إلى الولاءات و" توقف يبحث عن كلمة مناسبة لكنه لم يجرؤ على لفظها.

"والمؤامرات، عليك تسمية الأمور بأسمائها الحقيقية، رغم أن سولا يفضل تسمية الأمر بـ"تنفيذ حكم الإعدام". حسنًا، اعتقدت أن ذكر اسم قائدننا العظيم يمكن أن يجعله يشعر بخطر ما، لكن سولا طلب ذلك صراحة، لقد أراد أن يدرك الشاب عندما يجد نفسه محاطًا بجنود العدو، أنه وقع في فخ مثل طفل صغير، أحرق وساذج، وبينما يتلقى الضربة المميتة الواحدة تلو الأخرى، يعلم بوضوح أن كل شيء قد خطط له لوسيوس كورنيليوس سولا".

"بحق الآلهة جمعاء، ألا يمكن أن يستشعر قيصر بكل هذا مبكرًا ويرفض الخطة؟"

"هذه فكرة جيدة" اعترف لوكولوس، ثم دحضها قائلاً: "لكن يوليوس قيصر لا يمكن أن يرفض الانصياع؛ الخطة التي عرضتها عليه صدقت عليها بنفسى، أي إنها أوامر مباشرة من القيادة العامة. قد يشعر بأن ثمة شيئًا ما،

ولكن لن يمسك بكل الخيوط، لأن عقله لن يصدّق أبدًا أننا على استعداد للمخاطرة بنحو خمسمائة جندي من أجل إنهاء حياته. كما أنه شاب كريم القلب ونبيل الروح لا يدرك أن أعداءه يمكنهم القيام بأعمال فظيعة إلى هذا الحد، وُسُوغونها أخلاقيًا، فقط من أجل القضاء عليه. أما بالنسبة إلى سولا، بالنسبة إلي، وإليك، أتمنى أن الغاية تُسوِّغ لك دائمًا الوسائل. بصراحة، لا أرى أن ابن صهر ماريوس هذا قد يصبح هو عدوًّا شديد الخطورة في المستقبل. ولكن سولا مهووس به ولن أكون أنا من يعارض رغباته؛ إنه يريد موت قيصر، وسوف يتحقق له ما يتمناه غدًا. الآن دعنا نشرب المزيد من النبيذ ونعطي الأوامر اللازمة للفيلق للرحيل على عجل كي يشرع الجنود في الصعود على متن سفن الأسطول، حان الوقت لإرسال رسالة إلى جنود ميتيليني مفادها أننا، نحن الرومان، غدًا، بحلول الفجر، سوف نتخلى عن الحصار".

شرب ثيرموس حتى لا تبقى له أي شكوك، كما شرب لوكولوس أيضًا كي يتمكن من استيعاب أنه قَبِل المخاطرة بخمسمائة رجل من أجل القضاء على رجل واحد لمجرد أنه يقلق راحة سولا. لقد شرب كثيرًا في تلك الليلة لأنه، في أعماقه، كانت لا تزال لديه بعض الشكوك. شرب كي يتوقف عن التفكير، كي يغرقه الكحول ويطمس عقله، فيسهل عليه الامتثال لأوامر سولا الدموية.

مهمة مستحيلة

ميتيليني، جزيرة ليسبوس*، عام ٧٨ قبل الميلاد

أعلى أسوار المدينة

نظر الحراس نحو أفق الفجر. بدا كل شيء طبيعيًا، حتى جعد أحد الحراس جبينه دهشة، وهو الأصغر سنًا بينهم، وكان حاد البصر، لم يصدق ما رآه، فهمس أولاً: "إنهم راحلون".

"ماذا تقول؟" سأله أحد كبار السن.

"الرومان...!" أوضح الحارس الشاب بصوت عالٍ، لقد صعّدوا على متن سفنهم ويستعدون للمغادرة. فنظروا جميعًا إلى المكان الذي يشير إليه الحارس، ثم أكد آخر، وهو يقسم بالإلهة الأم المحبوبة للغاية في تلك الرقعة من العالم: "بحق ديميترا! الشاب على حق!". وبالفعل كان بإمكانهم رؤية أشرعة الأسطول الروماني على خط البحر تبعد عن الجزيرة، وأمامها، على بُعد حوالي ألفي خطوة من المدينة، المعسكر الروماني المهجور.

قصر حاكم ميتيليني

كافأ الملك ميثراداتس السادس، ملك بنطس، القائد الشجاع أناكساغوراس، على انتصاراته في معركة جبل اسكوروبا، بمنصب الساتراب على جزيرة ليسبوس، والمصطلح يعني: الحاكم الأقصى والفريد من نوعه.

* نظر الرسم التوضيحي لمعركة ميتيليني: المرحلة الأولى.

كانت تلك المعركة مهمة للغاية إذ أعادت التأكيد على سيطرة ميثراداتس المطلقة على كل تلك الأراضي، السيطرة التي هزتها حملة سولا قبل بضع سنوات. لكن الأمور هدأت بعد الاتفاق الذي طرحه الزعيم الروماني، ما أكد على أن لديه مشاكله الخاصة التي يجب حلها، سواء مع ماريوس والفصيل الشعبي أو المتمردين في إيطاليا.

بعدما حل سولا مشكلاته الداخلية، أرسل حملة جديدة بقيادة لوكولوس لتنفيذ هجوم مضاد، ليدرك ميثراداتس أن اتفاق السلام لم يكن بهدف السماح له بالسيطرة على الشرق وإنما رغبة في الانتظار حتى يمتلك القوة والموارد التي تسمح له بمواجهته. وها هو الآن يرسل مرة أخرى جحافل إلى الشرق، بعدما أنهى ترتيب البيت من الداخل.

على أية حال، تمتع أناكساغوراس بالبذخ والرفاهية على تلك الجزيرة لفترة من الوقت، تذوق نبيذها المشهور للغاية، وضاجع من شاء من جواربها، وأكل في مآدبها العامرة بالأصناف، حتى أرسلت روما مينوسيوس ثيرموس أولاً ثم عززت وجودها بإرسال لوكولوس. حينها أدرك الحاكم الفريد من نوعه أن وقت اللهو، لهوه، قد انتهى، لكنه لم يدرك أن تلك النهاية يجب أن تكتب بأياد رومانية. رغم أن الصمود الطويل أمام الحصار منحه المزيد من الوقت، بقي أن نرى ما سيفعله ميثراداتس. كم عدد الضحايا الذين كان الرومان على استعداد للتضحية بهم بعد حصار طويل.

لفتت الأخبار التي زفها حراس الأسوار انتباه الجميع، منذ الصباح. سأل أناكساغوراس أحد جنوده، وهو جالس على عرشٍ وثير مدعم بالوسائد في وسط القاعة الكبيرة بقصر الحاكم: "هل رحلوا حقاً؟ هل أنت متأكد مما تقوله؟".

"نعم يا حامي البلاد!" أجابه الحراس، وهم ينحنون أمامه. كما أكد بيتاكوس، الرجل الثاني في قيادة الجزيرة: "لقد تحققت من الأمر بنفسي أيها اللورد الحامي" وأوضح: "لقد صعدت إلى قمة الأسوار، وبالفعل تمكنا من رؤية أشرعة الأسطول الروماني وهي تتحرك بعيداً عن الشاطئ".

نكس أناكساغوراس رأسه، وجلس منحنيًا على عرشه. كان من الصعب عليه التفكير، لقد شرب طوال الليل حتى الثمالة وأنهكت قواه جارية شابة حتى طلوع الفجر. مرر يديه على جبهته يحاول لملمة أفكاره المبعثرة، فأمر أحد العبيد: "أحضر لي بعض الماء".

لم يتقبل أناكساغوراس وجود بيتاكوس على الإطلاق؛ إنه رجل ذو ماضٍ أسود، التقى به في الأناضول، لذا فهو يلحق نفسه بحكام ليسبوس، وبعد ذلك أطلق على نفسه لقب الحكيم المخضرم لتلك المدينة. قديما كان اسمه... هز رأسه يحاول طرد تلك الأفكار منه، لم يستطع تذكر اسمه، لكن لا يهم الآن، التفت إلى الجانب الآخر، وسأل: "ما رأيك في هذا يا ثيوفانيس؟".

كان ثيوفانيس هو زعيم الطبقة الأرستقراطية في المدينة. تقرب منذ البداية إلى أناكساغوراس لكونه معينًا من قبل ميثراداتس وليس من قبل الرومان. كان رجلًا ذكيًا يقدر الحاكم نصحه، بالإضافة إلى أنه مثل جسرًا بين القوات التي أرسلها ملك بنطس وشعب ميتيليني، ويفضل جهوده ضمن ولاء شعب المدينة للقائد المحتل.

"لقد تطلعت من أعلى الاسوار، ومن الواضح أن الرومان قد رحلوا" أجابه. فأبدى الحاكم اهتمامًا برأي ثيوفانيس، وسأله مستفسرًا: "هل تقصد أنهم فعلوا ذلك كي نظن أنهم تخلوا عن الحصار، على أن تختبئ قواتهم في مكان ما لا نستطيع رؤيته عبر الأسوار؟".

"هذا محتمل، بالطبع... سيدي" أكد ثيوفانيس دون أن يستخدم الصيغ المناسبة للحديث إلى الحاكم المعين من قبل ميثراداتس، وأضاف: "فالمعسكر الروماني يبدو مهجورًا تمامًا...". لكن بيتاكوس قاطعه قائلاً: "ليس ثمة مكان يتسع لاختباء كل الجنود الرومان".

"وماذا عن الغابة الصغيرة القريبة من البحر؟" سأله الأرستقراطي متحديًا.

"هذا ما قلته بالضبط، هناك لا يمكن اختباء أكثر من ٣٠٠ أو ٤٠٠ رجل، لكن بالنظر إلى العدد الهائل من الجنود الذي كانوا يخيمون حتى يوم أمس فهذا مستحيل".

تنهد أناكساغوراس. وكالعادة، اختلف المستشاران. اقترب منه أحد العبيد يجلب له الماء، فشرب حتى ارتوى من وعاء برونزي مطلي بالرصاص، ثم دفع العبد جانبًا وخاطبهما: "من الممكن أن ينسحب الرومان بسبب الإرهاق، أو ربما استدعوا إلى بقعة أخرى. يسيطر الملك ميثراداتس على المنطقة جيّدًا، ومثلما يحاول الرومان معاقبة المدن التي تدعّمه، يشن ملك بنطس هجماته على المناطق المتحالفة مع روما. لكن رحيل الأسطول الروماني، صحيح، يمكن أن يحدث وفقًا لدسياسة أو خدعة عسكرية، وقد يكون الرومان قد وّزعوا جنودهم على جوانب الجزيرة كي نثق بأنهم رحلوا على أن يعودوا لشن هجوم على حين غرة. على أي حال، بحق أبولو، علينا التحقق من الوضع".

ثم صمت لفترة وجيزة وأعلن بعدها: "سنخرج بصحبة الجنود، للتحقق من الأمر".

"يمكننا إرسال دوريات" اقترح بيتاكوس.

"يمكننا ذلك، لكن إذا كانوا يختبئون بالفعل، فقد يتمكنون من القضاء عليهم. ليس لدينا ما يكفي من الرجال كي نضحي بمحارب واحد، فما بالك بدورية كاملة، بل سوف نخرج مع الجزء الأكبر من القوات لاستكشاف الأوضاع، ونترك بعض رماة السهام على الجدران. من المهم للغاية أن تبقى البوابات مفتوحة تحسبًا للحاجة إلى الانسحاب بسرعة إذا جد جديد".

أراد بيتاكوس مجادلته في الأمر، لكن أناكساغوراس لم يمهل، إذ رفع صوته قائلاً: "بحق أبولو!" هذا هو قراري!". فانحنوا جميعًا أمامه، بينما أصدر هو تعليماته: "بيتاكوس، أنت سوف تتولى مهمة توزيع الرماة أعلى الأسوار، ستكون أنت المسؤول عن المدينة في غيابي. أما أنت يا ثيوفانيس،

فسوف تأتي معي". فأذعن الجميع وأطاعوه؛ إذ لم يجروا أحد على مجادلة الحاكم المؤيد من ميثراداتس.

غابة بجانب البحر، على بعد ألفي خطوة من أسوار ميتيليني

"ماذا سنفعل؟" سأل تيتوس لابينوس، وهو ينظر بقلق نحو بوابات ميتيليني، إنهم يغادرون ومعهم جيشهم.

"هذا هو المرجو، تذكر؟" أجابه قيصر بينما يقلب عينيه بينى قوات العدو وأفق البحر، وأضاف: "لقد ابتعدوا كثيرًا للغاية".

"من؟" استفسر لابينوس دون أن يرفع عينيه عن جيش ميتيليني.

"سفننا، لقد ابتعد لوكولوس وثيرموس للغاية".

"حسنًا، ربما أرادوا حبك الخدعة، والتظاهر بأن قواتنا رحلت بالفعل".

"بالرغم من ذلك، ثمة أمر لم أستسغه في كل ما يحدث، لكننا، سنبقى الآن هنا بين الأشجار، نراقب جنود العدو بينما يتقدمون نحو المعسكر الذي تركه جنودنا قبل قليل، لنهب ما بقي منه".

أدرك تيتوس لابينوس التوتر على وجه صديقه، فأطال النظر ناحية البحر، وكان صحيحًا، رؤية أسرع الأسطول لم تعد ممكنة، لقد تركوهم مع كتيبة مكونة من ٤٨٠ رجلًا، من أجل استدراج قوات العدو وإجبارهم على الخروج من خلف الأسوار، وفي اللحظة المناسبة ستعود السفن الرومانية المحملة بمعظم جنود الفيلق. لكن... لو تأخر لوكولوس وثيرموس لفترة أطول فسوف تتم إبادة قيصر ومن معه.

تقاطعت نظراتهما لثانية واحدة، محملة بقلق وصل إلى حد الذعر.

"إن لم تعد السفن في اللحظة المناسبة، تصبح المهمة... مستحيلة. لكننا، في الوقت الراهن، سواصل الالتزام بخطة القسطنطين" قال قيصر. ولم يغفل لابينوس جملة: "في الوقت الراهن".

مبعوث من روما

ميتيليني، جزيرة ليسبوس، عام ٧٨ قبل الميلاد

سفينة قيادة الأسطول الروماني، بعيدا عن الشاطئ

واصلت السفن الإبحار في بحر إيجه، وابتعدت لأميال عن شاطئ ليسبوس. لاحظ لوسيوس ليسينيوس لوكولوس أنه لم يعد بإمكانه رؤية الشاطئ، دون إصدار أمر بتحويل دفة السفينة، لكن ثيرموس قال له: "إذا كنا لا نرى الساحل من موقعنا هذا، فهذا يعني أنهم أيضًا لا يروننا".

"ثمة أشرعة ترفرف عالية" أجابه القسطنطين، مشيرًا إلى عمود الصاري الأساسي، تنتفخ الأشرعة بالهواء وتدفعهم بعيدًا عن ليسبوس: "هذا من صميم خطتنا، لا تنس الهدف الرئيسي من كل هذا".

"أعرف يا قسطنطين، لكن إذا سمحت لي، لقد ابتعدنا لمسافة طويلة للغاية، وقد يدرك باقي أفراد الفيلق ذلك أيضًا. لقد تركنا مجموعة من المقاتلين في الغابة وكلهم ينتظرون عودتنا حتى لا نتركهم وحدهم في مواجهة العدو، أي أن الجميع يتوقعون منا أن نعود... في اللحظة المناسبة".

أوما لوكولوس برأسه موافقًا، لكنه لم يصدر أمره بالعودة بعد، بل رد قائلاً: "أنا من يقرر متى يحين الموعد المناسب و...". عندها صاح أحد الحراس: "ثمة قارب يقترب منا أيها القائد!". فأمعن القسطنطين والقائد النظر حولهما فوجدا قاربًا صغيرًا يقترب من السفينة، وعلى متنه اثنان من الجنود، فعلق ثيرموس: "إنهما مبعوثان من روما".

"لا شك في ذلك، بمجرد صعودهما إلى متن السفينة، مُرهما بالتوجه إليّ في قمرتي. وفي غضون ذلك، واصل طريقك مبتعدًا عن ليسبوس".

المعسكر الروماني المهجور

سار أناكساغوراس عبر المعسكر الروماني بخطوات عسكرية جادة. لقد كان محاربًا متمرسًا وكان يعلم أنه من الضروري دائمًا أن يقدم لرجاله مثالًا للقائد المتيقظ الحازم. لم يكن رحيل الرومان المثير للدهشة يعنيه كثيرًا، فقد يرجع الأمر إلى أن ملك ميثراداتس، هاجم الرومان في بقعة أخرى لذا اضطروا إلى حشد قواتهم وتركيزها عندها، أو قد يكون ملك بنطس القوي الذي لا يقهر قد أجبر الرومان على سحب جيوشهم بالكامل من آسيا، كما فعل من قبل، منذ بضع سنوات، بموجب اتفاقه مع سولا.

نظر الساتراب حوله بجديّة، كان مصممًا على العثور على ما يمكن نهبه. لقد فر الرومان سريعًا وتركوا نصف متاعهم، تناثرت الأواني من جميع الأنواع بالإضافة إلى أدوات الحدادة، وبعض السيوف والخناجر، ولكن لا شيء من الذهب أو الفضة. أحبطه ذلك قليلًا، على الرغم من أن بعض الجنود عثروا على عدة أكوام من القمح، هي بلا شك مفيدة للغاية للتخفيف من معضلة نقص الطعام نتيجة للحصار.

"لقد وجدوا شيئًا آخر" أشار ثيوفانيس إلى مجموعة من المحاربين، تجمعوا في أحد أطراف المعسكر.

كان أنكساغوراس قد اصطحبه معه لأنه يعلم بميله إلى الاتفاق مع الرومان فلم يرد أن يترك المدينة تحت إمرته، خشية أن يأمر بإغلاق البوابات تاركًا القوات بالخارج. إلا أن بيتاكوس -رغم طموحه الواسع- كان رجلًا مخلصًا لملك بنطس، ومن المؤكد أنه سيظل حريصًا على ألا تغلق الأبواب أبدًا طالما أن القوات لا تزال خارج المدينة، وإلا فلن يعاقب بقدر غضب حاكم المدينة، بل بقدر غضب ميثراداتس نفسه.

"لنذهب ونرّ" علق أناكساغوراس. محاطاً بحراسه توجه على الفور نحو المكان الذي جذب انتباه رجاله.

سفينة قيادة الأسطول الروماني، داخل قمرة القسّطور

"سوف يحضر إليك المبعوث الآن، إنه يرفع القارب إلى متن السفينة" قال ثيرموس.

"حسناً" أجابه لوكولوس. وعلى الفور، وكما لو أنه انتابه شكٌّ من شأنه أن يغير خططه، وجه سؤالاً إلى القائد: "هل تركت الرماح في المعسكر كما أمرتك في مكان مرثي؟".

"نعم، أكثر من ١٥٠٠ رمح، كلها جاهزة للإطلاق" أكد ثيرموس.

"حسناً، رائع". استقر لوكولوس على مقعد وثير مبطن، في انتظار وصول المبعوث، حتى دخل أحد الحراس يعلن: "مبعوث روما يا سيدي القسّطور".

"دعه يدخل" أمر لوكولوس، ثم التفت إلى ثيرموس وقال: "اتركنا بمفردنا".

شعر القائد بأن الأمر مس كبرياءه، لكنه تذكر أنه أمام أحد أبرز المقربين من سولا، فقدم التحية العسكرية بأن ضرب بقبضته على صدره، ثم توجه نحو الباب. قبل أن يخرج أبلغه القسّطور بتعليمات أخرى: "مُرّ بتغيير اتجاه السفن، حان وقت العودة إلى ليسبوس. كما قلت قد يشك الجنود في أننا تخلينا عن رفاقهم، لا ينبغي أن نترك لهم فرصة التفكير في هذا الأمر".

استدار ثيرموس إلى القسّطور، وأوماً برأسه مؤيداً، وغادر القمرة. في الطريق التقى بالمبعوث، لاحظ أنه كان يحمل بردية مطوية ومختومة بالشمع. انتابه الفضول لمعرفة ما تحويه، لكن أمامه تعليمات يجب اتباعها، فبدأ في صعود الدرج المؤدي إلى سطح السفينة.

الغابة في ليسبوس، بالقرب من البحر

"هل نخرج الآن؟" سأل لاينوس.

"ليس بعد، لن نخرج قبل أن نرى الأشرعة ونتأكد أن سفن الأسطول تبحر عائدة إلى ليسبوس" أجاب قيصر. بدا ذلك منطقيًا بالنسبة إلى لاينوس، إذ رأى البحر خاليًا تمامًا وبلا أشرعة.

المعسكر الروماني المهجور

"هل هذه حراب؟" سأل ثيوفانيس بريبة أمام الأسلحة التي عثر عليها رجال أناكساغوراس.

"نعم، الكثير منها يا سيدي، ١٠٠٠ وربما أكثر" أجاب أحد الجنود.

"أمر غريب" علق ثيوفانيس، وتساءل: "لماذا تركوا الكثير من الرماح وراءهم؟ يحدث أحيانًا أن ينسى الجنود بعض السيوف والخناجر المفقودة بسبب العجلة، لكن ترك مثل هذه المجموعة الكبيرة من الرماح أمر غريب".

"كما أنها جيدة الصنع، رماح البيلوم الرومانية الرائعة!" علق حاكم المدينة ثم التفت إلى ثيوفانوس بهدوء. لقد كان ضليعًا في التاريخ والمطالعة، وليس له باع في الحروب والمعارك، وأضاف بينما يلوح بأحدها عاليًا وكأنه يحاول وزنها ومعرفة الطريقة الصحيحة للإمساك بها وقذفها في اتجاه عدوٍّ وهمي، وأضاف: "صممت هذه الرماح بحيث نخترق دروع العدو وتعلق بها، فإما أن تقتل أو تجرح أو تشق الدروع حتى يستحيل إخراجها منها".

إلا أن العثور على هذا الكم الهائل من الرماح لم يجعل أناكساغوراس يشك للحظة، لقد رأى العديد من الأمور الغريبة في الحرب ولم يكن هذا بأي حال من الأحوال أكثرها غرابة. على أي حال أمر رجاله: "اجمعوها".

سفينة قيادة الأسطول الروماني (قمره القسطنطين)

قرأ لوكولوس الرسالة التي وصلته للتوّ من روما. في الواقع قرأها مرتين متتاليتين، وسط صمت مطبق، ثم علق وهو يضغط على نواجذه: "بحق جوبيتر!" ثم سأل المبعوث: "متى حدث ذلك؟".

"قبل شهر أيها القسطنطين" أجابه.

"حسنًا لا تبرح مكانك، ولا تتحدث إلى أي شخص، لديك هنا وفرة من الماء والطعام، هل تفهم أوامري؟".

"حسنًا أيها القسطنطين".

لم يبد أن الرسول متفاجئ من ردة فعل القائد الأعلى، وبالنظر إلى ما حدث في روما - أو بالأحرى جنوب روما - اعتبره أمرًا طبيعيًا.

"هذا سيغير كل شيء" غمغم لوكولوس بينما ينهض بثاقل. توجه نحو باب القمرة وهو يردد: "كل شيء" حتى صعد إلى سطح السفينة.

نوبة فزع

الغابة في ليسبوس، بالقرب من البحر، عام ٧٨ قبل الميلاد

"باتت أشرعة السفن الأولى مرئية" همس لابينوس لصديقه، فوجده سارحًا.

"حسنًا، لا يمكن أن يستغرقوا وقتًا طويلًا للوصول إلى الشاطئ، إلا أنني أفضل الانتظار قليلاً" علق قيصر.

نظر لابينوس نحو المعسكر المهجور، وصاح: "جنود ميتيليني في طريقهم للعودة إلى المدينة". تطلّع الاثنان نحو جنود العدو، تراوح عددهم ما بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ رجل، وهذا يعني أنهم مضطرون لمواجهة جيش متفوق عدديًا أكثر مما كان متوقعًا. فعلق قيصر، معبرًا عن أفكاره وأفكار صديقه أيضًا: "لقد اصطحبوا كل جنودهم".

"هم حذرون للغاية" أشار لابينوس.

"أناكساغوراس هذا يحسب خطواته جيدًا، لا يروق لي ذلك، إنه يشتم رائحة الفخ. أعتقد أن سفن أسطولنا لا تزال بعيدة للغاية، لكنك محق في أننا إذا لم نخرج الآن، فسوف تنهار الخطة. وإذا ما حدث ذلك سيحاكموننا بتهمة التمرد على الأوامر العسكرية" أجابه قيصر.

كان قيصر وصديقه يعرفان اسم قائد الجيش المتمركز في ميتيليني من خلال المفاوضات التي دارت بينه وبين رؤسائهما من أجل تسليم المدينة والتي لم تثمر عن أي شيء، إلا أنهما لم يمتلكا معلومات أكثر عنه. إعتقد قيصر أنهما أمام محارب ماهر، وفوق كل شيء، حكيم، مثل عمه ماريوس.

"هل نخرج الآن؟" سأل لابينوس مرة أخرى.

مرر غايوس يوليوس قيصر ظاهر يده اليسرى عبر جبينه، كان يتصعب عرقًا. هل تملكه الخوف حقًا؟

نعم، تملكه، ولم الكذب. ولن يفلح تجاهله لحدسه في مد يد العون له، أو تخفيف قلقه.

هو الآن لن يقود هجومًا في معسكر مارس، كما فعل من قبل، بل هي الحرب، حرب حقيقية، لا هواة فيها. هذه هي المرة الأولى التي يخوض فيها القتال في حياته كلها، وهو يبلغ الآن من العمر ٢١ عامًا.

بدأ لابينوس بالفعل في إصدار تعليماته لقادة المائة الستة في المجموعة، لكن قيصر كان لا يزال في مكانه، بلا حراك، متحجرًا، يزدرد لعابه. فكّر أن سكيبيو الإفريقي شارك في القتال للمرة الأولى في سن ١٧ عامًا، وأنقذ حينها والده، بينما هو، يقف في مكانه، يسيطر عليه الخوف.

لا، لن يقدم مآثر في الحرب، بل المكان الأنسب له هو متدى روما، حيث يحارب بالكلمة والخطب الرنانة، ويدعو إلى العدل. ولسوف يفعل، إذا نجا.

"الرجال جاهزون" قال له لابينوس، ومع ذلك، ظل قيصر صامتًا وبلا حراك. ولمّا لاحظ لابينوس وضعه وفطن إلى ما يدور بداخله، قال له: "أنا أيضًا يتتأني الخوف مثلك تمامًا. هذه المرة الأولى بالنسبة لي أيضًا، أنت تعرف ذلك، لكن علينا بدء الهجوم يا صديقي، فلنقاتل. لقد درّبونا من أجل تلك اللحظة، وها نحن ذا، يمكننا فعل الكثير، لكن علينا أن ننجز المهمة الموكلة إلينا".

ظل غايوس يوليوس قيصر صامتًا، ثابتًا في مكانه، فريسة لنوبة الفزع. لم يدر تيتوس لابينوس ماذا يقول، فكر في الخروج مع الوحدات الستة (٦ سيتوريا)، على أمل أن ينضم صديقه للمعركة فيما بعد. لكن لا بد أن يكون قيصر هو من يصدر الأمر ببدء الهجوم. إنه القائد، لكنه ظل ساكنًا مثل تمثال.

في تلك اللحظة، فكر لابينوس في شيء ما. اقترب من أذن قيصر وهمس له بست كلمات: "لا تنس أنك ابن صهر ماريوس". ومع ذلك، لم يبد أن جملة كانت ذات أثر كبير عليه، إذ ظل قيصر كما كان، وبجموده توقف تاريخ العالم...

أعين روما

بوتولي، كامبانيا، جنوب روما، عام ٧٨ قبل الميلاد

(قبل معركة ميتيليني بشهر واحد)

وصل دولابيللا إلى فيلا سولا في بوتولي، في وقت الغروب. كان قد انتقل من أوستيا إلى خليج تلك المدينة بحرًا وليس عن طريق البر، في رحلة كانت مملة ومرهقة، وهو، مثله مثل معلمه، يحب الرفاهية والراحة، لكنها كانت ضرورية؛ إذ استدعاه سولا إلى مقر إقامته في بوتولي وهذا كاف، وقد يعني القوة. من الناحية الظاهرية، يصدر مجلس الشيوخ القرارات، لكن الجميع يعلمون أن القرارات المصيرية منها تخرج من قصر سولا في تلك المدينة، رغم أنه تقاعد، بدعوى أنه يعاني مشكلات صحية.

لكن في الواقع، وكما بدا واضحًا، أن انتقاله مثل جزءًا من استراتيجية مُحكمة لحماية نفسه من المؤامرات التي باتت شائعة للغاية في المناطق المكتظة بالسكان حيث يصعب السيطرة عليها. بشكل رسمي سلم سولا كل السلطة إلى مجلس الشيوخ الذي تحسن وضعه بعد إلغاء قرارات الفصيل الشعبي التي أعطت المزيد من الصلاحيات لمؤسسات أخرى مثل جمعية العوام أو منابر عامة الشعب، ومع إصلاحات سولا، تركزت كل السلطة في يد مجلس الشيوخ، وحتى سولا نفسه تنازل عن ديكتاتوريته، لينهي بذلك فترة حكمه الاستثنائية. ومع ذلك، كان الجميع يعلم أنه حتى دون أن يكون ديكتاتورًا، يراقب ويشرف ويتحكم في كل تصرفات مجلس الشيوخ.

وفرت له بوتولي مزيجًا من فيلا فاخرة وقلعة في الوقت نفسه، بحيث بات من الأسهل حمايته من المؤامرات في روما المضطربة والمكتظة بالسكان دائمًا. تمت عسكرة المدينة الصغيرة، فأصبحت معقلًا حصينًا يحرسه قدامى المحاربين الذين شاركوا معه في الحرب ضد ميثراداتس، ثم في الحرب الأهلية ضد الفصيل الشعبي. في الطريق من الميناء إلى المدينة، أضطر دولابيللا إلى إظهار الرسالة التي أرسلها إليه سولا بنفسه خمس مرات في مواقع الحراسة المختلفة التي اعترضت طريقه، حتى وصل إلى مقر صاحب أكبر سلطة في الجمهورية الرومانية.

وحتى بعد وصوله إلى بوابات الحصن الشاسع مر عبر عدد من الأبواب الخشبية الضخمة، الملحقة بالأسوار التي تحيط بمقر إقامة الديكتاتور السابق من كل جهة. سار وسط ٥٠ شجرة سرو شاهقة على جانبي المسار المتعرج، في صعود مستمر حتى وصل إلى شرفة كبيرة تطل على ميناء بوتولي ويمكن من خلالها رؤية منازل المدينة ومعابدها، إلى جانب معسكر كبير للجيش حُشد فيه الجزء الأكبر من القوات الموالية لسولا، للحيلولة دون الوصول إلى نقطة تمرکز الديكتاتور السابق إذا ما تم تنفيذ مؤامرة في روما. كما أن سولا كان محنكًا للغاية في اختياره للبلدة المطلة على البحر، لأنها توفر له أسطولاً صغيرًا من السفن الجاهزة دائمًا للإبحار في حالة اضطراره إلى الفرار إلى بقعة أخرى في البحر الأبيض المتوسط، كي يعزز قواه استعدادًا للعودة واستعادة السلطة.

في الآونة الأخيرة، شهدت روما تمرد أحد القناصل، هو إميلوس لبيدوس، الذي انضم إلى الفصيل الشعبي. لقد روج لقوانين مخالفة لما أقرها سولا، واقترح ضرورة توزيع القمح على السكان، والسماح بعودة من أصدر سولا أمرًا بنفيهم. كما دعا إلى إعادة الأراضي التي استبيحت ومُنحت للجحافل الداعمة لسولا، ونادى بحق أعضاء الفصيل الشعبي الذين صُودرت ممتلكاتهم في استردادها.

"انتظر لحظة" قال العبد الذي استقبل دولابيللا.

جلس دولابيللا يسترجع ما حدث، ويمعن التفكير في حنكة وذكاء الزعيم؛ إذ تمكن، من مقر إقامته في بوتولي من توجيه القنصل كوينتوس لوتاسيو كاتولوس أولاً ثم استعان بغالوينوس بومبيوس من أجل هزيمة قوات ليبيدوس، ففر هارباً إلى صقلية وهناك لقي حتفه. بينما ذهب الرجل الثاني في جيشه، مثلما فعل كثير من البارزين خلال تلك الفترة، إلى هسبانيا، حيث لا يزال سرتوريوس، يسيطر على جزء كبير من تلك المنطقة، ويقود تمرداً ضد روما، رغم محاولات ميتيلوس للتصدي له.

أوماً دولابيللا برأسه بصمت بينما ينتظر. لقد عاش سولا، بمنأى عن كل تلك التوترات السياسية والعسكرية، ينعم بالهدوء والأمان في حصن بوتولي، حتى جاء له أحد العبيد وقال له: "تقدم من هنا، يا صاحب السمو". فتبعه دولابيللا عبر عدة قاعات مزينة ببذخ، وعلى الحوائط لوحات جدارية تبرز مظاهر الحياة الريفية والطيور الجارحة فضلاً عن رسومات مثيرة للشهوات، ومر بردهتين يفصلهما دهليز كبير، حتى وصل إلى غرفة انتظار تفضي إلى الردهة الرئيسية للفيلا. وكانت الأبواب مغلقة، عندها أخبره: "سوف تنتظر هنا يا صاحب السمو، حتى يخرج السيد لمقابلتك. لك ما شئت من الماء والنيذ".

بقي السناتور بمفرده، اقترب من الطاولة التي وضعت عليها الأباريق، وسكب بعض النيذ والماء لنفسه. رغم أن الأبواب ظلت مغلقة، إلا أنه تماهى إلى سمعه وقع ضربات بالسَّوط، وبعد كل ضربة تدوي صرخة ألم، كان ثمة شخص يجلد. أدرك ذلك على الفور، لأنه هو نفسه كثيراً ما يأمر بجلد عبيده عندما لا يؤديون مهامهم بإتقان، ثم، المزيد من الضربات. دوى صوت ارتطام السياط الجافة بجسد إنسان، ثمة أكثر من صوت. يبدو أنه تعذيب جماعي لمجموعة من العبيد.

لكن الصرخات تصدر عن حناجر نسائية، يبدو ذلك جلياً، إنهم يعذبون مجموعة من الجواري إذن، عدد كبير من السبايا ربما. تسير أصوات الصراخ وفقاً لإيقاع واحد، إيقاع منظم، أشبه بحفلة موسيقية تحييها أصوات

الضرب بالسياط والعواء. ثم فُتحت أبواب الردهة وخرج سولا، مرتدياً سترة أرجوانية خلافة، وما أن خرج حتى أغلقت الأبواب من خلفه. استدار الديكتاتور السابق وتحدث إلى مَنْ بالداخل، قال: "انتظري حتى أعود قبل أن تستأنفي الجلد يا فاليريا، لا أريد أن أفوت صرخة واحدة من سباياي".

"لك ما تتمنى يا حبيبي" جاءته الإجابة من امرأة بصوت شهواني بدت وكأنها تجتر الحروف جرًا، على الأرجح من تأثير النييد، أم إنها تتعاطى مادة مخدرة أخرى، الأفيون مثلًا؟ عندما يتعلق الأمر بسولا، يصبح كل شيء ممكنًا.

"دولابيللا!" صاح سولا، والتفت إلى صديقه: "أشكرك، شكرًا لك على المجيء إلى هنا، أعلم أن الرحلة تطوي على مشقة هائلة، لكن هنا أكثر أمانًا من روما بألف مرة، على الأقل لن ألقى حتفي، مثل الكثيرين في شجار بساحات المنتدى يروج له المتآمرون ضدي، تركت ذلك للآخرين، لأولئك الذين يخطئون ويمنحون الثقة المطلقة لأعضاء مجلس الشيوخ". ضحك سولا من قلبه، رغم أنه بلغ ٦٠ عامًا، وبطنه منتفخ، إلا أنه لا زال يتحرك بنشاط وحيوية، ولم يبد كشخص يرغب في تخفيف قبضته المحكمة على السلطة المطلقة، ولو قليلًا.

"أسعد دومًا برؤياك، وإن كان على المرء -في سبيل ذلك- أن يبحر وسط أمواج البحر ثم يضطر إلى المرور على عدد لا يحصى من نقاط التفتيش العسكرية. كما إنني جئت لك بعدد من الخطابات" أجابه دولابيللا بحفاوة، ومد يده بحفنة من البرديات المطوية والمختومة.

"هل ثمة خطاب من لوكولوس، من الشرق؟" سأل سولا باهتمام بالغ. "لا، لا توجد أخبار من هناك" أجاب دولابيللا بإحباط. لم يكن يحب أن يخيب آمال معلمه، وأوضح: "معي رسائل من كاتولوس وبومبيوس. لقد هُزمت انتفاضة لبيدوس".

"أعلم ذلك، إنهما يتمتعان بالمهارة، وخاصة بومبيوس، من الواضح أنه النسر المحلق بيننا جميعًا. بفضل جهوده بقيت قوانيني سارية، وهذا جوهر

استمرار تفوقنا على الأعداء. الآن الشيء الوحيد الذي يهمني هو أن يصلني خبر من لوكولوس" أجاب الديكتاتور منزعجًا إلى حد ما، ثم أضاف: "تعال، اترك الخطابات على تلك الطاولة، إلى جوار الأباريق، واتبعني".

بعدما ترك البرديات على الطاولة، حسب الأوامر، أمسك سولا بذراعه، وقاده إلى ركن في الصحن، بلا شك لإضفاء طابع السرية على ما سيخبره به؛ إذ قال: "لقد كلّفت لوكولوس بمهمة محددة، وأتوقع أن أسمع خبرًا من طرفه في أي لحظة، فهو لم يخذلني قط، ولا أنت أيضًا. نحن مهردون بالمخاطر في الشرق الآن لأننا لم نكسر شوكة ميثراداتس بعد، لقد أجبرني تمرد كينا وبقية أتباع ماريوس القدامى على التصالح معه في حين كان يجدر بي التصدي له والقضاء عليه، وتلك قضية عالقة سيتعين على لوكولوس أو عليك أنت أو أي من رجالنا حلها قريبًا. لهذا السبب أريد أن يلتف حولي رجال أثق بهم في جميع مقاطعات هذا الجزء من العالم، وأريدك أن تتولى حكم مقدونيا، هل تفهمني؟ أعلم أنها رحلة طويلة، لكنني أحتاج إلى وجودك هناك الآن، كي نتخلص من الخطر المحدق بنا في الشرق، وبعد ذلك، ننهي تمرد سرتوريوس وأتباع الفصيل الشعبي الفارين إلى هسبانيا. يبدو أن العجوز ميتيلوس غير قادر على التصدي لهم، لكن تركيزي الآن ينصب على آسيا، ويقود الحملة لوكولوس، ولهذا السبب أريدك في مقدونيا، كي تحمي ظهره... ما رأيك يا صديقي؟".

أدرك دولابيل أنه على الرغم من أن سولا قد صاغ كلامه على هيئة سؤال أو اقتراح، إلا أنه انطوى على أمر واضح، وعلم منذ زمن أن ثمة طريقة واحدة للتعامل مع الديكتاتور؛ وهي الانصياع دائمًا. إذا استسلمت أمامه تفتح لك أبواب الثراء، أما معارضة خططه فلا تجلب إلا الموت والقهر، عاجلاً وليس آجلاً، فأجاب: "أنا مستعد للذهاب إلى المكان الذي يقرره سولا".

"جيد للغاية، جيّد للغاية، بحق جوبيتر يا رفيقي، يعجبني ذلك" علق سولا، وهو يربت على كتفه، وأضاف: "حسنًا، بهذا نكون قد انتهينا من مناقشة الموضوعات المهمة، حان وقت الاسترخاء قليلًا. أريدك أن تدخل

الردده المركزية كي تستمتع معي، لقد اكتشفت ملذات جديدة"، فطرق على الباب ثلاث طرقات وتوقف، ثم عاد لطرقة من جديد، وكرر الأمر ثلاث مرات وكأنها شفرة أو علامة، فانفصلت الألواح الخشبية السميكة ودخل الديكتاتور السابق، يتبعه ضيفه.

"لقد اكتشفت ملذات جديدة" كرر سولا. ثم التفت إلى دولابلا وأمسك بذراعه وسأله: "هل مارست الحب من قبل على وقع صرخات الألم من حولك؟ إنها نشوة مكثفة، هل ثمة كلمة في لغتنا تعبر عن ذلك؟ إن لم يكن فيجب أن تضاف".

على جانبي الفناء، صفان من الجواري مقيدات وأذرعهن مصلوبة، وإلى جوار كل منهن عبد ممتلئ الجسم مفتول العضلات يمسك بسوط. كانت الجواري جميعهن عرايا، تمامًا، على ظهورهن وأرجلهن وأذرعهن وأردافهن آثار ضربات السوط القاسية، بعضهن ينزف بغزارة، والبعض الآخر مصاب بجروح طفيفة. تطلع دولابلا إلى ما حوله، وامتألت عيناه بالشر، بل بالإعجاب، وارتسمت نصف ابتسامة على وجهه، بينما أوضح له سولا: "أمر بتغييرهن كل فترة، كي تدوم المتعة لمدة أطول. كل مائة جلدة أغيرها وأتركها لترتاح لبضعة أيام. بعضهن يموت، فأستقدم أخريات. لقد أنفقت ثروة هائلة على الجاريات، لكن الأمر ممتع للغاية...". ثم التفت نحو امرأة مضجعة بهدوء في وسط هذا الجنون، كما لو لم تكن جزءًا مما يحدث، وقال لها: "فاليريا، حبيبتي، لقد أتى دولابلا قادمًا من روما".

استلقت زوجة الديكتاتور السابق في وسط الردده، على أريكة، بملابس غير ملائمة لمقابلة الضيوف، تكشف من جسدها أكثر مما تستره، وإلى جوارها العجوز ميتروبيوس، أحد أصدقاء سولا، المتنكر في زي امرأة.

على بعد خطوات قليلة، بجانب سرير شرف فاليريا وسولا، ثمة أريكة أخرى، على يمين الديكتاتور السابق، أمر دولابلا بالجلوس عليها. على يسار سولا، الممثلان روسيو وسوريكس، كل واحد منهما يعبث بجسد

جارية، كانتا تنزفان، وتنتحبان بوعي غير كامل من أثر الجلد. وامتلات القاعة بالتنهيدات.

كان خروج الديكتاتور السابق لمقابلة دولابيللا قد أوقف عقوبة ٣٠ جارية مقيدة كن يبكين جميعاً، معظمهن يتألمن، وقليل منهن، اللاتي قيدن للتو كن يبكين من شدة الهلع؛ إذ رأوا مصيرهن الرهيب بأعينهن.

جلب العبيد المزيد من الطعام والشراب لسولا وزوجته وأصدقائهما الممثلين في تلك السهرة الحمراء، مزيج الجنس والدم، النشوة والموت، كما قدموا لدولابيللا أواني تحوي كميات كبيرة من أطعمة شهية والنيذ في كؤوس ذهبية فاخرة.

"اشرب يا صديقي، اشرب، وكُل... "دعاه الديكتاتور السابق.

كان دولابيللا جائعاً. وتلك المشاهد الشاذة، بدلاً من أنه تسلبه شهيته، عززتها أكثر؛ إذ رأى كيف يمكن أن يستمتع المرء بالمال والملذات. تمنى لو يمتلك القدرة ليفعل شيئاً كهذا يوماً ما، لكن الحصول على الكثير من العبيد والجواري... سيكلفه الكثير، هكذا أخبره سولا، يتطلب مبالغ طائلة، بينما عُيّن للتو حاكمًا لمقدونيا. تلك فرصة ممتازة لجمع الأموال وتعزيز الثروات التي تمكنه من تجربة نعيم مماثل، قال محدثاً نفسه: "يمكنني الحصول على فرص مشابهة للذة في... ما هي عاصمة مقدونيا؟ ثيسالونيكي؟ أم دراس؟"، لكنه لن يعذب جواري، بل سينتقي حرائر، من فتيات الطبقة الأرستقراطية المحلية. رأى أن فكرة الديكتاتور تحتاج إلى بلورة.

أمسك دولابيللا بقطعة من... شيء متبل بصلصة لذيذة لم يتبينه، وحشرها داخل فمه بنهم بينما يراقب جلد الجاريات المقيدات بالجدران مرة أخرى. بدا له أن طعمها شهياً بالنسبة له، على الرغم من كونه غريباً، فسأل: "ما هذا؟".

"الهليون بصلصة المحار والكرkend، إنه من الأطعمة المثيرة للشهوة. تذوقه، طعمه لا يقاوم" أوضح سولا.

كانا يتحدثان على وقع عويل الجواري. ابتعد ميتروبيوس قليلاً وكشف ظهره، وتمشى مصدرًا إيماءات أنثوية ساخرة مبالغاً، كما نرك سوركس، التمثيل الصامت، وتبعه متظاهراً بأنه يجلد، فأخذ ميتروبيوس يضحك ثم ييكي ثم يصرخ وكأنه امرأة. أسعد العرض المرتجل القصير الديكتاتور السابق وزوجته، وانفجرا في الضحك. شعر دولابيلاً أيضاً بالاسترخاء، فهذا فقط ما أراد فعله، انتوى أن يجعل يُيسالونيكى، نعم، كان أكثر ثقة الآن بأنها هي العاصمة لمقدونيا، النموذج الخاص به من بوتولي. أقسم على الفور، أمام الآلهة الرومانية، أنه سيجلد ويمتلك أجمل نساء يُيسالونيكى بمجرد أن يسيطر على المقاطعة بقبضة من حديد. الآن عليه أن يركز أكثر على جلب الثروة حتى يتمكن لاحقاً من الاستمتاع بأمواله في سلام وهدوء في فيلاه القديمة بأحد ضواحي روما.

لكن انتابه الفضول لمعرفة تفاصيل مهمة لوكولوس التي يهتم بها سولا إلى هذا الحد، فسأله: "على ماذا تنطوي مهمة لوكولوس في الشرق؟". يبدو أنه حتى المأدبة التي أقامها له سيد العالم الروماني السعيد، لم تشغله عما أهمّ سولا.

"همم" همهم الديكتاتور السابق وهو يأكل ويفكر، تردد، لكنه سرعان ما اتخذ قراره: أصبحت روما تحت سيطرته الكاملة، وبومبيوس، ذراعها المسلحة في العاصمة قد كبح جماح آخر محاولة للانقلاب على حكمه بتغلبه على انتفاضة لبيدوس، لم تعد ثمة حاجة للتظاهر. إلى جانب ذلك، كونه في بوتولي، تحت حماية جنوده المخلصين، منحه الشعور بالأمان التام والاطمئنان بحيث يمكنه أن يكشف لدولابيلاً خطته السرية، قال: "أمرت لوكولوس بالقضاء على يوليوس قيصر."

"ظننت أنك قد عفوت عنه" علقته فاليريا، التي انتهت للمحادثة.

"أعلنت ذلك في روما بالفعل، أثناء التفاوض، من أجل توطيد سيطرتي على السلطة المطلقة. في الواقع، توسط الكثير من أجل ابن صهر ماريوس الملعون ذلك، أتذكر ما تنبأت به وأبلغتكم به من قبل"، وأنشأ يكمل جملته

باليونانية ما معناه: "افرحوا الآن، لكن اعلموا أنه سيأتي يوم سيشق عليكم. سوف يدمر حزب النبلاء الذي نحمله جميعاً، لأن قيصر ممتلئ بنسخ عديدة من ماريوس" وأضاف "هذا ما أقول لكم. كنت قد قررت نسيان أمره، لكنني لا أريد أن أنضم إلى عالم الأموات وأترك العالم بين يدي هذا الشاب، فيعبث بكل ما أنجزته في حياتي. يجب أن يموت قبل أن تحين لحظة موتي، يجب أن يرحل هو أولاً. لذلك طلبت من لوكولوس أن يضع خطة تضمن سقوط قيصر قتيلاً في المعركة. أعتقد أنه ضمن جنود ثيرموس في ليسبوس. يجب أن يكون حصار ميتيليني بداية ونهاية الحياة العسكرية ليووليوس قيصر، لتصبح ليسبوس قبراً له" ضحك سولا مرة أخرى، ضحكة معدية وسط رعب صرخات الجاريات اللاتي تجلدن بلا رحمة. عاد سوريكس إلى جاريته وبدأ في اعتلاءها، بدت الفتاة، المنهكة من الجلد الوحشي الذي تلقته، وكأنها دمية من القماش الملطخ بالدماء وتركت نفسها تنفجر بين بكاء مكتوم، لكن المسرحية الدموية استمرت.

نهض دولابيللا وصاح: "بحق هرقل!" سأشرب نخب موت غايوس يوليوس قيصر الوشيك! لن نخشاه بعد الآن!"

"اشرب يا صديقي، سيتولى لوكولوس مسؤولية القضاء على قيصر الوقح الذي تجرأ على أن يتحداني، وفي نفس الوقت، سوف يحل مسألة الشرق. وقريباً أرسل بومبيوس إلى هسبانيا لإبادة سرتوريوس وبقية الداعمين للفصيل الشعبي المختبئين هناك. يبدو أن المتلثم العجوز يقف عاجزاً أمامه". كان سولا ثملاً، ويبدو أن ذلك دفعه إلى قول الحقيقة جملة واحدة، وأضاف: "هذه هي الخطة يا صديقي كي نسترخي، أنا هنا في بوتولي وأنت في مقدونيا. ليس ثمة مجال للخطأ، لأنني أمسك بكل الخيوط".

غادر دولابيللا تلك القاعة بعد عدة ساعات، توجه إلى غرفة أخرى كي يحصل على الراحة، ومعه جارية من اللاتي تعرضن للجلد تسره. لقد أصبح واضحاً له أن العالم يمتلكه أصحاب السلطة العليا، وهو، مثله مثل سولا، لن يعارضه أحد قط، لن يجروء أحد على مواجهته أبداً.

هذا الشاب قيصر تجراً ورفض إتباع تعليمات سولا عندما حثه على تطليق زوجته كورنيليا في الماضي، والآن سوف يمحي اسمه من على الأرض. هذا هو الوجه الحقيقي للعالم، هكذا هو الحال دائماً، الحرية لمن يحكم، لمن يمتلك سلطة إصدار الأوامر، أما البقية فهم مجرد عبيد، خدم.

كان ثملاً، عندما ساقوا إليه واحدة من الجواري. ظلت ترتجف من شدة الألم والخوف والرعب المطلق. لم يتبها لها دولا بيلا، لأنه سقط نانماً. بينما تكورت الفتاة في زاوية واستمرت في البكاء لساعات حتى تغلب الإرهاق على الخوف وغفت في مكانها.

الردمة المركزية لفيلا سولا

استمرت مسرحية الدم والشهوة بلا نهاية. ظل العبيد يمارسون مهامهم المحددة، وفاليريا معهم، كل شيء من أجل إسعاد سولا الذي شرب حتى الثمالة. أخذ يتمشى بين الطاولات المليئة بالطعام والشراب، يترنح، يواصل الضحك والضحك، ولا يعبأ بفجاجة ما يحدث. ولما أنهكته الملذات، احتقن وجهه بشدة، لكنه السعيد في وسط عالمه، سعيد بانتصاره العظيم على كل شيء وعلى الجميع. فجأة شعر باضطراب طفيف في مفصل الفك الصدغي، سرعان ما تضاعف حتى تحول إلى تشنج، جثا على ركبتيه متكئاً على أحد الأرائك، وبدأ في التقيؤ، يتقيأ وسط ضحكات صاخبة. بمجرد أن انتهى من طرد كل ما تناوله في ذلك اليوم، قام مرة أخرى وترجه نحو الطاولات وحشر بنهم المزيد من الطعام في فمه، وجرعات كبيرة من النبيذ. فجأة تذكر قيصر، إنه في الشرق، بعيداً عن أصدقائه في روما، تذكر خطة لوكولوس المهلكة لعدوه الذي يشغل باله، وضحك مرة أخرى وهو يصيح: "قتل ابن صهر ماريوس اللعين أخيراً".

حياة صديق

ميتيليني، جزيرة ليسبوس*، عام ٧٨ قبل الميلاد

في الغابة، إلى جوار البحر (كتيبة قيصر)

ظل قيصر ساكنًا بلا حراك، يتردد صدى كلمات لاينوس في عقله: "أنت ابن صهر غايوس ماريوس". لقد نجحت في دعمه معنويًا كي يتخطى نوبة الذعر ويستفيق. عاد إلى حماسه السابق، وأمر: "استدع قادة المائة". حينها فقط تنهد لاينوس بارتياح، لقد عاد صديقه، لم يشك قط في بسالته، لكنها كانت معركة الأولى ولا أحد يمكنه التكهن بمدى قدرته في مواجهة العدو عندما تحين الحرب. لقد شاهده أثناء التدريبات في ميدان مارس في روما، وبعد ذلك في المعسكرات العسكرية التي أكملتا تدريبهما فيها، وكان أداؤه دائمًا مبهراً في كل شيء؛ فهو في القتال اليدوي، يقاتل بسرعة ومهارة وبسالة في التمرينات البدنية. لو تغلب على نوبة الهلع الأولية تلك، تيقن من أنه سوف يبلي بلاء حسنًا. كان هلعه منطقيًا لأن الوضع صعب وخطة القسطنطين شابها مس من الجنون، خاصة فيما تعلق بالجزء الذي يقع على عاتقهما.

على الفور، أحاط لاينوس وستة من قادة المائة بقيصر، فبدأ يطلعهم على الخطة: "سوف أقود الوحدة الأولى، لتمرکز في مواجهة بوابة ميتيليني، على مسافة آمنة كافية بحيث لا يصيبنا أي رماة من أعلى أسوارها. لاينوس سيكون على يميني مع الوحدة الثانية، وعلى يمينه هو قائد ثالث على رأس وحدة أخرى، وباقي الوحدات سوف تصطف على يساري. سنواجه جيش

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة ميتيليني: المرحلة الثانية.

أناكساغوراس العائد من معسكرنا المهجور. الأعداء يفوقونا عددًا بواقع خمسة إلى واحد، ومهمتنا مقاومتهم والحيلولة دون عودتهم إلى المدينة حتى يصل أسطولنا مع بقية جيشنا، عندها يصبح التفوق العددي لنا. وبما أن قوات العدو لن تتحصن خلف الأسوار، فإن القسطنطين وقائد الحصار سوف يقضيان عليهم. هل لدى أحدكم أي أسئلة؟".

لم يطرح أي منهم سؤالاً واحدًا، لقد تكهنوا جميعًا بشيء من هذا القبيل عندما انسحب أغلب جنود الفيلق، وتركوهم هناك، الآن أصبحت الخطة واضحة.

"لقد اقتربت الأشربة أكثر" قال لابينوس مشيرًا إلى البحر.

بدا، من بين الأشجار، أن بعض سفن الأسطول الروماني تبحر بالفعل باتجاه الشاطئ. جلب هذا الأفق الجديد الارتياح وعزز معنويات بعض قادة المائة والجنود الذين تسللوا إلى قلوبهم الرعب؛ فتفوق العدو عليهم عددًا بدأ جليًا، ومع ذلك، تعلق الآمال بوصول الأسطول سريعًا، فحينها فقط يصبح كل شيء أكثر احتمالًا. عليهم فقط بالصمود لبعض الوقت، كما أخبرهم القائد الشاب. يمكنهم تنفيذ المهمة، وهكذا تستسلم المدينة في الحال. ولن يخلو الأمر من نهب، وثروات، وخمر، ونساء سوف يحصلون عليهن بالقوة. استشرّفوا مستقبلًا مبهرًا.

المعسكر الروماني المهجور

استدار أناكساغوراس متطلعًا إلى البحر، وحذا حذوه زعيم الطبقة الأرستقراطية المحلية في ميتيليني في دهشة. رأوا أن الأسطول الروماني في طريقه نحو الشاطئ، فصاح ثيوفانيس: "بحق ديميترو وأبولو والآلهة جمعاء!".

"همم" همهم حاكم المدينة، وهو يعرض على نواجذه، فهو رجل حرب، وفي المعارك تحدث عادة منعطفات غير متوقعة، والغريب أنه لم يبد متفاجئًا كثيرًا. تجعد جبينه، يمعن التفكير: السفن الرومانية لا تزال بعيدة

كما أن التيار واتجاه الرياح يلعبان ضد الأعداء، كان عليه فقط أن ينسحب بطريقة منظمة وسيعود كل شيء إلى ما كان عليه قبل أن يخرج، ولا يزال لديهم طعام ومياه آبار في المدينة تكفي لأشهر من المقاومة، وسوف يأتيهم العون من ميثراداتس عاجلاً وليس آجلاً. في الواقع، سيتعين على الرومان الذهاب. لم يعتبر التوغل خارج المدينة قرارًا سيئًا؛ بصرف النظر عن أنه تم استدراجهم، لكنهم على الأقل استمتعوا بالشعور بالحرية لبعض الوقت، كما أنهم نهبوا الإمدادات التي خلفها الرومان وراءهم وصادروا المزيد من أسلحة العدو...

"إنهم قادمون يا سيدي الحامي!" فجأة صاح أحد ضباط قوات ميتيليني. استدار أناكساغوراس نحو المدينة وشاهد ست وحدات تخرج من الغابة القريبة وتعرض طريق عودتهم إلى المدينة.

"كل هذا كان فخًا" صاح ثيوفانيس وسط شعور بخيبة الأمل.

استمر أناكساغوراس في التفكير، ولكن هذه المرة بصوت عالٍ: "عدددهم بالكاد نحو ٥٠٠ رجل، يبلغ عددنا خمسة أضعاف عدددهم، لن يمضي وقت طويل حتى نتمكن من تخطيهم والعودة إلى المدينة والتحصن بالأسوار... بيتاكوس سيبقي البوابات مفتوحة...". ثم تطلع إلى البحر وأضاف: "سوف تفعل الآلهة، أيولوس وبوسيدون الكثير من أجل اعتراض طريق سفن الرومان... ولن تقف على الحياض، لدينا الوقت... ولدينا...". التفت إلى جنوده، ولما وجددهم يللمون ما تركه الرومان من رماح البيلوم وأسلحة رمي، رأى أنه لم يعد ثمة سبب للمراوغة فاعترف: "نعم يا ثيوفانيس، إنه فخ، لكنني لست متأكدًا من أنه يستهدفنا نحن"، ثم نظر إلى وحدات قيصر التي تقطع طريق عودته إلى ميتيليني وقال: "أتساءل... ترى من يكون الضابط الذي يقود مجموعة السيتوريا تلك في... مهمة انتحارية."

"هل وصل بنا الأمر إلى هذا الحد؟" قال ثيوفانيس وكأنه يحدث نفسه، إلا أنه كلامه كان موجهًا إلى أناكساغوراس: "هل يستخدموننا من أجل حل نزاعاتهم الداخلية؟ الآن نحن من ننفذ مكائد الرومان القذرة؟".

لم يشعر حاكم ميتيليني الفريد بالحرص من كلماته، وجادله قائلاً: "أنا لا أفعل أي شيء قذر" ولوح مرة أخرى بأحد الرماح الرومانية: "بل سننفذ عملية تطهير خاطفة. سنعود إلى المدينة بعد أن نقتل ٥٠٠ جندي روماني، أو فلنقل معظمهم، وسوف يكافئنا ميرداداتس على هذا العمل في وقت لاحق بكل تأكيد. بالنسبة لي، لا تهمني الخلافات بين الرومان، أنا أحارب دفاعاً عن مصالح ملك بنطس، وأنت، يا ثيوفانيس، يجب أن تفعل الشيء نفسه دون الانشغال بأي تفاصيل أخرى". ودون أن ينتظر رده صاح في جنوده: "وزعوا رماح البيلوم على الرجال! ونظموا الصفوف وانتظروا أوامري!".

أعلى أسوار المدينة

لاحظ بيتاكوس تقدم الوحدات الرومانية وتحركات صفوف أناكساغوراس. كان بإمكانه أيضاً رؤية الأسطول الروماني بينما يقترب من الشاطئ، لكن السفن كانت تتحرك على مهل، فأمر حراس الأسوار: "حافظوا على الرماة في مواقعهم، وإذا حاولت تلك السيستوريا الرومانية الاقتراب من أسوار المدينة لمنع تقدم الحاكم وجنوده، اقتلوهم على الفور".

في البحر قبالة سواحل ليسبوس

"جذفوا! جذفوا!" صاح ربان السفينة.

كانت السفينة تتحرك بثاقل. رغم أن الشاطئ بات قريباً للغاية، لكن بدا وكأنها لا تتحرك أبداً لأن الريح تهب في الجهة المضادة. طُويت الأشرعة، هم الآن يحاولون الوصول إلى الشاطئ بقوة المجاديف، ولكن حتى مع تجديف جميع البحارة بأقصى طاقة لم يحققوا نتيجة مناسبة، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً.

أدرك ثيرموس التوتر بين أفراد الفيلق على متن السفينة، وعرض الأمر بهدوء على لوكولوس: "من المؤكد أن القوات التي تركناها على الجزيرة يخشون أن نتأخر في العودة إليهم". فأوماً القسطنطين برأسه متفهماً، كان

سيبتسم إن قال له ذلك قبل استلام تلك الرسالة المبعوثة من روما، لأنه حسب أن التأخر في العودة من شأنه تسهيل مهمة التخلص من قيصر، وهو الهدف الأساسي لتلك المهمة بأكملها، ومع ذلك، فإنه الآن، وبعدهما قرأ الرسالة، بات يرى الأمور بنظرة مختلفة، لكن الإلهة فورتونا متقلبة والخطة قيد التنفيذ. سيموت المنبر الشاب مقتولاً في ليسبوس، على أبواب مدينة ميتيليني، هو وجنود ست سينتوريا رومانية. تأسف لوكولوس أكثر لخسارة ست وحدات كاملة، ٤٨٠ جندياً. تلك التضحية، التي بدت له قبل ساعة واحدة سبباً لإرضاء رغبة سولا، يراها الآن إهداراً للقوات التي، بلا شك، مهمة في الشرق من أجل الحفاظ على الضغط الذي بدأ ألبدياً من جانب روما من ناحية وملك بنطس من الناحية الأخرى.

"هذا أمر مؤسف، ليتنا نتمكن من إنقاذ ولو جزء على الأقل من تلك القرون الستة" علق لوكولوس أخيراً. تركت العبارة ثيرموس في حيرة من أمره، شعر بأن القسطور قد غير رأيه بشأن الخطة، لكنه لم يفهم لماذا... انتابه هاجس فسأله: "هل لي أن أعرف أيها القسطور، ماذا ورد في الرسالة التي أحضرها مبعوث روما؟". إلا أن لوكولوس لم يجيبه، أخذ يتأمل شاطئ الجزيرة.

كتيبة قيصر

"حافظوا على تنظيم الصفوف في تشكيل السلحفاة* وفقاً لتعليماتي" صاح قيصر، وهو يتفقد ببصره جنوده. ومع ذلك، لم تبشّر التوقعات بالخير، أمعن النظر نحو الأفق، ها هي السفن تواصل الإبحار، إلا أن الرياح تأتي بما لا تشتهي، إنها تهب في الاتجاه المعاكس. اضطروا إلى التجديف وهذا من شأنه أن يبطل اقترابهم من الشاطئ، لم ينذر ذلك بأن الأمور ستسير على نحو جيد.

* طريقة رومانية قديمة لتنظيم صفوف الجنود في صفوف متوازية، محتمين بالدروع من جهة اليمين واليسار والأمم والخلف ومن الأعلى أيضاً، وكأنها مكعب من خمس أوجه فقط. (المرجم)

تذكر كورنيليا وابنته جوليا ووالدته وأختيه. قد لا ينعم برؤيتهن مرة أخرى، لكن لم يمتلك وقتًا كافيًا للاستغراق في الحنين إلى الماضي، فازدرد لعبه بينما يراقب تقدم العدو. لقد باتت كتائب أناكساغوراس على بعد ٥٠٠ خطوة، إنهم يتقدمون بسرعة، لم يحملوا الرماح الطويلة التي عُرفت باسم "الساريسا" التي اعتادوا استخدامها، بل كانوا يمسكون بحراب قصيرة جاهزة للرمي. حينها فقط أدرك قيصر بوضوح ما يدور حوله، وصاح بأعلى صوته: "استعدوا". فارتفعت الدروع، واحتمى الجنود استعداد.

سوف يتساقط وابل من الرماح.

كتائب أنكساغوراس

خلف خط لقاء العدو مباشرة، كان أنكساغوراس يحسب اللحظة الدقيقة للشروع في إطلاق الرماح. كان مقتنعًا بأنه لو لم يمتلك الرومان تلك القدرة اللعينة على تشكيل مثل هذه الوحدات المغلقة تمامًا بحيث تضمن للجنود الاحتماء خلف الدروع، لدمرهم القصف الذي سيطلقه رجاله في غضون لحظات، دون الحاجة إلى الدخول في قتال يدوي. لكن في ظل هذا التشكيل الروماني الدفاعي سوف يتمكن العدو من المقاومة، ولو جزئيًا، لكن التفوق العددي لقواته سوف يحسم المعركة لصالحه في النهاية. تطلع مرة أخرى نحو البحر، فوجد أن السفن الرومانية لا تزال تجدف بصعوبة ولم تصل بعد إلى الشاطئ، ما منحهم أكثر من المدة الكافية لارتكاب هذه المذبحة بخطة مثالية.

لم يكن التسرع أمرًا مستحبًا في الحرب. عليك أن تقتل بمهارة وبتأن، والتحلي بالرصانة عند تنفيذ مناورة ناجحة تصيب العدو بعدم الارتياح، وتمحنه الوقت كي يدرك أنه هُزم للتو أمامك. في كثير من الأحيان، في غضون تلك اللحظات من التأني، تشتعل رغبة الطرف الأضعف في الفرار، وبعدها يتراجع جنود العدو، يصبح كل شيء أسهل. هذا هو السبب في أن أناكساغوراس لم يكن متسرعًا في إصدار الأوامر بالهجوم، بل أخذ وقته،

وآثر الانتظار، حتى شعر أن صبر ثيوفانيس قد نفذ. بدا له رجلاً لا طائل منه، ليس خبيراً في أمور الحرب، لكنه ضليعٌ في الكتابة والتفاوض مع الخاسرين، كان يصنفه دائماً هكذا. منحه نفاذ صبره مزيداً من الثقة، شعر بأنه أجاد التعامل مع الأمر، ثم بدأ يعدّ عدداً تنازلياً من عشرة إلى واحد، وهو يعرض على نواجذه، حتى لا يستبق اللحظة التي يراها الأنسب لبدء الهجوم. وبعدهما فرغ كان الوقت قد حان، فصاح: "الآن! أطلقوا البيلوم، أطلقوا الرماح الآن!".

كتيبة قيصر

أظلمت السماء فوق رؤوس الرومان، وامتلأ الأفق بأكثر من ألف رمح، سحابة كثيفة من الفولاذ، قادرة على تدميرهم جميعاً، ودوى صفيها يشق الهواء قبل أن تسقط سقوطاً قاسياً وتصطدم بالأبدان وبالدروع وتخرق بعضها، مصدرة أصواتاً تشبه هزيم الرعد اختلط بصرخات العديد من الجنود عندما فوجئوا بأذرعهم مفصولة عن أجسادهم. أولئك كانوا ممن يرفعون الدروع إلى الأعلى؛ لذا فهم أكثر من تضرروا من القصف، فعم العويل في كل مكان.

كان قيصر محظوظاً، فبقي درعه سليماً رغم كونه في خط المواجهة، تماماً كما فعل عمه في معركة أكواي سكستيا، ليقدّم مثلاً للبسالة أمام الجنود. أراد العدو أن يصيب قلب التشكيل الروماني بوابل من الرماح تسقط عليهم من الأعلى، ومن ثم التسبب في أكبر عدد من الضحايا والجرحى، لكن عدد الجرحى فاق عدد القتلى، إلا أن الإصابات كانت بالغة. مع ذلك حافظت كل سينتوريا على الخط الخارجي سليماً، فقد اتبع قيصر تكتيكاً صحيحاً، لأن أغلب القتلى والجرحى كانوا من بين الصفوف الداخلية.

أخفض أحد الجنود ممن كانوا يقفون في مواقع قريبة من قيصر، ذراعه. لم يعد قادراً على حمل الدرع عاليًا، لقد تمزقت ذراعه، فتأسف الجندي لقيصر باكيًا: "أعتذر منك أيها الأطربون".

"لا بأس، الآن يلتحم الجسد بالجسد، احتفظ بدرعك...". هم بأن يقول له أن عليه أن يبقي درعه ملتصقًا بجسده كي يحميه عند الاشتباك مع العدو، إلا أنه أدرك أن الرمح شقه نصفين دون أن ينفصل عنه، حتى بات عمليًا عديم الفائدة.

حذق إلى الدرع فتوقف نبضه لبرهة، فكانت أشبه بلحظة وحي، وأمعن النظر في رماح العدو، تلك الأسلحة التي ألقيت على جنوده كانت رماح البيلوم الرومانية، فقط البيلوم تعلق بهذه الطريقة في الدروع، وحتى وإن انثنى الجزء الخشبي منها يعلق النصل الحديدي بالدرع ليجعله عديم الفائدة...

تأمل فيما يحدث حوله مشدوهاً. وجد أكوامًا من أنصال البيلوم محشورة في دروع رجاله، العشرات، بل المئات منها، لقد جرحت وقتلت منهم الكثير. كيف حصل رجال أناكساغوراس على هذه الأسلحة؟ من المعسكر الروماني؟ لكن... كيف ترك لوكولوس وثيرموس تلك الرماح في المعسكر ولم يحملوها إلى السفن؟ كيف...؟ لم يطرح المزيد من الأسئلة. فجأة، وبفعل ضغط الأمر الواقع استعاد نشاطه، راجع الأحداث وربطها ببعضها ببعض بأقصى سرعة. عندها سقط كل شيء على رأسه دفعة واحدة؛ إن لوكولوس ذراع سولا اليمنى في الشرق، سولا الذي يرغب في موت غايوس يوليوس قيصر، الشاب العنيد الذي أصر على مواجهته، الذي رفض طلاق كورنيليا والزواج من ابنة أحد رجاله المقربين.

لا، في حقيقة الأمر، لم يعفُ سولا عنه، بل كان مجرد عفٍ ظاهريٍّ. ما يزال يكن له كرهًا دفينًا في أعماقه. إنه يخشاه لكونه ابن صهر ماريوس. تذكر كلمات عمه على فراش الموت إذ قال له: "أعداؤك هم أعدائي، سوف يغفرون لك أي شيء باستثناء أمر واحد فقط؛ سولا لن يغفر لك أبدًا كونك ابن صهري وأخي. ودولابيللا، ذراعه اليمنى، كلبه الشرس. أعتذر منك يا فتى، عليك أن تتقبل مصيرك، ولسوف يتعين عليك إيجاد مسلك للتغلب عليه".

أدرك قيصر الواقع بوضوح، كل ذلك كان مجرد خطة هدفها القضاء عليه وحده، هو المقصود من كل هذا. لم يتوان لوكولوس أو سولا في

تنفيذها حتى مع علمهم بأنها قد تؤدي بحياة جنود ست وحدات من الجيش.

واصلت قوات ميتيليني التقدم. عليه أن يتصدى لهم، بغض النظر عن هول ما اكتشفه للتو، فراجع تشكيل السلحفاة. أرهقته صرخات الجرحى. ثم تطلع إلى البحر، لم تصل السفن إلى الشاطئ بعد، لا بد أنها ستتأخر، وسوف يلقي لوكولوس باللوم على الرياح والتيار. إنه بحار خبير، لا يمكن أن يرتكب خطأ بهذا الحجم، ما لم يفعله عن قصد، لقد حسب حساب كل شيء بدقة. إدراكه لتفصيلا الأسلحة، التي تُركت لأناكساغوراس كي ينفذ يديه المذبحة دون أن يدري أنه يسدي لسولا معروفاً، كانت تلك القشة التي فتحت عينيه على الوجه القبيح للعالم.

واصلت كتائب العدو تقدمها.

فكر قيصر بسرعة، أمامه ثلاثة خيارات؛ الأول: العودة مرة أخرى إلى الغابة للاختباء هناك. سيكون تصرفاً جباناً ومخالفاً للأوامر التي وجهت له، وقد يترتب عليه عزله، أو طرده من الجيش دون منحه ميثاق الشرف، وفي أحسن الأحوال، وهو الأرجح، سوف يعدمه لوكولوس بتهمة التمرد العسكري، سوف يقطع رأسه أمام جميع جنود الفيلق، هذا إذا ما نجا ولم تصبه رماح العدو أثناء فراره.

والثاني: هو اتباع أوامر لوكولوس حرفياً ومحاولة الحفاظ على الوضع لأطول فترة ممكنة لتأخير وصول أناكساغوراس إلى بوابات المدينة، ومن ثم منح لوكولوس وثيرموس وقتاً أطول للوصول مع الجزء الأكبر من الجيش الروماني. لكنهما لم يصلا إلى الشاطئ بعد... لقد كان انتحاراً بالنسبة له ولمن بقي حياً من جنوده. قدّر أن القصف أفقده ثلث جيشه، لذا لم يبدُ ذلك خياراً مناسباً بل يجعل موتهم حتمياً. وإذا تأخر لوكولوس أكثر لن يتحقق هدف الاستيلاء على المدينة، لأن حاكم ميتيليني قد يمتلك وقتاً كافياً للعودة إلى المدينة هو وجنوده والتحصن بالأسوار من جديد.

ظل يفكر بينما تقترب كتائب العدو. كان عليه أن يتصرف بسرعة، عليه أن يتخذ قراره، إنه قرار مصيري.

"أطلقوا الرماح! عاليًا" صرخ قيصر. كان رجاله على استعداد لإطلاق الرماح، فجنود الأعداء باتوا على مقربة منهم: "الآن! اقدفوا! بحق جوبيتر!". رأى كيف أن بعض الجرحى واصلوا النضال وبدؤوا يسددون رماحهم بشراسة على جنود العدو، فسقط منهم الكثير، كما راقب أناكساغوراس بينما يعيد ترتيب صفوفه لسد الفجوات، بعد الضربة الدفاعية التي أطلقها الجنود الرومان. وبعدها انتهى استأنف التقدم.

واصلت سفن لوكولوس الإبحار بقوة التجديف، كانت تتقدم ببطء، حتى بدت وكأنها ثابتة في مكانها في عرض البحر. ازدرد قيصر لعبه بينما يفكر في مخرج مناسب من المأزق. أمامه ثلاثة خيارات، ثلاثة فقط، لم ير الهروب إلى الغابة أو البقاء هناك خيارين مناسبين. ثمة خيار ثالث، لكنه إذا لم يتبع خطة لوكولوس، يظن الجميع أنه جبان، جبان وملعون. تذكر فجأة المزيد من كلمات عمه، وهي نصيحة لها وقع خاص في نفسه، قدمها له في ذلك اليوم في أحد الحانات المطلة على نهر التيبر، عندما أخبره ولاينوس عن معركة أكواي سكستيا، ونُقشت في أعماق قلبه كنقش الحجر "يمكنك أن تتظاهر بالجبن دون أن تكون جبانًا، كما يمكنك التظاهر بأنك أخرج دون أن تكون كذلك. الشيء الوحيد المهم هو الانتصار في النهاية. لا يهم إن وسموك بالجبن، المهم ألا تتورط في قتال إن لم تحسب جيدًا فرص فوزك، لأنه بغض النظر عن أي شيء، بمرور الوقت، سوف يتذكر الناس شيئًا واحد فقط وهو؛ اسم الفائز، وستمحي كل التفاصيل. تذكر ذلك يا فتى، ولا تقاتل مرة أخرى إن لم يكن انتصارك مضمونًا".

استمرت كتائب العدو في التقدم، يفوقونهم في العدد بخمسة أضعاف. تمتم قيصر وهو يعرض على نواجذه: "هذا غير منطقي".

جنود أناكساغوراس سوف يبيدونهم.

كان ثمة خيار ثالث وسوف يتبعه. أخذ يصيح مشيراً ناحية أسوار ميثيليني: "نحو المدينة، اتبعوني!". فتفاجأ الجنود.

كتائب أنكساغوراس

شاهد أناكساغوراس كيف أن الوحدات الرومانية الستة تفككت وبدأت في التراجع سريعاً... ليس نحو الغابة التي أتوا منها، إنما باتجاه المدينة. ابتسم في البداية: كان هذا ما يتمناه للعدو، بات الآن كل شيء أسهل. ومع ذلك لم يدرك... لماذا فروا نحو المدينة رغم أن أسوارها ملغمة بالرماة؟ كان الشيء المنطقي الذي يجب عليهم القيام به هو الفرار مرة أخرى نحو الغابة ومحاولة العثور على مأوى حتى تصل بقية القوات الرومانية، رغم أن سفنهم، وفقاً لحساباته، تأخرت للغاية، ولا تزال بعيدة لدرجة أنه بإمكانه محاصرة الجنود الرومان في الغابة وذبحهم جميعاً والعودة إلى المدينة، قبل أن تصل إلى الشاطئ. على أي حال الفرار نحو الأسوار يعجل بهلاكهم.

ثم لاحظ أنهم يتراجعون بجملة متعرجة، ففهم أنها لم تكن محاولة للفرار، بل للهجوم. إنها محاولة خاسرة على أي حال، وفرص نجاحها ضئيلة للغاية، وقد تعتبر انتحاراً. ومع ذلك، ولكونه محارباً لم يستطع سوى الإعجاب بذكاء قائد تلك الوحدات. وعندما قال ثيوفانيس: "إنهم مجانين، سوف يفتك الرماة بهم، بعدها كل شيء يصبح أسهل" هز أناكساغوراس رأسه رافضاً وقال: "القائد الذي أمر بالتوجه نحو المدينة ليس مجنوناً. لدينا رماة هناك، لكن ليس لدينا جنود، إذا تمكنوا من الوصول إلى الأبواب، سنجد أنفسنا أمام مشكلة. أما إذا اضطر بيتاكوس لإغلاق الأبواب فسنواجه معضلة أكبر. لا، ذاك الروماني الذي يقود تلك الوحدات ليس مجنوناً". ثم التفت إلى محاربيه وأمرهم: "أسرعوا!". أدرك الحاكم الفريد للتو أنه لم يعد يمتلك الكثير من الوقت كما كان يظن.

تابع بيتاكوس بجدية تحركات كتائب أناكساغوراس وكذلك محاولات الوحدات الرومانية الستة. لاحظ أن أسطول العدو وصل أخيرًا إلى الشاطئ، وأدرك أن الأمر انطوى على خدعة لإجبار قوات ميتيليني على الخروج، لكن كل شيء ظل تحت السيطرة؛ لأن الرومان لم يتركوا عددًا كافيًا من الجنود يمكنهم عرقلة عودة أناكساغوراس وقواته إلى داخل المدينة. كان الحاكم محققًا عندما اصطحب معه قوة عسكرية قادرة على التعامل مع هذا الكمين، الآن سوف يبيدهم بمجرد عودته إلى المدينة، وبمجرد دخول قواته سوف يأمر بإغلاق الأبواب فورًا، وهكذا لن يحقق الرومان شيئًا سوى خسارة المئات من جنودهم. يا لها من طريقة غبية لشن الهجوم، لكن... ما هذا، ماذا تنتوي تلك الوحدات الرومانية فعله الآن؟ هل يحاولون الفرار، كان ذلك متوقعًا بعد وابل الرماح الوحشي الذي أطلقه رجال أناكساغوراس، لكنهم... ماذا؟ إنهم يركضون في تشكيل منظم نحو... أبواب ميتيليني المفتوحة، حينها صاح بغضب: "أيها الرماة! استعدوا! بحق أبولو، استعدوا! استهدفوا الرومان! أطلقوا سهامكم!".

كتيبة قيصر

"نحو المدينة، نحو البوابات! بحق جوبيتر، اتبعوني جميعًا! نحو ميتيليني!" صاح قيصر بحماس، بينما كلمات ماريوس تتردد في ذهنه، مرارًا وتكرارًا: "تذكر ذلك يا فتى، ولا تقا تل مرة أخرى إن لم يكن انتصارك مضمونًا".

"إلى المدينة! نحو المدينة بحق هرقل!" أصر قيصر، واستمر في تكرار التعليمات: "حافظوا على تشكيل السِّلحفاة، تقدموا بسرعة نحو المدينة! إلى الأبواب!".

* انظر إلى الرسم التوضيحي لمعركة ميتيليني: المرحلة الثالثة

تلقى تيتوس لابينوس الأوامر بذهول. كان قيصر دائماً يسبق صديقه بخطوة في الإدراك، لكن ها هو لابينوس يفطن إلى ما قرره قيصر، وكان الخيار الأفضل؛ فالهروب إلى الغابة عنى عدم الالتزام بالأوامر الواردة، كما أن مواجهة كتيبة أناكساغوراس بمثابة انتحار، الخيار الوحيد المتبقي هو السيطرة على بوابات المدينة. كان الأمر يبدو جنونياً، لكنه ممكن، صعباً، إلا أنه على الأقل يمنحهم فرصة للنجاة.

"نحو المدينة! حافظوا على تشكيل السلحفاة!" كرر لابينوس وصاح خلفه كل قادة المائة ينقلون التعليمات إلى باقي الجنود، ومع ذلك، كانت ثمة تفصيصة ضرورية للغاية مفقودة. عندما اقتربوا من الجدران، كان بإمكانهم توقع أنهم سيقبعون تحت زخات أخرى من الفولاذ، هذه المرة ستمطر سهاماً، ومن هنا تأتي الحاجة إلى أن يقترب الرومان وفق تشكيل السلحفاة. ولكن نظرًا لأن الهدف كان بوابة المدينة، فلم يتمكنوا جميعاً من الوصول في نفس الوقت؛ لأن المساحة لم تكن كافية؛ لذا كان لابد أن يصدر أمرًا تنظيمياً يحل هذه المعضلة. وجاء الأمر فعلاً؛ إذ صاح قيصر: "نحو البوابة وفقاً لترتيب المعركة! نظموا الصفوف حسب ترتيب المعركة، بحق هرقل!"

وفقاً لإصلاحات عمه ماريوس أصبح جميع جنود المعركة يمتلكون نفس الأسلحة، مهما اختلفت خبراتهم القتالية، ووفقاً لتعليمات قيصر حافظت الوحدات على تنظيم هرمي* وهو ترتيب خاص يُتبع في حالة القتال فقط، ويجيده الجنود والضباط. لهذا، بمجرد إصدار الأوامر، تقدمت الوحدة الثالثة على الآخرين لتكون هي أول من يتلقى سهام رماة المدينة، لكنهم، رغم القصف وبعض الإصابات، واصلوا التقدم تحميمهم الدروع. لم يعد الأمر خطيراً للغاية، إذ بعد القصف الغاشم بالبيلولوم، لن تخيفهم السهام. تبعتها الوحدة السادسة ثم الثانية، بقيادة لابينوس؛ وخلفهم الوحدة الخامسة.

* تنظم القوات على شكل هرم، رأسه إلى الأمام، وقاعدته إلى الخلف، وعادة ما يكون القادة في الصفوف الأخيرة أو المتوسطة لحث الجنود على التقدم والقتال. (المترجم)

تبعتها الأولى، بقيادة قيصر، لتغلق الوحدة الرابعة ذاك الثعبان الذي تشكله الدروع المرفوعة إلى الأعلى.

يعد هذا تنظيمًا قديمًا منذ كانت الوحدات تقسم إلى فيالق بأسلحة مختلفة، وهو ترتيب يعرفه الجميع. لقد ولى وقت التفكير، والآن يجب أن يعتمد على الخبرات السابقة، والأمور البديهية، كي يسهل على الجنود تنفيذها دون إضاعة الوقت في التفكير. كما أن الجنود التقطوا تلك التفاصيل اليسيرة ومن خلالها أيقنوا أن يوليوس قيصر يضع الحفاظ على حياتهم في حسبانته قبل اتخاذ أي خطوة.

أعلى أسوار المدينة

"بحق أبولو!" اقتلوهم!" أخذ بيتاكوس يصيح دون هوادة، بعدما رأى كيف أن الرومان الذين نجوا من القصف المستمر يواصلون التقدم محتمين بالدروع، حتى أصبحوا على وشك الوصول إلى بوابة المدينة، التي أبقى عليها مفتوحة على مصراعها لتسهيل عودة أناكساغوراس ورجاله، فوقف مشدوهاً أمام التحرك المفاجئ لتلك الوحدات العسكرية الرومانية. فكر بيتاكوس في إغلاق البوابة لمنع دخول العدو، لكن الوقت لم يكن في صالحه، إذ كانت ضلفتا البوابة الحديدية ثقيلتين للغاية وتحريكهما يستغرق وقتًا طويلًا، كما أن الجنود الرومان بدؤوا يهبطون على الشاطئ. يزداد المشهد تعقيدًا بشكل غريب! هل كل ذلك يحدث لأن قائد تلك القرون الستة فكر في التحرك نحو ميتيليني؟ لا، بل من الأفضل إبقاء البوابات مفتوحة، حتى ولو دخل جزء من الرومان إلى المدينة، لمحاربتهم داخل ميتيليني. يجب أن تبقى البوابة الكبرى مفتوحة أمام أناكساغوراس ورجاله، وبمجرد دخولهم جميعًا يمكن إغلاقها، تاركين كتائب لوكولوس وثيرموس بأكملها خارج المدينة. هذا هو الأساس، عندها يصبح مقتل جنود تلك الوحدات الستة مسألة وقت، خاصة في ظل التفوق العددي الذي ستوفره عودة قوات أناكساغوراس. سيتم حل كل شيء.

"هل نغلق البوابة الكبرى يا مولاي؟" سُئل بيتاكوس.

"لا، بل سوف ننتظر حتى عودة أنكساغوراس. اجمعوا الرجال من غير الرماة وحاولوا صد الرومان الذين يقتربون من البوابة."

كتائب أنكساغوراس

بدأ أنكساغوراس في إعادة تنظيم صفوف قواته في تشكيل طويل، مثل ثعبان آخر. باتت الأولوية الآن بالنسبة له هي العودة إلى المدينة، بعد ذلك سوف يتمكنون من إيادة الرومان. لاحظ أن بيتاكوس التزم بالاستراتيجية المتفق عليها وأبقى الأبواب مفتوحة، فغمغم بينما يعرض على نواجذه: "حسنًا، يمكننا التصدي لهم".

كتيبة قيصر

استمر توجيه السهام نحو جنود قيصر، فسقط المزيد والمزيد منهم، لكن ها هي الوحدة الثالثة والسادسة التي تتبعها بالفعل تتجاوزان المدخل. هناك اصطدموا بفوج من بضع عشرات من المحاربين الأعداء حاولوا التصدي لهم، لكن أناكساغوراس كان قد اصطحب معه أفضل المقاتلين. وعلى الرغم من حقيقة أن المجموعة التي تركها لوكولوس تحت قيادة قيصر، كانت مكونة من فيالق عديمي الخبرة، إلا أنهم كانوا مدربين تدريبًا جيدًا وصمدوا رغم القصف. رأوا العديد من أصدقائهم يسقطون، ما أوجع غضبهم، لذا تحينوا لحظة الالتحام مع قوات العدو. احتمت فيالق الخط الأمامي بالدروع، ثبتوها أمامهم، وأبرز الجنود سيوفهم بغبطة، وعلى الفور بدؤوا يسددون الطعنة تلو الأخرى. لقد تأجج الحنق داخلهم، وواصلوا القتال بالدفع والطعن بغضب جم وحماس هائل، فهم الآن يقاتلون في سبيل النجاة، أي كان صراعًا من أجل البقاء، وكأنه لم يكن ثمة غد قادم.

شقت الوحداتان الثالثة والسادسة طريقهما أمام الرجال الذين تمكن بيتاكوس من حشدهم، بينما بقي هو أعلى الأسوار يوجه الرماة ضد الرومان

الذين لا يزالون خارج الأسوار وأيضًا ضد أولئك الذين دخلوا للتو. وبالتزامن مع مقتل عدد قليل من الجنود المدافعين عن ميتيليني على أيدي الرومان عند البوابة، سمح بيتاكوس لرماة السهام بإطلاق النار بحرية مطلقة، ومن جانبهم، واصل الرومان حماية أنفسهم بدروعهم المرفوعة. لكن... ماذا سيفعلون الآن بعد أن تخطوا بوابات المدينة؟ أين القادة؟ كانوا بحاجة لأوامر...

لم يسر كل شيء على ما يرام في التقدم الروماني نحو بوابة المدينة؛ إذ سقط لاينوس جريحًا، أصابه سهم في ساقه لم يمت، لكنه طُرح أرضًا على بُعد أكثر من ٢٠٠ خطوة من البوابة، حيث كان الجنود يناضلون من أجل السيطرة على المدينة، في حين وصل قيصر على رأس وحدته إلى مدخل البوابة. لاحظ الفوضى التي سادت بين رجاله، بحث عن لاينوس، ولم يجده في أي مكان، إلا أنه رأى أن الأولوية لديه هي إعادة تنظيم صفوف جنوده، فواصل توجيه التعليمات: "على الوحدة الثالثة والسادسة والثانية الدخول إلى المدينة فورًا! حاولوا السيطرة على سلاسل البوابات الحديدية! اقتلوا من يعترض طريقكم! وأخبروني عندما نمتلك السيطرة على السلاسل بحق جوبيتر!". تلقى الرجال بالفعل تعليمات واضحة وموجهة، وبدؤوا يتصرفون وفقًا لها، لكن أطربون الوحدة السادسة سقط قتيلًا.

"الوحدات الخامسة والأولى والرابعة سوف أتولى قيادتها خارج الأسوار، في مواجهة رجال أناكساغوراس!" صاح قيصر. ثم سأل قائد المائة في وحدته، وقد خفض مستوى صوته: "أين الأطربون الآخر؟".

"إنه جريح، هناك، بين الذين قتلوا أثناء اقترابنا من الأسوار" أجابه، مشيرًا إلى البقعة التي سقط فيها تيتوس لاينوس على الأرض، مستلقيًا يحتمي بدرعه، بينما لا تزال السهام تسقط من كل مكان، وكان رجال أناكساغوراس قد أوشكوا على الوصول إليه.

رأى قيصر كيف كانوا يحشرون سيوفهم في أجساد القتلى والجرحى وكل من يعترض طريقهم نحو بوابات المدينة بطريقة منهجية؛ أراد

أناكساغوراس التأكد من زيادة أكبر عدد ممكن من الجنود والضباط الرومان. هل رحل لا بينوس فعلاً؟ حتى وإن لم يقتل، بات الأمر مسألة وقت، القليل من الوقت، فسوف يصل إليه أحد جنود أناكساغوراس فيقضي عليه نهائياً بضربة من سيفه.

أوامر قيصر

ميتيليني، جزيرة ليسبوس، عام ٧٨ قبل الميلاد

أمام بوابة المدينة

التفت قيصر إلى قائد مائة الوحدة الأولى. إنها المرة الثانية التي يصدر فيها أوامر قتالية وفقاً لرؤيته، وليست وفقاً لتعليمات قائده الأعلى. الأولى كانت فكرة التوجه نحو بوابات المدينة للسيطرة عليها، وحتى الآن لا يمكن الحكم على مدى صحة تلك المحاولة، لكن اتخاذ القرارات وإصدار الأوامر أضحى أمراً يسيراً بالنسبة له، رغم أنه لم يكن لديه وقت كافٍ للتفكير. بات الأمر المُلح عليه الآن هو إنقاذ لاينوس.

فأمر قيصر قادة المائة: "تولّ أنت الأمر، سوف أذهب لإنقاذ الأطربون الجريح، وإذا لحق بنا أناكساغوراس، تصبح مهمتك إغلاق بوابات المدينة، هل تعليماتي واضحة؟ مهما حدث، سواء كنت أنا والأطربون لاينوس داخل المدينة أو خارجها، تبقى مهمتك ومهمة باقي الرجال هي إغلاق الأبواب قبل وصول جنود أناكساغوراس، هل فهمت؟".

أوماً قائد المائة برأسه، لكنه بدا مرتبكاً، فصرخ قيصر في وجهه والرداذ يتطاير من فمه، والغضب أيضاً: "قل لي إنك فهمت، اللعنة!".

"أفهم أيها القائد!"، فضغط على كتفه تعبيراً على امتنانه له. ورغم أنه كان يكبره سنّاً، فعمره ضعف عمره أو يزيد، إلا أنه نظر إليه بنظرة نصفها دهشة والنصف الآخر إعجاب.

استدار قيصر، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يركض، ثم ألقى درعه على الأرض، لأنه كان ثقيلًا للغاية. عليه أن يصل إلى لاينوس بأقصى سرعة، سوف يتدبر أمره فيما بعد، فقد يحتميان معًا بدرع لاينوس. ركض في خط متعرج بحيث لا يتمكن رماة السهام من تحديد موقعه، وكان بيتاكوس قد أمرهم برمي السهام في البقع التي يتجمع فيها عدد كبير من الرومان، خاصة عند قاعدة الأسوار وبالقرب من البوابة الكبرى؛ إذ لم يكن يريد إهدار السهام على هدف متحرك يصعب الوصول إليه.

وصل قيصر إلى حيث يرقد لاينوس فسأله: "هل بإمكانك الوقوف على قدميك؟".

"لا أعرف... لست أدري... لكن... هل أنت مجنون، انصرف... من هنا" أجابه بينما يحدق في ساقه اليسرى المصابة. "اسكت وانهض بسرعة بحق الآلهة جمعاء!" أمر قيصر. لم يرد الدخول في نقاشات. لم يكن ثمة وقت لذلك. شد على ذراع صديقه: "قف، انهض" ورفع بقوة أدهشت لاينوس نفسه.

"لن أقدر على... المشي!"

"إخرس وامشٍ وإلا قتلتك بنفسي!" صدمه حديث قيصر إليه بقوة السلطة، لدرجة أنه توقف عن الجدال وبدأ، متكئًا على صديقه، يتقدم بصعوبة شديدة نحو البوابات، يسنده قيصر بإحدى ذراعيه، وبالأخرى يرفع الدرع لصد السهام التي لا تزال تسقط عليهم بشكل متقطع. لم تعد السهام كثيرة، لأن رجال أناكساغوراس كانوا يقتربون، والرماة على الجدران، بأمر من بيتاكوس نفسه، كانوا لا يزالون يركزون على الرومان الذين سيطروا على السلاسل الحديدية الكبيرة التي تستخدم في فتح أو إغلاق البوابات.

نظر أطربون الوحدة الأولى نحوهما، ومن خلفهما كانت المفزة الأمامية من جنود أناكساغوراس تقترب بالفعل.

"لن يصلنا" قال أحد الحراس من خلفه. فهزَّ قائد المائة رأسه أسفًا لما يراه وقال: "لا، لن ينجوا"، قبل أن يلعن الآلهة وحظه، وخص بالذكر الإلهة فورتونا وجميع جنود ميتيليني.

لقد كان ضمن قدامى المحاربين في الحرب الأولى ضد ميثراداتس، واشترك في القتال في معارك عديدة، وشهد قادة بلغ بعضهم من الحنكة مبلغًا بينما افتقر آخرون إليها. كما قاتل مع قادة رعايد وآخرين شجعان، لديهم القدرة على اتخاذ قرارات سريعة أو تفكيرهم ببطء لدرجة مفاجئة. لقد رأى العديد من الأرستقراطيين الذين تم وضعهم في مناصب قيادية لمجرد كونهم من النبلاء، رغم عدم قدرتهم على قيادة الرجال المسلحين في المواقف الحرجة، ولاحظ كيف أن هؤلاء دائمًا يحرصون على الابتعاد عن القتال اليدوي والخط الأمامي للمعركة، وفي خضم كل هذا، شهد مقتل كثير من الرفاق. لكنه لم يسبق له أن رأى قائدًا أرستقراطيًا يمتلك قدرًا من الشجاعة والبسالة تضاهي ما أظهره يوليوس قيصر في تلك اللحظة. إنه، حرفيًا، يخاطر بحياته من أجل إنقاذ ضابط آخر.

"للعنة!" كرر قائد المائة. هاله ما سيلاقه قيصر ورفيقه، لكنه تلقى تعليمات مباشرة يجب تنفيذها كما هي، فأمر الحارس وقادة الوحدات الخامسة والرابعة: "بمجرد أن نسيطر على السلاسل، أغلقوا الأبواب! سوف أقود الوحدة الأولى عوضًا عن القائدين!".

فطن الضباط الآخريين إلى أهمية إغلاق البوابات، من أجل إجبار كتيبة أناكساغوراس على مواجهة الجنود الرومان بقيادة لوكولوس الذين حطت سفنهم للتو. استحسنوا وأمر أطربون الوحدة الأولى، ومن ناحية أخرى، أعجب الجميع - الضباط والجنود على حد سواء - بشجاعة قائدهم يوليوس قيصر.

"هيا، اللعنة على حظي، هيا!" صاح قائد المائة.

أمام أسوار ميتيليني

رأى الساتراب المنبرين بينما يحاولان الاقتراب من البوابة. فكر أنه سيكون من الجيد الزج بهما إلى داخل المدينة، وقطع رأسيهما أمام أعين شعبها، وبعد ذلك سوف يأمر بإلقاء الرأسين المفصولين عن الجسد من أعلى أسوار الجدار لتثييط عزيمة لوكولوس وثيرموس وجنودهما. استبشر بالنصر الوشيك، وجال بذهنه قدر ما يمكنه فعله للفتك بهم، سوف يتمكن من فعل كل هذا فقط بعد قليل من الآن. ورغم تقديره لمدى جرأتها وبسالتها إلا أن الحرب حرب...

أوشكا على الوصول إليهما. عندها رأى وحدة من جنود الرومان تبتعد عن البوابة. فجأة، نسي أمر القائدين، رغم أنه كان من الواضح أن هؤلاء سوف يشدون من عضدهما بلا شك. أدرك حقيقة أن الرومان أصبحوا يسيطرون على البوابة أكثر من رجال بيتاكوس؛ إذا ما أغلقوا البوابة فسيبقى هو وجنوده في الخارج و... نظر خلفه؛ كانت قوات لوكولوس وثيرموس تنظم صفوفها وفقاً لتشكيل المعركة بمحاذاة الشاطئ، أعدادهم تفوق عدد جنوده، رغم أنهم كانوا قد قتلوا للتو عدداً غير قليل من جنود قيصر. إذا كان أناكساغوراس قد تعلم أي شيء من مواجهاته السابقة مع الجحافل الرومانية، فهو أن جنود الرومان يقاتلون بشراسة أكبر عندما يتعلق الأمر بالثار لدماء رفاقهم.

تلاشت الابتسامة من على وجهه، فالحرب خدعة.

كتيبة قيصر

"تحرك، اللعنة عليك!" صاح قيصر.

"لا أستطيع! بحق الآلهة جمعاء، اتركني...!" أجاب لاينوس. لكن شكواه كانت عديمة الفائدة، لأن قيصر واصل دفعه على التقدم دون أن يصيبه الإحباط للحظة واحدة. وهكذا تقدما بصعوبة شديدة، حتى بات

رجال أناكساغوراس على وشك اللحاق بهما... وفجأة، وصل إليهما جنود الوحدة الأولى، وتصدوا لمواجهة المفرزة الأمامية من جيش أناكساغوراس. "اضربوهم... اضربوا!" صاح قائد المائة.

لم يستطع قيصر تصديق ما يراه، وكان كل جنوده حُقنوا بمثل هذا الحقن والعزم والهمة، بحيث أصبح كل شيء ممكنًا فجأة. اقترب جنديان منه، وقال له: "سوف نتولى أمر الأطربون المصاب"، وحلوا محله في مساعدة لابينوس حتى يصل إلى البوابة، فسلمه لهما، وانضم إلى خط القتال مع الوحدة الأولى بسيفه ودرع لابينوس. اصطفوا مرة أخرى في تشكيل سلحفاء مصغر؛ إذ سقط نحو نصف رجال الوحدة، وواصل تسديد الطعنات مثله مثل أي جندي آخر، بغضب وعنف مدمر. لم يكن الأمر صعبًا عليه، كان عليه فقط أن يتخيل أن هؤلاء المحاربين بقيادة أناكساغوراس - في الواقع، ورغم عدم علمهم بذلك - جسدوا ذراعي سولا البائس، يجلد بهما بلا هوادة.

ومع ذلك، ووسط جنون الدم، لم يحد قيصر عن هدفه العسكري الأساسي، وأمر جنوده بانسحاب منظم نحو البوابة الكبرى، التي كانت لا تزال مفتوحة، فصرخ: "أسرعوا أيها الجنود، وإلا أحيط بنا خارج أسوار المدينة". فأذعنوا لأوامره، وواصل قيصر تكرار التعليمات كي يسمعها كل القادة والجنود: "تراجعوا بوتيرة أسرع!". بينما استمرت السهام تمطرهم، قريبة للغاية من البوابة، التي بدأ زملاؤهم يغلقونها شيئًا فشيئًا ببطء شديد ويقظة؛ إذ بمجرد تمكنهم من السيطرة على السلاسل التي تتصل بعجلتين خشبيتين كبيرتين، شرعوا في عملية إغلاق البوابات الحديدية الثقيلة التي تحول دون الدخول إلى مدينة ميتيليني.

أعلى أسوار المدينة

راقب بيتاكوس بلا حول ولا قوة عملية إغلاق البوابات. لم يكن لديه عدد كافٍ من الجنود، لأن أناكساغوراس اصطحب معه جيشه بالكامل، كما لاحظ أن الرماة بدؤوا يعانون من قلة عدد السهام. لم يعد في مقدوره فعل

أي شيء، كل ما أمكنه فعله هو انتظار أن تحل عليهم الكارثة. لقد ضاع كل شيء، أم أن الأمر ليس كما يظن؟

ظل يتلفت من جانب إلى آخر، ومعه ما يقرب من ٣٠٠ من الرماة. نظر إلى الأسفل... قوام جنود العدو، الذين نجوا، نحو ٢٠٠ رجل؛ عبروا وسط وابل حراب أناكساغوراس وسهام الرماة، فقدت كتيبة قيصر أكثر من نصف جنودهم، إنها إذن معركة متوازنة. فتشجع واستدار ومط رقبتة يتنهد بتمهل، ثم نزل ومعه رماة السهام استعدادًا للقتال المباشر، في معركة مصغرة هدفها استعادة السيطرة على العجلتين الضخمتين والسلاسل.

كتيبة قيصر

"ألقوا دروعكم واركضوا نحو البوابة، بحق جوبيتر!" صاح قيصر وهو يراقب نزول رماة السهام من أعلى الأسوار. كانت الوحدة الأولى لا تزال تحاول صد الهجمات الأولية التي شنها جنود أناكساغوراس، قبل وصول باقي قوات الجيش، فانتهاز الفرصة في التراجع بأقصى سرعة نحو الأبواب التي كانت تغلق ببطء ولكن دون توقف، وفقاً لأوامره.

اجتاز لابينوس البوابات بمساعدة الجنديين، وتبعهم من نجا من أفراد الوحدة الأولى، ومعهم قائدها. كانت الأبواب قد أوشكت على الالتحام تمامًا عندما مر غايوس يوليوس قيصر عبرها نحو الداخل، ولم يستطع أحد الحيلولة دون تسلل ثلاثة من جنود أناكساغوراس، بينما حُشر محارب رابع بين الضلفتين المتواربتين، حتى كان وقع فرقة عظامه مسموعًا، إذ انشق جسده إلى نصفين ببطء وبلا هوادة. لم يكن ممكنًا تجنب حدوث ذلك، يجب أن تُغلق الأبواب وإلا أحيط بهم جميعًا. في الواقع، تمزق جسد الرجل البائس إلى أشلاء، وتناثرت الدماء فلطخت بعض الأجزاء القريبة من البوابة.

بمجرد دخولهم، لَوَّح قيصر بسيفه وانخرط في القتال ضد الأعداء الذين تسللوا وراءهم، وانضم إليه الباقون من جنود الوحدة الأولى. وفي غمضة عين، أصيب الجنود الثلاثة بجروح في الصدر والرقبة، وسقطوا على الفور.

استمر جنود الرومان في دفع ضلفتي البوابة، لكن يبدو أن جمجمة المحارب المحشورة بينهما أعاقت إغلاقها بالكامل، فصرخ قيصر: "ادفعوها بقوة! ادفعوها الآن!". فأطاعوه حتى انفجرت الجمجمة، وسحقت، فاندفعت الدماء مرة أخرى حتى أصابت رداء قيصر نفسه. فأحدث ارتطام الحديد بالحديد دويًا، بحيث لم تعد ثمة حاجة لإعلان أن بوابات ميتيليني قد أغلقت بالكامل، فالخبير فرض نفسه على الآذان.

كتيبة أناكساغوراس

كان قوام رجال أناكساغوراس الذين بقوا في الخارج، نحو ٢٥٠٠ محارب، بينما بلغ عدد القوات العائدة من البحر أكثر من ٨ آلاف تقدموا في تشكيل المعركة نحوهم. إنهم يشكلون فيلقًا كاملًا بالإضافة إلى تعزيزات أتى بها القسطنطين.

القوات الرومانية بقيادة لوكولوس

نزل لوكولوس وثيرموس من السفينة. بعيدًا عن المؤامرات والذسائس السياسية المظلمة، كانا من أكفأ القادة في ساحات المعركة. لقد عدل قيصر ولاينوس الخطة المتفق عليها، لكنهما حققا نتائج أفضل مما كان متوقعًا، ونجحوا ليس فقط في إعاقة عودة قوات أناكساغوراس إلى المدينة، ولكن أيضًا في منعهم تمامًا من العودة للاختباء عبر السيطرة على بوابة ميتيليني وإغلاقها، وإجبارهم على البقاء في العراء.

"إذا سيطروا على الأبواب وحالوا دون فتحها مرة أخرى، ننجز المهمة" قال ثيرموس.

"هذا صحيح" علق لوكولوس، كانت نبرة صوته تشي بالمفاجأة وتتضمن تلميحًا بإعجاب ببوليوس قيصر الذي كان موته محققًا، لكنه نجا وتحول إلى بطل عسكري على أرض ليسبوس البعيدة للغاية عن روما. كانت الأخبار

تتأخر لأسابيع حتى تصل إلى تلك البقعة النائية من العالم. عبس لوكولوس، كان من الممكن أن تنقلب الأوضاع في روما قبل أن يصله الخبر.

"وربما يسقط الشاب أثناء القتال. سيستغرق الأمر منا ساعات للقضاء على رجال أناكساغوراس، وفي غضون ذلك سيتصدى هو لقوات المدينة خلف أسوارها ومعه حفنة من الرجال" أضاف ثيرموس، الذي لم يفهم تمامًا ما كان يفكر فيه لوكولوس. لقد توقع منه المزيد من القلق لأن قيصر انحرف عن الخطة الموضوعية وبدلاً من أن يموت ها هو حي يقاتل بقوة بطولية.

"نعم، لساعات" كرر القسطنطين بغموض، بحيث لم يتمكن ثيرموس من معرفة هل يرى هذا التأخير جيداً أم سيئاً.

كتيبة قيصر داخل المدينة

انحنى لابينوس مستنداً إلى الحائط. لقد أغلقت الأبواب تمامًا، كان بإمكانهم سماع دوي قرع رجال أناكساغوراس عليها من الخارج، يرددون السباب والشتم باليونانية المفهومة ويصيحون: "افتحوا، ويحكم، افتحوا!".

التقت أعين قيصر ولابينوس، فقال له مطمئناً: "علينا بالصمود. يجب إبقاء هذا الباب مغلقاً مهما حدث". فوافق لابينوس الرأي، رغم أن تضاعف الألم بات واضحاً على وجهه، ولا تزال ساقه تنزف. ثم دنا منه قيصر ونصحه: "ضمّد الجرح بأي شيء، بنطاق السيف، أو أي شيء آخر، المهم أن تضغط على العضلة، هذا من شأنه أن يوقف النزيف ويسهل فيما بعد عمل الطبيب". فاستحسن لابينوس الفكرة، وخلع نطاقه كي يربطه حول المنطقة المصابة، بينما انصرف قيصر وانضم إلى الجنود يعيد تنظيم الصفوف.

"حافظوا على تشكيل السلاحفة! تصدوا لكل من يقترب!" صاح قيصر. لم تكن خطة مبتكرة، بل يعرفها الجميع وهذا ما سهل على الجنود اتباعها. وما أن نزل بيتاكوس من أعلى الأسوار، حتى أدرك بوضوح أن رجاله لن يتمكنوا من التصدي لأولئك الرومان الذين تسللوا إلى الداخل بالسهم

فقط، أو على الأقل لن يتمكنوا من تحقيق ذلك بالسرعة المطلوبة بحيث تعاد فتح البوابات في الوقت المناسب لدخول أنكساغوراس وجميع القوات، ليصبحوا في مأمن استعدادًا للدفاع عن المدينة ضد الجزء الأكبر من جيش العدو.

"هيا، تعالوا جميعًا معي!" أمر بيتاكوس؛ إذ لم يعد ثمة جدوى من ترك الرماة أعلى الأسوار، ولم يعد الرومان يقفون أمام الأبواب، بل تسللوا إلى الداخل. أدرك بيتاكوس أن عليه التصدي لهؤلاء الرومان الذي أظهروا قوتهم وصمودهم أمام الأبواب وتمكنوا من السيطرة على السلاسل. فأخذ زمام المبادرة كي يقتدي جنوده به، وبالفعل حمل جنوده الرماح والسيوف وكل ما لديهم لمواجهة رجال قيصر.

كتائب لوكولوس

رأى لوكولوس جبهة القتال الطويلة التي يقودها أناكساغوراس، وقرر تنظيم صفوفه وفقًا لمجموعات ثلاثية وهو تشكيل قديم ومعروف، لكنه أدخل عليه بعض الاختلافات الطفيفة. فليس معه الكتيبة العاشرة، إذ كانت تلك هي قوام جيش قيصر، لذا سوف تتصدر الصفوف وحدتان فقط، ولم تكن كافية لمواجهة كتائب العدو. لذا أمر جميع القوات المساعدة والملازمين الإضافيين بالانضمام إليها، بحيث تتبعهم الوحدات السابعة والتاسعة والخامسة والسادسة والثامنة مشكلة الصف الثاني. وأخيرًا، في المؤخرة، الوحدات الأولى والثانية والثالثة والرابعة.

وهكذا انضم المساعدون والوحدات الإضافية إلى الهجوم الغاضب ضد كتيبة أناكساغوراس. وفقا للقانون، إذ خدم الجندي على مدار نحو ٢٥ عامًا بقوة وكفاءة، يُسمح له بالحصول على الجنسية وامتلاك الأراضي الزراعية، وكل هذه الأمور كانت محفزة لهم على المدى البعيد، بينما على المدى القريب، انصبت أعينهم على فرص النهب التي باتت وشيكة لثروات المدينة، وشعروا بأنهم سوف يسيطرون عليها قبل غروب شمس ذلك اليوم.

وعليه، قاد أنكساغوراس وثيوفانيس الكتائب ضد القوات الإضافية في الصفوف الرومانية التي لم تصمد كثيرًا وانهارت بسهولة، وسرعان ما سُجلت إصابات. بعدما أصيبوا بجروح بالغة ونال العدو من كرامتهم، أمر لوكولوس بانسحابهم عبر الممرات التي فتحتها وحدات الصف الثاني، (أي السابعة والتاسعة والخامسة والسادسة والثامنة)، وبعد انسحاب هؤلاء تصدى جنود الصف الثاني للقتال بحماس بالغ، فإنتهاء هذا الحصار الطويل، بالإضافة إلى ضمان رواتبهم، عني لهم أيضًا فرصة للحصول على الثروات. كما أن إخضاع تلك المدينة أخيرًا يضمن لهم إمكانية العودة إلى أرض الوطن وكانوا قد سئموا الانتظار في تلك الجزيرة النائية.

اشتد القتال وسط صمود جنود المدينة الذين كانوا يقاتلون بالساريسا، لكن الرومان تمكنوا من كسرها بسيوفهم، كي يتجنبوا أن تصيبهم، واحتموا بدروعهم وتقدموا لخطوط المواجهة الأمامية لقتال العدو يدويًا. وهناك استمروا في طعنهم بسيوفهم الرومانية بشراسة وهكذا مُنيت مواقع متعددة من كتائب أناكساغوراس بالانهيار.

راقب لوكولوس سير المعركة وشعر بأنهم يقتربون من النصر، لكنه توقع أيضًا سقوط العديد من الضحايا بين جنوده. لقد رأى من أنكساغوراس صمودًا كبيرًا لدرجة أنه بدا مستعدًا لمواصلة القتال لآخر نفس. فكّر لوكولوس في تغيير الصفوف مرة أخرى، لكنه شعر بالحيرة، هل يأمر بتقدم الوحدات المساعدة مرة أخرى أم يستعين بالمجموعات الأكثر خبرة، الذين لا يزالون في مؤخرة الجيش. مرر يده على شفثيه بينما يفكر في الخيارات المتاحة أمامه، ثم أمر ثيرموس: "مُر بتقدم جزء من الجنود المخضرمين إلى جانب المساعدين إلى الخطوط الأمامية، وجههم إلى التركيز على الإحاطة بأناكساغوراس، أريده ميتًا، جثة هامة... الآن".

كتيبة قيصر (المدينة من الداخل)

صمد قائد القوات الرومانية داخل المدينة وواصل القتال، حتى حدد موقع بيتاكوس، قائد الأعداء الذي ظل يقاوم ببسالة، فشق طريقه بين

الرماح والسيوف، مع الفيلق في تشكيل السلحفاة، حتى وصل إليه وطعنه بقوة.

صرخ بيتاكوس من شدة الألم، وبمجرد سقوطه، تراجع الرماة بشكل غريزي تقريباً، ففر بعضهم وسرعان ما تبعهم الباقون، ثم تفرقوا في شوارع المدينة بحثاً عن مخابئ لن تضمن لهم البقاء أحياء. بعدها أسرع قيصر، برفقة العديد من جنوده، إلى أعلى الأسوار.

جيش أناكساغوراس

لم ير أناكساغوراس الموت بينما يقترب منه؛ إذ انهمك في قتال العدو في الخطوط الأمامية ليمثل قدوة لجنوده. لم يدرك أن الرومان كانوا يحشدون القوات من حوله لاستهدافه، حتى سُددت إليه فجأة عشرات الطعنات بسيوف رومانية، فسقط أرضاً على الفور. كان من الممكن أن يعني سقوطه هزيمة جيشه كلياً، كما حدث للتو داخل المدينة مع الرماة بعد سقوط بيتاكوس، لكن بعد مقتله، تقدم ثيوفانيس صفوف الجنود، وتولى القيادة نيابة عن الحاكم الفريد، وكان أول ما أمر به هو انسحاب تكتيكي. بعد ذلك مباشرة، عبر المسافة بين الجيشين، وسار نحو جنود الرومان، ترافقه حفنة قليلة من الأرستقراطيين الذين اصطحبهم معه أناكساغوراس، كرهائن، في ذلك الخروج المهلك من المدينة. لم يفتن المحاربون إلى ما يحدث، وقبل أن يدركوا ذلك، كان ثيوفانيس ورفاقه من النبلاء آمنين بالفعل في ظل حماية قسطنطين روما، وبعد ذلك استُنف القتال، وشتت الأفواج الرومانية هجوماً مستمراً لا رحمة فيه، ولم يتوقفوا حتى أبادوا جنود أناكساغوراس الذين ما يسوا وما استهانوا ودافعوا عن أنفسهم ببسالة، لكنهم استسلموا في النهاية، ولم ينج منهم سوى بضع مئات.

قال لوكولوس لثيرموس من أعلى التل الذي يراقبون المشهد من خلاله: "إنهم رجال أقوياء، سوف يصبحون عبيداً مهرة". رآه ثيرموس على صواب، لقد انتهت المعركة على نحو جيد، وبقيت مسألة واحدة وهي؛ إن يوليوس

قيصر لا يزال حيًا، يعتلي أسوار المدينة، يراقب إبادة كتيبة العدو مثل متفرج يشاهد عرضًا مسرحيًا من مكانه في أحد مدرجات الدرجة الأولى.

نظر لوكولوس إلى ثيرموس، متفهمًا لفضوله، لكنه لم يوضح له ما في الأمر. ثم نزل برفقة العشرات من الجنود من أعلى التل، ترجلوا فوق الجثث واقتربوا من أسوار المدينة حتى باتوا على بعد خطوات قليلة من البوابة الكبرى. تطلع القسطور إلى أعلى الأسوار، وكان قيصر يحدّق إليه من موقعه، فتقاطعت نظراتهما، ثم أمره:

"افتح البوابات أيها الأطربون!"

تلقى قيصر أمر قسطور روما في الشرق المُعين بأمر سولا، لكنه ظل بلا حراك؛ إنه الرجل الذي أرسله الديكتاتور كي ينصب له فخًا ينهي حياته. كان الدم يغلي في عروقه، لكنه مجرد أطربون، ورئيسه، الرجل صاحب القوة الأكبر في الشرق بأسره، أصدر للتو أمرًا محددًا للغاية، على مرأى ومسمع من الجميع.

نظر لاينوس إلى قيصر الواقف أعلى أسوار المدينة، بينما لا يزال متكئًا، بالقرب من البوابة. بدا الرعب في عينيه مرة أخرى، تمامًا كما كان قبل الدخول في القتال في بداية ذلك اليوم الطويل، ولاحظ، مثله مثل كل الجنود الذين كانوا يتحكمون في آلية فتح الباب، نبرة قسطور روما، مبعوث سولا، المتسلطة.

أخذ قيصر شهيقًا ببطء ثم زفره، لعل الهواء يمنحه الهدوء. ثم التفت إلى فيالق الوحدة الأولى وأصدر أمره الأخير في ذلك اليوم، بصوت عالٍ وواضح، آخر أمر لقيصر في حصار ميتيليني: "افتحوا البوابة!"

التاج المدني

خيمة القَسْطُور، جزيرة ليسبوس بالقرب من أسوار ميتيليني

عام ٧٨ قبل الميلاد

فتح قيصر بوابة المدينة وسيطر الرومان عليها. من المؤكد أن ثيوفانيس قد تشاور مع لوكولوس، وأعلن تخليه عن دعم جيش أناكساغوراس، وقدم ميتيليني قرباناً. مؤكداً أن شعبها لم يرغب أبداً في الحيد عن دعم الرومان، لكن غزو جيش ميثراداتس الغاشم أربكهم ولم يترك لهم من خيار إلا الاستسلام له، فقبل لوكولوس تعاونه، لكنه لم يصدق أعذاره. كان يعلم أن مواطني ميتيليني يلعبون على كلا الجانبين طوال هذا الوقت، لذلك أمر بنهب ثروات المدينة، إذ ينتظر الجنود الحصول على مكافآت تثنى جهودهم بعد أشهر طويلة من الحصار ومعاناة القتال. لم يعترض ثيوفانيس على النهب، وفي مقابل تعاونه مع الرومان توسل ألا تحرق المدينة وأن يضمن له لوكولوس الحفاظ على حياة شعبها، فالحرق عقوبة قاسية للغاية. تمكن بفضل دبلوماسيته من إقناع الشعب بقبول الاتفاقية، قائلاً لهم: "إذا تفاوضنا مع سولا بدلاً من لوكولوس، فإن ألسنة اللهب سوف تلتهم مدينتنا لا محالة، لا تنسوا ما فعله بأثينا قبل بضع سنوات".

دخل ثيوفانيس إلى خيمة القَسْطُور يحاول الاتفاق معه على شروط نهب ثروات مدينته وفقاً لبعض القيود، وسأله: "إلى متى سيستمر النهب؟". ولكن قبل أن يجيب لوكولوس على سؤاله، دخل قيصر إلى الخيمة. ولما وجدهما يتناقشان اعتذر قائلاً: "أعتذر، تم استدعائي من طرف

القَسْطُور ولم يخبرني أحد بأنه في اجتماع"، وهمّ بالخروج حتى تنتهي المفاوضات مع زعيم الطبقة الأرستقراطية المحلية، لكن ثيوفانيس رمقة بنظرة تحمل ريبة. كان هذا هو الضابط الذي تمكن، بجرأته في القتال، من الاستيلاء على سلاسل البوابات، وبفضله، أصبحت المدينة بأكملها الآن في أيدي الرومان، وقال له: "اهدأ أيها الأطربون، لست بحاجة إلى الخروج".

لم يعترض لوكولوس، بل التفت إلى الزعيم الارستقراطي وأعاد طرح سؤاله الأخير: "كنتَ تسأل إلى متى يستمر النهب؟".

"نعم" أجاب ثيوفانيس متلهفًا لمعرفة المدى الذي قد تصل إليه عقوبة روما لمدينته لأن أهلها خضعوا لسيطرة قوات ميثراداتس. أخذ لوكولوس رشفة من كأس النبيذ الذي كان على طاولة قريبة، ورمق ثيرموس بنظرة جانبية، وأجاب أخيرًا بوضوح: "حتى يحين موعد الإحراق". فارتعشت جفون ثيوفانيس في حيرة من أمره، وتملكه الرعب، وسأل بدهشة بدت ساذجة: "إحراق؟ أي حريق تقصد".

"أقصد النيران التي ستلتهم ميتيليني بالطبع" أجابه لوكولوس بإجابة محددة ودقيقة، ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة. رأى أن ما بدا بديهياً بالنسبة له مثل الرعب بعينه بالنسبة إلى محاوره.

"لكن... لكن... هذا ليس ما تم الاتفاق عليه" قال ثيوفانيس، وبدأ يتصبب عرقاً.

وقف قيصر يتابع المحادثة بينهما بوجه عابس، مطبقاً شفثيه بصرامة حتى لا يتدخل، بينما يواصل ثيوفانيس محاولاته اليائسة لمنع تدمير مدينته، جادله: "إن كنت قد شجعت الجنود على الصمود، لظلمت حتى الآن تقاتلون في شوارع ميتيليني فيتساقط المزيد من الضحايا بين صفوفكم". ثم شعر بأن ما يقوله أضل سبيلاً، فسأل مذعوراً: "هل ستقتلوننا جميعاً؟".

حل صمت مترقب، حتى وضع لوكولوس الكأس على الطاولة وأجاب: "إن لم يكن ذلك ضرورياً، فلن نفعل". حينها نكس ثيوفانيس رأسه، تنفس

الصعداء. حاول التفكير في حل يمكنه من الحيلولة دون فناء مدينته، نظر مرة أخرى وعيناه مثبتتان على القسطنطينية. لم يجد بداً من تهديده: "إذا أحرقت المدينة، سوف أجوب مدن الشرق كي أخبر الجميع بأن لوسيوس لبسينيوس لوكولوس حث بوعده، وحينها لن يعود بإمكانك التوصل إلى أي اتفاق في المنطقة كلها".

لم يُظهر لوكولوس خوفاً من هذا التهديد، بل اقتصر على الإجابة بهدوء شديد: "إذا قتلتك، فلن تكون قادرًا على إخبار أي شخص بأي شيء، أليس صحيحًا؟".

"لقد اتخذت قرارك إذن؛ هل تنكث بوعدك، وتحرق المدينة وتقتلنا جميعًا؟".

"لست مصرًا على قتل شعب ميتيليني، ولكن إذا استمرت في تهديدك، فسيكون موتك حتميًا، ولا شك أن إعدامك سيسكت أفواه بقية الناجين. إن الحرق أمر ضروري، لأنه يبعث برسالة واضحة مفادها أن روما لن تتسامح مع أي مدينة تنضم إلى جانب ميثراداتس. لا يزال الصراع مع ملك بنطس طويلًا، ويجب أن تظل صرامة روما حاضرة للغاية في أذهان للجميع...".

هنا قاطعه قيصر، بشكل لم يتوقعه أي من الحاضرين قائلاً: "ربما الإحراق ليس فكرة جيدة أيها القسطنطينية". فتطلعوا جميعًا إليه.

حملت نظرة ثيوفانيس إليه بريق أمل، بينما بدا ثيرموس متفاجئًا، ولوكولوس حائرًا بين الانزعاج والفضول. نظر إلى ثيرموس وعلق: "اسمع... اتضح لنا الآن أنه ليس لدينا أطربون جريء في القتال وحسب، بل يبدو أنه دبلوماسي محنك أيضًا".

أدرك قيصر أن مقاطعة رئيسه لم تكن فكرة جيدة، ولكن، بما أنه قد أخطأ بالفعل فمن الأفضل أن يواصل ويعبر عن رأيه كاملاً، فقال: "لم يحل إحراق أثينا في اليونان أي شيء". وقبل أن يجادل لوكولوس ضد هذه الفكرة، أنشأ قيصر يوضح: "نعم، سقطت اليونان في يد سولا، لكن الشرق، ظل يرى

أننا غزاة قساة القلوب لا تأخذنا رحمة بأي أحد أو بأي شيء، بينما يُظهر ميثراداتس نفسه، في جميع أنحاء المنطقة، ليس بصورته الحقيقية، ويكونه طاغية لا يفكر إلا في طموحه الشخصي، ولكن بصفته محرراً. قدّم نفسه على أنه الشخص الوحيد الذي يمكنه التصدي لروما، التي يراها الشرق مثل عملاق مخيف. يمكن للقسطور إصدار أوامره بإشعال النار في ميتيليني أو جزيرة ليسبوس بأكملها، وهذا بالتأكيد من شأنه بث الرعب في النفوس، ليس الخوف فقط، لكن مهما بلغ مبلغ الخوف لن يثمر عن تحالفات من شأنها أن تساعدنا في السيطرة على كل هذه الأراضي الشاسعة ويضمن سلاماً دائماً."

"بحق الآلهة جمعاء، هل علينا ترك تمرد ميتيليني بلا عقاب؟ هل هذا ما تقترحه أيها الأطربون؟" سأل لوكولوس، ثم أضاف ساخراً: "هل إخضاع مدينة واحدة من المدن، يجعلك تتطلع إلى السيطرة على الشرق بأكمله؟! أعتقد بصدق أن التطلعات الزائدة عن الحد خطأ كبير يا فتى."

لم يتراجع قيصر وواصل توضيح وجهة نظره، يستمع إليه ثيوفانيس بإعجاب. إنه يجادل القائد المؤيد القوي بثبات وعزيمة، قسّطور روما في الشرق. كان ثيوفانيس قد سمع قصة تتعلق بذلك الأطربون، الذي تجرأ على معارضة سولا بجلاله وهيبته في الماضي غير البعيد، والآن، عندما شاهده يتحدث بحسم وطلاقة أمام القسّطور صاحب النفوذ والسلطة بدأ يميل إلى تصديق تلك القصة.

"لا، لا يجب ترك تمرد ميتيليني دون عقاب، ولكن يمكن التوصل إلى حل وسط، حل متوازن بين الحزم والقسوة، بين السلطة والاستبداد. قديماً سيطر حنبعل على هسبانيا في وقت قياسي، وجمع جيوشه عبر المزج بين الموائيق والاتفاقيات مع الأيبيريين، حتى أنه تزوج من هيميلكس، وهي فتاة إيبيرية، لتقوية الروابط بينه وبين الأيبيريين الذين أراد ضمان ولائهم له."

ضحك لوكولوس ملء فيه، وعلق ساخراً: "الآن تقترح علي أن أتزوج امرأة شرقية؟ لا أعرف هل بعد الزواج مرتين قد أتجرأ وأفعلها للمرة الثالثة!".

لقد أراد الحط من قدر حجج محاوره، وبعد برهة قطع ضحكته فجأة، وحدث إلى قيصر، وأضاف: "هات كل ما لديك". فهزّ قيصر رأسه نافيًا وقال: "لا، أنا لا أقترح أن يتزوج صاحب السلطة والنفوذ للمرة الثالثة، فقط أردت ذكر مثال على نموذج اتبعه حنبعل للسيطرة على أحد الأقاليم دون استخدام القوة أو البطش، فالقسوة، في النهاية، تولد الحقد، والحقد يؤدي إلى التمردات في الأراضي المحتلة. تبنى سكيبيو الإفريقي مسارًا مشابهًا للغاية لما فعله حنبعل عندما وصل إلى هسبانيا؛ إذ حاصر العاصمة قرطاجنة الجديدة، وسيطر عليها، لكنه انتهاز الفرصة وأطلق سراح السجناء الأيبيريين الذين كان قد سجنهم القرطاجيون، وبعد ذلك دعمه الأيبيريون وخاضوا معه معارك شرسة حتى حقق انتصارات عظيمة. وفي وقت قصير، سيطر على هسبانيا."

"وهو ما يثبت أن حنبعل، الذي تزوج آيبيرية وفعل ما لم يفعله أحد، لم يحقق تحالفات قوية للغاية بالمزج بين القوة وكرم الأخلاق" احتج لوكولوس، مشتعلًا من الغضب، ومنغمسًا تمامًا في النقاش.

"ولم لا تقل إن الأمر يرجع إلى أن سكيبيو الإفريقي سار على نهجه، فحقق نتائج مشابهة. الآن يستخدم ميثراداتس القوة فقط، ومواجهته باستخدام القوة فقط أيضًا تجعل القتال من أجل السيطرة على الشرق أبدئيًا، كما حدث عندما حل كاتو الأكبر محل سكيبيو في هسبانيا وتقدم بإراقة الدماء وإضرار النيران، ونتيجة لذلك أضعنا عقودًا لاستعادة السيطرة على هسبانيا. الأمر نفسه هنا؛ إذا احترقت ميتيليني، سنقوي صورة المحرر الذي يصدّرها ميثراداتس لنفسه، أما إذا أظهرت كرم الأخلاق في تعاملك مع المدينة، يمكن لمدن أخرى في الشرق أن تنضم إلى جانبك، ومن ثم تضعف مكانة ملك بنطس... مما يقلل من عدد المعارك وعدد القتلى من الجنود".

حينها اتفق معه لوكولوس وعبر عن ذلك بإيماءة تأييد، وعلق معترفًا: "قد تكون على صواب..."، لكنه لم يعبر عن كل أفكاره بصوت عالٍ، بل آثر تغيير اتجاه المناقشة: "رغم أن هسبانيا في حالة تمرد الآن"، في إشارة إلى الانتفاضة التي يقودها سرتوريوس والقادة الشعبيون الفارون.

"إنه ليس تمرّدًا من قبل الأيبيريين، ما تشهده هسبانيا هو...". حاول أن يزن كلماته جيّدًا: "... امتداد لصراع بين حزب البيبولاريس والأوبتيميتس لم تخدم جذوته بعد، لا علاقة للأيبيريين به".

أوما لوكولوس مرة أخرى، وقال: "ربما تكون محقًا، لكن ثمة أمورٌ أخرى يجب مراعاتها، فرجالي بحاجة إلى الذهب والنساء. كيف نحقق لهم ذلك دون نهب وحرق المدينة وأسرفياتها ونسائها وعبيدها؟ أم تقترح أن أترك الجحافل دون غنائم يتوقون إليها، بعد انتظار لشهور طويلة من الحصار؟ هل أضرم مدن المشرق إلى جانبي وأترك جيشي يتمرد ضدي؟".

عندئذ التفت قيصر إلى ثيوفانيس، ففهم مقصده وبدأ في اقتراح الحلول: "يمكنني جمع كميات هائلة من الذهب والفضة لتوزيعها على الجنود، كما أستطيع شراء الجوّاري من قرصنة قيليقيا، وهكذا دون نهب تحصلون على الذهب والفضة على الفور، والنساء في غضون أيام قلائل، وسوف يرضى الجنود".

"لا نهب ولا حرق لنبعث برسالة تنم عن كرم الأخلاق إلى باقي مدن الشرق، من أجل هز صورة ميثراداتس" قال لوكولوس وكأنه لم يستطع تصديق الكلام الذي يخرج من فمه. ثم وتريث يحاول لملمة أفكاره، وسط صمت الجميع، وبعد برهة، تفرّس في وجه زعيم الطبقة الأرستقراطية المحلية، ونطق بقراره النهائي: "فليكن، غدًا أسلم الذهب والفضة لأتولي توزيعهما على الجنود. سوف يهدّئهم المال لبضعة أيام، وأريد الجوّاري في أسرع وقت ممكن".

"كل شيء سوف يتم حسب الاتفاق أيها القسّطور" علق ثيوفانيس بين متشكك ومبتهج. كانت مدينته على شفا الهلاك تحت ألسنة اللهب، ونساؤها على وشك التعرض لاغتصاب وحشي، زُحزح سيف المعتدي عن رقبتة بما يشبه معجزة. فجأة تغير كل شيء، فقد اشترى حياته وحياة مواطنيه بالمال. صحيح أنهم باتوا على وشك الإفلاس فسوف يجمعون كل ما لديهم من الذهب والفضة وينفقون ما يتبقى لديهم لشراء الجوّاري من

قراصنة قيليقيا، إلا أنه قبل مبتهجًا بالإفلاس، طالما أنه ينقذ شعب المدينة من التعرض للنهب والحرق العمد والقتل والاعتصاب الجماعي، وجرائم أخرى لن يتمكنوا من التعافي منها على مدار أجيال كثيرة مستقبلية.

انحنى ثيوفانيس أمام القسطنطين وقائد الحصار، ثم استدار ووجه إلى الأربون الشاب الذي دافع بشكل غير متوقع عن قضيته نظرة تحمل الكثير من المعاني، بعد ذلك انصرف إلى خارج الخيمة. عرف قيصر أن هذا الرجل سيذكر وجهه إلى الأبد، فقط الوقت هو ما سيخبرنا ما إذا كان سيذكره على نحو جيد أم سيء، هذا إذا تقاطعت طريقيهما مرة أخرى.

نظر لوكولوس إلى أحد العبيد ليعيد ملء كأسه بالبيد.

"لقد طلب سيادة القسطنطين، وأتفهم أن ثمة سببًا آخر لاستدعائي، وليس لحضور المفاوضات مع زعيم ميتيليني" قال قيصر. فأجاب لوكولوس بود غير متوقع ووجه بشوش على غير عادته: "أجل، لكن من فضلك استرخ قليلًا، لقد انتهت المعركة، وكذلك النقاش حول حرق المدينة من عدمه". كان لوكولوس مبتهجًا بحق، وكلما فكّر في الأمر، زاد إعجابه بالنهج الجديد للسيطرة على ميتيليني، لكنه استدعى الأربون الشاب، القائد الباسل، الذي بدأ أيضًا مفاوضًا محنكًا، من أجل مسألة أخرى. الآن فقط أدرك بوضوح أن هذا الشاب بالفعل كان بإمكانه إقناع ملك بيتانيا بتوفير السفن للأسطول الروماني حتى وإن تهرب من مسيرته في رغباته الشاذة، نظرًا لطلاقته وفصاحته وقدرته على التفاوض.

قدمت المزيد من المشروبات على الطاولة إلى جانب وعاء يحوي فاكهة حمراء اللون، فدعاه القسطنطين: "اشرب معنا". لكن قيصر تريب، واحترار فيما يجب عليه فعله، فهو يقدر حياته أكثر من خوفه من تلقي العقوبة، فاعتذر منه قائلاً: "أنا... متعب قليلًا، أفضل ألا أشرب". أذهلتها إجابته، وارتسمت ملامح جادة على وجه لوكولوس... القائد الأعلى لا يدعو وإنما يصدر الأوامر. حتى ثيرموس لم يستطع تصديق رد فعل ذلك الأربون الشاب، بدأ يصدق القصص التي رويت عن رفضه لأوامر سولا بتطبيق زوجته حتى

انتهى به الأمر هاربًا من روما لعدة أشهر إلا أنه واصل صموده حتى مرض في مستنقعات إيطاليا وكاد أن يموت.

مرر لوكولوس راحتي يديه على شفثيه لوضع لحظات، ثم أزاكما، واستمر في الحديث، متجاهلاً الازدراء الذي أظهره له قيصر: "لقد قاتلت بشجاعة، لم تتبع خطتي بدقة، بل قمت بتعديلها دون استشارتي، لكن النتيجة كانت رائعة، وقد تحققت الهدف الأساسي المتمثل في السيطرة على المدينة. علاوة على ذلك، أنقذت حياة أحد الضباط، صديقك، هذا الأطربون... ما اسمه؟".

"تيتوس لاينوس أيها القسطنطين".

"نعم، صحيح لاينوس. كل هذا يجعلك تستحق بلا شك الحصول على وسام عسكري، لذا سوف نمنحك التاج المدني".

بقي قيصر صامتًا، يفكر بعمق. يأتيه التكريم من طرف الرجل الذي أرسله سولا للتخطيط لموته... كان على يقين من ذلك. لقد عرض مقترحاته حول فائدة عدم حرق ميتيليني، من أجل الصالح العام لروما في المنطقة، وليس لأنه وثق في لوكولوس.

لم يفهم ثيرموس أي شيء أيضًا، لم يرَ الهدف من مكافأة شخص أراد سولا قتله.

"أنت شخص غريب الأطوار يا غايوس يوليوس قيصر. لا تبدو سعيدًا بالتكريم، تحتقر دعوة القائد لكأس من النبيذ في خيمته، وتقاطعني عندما أتفاوض على شروط الاستسلام وحتى تتدخل لتعديلها، وتجادل. أعترف بأنك تتمتع بذكاء وفصاحة ولم تخش مقاطعتي، أنت بالتأكيد... شخص غريب الأطوار. هل ستوافق على تذوق هذا النوع من البرقوق على الأقل؟ جلبته من مدينة غيرسون (تركيا)، أعتقد أنها مناسبة للسوق الرومانية، حتى إنني حملت معي عددًا من أشجارها في أصنائص كبيرة، حملتها على أحد سفني، لأقوم بزراعتها عندما أعود. لماذا لا تتذوق وتخبرني إذا ما أعجبتك

أم لا؟ فأريك يهمني. يبدو أنك تتمتع بحدس فطري، وهو ما دفعك إلى التقدم نحو بوابة ميتيليني بدلاً من الإصرار على مقاومة كتيبة أناكساغوراس، وأرى أن الحظ حليفك دائماً" علق القسطنطين.

تفحص قيصر الوعاء، وألقى نظرة على تلك الفاكهة الحمراء، لكنه لم يقربها. ظل ساكناً، بلا حراك، ابتلع لعابه، لم يكن الرفض مرة أخرى فكرة جيدة، لكن إصرار القسطنطين على أن يشرب أو يأكل... لم يعجبه. بالنسبة له، كان لوكولوس لا يزال مبعوث سولا إلى الشرق ومهمته إنهاء حياته، كان على يقين من أن خطة مهاجمة ميتيليني قد تم تصميمها بحيث يُقتل في ساحة المعركة، إذ تذكر البيلوم التي تركها رجال لوكولوس، في ظروف غامضة، في المعسكر. إذا أراد القسطنطين موته، فقد يُقبل على تنفيذ ما يريد بشتى الطرق، لذا لن يسهل عليه مهمته بتذوق ثمار مسمومة.

تفرّس لوكولوس في تعابير وجه قيصر، وفطن إلى ما يدور داخل عقله، لقد كشف السر وراء خطة الهجوم. وإدراكه لذلك جعله يعتبر رفضه للشرب أو الأكل في الخيمة منطقياً، لم ينبع من ازدراء له أو شيء من هذا القبيل، إنما يسعى الشاب للحفاظ على حياته وضمان بقائه على قيد الحياة. ولكي يقنعه، نهض لوكولوس بثقل، ترفق في مشيه نحو الطاولة، والتقط إحدى الثمار وقال: "بل تعجبنى، حلوة المذاق، وعصارتها وفيرة... في منتصفها بذرة لكنها مكتنزة" وأخذ ثمرة أخرى، هذه المرة دون النظر إلى الوعاء، بشكل عشوائي، وقربها إلى فمه وأكلها، وألقى بالبذرة أرضاً، ثم عاد للجلوس.

فهم قيصر أن المقصود من وراء تلك المحاولة هو طمأنته، لكن يمكن أن يكون القسطنطين قد سمم بعض الثمار دون البعض الآخر، وعندما تذكر أنه التقط آخر ثمرة دون النظر إلى الوعاء، اطمأن قليلاً، واقترب من المائدة. أمسك بواحدة، ووضعها في فمه، أخذ يلوكها ثم ابتلعها وبعث بالبذرة ووضعها في طبق آخر بجانب وعاء الثمار، وقال: "إنها شهية، سوف تُباع بشكل جيد، تبدو استثماراً مناسباً".

واقفه لوكولوس الرأي، وأمره: "يمكنك الانصراف، غداً نسلمك التاج المدني". فانصرف قيصر بعدما ألقى التحية العسكرية.

عندما أصبحا بمفردهما أبدى ثيرموس دهشته وحيرته، فقال للقسطور: "أنا لا أفهمك، كنت قد أتيت إلى ليسبوس من أجل التخطيط لمقتل قيصر بناء على تعليمات سولا، والآن تكافئه. سوف يقتلك سولا، ويقتلني أنا أيضاً لأنني لم أستطع ثنيك عما تفعله".

بدا القسطور غير منزعج من تعليق قائد حصار ليسبوس، وحدث إلى كأس النبيذ الفارغة، وأجابته: "لقد مات سولا".

سقط الصمت على الخيمة.

وصل ثيرموس إلى غاية الدهشة، فأوضح له: "هل تذكر المبعوث الذي جاء إليّ بينما كنا على ظهر السفينة؟". ولما ظل ثيرموس صامتاً، أضاف: "كان هذا هو الخبر الذي جاء به من روما". الآن فهم قائد الحصار ما في الأمر، حدّق إلى الأرض لبرهة، ثم رفع رأسه وسأله: "إذن... هل ستكرّمه؟".

"لقد أنقذ أحد الضباط، وخاطر بحياته، ربما يكون قد أنقذ حياة العديد من الجنود خلال اقتحام بوابة المدينة. من المؤكد أنه بفضل ما أنجزه تمكّنا من السيطرة على ميتيليني. إنه يستحق التاج المدني. يجب أن أواصل فرض السيطرة الرومانية على الشرق، إنها مهمتي التي سيحاسبني عليها مجلس الشيوخ. هل تعتقد أن القوات ستحترمني إن لم أسلم التاج المدني لمن يستحقه؟ هل تظنني قادراً على الحفاظ على الانضباط إن لم أفعل ذلك وأمثل لتقاليد لجيش؟ أنا قائد متطلب مع رجالي، لكن علي أن أكافئهم عندما يتصرفون ببطولة، وذلك الأطربون الشباب أظهر بطولة لا غبار عليها".

شعر لوكولوس بالإرهاق، فاقمه إضطراره إلى تقديم الكثير من التفسيرات. أحس ثيرموس بذلك، فسلم بأمر التكريم، بعدما علم نبأ وفاة الديكتاتور السابق، ما يهمه الآن أكثر هو تفاصيل الوضع برمته، جالت في

خاطره فكرة، فقال: "بعد موت سولا، لن يبقى شيء على حاله في روما، ترى من سيحكم الآن؟".

شبك لو كولوس أطراف أصابع يديه معًا، وشرد يفكر في المشهد السياسي الحالي، ثم قال: "سوف نرى، ميتيلوس العجوز في هسبانيا يواجه الحرب السرتورية. ثمة نسور كثيرة في روما، وكراسوس أحدهم، لكن بالنسبة لي، أرى أن بومبيوس هو الأقوى بلا منازع، وقريبًا سيتولى قيادة الأوبتيميتس. لكنّ دابر البيولاريس لم يُقطع بعد، يمثل سرتوريوس جبهة نضال في هسبانيا، وفي روما، أظهر تمرد لبييدوس أن الفصيل الشعبي لا يزال موجودًا، وأنا أرغب في تقاعد هادئ. إن قتل قيصر، ابن صهر ماريوس، قد يصنفي عدوًّا للفصيل الشعبي، ولا أستبعد أن يتمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم سعيًا للانتقام. لا أنوي التورط في هذه الحرب الأبدية بينهما... أنا حقًا متعب. ومن ناحية أخرى، وقبل أي شيء آخر، أعلن سولا عفوّه عن قيصر، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح" أجاب ثيرموس وهو يحرك رأسه علامة التأييد.

"حسنًا، فهو معفو عنه، ونال التاج المدني لشجاعته، ومن الآن فصاعدًا لن يهمني أمره. وبعدها أنهي مهمتي في الشرق، أنتوي التقاعد وسوف أنشغل بزراعة تلك الأشجار في روما، تلك الثمار اللذيذة حمراء اللون، وسأسعى لبيعها. لقد سئمت الحروب، ميثراداتس والحرب الاجتماعية، والحرب الأهلية..."، ثم وقف يلتقط ثمرة أخرى من تلك الثمار الحمراء ويضعها في فمه، وأضاف: "لقد جلبت أشجارها من مدينة غيرسون وسوف أسميها... الكرز".*

المشفى الميداني

دخل قيصر المستشفى الميداني يتفحص المرضى. مر بقائد المائة الذي تولى أمر الوحدة الأولى وأنقذ حياته عندما أسرع هو لمساعدة لاينوس،

* نوع من الكرز جلبه لو كولوس إلى روما في القرن الأول قبل الميلاد.

وكان يرقد على أحد الأسرة، وعلى أحد ذراعيه وساقه ضمادات، فسأله: "كيف حالك الآن يا قائد المائة؟".

"بخير أيها الأطربون، أخبرني الطبيب بأنها جروح سطحية، سوف أتعافى منها سريعًا" أجابه دون أن يقدر على النهوض لتحيته بالتحية العسكرية، أدهشه أن يهتم هذا الشاب الأرستقراطي بصحته.

"أتمنى ذلك، روما بحاجة لضباط مثلك، ما اسمك؟".

"غايوس فولكاسيو تولوس، قائد المائة على الوحدة الأولى ضمن المجموعة العاشرة، فيلق...". فقاطعه قيصر مبتسمًا: "أعرف أنت في أي فيلق، ربما نقاتل معًا مرة أخرى".

"سيكون الشرف لي أيها الأطربون".

أومأ له قيصر امتنانًا، وتقدم عبر أسرة المصابين حتى وصل إلى لاينوس. وحالما وجده، سأله: "كيف أصبحت؟".

"سأنجو، يجب أن أتعافى، وإلا فلن يكرموك" أجابه مبتسمًا. فابتسم قيصر أيضًا، ثم تجهّم وجهه وسأله: "لكنني لا أفهم تمامًا ما الذي يريده لوكولوس، فهو أولًا وضع خطة مصممة على أساس أن نهلك جميعًا في القتال. أنا متأكد من أن سولا أرسله إلى ليسبوس من أجل القضاء عليّ وعليك أيضًا لأنك تصر على البقاء إلى جواري". وبخه قيصر بنبرة مازحة ثم أردف: "ولا أفهم لماذا يكرمني الآن!".

"ثمة شائعة تنتشر في أرجاء المعسكر".

"أي شائعة؟".

مكتبة

t.me/soramnqraa

"يقولون إن سولا مات".

جلس قيصر بتأنٍ من هول ما سمعه على كرسي إلى جوار سرير صديقه، يستجمع أفكاره ثم سأله: "كيف حدث ذلك؟ هل حيكت مؤامرة ضده؟".

"لا، بل حدث ذلك أثناء سهرة حمراء في حصنه ببتولي. تعرف أنه لا يتقي مأثمًا ولا يهاب منكرًا. أفرط في الأكل والثمالة والعريضة مع الجوارى حتى مات مثل خنزير بائس".

أومأ قيصر برأسه برفق عدة مرات. الآن فهم سبب تغيير أسلوب لوكولوس معه، وأنه لم يعاقبه، بل يسعى لتكريمه، وعلق: "هذا يفسر كل شيء، بموته تصبح تصرفات لوكولوس منطقية".

تقاسما بضع لحظات من الصمت، بضع لحظات من الهدوء بعد الكثير من القتال والدماء والموت، حتى سأل لابينوس: "ما الذي تتوي فعله؟".

"أود العودة إلى روما، أفتقد كورنيليا، وابنتي، وأمي، وأختي، والجميع. افتقد مدينتي" أجابه قيصر بحزم.

"هل تعتقد أن لوكولوس سيسمح لك بذلك؟".

"مع وفاة سولا، نعم. لقد أنجزنا المهمة الدبلوماسية في بيتانيا، وها قد أنهينا أمر ليسبوس. إذا سأله العودة فلن يمانع".

راه لابينوس على صواب، واتفق معه في الرأي. وبعد صمت لفترة، سأله محاولاً تغيير الموضوع: "وكيف يبدو التاج المدني ذلك؟".

"إنه يشبه الإكليل، ينسج من أوراق السنديان" أوضح قيصر، الذي كان على دراية جيدة بجميع التيجان التي تُمنح لأفراد الجيش الروماني. يرجع اهتمامه بهذا الأمر إلى ولعه الشديد بكل ما هو عسكري، تأثرًا بزوج عمته، غايوس ماريوس. ثم أضاف ساخراً: "وهو ليس تاجًا ذهبيًا على أي حال".

"لا تلتفت إلى ثمنه وقدره؛ فقيمته الحقيقية تكمن فيما يمثله ويرمز إليه" علق لابينوس، وهو يضع يده على ساقه المصابة وينظر إلى صديقه بامتنان أبدي.

"حقًا، قيمته المعنوية" اعترف قيصر.

المحاكمة (٧)

الحكم النهائي

قرار المحكمة بإجماع القضاة

باسيليكاسيمبرونيا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد

منصة المُتهم

ظلت الحشود التي امتلأت بها الباسيليكاتصفق بحماس بعد خطاب غايوس يوليوس قيصر الأخير، بينما عاد ليجلس بجانب لاينوس، فاستقبله بحفاوة وقال له وهو يربت على كتفه: "لقد أبلت بلاء حسنًا"، إلا أنه بدا جادًا للغاية. أخذ يقلب في أوراقه، وأخرج جزءًا من تاج من أغصان السنديان الجافة. لقد جف تاجه المدني بالفعل، وتغير لون أوراقه إلى البني. عندما لمح، همس له لاينوس: "هل أحضرت معك التاج المدني".

ابتسم قيصر، ثم استعاد الجدية على الفور وأوضح له: "تمنيت أن يجلب لنا الحظ، على الرغم من أنني لا أعتقد أنه حتى التاج سوف ينقذنا من هذا الموقف أمام هؤلاء القضاة".

احتشد السناتورات حول بومبيوس. تصفح دولابلا وجوههم، وقيصر أيضًا. وفجأة، أدار المدعى عليه رأسه بغضب فتقاطعت نظراته مع نظرات قيصر... وأطالا النظر. لكن دولابلا كان أول من يصرف نظره بعيدًا. علم المحامي أن ذلك لم يشر إلى أي ضعف من جانبه، وإنما فقط أراد مراقبة القضاة الذين كانوا لا يزالون حول رئيس المحكمة، رغم أنه لم تكن ثمة مداولات بينهم.

لاحظ قيصر ولاينوس أن القضاة لم يطلبوا وقتًا للمداولة واكتفوا بالتجمع حول بومبيوس، تبادلوا بضع جمل، تراقبهم أعين الجميع. شاهدا

كيف أن بومبيوس كان يحرك رأسه موافقًا باستمرار، وكذلك يفعل باقي القضاة، بدوا جميعًا متفقين. ثم سرعان ما عاد كل إلى مقعده، بينما بقي بومبيوس واقفًا، وهو يستشعر بأن أعين دولابيلا منصبة عليه، كما كان موقنًا من أن الحكم غير عادل. فظن إلى أن المحاكمة انطوت على أمور كثيرة أعلى شأنًا من فساد دولابيلا، وشاهد كيف حاول قيصر تحويل تلك الجلسات إلى مواجهة مفتوحة ضد الأوبتيميتس، إلى حد التهديد بالتمرد. لذا أدرك أن الحكم النهائي يجب أن يكون مطلقًا ونهائيًا وغير قابل للاستئناف.

خطى خطوتين للأمام نحو الجمهور، الذي يصفق لقيصر، وأعلن الحكم النهائي بصوت عالٍ: "قررت هيئة المحكمة الحكم ببراءة المتهم، بإجماع الآراء".

وهكذا أعلنت براءة سنيو كورنيليوس دولابيلا من جميع الجرائم التي وجهت إليه؛ الحاكم الذي لم يتق مأثمًا قط ولم يخش منكرًا أبدًا. لم تره المحكمة مذنبًا عندما فرض ضرائب زائفة من أجل ثرائه الشخصي، ونهب معبد أفروديت، واغتصب الفتاة ميرتل. باختصار هو بريء أمام القانون، لأن المحكمة اعتبرت أن جميع التهم الموجهة ضده غير مستندة على أدلة.

هو الآن بريء من كل ذنب وخطيئة، فاسترخى في مقعده، ارتسم الارتياح على وجهه. عاد بومبيوس إلى مكانه، بملامح جادة للغاية، لقد أتم المهمة التي أوكلت إليه، وهو يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا من أن يعث به العايب.

صُفح المواطنون الذين كانوا يصفقون للتو للمتهم... كُتبوا، فصمتوا دفعة واحدة. كان الأمر أشبه بالاصطدام بجدار أصم لا يمكن تجاوزه، صدمة قاسية بعدما ظنوا أنهم على مشارف النصر. لكن، لا، لا يبدو أن الأوضاع في روما قد تتغير أبد الدهر.

تهاوى قيصر على مقعده، منكس الرأس... هو الآن يجسد صورة حية للهزيمة. قوضت كل آماله بعد ما بذله من جهد. وجد أنه لم يتقدم خطوة

واحدة إلى الأمام، بل -وعلى ما يبدو- عاد إلى الوراء. هو الآن صورة محطمة لقائد ظنّ العامة أنه سيعيد أمجاد ماريوس. بلغ الهم واليأس منه مبلغهما في نفسه.

تحت حنية الباسيليكا

نهض دولايلا بيهجة من مقعده وسرعان ما التف حوله سيناتورات الأوبتيميتس يحفلون به، بعضهم كانوا ضمن الحضور، والبعض الآخر من أعضاء المحكمة، اقتربوا منه لتهنئته دون أن يدخلوا من أنفسهم.

منصة المُتهم

ظل قيصر جالسًا. صحيح أن الحكم كان متوقعًا، لكن الإجماع تركه عالقًا في تفكير لن يوصله إلى أي شيء. لم ينجح في حث قاضٍ واحد منهم فقط كي يعلن اختلافه مع البقية. كرر مرارًا وتكرارًا: "لم تمس خطبي قاضيًا واحدًا منهم...".

وقف لابينوس، وحته على النهوض قائلاً له: "القاعة مليئة برجال الأوبتيميتس، من الأفضل أن نخرج من هنا وبسرعة. لقد تواصلت مع بعض المحاربين القدامى الذي حاربوا في صفوف عمك ماريوس قديمًا. سوف يرافقونا حتى نصل إلى حي سوبورا. في منزلك نصبح في مأمن. إن القتلة والأوبتيميتس لا يحبون الدخول إلى سوبورا، يعتبرونه معقلًا للفصيل الشعبي، بينما يفضلون تنفيذ جرائمهم في المنتدى. علينا أن نذهب الآن".

جلس قيصر مدهوشًا من حجم الكارثة التي حلت عليه، فقال يائسًا: "لم تمس كلماتي قلب أو عقل قاضٍ واحد منهم فقط. لقد قُضي علي، كما قال خالي كوتا".

"لنذهب الآن" قالت أوريليا لزوجة ابنها، بينما تعلق كورنيليا ببقصر واستأذنتها: "إنه محطم تمامًا، عليّ أن أذهب معه كي أعينه في وحشته". لكن رفض أوريليا جاء قاطعًا: "لا! لا أحد هنا بأمان!" ثم أضافت بنبرة اللف: "سيأتي دورك في دعمه عندما نعود إلى المنزل".

كانت الفتاة أيضًا محبطة من النتيجة التي انتهت إليها المحاكمة، فكبر همتة وسعة أمله في أن تنتهي المحاكمة على نحو غير المتوقع حمستها وجعلتها تأمل في التغيير. لم يكن لديها أي طاقة لمعارضة والدتها زوجها، فانصاعت لها، وغادرتا مقر الباسيليك تحت حراسة عبيد عائلة جوليا.

في الشارع أمام الباسيليك

تجمع بيرديكاس وأيرووبوس وميرتل وغيرهم من المقدونيين الذين جاؤوا إلى روما لحضور جلسات المحاكمة في الشارع أمام الباسيليك. لم يكن أوريستس العجوز بينهم، بل مكث في البيت واهنأ يعاني أمراض الشيخوخة، إذ لم تتوقف حالته الصحية عن التدهور منذ يوم إفادته أمام هيئة المحكمة.

"لقد جربنا بالفعل مسلك العدالة الرومانية، الآن نحقق ما نتوق إليه بطريقتنا الخاصة" علق بيرديكاس. تبادل أرخيلوس وأيرووبوس النظرات، ثم التفتوا إلى بقية المقدونيين، اتفقوا جميعًا على قرار واحد. بعد ذلك أخرج بيرديكاس خنجرًا من بين ثنايا رداءه، وحذا الآخرون حذوه، وأظهروا خناجرهم.

"أريد خنجرًا" طلبت ميرتل، فتفاجأ الجميع. ولمّا نظر بيرديكاس إلى والد الفتاة، أشار إليه بالقبول وقال له: "أعطاها واحدًا". حينها سلّمها بيرديكاس خنجره وهو يقول: "خذي يا ميرتل، لذي آخر".

دنا بومبيوس من دولابيللا، فصاح السناتور المخضرم الذي أعلنت براءته للتو في جنوده: "تركونا بمفردنا، ابتعدوا، بحق هرقل!".

"الآن ليس الوقت المناسب لفعل أي شيء" حذره بومبيوس.

"توقعت أنك لن تأمر بحملة اعتقالات، سولا على حق. لقد بعثت لك بخطاب أثناء الجلسة الأخيرة أخبرتك فيه بما يجب فعله، لكنني لا أراك تمتلك الشجاعة الكافية لتنفيذ ما وجهتك إليه. لكن لا بد أن يموت قيصر، ابن صهر ماريوس اللعين، يجب أن يموت الآن، قبل أن يكبر، قبل أن يتحول إلى ماريوس جديد. أنت لم تفتن إلى حقيقته من قبل، ولا أنا أيضًا، سولا وحده كشفه، لكن التظاهر بعدم الإدراك الآن يخيب آمالي بشدة. ألم تر إلى أي مدى وصلت قدراته وما يمكنه تحقيقه بينما لا يزال عمره ٢٣ عامًا فقط؟ لقد تصدى لنا جميعًا، وعندما كان عمره ١٨ عامًا وقف في وجه سولا وعارضه أمام الجميع، وحصل على التاج المدني وعمره ٢٢ عامًا. هل تريد حقًا منحه الفرصة ليكبر؟".

"لقد برأتك المحكمة بالإجماع من جميع الاتهامات" أجابه بومبيوس، ليؤكد ولاءه له على وجه الخصوص، وللأوبتيميتس بشكل عام.

"إن كبح جماح قيصر ذاك يتطلب أكثر من حكم بالبراءة".

"لقد هُزم، غُلب، تطلّع إليه كيف يبدو الآن" أشار بومبيوس نحو البوابة، إذ كان قيصر يتقدم منكمشًا منكس الرأس، يمشي متعثراً يجر قدميه الثقيلتين، وأضاف: "إن عقله بات مشوشًا، ومستقبله السياسي انتهى بالفعل، وهو يدرك ذلك جيّدًا. قبل المحاكمة لم يكن له شأن، والآن يدرك تمام الإدراك أنه لن يصبح شيئًا في المستقبل. لقد وئد الأمل في قلبه. لا داعي لقتله، ولم يحن الوقت بعد. لم تمر سوى أشهر قليلة على إخماد انتفاضة لبيدوس الشعبية، وأرى أنه ليس من الضروري إثارة البلبة من جديد".

تطلّع دولابيّلا إلى قيصر، راقبه من بعيد، ثم حرك رأسه رافضًا، وقال: "سوف ينتصب عندما يفيق من هول الصدمة، سوف ينتفضون من جديد، لكنني لن أسمح بذلك". ثم ابتعد عن محدثه وعن بقية أعضاء مجلس الشيوخ، وقال مخاطبًا عبّيده والقتلة الذين استدعاهم بومبيوس لتأمين المحاكمة: "اتبعوني". أمرهم دون أن يرفع صوته بتلك النبوة السلطوية التي يمتلكها البعض والبعض الآخر لا يحصل عليها أبدًا، فتبعه القتلة دون تردد. لقد كان دولابيّلا هو السناتور الذي يدفع أكثر للحراس مقابل الطاعة الكاملة لأوامره.

عدالة مغايرة

منتدى روما، قرب مقر المجلس التشريعي، عام ٧٧ قبل
الميلاد

تجمّع المقدونيون في زاوية بالقرب من مجمع الحوانيت، في انتظار خروج دولابيللا. أعدوا خطة مرتجلة؛ سوف يتبعونه حتى ينعطف إلى أحد الأزقة الأقل ازدحامًا ومن ثم يحاصرونه ويجهزون عليه حتى تقتلع روحه من جسده. ولما علموا بأنه يرافقه عددٌ من القتلة تلاشت آمالهم في النجاة كما لم يثقوا تمام الثقة في قدرتهم على تحقيق ما يرجونه. لقد انتظروه لشهور طويلة، لكن ليس هذا ما يهم، الشيء الوحيد المهم الآن هو المحاولة. رأوا أنهم أضاعوا الكثير من الوقت بانسياقهم وراء رأي العجوز أوريستيس واللجوء إلى القضاء الروماني، وها هي العدالة الرومانية قد أطلقت حكمها النهائي، وبرأت المذنب، دون أن تعوضهم عن تدنيس شرفهم أو نهب وضياع أموالهم بأي شكل من الأشكال، لذا رأوا أنه قد حان الوقت كي تأخذ عدالتهم مجراها.

وقفوا تحت قبة السماء الملبدة بالغيوم، رأوا البرق يومض في ومضات قصيرة لامعة. لم يمض وقت طويل حتى دوى الرعد فوق مدينة روما، وبدأت السماء تمطر، وفي وضع مثل هذا يستحيل - في الواقع - ألا تتفجر الغيوم مطلقة أمطارها. وبالفعل استمر هطول المطر منذ بضعة أيام، منذ الجلسة الأولى من المحاكمة، التي بدت الآن جزءًا من الماضي، حُشرت في مكان قصي في ذاكرة الجميع. تأملت ميرتل الطبيعة من حولها، وهمست: "إنها ئيسالونيكى، أخت الإسكندر قادمة للثأر" وسمعتها بقية المقدونيين.

"ليس ثمة بحر أو حورية البحر هنا يا ابنتي" أجابها آيروبوس.

"النهر فاض بسبب عواصف الأيام القليلة الماضية" قالت بإصرار؛ لقد كانت ثقتها في انتقام ثيسالونيكي راسخة، ربما يرجع ذلك إلى احتياجها إلى التمسك بشيء ما. لقد دُئس شرفها، وباتت محترقة من قبل بعض المقدونيين، حتى بيرديكاس، الذي أنقذها من محاولة الانتحار بعدما اغتصبها دولابيل، أصبح باردًا معها، والمحكمة لم تعد لها شرفها ولم تدين مغتصبها. بات مُقلًا في حديثه معها، على غير عادته. لكن تمسُّكها بقوة لعنة ثيسالونيكي بقي الشيء الوحيد الذي يجعلها قادرة على النهوض من جديد، ويمنحها القوة الكافية لتحمل حضور جلسات المحكمة، التي ثبت عدم جدواها، فبقيت لها ثيسالونيكي وحدها، وعلقت آمالها عليها.

"سوف تساعدنا" قالت الشابة مرة أخرى، بعدها بدأت العاصفة تشتد أكثر. لقد قالها دولابيل بصوت عال وواضح في الباسيليكا، قال إن الإسكندر مات. تطلَّعت الفتاة إلى السماء بأعين براقعة، وأضافت: "لقد سمعته، سمعته ثيسالونيكي، وسوف تثار منه".

غطوا رؤوسهم جميعًا بالقلانس، بينما ينتظرون في ترقب، وأعينهم معلقة على باب الباسيليكا. رأوا زوجة المُتهم وأمه تغادران، فتنحوا جانبًا كي يفسحوا لهما المجال.

داخل باسيليكا سيمبرونيا، بجوار البوابة

"ذهبت والدتي وكورنيليا من هنا" قال قيصر.

"إذ نذهب نحن في الاتجاه الآخر" أوقفه لاينوس.

"هل ترى أن علينا اتخاذ طريق آخر؟" كان قيصر لا يزال مرتبكا ومشدوها، لم يفق بعد من صفة الفشل، يمسك بلقائف البردي التي تحوي ملاحظاته، وبقايا التاج المدني الذي لم يجلب له الحظ كما أمل، أو على الأقل لم يكن كافيًا وحده. ظل ذهنه شاردًا لذا لم يركز على الوضع الراهن

ولم يلتفت إلى الخطر المحقق، به ضرورة أن ينجو من تعقب قتلة دولابيل له.

"انظر" قال لابينوس حتى يثبت لصديقه خطورة الموقف، مشيراً إلى دولابيل و ٢٠ قاتلاً كانوا يتقدمون ناحيتهم مباشرة: "إنهم قادمون من أجلنا، من أجلك أنت قبل أي أحد آخر. إتبعني سوف نذهب إلى حي سوبورا عبر طريق آخر، وهكذا، على الأقل، نستدرجهم بعيداً عن عائلتك".

حينها استجاب له قيصر، فإنقاذ والدته وزوجته من هجوم رجال دولابيل هدف مهم للغاية، أما الباقي، أي حياته الخاصة، فلم يعد مهمًا، إذ أنه بعد هذا الفشل الذريع أصبح نكرة في عالم السياسة.

"هيا، تعال".

وافق قيصر، وتبعه... وعندما خرجا من الباسيليك، التف حولهما ١٠ من قدامى المحاربين الذين حاربوا في صفوف عمه ماريوس قديمًا، فقال أحدهم معتذرًا: "أعتذر منكما، لم يأت عدد أكبر، إنهم يخشون بطش الأوبتميتس".

"حسنًا، فلنذهب إلى منزل قيصر عبر الطريق المحاذي للنهر، لتجنب طريق المتدى" اقترح لابينوس.

"فكرة جيدة. لقد صادفت مجموعات من الرجال المسلحين، ليسوا منّا، في الطريق الرئيسي المتجه من المتدى إلى سوبورا" أجاب جندي مخضرم.

وبينما يتناقشون، اقترب منهم بيرديكاس أولاً، ثم تبعه باقي المقدونيين. وعلى الفور تصدى لهم المحاربون القدامى، واصطفوا بين قيصر والشباب المقدوني للحيلولة دون وصوله إليه، حتى أمرهم: "اتركوه!"، فتنحوا جانبًا.

"المتهم لا ذنب له، بريء من كل التهم التي وُجّهت إليه، تلك هي عدالتكم ذائعة الصيت؟".

لم يمتلك قيصر كلمة واحدة تصلح للرد، ولا انتظر منه المقدوني إجابة؛ فأمامه أهداف أخرى أكثر إلحاحًا. قال جملته تلك ثم انصرف، وتبعه من معه.

"تعال بحق جوبيتر عليك! سوف يفتك بنا قتلة دولابيل!" صاح لابينوس، وحثوا الخطى في الشارع باتجاه نهر التير.

عند باب الباسيليكا بعد لحظة واحدة

خرج دولابيل ورجاله من الباسيليكا يتلفتون، وعندما رأى هطول المطر الشديد وزخاته تساقط على وجهه، صاح: "ما هذا بحق هيرقل!"

"لقد ذهبوا ناحية النهر!" قال أحد القتلة.

"فلنطاردهم!" قال دولابيل.

لن يمنعه المطر ولا أشد العواصف، ليس الآن. لقد صمد وتحمل إهانات ذلك الشاب لأسابيع في تلك المحاكمة الأشبه بعرض مسرحي، لكن كل ذلك انتهى، نعم انتهى العرض، الآن يحل القضايا الشخصية بطريقته الخاصة، وتلك العاصفة التي دفعت الجميع إلى اللجوء إلى منازلهم تركت له الشوارع شاغرة كي يتمكن من ممارسة عدالته بحرية. كان سعيدًا ومتحمسًا ومبتهجًا في آن، عاوده الشعور الذي استمتع به عندما رجموا ساتورنينوس حتى الموت داخل مبنى مجلس الشيوخ. لكنه مع قيصر لن يستخدم الحجارة، بل الخناجر.

بالقرب من مجمع الحوانيت

"ها هم!" همس أرخيلوس بمجرد أن رأى دولابيل ورجاله ينعطفون. "سوف نقضي عليهم" قال بيرديكاس بحسم. وهكذا انطلق المقدونيون يشهرون أسلحتهم لمواجهة دولابيل والقتلة المأجورين.

واصل لابينوس وقصر السير بسرعة، دون توقف، يرافقه المحاربون العشرة الذين خاضوا معارك أكواي سكستيا وغيرها من الملاحم والمعارك الأخرى، لكنهم تقدموا في العمر وتقاعدوا منذ زمن.

"علينا أن نمهل في السير... وإلا نصبح وحدنا. المحاربون يسيرون ببطء" قال لابينوس. وهمّ بإخباره بأنه ليس عليهما التوقف عن السير أبدًا. لكنه توقف فجأة مجبرًا، إذ لمح مجموعة من رجال دولابلا المسلحين يعترضون طريقهم، فأشار مسرعًا: "تحورصيف الميناء".

كان الطريق المؤدي إلى الميناء النهري هو المسلك الوحيد المتاح أمامهم، إلا أنه لا يفضي إلى شوارع أخرى، والعاصفة تشتد والسحب الملبدة تتراكم في سماء المدينة، وزخات المطر في سباق لا يتوقف، تتخلل ملابسهم فتغرق أجسادهم. لكن ذلك لم يكن مهمًا حينها، إذ فرضت على عقولهم معضلة أنه ليس أمامهم أي مخرج، لذا اضطروا إلى مواصلة السير حتى رصيف الميناء.

ظلت مياه النهر تتراجع في موجات جزر تليها امتداد الأمواج المضطربة من جديد. لقد ارتفع منسوبه على مدار الأيام الأخيرة الماضية بسبب العاصفة المستمرة، وواصلت الأمواج الهائجة جرف الأغصان المتساقطة واقتلاع أشجار كاملة، وأمامها لم تصمد القوارب وجرجرتها بقوة التيار الغاضب، ذلك ناموس الطبيعة الذي لا ينطبق على المسطحات المائية وحدها.

"إنه على وشك الفيضان" علق قيصر دهشةً.

تبعهم دولابلا ورجاله إلى الرصيف، وانضمت إليهم مجموعة القتلة الذين اعترضوا طريق قيصر ولابينوس قبل قليل، السناتور المخضرم ومعه أكثر من ٤٠ قاتلاً مسلحًا سوف يشتبكون مع ١٠ من قدامى المحاربين.

عندما يهّم دولابلا بالصيد، فإنه يخرج على أتم الاستعداد.

واصل قيصر ولايينوس وجحافل ماريوس السير فوق الرصيف الخشبي، حتى وصلوا إلى حافة النهر، وحينها بدا لهم وكأنهم قد وصلوا إلى نهاية العالم، أو زقاق مسدود، فالمياه الهائجة ليست مناسبة للسباحة. لم يكن ثمة خيار متاح أمامهما سوى مواجهة القتلة، فاستدار قيصر، وتقدم قدامى المحاربين، سوف يتولى قيادة ذلك الجيش المصغر. ثم سألهم دون أن يرفع عينيه عن قتلة دولابيل الذين كانوا يتقدمون بالفعل نحوهم: "معكم سيوف لنا؟".

"نعم، لدينا" أجابه أحدهم، ثم منحوهما سيفين.

دنا لابينوس من قيصر، وهو يتمم ويعض على نواجزه من شدة الغيظ: "سوف يقتلوننا".

هذه المرة لم يعترض قيصر، ولم يقسم ولم يتوعد، لم يخبره بأن الغد سيحمل البشر، بل أمم على كلامه: "سوف يقتلوننا لا محالة". بات الأمر واضحًا لدرجة أنه لا يمكن دحضه، لقد نجوا بصعوبة من خطة ليسبوس قبل عدة أشهر، لكن الآن، ليس ثمة شيء أو شخص يمكنه إنقاذهما من انتقام دولابيل المتجبر.

اندفع التيار الهائج بقوة غاشمة، فصرصت أخشاب الرصيف وطققت بصوت مسموع، حتى الأخشاب الراسية الراسخة في قاع النهر تهتز أمام الأمواج العاتية، إلا أنها تواصل الصمود.

اصطف قتلة الأوبتيميتس، ثم فتحوا ممرًا بأجسادهم ليبرز من بينهم سنيو كورنيليوس دولابيل، بجسده الثخين وسحته التي تجلب الغم، يتمطى بتأني وحزم على الرصيف الخشبي، على خلفية هدير المياه وصرير الأخشاب وهزيم الرياح والرعد. ما أن وصل إليهم حتى صاح بملء صوته كي يتغلب على ضجيج الطبيعة: "سوف أنهي ما بدأه سولا. هل ظننت أن بإمكانك توجيه الاتهامات ضدي على مدار أسابيع كاملة، كما فعلت أمام شعب روما بأكمله دون أن تنال عقابك؟ لقد التزمت الصمت أثناء المحاكمة. لا يزال

ميتيلوس وبومبيوس والآخرون يعتقدون أنه يتعين علينا أن نتعامل معكم بتهذيب، لكن وقت العرض قد انتهى، انتهت المسرحية يا فتى، ولم تكن كوميديا من تأليف بلاوتوس. إن كنت قد نجوت من فخ ليسبوس؛ فهذا لأن لوكولوس هذا أخرق وضعيف، مثلهم جميعًا. لكنني لا أقبل الفشل، ولن تغادر من هنا حيًّا، ولن تفلت من يدي". ثم توقف وغرق في نوبة ضحك. بدا مستمتعًا للغاية، لقد حان وقت العقاب. ثم عاد عبر نفس الممر الذي فتحه له رجاله، وهو يضيف: "اقتلوهم! جميعًا، لا تتركوا منهم أحدًا".

ثم انصرف بعيدًا عن الرصيف الخشبي غير المستقر، الذي يرتجف مثل حيوان خائف أمام قوة التيار، وعاد نحو منتدى فيناليوم، إذ أراد انتظار رجاله بعيدًا عن النهر لينعم بالهدوء على أرضية رملية ثابتة، يحرسه اثنان من رجاله، حتى ينتهي الآخرون من إراقة دماء غايوس يوليوس قيصر ومن يدعمونه.

اشتد المطر للغاية، وغامت السماء حتى باتت الرؤية ضبابية لدرجة أن أحدًا لم يلحظ اقتراب المقدونيين من دولابيل حتى فوات الأوان. وعلى حين غرة، تمكن أرخيلوس من طعن أحد الحراس بخنجره، وطعن بيرديكاس الآخر، ليبقى دولابيل وحده، يحيط به المقدونيون فقط. فطفق يصيح بأعلى صوته كي يهب رجاله لمساعدته: "أنقذوني! تعالوا إلي!". لكنهم لم يتوقفوا... وسمحوا لميرتل بالاقتراب لتنال شرف تسديد الطعنة الأولى في جسد دولابيل المتهدل المترهل. طعنته أسفل البطن، كانت طعنة مؤلمة لكنها سطحية، ليست مميتة؛ إذ لم تمتلك الفتاة القوة الكافية، رغم تأجج الغضب والكراهية بداخلها. أرادت تكرار المحاولة، ولكن فجأة، ولدهشة المقدونيين، عاد رجاله من الرصيف على عجل، يلبون النداء. لقد دفعتهم الرغبة في الحصول على الأموال التي تم الاتفاق عليها في نهاية اليوم إلى الإسراع نحو العدو، لأنه، وبحسبة يسيرة، إذا مات دولابيل، فمن سيدفع لهم مقابل عملهم؟

وفي غضون لحظات وقبل أن يصل رجاله، طعنه أرخيلوس في كتفه، وغرس أيروبوس خنجره مرتين في ظهره. أثناء الاشتباك سقط عدد

من الجرحى وقُتل اثنان من المقدونيين، فأُسرع بيرديكاس بإعادة تنظيم صفوفهم، بينما تنحت ميرتل جانبًا على بعد أمتار قليلة من ساحة العراك. ضغط السناتور بيده على بطنه لوقف النزيف، والمطر يشتد ويشتد، مثل إعصار غاضب.

من خلفهم، استغل قيصر ولاينوس وجحافل ماريوس انسحاب القتلة الذين انصرفوا لمساعدة سيدهم، الفرصة ونزلوا من على الرصيف، إذ بات غير متماسك إلى درجة كبيرة.

المزيد من البرق يشق السماء، والرعد يصم الأذان. المياه تفيض، وهزيم الرياح لا يتوقف، ومياه الأمطار في كل مكان. منسوب النهر في ارتفاع.

انضم قيصر ورجاله إلى جبهة المقدونيين، دون أن يرحبوا بهم كما لم يعارضوا، إلا أنهم افترضوا أن انضمامهم لهم يمنحهم المزيد من القوة، حتى وإن استمر تفوق القتلة عددًا. الآن كل اثنين من قتلة السناتور سيواجهون واحدًا، بعدما كانت النسبة، أربعة إلى واحد.

شعر رجال دولايلا بقلق بالغ؛ فلم يكونوا من قدامى المحاربين أو حتى مصارعين سابقين، بل رجال اعتادوا تنفيذ عمليات القتل تحت جناح الظلام، وحرصوا دائمًا على التفوق العددي على الضحية، يفضلون تنفيذ جرائمهم من الخلف على حين غرة دون مواجهات مباشرة أو معارك يدوية. لقد وجدوا أنفسهم الآن أمام حفنة من قدامى الجحافل ومجموعة من الرجال الحانقين، وامرأة تصر على الانتقام، وجميعهم عازمون على أن يدركوا ثأرًا يروي غليلهم بعد انتظار طال أمده، ثمة فارق كبير في القوى، والإرادات. سقط عدد من الجرحى والقتلى من بين رجال دولايلا، مقابل إصابات طفيفة في صفوف قيصر وبيرديكاس.

لاحظ السناتور أن رجاله استمروا في التقهقر، ولم يجد بدءًا من العودة معهم نحو الرصيف الخشبي المرتعش فوق نهر غاضب. التف حوله ٣٠ من رجاله، لكن القتال بات أصعب على الرصيف.

لم يعرف قيصر ولا بيرديكاس ما هي التعليمات التي يجب إعطاؤها لرجالهما، إذ كان الرصيف ضيقاً ولم يتمكنوا من محاصرتهم أو مهاجمتهم من الجوانب، لذلك لم تعد ثمة طريقة للهجوم سوى من جهة الأمام. تخلص رجال دولابيللا سريعاً من أثر الهجوم الأولى، وازدادوا إصراراً وهمةً، وأصبح لديهم شعور بأنهم لا يقاثلون فقط من أجل الحصول على المال، وإنما من أجل البقاء، لذا أطلقوا العنان للغضب الذي يمثل خطراً دائماً حينما يكون الشخص مدججاً بالسلاح.

ظل قيصر ولاينوس وبيرديكاس في حيرة من أمرهم بشأن ما يجب عليهم فعله. عندها رفعت ميرتل يديها إلى السماء، وهي تقبض على الخنجر المدنسة حافته بدماء دولابيللا، تأملت الغيوم، وتوسلت: "ثيسالونيكى، يا أخت الإسكندر، إن ذاك الواقف على الرصيف يقول إن أخاك قد مات! قالها بصوت عال وواضح! أطلقى العنان لغضبك، سلطيه عليه وعلى رجاله، ائاري لأخيك الذي يعيش ويحكم! انتقمي من أجل مقدونيا وعاقبيه على جرائمه وظلمه! أطلقى عليه غضب الآلهة جمعاء! ادفعي به نحو عالم الأموات!".

هدر نهر التبير كما لو أن ألف جورجون خرج من مياهه، كما لو أن نبتون وجميع عرائس البحر التي تسكن كل بحار العالم صبت جام غضبها على ذلك النهر. في نفس اللحظة، فار النهر وأغرق الرصيف بمن عليه، دولابيللا ورجاله، بينما يعوي السناتور العجوز ويصرخ: "لا، لا، اللعنة عليكم جميعاً! لا!". لكن توسلاته ضاعت في غياهب النهر.

شعر بيرديكاس بذراعي ميرتل تلتف حول جذعه، شرعت في البكاء، وهو، بدوره، احتضنها كما كان يفعل قبل أن تطأ قدم دولابيللا أرض مقدونيا. وقف قيصر ولاينوس مشدوهين يحدقان إلى مياه النهر حيث يقبع دولابيللا جريحاً غريقاً يحاول النجاة عبثاً، ظل يصرخ ويلعن كل شيء وكل شخص. وبعد لحظات قليلة، بات ممكناً رؤية يديه تطفوان تستنجدان... ثم ما تلبثان أن تغرقا. حتى وفي إحدى المرات طفت يد واحدة فقط، ثم

اختفى أثره تمامًا، وباتت صفحة المياه خالية من أي أثر لإنسان، لكن النهر ظل مضطربًا.

ابتلع نهر التير السناتور الثري المتعجرف المتجبر سنيو كورنيليوس دولابيلًا، ولم يعثر على جثته.

بعدما هدأت العاصفة أعادت حانات الميناء النهري فتح أبوابها للزبائن، الذين أخذوا يرددون روايات وأساطير عن كيف أغرقت حورية البحر ثيسالونيكي جسد دولابيلًا في الأعماق، وهناك، في القاع، في خليج بعيد، ظلت ترقص وتضحك أمامه، أمام أشلائه، وجمجمته، وهيكله العظمي، الذي يرقد عند قدميها في عذاب أبدي، ولن تسمح له حتى بالانتقال إلى عالم الموتى أبدًا.

قيصر! قيصر! قيصر!

منزل عائلة جوليا، روما، عام ٧٧ قبل الميلاد
(بعد نصف ساعة فقط من القتال على الرصيف)

وصل قيصر ولاينوس إلى منزل عائلة جوليا، بأثواب مبتلة تمامًا وملطخة بالدماء. دُعرت كورنيليا واندفعت نحو قيصر، تتحسس جسده كله في رعب، تبحث بيديها عن جرح أو طعنة، وهي تصرخ بلا توقف: "لقد قتلوه! لقد قتلوه!". فقدمت أوريليا إثر صراخها وحدقت بشحوب إليهما. لحق بها خاله كوتا، الذي كانت قد دعته إلى منزلها، في محاولة لدرء الخلافات بأسرع ما يمكن. بدا مدهوشًا أيضًا من وصول قيصر إلى منزله سالمًا، واعتقد أن ابن أخته قد أصيب بجروح بالغة.

"أنا بخير يا كورنيليا، بخير... هذا ليس دمي، بل دماء قتلة دولابيل" قال قيصر مطمئنًا.

"هل هاجموك؟" سألت رغم علمها بالإجابة، وذلك لأنها كانت في حالة ذهول ولا تزال تتحسس رداءه بيديها الرقيقتين، وكأن فكرة موته علقّت بذهنها ولم تستطع الحديد عنها. خشيت أن يتظاهر بأنه لم يصب بسوء، ويخبي عنها أنه مصاب بجروح بالغة كي لا تقلق بشأنه.

"لقد طاردونا بمجرد خروجنا من المنتدى" أوضح لاينوس، ثم شرب بعض الماء الذي قدمه له أحد الخدم.

"من عند المنتدى؟" سألت كورنيليا، بعدما اطمأنت قليلًا عندما لم تجد جرحًا واحدًا في جسد زوجها.

"نعم، ثم انتهى بنا المطاف عند رصيف الميناء. حاصرونا هناك لكن المقدونيين ظهروا فجأة، وبعد ذلك تغير مسار الأمور، حتى قتلوا دولابيلاً".
حينئذ هز قيصر رأسه نافيًا، وصحح كلام صديقه: "لم يُقتل، المقدونيون لم يقتلوا دولابيلاً، بل طبّقوا عليه حكم الإعدام".

همّ لابينوس وكوتا أيضًا بالرد عليه، لكن أوريليا تدخلت قائلة:
"التفسيرات والمناقشات يمكن أن تنتظر، الآن، اذهبا إلى غرفة نوم غايوس، استبدلا بملابسكما الملوّخة والمبتلة ملابس نظيفة وجافة، بعد ذلك تناول الطعام معًا في الغرفة الداخلية من المنزل، في مأمن من المطر الذي يغمر المدينة"، ثم اقتربت منه وسألته: "ألا ترى ضرورة لاستدعاء الطبيب؟".

"أنا بخير يا أمي، لا ليس ضروريًا، لم ينالوا مني، على الأقل ليس بعد".
تابعته والدته وهو يمشي مبتعدًا عنها، متجهًا نحو غرفة نومه ومعه لابينوس وكورنيليا. علقت كلمتان فقط من رد ابنها في رأسها "ليس بعد".

منتدى روما، قرب مقر المجلس التشريعي والإداري.

وقف بومبيوس، وسط أعمدة مدخل أحد المعابد، يراقب رجال دولابيل الذين يجوبون الشوارع ويتحدثون بعضهم إلى بعض بهمس غير مسموع، لاحظ علامات القلق على وجوههم الكاسفة. فطن إلى ما يجري، لكنه حتى اللحظة لم يصدر أي رد فعل، اقتصر على دور المراقب، رأى العديد من السناتورات يعبرون المنتدى في اتجاه مقر المجلس التشريعي، يحتمون بالقلانس من سيل المطر الغزير، وعلى الناحية الأخرى من الشارع، تجمعت مجموعة كبيرة من محاربي سولا، الذين أعلنوا ولاءهم لبومبيوس من بعده، ينتظرون التعليمات. لقد قاتلوا معه مؤخرًا، في المعارك التي استهدفت إخماد انتفاضة لبيدوس. تطلع إليهم كي يتأكد فقط من مدى جاهزيتهم لتنفيذ أوامره.

بحلول الوقت الذي جلسوا فيه جميعًا لتناول الطعام، لم يعد ثمة أضواء في تلك السماء الرصاصية التي تنهمر منها الأمطار، ظلت تتوقف قليلاً وكأنها تمنح المدينة الموحلة المبللة قسطاً من الراحة، ثم تهطل من جديد حتى أوشك نهر التيبر على الفيضان. تعافى قيصر ولاينوس قليلاً من آثار الهجوم، وبينما يتناولون الطعام، المدافع عن المذنب إلى جوار المدافع عن الضحية، فسروا ما حدث، وناقشوا توقعاتهم بشأن المشهد السياسي في روما، غير عابئين بالأحوال الجوية المضطربة في الخارج.

"إنها العدالة، تلك التي لم يجدها المقدونيون تحت قبة الباسيليكا اليوم وفقاً لقانوننا الروماني، بحثوا عنها وسط غضب هذه العاصفة في شوارع روما، على طول ضفاف نهر التيبر المضطرب" قال قيصر.

"هذه ليست عدالة يا فتى، بحق جوبيتر! ما حدث ستكون له عواقب وخيمة، ستقع المزيد من جرائم القتل!" احتج كوتا بغضب.

"إن الظلم يولد العنف، وقد دأب دولابلا وسيناتورات الأوبتيميتس، الذين تجد نفسك مرتاحاً للغاية في التعامل معهم، على الترويج للظلم الدائم في توزيع الأراضي والثروة والحقوق على مدى عقود. قبل بضع سنوات، تمرد الإيطاليون على روما للحصول على الجنسية إلى جانب مطالبات أخرى عادلة، بينما الآن ها هم يتجرؤون على مواجهة أعضاء مجلس الشيوخ الرومان الفسدة في وسط شوارعنا. وهذا لا لشيء سوى أننا جردنا عن العدالة. لكنني أتفق معك، هذا تصرف سيئ، لكن سلطة روما تقوضت وقریباً يندفع كل شيء خارج إطار السيطرة. يجب أن نجري تغييرات وتحولات عميقة تبدأ باقتلاع الفساد من جذوره. تلك هي القضية الجوهرية في تلك المحاكمة، بينما أنت وأصدقاؤك لا تدركون ذلك. سوف تنجرف روما نحو مواجهات واسعة النطاق إن لم نقم بترسيخ العدالة في توزيع الحقوق والواجبات..."

"احتفظ بخطبك لنفسك يا فتى. بغض النظر عما إذا كنت على صواب أم لا، ليتك أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلاً من نفسك، فقد انتهت مسيرتك السياسية بمحاكمة دولابلا تلك. إنها أول تجربة لك في المنتدى، ولم تنته فقط بخسارة مدوية وإنما تمكن هورتنسيوس من تدميرك تمامًا. سأقولها لك يا فتى: إذا تمكنت من أن تصبح ناظرًا للأشغال العمومية يومًا ما، فسيكون ذلك أكثر ما يمكنك الوصول إليه. أخبرتك أن عليك أن تبقى في الظل لكنك...".

"لقد لعبت لعبة قدرة" قاطعه قيصر، ورمق والدته بنظرة، وكأنه أراد أن يشملها باتهامه. فتنهدت بحسرة وخفضت رأسها من شدة الحرج.

"تصرفنا وفقًا للمعتاد في محاكم روما، ولن أنكر أنني فعلت كل ما في وسعي لتدمير أقوال شهودك".

"أوليس ثمة حدود؟" سأل لابينوس.

"المحاكمات الرومانية لا تعرف الحدود يا فتى. أنا حذرتك ألف مرة بآلا تتورط في عمل أكبر من قدراتك، بحق الآلهة جمعاء".

"أنت خائن للعائلة" أضاف قيصر غاضبًا.

رأى كوتا كيف بدا حزن أخته على تعابير وجهها، فنظر إليها آسفًا وقال: "أنا آسف يا أوريليا. لقد حذرتك مرارًا وتكرارًا من التدخل في هذه المحاكمة لكنه تجاهلني، ابنك لا يستمع أبدًا لأي شخص. حسنًا، أو فلنقل إنه لا يستمع إلا لمن ينصحه بالسوء ويحثه على الجنون" ورمق كورنيليا بنظرة سريعة تحمل الكثير من المعاني.

وعندما همت الشابة بالرد عليه، ضغط قيصر بحزم على كتفها فصمتت.

"هذه المحاكمة نالت منا جميعًا، كل منا تصرف حسب ما رآه الأفضل وكل منا يحتفظ بدوافعه. لكن ألم يحزن الوقت لنسيان كل هذا ومحاولة الحفاظ على الروابط الأسرية؟ الآن نحن نحتاج إلى الوحدة أكثر من أي

وقت مضى. أشعر بأن القادم أشد صعوبة وعلينا أن نتحد جميعاً" قالت أوريليا.

"هل تسمعون شيئاً؟ ثمة صوت قادم من الخارج."

لم يسمع أي منهم شيئاً، ولا حتى صوت المطر، كانت العاصفة قد هدأت.

"لا، ليس ثمة صوت" علق كوتا؛ إذ ظن أن ابن أخته يحاول تشتيت سير المحادثة. ورغم أنه رآها مزعجة للغاية بلا شك إلا أنه أصر على مواجهته بالحقائق. لقد دمر الشاب إمكانية ترقيه في المناصب، وإن أصر على الاستمرار في هذا الطريق الذي اختاره لنفسه، تنتظره ميتة فظيعة خلال شهور، وربما أسابيع، وخاصة بعد مقتل دولابيل؛ إذ قد يسعى أكثر أعضاء مجلس الشيوخ تطرفاً إلى الانتقام، وسيكون هو من أوائل المستهدفين.

تجاهله يوليوس قيصر واقترب من جدران الغرفة المطلة على الشارع. كانت أزقة سوبورا الضيقة ومنازلها الصغيرة التي تحيط بمنزله، مكتظة بالسكان، يسكنها الآلاف من الفقراء، وعوام روما المهمشون.

"نعم ثمة صوت" قالت كورنيليا، ثم دنت منه تسترق السمع. فقام دون أن ينبس ببنت شفة، أخذ يتلمس الصوت القادم من الخارج، فرفع راحته مشيراً إليهم بالتزام الصمت.

تنهد كوتا وهز رأسه أسفاً ونكّس رأسه بقلة حيلة، بينما انشغل لاينوس بارتشاف النبيذ. لكن أوريليا خرجت إلى الردهة تتأمل السماء اللامعة، التي تضيئها النجوم. باتت صافية، بلا غيوم، حتى وصل إلى مسامعها صوت ما، كما لو أن حشدًا من الناس يصيحون بهتافات موحدة في انسجام تام. ربما هم قتلة الأوبتيميتس، قادمون لاغتيال ابنها انتقاماً لما فعله المقدونيون مع دولابيل. أليس ذلك منطقيًا؟ عندما أحس قيصر بأن والدته انتبعت للصوت سألهم بحماس: "هل تسمعونه الآن؟".

استدار لابينوس متمهلاً، لقد انتبه أيضاً للصوت، فوضع الكأس على الطاولة واقترب من صديقه وزوجته. كما عقف أوريليو كوتا حاجبيه وبدأ يشك أنه ربما كان قيصر محققاً، ثمة أصوات قادمة من الخارج بالفعل، حشد من الناس يصيحون، واللافت للانتباه أن الصوت يقترب شيئاً فشيئاً، لكنهم جميعاً لم يتبينوا الهتافات.

"افتحوا النوافذ المطلّة على الشارع!" أمرت أوريليا العبيد، وأضافت بخوف بدا جلياً: "لكن أبقوا على البوابة مغلقة!". نُفذت الأوامر بجديّة، فاندفعت أصوات الهتاف مدوية، تصم الأذان. الآن استطاعوا تبيين ما يرددونه، كانوا يهتفون باسم المحامي الشاب الذي تجرأ وفضح أكاذيب الأوبتيميتس: "قيصر! قيصر! قيصر!".

استدار قيصر بتأنٍ نحو والدته، وجد أن جفونها ترتعش... لم تصدق ما يحدث. دنا كوتا منها، ووقف إلى جوارها، بدت عليه الحيرة الشديدة، والهتافات مستمرة: "قيصر! قيصر! قيصر!".

اقتربت الصيحات. الهتافات الحماسية... أم يمكن تسميتها هتافات الاحتفال بالنصر؟ هتافات يصدرها حشد شعبي، لفيف من شعب روما، هؤلاء المهمشون الذين جُردوا من القادة، الذين كلما برز مدافع عن حقوقهم قُتل بدم بارد. لقد قتل الأوبتيميتس الذين يسيطرون على مجلس الشيوخ وعلى كل شيء، منابر العوام واحداً تلو الآخر على مدار العقود الماضية. لقد رحل غايوس ماريوس وقُتل ساتورنينوس رجماً وأرقت دماء الأخوين غراكوس، ومن بعدهما دروسوس وغلاوسيا وكينا وليبيدوس وغيرهم وغيرهم... لكن ها هو قيصر يأتي من بعدهم ليكمل ما بدؤوه، ذاك الشاب المتحمس الذي لم يخش مواجهة ذراع سولا اليمنى، دولابيللا الذي يمتلك النفوذ والقوة، حتى مع علمه بأن هيئة المحاكمة فاسدة. ورغم الخيانات والمكائد التي حيكت لثنيه عن مواصلة النضال، ومعرفته بأن المتهم يدعمه أفضل المحامين الذين يمتلكون الكفاءة والقدرة على تبرئته من ذنوبه التي اقترفها تجبراً وبهتاناً، وإدراكه لتلاعب الحراس بالساعات المائبة لتقليل مدة

خطابه، رغم كل ما فعلوه أصر على هدفه، ثم في النهاية، نعم، صحيح، خسر القضية. لم تحكم المحكمة لصالح المقدونيين، فهُزم... لكن يبدو أن شعب روما لم يلتفت إلى تلك الهزيمة، علموا جميعاً أنه تقرر تبرئة المتهم سلفاً ظلماً وتدليساً، كانت تلك هي السمة العامة للمشهد السياسي في روما... "قيصر! قيصر! قيصر!"

ألهمت جرأته وصلابته وشجاعته وكبر همته أمام أعضاء مجلس الشيوخ الفاسدين، حماسهم، وأعدت لهم أخيراً الأمل في التغيير. ظلوا يصيحون: "قيصر، قيصر، قيصر!". وعلى وقع صدى الهتاف، التفت قيصر إلى خاله وسأله بثقة بالغة: "هل أنت على يقين من أنني خسرت في هذه القضية حقاً؟ الحكم النهائي كان ضدي، لكن يبدو أن الناس يفسرون ما حدث على نحو مختلف، ألا تعتقد ذلك؟".

لم يبد على أوريليو كوتا الحماس أو الغضب، ربما كان يتظاهر بالهدوء. تمهل حتى صب لنفسه كأساً كبيرة من النبيذ، أمسك بها وأخذ يرتشف بروية حتى استنزف كل المشروب. ثم نظر إلى ابن اخته من زاوية عينه، فرآه يقف مبتهجاً. لم تتوقف الهتافات التي تصم الأذان بعد: "قيصر، قيصر، قيصر!". كانت هذه هي المرة الأولى التي يهتف فيها شعب روما بهذا الاسم. أول مرة في تاريخ طويل حافل بالهتافات على مدار قرون، يبدو أنه مع قيصر. سيعرف العالم أشياء كثيرة للمرة الأولى.

توقف المحامي الشاب إلى جوار خاله ينتظر منه إجابة على سؤاله، فقال: "قد يرى العامة، كما تقول أيها الفتى، الأمور على هذا النحو، لكن السيناتورات لا يفكرون بنفس الطريقة، بل يفسرون الأمور بمنظور مختلف، ولا تنس أنهم هم أصحاب القرار".

"توقعت منذ لحظة أن نهاية مسيرتي السياسية باتت وشيكة، وبأن الأمل في تدرجي في المناصب قد تحطم. لكنني أعتقد أن هذه المحاكمة ليست نهاية أي شيء؛ بل بداية كل شيء، بداية لأمر مستقبلية عظيمة" قال قيصر بتحدٍ.

"قيصر، قيصر، قيصر!".

حدّق قيصر إلى خاله، ودون أن يستدير، أعطى أمرًا للعبيد: "افتحوا البوابة، يجب أن أحيي شعب روما!". ترددوا قليلاً ونظروا نحو أوريليا. لم تبد أي رأي، فهي لن تخالف أوامر رب الأسرة، ففتحت بوابة المنزل على مصراعها.

استدار غايوس يوليوس قيصر وسار باتجاه البوابة، لكن صوت خاله أوقفه: "سوف أسدي إليك نصيحة، من خال إلى ابن أخته، لكونك رب الأسرة، وبدافع المودة. أحذرك يا فتى، سناتورات الأوبتيميتس سوف يتعقبونك، أنت الآن محكوم عليك بالإعدام، ولن تمحوه كل هتافات العالم. يجب أن تبعد عن روما، على الأقل لفترة من الوقت، حتى تهدأ الأوضاع". فالتفت قيصر إليه كي يرد عليه...

مبنى مجلس الشيوخ، منتدى روما
في نفس الليلة

وصل نبأ وفاة دولابيللا والتظاهرات التي خرجت في شوارع سوبورا تهتف باسم قيصر إلى مقر المجلس التشريعي، فتقرر أن يعقد اجتماع عاجل من أجل تقييم الوضع بعد انتهاء المحاكمة والأحداث التي تلتها.

"يجب أن نتصرف بسرعة" صاح أحد شيوخ المجلس.

لكن أحدًا لم يجرؤ على تحديد ما يجب فعله، فزعيمهم المخضرم ميتيلوس في هسبانيا لا يزال يقاتل ضد تمرد سرتوريوس. بدا الأمر كما لو أنه لا توجد طريقة لإنهاء هذا السرطان الشعبي؛ الذي يمثل جبهة شعبية في الخارج، وقبل القضاء عليه، ظهرت فجأة جبهة أخرى في الداخل على يد قيصر.

"سوبورا بأكملها تهتف باسمه!" صاح سناتور آخر، وصل لتوه.

"ليس من الحكمة قتله... ليس الليلة على الأقل" قال آخر.

في تلك اللحظة، تقدم ماركوس توليوس شيشرون إلى الأمام ووقف في منتصف مقر المجلس، إلى جوار بومبيوس. شيشرون الذي لم تختره هيئة المحكمة ليدافع عن المقدونيين، ومن بعدها أوحى إلى قيصر بفكرة نيرة غيرت سير المحاكمة وأثارت عقل قيصر، لكنه التزم الحياد خلال الجلسات. كان يخطب بثقة وجرأة في مجلس الشيوخ، رغم أنه لم يتم بشكل واضح إلى الأوبتيميتس، وكذا لم يُحسب على حزب البيولاريس، إلا أن آراءه دائماً كانت محل اهتمام لأنها اتسمت بالاعتدال.

التفتوا إليه جميعاً، بما فيهم بومبيوس، وأولوه اهتماماً، فاقترح: "ربما لم يعد قتله أمراً ضرورياً، بل أرى وجوب حثه على مغادرة روما. لا يمكننا السماح لذلك الشاب يوليوس قيصر بفرض فكرة أنه يمكنه عبر انتفاضات شعبية الحصول على ما فشل في تحقيقه أمام القضاء".

حل الصمت.

كان على شخص ما أن يتقدم ويضع حداً لقيصر ذاك، الشاب الذي قذف الرعب في قلوبهم، رغم حداثة سنه، فهو يبلغ بالكاد ٢٣ عاماً. لم ينخرط بومبيوس في الجدل، فنهض فجأة من على مقعده وأعلن بنبرة صارمة: "أنا ذاهب"، وأيده الجميع. ففي ظل غياب ميتيلوس عن روما، ووفاة سولا، برز نجم بومبيوس بصفته القائد الفعلي للحزب المحافظ في المدينة.

منزل عائلة جوليا

التفت قيصر إلى خاله وقال: "أقدر نصيحتك لأنني أعلم بأنها نصيحة خالصة من خال إلى ابن أخته بحق. سوف أعمل بها، وأترك روما. نعم، سأفعل". ثم عبر برفقة كورنيليا عتبة منزل العائلة، بينما يهتف أهل روما باسمه دون توقف. لقد وجدوا أخيراً من يمتلك الجرأة على التصدي لأعضاء مجلس الشيوخ الأقوياء الذين يكتنزون لأنفسهم كل الثروة ويتركون باقي الشعب منهكاً وخانعاً وبلا موارد. صحيح أنه مجرد شاب عديم الخبرة وليس لديه ما يكفي من الدعم، لكنه ابن صهر ماريوس.

"قيصر، قيصر، قيصر!".

توقف يوليوس قيصر للحظة، فالتفت إلى خاله كوتا ووالدته وقال: "لقد كنت محقة يا أمي عندما أخبرتني بأمر جوهرى".
"وما هو؟" سألته.

"أنني لست قوياً بما يكفي لمواجهة أعضاء مجلس الشيوخ" أجابها، ثم امتلأت نظرتة بعاطفة هائلة وأضاف: "لكنني قريباً أصبح قوياً يا أمي، سوف أكتسب قوة هائلة".

تنهد كوتا بينما يراقب أخته. حملت نظراتها إلى ابنها فخراً. كانت تخشى عليه، لكنها امتلأت فخراً به. بددت شجاعته الخوف الذي عشت داخل قلبها منذ تجرأ على معارضة سولا، وعززته الهتافات: "قيصر، قيصر، قيصر!".

"تعالى يا كورنيليا، تعالى معي، وأنت يا لابينوس، هل ستأتي؟".

وقفت الزوجة الشابة إلى جوار زوجها، ولاينوس معها. وهكذا، خرج يوليوس قيصر، محاطاً بزوجته وصديقه المقرب، يحيون شعب روما.

خاتمة

شوارع سوبورا، عام ٧٧ قبل الميلاد

رافق بومبيوس مائتين من المحاربين القدامى الموالين للأوبتيميتس، ومائة من القتلة المأجورين، في عرض واضح للقوة العسكرية التي يمثلها. كان يعلم أن الشوارع مضطربة وأن سوبورا حي خطير، هكذا يراه المحافظون، لكنه توقع أن يهرع هؤلاء المحتشدون إلى منازلهم ويوحدون أبوابها جيّدًا، بمجرد رؤيته يصعد التل.

منزل عائلة جوليا

اقترب كوتا من أخته وقال لها بحزن وأسف: "أنتِ تعلمين أنه سيقتل على يد أعضاء المجلس، أليس كذلك؟".

"محتمل... لكن ربما بحلول هذا الوقت الذي يفعلون فيه ذلك، إذا نجحوا، يكون قد تمكن من تغيير كل شيء بالفعل. كان قيصر محقًا، هذه مجرد البداية... سوف يغير ابني العالم، ولن يوقفه أحد، فهو ينحدر مباشرة من نسل إيولوس، ابن إينياس، ودمه مزيج من فينوس ومارس. أمل أن تحميه الآلهة وترشده في أوقات الرخاء وفي المعارك، لأنه سيخوض حروبًا كثيرة، أعلم ذلك، وهذا مصيره".

واصل أبناء الشعب الهتاف بأعلى صوت، لمن عارض بجرأة ولم يخش أحدًا: "قيصر، قيصر، قيصر!".

التف المحتشدون حول قيصر وكورنيليا ولاينوس، فاستقبلهم مبتسمًا مرحبًا بهم. لكن، فجأة، على الطرف الجنوبي من الشارع، بدأت الهتافات تتلاشى، وسرعان ما صمت الجميع. بعد ذلك فُتح ممر كبير، فتكوم الناس على جانبي الشارع، ومن بينهم عبر بومبيوس القوي، السّفاح الشاب، برفقة العشرات والعشرات من الرجال المسلحين الذين دفعوا الناس جانبًا، كي لا يلامس أحدهم رداء القائد.

أحكمت كورنيليا قبضتها على ذراع زوجها، وسألته بخوف: "هل يعزّمون اعتقالك؟".

"لا، لا أعتقد ذلك، ليس الآن وليس هنا، أمام كل شعب روما، لأن الإقدام على هذا سيمنحني قيمة أكبر في عيون الجميع" أجابها قيصر بهدوء. "هل يقتلونك إذن؟" سألت برعب أكثر.

نظر قيصر حوله، ورأى أن من كانوا يهتفون له منذ لحظة، لم يفروا ولم يرتعدوا، بل التقط بعضهم الحجارة من على الأرض، وحمل كثير منهم سكاكين حادة تتألق تحت ضوء المشاعل التي يحملونها.

"إنهم لا يقتلون عادة إلا الفرائس سهلة الاقتناص، ربما قدموا لأمر آخر."

اقترب بومبيوس منه متمهلاً حتى بات على بعد بضع خطوات منه، لمح الحجارة والسكاكين التي يحملها المواطنون، وعلم أنه إذا قام باعتقال أو هجوم مباشر على قيصر في تلك اللحظة، سوف تتفاقم الأمور وتتحول إلى مواجهة ضخمة في شوارع روما. وضع في الحسبان أن الجيش لا يزال متورطاً في الحرب السرتورية، ليس ثمة حاجة لتأجيج الصراع داخل روما، لذا أثر بومبيوس التعامل بحذر وحزم في آن.

"جئت كي أحذرك" قال.

"مّم؟" سأله قيصر بثبات، دون أن يتراجع خطوة واحدة.

تشبثت كورنيليا به، نكّست رأسها وهي ترتجف، لكنها ظلت رابطة الجأش، ولاينوس إلى جوارهما، بنظرات متحدية، مستعداً للدخول في معارك لأجل صديقه ولو لألف مرة.. حتى الموت إذا لزم الأمر.
"من الأفضل أن تغادر روما" قال بومبيوس.

تقاطعت أعينهما لبضع ثوان في صمت. انبثقت من أعينهما نظرات قوية وجادة، يمكن اعتبارها مواجهة صامتة بين اثنين من الجبابرة الجدد، تشير إلى ما قد يحدث إذا ما نشب صراع غير محسوب العواقب.

بدأ الأمر بمحاكمة سناتور فاسد، لكن قيصر فرض نظرتة الشاملة على المشهد حتى تفاقم، وقد تخرج الأمور عن نطاق السيطرة في أي وقت. لم يكن هذا هو الوقت المناسب ولا مكان يصلح للقتال، لقد تعلم ذلك جيّداً من ماريوس حين قال له: "قاتل فقط في المكان والموعد المناسبين لك".
"حسناً، سأترك روما" أجاب قيصر.

حينها تنهد بومبيوس بارتياح، وكذلك استرخى المحاربون القدامى وقتلة الأوبتيميتس قليلاً، كما أرخى المواطنون أيديهم التي تحمل الحجارة والسلاح قليلاً. لقد مزقهم الإحباط... ها هو زعيم آخر يتخلى عنهم. لم يشأ قيصر أن يكسر عزيمتهم فأضاف: "سأذهب بعيداً... لكنني سأعود". وبمجرد أن قال تلك الكلمات، استدار وعاد إلى منزله، لكن أبناء الشعب، الذين امتلأت أعينهم ببريق الأمل، سمعوه بوضوح يؤكد أنه سيعود، لقد أراد فقط كسب الوقت. وما أن انصرف حتى عادت الهتافات، بحماس أقوى وبصوت أعلى من ذي قبل.

استدار بومبيوس وعاد من حيث جاء، برفقة رجاله، بطريقة منظمة عبر نفس الممر، يرفه المتظاهرون بالهتاف ضد دولابلا الفاسد.

في بعض الأحيان، تستند رؤيتنا للنتيجة والحكم عليها بالفشل أو بالنصر إلى رؤية كل طرف من الأطراف إلى الحدث، ومن هنا ينبع الاختلاف في وجهات النظر.

سفينة في أعالي البحار، البحر الأبيض المتوسط

بعد يومين من القتال عند الرصيف

ضُمَّت ذراعا بيرديكاس، إذ لم تكن إصابته خطيرة. لكن أيروبوس بات منهكًا للغاية، وأرخيلاوس واهنًا لم يتعافَ بعد، يرقد في عنبر السفينة. بينما تركوا العجوز أوريستس في روما؛ فوضعه الصحي لم يسمح له بالعودة إلى أرض الوطن.

صعدت ميرتل إلى سطح السفينة حيث يقف خطيبها. أحاطت جذعه بذراعيها وسألته: "ترى ماذا سيكون مصير العجوز النيل؟"، قصدت أوريستس.

"ذاك الروماني وعد بالاعتناء به" أجابها بيرديكاس.

"تقصد يوليوس قيصر؟".

"نعم".

"وهل تعتقد أن سيفي بوعدته؟".

"لم يحث بوعدته معنا قط. صحيح أن عدالة روما خذلتنا، لكن يبدو أنها خذلته هو أيضًا، إلا أنه التزم بكل ما وعد به، تحدث باسمنا أمام هيئة المحكمة، وصمد حتى النهاية، وبعد ذلك سهّل لنا الفرار من روما آمنين، وسوف يعتني بأوريستس العجوز أيضًا، أنا على يقين من ذلك".

توقفا عند مقدمة السفينة، فتشبث بجسده بقوة. شعر بحبها الكبير له، فقال: "بمجرد وصولنا إلى ئيسالونيكي... سوف نتزوج وننسى كل ما حدث". ودون أن تجيبه، أسندت وجهها على كتفه، ومن حولهما نسيم البحر اللطيف، يداعب وجهيهما.

"لننعم برحلة ميسرة على متن السفينة".

"نبحر في ظل عناية ئيسالونيكي وعرائس البحر".

استمتعا بنسيم البحر وصوت عارضة السفينة، تشق الأمواج شقاً،
وتعلقت قلوبهم بالوصول إلى أرض الوطن.

"هل تعتقد أنه قد يصلنا خبر عنه يوماً ما؟ أقصد قيصر" سألت ميرتل.

أوما بيرديكاس برأسه باطمئنان. ودون أن يرفع عينيه عن الأفق، أجاب
بنبرة حازمة: "أنا على يقين من أنه سيصلنا عنه الكثير، قريباً".

الخلفية التاريخية للعمل

(لا يُنصح بقراءتها قبل الانتهاء من الرواية؛ إذ تكشف جزءاً من الحكمة).

تعتبر سنوات طفولة وشباب يوليوس قيصر فترة مظلمة في سيرته الذاتية، وبالكاد تتوافر معلومات حول أول ٢٣ عامًا من عمره، أي مضمون هذا العمل، بينما على العكس، تتوافر معلومات دقيقة عن الفترات التي شهدت بروزه وشهرته. ومع ذلك، وبلا شك تسرد سجلات التاريخ أنه تمت محاكمة السناتور الفاسد دولابيللا، كما سجّلت أسماء المحامين، وتواريخ الجلسات، والقوانين التي أجريت بموجبها. وبالفعل كان موجه الاتهام هو الشاب غايوس يوليوس قيصر، كذلك ذكر المؤرخون أن القضاة حكموا ببراءة المتهم، لكن تفاصيل القضية نفسها، والمرافعات سقطت من ذاكرة التاريخ، وهو أمر منطقي، فالنبلاء الرومان الذين ضلّعوا في القضاء، مثل شيشرون أو قيصر وغيرهم، اهتموا بتسجيل نصوص المحاكمات التي حققوا الفوز فيها، لأنهم فكروا جميعًا على النحو ذاته: ما الهدف من التأريخ للهزيمة؟ حتى لو جاءت نتيجة التلاعب والفساد، ففي روما القديمة كان ينظر إلى الهزيمة بنظرة مجردة، كما هي دون مواربة.

إلا أن قيصر نفسه، ومن تابعوا قضية دولابيللا، أو سمعوا عنها، أدركوا فيما بعد أن دفاعه عن حق المقدونيين جعلت الشعب يرى فيه زعيمًا شعبيًا جديدًا، وأن شجاعته وذكاءه وجرأته أتاحوا لهم رؤية أنه يصلح لأن يصبح خليفة لزوج عمته، غايوس ماريوس، وهو ما تمت الإشارة إليه بين طيات هذا العمل الروائي. ومع ذلك، يدهشني مدى ضآلة الأعمال الروائية التي تتناول قصة حياة قيصر وتعرض لفترة عمله كمحام، وكان ذلك مسلكًا

أساسيًا اتبعه كثير من الشباب الأرستقراطيين الرومان، إذ كانوا يسعون إلى الشهرة عبر البروز في المحاكم، ويتسابقون على الترافع في القضايا التي تُنظر داخل روما نفسها. وبلا شك، كان يوليوس قيصر أفضل مَنْ استفاد من هذه الأداة الإعلامية.

ولكن يجب التأكيد على قضية أخلاقية مهمة؛ وهي أن كثيرًا منهم سعوا لإظهار قدراتهم في القضايا التي كان الفوز فيها سهلًا أو مضمونًا، بينما جازف قيصر ودافع عن الطرف الأضعف. ورغم أن الأمور كلها كانت ضده، إلا أنه تصدى ببسالة للفساد والظلم.

لا شك أنه استخدم المحاكمة لتحقيق أهداف شخصية، لكنه في الوقت نفسه دعم موقف المقدونيين المتضررين، الذين مثلوا الطرف الأضعف في هذا النزاع القانوني، في حين أنه كان من الممكن أن يقف إلى جانب دولابلا، كما فعل خاله كوتا مثلاً، حينها كانت الأمور ستصبح أكثر سهولة، لكنه انحاز إلى الخيار الأكثر عدلاً رغم أنه انطوى على خطورة هائلة واعتبرت هزيمته محققة. لكن الأحداث اللاحقة أثبتت أن هذه الهزيمة، كما ذكر في الرواية، لم يُنظر إليها باعتبارها هزيمة، وإنما نقطة فارقة في حياة قيصر، بل في تاريخ روما كله؛ لأنه خسر القضية رسميًا، لكنه فاز معنويًا، على المستوى الشعبي.

ونظرًا لعدم توفر النصوص الأصلية للمرافعات، كان عليّ إكمالها بالتعاون مع أستاذ القانون الروماني في جامعة فالينسيا، أليخاندر فاليينو. فقامت استنادًا إلى مساعدته بطرح تصورات من وحي خيالي لجلسات المحاكمة على ضوء لوائح القوانين التي سنّها سولا، والتي كان معمولًا بها في عام ٧٧ قبل الميلاد، وهو العام الذي أجريت فيه المحاكمة، وأي خطأ محتمل يشوب هذه الأجزاء يُنسب إليّ فقط.

كما أنني لجأت إلى ما يمكن أن نطلق عليه "النصوص الموازية" أي ما سُجل من القضايا التي أجريت ضد متهمين بالفساد في تواريخ مماثلة، مثل محاكمة فيريس التي ذكرها شيشرون في أحد أعماله. فكانت تلك النصوص

الموازية ملهمة لي في الأجزاء المتعلقة بالخطب واستجابات المحامين للشهود.

لقد التزمت بالتواريخ الحقيقية للأحداث، لكن الخطأ في بعض المصادر التاريخية وارد، لأننا نتحدث عن فترة مضطربة، لذا قد تتعرض بعض التواريخ للتشويه، فيسجل تمرد أو حصار أو معركة أو اشتباك بتاريخ قبل أو بعد الموعد الحقيقي بأشهر أو بسنوات في بعض الأحيان... فمثلاً في إطار الحبكة، زامنت بين حصار ميتيليني، في جزيرة ليسبوس، ووفاة سولا، بينما، وفقاً لبعض المصادر التي اطلعت عليها، كان ثمة فارق زمني بينهما، عدة أشهر أو قد تصل إلى سنة كاملة. لكن على أي حال، وقعت الأحداث في أوقات متقاربة للغاية. وينطبق الأمر نفسه على بعض الأحداث التاريخية التي قمت بسردها بتقنية العودة إلى الماضي "فلاش باك" فيما يتعلق بأوريليا وماريوس وكورنيليا وسولا ولاينوس.

كذلك، أدت قلة البيانات المتوفرة التي توضح كيف بدأت العلاقة بين قيصر وكورنيليا أو بينه ولاينوس، إلى وجود فجوات في سرد الأحداث، فقامت بملئها درامياً مستأنساً بالمصادر التاريخية الموثوقة وقد ذكرتها تحت بند "المصادر التاريخية".

ويذكر المؤرخون أن أوريليا، والدة قيصر، كانت من أبرز الشخصيات المؤثرة في حياة ابنها، وأن ماريوس أحد أعظم القادة الرومان على الإطلاق، وأن ابن صهره تأثر به بشكل كبير. كذلك تشير سجلات التاريخ أيضاً بشكل متكرر إلى أن زواج قيصر وكورنيليا كان موفقاً والعلاقة بينهما اتصفت بالعاطفة والود.

وعلى النحو ذاته، ذكرت مصادر ما يخص معارضته لسولا وصعوبة وخطورة ذلك عليه، وأن لاينوس كان مقرباً منه. ورغم أنه لا تتوفر معلومات حول نشأة صداقتهما إلا أنني عثرت على مادة غنية حول تطور علاقتهما فيما بعد.

أما فيما يتعلق بالفصول الخاصة بالمعارك، توصلت إلى توثيقات وفيرة حول معركة أكواي سكستيا التي هزم فيها ماريوس الأمبرونيين والتوتونيين، وقد رويتها بين طيات هذا العمل. لكن على العكس، لا يُعرف الكثير حول حصار ميتيليني، سوى أن كبار القادة الرومان كانا لوكولوس وثيرموس، وأنها كانت أول معركة مهمة يشارك فيها قيصر وأنه لا شك قام بجهد متميز للغاية فيها، ويؤكد ذلك حصوله على التاج المدني. وبالنظر إلى ما بين السطور في السجلات التاريخية يمكن استنتاج أن القوات الرومانية تظاهرت بالابتعاد عن الجزيرة لإجبار قوات ميتيليني على الخروج خارج الأسوار، لكن يصعب الإضافة على ذلك لعدم توافر الأدلة الموثوقة؛ إذ لا يُعرف على وجه الدقة أسماء زعماء ليسبوس، ولم أعر على معلومات حول سير المعركة وتفاصيل الجزء الأخير من حصار المدينة، لكنه انتهى بسيطرة الرومان عليها.

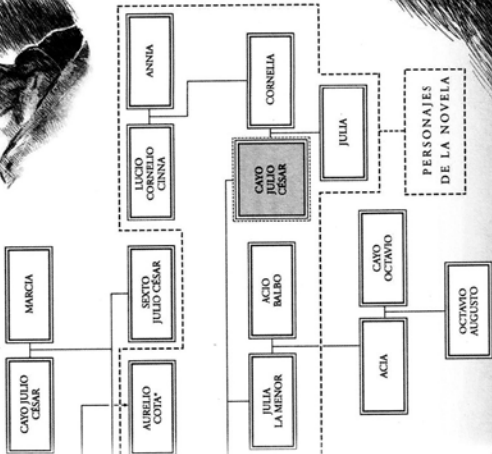
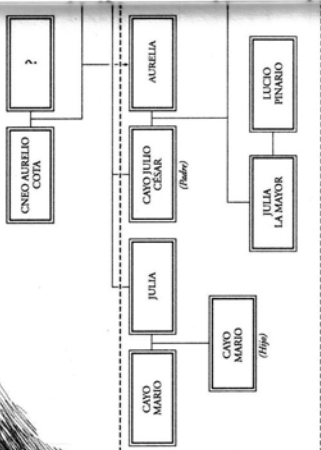
ثم اختتمت الرواية بالإشارة إلى بومبيوس بصفته زعيمًا بارزًا للفصيل المحافظ في روما، في الوقت الذي يواصل سورتوريوس، القائد الثاني في جيش ماريوس، تزعم التمرد الشعبي في هسبانيا. لا يزال للقصة بقية، وسوف تتطرق الأعمال القادمة للمواجهات بين بومبيوس وقيصر المهيبة بقدر كونها وحشية، وكيف اعتلى الاثنان عرش السلطة وكيف تحالفا أو اختلفا. فالوضع للوهلة الأولى يشير إلى عدم وجود أرضية مشتركة أو فرصة للتوافق بينهما. كل هذه الوقائع بالتأكيد تصلح لتكوين حبكة رائعة أخرى، نرويها قريبًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الخرائط




ÁRBOL GENEALÓGICO
DE LA FAMILIA DE
JULIO CÉSAR



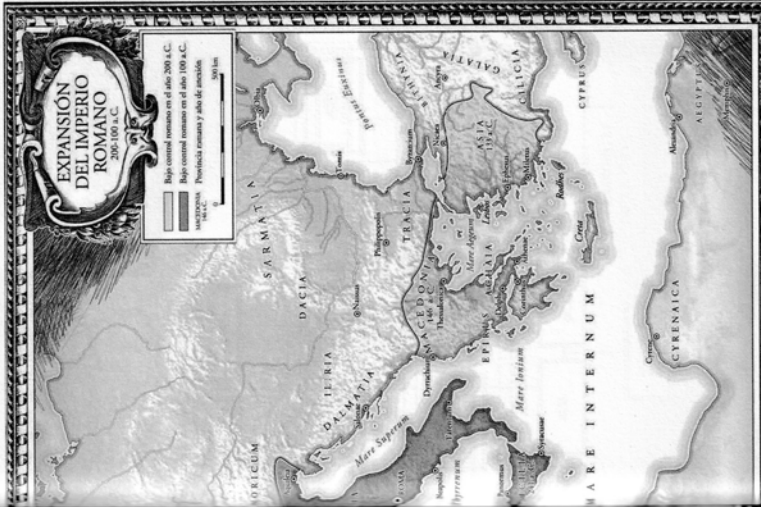
PERSONAJES
DE LA NOVELA

EXPANSIÓN DEL IMPERIO ROMANO

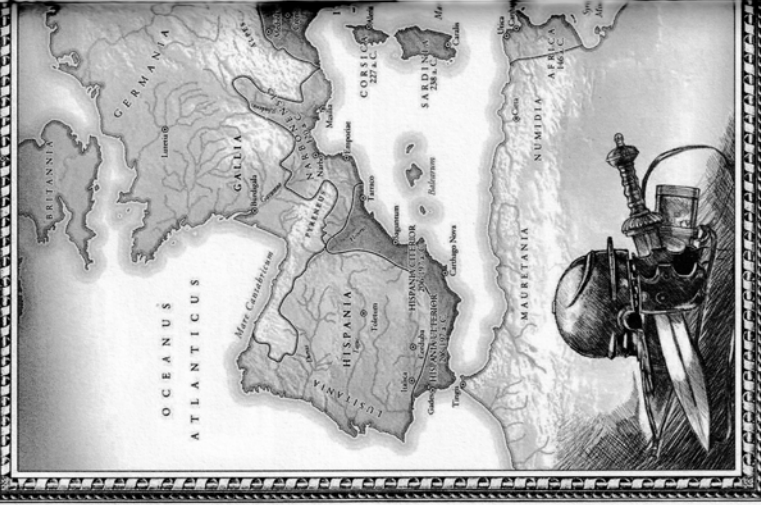
200-100 a.C.

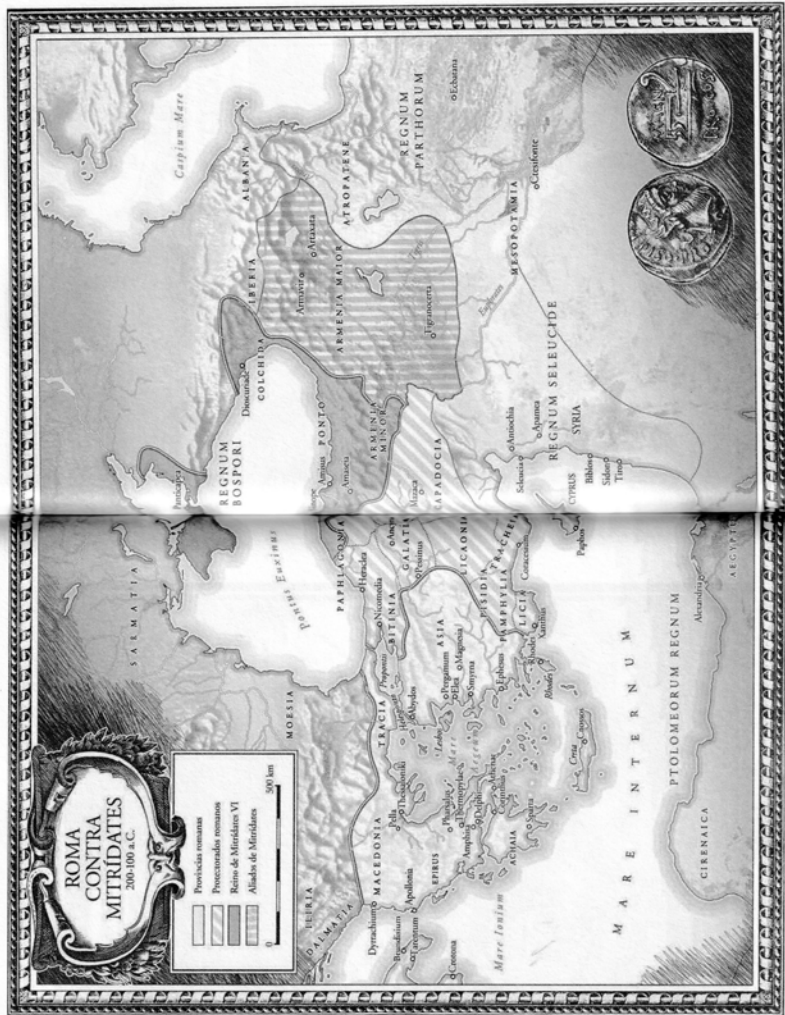
-  Bajo control romano en el año 200 a.C.
-  Bajo control romano en el año 100 a.C.
-  Imperio romano y año de conquista

0 100 km



OCEANUS ATLANTICUS





**ROMA CONTRA
MITRIDATES
200-100 a.C.**

-  Provincias romanas
-  Provincas romanas
-  Reinos de Mitridates VI
-  Aliados de Mitridates

500 km

MARE INTERNUM

PTOLOMEORUM REGNUM

CIRENAICA

Caspium Mare

REGNUM
BOSPORI

COLCHIDA

ALBANIA

ARMENIA

ARMENIA MAIOR

REGNUM
PARTHURUM

REGNUM
SELEUCIDE

REGNUM
SELEUCIDE

SYRIA

CYPRUS

PTOLOMEORUM REGNUM

CIRENAICA

AEGYPTUS



SALMATIA

MOESIA

BOEOTIA

PAPHLAGONIA

TRACIA

BITUNIA

GALATIA

LICIA

PHRYGIA

ARMENIA

SYRIA

CYPRUS

AEGYPTUS

LIBYIA

DALMATIA

MACEDONIA

TRACIA

BITUNIA

GALATIA

LICIA

PHRYGIA

ARMENIA

SYRIA

CYPRUS

AEGYPTUS

CIRENAICA

LIBYIA

DALMATIA

MACEDONIA

TRACIA

BITUNIA

GALATIA

LICIA

PHRYGIA

ARMENIA

SYRIA

CYPRUS

AEGYPTUS

CIRENAICA

LIBYIA

TRACIA

ISLA DE LESBOS
en el contexto de
Asia Menor

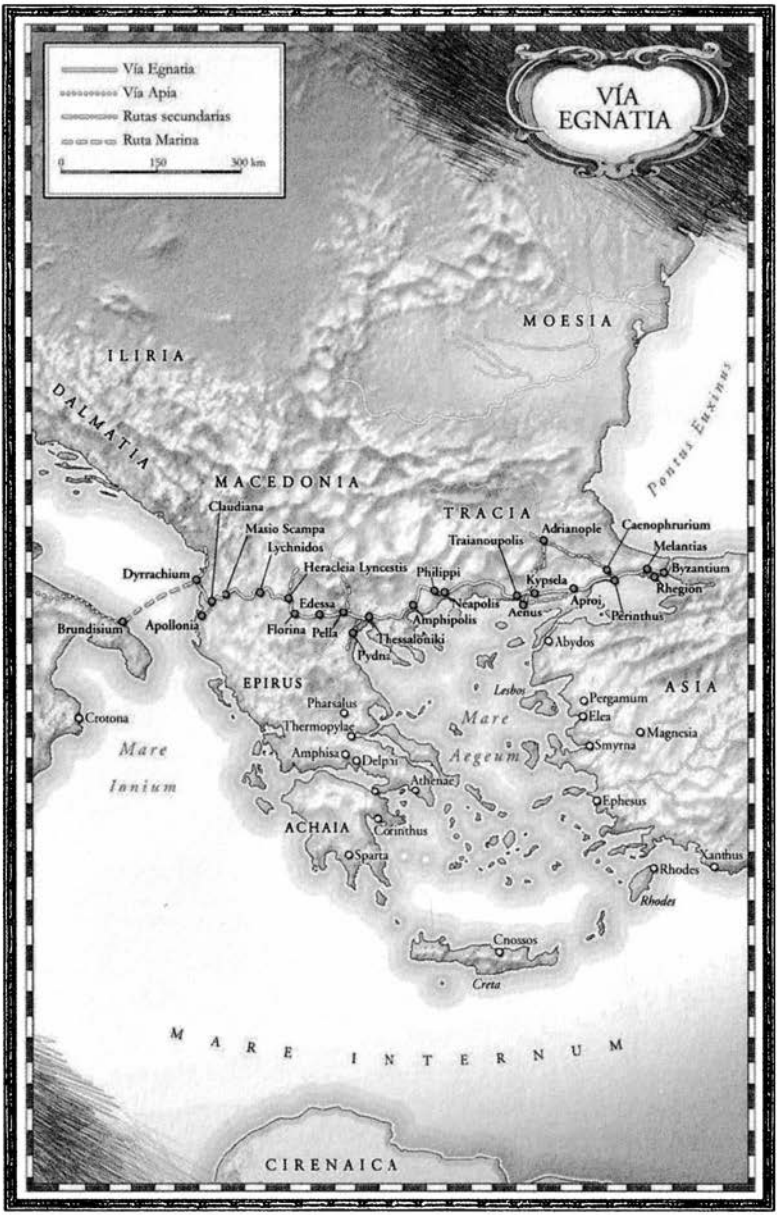
0 50 100 km



VIA EGNATIA

- Via Egnatia
- ⋯ Via Apia
- ⋯ Rutas secundarias
- ⋯ Ruta Marina

0 150 300 km



M A R E I N T E R N U M

CIRENAICA

FASE II
BATALLA DE AQUAE SEXTIAE
Contraataque romano para
proteger a los aguadores

CAMPAMENTO ROMANO



MARIO

Segundos
refuerzos
romanos

SERTORIO

Refuerzos
romanos

Aguadores
romanos

Rio Ar

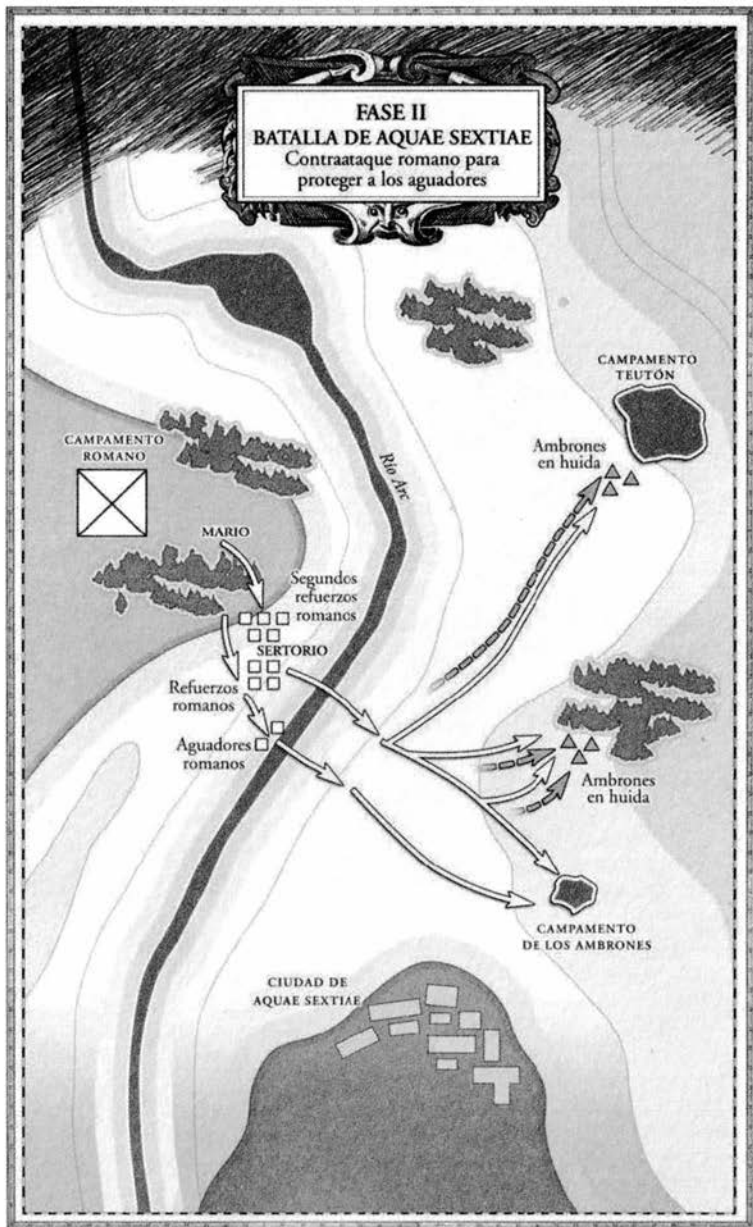
CAMPAMENTO
TEUTÓN

Ambrones
en huida

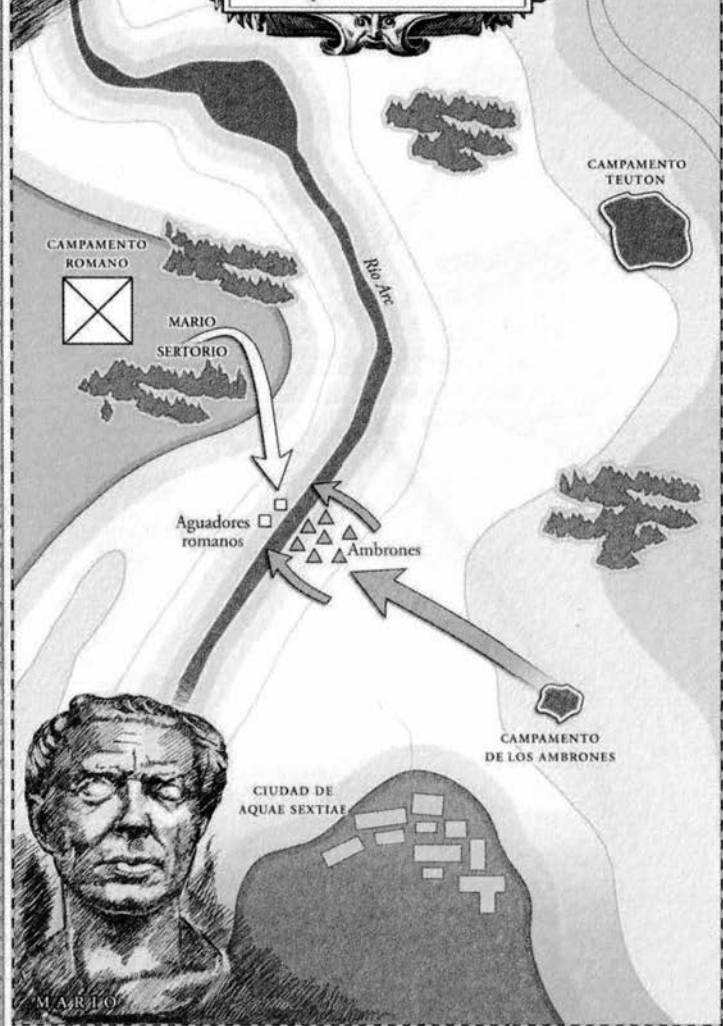
Ambrones
en huida

CAMPAMENTO
DE LOS AMBRONES

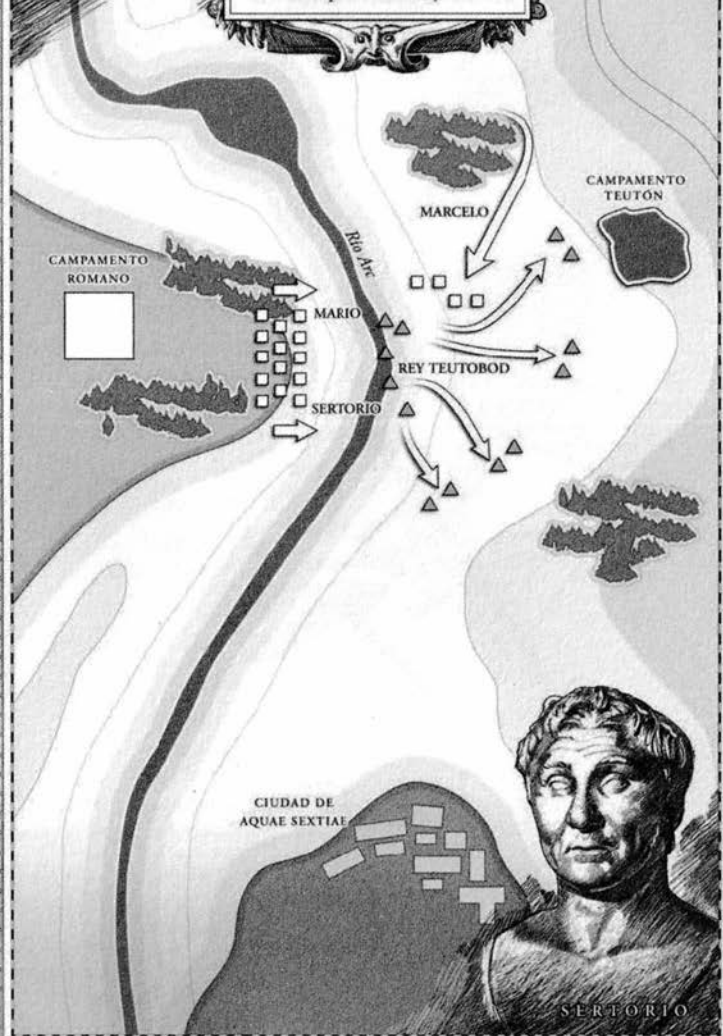
CIUDAD DE
AQUAE SEXTIAE



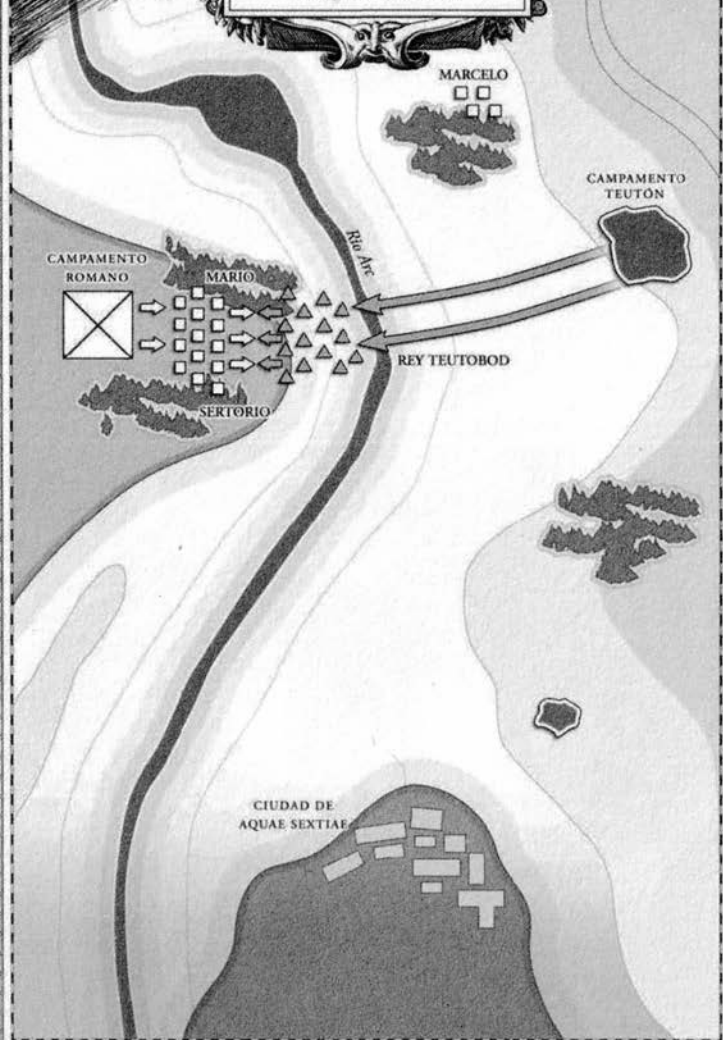
FASE I
BATALLA DE AQUAE SEXTIAE
Aguadores romanos atacados
por los ambrones



FASE IV
BATALLA DE AQUAE SEXTIAE
Contraataque de Mario y Marcelo



FASE III
BATALLA DE AQUAE SEXTIAE
Ataque de Teutobod



FASE II
BATALLA DE MITILENE
Ataque sorpresa de Julio César
a la retaguardia de las tropas de Mitilene
Isla de Lesbos

CAMPAMENTO ROMANO



Bosque

ANAXAGORAS

JULIO CÉSAR LABIENO



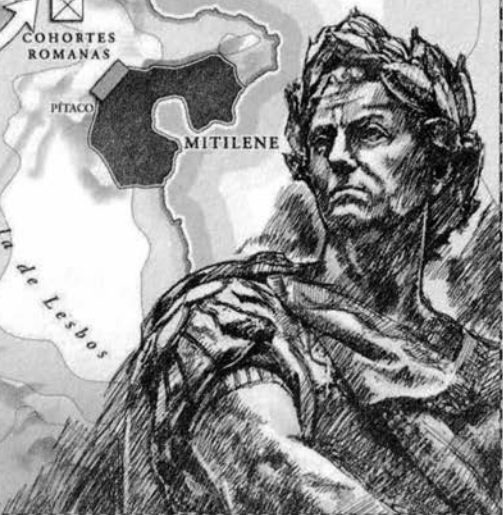
COHORTES ROMANAS

PTTACO

MITILENE

Isla de Lesbos

FLOTA ROMANA



FASE I
BATALLA DE MITILENE

Retirada de la flota romana
y salida de las tropas de Mitilene
Isla de Lesbos

CAMPAMENTO
ROMANO



LÚCULO

TERMO

FLOTA ROMANA

ANAXÁGORAS



Bosque

JULIO CÉSAR

LABIENO

COHORTES
ROMANAS

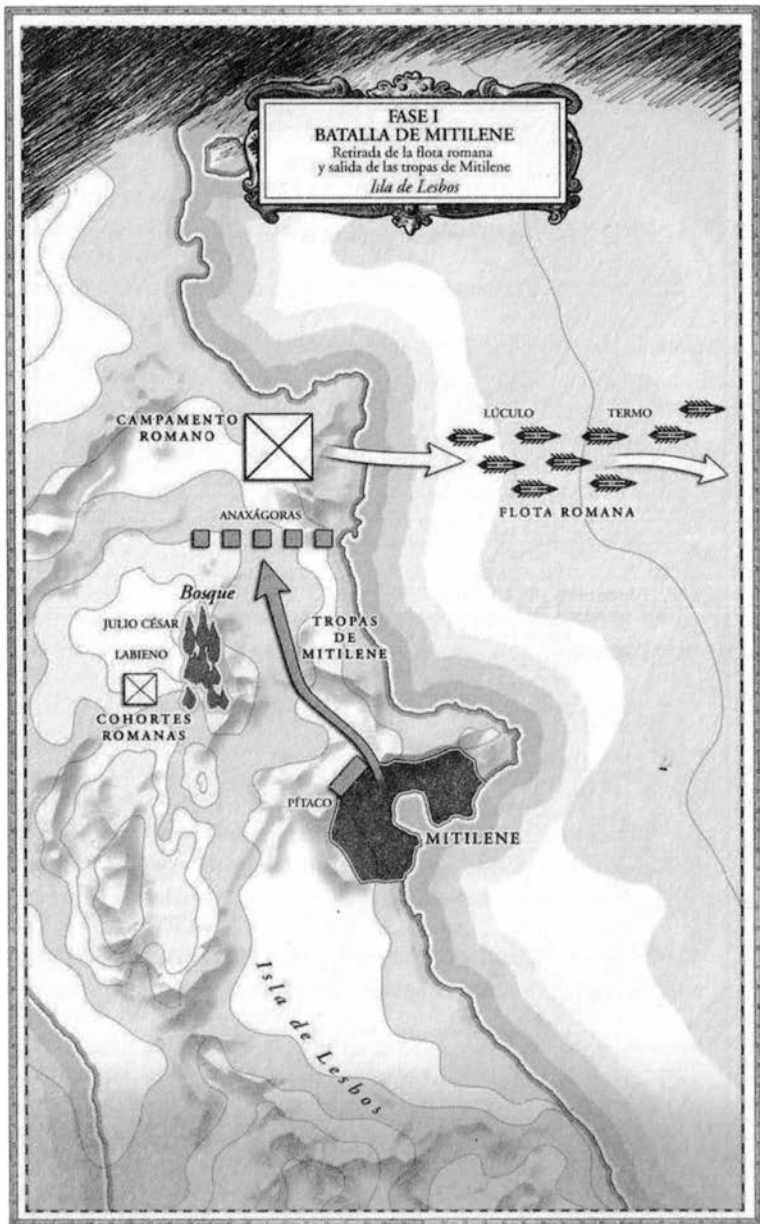


TROPAS
DE
MITILENE

PIACO

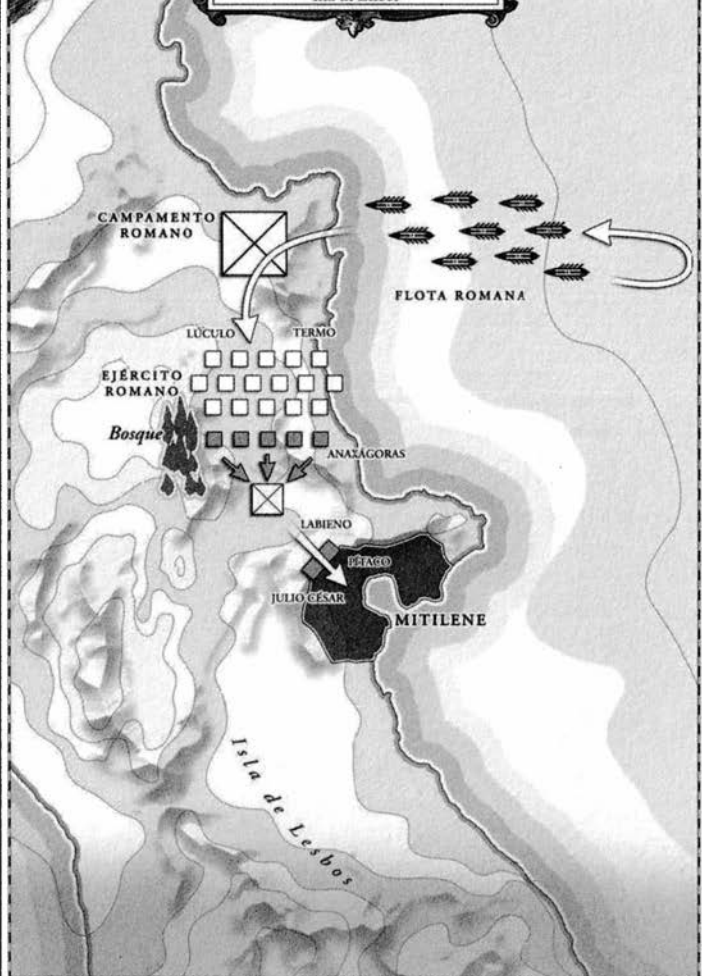
MITILENE

Isla de Lesbos



**FASE III
BATALLA DE MITILENE**

Regreso de la flota romana y ataque de César
a las puertas y murallas de Mitilene
Isla de Lesbos



- Adkins, L. y Adkins, R., El Imperio romano: historia, cultura y arte, Madrid, Edimat, 2005.
- Alfaro, C., El tejido en época romana, Madrid, Arco Libros, 1997.
- Álvarez, P., Somos romanos: descubre el romano que hay en ti, Madrid, EDAF, 2019.
- Álvarez Martínez, J. M., et al., Guía del Museo Nacional de Arte Romano, Madrid, Ministerio de Cultura, 2008.
- Angela, A., Un día en la antigua Roma. Vida cotidiana, secretos y curiosidades, Madrid, La Esfera de los Libros, 2009.
- __, The Reach of Rome: A Journey Through the Lands of the Ancient Empire Following a Coin, Nueva York, Rizzoli ex libris, 2013.
- Anglim, S.; Jestice, P. G.; Rice, R. S.; Rusch, S. M. y Serrati, J., Técnicas bélicas del mundo antiguo (3000 a.C.-500 d.C.). Equipamiento, técnicas y tácticas de combate, Madrid, LIBSA, 2007.
- Apiano, Historia de Roma I, Madrid, Gredos, 1980.
- Asimov, I., El Cercano Oriente, Madrid, Alianza Editorial, 2011.
- Barreiro Rubín, V., La guerra en el mundo antiguo, Madrid, Almena, 2004.
- Beard, M., Women and Power: A Manifesto, Londres, London Review of Books, 2017.
- __, SPQR: una historia de la antigua Roma, Barcelona, Crítica, 2016.
- Biesty, S., Roma vista por dentro, Barcelona, RBA, 2005.
- Boardman, J.; Griffin, J. y Murria, O., The Oxford History of The Roman World, Oxford, Oxford University Press, 2001.
- Bravo, G., Historia de la Roma antigua, Madrid, Alianza Editorial, 2001.
- Bussagli, M., Rome: Art and Architecture, China, Ullmann Publishing, 2007.
- Cabrero, J. y Cordente, F., Roma, el imperio que generó por igual genios y locos, Madrid, Edimat, 2008.
- Canfora, L., Julio César. Un dictador democrático, Barcelona, Ariel, 2007.
- Cantora, P. A., Shakespeare's Rome, Chicago, University of Chicago Press, 2017.
- Carreras Monfort, C., "Aprovisionamiento del soldado romano en campaña: la figura del praefectus vehiculorum", en Habis, n.º 35, 2004.
- Casson, L., Las bibliotecas del mundo antiguo, Barcelona, Edicions Bellaterra, 2001.
- Castelló, G., Archienemigos de Roma, Madrid, Book Sapiens, 2015.
- Castillo, E., "Ostia, el principal puerto de Roma", en Historia- National Geographic, n.º 107, 2012.

- Chic García, G., *El comercio y el Mediterráneo en la Antigüedad*, Madrid, Akal, 2009.
- Chrystal, P., *Women in Ancient Rome*, The Hill Stroud, Amberley, 2014.
- Cicerón, M. T., *Discursos I. Verrinas, Discurso contra Q. Cecilio*, primera sesión, segunda sesión (discursos I y II), Madrid, Biblioteca Básica Gredos, 2000.
- __, *Discursos II. Verrinas. Segunda sesión (discursos III y IV)*, Madrid, Biblioteca Básica Gredos, 2000.
- Cilliers, L. y Retief, F. P., *Poison, Poisoning and the Drug Trade in Ancient Rome*, <<http://akroterion.journals.ac.za/pub/article/view/166>>.
- Clarke, J. R., *Sexo en Roma. 100 a. C. - 250 d. C.*, Barcelona, Océano, 2003.
- Codoñer, C. (ed.), *Historia de la literatura latina*, Madrid, Cátedra, 1997.
- __, y Fernández Corte, C., *Roma y su imperio*, Madrid, Anaya, 2004.
- Comotti, G., *La música en la cultura griega y romana*, Madrid, Ediciones Turner, 1986.
- Connolly, P., *Tiberius Claudius Maximus: The Cavalry Man*, Oxford, Oxford University Press, 1988.
- __, *Tiberius Claudius Maximus: The Legionary*, Oxford, Oxford University Press, 1988.
- __, *Ancient Rome*, Oxford, Oxford University Press, 2001.
- Crawford, M., *The Roman Republic*, Cambridge, Massachusetts, Harvard University Press, 1993.
- Cruse, A., *Roman Medicine*, Stroud, The History Press, 2006.
- Dando-Collins, S., *Legiones de Roma: La historia definitiva de todas las legiones imperiales romanas*, Madrid, La Esfera de los Libros, 2012.
- De Damasco, N., *Vida de Augusto*, Madrid, Signifer Libros, 2006.
- Dupuy, R. E. y Dupuy, T. N., *The Harper Encyclopedia of Military History from 3500 B. C. to the Present*, Nueva York, Harper Collins Publishing, 1933.
- Eliade, M. y Couliano, I. P., *Diccionario de las religiones*, Barcelona, Paidós, 2007.
- Enrique, C. y Segarra, M., *La civilización romana. Cuadernos de Estudio*, 10. Serie Historia Universal, Madrid, Editorial Cincel y Editorial Kapelusz, 1979.
- Escarpa, A., *Historia de la ciencia y de la técnica: tecnología romana*, Madrid, Akal, 2000.
- Espinós, J.; Masià, P.; Sánchez, D. y Vilar, M., *Así vivían los romanos*, Madrid, Anaya, 2003.
- Espluga, X. y Miró i Vinaixa, M., *Vida religiosa en la antigua Roma*, Barcelona, Editorial UOC, 2003.
- Fernández Algaba, M., *Vivir en Emérita Augusta*, Madrid, La Esfera de los Libros, 2009.
- Fernández Vega, P. A., *La casa romana*, Madrid, Akal, 2003.

- Fox, R. L., *El mundo clásico: La epopeya de Grecia y Roma*, Barcelona, Crítica, 2007.
- Freisenbruch, A., *The First Ladies of Rome: The Women Behind the Caesars*, Londres, Vintage Books, 2011.
- García Campa, F., *Cayo Mario, el tercer fundador de Roma*, Granada, HRM ediciones, 2017.
- García Gual, C., *Historia, novela y tragedia*, Madrid, Alianza Editorial, 2006.
- García Sánchez, J., *Viajes por el antiguo imperio romano*, Madrid, Nowtilus, 2016.
- Gardner, J. F., *El pasado legendario. Mitos romanos*, Madrid, Akal, 2000.
- Gargantilla, P., *Breve historia de la medicina: Del chamán a la gripe A*, Madrid, Nowtilus, 2011.
- Garlan, Y., *La guerra en la antigüedad*, Madrid, Aldebarán, 2003.
- Gasset, C. (dir.), *El arte de comer en Roma: alimentos de hombres, manjares de dioses*, Mérida, Fundación de Estudios Romanos, 2004.
- Giavotto, C. (coord.), *Roma*, Barcelona, Electa Mondadori, 2006.
- Goldsworthy, A., *Grandes generales del ejército romano*, Barcelona, Ariel, 2003.
- __, *César, la biografía definitiva*. Madrid, La Esfera de los Libros, 2007.
- Golvin, J. C., *Ciudades del mundo antiguo*, Madrid, Despertaferro Ediciones, 2017.
- Gómez Pantoja, J., *Historia Antigua (Grecia y Roma)*, Barcelona, Ariel, 2003.
- González Serrano, P., *Roma, la ciudad del Tíber*, Madrid, Ediciones Evohé, 2015.
- González Tascón, I. (dir.), *Artifex: ingeniería romana en España*, Madrid, Ministerio de Cultura, 2002.
- Goodman, M., *The Roman World: 44 B. C. - A. D. 180*, Bristol, Routledge, 2009.
- Grant, M., *Atlas Akal de Historia Clásica del 1700 a. C. al 565 d. C.*, Madrid, Akal, 2009.
- Grimal, P., *La vida en la Roma antigua*, Barcelona, Paidós, 1993.
- __, *La civilización romana. Vida, costumbres, leyes, artes*, Barcelona, Paidós, 1999.
- Guillén, J., *Urbs Roma. Vida y costumbres de los romanos. I. La vida privada*, Salamanca, Ediciones Sígueme, 1994.
- __, *Urbs Roma. Vida y costumbres de los romanos. II. La vida pública*, Salamanca, Ediciones Sígueme, 1994.
- __, *Urbs Roma. Vida y costumbres de los romanos. III. Religión y ejército*, Salamanca, Ediciones Sígueme, 1994.
- Hacquard, G., *Guía de la Roma antigua*, Madrid, Centro de Lingüística Aplicada ATENEA, 2003.
- Hamey, L. A. y Hamey, J. A., *Los ingenieros romanos*, Madrid, Akal, 2002.
- Hemelrijk, E. A., *Matrona Docta: Educated Women in the Roman élite from Cornelia to Julia Domna*, Londres, Routledge, 1999.

- Herrero Llorente, V. J., *Diccionario de expresiones y frases latinas*, Madrid, Gredos, 1992.
- Holland, T., *Rubicon: The Triumph and Tragedy of The Roman Republic*, Londres, Abacus, 2003.
- Hubbard, B., *Venenos: la historia de las pociones, polvos y asesinos que los utilizaron*, Madrid, Librero, 2020.
- James, S., *Roma Antigua*, Madrid, Pearson Alhambra, 2004.
- Johnston, H. W., *The Private Life of the Romans*, <<http://www.forumromanum.org/life/johnston.html>>.
- Jones, P., *Veni, vidi, vici: hechos, personajes y curiosidades de la Antigua Roma*, Barcelona, Crítica, 2013.
- Knapp, R. C., *Invisible Romans: Prostitutes, Outlaws, Slaves, Gladiators: Ordinary Men and Women... the Romans that History Forgot*, Londres, Profile Books, 2011.
- Künzl, E., *Ancient Rome*, Berlín, Tessloff Publishing, 1998.
- Lacey, M. y Davidson, S., *Gladiators*, Londres, Usborne, 2006.
- Laes, C., *Children in the Roman Empire: Outsiders within*, Cambridge, Cambridge University Press, 2011.
- Lago, J. I., *Las campañas de Julio César: el triunfo de las Águilas*, Madrid, Almena Ediciones, 2014.
- Le Bohec, Y., *El ejército romano*, Barcelona, Ariel, 2004.
- Lewis, J. E. (ed.), *The Mammoth Book of Eyewitness. Ancient Rome: The History of the Rise and Fall of the Roman Empire in the words of Those Who Were There*, Nueva York, Carroll and Graf, 2006.
- Livio, T., *Historia de Roma desde su fundación*, Madrid, Gredos, 1993.
- Macaulay, D., *City: A Story of Roman Planning and Construction*, Boston, Houghton Mifflin Company, 1974.
- Macdonald, F., *100 Things You Should Know about Ancient Rome*, Thaxted, Miles Kelly Publishing, 2004.
- Maier, J., *The Eternal City: A History of Rome in Maps*, Chicago, The University of Chicago Press, 2020.
- Malissard, A., *Los romanos y el agua: La cultura del agua en la Roma antigua*, Barcelona, Herder, 2001.
- __, *Historia del mundo antiguo n.º 55. Roma: artesanado y comercio durante el Alto Imperio*, Madrid, Akal, 1990.
- __, *Historia Universal*. Edad Antigua, Roma, Barcelona, Vicens Vives, 2004.
- Manix, D. P., *Breve historia de los gladiadores*, Madrid, Nowtilus, 2004.
- Marco Simón, F., Pina Polo, F. y Remesal Rodríguez, J. (eds.), *Viajeros, peregrinos y aventureros en el mundo antiguo*, Barcelona, Publicacions i Edicions de la Universitat de Barcelona, 2010.
- Marqués, N. F., *Un año en la antigua Roma*, Barcelona, Espasa, 2018.

- Martín, R. F., *Los doce césares: Del mito a la realidad*, Madrid, Aldebarán, 1998.
- Mattesini, S., *Gladiators*, Nuoro, Italia, Archeos, 2009.
- Matyszak, P., *Los enemigos de Roma*, Madrid, OBERON Grupo Anaya, 2005.
- __, *Legionario: El manual del legionario romano (no oficial)*, Madrid, Akal, 2010.
- __, *La antigua Roma por cinco denarios al día*, Madrid, Akal, 2012.
- __, *24 hours in Aciént Rome: A Day in the Life of the People Who Lived There*, Londres, Michael O'Mara Books Limited, 2017.
- McKeown, J. C., *Gabinete de curiosidades romanas*, Barcelona, Crítica, 2011.
- Melani, Ch.; Fontanella, F. y Cecconi, G. A., *Atlas ilustrado de la Antigua Roma: De los orígenes a la caída del Imperio*, Madrid, Susaeta, 2005.
- Mena Segarra, C. E., *La civilización romana*, Madrid, Cincel Kapelusz, 1982.
- Montanelli, I., *Historia de Roma*, Barcelona, De Bolsillo, 2002. Navarro, F. (ed.), *Historia Universal. Atlas Histórico*, Madrid, Salvat-El País, 2005.
- Neira, L. (ed.), *Representaciones de mujeres en los mosaicos romanos y su impacto en el imaginario de estereotipos femeninos*, Madrid, Creaciones Vincent Gabrielle, 2011.
- Nieto, J., *Historia de Roma: Día a día en la Roma antigua*, Madrid, Libsa, 2006.
- Nogales Basarrate, T., *Espectáculos en Augusta Emérita*, Badajoz, Ministerio de Educación, Cultura y Deporte, Museo Romano de Mérida, 2000.
- Nossov, K., *Gladiadores: El espectáculo más sanguinario de Roma*, Madrid, Libsa, 2011.
- Novillo López, M. A., *Breve historia de Julio César*, Madrid, Nowtilus, 2011.
- Payne, R., *Ancient Rome*, Nueva York, Horizon, 2005.
- Pérez Mínguez, R., *Los trabajos y los días de un ciudadano romano*, Valencia, Diputación Provincial, 2008.
- Pisa Sánchez, J., *Breve historia de Hispania*, Madrid, Nowtilus, 2009.
- Polibio, *The Rise of the Roman Empire*, Londres, Penguin, 1979.
- Pomeroy, S., *Diosas, rameras, esposas y esclavas: Mujeres en la antigüedad clásica*, Madrid, Akal, 1999.
- Potter, D., *Emperors of Rome: The Story of Imperial Rome from Julius Caesar to the Last Emperor*, Londres, Quercus, 2011.
- Plutarco, L. M., *Vidas paralelas: Sertorio, Eumenes, Foción, Catón el Menor*, Buenos Aires, Espasa, Colección Austral, 1950.
- Quesada Sanz, F., *Armas de Grecia y Roma*, Madrid, La Esfera de los Libros, 2008.
- Ramos, J., *Eso no estaba en mi libro de historia de Roma*, Córdoba, Almuzara, 2017.
- Ribas, J. M. y Serrano-Vicente, M., *El derecho en Roma (2.ª ed., corregida y aumentada)*, Granada, Comares historia, 2012.
- Rostovtzeff, M., *Historia social y económica del mundo helenístico*, vol. I, Madrid, Espasa Calpe, 1967.

„Historia social y económica del mundo helenístico, vol. II, Madrid, Espasa Calpe, 1967.

Sampson, G. C., Rome's Great Eastern War: Lucullus, Pompey and the Conquest of the East, 74-62 B. C., Barnsley, Pen and Sword Books, 2021.

Santos Yanguas, N., Textos para la historia antigua de Roma, Madrid, Cátedra, 1980.

Scarre, C., The Penguin Historical Atlas of Ancient Rome, Londres, Penguin, 1995.

Segura Murguía, S., El teatro en Grecia y Roma, Bilbao, Zidor Consulting, 2001.

Smith, W., A Dictionary of Greek and Roman Antiquities, Londres, John Murray, 1875.

Suetonio, La vida de los doce Césares, Madrid, Austral, 2007.

Syme, R., La revolución romana, Barcelona, Crítica, 2017.

Toner, J., Sesenta millones de romanos, Barcelona, Crítica, 2012.

Valentí Fiol, E., Sintaxis latina, Barcelona, Bosch, 1984.

Veyne, P., Sexo y poder en Roma, Barcelona, Paidós Orígenes, 2010.

VV. AA., "Historia de la prostitución" en Correas, S. (dir.), Memoria. La Historia de cerca, IX, 2006.

VV. AA., Historia Augusta, Madrid, Akal, 1989.

VV. AA., Historia año por año: La guía visual definitiva de los hechos históricos que han conformado el mundo, Madrid, Akal, 2012.

VV. AA., Historia de los grandes imperios: El desarrollo de las civilizaciones de la antigüedad, Madrid, Libsa, 2012.

VV.AA., La legión Romana (I), Madrid, Despertaferro ediciones, 2013.

Watts, E. J., República mortal, Barcelona, Galaxia Gutenberg, 2019.

Wilkes, J., El ejército romano, Madrid, Akal, 2000.

Wisdom, S. y McBride, A., Los gladiadores, Madrid, RBA/Osprey Publishing, 2009.

كتبة
t.me/soramnqraa

روما هي أنا

عندما بدأت محاكمة أحد أعضاء مجلس الشيوخ،
الذراع اليمنى للديكتاتور سولا، بتهمة الاغتصاب والقتل
والفساد، لم يتخيل أحدٌ في روما أنه سيتم إدانته بوحدة
من جرائمه العديدة.

لم يقتصر الأمر على قيام المتهم بتوكيل أفضل
المحامين، ورشوة القضاة فحسب، بل قام أيضاً بتوظيف
قتلة يعملون تحت تصرفه وعلى استعداد لتصفية أيِّ
شخص يجرؤ على الوقوف ضده. في الواقع، لا يوجد محامٍ
لديه الشجاعة لعرض القضية على النيابة العامة، إلى أن
قبل التحدي شاب عديم الخبرة اسمه يوليوس قيصر.

يتحدث سانتياغو بوستيغيو عن فترة غير معروفة
تقريباً في حياة أحد أكثر الشخصيات التاريخية التي كانت
مدار دراسة وبحث وتحقيق. رواية مثيرة نتعرف فيها على
القيصر الشاب، وقصة حبه لزوجته كورنيليا، وبداياته
كمحامٍ، وحلمه -الذي لم يكن أكثر من مجرد تطلعاتٍ شابة
مستحيلة- لبناء روما أكثر عدلاً وإنصافاً.



سنتياغو
بوستيغيو

telegram @soramnqraa

ISBN 978-9921-712-85-8



9 789921 712858



دار الخان للنشر والتوزيع